



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



اشرافيية  
عليه صلوات الله  
عليه وآله

WWW. **Ghaemiyeh** .com  
WWW. **Ghaemiyeh** .org  
WWW. **Ghaemiyeh** .net  
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

سلسلة الرسائل الجامعية - تونس (٢٨)  
وحدة الدراسات العقائدية

# فكر الإمام علي بن أبي طالب

كما يبدو في نهج البلاغة

تأليف

الدكتور جميل منصور العريضي

إصدار

مركز الدراسات والبحوث  
الإسلامية

بمقر جامعة الزيتونة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فكر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

كاتب:

السيد نبيل الحسنى الكربلائي

نشرت في الطباعة:

مؤسسة علوم نهج البلاغة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

5	الفهرس
16	فكر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة
16	هوية الكتاب
17	اشارة
21	مقدمة المؤسسة
23	المقدمة
35	الباب الأول: نهج البلاغة
35	اشارة
41	توثيق نهج البلاغة
124	القسم الثاني
138	منهج الشريف الرضي في تصنيفه
144	قيمة نهج البلاغة
150	الباب الثاني: فكر على بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة
150	اشارة
152	الفصل الأول: مفهوم الإمامة ي فكر علي عليه السلام
152	1 - سياسة الدولة ي الإسلام:
153	2 - تكوين الدولة في الإسلام:
162	3 - السياسة الدينية في فكر علي عليه السلام ومقارنتها بالسياسة الإسلامية:
164	4 - السلطة والدين في فكر الإمام علي عليه السلام:
171	مفهوم الإمامة:
176	لقب خلفية رسول الله:
190	شروط استحقاق الإمامة في فكر الإمام علي عليه السلام:
201	طريق انعقاد الإمامة في فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة:

213	.....
213	..... إشارة
213	..... 1 - واجب الحاكم ي نظر الإمام علي عليه السلام:
216	..... 2 - الاستقلالية السياسية في فكر الإمام علي عليه السلام:
219	..... يمكن تقسيم فكر علي عليه السلام في ماجريات عصره السياسية إلى مرحلتين
220	..... المرحلة الأولى:
220	..... 1 - مؤتمر سقيفة بني ساعدة في فكر الإمام علي عليه السلام:
222	..... 2 - موقف علي عليه السلام من حكم أبي بكر:
229	..... 3 - موقف الإمام علي عليه السلام من خلافة عمر:
240	..... 4 - الشورى في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة:
245	..... 5 - موقف الإمام علي عليه السلام من حكومة عثمان:
257	..... المرحلة الثانية: سياسة الإمام علي عليه السلام أثناء خلافته
257	..... - البيعة لعلي عليه السلام بالخلافة:
263	..... أولاً: الناكثون - أي أصحاب الجمل:
276	..... ثانياً: القاسطون - أي بنو أمية:
292	..... ثالثاً: المارقون، أي الخوارج:
293	..... 1 - موقف علي عليه السلام من قضية رفع المصاحف:
296	..... 2 - اختيار الحكّمين وموقف علي عليه السلام من ذلك:
297	..... 3 - شروط التحكيم وما تطوي عليه من أبعاد:
299	..... خلاف علي عليه السلام مع الخوارج وما ولده من جدل:
300	..... 3 - موافقة علي عليه السلام على شرط الهدنة التي نصت الصحيفة عليها:
302	..... موقف الأشعث بن قيس من عودة الخوارج:
303	..... المواجهة الدائمة وأسبابها:
304	..... موقف علي عليه السلام من الخوارج بعد فراغه من محاباتهم:
305	..... موقف الإمام علي عليه السلام من مناوئيه عامة:

305	رابعاً إرادة قريش كما تبدو في فكر علي عليه السلام:
316	الفصل الثالث: مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية ..
316	أشارة ..
316	أ - الدولة:
321	ب - الحكومة:
324	ج - السياسة كما تبدو في نهج البلاغة:
330	مؤسسات الدولة في فكرالإمام علي عليه السلام ..
330	أشارة ..
330	أولاً: الخلافة :
331	ثانياً: الوالي:
336	ثالثاً: جهاز الدولة الإداري، كما يبدو في النهج:
336	أشارة ..
336	1 - الوزارة:
338	2 - الجيش:
338	أشارة ..
341	1 - علاقة الخليفة بأمرء الجيش:
341	2 - علاقة أمرء الجيوش بالجنود:
343	3 - الطلائع والعيون:
344	4 - الصفات التي ينبغي للجندي ان يتحلّى بها في نظر الإمام علي عليه السلام:
347	3 - القضاء:
347	أشارة ..
349	أولاً - الشروط الأخلاقية:
350	ثانياً - الشروط الثقافية:
351	ثالثاً - الشروط النفسية:
353	4 - بيت المال:

353	.....	اشارة
354	.....	1 - الزكاة:
358	.....	2 - الجزية:
358	.....	3 - الخراج والعشر:
361	.....	4 - التجارة والصناعة:
363	.....	سياسة التصرف في موارد الدولة المالية كما تبدو في النهج:
368	.....	5 - العمال:
371	.....	6 - الكتاب:
374	.....	7 - الرقابة الإدارية:
376	.....	سياسة الإمام علي عليه السلام بين المثال والواقع:
378	.....	الباب الثالث: فكر علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة
378	.....	اشارة
380	.....	الفصل الأول: المجتمع وحالته ي فكر علي عليه السلام
380	.....	اشارة
383	.....	ضرورة الحكومة في فكر علي عليه السلام
384	.....	الأولى - بالنسبة إلى الحكومة:
387	.....	الثانية: بالنسبة للمجتمع:
390	.....	الشرائح التي تكون منها مجتمع الكوفة:
391	.....	1 - الأرستقراطية العربية.
392	.....	2 - الموالي:
395	.....	3 - العرب البدو والذين يعتمدون على الولاء القبلي:
395	.....	4 - الفرس والنبط والسرمان وغيرهم ممن ظلوا متمسكين بدياناتهم:
397	.....	5 - العرب غير المسلمين من نصارى الحيرة ونجران وتغلب:
399	.....	مجتمع الكوفة في فكر علي عليه السلام:
400	.....	1 - موقف علي عليه السلام من العصية القبلية:



- 404 ..... 2 - موقف علي عليه السلام من الموالي ومن أهل السواد:
- 410 ..... 3 - موقف الإمام علي عليه السلام من العرب البدو:
- 413 ..... 4- موقف الإمام علي عليه السلام من العرب غير المسلمين من نصارى تغلب ونجران:
- 417 ..... حالة المجتمع كما تبدو في فكر علي عليه السلام.
- 419 ..... 1- استفحال الجهل والاستبداد بالرأي: ..
- 419 ..... 2 - شيوع الفوضى وانعدام رابطة التعاون: ..
- 420 ..... 3 - تقهقر المثل وانقلاب أوضاعها: ..
- 421 ..... 4 - غلبة النفاق و بروز ظاهرة العصيان وانعدام الرحمة: ..
- 422 ..... 5 - انعدام روح التكافل الاجتماعي: ..
- 426 ..... الفصل الثاني: القيم الخلقية كما تبدو في فكر علي عليه السلام
- 426 ..... اشارة ..
- 428 ..... 1-العلاقة بين الأخلاق والدين في فكر علي عليه السلام: ..
- 431 ..... 2- الإلزام الأخلاقي كما يبدو في فكر علي عليه السلام: ..
- 433 ..... 3- منابع القيم الخلقية في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة: ..
- 436 ..... أ- الوراثة والبيئة: ..
- 441 ..... ب - ترويض النفس: ..
- 444 ..... ج- القدوة الحسنة: ..
- 446 ..... جماع القيم الخلقية في فكر الإمام علي عليه السلام
- 448 ..... 1- العدل: ..
- 458 ..... 2- الحق: ..
- 461 ..... أ- حق الله: ..
- 463 ..... ب- حق النفس: ..
- 464 ..... ج- حق الوالد وحق لولد: ..
- 466 ..... د- حق الصديق: ..
- 468 ..... ه- حق المجتمع: ..

469	..... و- حق العلم:
470	..... حق الأمة وحق الوالي
471	..... أولاً - حق الأمة على الوالي:
472	..... ثانياً - حق الوالي أو الحكومة على الأمة:
472	..... ثالثاً - التقوى:
478	..... الفصل الثالث: التربية ي فكر علي بن أبي طالب عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة
478	..... التربية ومراميها الأساسية
480	..... العنصر الأول: وينصب على تنمية شخصية الفرد
481	..... الأول - التربية البدنية:
484	..... الثاني - تربية عقلية:
488	..... الثالث - تربية علمية:
497	..... الرابع - تربية إنسانية:
511	..... العنصر الثاني - الأساليب التربوية التي كما تبدو في فكر علي عليه السلام:
511	..... القسم الأول: أساليب تربوية تختص بالمعاملة:
514	..... القسم الثاني - أساليب تربوية تختص بالعملية التعليمية:
520	..... الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة
520	..... إشارة
524	..... الفصل الأول: القضايا الكلامية المتعلقة بالعتيدة الخالق - الملائكة - الرسل - الإنسان
524	..... إشارة
525	..... أولاً - الخالق
525	..... إشارة
526	..... صفات الخالق في فكر علي عليه السلام:
526	..... التوحيد كما يمكن إدراكه من فكر علي عليه السلام:
526	..... إشارة
527	..... الأول توحيد الذات:

528	..... الثاني - توحيد الصفات:
529	..... الثالث توحيد الأفعال:
529	..... اشارة
531	..... نفي الصفات عن الخالق جل شأنه:
535	..... ثانياً- الملائكة:
538	..... ثالثاً - الرسل والأنبياء
538	..... اشارة
538	..... الأولى: أهمية الرسول والمهام المناطة بهم:
539	..... الثاني: تنزيه الأنبياء والرسل:
540	..... الثالث - علاقة الزهد بالنبوة:
542	..... الرابع - المعجزات وأهميتها بالنسبة للرسول:
543	..... رابعاً - الإنسان
543	..... اشارة
544	..... أ- خلق الإنسان
545	..... ب - أصل العصبية:
546	..... ج - إهباط آدم إلى الأرض:
547	..... د- مميزات الإنسان:
549	..... هـ- المصير:
552	..... الفصل الثاني: التأمل وتداعي الأفكار، والغيبيات، كما تبدو في فكر علي عليه السلام
552	..... اشارة
553	..... أ- الأوصاف الطبيعية والغاية منها في فكر علي عليه السلام
553	..... اشارة
555	..... أولاً - أسلوب الترغيب (عبادة التجار):
558	..... ثانياً - أسلوب الترهيب (عبادة العبيد):
561	..... ثالثاً - أسلوب الإقناع الذاتي (عبادة الأحرار):

563	ب - تداعي الأفكار في تفسير آيات القرآن الكريم .....
569	ج - القضايا الغيبية في فكر علي عليه السلام .....
569	اشارة .....
571	أولاً - تأليه علي عليه السلام: .....
572	ثانياً: تكرار دفع تهمة الكذب عن نفسه: .....
573	ثالثاً - معنى الغيب في فكر علي عليه السلام: .....
574	د - المهدي المنتظر عليه السلام كما يبدو في فكر علي عليه السلام .....
580	الفصل الثالث: نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما تبدو في نهج البلاغة .....
580	اشارة .....
581	1 - الدنيا في فكر علي عليه السلام .....
581	اشارة .....
582	الأولى - الدنيا المكانية: .....
585	الثانية - الدنيا الزمانية: .....
588	الثالثة - الدنيا وصف: .....
591	2 - فكر علي عليه السلام بين التصوف والزهد: .....
608	3- الأسلوب الحكمي كما يبدو في فكر علي عليه السلام .....
608	اشارة .....
612	الأولى - الحكمة السياسية: .....
614	الثانية - الحكمة الاجتماعية: .....
616	الثالثة - الحكمة الأخلاقية: .....
620	الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة .....
620	اشارة .....
622	الفصل الأول: الأنواع الأدبية في النهج وخصائصها التعبيرية .....
622	اشارة .....
622	أ - الخطابة .....

623	أ- العناصر التي تتكون منها الخطبة عند علي عليه السلام:
623	اشارة
623	- الأول: المقدمة:
626	- الثاني: الموضوع:
629	- الثالث: الخاتمة:
633	ب - أنواع الخطب التي وردت في نهج البلاغة:
634	1 - الخطب والجهادية:
634	اشارة
635	- الخصائص الفكرية لخطب علي عليه السلام الجهادية:
642	2 - الخطب التأميلية:
644	3 - الخطب الوعظية:
647	4 - الجدل الخطابي:
649	5 - الخطب الدينية:
650	1 - الوحدة العضوية:
650	2 - التنوع في أساليب الخطاب:
653	2 - العهود
657	عهد علي بن أبي طالب عليه السلام
657	عهد طاهر بن الحسين
661	3 - الرسائل:
661	اشارة
662	- الرسائل العامة:
663	- الثاني: الرسائل الخاصة:
671	4 - الوصايا
675	5 - الحكمة
680	الفصل الثاني: أبرز خصائص النهج الأسلوبية

680	.....	اشارة
680	.....	أ - الجملة وخصائصها التركيبية
680	.....	اشارة
684	.....	1- خصائص التقسيم في النهج:
687	.....	2 - خصائص الاعتراض في النهج:
692	.....	3 - خصائص الفصل والوصل في أساليب نهج البلاغة:
696	.....	4 - الإحكام في نوع الأساليب:
703	.....	ب - الأحوال والجمل الحالية وخصائصها في نصوص النهج
705	.....	ج- أسلوب الشرط وخصائصه في النهج
705	.....	اشارة
707	.....	1 - التقابل:
708	.....	2 - توظيف أساليب الشرط في النصوص
711	.....	د - التضمن في النهج وخصائصه
714	.....	- أغراض التضمن في مآثرات علي عليه السلام:
720	.....	الفصل الثالث: أبرز الخصائص الفنية في نهج البلاغة
720	.....	اشارة
722	.....	1-أهم المميزات الخاصة بالصورة في النهج
724	.....	1- انبعث الصورة في النهج وتأثيرها:
731	.....	2-خصائص الصورة في نهج البلاغة:
741	.....	2- أهم المميزات الخاصة بالموسيقى في نهج البلاغة
750	.....	ب - الثراء في قوافي الجمل المسجوعة:
750	.....	ج- ورود الجمل المسجوعة بمعان متنوعة في سياقها الفكري:
762	.....	الخاتمة
768	.....	المصادر والمراجع
802	.....	المحتويات



## فكر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

### هوية الكتاب

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية 3005 لسنة 2018 مصدر الفهرسة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda : رقم تصنيف : LC BP38.09.H3  
U73 2018

المؤلف الشخصي : العريض، جليل منصور - مؤلف.

العنوان : فكر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة / بيان المسؤولية : تأليف الدكتور جليل منصور العريض ؛ تقديم السيد نبيل الحسني.

بيانات الطبع : الطبعة الأولى.

بيانات النشر : كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة، 2018 / 1439 للهجرة.

الوصف المادي : 784 صفحة ؛ 24 سم.

سلسلة النشر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 478).

سلسلة النشر : (مؤسسة علوم نهج البلاغة، 148 سلسلة الرسائل الجامعية - تونس ؛ 28).

تبصرة ببلوغرافية : يتضمن ارجاعات ببلوغرافية. يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات 751 - 782

موضوع شخصي : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359 - 406 للهجرة - نهج البلاغة.

موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 للهجرة - احاديث.

موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 للهجرة - نظريته في السياسة.

موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 للهجرة - نظريته في علم الاجتماع.

موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 للهجرة - نظريته في علم الكلام.

موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 للهجرة - بلاغته.

مصطلح موضوعي : البلاغة العربية.

مؤلف اضافي : الحسني، نبيل قدوري، - 1965 -- مقدم.

اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). مؤسسة علوم نهج البلاغة - جهة مصدرة.

عنوان اضافي : نهج البلاغة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية



ص: 1

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِكْرُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

كَمَا يَبْدُو فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

ص: 2

سلسلة الرسائل الجامعية - تونس وحدة الدراسات العقديّة (28)

فِكْرُ الإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَمَا يَبْدُو فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

تأليفُ الدكتور جليل منصور العريض

إصدارُ مؤسسة علوم نهج البلاغة في العتبة الحسينية المقدسة

ص: 3

جميع الحقوق محفوظة للعتبة الحسينية المقدسة الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام مؤسسة علوم نهج البلاغة هاتف: 07728243600 - 07815016633 الموقع:

www.inahj.org Email: Inahj.org@gmail.com

تنويه:

إن الأفكار والآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

ص: 4

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاهأ، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فلم يزل كلام أمير المؤمنين عليه السلام منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين ولم يتقصر الأمر على علوم اللغة العربية أو العلوم الإنسانية، بل وغيرها من العلوم التي تيسر بها منظومة الحياة وإن تعددت المعطيات الفكرية، إلا أن التأصيل مثلما يجري في القرآن الكريم الذي ما فرط الله فيه من شيء كما جاء في قوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)، كذا نجد يجري مجراه في قوله تعالى: (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)، غاية ما في الأمر أن أهل الاختصاصات في العلوم كافة حينما يوفقون للنظر في نصوص الثقلين يجدون ما تخصصوا فيه حاضراً وشاهداً فيهما، أي في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية عليهم السلام فيسارعون وقد أخذهم الشوق لإرشاد العقول إلى تلك السنن والقوانين والقواعد والمفاهيم والدلالات في القرآن الكريم والعترة النبوية.

من هنا ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تتناول تلك الدراسات الجامعية

ص: 5

المختصة بعلوم نهج البلاغة وبسيرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وفكره ضمن سلسلة علمية وفكرية موسومة ب(سلسلة الرسائل الجامعية) التي يتم عبرها طباعة هذه الرسائل وإصدارها ونشرها في داخل العراق وخارجه، بغية إيصال هذه العلوم الأكاديمية الى الباحثين والدارسين وإعانتهم على تبين هذا العطاء الفكري والانتهاج من علوم أمير المؤمنين علي عليهم السلام والسير على هديه وتقديم رؤى علمية جديدة تساهم في إثراء المعرفة وحقولها المتعددة.

وما هذه الدراسة الجامعية التي بين أيدينا لنيل شهادة الدكتوراه إلا واحدة من تلك الدراسات التي وفق صاحبها للغوص في بحر علم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقد أذن له بالدخول إلى مدينة علم النبوة والتزود منها بغية بيان أثر تلك النصوص العلوية في الإثراء المعرفي والتأصيل العلمي فبزغ مكنزاً علمياً اتخذ من فكر أمير المؤمنين عليه السلام منبعاً لما اشتمل عليه من معارف تحاكي المجتمع لتكون له بلسماً، وتقرأ التاريخ لتكون عليه شاهداً؛ إذ نهل الباحث من سطور كتاب نهج البلاغة محطات فكرية تعد من أساسيات بناء المجتمع في كل زمان ليقرأ الفكر السياسي بنضجه اليانع، والفكر الاقتصادي بسمته النافع، والفكر الأخلاقي بصوته الدافق، فبرزت آليات ومعالجات إذا ما اتبعت كان النجاح حليف متبعها كيف لا ومصدرها سيد البلغاء وإمام المتقين.

فجزى الله الباحث خير جزاء المحسنين والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسيني الكربلائي رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (ت 40 هـ) من أبرز أعلام التاريخ الإسلامي، كلفه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالكثير من جلائل المهمات المتعلقة بروح الدعوة، فأثبت جدارته وصدق إيمانه، وسعة اطلاعه، كما عوّّل أبو بكر وعمر وعثمان على الأخذ بمشورته في الكثير من القضايا السياسية، واعتمدوا على فتاويه الفقهية، بالإضافة إلى توليه الخلافة لفترة دامت خمس سنوات (35 - 40 هـ / 656 - 661 م) كان خلالها سيفاً مسلطاً على الفتنة الكبرى التي أودت بحياة عثمان بن عفان، ومن ثم قسّمت المسلمين إلى فرق متناحرة، فكانت حياته ضحية لذلك التناحر، وهو إلى جانب كل ذلك منبع النحلة الشيعية، والبطولات الأسطورية، والمثال المحتذى في الفصاحة والبلاغة.

ولقد تناولت كثير من الدراسات شخصه بالبحث والدراسة، إلا أنها لم تتمكن من الإلمام بكل جوانبه، ولا سيما الجوانب الفكرية التي تضمنها كتاب (نهج البلاغة) الجامع لما أثاره عليه السلام من خطب ورسائل وعهود وحكم، وذلك ما حدا بي إلى اختيار (فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة)

ص: 7

فمن المعلوم أن هدف الشريف الرضي (ت 406 هـ) من جمعه لنهج البلاغة تبيان فصاحة الإمام علي عليه السلام ومقدرته البلاغية، فقد وصفه في مقدمته بأنه (مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها).

وبسبب ما حواه النهج من نصوص صرّح الإمام عليه السلام فيها بأحقيته في خلافة المسلمين دون غيره من الصحابة، وما تضمنته نصوص أخرى من وصف لأمر مستقبلية ومن تجسيد رائع وبراعة أسلوبية في وصف بعض الحشرات والطيور والحيوانات، فقد شك بعض الدارسين في نسبته إلى الإمام علي عليه السلام واتهموا الشريف الرضي بتلفيقه، كما قال بعضهم إن الكتاب من وضع أخيه الشريف المرتضى، وزعم آخرون أنه من صنع بعض علماء الشيعة فتصدى دارسون آخرون لدفع التهم عن (النهج) بإرجاع ما ورد فيه من نصوص إلى أصولها بتصحيح نسبتها إلى علي عليه السلام من ناحيتي المتن والإسناد، بإثبات سلسلة الرواة، والمصادر التي استخرجت تلك النصوص منها، وتوضيح ما طرأ على رواياتها من تصحيف وتحريف بسبب تقادم العهد بين قائلها وناسخها، وتعدد رواياتها مما لا يقدح في نسبة جلّها إن لم يكن كلّها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

فبالإضافة إلى ما يمكن الاطلاع عليه من لمحات توثيقية من جامع

(النهج) لنصوص قليلة فيه، فقد بذل ابن أبي الحديد (ت 656 هـ) جهداً كبيراً في توثيق الكثير منها كما بذل ميثم البحراني (ت 679 هـ) جهداً لا بأس به في ذلك الصدد، كما تصدى الكثير من الدارسين المحدثين لعملية التوثيق تلك، منهم عبد الحسين الأميني في كتابه (الغدِير) وامتياز عليخان العرشي في كتابه (استناد نهج البلاغة) والهادي كاشف الغطاء في القسم الثاني من كتابه (مستدرک نهج



البلاغة)، وعبد الله نعمة في كتابه (مصادر نهج البلاغة) وعبد الزهراء الحسيني في كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده).

أما الدراسات التي قامت على (نهج البلاغة) وأنشئت حوله، فقد اقتصر على شروحه، وتوضيح أساليبه اللغوية، ودراسة لبعض جوانبه البلاغية، دون الوقوف على احياءها وتأثيراتها، ودون الالتفات لما تحويه نصوصه من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وتربوية، ودون ربط الأشكال التعبيرية بالمواقف والقرارات والأحكام التي أثرت عن الإمام علي عليه السلام.

فمن الشروح القديمة لنهج البلاغة: (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) لسعيد بن هبة الله الرواندي (ت 573 هـ) وهو لا يعدو كونه شرحاً لمفرداته اللغوية مع ذكر بعض الحوادث التاريخية الجزئية المتعلقة ببعض النصوص.

ومنها: شرح ابن أبي الحديد (ت 656 هـ) وهو من أطول الشروح القديمة، وقد غلبت عليه الصبغة التاريخية لاستثثار تفصيل الحوادث وشرح المعاني بمعظمه، مع الخوض في بعض القضايا اللغوية والبلاغية الجزئية، ومقارنة أسلوب الإمام علي عليه السلام بأسلوب قدامى الشعراء والناثرين، بغرض تبيان سيطرته على اللغة، وحسه في اختيار الاساليب الملائمة لمقتضى الحال، هذا بالإضافة إلى وقوف الشارح وكان معتزلياً عند النصوص التي توافق آراء المعتزلة، مسهباً في شرحها وتقليب معانيها ومقارنتها بما جاء عند الشيعة من تأويلات لها.

أما (شرح نهج البلاغة) لميثم البحراني (ت 679 هـ) فيغلب عليه الطابع الصوفي الوعظي، مما يجعله بعيداً في معظمه عن دراسة فكر الإمام علي عليه السلام.

هذا وقد تصدى الكثير من الدارسين المحدثين للبحث في (نهج البلاغة) بتحقيقه وشرحه وفهرسته، وتبيان ما حوته نصوصه من معانٍ، إلا أنهم لم يبحثوا

في جوانبه الفكرية الثرة، إما لاختيارهم منهجاً سريعاً مبسطاً وإما لاقترانهم على النظرة التاريخية دون التعمق في ملامستها، وإما بسبب المطالعة السريعة في نصوصه أثناء البحث فيها، وإما بسبب تغلب العاطفة المذهبية على المنهج العلمي.

فشرح الشيخ محمد عبده لنهج البلاغة، هو تفسير مختصر لمفرداته اللغوية دون دراسة النصوص أو حتى التعليق عليها الا فيما ندر.

أما (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) لميرزا حبيب الله الخوئي، فهو استعراض لما سبق من شروح، حاول فيه المؤلف إبداء وجهة نظره في معظم ما ورد في تلك الشروح من آراء خاصة ما ورد منها عند ابن أبي الحديد، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالاعراب والوقوف على الكثير من المسائل الفقهية وإبداء الرأي فيها من وجهة نظر الشيعة الإمامية وترجمة النصوص للغة الفارسية، ولم يتعرض الشارح بصورة مباشرة إلى فكر الإمام عليه السلام الا في لمحات خاطفة، لاعتماده اساساً على الشرح والتفسير، والاستناد في استنتاجه إلى ما جاء عند الشراح السابقين.

ومن شروح النهج الحديثة أيضاً: (في ظلال نهج البلاغة) لمحمد جواد مغنية، وهو عبارة عن تفسير لمفرداته، وإعراب لبعض جملته، وشرح معانيها والربط - في بعض - الأحيان بين إحياءات النصوص وواقع الأمة الإسلامية المتفكك اليوم، مركزاً على قيمة نصوص النهج من حيث حفز الهمم، وبث اليقظة في النفوس، لذا لم يتناول الشارح قضايا الفكر، إلا بشكل هامشي، لأنه أراد لشرحه الانتشار بين جميع طبقات القراء في الأمة الإسلامية ليحقق هدفه في إيقاظها، بإثارة الحمية وبث الحماس، كما أشار في مقدمته.

ومن أحدث الدراسات التوثيقية وأضبظها: (نهج البلاغة) بضبط المقدمة

وفهرسة أستاذنا الشيخ صبحي الصالح رحمه الله، لتمييز الدراسة بمقدمة ضافية عن تاريخ النهج، وقيمتها العلمية والأدبية، وما انتاب نسخه المخطوطة من تصحيف وتحريف، مع تعريف بالنسخ الموثقة التي اعتمدها الدارسون المحدثون ممن سبقه في شروحاتهم، إلى غير ذلك من ملاحظات ذات صلة وثيقة بالتحقيق. والدراسة في مجملها ذات فائدة لبحثنا في النهج وكيفية استخراج نصوصه، إلا أنها لا تمدنا بشيء على الإطلاق مما نحن بصدد دراسته من أفكار وآراء في النهج.

ومن الكتب التي تعرضت لدراسة بعض جوانب النهج: (دراسات في نهج البلاغة) لمحمد مهدي شمس الدين، وهي على العموم دراسة جادة، بحث المؤلف من خلالها بعض القضايا الاجتماعية وأخرى اقتصادية وسياسية، ولكن اهتمامه بالشرح والتفسير والوعظ دون التحليل حال دون تعمقه في دراسة النصوص التي اختارها لدراسته، هذا بالإضافة إلى الاختصار الشديد التي تميزت به أحكامه، واللّهجة الحماسية الخطابية التي طغت على أسلوبه لكون الدراسة جاءت من وجهة نظر شيعية.

أما دراسة علي آل إبراهيم: (في رحاب نهج البلاغة) فلا تتعدى كونها شرحاً لبعض نصوص النهج، عزّزه المؤلف بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر والتاريخ، لكنه لم يتعرض فيما اختاره من نصوص لما حوته النصوص من أفكار، إضافة إلى طغيان العاطفة الشيعية على كثير من جوانب الدراسة، لأن صاحبها هو أيضاً من الشيعة الإمامية.

علاوة على ذلك فإنني - بحسب إمكانياتي المتاحة في مجال البحث لم أجد في

سجلات الجامعات العربية التي تسنى لي الاطلاع عليها، رسالة علمية أو بحثاً جامعياً في (نهج البلاغة) أو في فكر الإمام علي عليه السلام مما حفّزني على المضي فيما انابصده من البحث فيما تضمنه نهج البلاغة من فكر، واضعاً في الاعتبار ما ينتاب المكتبة العربية من نقص في الدراسات الثرية التطبيقية، إذ لا تتعدى معظم الدراسات التي قامت حول النص الثري القديم مجال الوصفية، والوقوف عند القضايا الجزئية، أو الهامشية المبنية على أحكام مسبقة في أغلب الأحيان بالنظر في فحوى النصوص على ظاهر معانيها، دون إجمالة النظر فيها، مع تبني أحكام ذات طابع استشراقي في غالب الأحيان، تحتاج إلى تثبيت وتمحيص وقد وقفت عند الكثير من تلك الأفكار في مواضعها محاولاً مناقشتها.

وبالنسبة للتاريخ فقد كان تعويل الدراسة عليه، لا كمجرد وقائع مسرودة في اطارها الزمني الذي حدثت فيه، بل كعنصر اضاءة لكشف واقع بالإمكان تلمّسه وإدراك ابعاده من خلال ومضات سريعة في ركام سرد الحوادث المفتعل الذي تصوّر وجهات نظر معينة، غايتها إسباغ الشرعية على أحداث لدعائم نظام معين أو تثبيته، لذلك خَفَّتْ ضمن ذلك السرد صوت الشعوب، وغابت في خضمّ عبارات التمجيد آلام المستضعفين، في حين ان نهج البلاغة في الكثير من نصوصه، وقف على كشف جوانب من هذه الحقيقة التي تهّم معظم ميادين السياسة والاجتماع والأخلاق والتربية، لكون نصوصه صادرة عن شاهد عيان ثقة، عايش أحداث تاريخ صدر الإسلام معايشة مباشرة منذ بزوغ الدعوة حتى الوقت الذي تمخّض بالنقلات الحضرارية الخطيرة التي كان مؤدّاهها في نهاية المطاف تحول الخلافة الإسلامية إلى مُلك وراثي.

تتركب رسالتنا من خمسة أبواب:

اختص الباب الأول بدراسة ما دار حول نصوص نهج البلاغة من جدل في مدى صحة نسبتها لعلي عليه السلام على أساس أن الدراسة في هذا الباب هي المرتكز الأساسي الذي يمكننا الانطلاق منها نحو الأبواب الأربعة الأخرى، من خلال النظر في النصوص مصدر الدراسة، ومحاكمتها في ضوء الآراء المثبتة والآراء النافية التي دارت حولها، تمكنت الدراسة من إثبات نسبة جلها -ان لم تكن كلها - لعلي عليه السلام وكانت خاتمة الباب دراسة مقتضبة في قيمة نهج البلاغة الأدبية والتاريخية والفكرية متبوعة بجدولة تضمنت مطالع نصوصه بحسب ورودها فيما أمكننا العثور عليه من نسخ متداولة مشهورة، مع محاولة توثيق النصوص من المصادر المعتمدة السابقة للشيخ الرضوي، والمعاصرة له، والمتأخرة عنه، مع محاولة تلافي ما وقع فيه الموثقون السابقون من عيوب توثيقية.

وعرض الباب الثاني لدراسة الفكر السياسي في نهج البلاغة، وذلك في ثلاثة فصول:

أنفرد الفصل الأول بدراسة مفهوم الإمامة في فكر علي عليه السلام، مع عرض لفكر الحكومة وأهميتها، ونشأتها والفرق بين مفهومها ومفهوم الدولة، ومن ثم علاقة الدين بالدولة من وجهة نظر الإسلام في ضوء ما ورد من نصوص في النهج.

أما الفصل الثاني فقد انصبت الدراسة فيه على مواقف علي عليه السلام الفكرية تجاه عصره وعلاقته بالخلفاء الثلاثة قبله، وموقفه من المناوئين لحكومته أثناء خلافته، وذلك بهدي النصوص المتعلقة بذات الموضوع في نواحيه المتشعبة.

واتخذ تصور علي عليه السلام لمؤسسات الدولة مكانة في الفصل الثالث، وعرض البحث في هذا الفصل إلى مفهوم الدولة وعلاقتها بالحكومة، وما يتولد عن اندماج المفهومين من قضايا سياسية تتعلق بالولاية والوزراء والجيش والقضاء

وبيت المال والعمال، وإدارة الدواوين والرقابة مع تعليق ختامي حول فكر علي عليه السلام السياسي بين المثل والواقع.

أما الباب الثالث من الدراسة، فقد خصصناه لفكر علي عليه السلام الاجتماعي وتناولناه بالدراسة في ثلاثة فصول أيضاً:

أوقفنا الفصل الأول منه على دراسة حالة المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الكوفي على وجه الخصوص، وذلك في ضوء ما ورد من نصوص في النهج.

وعرضنا في الفصل الثاني لدراسة القيم الخلقية كما أوردها النهج، مع التركيز على دعائم خلقية ثلاث هي: العدل والحق والتقوى.

كمنابع أخلاقية أصيلة لجميع القيم الخلقية التي انبثت في جميع نصوص النهج تقريباً.

وقد أخذت التربية مكانة هامة في النهج، مما دعا إلى أفراد الفصل الثالث لها وفيه حاولنا تحليل ما عرض له علي عليه السلام من أفكار تربوية فردية واسبورية واجتماعية، مع محاولة الكشف عما حوته من مضامين خلقية واخرى تعليمية يحتاجها المجتمع لخلق نشء كفاء من حيث الأخلاق ومن حيث الشعور بالمسؤولية، وقد ختمنا هذا الباب بوقفة تأملية سريعة حاولنا من خلالها التعرف على خلاصة الفكر الاجتماعي في النهج ومدى استجابة الطبقات الاجتماعية المختلفة لمثالية هذه الافكار.

وفي الباب الرابع تناولنا بالدراسة والتحليل الجانب الكلامي وما احتوى عليه نهج البلاغة من تأملات كونية وذلك في ثلاثة فصول فسلطنا الضوء في الفصل الأول منه على القضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة في اربعة محاور رئيسة عرضت لها نصوص النهج وهي:

المقدمة

ص: 14

وأفردنا الفصل الثاني لدراسة الفكر التأملي وتداعي الأفكار والغيبيات كما عرض لها (نهج البلاغة) فأخذت الأوصاف الطبيعية مكانتها، كما استوعبت دراسة تداعي الأفكار في تفسير آيات القرآن الكريم قسماً مهماً بجانب القضايا الغيبية، كما عرضت الدراسة في هذا الفصل إلى فكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) المشهورة كما عالجها النهج.

وفي الفصل الثالث عرضنا إلى نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما رسمت نصوص (نهج البلاغة) ملامحها، فكان لا بد من تعمق فيها وصف به النهج من فكر صوفي وتحليل لمعنى الزهد بالتفريق بينه وبين التصوف مع اجلاء لمفهوم الزهد كما ورد في النصوص والتحليل المنطقي لذم الدنيا باستقراء ما أورده النهج في هذا الشأن.

أما الباب الخامس فقد خصصناه لدراسة الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة، على اعتبار أن تلك الأساليب هي البوتقة الجامعة لتفرعات ذلك الفكر في شتى ميادينه، وقد بحثناها في ثلاثة فصول:

درسنا في الفصل الأول ما اسميناه تجوّزاً (الأنواع الأدبية التي وردت في النهج) وما تميز به كل نوع من هذه الأنواع من خصائص تفردها، إلى جانب سائر الأنواع المتداولة الأخرى المعروفة لدى العرب من أمثال وحكم.

وطرحنا على بساط البحث - في الفصل الثاني - أبرز الخصائص الأسلوبية التي تميزت بها نصوص النهج، فكانت وقفنا عند خصائص الجملة وكيفية أدمجها في النص وقيمتها كوحدة أساسية ضمن نسيجه في حالتي الفصل والوصل، إلى غير ذلك من خصائص ومميزات تكن في طريقة التنقل بين الأساليب الإنشائية

والأساليب الخبرية، وخصائص الجمل الاعتراضية والآخرى الحالية، ومميزات الجمل الشرطية.

أما الدراسة في الفصل الثالث فقد أوقفناها على أبرز الخصائص الفنية ممثلة في الصورة وقيمتها التأثيرية، وأبرز الخصائص التركيبية في الجرس والوقع والوزن.

هذا وقد سلكت في دراستي لفكر علي عليه السلام بمختلف شعبه منهجاً تكاملياً فكان لتوثيق النصوص والتاريخ والدراسة الفنية جميعاً في الباب الأول، كما استوعب المنهج التاريخي في تحليل النصوص الباب الثاني من الدراسة، وأخذ المنهج الاجتماعي مكانته في الباب الثالث، وتصدرت قضايا الفلسفة والعقيدة مكانتها في الباب الرابع، وعولت في الباب الخامس على المنهج الفني بقضاياها الاسلوبية والبلاغية، وحاولت جاهداً أن أناغم بين تلك المناهج المختلفة بتوظيفها في كل متكامل ومتجانس.

هذا وقد كانت رحلتي شاقة وشانكة وعسيرة: شاقة لكونها انبنت على نص تضاربت الآراء حول صحته، وكان لابد من التحقيق في تلك القضية من جميع جوانبها وقد اقتضى ذلك مني النظر في كثير من المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة.

وشانكة لأن من ضمن الموضوعات التي تعرض نهج البلاغة إليها قضية علاقة الدولة بالدين وقضية الإمامة واحقية علي عليه السلام فيها، وبعض قضايا العقيدة كالغيبيات، وفكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) وكان لابد من الوقوف عندها ومناقشتها في ضوء النصوص التي وردت في (نهج البلاغة) وما دار حول تلك الأفكار من جدل لها أو عليها وعسيرة لكثرة المصادر والمراجع،



وندره ما فيها من المعلومات، وقله الدراسات التطبيقية في مجال النشر التي كانت تساعدنا في تلمس طريقنا فيما لو وجدت، بالإضافة إلى تشعب موضوعات البحث وتعدد مناحيها من حيث المعالجة، ومن ثم جمع تلك الشعبات في كل متجانس.

إلا أنني قد حاولت وبذلت ما في وسعي، فأرجو أن أكون قد وفقت، مع إيماني الراسخ بأن ما بذلته من جهد طوال خمسة أعوام، لم يكن إلا بداية لطريق طويل قد بدأته راجياً أن يتواصل في (نهج البلاغة) ذلك المنبع الثر والأصيل في مجالي البلاغة والفكر، راجياً قبول اعتذاري عن كلما بدر مني من تقصير. والله الموفق.



## الباب الأول: نهج البلاغة

### إشارة

- التعريف به

- توثيقه ودفع الشبهات عنه

- منهج الشريف الرضي ي تصنيف مواد

- قيمته:

- البلاغية والأدبية

- التاريخية

- الفكرية

ص: 19



لم ينل كتاب في العربية من الشهرة والانتشار ما ناله كتاب (نهج البلاغة) الذي جمع الشريف الرضي بين دفتيه الكثير مما أثر عن الإمام علي عليه السلام من خطب ووصايا وعهود ورسائل وحكم ومواعظ. اما سبب تسميته ب (نهج البلاغة) فلأنه كما يقول جامعه «يفتح للنظر فيه أبوابها أي أبواب البلاغة ويقرب عليه طلابها»(1)، لأن ما حواه ذلك الكتاب (عليه مسحة من العلم الالهي وفيه عبقة من الكلام النبوي)(2). وجاء من بعد الشريف من تناول محتوى الكتاب بالشرح(3) فقال هبة الله الراوندي عن محتواه إنه (دون كلام الله

ص: 21

1- الشريف الرضي - خطبة كتاب نهج البلاغة

2- الشريف الرضي - خطبة كتاب نهج البلاغة

3- بشأن شروح (نهج البلاغة) قال محسن الامين في اعيان الشيعة 218/9: (لاقي من الشهرة والقبول ما هو أهله، وحُ بشروح كثيرة تنبو عن الاحصاء) وقال الهادي كاشف الغطاء في كتابه (مستدرك نهج البلاغة) ص 192 (شرح هذا الكتاب الجليل من فطاحل العلماء وجهابذة الفن ما يناهز الاربعين فاضلا بشروح موجزة ومسهبة وعربية وفارسية)، اما صاحب (مصادر نهج البلاغة) عبد الزهراء الحسيني، فقد وصف مئة وواحداً من الشروح القديمة والحديثة للنهج، مع ايراده ترجمة مقت ضبة لكل شارح من أولئك 202/1 - 254. وقد استعان في ذلك بموسوعة (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) لمؤلفها: آغا بزرك الطهراني الذي ترجم في 10 / 111 وما بعدها لمئة وثلاثين شارحاً ولنهج البلاغة في العربية والفارسية والاردوية، كما أورد في 4 / 144 وما بعد ها ما يقارب من خمسة عشر ترجمة أردوية وفارسية للنهج. وفي معرض الحديث عنالنهج يقول حسن الامين في دائرة المعارض الإسلامية 437/3 (حظي هذا الكتاب من الأهمية والشأن ما لم يحظ به كتاب غيره على مر العصور واصبح ما له من الشروح ما بلغ (75) شرحاً في حساب بعض المؤلفين و (101) من الشروح في حساب مؤلف آخر. كما ذكر عبد اللطيف الكوهكمري في مقدمة تحقيقه ل (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) للراوندي (ت 573) - 36/1 - 49 - مئة واثنى عشر شرحاً للنهج بين عربي وفارسي واردوي - واللغة الاوردوية مشتقة من (أردو) كلمة تركية الاصل معناها: الجيش وأول ما أطلق هذا الاسم على اللغة المعروفة، كان في أيام العاهل المغولي شاه جهان المتملك سنة 1037 هـ ولكن اللغة نفسها كانت مستعملة قبل هذا العصر وكان يطلق عليها أكثر من اسم دائرة المعارف الإسلامية الشيعية 47/4. وهذا اللغة قريبة في كتابتها من الفارسية وتحتوي على الكثير من الكلمات العربية مثلها في ذلك مثل اللغة الفارسية

ورسوله وفوق كلام البشر(1)، وفي نفس السياق قال عنه ابن أبي الحديد هو (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)(2) لقد فتح الشريف الرضي - بتأليفه النهج الباب واسعاً لدراسات متعددة الجوانب فلاقي كل طالب علم بغيته وكل صاحب نحلة ما يتناسب وعقيدته. فاهتم بحفظه «حملة العلم والحديث في العصور المتقدمة حتى اليوم، يتبركون بذلك الحفظ كحفظ القرآن والحديث الشريف، وعد من حفظته في قرب عهد المؤلف القاضي جمال الدين محمد بن الحسين بن محمد القاساني، فإنه كان يكتب نهج البلاغة من حفظه»(3) وجانب

ص: 22

---

1- الرواندي منهاج البراعة 4/1

2- ابن أبي الحديد شرح النهج 24/1

3- عبد الحسين الأميني الغدير 186/4

ثالث من الدراسات يشمل في نظم بعض الشعراء للكثير من معاني النهج(1) إضافة إلى العديد من الدراسات التي اتخذت من بعض جوانبه منهجاً للدراسة، كشرح (الخطبة الشقشقية)(2) أو شرح «عهد الإمام للأشتر النخعي»(3) حين ولاء مصر، إلى غير ذلك من نصوص استقطبت آراء الباحثين والمفكرين لكن نهج البلاغة في رحلته الطويلة التي ربت على الألف عام، لم تكن طريقه خلوياً من العراقيل، فمكانته في نفوس الشيعة، وما حواه من نصوص تصف واقع عصرها إلى غير ذلك من موضوعات تأملية وأخرى فكرية، كل ذلك جعل مدونته موضع شك لدى طائفة من دارسي الأدب في القديم والحديث، وكان ذلك الشك مثار جدل قامت عليه كثير من الدراسات والدراسات المضادة، مما يحتم علينا معرفة ما حوته تلك الدراسات من آراء وأفكار تكننا من دراسة ما ورد في النهج من فكر بكل اطمئنان.

ص: 23

1- أشار إلى ذلك صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة في موضعين 14 / 24، 137 / 314

2- الخطبة الشقشقية المشهورة المشروحة بشروح كثيرة مستقلة الذريعة إلى تصانيف الشيعة 7 / 203 وقد ذكر لها محمد رضا الحكيمي في كتابه (شرح الخطبة الشقشقية) عشرة شروح، كما تحدث عنها وعن شروحها بإسهاب عبد الزهراء الحسيني في (مصادر نهج البلاغة) 1 / 309 حتى 324

3- ذكر آغا بزرك الطهراني عدة شروح لعهد الأشتر أثناء ذكره لشروح نهج البلاغة المختلفة في كتابه الذريعة 14 / 144 ، 146 ، 159 . كما شرح العهد في كتاب مستقل توفيق الفكيكي أسماه (الراعي والرعية) ومن أحدث الشروح للعهد كتاب (نظرية الحكم والادارة في عهد الإمام علي عليه السلام للأشتر) لعبد المحسن فضل الله. ولأستاذنا محمد خلف الله أحمد رحمه الله دراسة قيمة في توثيق العهد وقيمتها السياسية وهي بعنوان (وثيقتان من الأدب الإسلامي السياسي في وظيفة الراعي ومسؤولياته ص 25 44) ذكرت ضمن كتاب (في العروبة وآدابها) من منشورات معهد البحوث التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم





تاريخ الشك ي نصوص نهج البلاغة:

أنهى الشريف الرضي (ت 406) جمعه لنصوص (نهج البلاغة في شهر رجب سنة اربعمئة للهجرة كما أشار في نهاية الكتاب<sup>(1)</sup>) ، وصدر أول شرح له في حياته لمعاصره علي بن ناصر (ت القرن الرابع) بعنوان (أعلام نهج البلاغة)<sup>(2)</sup> ، ويبدو أن هناك شرحاً آخر لأبي الحسن علي بن القسم البيهقي (ت 565)<sup>(3)</sup> يعني كل ذلك انتشار النهج وشروحه على نطاق واسع أثناء حياة جامعه وأن شهرته تلك سببت له القيل والقال من لدن من كانوا يناصبون الشيعة العدا على الرغم من اطلاعهم على مصادره التي استقى الشريف الرضي مادته منها بشهادة الجاحظ ان (هذه خطب رسول الله محفوظة ومخلدة مشهورة وهذه خطب أبي بكر وعمر

ص: 25

1- راجع خاتمة نهج البلاغة في أية طبعة من طبعاته

2- محسن الأمين - اعيان الشيعة 8/ 363 ، عبد الزهراء الحسيني - مصادر النهج 1/ 203

3- راجع ترجمته: الحموي معجم الأدياء 13 / 219 وقد ذكر شرحه الذي اسماه (معارج نهج البلاغة) ص 225

إلا- أن الشك في النهج كان يجري في الهمس دون الإجهار به، حتى جاء عصر ابن خلكان (ت 681)، فأثار القضية جهاراً(2)، وذلك في كتابه (وفيات الأعيان) الذي فرغ من تأليفه سنة اثنتين وسبعين وستمائة، أما القول الذي جهر به تجاه النهج فهو «قد اختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة) المجموع من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام، هل هو من جمعه أو من جمع أخيه؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي عليه السلام وإما الذي من جمع ونسبه إليه هو الذي وضعه»(3) فابن خلكان هو أول من جهر بقضية الشك في النهج وذلك بعد مرور ما يقارب من مئتين واثنتين وسبعين سنة من جمعه، أي بعد أن اتلفت الفتن المتلاحقة

ص: 26

#### 1- البيان والتبيين 1/ 201

2- راجع ترجمته ومصادرها في مقدمة كتاب (وفيات الأعيان) 1/ 5 بتحقيق إحسان عباس ويرى الكثير ممن أَلَّف في (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) ان الشك في نصوصه قد بدا في القرن السادس الهجري - عليخان العرشي استناد نهج البلاغة ص 3، ومنهم من يلصق تهمة الشك في ابن خلكان - عبد الزهراء الحسيني مصادر النهج 1/ 102، عبد الله نعمه مصادر النهج ص 22. ونحن لا نوافقهم على ذلك، لأننا نعتقد ان قضية الشك في نسبة (نهج البلاغة) إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أبعد بكثير من عصر ابن خلكان، ونرجح ظهورها في الخفاء دون الإعلان عنها منذ بداية صدوره ابان حياة جامعه. ولكن ابن خلكان هو أول من روج لذلك مجاهرة وفي مقولته ما يؤيد صحة رأينا، ومما يعضد ما نذهب إليه أيضاً محاولة الراوندي (ت 573) في (منهاج البراعة) ذكر أسانيد بعض خطب النهج، كما ناقش ابن أبي الحديد (ت 655) تهمة الشك في موضعين من شرحه: 1/ 205، 3/ 128، ووثق كثيراً من نصوص أيضاً. وكلا المؤلفين قد سبقا ابن خلكان (ت 681) بتأليف شرحيهما وعليه فإن نسبة الشك لم تكن من اختراعه وانما هو المروج لها في العلن. وفيات الاعيان 7/ 258

3- السابق

على بغداد وحواضر العالم الإسلامي جل المكتبات، وبعد أن قضى التتار على ما خلفه الفكر الإسلامي من كتب في هجومهم على بغداد، وهذا بطبيعة الحال يحدو بنا إلى التروي، وعدم أخذ الأمور على علاقتها قبل الشروع في مناقشة تلك القضية الخطيرة.

بغض النظر عما قيل عن سيرة ابن خلكان(1) يجدر بنا أن نقف على عصره وندرس خلفيات ذلك لئلا البت فيما ألصقه بنهج البلاغة من اتهام، إذ إننا لا نستبق الحوادث إذا قلنا إننا لا نشك إطلاقاً في نسبة نصوص النهج لعلي بن أبي طالب عليه السلام، ولو لا ذلك لما اقدمنا على دراستها كمنبع لفكر ذلك الصحابي الجليل.

عاش ابن خلكان في ظل الدولة الأيوبية، ومماليكها البحرية، فهو قاضي القضاة بمصر والشام(2) في عهد الظاهر بيبرس، الذي قال عنه ابن العماد (لولا ظلمه وجبروته في بعض الأحيان لقدّر من الملوك العادلين)(3) علمًا بأن نهاية الفاطميين الشيعة كانت على يد الأيوبيين ومماليكهم، فعلى يد صلاح الدين الأيوبي كانت نهاية الخلافة الفاطمية في مصر بعد أن قطع الخطبة في الديار المصرية للعاضد لدين الله (ت 567) وأقامها للمتمقي العباسي(4) فكانت بداية التنكيل بالشيعة في مصر (فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل

ص: 27

---

1- راجع الكتبي فوات الوفيات 1/ 113. وتزيين الأسواق في اخبار العشاق للانطاكي 2/ 337 فقد عداه عشاق الغلمان

2- راجع السابق 1/ 110

3- شذرات الذهب 5/ 350

4- راجع ابن الأثير الكامل في التاريخ 9/ 111

في تلك البيئة المشحونة بالعداء ضد الشيعة عاش ابن خلكان مما جعله يقلب كثيراً من الحقائق التاريخية. ففي الوقت الذي تشيد فيه المصادر التاريخية باهتمام الفاطميين بالعلم والأدب يقول هو «لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها الإمامية فلم يكونوا يتولون بهذه الأشياء»(2) متناسياً الأزهر الشريف ودوره القيادي في نشر العلم بالقاهرة المعزية، فلقد خصص الفاطميون فيه «لكل مذهب من المذاهب الإسلامية كرسيًا لتدريس ذلك المذهب، وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد العربية»(3)، مما يعني ترك الفاطميين للسنة حرية تدريس مذاهبهم فشجع ذلك العلماء على اختلاف مذاهبهم على الرحلة إلى مصر واستيطانها و التدريس فيها، فممن قاموا بالتدريس في الأزهر على عهد الفاطميين من فقهاء الشافعية أبو الفضل محمد بن عيسى البغدادي (ت 441)(4) وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي (ت 518)(5)، وأبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز (ت 523)(6). ومن فقهاء المالكية عبد الوهاب بن علي (ت 422) وقد ذكر العماد الحنبلي كيفية تحوله إلى مصر(7) والفتية أبو

ص: 28

1- خفاجي - الأزهر في ألف عام 58 / 1 الشيعة والحاكمون ص 191

2- وفيات الأعيان 206 / 7

3- الأمين دائرة المعارف الإسلامية الشيعية 11 / 359

4- العماد الحنبلي - شذرات الذهب 267 / 3

5- السابق 58 / 4

6- السابق 67 / 4

7- السابق 223 / 4

بكر الطرطوشي (ت 520) (1) وغيرهم كثير، فقد «كان في مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية، وكانوا لا يرون التشيع» (2).

ويحدثنا ناصر خسرو عن الحركة الثقافية في عهد المستنصر الفاطمي، وذلك أثناء وصفه لجامع عمر وبن العاص فيقول «يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب» (3) فلم تقتصر الحركة العلمية في العهد الفاطمي على الجوانب الدينية بل شملت جميع حقول الثقافة. فاهتمام الفاطميين بالطب جعلهم يغدقون عليه بسخاء، وتقلد الأطباء المناصب العالية في الدولة، ومما ساعد على تقدم دراسته «إنه أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات» (4). كما أفسح الفاطميون المجال لعلوم الفلك ومن أبرز مظاهرها اهتمامهم بذلك المرصد الذي شيده الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت 411) على جبل المقطم (5) ويطول بنا البحث لو استعرضنا إنجازات الفاطميين في حقل الثقافة والعلم. فمكتبات العهد الفاطمي من أهم معالم الحضارة الإسلامية فقد قيل إن في مكتبة العزيز الفاطمي «من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات منها في الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة، والروحانيات

ص: 29

1- السابق 62/4

2- أحمد أمين ظهر الإسلام 197/1

3- سفرنامه 102 ترجمة يحيى الخشاب

4- حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي 3/ 441

5- جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي 3/ 212

والكيمياء، من كل صنف....»(1) فقول ابن خلكان بعدم اهتمام الفاطميين بالمدراس والثقافة فيه اجحاف بحقهم ويرجع ذلك - في اعتقادنا - إلى تعصبها الشديد ضد التشيع، وهو في هذا يعكس وجهة نظر أسياده من الأيوبيين والمماليك تجاه الفكر الشيعي بمحاربه بشتى الوسائل لطمس معالمه. من ذلك اتلافهم الكتب التي بذل الفاطميون الأموال الكثيرة لاستجلابها من جميع أرجاء المعمورة. فبعد ضعف الدولة الفاطمية وانتقال السلطة الفعلية للأكراد والمماليك أصاب خزائن الكتب تلك (من الاحن بتوالي الفتن ما اصاب مكتبة الإسكندرية... فألقي بعض كتبها في النار، والبعض الآخر في النيل، وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الريح حتى صارت تاللا لعرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه، وبالأجمال فقد طرح ما بقي منها، عند دخول الأكراد للبييع في أواسط القرن السادس)(2). فموقف صحاب (وفيات الاعيان) من

(نهج البلاغة) لا يحتاج إلى تأويل، فما هو إلا جزء من تلك الحملة الشعواء ضد الشيعة وضد كل ما يمت إليهم بصلة في مصر بعد أفول نجم الفاطميين، ولما كانت مقولته تلك قد فتحت باب القول بالشك في نسبة (نهج البلاغة) لعلي بن أبي طالب عليه السلام عند من تناوله بالدرس من بعده، فلا بد من الوقوف عندها لمناقشتها.

فمن الملاحظ أن تلك المقولة انبنت على ثلاث نقاط:

الأولى: قد اختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة).

الثانية: هل هو جمعه - أي الشريف المرتضى - أم جمع أخيه الرضي.

ص: 30

1- المقريزي 409 / 1

2- جرجي زيدان السابق 229 / 3

ثالثة: وقد قيل انه ليس من كلام الإمام علي عليه السلام، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه (1) هو الذي وضعه.

بالنسبة إلى النقطة الأولى: لم يذكر ابن خلكان أولئك الناس أو حتى بعضاً منهم، إذ كان من المفروض وهو يطرح مثل تلك القضية الخطيرة أن يسمى ولو واحداً من أولئك الناس الذين اختلفوا في (نهج البلاغة) خاصة وأنه لم يعودنا في كتابه على ذلك، حيث كان يستعمل أساليب الإسناد المختلفة مثل (حدثني، سمعت، قال لي...)، في المواضيع التي تحتاج إلى ذلك، فتركه هذا الموضوع بالذات في كتابه من دون اسناد يجعله موضع اتهام بالتعصب.

وبالنسبة إلى النقطة الثانية: لا نعتقد ان ابن خلكان ومن دار في فلكه (2) لم يقرأوا مقدمة (نهج البلاغة) ليعرفوا جامعهم، وان لم يتيسر لأحدهم ذلك فلا نعتقد أن أحدا منهم لم يطلع على مؤلف من مؤلفات الرضي المتداولة في ذلك العصر، جاء في مقدمة النهج) إني كنت في عنقوان السن وعضاضة الغصن،

ص: 31

---

1- يقول ابن خلكان في وفيات الاعيان 3/ 313 إن جامع (نهج البلاغة) هو الشريف المرتضى وليس الشريف الرضي، وقد أخذ بذلك الزعم كل من اليافعي (ت 768) في مرآة الجنات 3/ 55 وابن العماد الحنبلي (ت 1089) في شذرات الذهب 2/ 257، وقال الذهبي (ت 748) في سير أعلام النبلاء 17/ 589 «قلت هو - أي الشريف المرتضى جامع كتاب (نهج البلاغة) المنسوبة ألفاظه إلى الإمام علي عليه السلام ولا أسانيد لذلك، وبعضها باطل، وفيه حق ولكن فيه موضوعات حاشا للأمام النطق بها ولكن أين المنصف؟ وقيل بل جمع أخيه الشريف الرضي» وقد أخذ بنفس العبارة تقريباً ابن حجر العسقلاني (ت 852) في (لسان الميزان) 4/ 233. كما أخذ بالرأي ذاته - من المحدثين: بروكلمان تاريخ الأدب العربي 2/ 64، جرجي زيدان آداب اللغة العربية 2/ 599

2- المصدر السابق

ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام(1) وكتاب (خصائص الائمة) الذي ذكرته المقدمة من مؤلفات الرضي التي لا يشك فيها، كما أن امتياز عليخان العرشي يذكر أنه «توجد (من خصائص الأئمة) نسخة ثمينة قديمة في مكتبة رامبور، في ختامها إن كاتبه عبد الجبار بن عبد الحسين بن أبي القاسم الفراهاتي، فرغ من كتابتها سنة 553 هـ وكتب الكاتب نفسه بخطه: كتاب خصائص الأئمة الإثني عشر عليهم السلام من تصنيف السيد الإمام الرضي ذي الحسينين أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي رضي الله عنه»(2) ثم أن كتب الشريف الرضي التي بين ايدينا تؤيد صحة نسبة جمع (نهج البلاغة) إليه من ذلك قوله في المجازات النبوية (ويبين ذلك قول أمير المؤمنين علي عليهم السلام في كلام له: تخففوا تلحقوا، وقد ذكرنا في كتابنا الموسوم (بنهج البلاغة) الذي أوردنا فيه مختار جميع كلامه صلى الله عليه وعلى الطاهرين من أولاده(3). كما انه قد أشار إلى كتابه (المجازات النبوية) في نهج البلاغة بقوله (وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بمجازات الآثار النبوية(4) وفي ذلك دلالة واضحة على الرابطة الوشيحة بين الكتابين، لأنهما يعالجان موضوعاً واحداً هو البلاغة وأنهما لمؤلف واحد هو الشريف. مما يؤكد أن جامع النهج هو الشريف الرضي وليس أخاه الشريف المرتضى(5) فجميع من ترجموا للمرتضى لم يذكروا

ص: 32

1- مقدمة الشريف الرضي لنهج البلاغة

2- استناد نهج البلاغة ص 7

3- المجازات النبوية ص 41 وقد تكررت الإشارة إلى نهج البلاغة أيضاً في ص 140 ، 171

4- وردت العبارة أثناء تعليقه على الحكمة رقم 475 في نهج البلاغة

5- يلاحظ أننا قد استعملنا كلمة (جامع) وليس كلمة (مؤلف) لازالة اللبس الذي اختلقه شوقي ضيف في قوله (يذهب النجاشي المتوفي سنة 450 للهجرة في كتابه (الرجال) إلى ان مؤلف الكتاب وهذا صحيح بشهادة الرضي نفسه وشهادة شراح كتابه، فقد ذكر في كتابه (مجازات الآثار النبوية) ونجد ابن أبي الحديد المتوفي سنة 655 في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضي، ويذهب ابن ميثم البحراني إلى أنه من تأليف الشريف الرضي. إذن فالكتاب من عمل الشريف الرضي وصنعه ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالاً إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ويدل على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي 2/ 431 إذ يقول: (الذي حفظ الناس عن علي عليه السلام من خطبه فيسائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً) وكان الشريف الرضي وجد مادة صاغ منها كتابه، وهي مادة بنيت على السجع وفي ذلك نفسه ما يدل على كذب نسبتها إلى علي عليه السلام، وليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطبته بينما ينهى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ويتحاشاه أبو بكر وعمر وعثمان في خطابتهم) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 62. فالشريف الرضي لم يقل إن كتاب (نهج البلاغة) من صنعه وتأليفه كما زعم شوقي ضيف في ابتساره العبارة وقولبتها لتناسب احكامه البعيدة عن الموضوعية والنزاهة، فالإضافة لما أوردناه في المتن من كتاب المجازات النبوية، يقول الشريف الرضي في الجزء الخامس من كتابه (حقائق التأويل) ص 67 (من أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه من ذلك فلينعم النظر في كتابنا الذي الفناه ووسمناه (نهج البلاغة) وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع الأغراض). فهو لم ينسب مادة الكتاب إلى نفسه كما تقول شوقي ضيف عليه، وإنما نسب إلى نفسه الجمع ليس غير، وفي هذا الصدد نشير إلى أن أخلاق الشريف الرضي ومنزلته الاجتماعية ومكانته العلمية، كل ذلك يحول بينه وبين الكذب والافتراء، وفي سيرته من الشواهد الكثيرة المؤيدة لذلك (راجع ذلك بالتفصيل الباب الأول من (التفجع في شعر الشريف الرضي) أطروحة التعمق في البحث سنة 85، مقدمة إلى كلية الاداب بالجامعة التونسية، من عمل جليل منصور العريض. كما أنه لا يخفى على الناقد اللبيب الفرق الشاسع بين أسلوب (نهج البلاغة) وأسلوب الشريف الرضي الفني، فبالمقارنة بين الرسائل الفنية المتبادلة بين الشريف الرضي وبين الصايبي بما جاء في (نهج البلاغة) من رسائل، يتبين لنا أثر الصنعة التي اتسم بها أسلوب الترسل في القرن الرابع الهجري (راجع رسائل الصايبي والشريف الرضي ص 63 رسالته في تعزية أبي اسحاق في ابنه سنان، و ص 73 وما بعدها موضوعها: نسخة عهد كتبه الشريف الرضي للخليفة الطائع) فنظرة سريعة في فحوى الرسالتين الفنييتين وغيرهما من الرسائل التي وردت في الكتاب المذكور ومقارنة أسلوبهما بما ورد في النهج من أساليب يتبين لنا أن الرضي مع احترامنا لباغته وشاعريته مهما أوتي من بيان ومهما بذل من جهد في رفع مستوى أسلوبه فلن يتمكن من محاكاة أساليب النهج، ناهيك عن ذلك علماء الشيعة الذين عزا إليهم شوقي ضيف المشاركة في الوضع إذ (لا مفر من الاعتراف بأن (نهج البلاغة) له أصل والافهوه شاهد على ان الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ زكي مبارك عبقرية الشريف الرضي 1/ 223. أما بشأن المقولة التي اجتزاها شوقي ضيف من كتاب مروج الذهب فهي عليه لا- له فقد ورد عن الجاحظ في البيان والتبيين 7/ 201 ما يعرضها، راجع الصفحة السابقة، واما استنكاره لما ورد في المنهج من سجع



ومحسنات لفظية فيمكن مراجعته في ص 32 من هذا البحث أيضاً



(نهج البلاغة) ضمن مؤلفاته(1) التي ذكرها كاملة.

وتمثل النقطة الثالثة أدق المراحل خطورة على محتويات النهج بأنها موضوعة على علي بن أبي طالب عليه السلام طبقا لقول ابن خلكان (وقد قيل: إنه ليس من كلام علي عليه السلام وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)(2)، ولا يمكن قبول ذلك القول لسببين:

الأول: عزو القول لمجهول باستخدامه الفعل (قيل) وهو أسلوب من أساليب التضليل لأن شؤون البحث والدراسة لا يعول فيها على أي قائل، إذ من المتوقع عليه ان يذكر لنا القائل لنتمكن من دراسة حاله ومدى الوثوق من امانته العلمية، خاصة وان علم رجال السند قد وصل إلى ذروته في حال معرفة

ص: 34

---

1- إذا استثنينا من ذكرنا في الهامش رقم 3 ص 31 من هذا المبحث سنجد ان جميع من ترجموا للشريف المرتضى (ت 436 هـ) لم يذكروا (نهج البلاغة) ضمن مؤلفاته، راجع على سبيل المثال: الطوسي الفهرست ص 120، ياقوت معجم البلدان 146/7 الخوانساري روضات الجنات 301/4 الأمين أعيان الشيعة 219/8، محمد أبو الفضل إبراهيم مقدمة تحقيق أمالي المرتضى 12/1 وما بعدها، رشيد الصفار مقدمة تحقيق ديوان المرتضى 117/1

2- وفيات العلويان

الثاني: التناقض في عبارة (إنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)، إذ كيف يمكن التوفيق بين جامع الكتاب وواضعه في شخص واحد، فإما ان يكون ذلك الشخص جامعاً وإما أن يكون واضعاً، ولكن التعبير قد خان المؤلف في محاولة الإيهام تلك. وعلى كل فلقد فتحت تلك المقولة باب الشك في نسبة (نهج البلاغة) على مصراعيه فصارت من المسلمات التي لا تحتاج إلى مناقشة عند منقول على (وفيات الأعيان) في ترجمة الشريف المرتضى فأخذ بعضهم بنصها وأضاف إليها البعض الآخر، بحيث يمكننا من تلك الإضافات التعرف على نقاط الاتهام الموجهة لمادة النهج وهي (1):

1 - افتقار معظم نصوص (نهج البلاغة) إلى الإسناد وعدم ذكر المصادر.

2 - التعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض نصوصه.

3 - الطول المفرط في بعض الخطب والعهود بما لا يتناسب وأدب صدر الإسلام.

4 - الوصف الدقيق المستوفي لجميع أجزاء الموصوف.

5 - وجود تعبيرات فلسفية ظهرت بعد تدوين العلوم في العصر العباسي.

6 - استخدام التقسيم في شرح المسائل ووصفها.

7 - ورود كثير من المغيبات في ثنايا بعض نصوص النهج.

8 - ورود كثير من النصوص في الحث على الزهد والتصوف وذكر المسيح.

9 - وصف الحياة الاجتماعية وصفاً دقيقاً وانتقاد سلوك بعض الولاة

ص: 35

---

1- سنشير إلى مصدر كل نقطة عند طرحها للمناقشة

10 - نسبة بعض نصوص النهج لغير علي عليه السلام في مصادر أخرى.

11 - ورود كلمة وصي وهي مصطلح شيعي ذكره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكر في أكثر من مواضع النهج.

12 - ذكر الإمامة على لسان علي عليه السلام وحقه فيها في مواضع كثيرة من النهج وهو ما لم يحدث منه على الإطلاق.

13 - السجع المفرط والاناقة اللفظية في كثير من نصوص نهج البلاغة ويمكن مناقشة تلك النقاط فيما يلي:

1 - افتقار معظم نصوص نهج البلاغة إلى الاسناد وعدم ذكر المصادر(1):

قد يكون ذكر الاسناد محاولة لإضفاء الصدق على النصوص والأخبار المنقولة واعطائها قيمة في نفوس المطلعين عليها، كفعل أبي الفرج الاصفهاني (ت 360) في كتاب الأغاني الذي حشاه بالأسانيد (واكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط)(2) كما قد يكون ذكر الإسناد ضروريا لو كان مؤلفه يرمي من ورائه خدمة النواحي الدينية ودراسة العقيدة، ولكن الشريف الرضي في جمعه لنصوص (نهج البلاغة) لم ينزع إلى شيء من ذلك، لأن السبب الوحيد

ص: 36

---

1- قال الذهبي في سير أعلام النبلاء 17 / 589 (هو جامع كتاب (نهج البلاغة) المنسوبة الفاظه إلى الإمام علي عليه السلام ولا أسانيد لذلك) ويعتبر الباقر الشريف الرضي حاطب ليل إذ يقول فيه (إن الطعن في نسبة هذه الكلمات إلى الإمام عليه السلام لا يعني النيل من الشريف الرضي بنسبته إلى افتراء الكذب على الإمام عليه السلام ولكن الشريف أخذ خطب الإمام وكلماته من أفواه معاصريه أو من صحافتهم التي كتبوها - علي امام الانمة ص 60)

2- ابن النديم الفهرست ص 128

الذي من أجله جمع كلام الإمام عليه السلام هو: الاستحسان الذي أظهره أصحابه لما ورد في الفصل الأخير من (خصائص أمير المؤمنين) ضمن كتابه (خصائص الأئمة) فقد كان ذلك الفصل يحوي نماذج مقتضبة لما أثر عن علي عليه السلام من مواعظ وحكم وأمثال، فسأله أولئك الصحاب أن يؤلف كتاباً «يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعبات غصونه: من خطب، وكتب ومواعظ وأدب، علماً بأن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواب الكلم الدينية والدينية»<sup>(1)</sup>.

فبلاغة الإمام عليه السلام وسمو أسلوبه هما الأساس الذي من أجله جمع الرضي تلك النصوص، لذلك فإن ذكر الأسانيد والمصادر في مثل هذه الكتب تعتبر من نافلة القول. ولو أراد الرضي هدفاً غير البلاغة لجاءت النصوص بين دفتي النهج متكاملة، ولكن مما يؤسف له ان المنهج الذي اختطه الشريف لنفسه فرض عليه التقيد باختيار النماذج البلاغية حتى لو أحال النص الذي بين يديه إلى أشلاء متناثرة في ثنايا الكتاب وبين صفحاته لأنه يريد «النكت واللمع ولا يقصد التالي والنسق»<sup>(2)</sup>.

ومنهج الرضي في اختيار نصوص النهج، هو ذات المنهج الذي اختطه لنفسه فيما اختاره من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه (مجازات الأحاديث النبوية) إذ لم يعول إلا على الأحاديث التي تتضمن مجازاً، أو حتى على الجزء الذي يوفر له

ص: 37

---

1- مقدمة الشريف الرضي لكتاب نهج البلاغة

2- السابق

الشاهد من ذلك الحديث(1)، ولم يذكر الأسانيد، الا فيما ندر، ومع ذلك لم يثر كتاب (المجازات النبوية) ما أثاره النهج من أفاويل.

إنّ انتقاء الشريف الرضي للشاهد البلاغي من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام حتم عليه اجتزاء جمل قصيرة من خطب متعددة وضمها إلى بعضها بعضاً، وقد أشار شراح النهج إلى الكثير من ذلك، يقول ابن أبي الحديد في تعليقه على أحد نصوص النهج «هذه فصول أربعة لا يمتزج بعضها ببعض، وكل كلام منها ينحوبه أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوبه بالآخر وإنما الرضي رحمه الله التقطها من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر قاله بعد وقعة النهروان»(2)، ونص ابن ميثم البحراني على ذلك في عدة مواضع من شرحه للنهج(3). إلا أن ذلك لا يعني أن الشريف قد سكت تماماً عن ذكر الأسانيد والمصادر في مختاراته تلك، إذ إنه في عرضه لبعض النصوص ذكر إسنادها، من ذلك خطبة (الاشباح)(4) التي ذكر أنها من رواية مسعدة بن صدقة، عن جعفر الصادق عليه السلام(ت 148)، كما ذكر في كثير من المواضع مناسبة النص والمكان الذي قيل فيه

ص: 38

- 
- 1- لاحظ ان معظم ما ورد من أحاديث نبوية في الكتاب من دون إسناد، ثم انه في كثير من مواضع الكتاب يقتصر على ذكر شاهده من الحديث الشريف، راجع على سبيل المثال لا الحصر الصفحات: 27، 57، 60، 67، 69، 102، 103
  - 2- شرح النهج 2/384 وجاء بمثله في 2/298، 3/165، 8/278، 288
  - 3- راجع شرح ميثم 1/285، 289، 2/145
  - 4- راجع نهج البلاغة أو أحد شروح خطبه رقم 90، أما مسعدة بن صدقة الذي روى الخطبة عن الصادق فلا ندري عن سنة ولادته، وهو من أصحاب الرواية عند الإمامية راجع الذريعة 7/191

مما يقربه من التوثيق(1)، على أن ذكر مصادر بعض النصوص موجود في ثنايا الكتاب ولكن بقلّة. هذا وقد تنبه الشراح بعد الرضي إلى أهمية التوثيق وذكر المصادر بعد انتشار النهج وازدياد قيمته، وابتداء الشك في نسبة نصوصه.

ما وصلت إليه عملية توثيق نهج البلاغة منذ القرن السادس الهجري حتى العصر الحديث:

1 - منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - للراوندي (573)(2):

ذكر المؤلف ضمن شرحه أسانيد الخطب الخمس الأول من النهج متصلة بالإمام علي عليه السلام، علماً بأن من ضمن تلك الخطب الخمس ذكر اسناد الخطبة (الشقشقية)(3) التي تعد من النصوص التي اثارَت موجات الشك حول مختارات النهج، إلا أن الراوندي لم يستمر في توثيقه واعتقد ان تجزئة النصوص فيما بعد حالت بينه وبين ذلك.

2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت 656):

يبدو ان ابن أبي الحديد قد عايش موجة الشك التي أخذت في التفاقم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري مما جعله يتصدى لذلك في موضعين(4) من شرحه الكبير. إلا أن أهم ما قام به في هذا الصدد محاولته لتوثيق الكثير من نصوص النهج إما بذكر المصدر وإما بذكر المناسبة وإما بتحديد تاريخ القول. وكان أكثر اعتماده في التوثيق على الكتب التي أرّخت لعصر صدر

ص: 39

---

1- راجع على سبيل المثال خطب 5، 6، 6 / 256

2- راجع الخطب الخمس متوالية في الجزء الأول عنده

3- منهاج البراعة 1 / 131

4- شرح ابن أبي الحديد 1 / 205، 10 / 128 التراث



الإسلام وعلى الكتب التي اهتمت بجمع خطب الإمام علي، ككتاب (الجميل) للوط بن يحيى بن مخنف الأسدي (ت 15)(1)، وكتاب (صفيين) لإبراهيم بن ديزيل الهمذاني(2)، وكتاب (خطب علي عليه السلام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 206)(3)، وكتاب (الجميل) و(صفيين) لمحمد بن عمر الواقدي (ت 207)(4)، وكتايب (الجميل) و (خطب علي عليه السلام وكتبه إلى عماله) لعلي بن محمد بن عبد الله المدائني (ت 215)(5) وكتاب (صفيين) لإبراهيم بن محمد الهاللي

ص: 40

- 
- 1- راجع السابق 205 / 1 ، 305 ، 309 ، 187 / 2 . وقد وردت ترجمة لأبي مخنف عند ابن النديم الفهرست ص 105 ، ياقوت معجم البلدان 41 / 17
  - 2- السابق 310 / 2 ، 254 / 5 ، ولم أعر على تاريخ وفاته، قال عنه الطهراني في الذريعة 15 / 52 «ينقل عنه بن مزاحم في كتاب صفيين». ونصر بن مزاحم من طبقة أبي مخنف الذي كانت سنة ولادته قريبة من (120) كما رجح ذلك عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه لكتاب (صفيين) لنصر بن مزاحم ص 9، وعلى هذا فإن إبراهيم بن ديزيل من نفس الطبقة تقريباً
  - 3- راجع شرح النهج السابق: 1 / 308 ، 2 / 143 ، وقد وردت ترجمة لهشام الكلبي عند ابن النديم - الفهرست 108
  - 4- راجع الشرح السابق 2 / 140 ، 4 / 95 ، وقد وردت ترجمة للواقدي في فهرست السابق ص 111
  - 5- راجع الشرح السابق 6 / 134 ، 7 / 284 ... وقد وردت ترجمة للمدائني في الفهرست ص 113

(ت 283)(1) وكتاب (السقيفة) لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري(2) وكتاب (الأوائل) لأبي هلال العسكري(3) وقد اضربنا عن ذكر المصادر التي رجع إليها ابن أبي الحديد والتي ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا(4).

وهذا وقد ظهر مجهود ابن أبي الحديد التوثيقي في الباب الخاص برسائل الإمام علي عليه السلام وعهوده، وبالذات في الرسائل المتبادلة بين علي عليه السلام ومعاوية، حيث أعاد إلى رسائل الإمام عليه السلام ما حذفه الرضي منها. ولما كان معظم تلك الرسائل أجوبة وردوداً على رسائل كتبها معاوية لعلي عليه السلام فإن ابن أبي الحديد أورد رسائل معاوية تلك، مشيراً إلى مناسباتها التي اقتضتها بتوثيقها من كتب التاريخ والأدب.

ص: 41

- 1- بالرغم من ضياع كتاب (الغارات) لابراهيم بن محمد بن سعيد الهلالي إلا أنه يمكننا تجميع جزء كبير منه بثه ابن أبي الحديد في ثنايا شرحه، حيث اعتمد عليه اعتماداً أساسياً في روايته للغارات التي شنّها معاوية على أطراف البلاد الإسلامية الخاضعة لعلي عليه السلام وموقف علي عليه السلام من تلك الغارات والخطب التي خطبها في أصحابه يستحثهم على الجهاد، أما ترجمة الهلالي فقد وردت عند صاحب موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة 52/5
- 2- راجع الشرح السابق: 44/2 ، 70/4 ، 5/6 ، 252/8 . ويروي في كتابه السقيفة عن محمد بن زكريا الغلابي (ت 296) ويعتقد أنه من رجال النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، سكتت المصادر عن سنة وفاته -عباس القمي 146/2 - الطهراني - الذريعة 12/ 216
- 3- راجع الشرح السابق 196/1 ، 238 ، 271/2 . وردت ترجمة لابي هلال العسكري عند ياقوت من ضمنها «أما وفاته فلم يبلغني فيها شيء، غير أنني وجدت في آخر كتاب عليه السلام (الأوائل) من تصنيفه فرغنا من أملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة» معجم الأدياء 264/8
- 4- من ذلك كتاب صفين لابن مزاحم، وكتب الجاحظ (ت 255) وكتب ابن قتيبة (ت 276) وكتب المبرد (ت 285) وتاريخ الطبري (ت 310) وكتب ابن الأثير (ت 630)...

وبناء على ما أورده المصادر التي اعتمدها ابن أبي الحديد في توثيق نصوص النهج يمكننا قبول مقولة المسعودي (ت 346) السابق الذكر (1) التي أشار إليها أيضاً الجاحظ (2).

3 - شرح نهج البلاغة لميثم البحراني (ت 679):

يكاد يكون شرح البحراني للنهج تحقيقاً بالمفهوم الحديث، فبالإضافة إلى اهتمامه بالنواحي البلاغية، وتركيزه على الجانب الزهدي في نصوص النهج، وشرحها شرحاً صوفياً، بالإضافة إلى كل ذلك فقد اختط الشارح لنفسه خطأ محايداً أدى به إلى رفض شرح أي نص لم يجزم به ويغلب على ظنه انه من كلام الإمام علي عليه السلام (3) وتلك الخطة العلمية حتمت عليه توخي الصحيح.

أما فيما يتعلق بتنسيقه لمادة النهج في شرحه، فقد كانت بين يديه عدة نسخ من النهج وشروحه، لأنه بعد إيراده للخطبة رقم (84) بين اختلاف موضعها في نسخ النهج المتعددة، والسبب الذي دعاه إلى الاعتماد على بعض تلك النسخ دون الأخرى (4).

ص: 42

1- راجع ص 31 وما بعدها

2- أشرنا إلى مقولة الجاحظ في ص 31 وما بعدها من هذا البحث

3- راجع شرح النهج 1/ 251

4- يقول في هذا الصدد «من ها هنا اختلفت نسخ النهج، فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أول المجلد الثاني منه، بعد الخطبة المسماة بالقاصعة، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائي قوله: ومن خطبة له عليه السلام الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد، وكثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متصلة بكلامه عليه السلام للبرج بن مسهر، وتتأخر تلك الخطبة فتكون بعد قوله: ومن كلامه له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسماة بالقاصعة. ثم يليه قوله باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله وعليه جماعة الشارحين كالإمام قطب الدين أبي الحسن الكيدري، والفاضل عبد الحميد بن أبي الحديد ووافقهم هذا الترتيب لغلبة الظن باعتمادهم على النسخ الصحيحة». شرح ميثم للنهج 3/ 413، أما الكيدري (ت 573) فعنوان شرح للنهج: حدائق الحقائق في تفسير دقائق أوضح الخلائق، وهو من الشروح المفقودة - الذريعة 6/ 285

بالنسبة لذكر المصادر والأسانيد لم نجده قد اهتم بها كاهتمام سابقه ابن أبي الحديد ولكن ليس معنى ذلك أنه أغفلها إغفالاً تاماً، ولأنه لم يشأ أن يكرر ما أورده ابن أبي الحديد فقد أعاد إلى بعض النصوص ما تعمد الرضي حذفه مشيراً إلى ذلك كما في قوله «هذا الفصل ملتقط ملفق من خطبة له عليه السلام لما بلغه أنطلحة والزبير قد خلعا بيعته، وهو غير منتظم، وقد أورد السيد منها فصلاً آخر وسنذكرها بتمامها إذا انتهينا إليه إن شاء الله» (1) كما أنه ذكر مناسبة (2) بعض الخطب والرسائل، وفي مواضع أخرى ذكر الأسانيد (3) أو المصادر وذلك بحسب الامكانات المتاحة في عصره. تلك هي الجهود التي بذلت لتوثيق النهج من خلال الشروح التي وصلت إلينا:

توثيق (نهج البلاغة) في العصر الحديث من المعلوم أن جزءاً كبيراً مما ورد في النهج من نصوص، قد وردت في كتب الحديث الأربعة (4) التي يعول عليها الشيعة الإمامية في عقائدهم وعباداتهم

ص: 43

---

1- شرح ميثم 285/1، وايضاً ورد مثلها في 297/1، 115/2

2- راجع السابق 276/1، 295، 99/2

3- راجع السابق 77/2، 195/3، 185/5

4- كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإمامية هي: أ- الكافي - أصوله - وفروعه لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت 329 هـ). ب - من لا يحضره الفقيه - لأبي جعفر بن علي بن بابويه القمي، الملقب بالصدوق (ت 381). ج - تهذيب الأحكام - لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460). د - الاستبصار في أحاديث الأحكام - للطوسي أيضاً

ومعاملاتهم، مع ملاحظة اختلاف الروايات التي لا تخل بالمعاني فيما بينها وبين ما ورد في نهج البلاغة من كلام، مما يرجع عدم اعتماد الرضي في جمع مادته على تلك الكتب التي لم يذكرها لا ابن أبي الحديد ولا ميثم من ضمن مصادرها أيضاً؛ ولما كان تكذيب مادة النهج تعني تكذيب ما ورد فيه من أحاديث شريفة، خاصة أن الشيعة الإثني عشرية يعتبرون رواية الائمة الإثني عشر من ولد فاطمة هي رواية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنه علمهم من علمه، لذا فقد تصدت طائفة من فقهاءهم وأدبائهم لدحض تهمة الوضع عن النهج، وذلك بالبحث عن أصوله في المصادر المعتمدة التي أوردت تلك المآثورات أو أجزاء منها، إضافة إلى أن هناك من علماء السنة وأدبائهم ممن أوردوا في دراساتهم للنهج من الملاحظات ما يدعم صحة نسبة مادة النهج لعلي g، مما يحتم علينا الوقوف على ما ورد في تلك الدراسات التوثيقية المختصة. والاطلاع على ما حوته الملاحظات التي عرضت لنفس الموضوع.

1 - مستدرک نهج البلاغة، للهادي كاشف الغطاء(1):

يبدو أن مقولة محمد حسين آل كاشف الغطاء «عسى أن يوفق الله لأفراد كتاب يجمع أسانيد (نهج البلاغة) من كتب الفريقين، فإني أحس بشدة الحاجة إلى ذلك»(2)، قد بعثت عملية التوثيق في العصر الحديث، وذلك لمواجهة

ص: 44

---

1- صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب على ما اعتقد سنة 1935 م/ 1354 هـ بالنجف واعتمدنا في دراستنا على الطبعة الثالثة

2- محمد حسين آل كاشف الغطاء المراجعات الريحانية 2/ 112 بواسطة عبد الزهراء الحسيني - مصادر نهج البلاغة 7/1

حملات التشكيك المتزايدة، مما حدا بالهادي كاشف الغطاء إلى القيام بما يمكن اعتباره المحاولة الأولى لتوثيق النهج في هذا العصر. مع ملاحظة أن توثيق نصوص النهج لم يكن الموضوع الرئيسي في الكتاب، فالعنوان (مستدرك نهج البلاغة) وهذا يعني أن المؤلف يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى استدراك ما فات الرضي من أقوال أثرت عن الإمام علي عليه السلام؛ يقول في مقدمة الكتاب «كنت فيما سلف من غابر الأيام عازماً على جمع ما تيسر لي مما لم يروه السيد في نهجه من المختار من كلام أمير المؤمنين»<sup>(1)</sup>، وهذا - بطبيعة الحال ما جعله يقتفي أثر الشريف الرضي في تنسيق نصوصه، فمستدركه «يدور على أقطاب ثلاثة: (أولها) الخطب والأوامر (ثانيها) الكتب والوصايا (ثالثها) الحكم والآداب»<sup>(2)</sup>. لذا لم يستوعب التوثيق سوى اربعاً وسبعين صفحة من صفحات الكتاب الممتين والاثنتين والستين. ومعظم صفحات التوثيق تلك كانت للرد على ما أثير حول النصوص من تشكيك.

أما من حيث ذكر المصادر فلم يتمكن المؤلف من توثيق سوى:

ثمانين نصاً من ممتين وأربعة وأربعين نصاً في باب الخطب.

ثمانية وعشرين نصاً من تسعة وسبعين نصاً في باب الرسائل والعهود.

أربع وأربعين حكمة من مجموع أربعمئة وتسع وثمانين.

وبطبيعة الحال فإن ذلك العمل الضئيل بالنسبة لما ورد في النهج لا يعتبر توثيقاً بالمعنى الدقيق لكلمة توثيق لأنه «غير واف بتمام الغرض ولا قاطع من .

ص: 45

---

1- الهادي كاشف الغطاء مستدرك النهج، ص 6، 8

2- الهادي كاشف الغطاء مستدرك النهج، ص 6، 8

لسان الخصم»(1). ولقد وعدنا المؤلف بإتمام عملة ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك. وأهم ما يؤخذ على توثيقه بالإضافة إلى ضآلته:

1 - ذكر مصدر النص وسكوته عن الصفحة والجزء، علماً بأن بعض نصوصه مصدرها تاريخ الطبري أو كامل ابن الأثير.

2 - لم يذكر الطبقات التي استخدمها في توثيقه وتاريخ صدورها، كما انه لم يذكر في خاتمة الكتاب ثبناً بمصادره.

3 - لم يرتب مصادر النصوص ترتيباً تاريخياً في نهاية كل نص وثقه.

4 - لم يشر أثناء التوثيق إلى الاختلاف في رواية النص بين النهج والمصدر الموثق منه وأيهما السابق تاريخياً. إلا أن أهم ما يحتسب للمؤلف في هذا المجال تعبيده الطريق لمن اقتفى أثره وسار على نهجه.

2 - منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة لميرزا حبيب الله الخوئي(2) :

سنقصر دراستنا في هذا الموضوع على الجانب التوثيقي من الكتاب مرجحين التعرض لمادته إلى حين دراستنا الجوانب الفكرية بحسب المواضيع المناسبة لذلك أثناء الدراسة. فقد حاول المؤلف أن يوثق الكثير من نصوص النهج، خاصة المتعلقة منها بالجوانب التاريخية، معتمداً في ذلك على المصادر، إما بالوساطة كسابقه الهادي كاشف الغطاء، وذلك بالتعويل على مصادر ابن أبي

ص: 46

1- مستدرك النهج السابق، ص 259

2- يعتبر هذا الشرح من اكبر شروح النهج في العصر الحديث إذا بلغ واحدا وعشرين جزءا ولو ان مؤلفه الخوئي اتمه لصار اكبر من ذلك. صدرت طبعته الأولى من ايران 1378 1958 ، واعيد تصوير الطبعة في بيروت باصدار مؤسسة الوفاء 1983 واعتمدنا على طبعته المصورة

الحديد وميثم البحراني، أو بالرجوع إلى المصادر دون ذكر أرقام الصفحات أو الأجزاء التي رجع إليها في عملية التوثيق.

والشيء المميز لعملية التوثيق في الكتاب، ذكر النص بتمامه بعد ذكر مصادره مع تبيان الاختلاف والاتفاق بين رواية المصدر وبين رواية (نهج البلاغة)، إضافة إلى تنبيهه للنقص في النص بعد اجتزاء الرضي منه شاهده، بإيراده من مصدره كاملاً تحت فصل في الكتاب بعنوان (تكملة).

وأهم ما يؤخذ على عملية التوثيق في الكتاب:

1 - اعتماده على مراجع وثقت النصوص من مصادر ليست مفقودة، فكان الأحرى به الرجوع في توثيقه إلى تلك المصادر مباشرة.

2 - عدم الالتزام بالترتيب التاريخي للمصادر التي يوثق منها نصوصه.

3 - الاضراب عن ذكر الأجزاء والصفحات أثناء التوثيق، أما اجمالي ما وثقهم نصوص النهج فهو:

1 - إثنان وثمانون نصاً من باب الخطب.

2 - ستة وعشرون نصاً من باب الرسائل والعهود.

3 - لم يوثق شيء في باب الحكم والمواعظ بسبب وفاة الشارح قبل اتمام الكتاب (1).

ولكن رغم ما أخذنا على الكتاب في مجال التوثيق إلا أننا نحدد عذراً لمؤلفه الذي قصد به الشرح لا التوثيق الذي يمكننا اعتباره جهداً مشكوراً على طريق تكامل التوثيق.

ص: 47

1- توقف شرح المؤلف عند النص رقم 228 من الجدولة راجع 15 / 9 واتم الشرح من بعده الحسن بن عبد الله الطبري الأملي راجع 15 / 7 من الشرح

نفسه



مؤلف هذا الكتاب أحد علماء السنة الهنود، فمن بعض الإشارات الخاطفة في الكتاب من استخدام المؤلف عبارة (كرم الله وجهه) للإمام علي عليه السلام بدلا من عبارة عليه السلام التي يستخدمها في الغالب الشيعة فلقد حاول مقدم الكتاب وناشره وهو شيوعي استبدال العبارة الثانية بالأولى في الكتاب، إلا أن السهو، وتردد اسم الإمام علي عليه السلام في معظم الصفحات حالا دون ذلك(2).

يقع هذا الكتاب في ثمان وسبعين صفحة من الحجم العادي، وينقسم على قسمين احتوى القسم الأول على شبهات المشككين في النهج والرد عليها، واختص القسم الثاني بتوثيق النهج وفي هذا المجال تمكن مؤلفه من توثيق:

1 - مئة وخمسة نصوص من باب الخطب.

2 - سبعة وثلاثين نصاً من باب العهود والرسائل.

3 - سبع وسبعين حكمة من باب الحكم والكلمات القصيرة.

والملاحظة التي يجدر الانتباه إليها هنا: أن التوثيق في باب الحكم مازال

ص: 48

---

1- أُلّف هذا الكتاب باللغة الانجليزية ثم صدرت ترجمته بالعربية بقلم عامر الأنصاري سنة 1359 - 1978، عن المطبعة العلمية بقم، إلا أنني أعتقد أن هذا الكتاب كان معروفاً في الأوساط العلمية قبل ذلك بسنوات، لأن صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) عبد الزهراء الحسيني قد اعتمده من ضمن مراجع كتابه الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1968

2- راجع على سبيل المثال ص 13 من الكتاب، كما ورد في المقدمة ما يشير إلى ذلك في قوله «كتاب نهج البلاغة... وهو يحتوي على نخبة من خطب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله حكمه، ومما يضاعف أهمية الكتاب، أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان على بلاغته المبتكرة، أحد الخلفاء الراشدين، أو إماما معصوما عند طائفة من المسلمين» استناد نهج لبلاغة 112

ضئيلاً بالنسبة لما اختاره الشريف الرضي لعلي عليه السلام في هذا الباب، ولكن يمكننا اعتبار ذلك خطوة تخصصية مهمة على طريق توثيق النهج وتبديد ما دار حول نصوصه من شبهات، خاصة أن المؤلف أول من ذكر الجزء والصفحة من بين أولئك الذين سبقوه ممن حاولوا توثيق النهج، كما أنه استخدم بعض المخطوطات (1)، واستعان في مواضع كثيرة بتوثيق ابن أبي الحديد، أما أهم ما يؤخذ على توثيقه فعدم الالتزام بالترتيب التاريخي في ذكر مصادره، خاصة وان لذلك اهمية كبيرة في عملية التوثيق، فجهده بقي محتاجاً إلى من يتمه، وهذا بالفعل ما قام به صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة واسانيده).

#### 4 - مصادر نهج البلاغة لعبد الزهراء الحسيني (2)

صدر الكتاب في أربعة مجلدات، عرف المؤلف في مقدمته مقصوده من

(المصادر) التي سيعتمدها في دراسته التوثيقية فقد ينقل «من مصدر لم يره الشريف الرضي ولم يسمع بذكره ولكن المقصود: أن الكلام من محتويات النهج» (3)، وهو ما فعله سابقوه وإن لم ينصوا على ذلك، لأن البحث في مصادر الشريف الرضي يعد ضرباً من المستحيل بعد أن أصاب المكتبة العربية جراء فتن بغداد وحملات التتار والصلبيين من كوارث، وما حدث للفكر الشيعي من محاربة على أيدي الأيوبيين والمماليك في كل من مصر والشام والعراق (4).

ص: 49

---

1- راجع على سبيل المثال الكتاب ص 11 ، 18 ، 19 ، 33.....

2- صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام 1968 ببغداد واعتمدنا في دراستنا الطبعة الثانية 1975

3- مصادر نهج البلاغة واسانيده 19/1

4- لقد عرضنا لذلك في ص 27 وما بعدها من هذا البحث

هذا وقد قسم الحسيني دراسته التوثيقية تلك إلى ستة فصول:

1 - محور هذا الفصل دراسة في (مصادر نهج البلاغة)، ذكر فيه المؤلف اقسام المصادر التي اعتمدها في تحقيق نسبة ما في (نهج البلاغة) من نصوص إلى الإمام علي عليه السلام وقسم تلك المصادر إلى أربعة اقسام(1)

- الأول: مصادر الفت قبل سنة (400 هـ) وهي سنة جمع نصوص (نهج البلاغة) وقد نقل عنها المؤلف مباشرة.

- الثاني: مصادر الفت قبل صدور (النهج) ولكن المؤلف نقل عنها بالوساطة لضياعها.

- الثالث: كتب صدرت بعد وفاة الرضي ولكنها روت كلام علي عليه السلام المروي في (نهج البلاغة) بإسناد متصل، ولم تمر في طريقها على الرضي ولا على كتابه.

- الرابع: كتب صدرت بعد الرضي أيضاً ولكنها روت كلام الإمام علي عليه السلام بصورة تختلف عما في (النهج) ولم تشر إليه من قريب أو من بعيد.

2 - خصص هذا الفصل لتعريف (نهج البلاغة) وما قيل فيه من مدح وتقريظ قديماً وحديثاً(2).

3 - عرض في هذا الفصل لما اثير حول (نهج البلاغة) من شكوك وحاول تفنيدها(3).

4 - أطلق المؤلف على هذا الفصل اسم (مكتبة نهج البلاغة) ذكر ضمنه فضل

(النهج) على المكتبة العربية، بما أمد بها من شروح ودراسات منذ تأليفه

ص: 50

---

1- راجع مصادر نهج البلاغة واسانيدہ 29/1 - 88

2- السابق 89/1 - 99

3- السابق 100/1 - 201

في القرن الرابع الهجري حتى العصر الحديث، كما ذكر ضمن ذلك الفصل الكتب التي ألفت حول النهج في اللغات الأخرى(1).

5 - خصص المؤلف صفحات هذا الفصل لدراسة حياة الشريف الرضي، جامع (نهج البلاغة)(2).

6 - شرع عبد الزهراء في هذا الفصل في توثيق (النهج) معتمداً ترتيب الشريف الرضي، إلا أن ما يميز دراسته التوثيقية عن دراسة سابقه العرشي:

أنه ذكر نصوص (نهج البلاغة) متكاملة بينما اكتفى سابقه بذكر النص، أو بجزء منه تمكن من توثيقه كما أن أهم ما يميز هذه الدراسة توثيقها لجل نصوص (نهج البلاغة):

1 - فمن باب الخطب تمكنت من توثيق مئتين وثلاثين نصاً

2 - ومن باب المختار من الرسائل والوصايا وثق فيها ثلاثة وسبعون نصاً.

3 - ومن باب المختار من الحكم والمواعظ وثق أربعمئة وخمسة وسبعون حكمة وعبارة قصيرة.

وقد تميز التوثيق في مصادر نهج البلاغة وأسانيده بالخصائص التالية:

1. الدقة في تتبع نصوص النهج في المصادر التي أثرت على المؤلفين السنة والشيعنة إذ لم يعول المؤلف في توثيقه على كتب الشيعة فقط خاصة في النصوص التي حامت الشبهات حول نسبتها، كما أنه أعطى أهمية لمصادر السنة أكثر من اهتمامه برواية الشيعة، ووصلت الدقة بالمؤلف إلى توثيق بعض الفقرات أو حتى الجمل التي وردت في نصوص طويلة، وقد استلزم منه ذلك

ص: 51

---

1- السابق 202 /1 - 273 وقد اعتمد في هذا الفصل على موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة

2- السابق 274 /1 - 279

استخدام أكثر من مصدر لتوثيق فقرة قصيرة في بعض الأحيان.

2. المقارنة بين نصوص النهج وبين مثيلاتها في المصادر الأخرى وتبيان الاختلاف في الروايات، خاصة في حالة تعذر الحصول على مصدر أقدم من النهج للتوثيق منه(1).

3. التزام الترتيب التاريخي في سرد المصادر، وقلما أخل المؤلف بذلك(2).

4. النصّ على ذكر الأجزاء وأرقام صفحات المصادر التي وثق منها، واقتضت الامانة العلمية من المؤلف أن يذكر المصادر التي وثق منها بالوساطة مع النص على المصدر أو المرجع الذي استعان به في ذلك.

5. ذكر أسانيد النصوص التي أمكن الحصول عليها مع تذييل الصفحات بترجمات قصيرة لرجال السند كلما دعت الضرورة(3).

6. أعاد ما اجتراه الرضي من فقرات وعبارات قصيرة إلى نصوصها الأصلية كلما وافته الفرصة لذلك، كما اجتهد في جمع شتات بعض الخطب التي نثرها الرضي في أنحاء متفرقة من كتابه، وقد اعتمد في ذلك على ملاحظات ابن أبي الحديد وميشم البحراني والخوئي بالإضافة إلى مجهوداته. كما لم يفت أنه يذكر

ص: 52

---

1- راجع على سبيل المثال النص رقم 93 الوارد عنده في 182/2 وما بعدها ولإدراك دقته في المقارنة بين الروايات راجع على سبيل المثال رقم 108 من باب الخطب 227/2 وما بعدها

2- التزام الموثق بالترتيب التاريخي يكاد يكون الشائع عنده، راجع نص رقم 25 من باب الخطب 378/1، العهد رقم 27 من باب الرسائل 26/3 وما بعدها، العبارة رقم 302 من باب الحكم 233/4

3- راجع على سبيل المثال تعليقاته على رواية النص 17 من باب الخطب 357/1 وما بعدها

مناسبة النص وتاريخ قوله إذا مكنته مصادره من ذلك(1). إلا أن ذلك العمل الكبير لم يخل من بعض المآخذ منها:

أ - إرجاء توثيق النصوص المتقدمة وذكر مصادرها أثناء توثيقه لنصوص متأخرة في النهج(2) لارتباط كثير من النصوص بعضها ببعض ارتباطاً عضوياً، إذ كان من الأفضل منهجياً أن يذكر المؤلف المصادر أثناء استعراضه للنصوص المتقدمة، ثم يحيل القارئ على تلك المصادر في النصوص المتأخرة، ولكن المؤلف فعل العكس في مواضع كثيرة من كتابه مما أدى إلى إرباك الباحث أثناء بحثه عن مصادر بعض النصوص، وقد وقع ذلك بالخصوص أثناء عرضه لبعض النصوص في باب الخطب والإحالة على مصادرها في باب الحكم، إذ كان الأولى به منهجياً أن يذكر المصادر في الاصل وهي الخطب ثم يحيل عليها في الفرع وهي الحكم التي تعد جزءاً من تلك الخطب.

ب - تعسف توثيق النصوص(3) التي لم يجد مصدراً لها وذلك بإيراد عبارات حولها ذكرها ابن أبي الحديد أو غيره من الشراح أثناء شرحهم وتعليقهم على تلك النصوص مع أن مثل تلك التعليقات والعبارات لا تمت في اعتقادنا - إلى التوثيق بأية صلة.

ص: 53

- 
- 1- لاحظ على سبيل المثال تعليقه على النص رقم 18 وعلاقته بالنص رقم 17 من باب الخطب 362/1 وما بعدها
  - 2- مثال على ذلك ما قاله عند توثيقه النص رقم 105 من باب الخطب «سيأتي الكلام على مصادر هذه الخطبة بحول الله وقوته في الحكمة المرقمة 274 (214/4) وسنعرف هناك ان هذه الخطبة والكلمات القصار 31، 32، 274، 276، (27/4، 29، 214، 216) من خطبة واحدة في مقام واحد 217/2، وراجع أيضاً نص 149 خطب 334/2»
  - 3- راجع على سبيل المثال استنتاجه لتوثيق النص رقم 94 من باب الخطب 186/2

ج - يحاول المؤلف إيهام قارئه بأنه سيدكر مصادر النصوص التي لم يتمكن من توثيقها في خاتمة كتابه(1) مع أن تلك الخاتمة لا تتعدى أن تكون مجرد اعتذار وشكر واعتراف بفضل من اقتبس منهم.

د - قد لا يذكر المؤلف أجزاء المصادر وصفحاتها أثناء توثيقه لبعض النصوص(2) وإن كان ذلك نادراً بالإضافة إلى الاضطراب في إحالته من نص إلى نص آخر ضمن الكتاب

هـ - عدم ذكره المصادر مباشرة أثناء توثيقه لبعض النصوص(3).

وذلك بسبب السرد الطويل الممل الذي لا علاقة له بالتوثيق مما يضيع وقت الباحث في طلب بغيته، خاصة وإن المؤلف لم يلتزم منهجاً محدداً وخطة معينة في إيرادها للمصادر(4)، فتارة يسردها مرقمة بعد النص مباشرة، وتارة أخرى يذكرها في ثنايا الفقرات وهو يعلق على النص، أضف إلى ذلك إشارته السريعة إلى أسماء تلك المصادر باختصارها أو بالاختصار على ذكر مؤلفيها.

ص: 54

---

1- «الكلام على هذا الفصل في كلمة الختام» تلك العبارة استخدامها عند تعذر عثوره على مصدر للنص الذي يريد توثيقه كما في 365/2 ، 72/3 ، 118 ، ولم يشر إلى شيء من ذلك في كلمة الختام تلك

2- مثال ذلك استطراده الطويل أثناء توثيقه نص رقم 3 من باب الخطب 309/1 - 324 وتعليقه الطويل على النص رقم 5 باب الخطب وكيفية ذكره المصادر بإطناب لا داعي له 329/1 وإيضاً 348 344/1 أثناء توثيق النص رقم 13 باب الخطب

3- يراجع السابق

4- لاحظ طريقته في توثيق النص رقم 225 من باب الخطب 170/3 ، ولاحظ توثيقه للنص رقم 6 من باب الرسائل فإنه سرد مصادره بعد استطراد طويل وكان الأولى به أن يذكر المصادر أولاً كما يفعل أثناء توثيقه لمعظم النصوص

لكن كل ذلك لا يغضى من جهده العظيم في توثيق ذلك الكم الهائل منصوص (نهج البلاغة) بالرجوع إلى مئات المصادر، مما جعل من أتى بعده من الموثقين عالة عليه لأنهم لم يقدموا جديداً في ذلك المجال بل وقصروا عن الوصول لما وصل إليه كعبد الله نعمة.

#### 5 - مصادر نهج البلاغة - لعبد الله نعمة (1)

يقع هذا الكتاب في ثلاثمة وأربع وثلاثين صفحة من الحجم العادي وينقسم على قسمين: اختص القسم الأول بالحديث عن نهج البلاغة وما أثر حوله من أقوال، ثم تقنيدها فيما يقرب من مئة وثمان وعشرين صفحة، أما القسم الثاني فقد اختص بالتوثيق وقسمه المؤلف إلى ثلاثة فصول: ذكر في الفصل الأول مصادر ما عقده الشريف الرضي للمختار من خطب الإمام علي عليه السلام وذكر في الفصل الثاني مصادر ما اختاره الرضي من رسائل علي عليه السلام ووصاياه، أما الفصل الثالث فقد جعله لذكر مصادر الحكم والكلمات القصار.

يرى المؤلف أنه بكتابه ذلك قد سد «فجوات عديدة، كانت تنفذ من خلالها اتهامات أولئك المتهمين، وشكوك أولئك الشاكين، من أدباء وعلماء، ومؤرخين، وأن يجد فيه هؤلاء خيوطاً من ضياء تبدد كثيراً من تهمهم وشكوكهم. وذلك حين يجدون فيه حوالي (180) خطبة وموعظة من أصل (242)، وحوالي (60) كتاباً ورسالة ووصية من أصل (78) وحوالي (200) كلمة من الحكم والأمثال وما إليها من أصل (498) كلمة، قد أرجعتها إلى أصولها وربطتها

ص: 55

---

1- طبع هذا الكتاب على مطابع دار الهدى ببيروت 1972 وبالرجوع إلى ثبت المصادر والمراجع في نهايته نرى أن من بين تلك المراجع كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) لعبد الزهراء الحسيني، مما يؤكد أنه قد ألف بعده



وعلى هذا فإن المؤلف لم يستطع أن يقدم لنا في مجال توثيق (نهج البلاغة)، أكثر مما قدمه سابقه، الذي استطاع أن يوثق (نهج البلاغة)، فيما عدا بضع خطب ورسائل وحكم، بالإضافة إلى ذلك فإن مصادره هي مصادر سابقة باختلاف في الصفحات لاختلاف في الطبقات. ونجد بنظرة سريعة في ثبت المصادر والمراجع عند كلا المؤلفين أن مصادر نعمة ومراجعته لا تتعدى المئة والخمسة، بينما بلغت المصادر والمراجع التي اعتمد سابقه عليها مئتين وخمسة وثمانين مصدراً، لذا فإنه لمن نافلة القول المقارنه بين توثيق النصوص عند كليهما، بالإضافة إلى عدم التزام الثاني بالترتيب التاريخي في سرده للمصادر أثناء التوثيق، مما ارجعنا القهقري بعد ان كدنا نبلغ بالتوثيق غايته، وحبذا لو بدا المؤلف من حيث انتهى سابقه بإكمال التوثيق، وحسبه في ذلك عناء خدمة للنهج. وبناء على ما سبق يمكن اجمال عملية التوثيق من خلال الكتب المتخصصة الثلاثة الأخيرة في الجدول التالي:

المادة الخطب والأوامر الكتب والوصايا الحكم والمواعظ عدد نصوص كل باب من أبواب (نهج البلاغة) 244 79 489 عدد النصوص التي وثقها العرشي من كل باب في النهج 150 37 77 عدد النصوص التي وثقها الحسيني في كل باب في النهج 230 73 475

ص: 56

عدد النصوص التي وثقها عبدالله نعمة من كل باب في النهج 180 60 200 بالإضافة إلى ما سبق توجد إشارات لكثير من الدارسين المحدثين الذين تناولوا (نهج البلاغة) بالشرح والتحليل، تكاد تكون بمثابة الدليل على صحة نسبة نصوصه لعلي عليه السلام فالشيخ محمد عبده في تقديمه للكتاب وبعد تبيانه لما حواه من أساليب تتناسب وموضوعاتها من حيث المباني والمعاني يقول «ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (1)» .

كما أنه لم يشر إلى الشك في النهج ضمن تلك المقدمة، وسكوته عن ذلك ثم شرحه لنصوص الكتاب والتعليق عليها بحواش طويلة، يدل على ترجيح اقتناعه بصحة نسبة تلك النصوص لعلي عليه السلام.

أما زكي مبارك فيرى أن الشك في نصوص (نهج البلاغة) ومحاولة نسبتها إلى علماء الشيعة لا يستند إلى دليل علمي، علاوة على ذلك فإن تلك النسبة تجعل من أولئك العلماء عباقرة في اللغة، لمقدرتهم الفائقة على صوغ مثل تلك الأساليب البيانية الرفيعة لذلك فإنه يرى أن «الذين نسبوا نهج البلاغة إلى الرضي يحتجون بأنه وضعه لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية» (2) .

ويقف الشيخ صبحي الصالح رحمه الله وقفه طويلة مع (نهج البلاغة) تتلخص في تحقيقه وفهرسته، فهرسة تكاد تكون مكتملة، ويقينه بصحة نسبه

ص: 57

---

1- مقدمة محمد عبده لشرح النهج 10/1 ، طبعة الأندلس

2- النشر الفني 81 / 1

نصوص النهج لعلي عليه السلام هو الذي دعاه إلى القيام بذلك المجهود الكبير، وفي محاولته لدحض جانب من جوانب الشك في النهج يقول «قد اشتمل كلامه على أوصاف عجيبة لبعض المخلوقات، حملت روعتها ودقة تصويرها بعض النقاد على الارتباب في عزوها إلى أمير المؤمنين، كما في تصويره البارع للنملة والجرادة ولا سيما للطاووس. ولا بد من تحقيق هذا الأمر في غير هذه المقدمة العجلى، وهو ما نسأل الله التوفيق لبيانه في كتاب مستقل اكتملت بين أيدينا معالمه، وسنصدره قريباً بعون الله»<sup>(1)</sup>. ولو كان لديه أدنى شك في نسبة تلك النصوص لبينه، ولما حول معالجتها في كتاب منفرد - لم يصدر حتى الآن - بعد أن عرض لها في فهرسته.

ذلك ما تمكنا من تتبعه من دراسات توثيقية للنهج، ونعتقد أن فيها من الدلالات القوية على صحة نسبة كل ما ورد فيه من نصوص لعلي عليه السلام، ولقد حاولنا من جانبنا - وبالاستعانة بدراسات من سبقنا عمل جدولة بجميع نصوص النهج تمكن الباحث من الحصول على أي نص في أية طبعة من طبعاته وذلك من خلال ما تيسر لنا من طبعات مشهورة منع محاولة توثيق كل نص من تلك النصوص من مصدر يمكن الباحث من المقارنة بين روايته وبين رواية النهج<sup>(2)</sup> لذلك النص، ومن خلال ذلك كله يمكننا اعتبار توثيق نصوص نهج البلاغة قضية مفروغاً منها، بحيث تبدو المطاعن الأخرى مصطنعة، الهدف منها النيل من قيمته الفكرية، لذلك لا بد من مناقشتها.

ص: 58

---

1- مقدمة تحقيق صبحي الصالح لنهج البلاغة ص 12

2- راجع جدولة النهج في نهاية هذه الدراسة

تنحصر مشكلة ما سمي بالتعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما اثارته الخطبة المسماة (الشقشقية)(2) من قضايا خطيرة تتعلق بالولاية والإمامة، إذ يمكن اعتبار تلك الخطبة من أهم النصوص المشكوك في نسبتها إلى الإمام علي عليه السلام، ولقد فند ذلك الزعم كثير من الدارسين للنهج، فالراوندي وثق تلك الخطبة بسند متصل بعبد الله بن عباس الذي تعزى إليه الرواية(3)، ثم ان ابن أبي الحديد قد أفرد فصلاً كاملاً في شرحه للحديث عن تلك الخطبة والمصادر التي حفظتها قبل الرضوي(4)، ونص ميثم البحراني في شرحه على أنه لم يقبلها ضمن نصوص النهج الا بعد تأكده من نسبتها إلى علي عليه السلام دونما أي شك(5)، ولو انصف الدارس لتاريخ علي عليه السلام وعصره لما شك في نسبتها إليه فهي «خير مثال يصور لنا نفس علي عليه السلام الشاكية»(6). وما ورد في تلك الخطبة من شكوى مرة هو

ص: 59

- 
- 1- قال بذلك الذهبي (ت 748) في ميزان الاعتدال 3/ 124 وفي سير أعلام النبلاء 17 / 589، وابن حجر العسقلاني (ت 852) في لسان الميزان 4 / 223، والحوافي في بلاغة الإمام علي عليه السلام ص 121، وأحمد حسن الباقوري في علي إمام الأئمة ص 70
  - 2- النص رقم (3) في باب الخطب دارت حوله دراسات كثيرة تحدث عنها بالتفصيل محمد رضا الحكيمي في كتابه (شرح الخطبة الشقشقية) وسميت بالشقشقية لقول الإمام علي عليه السلام لابن عباس في نهايتها (تلك شقشقة هدرت ثم قرت) والشقشقة وشقشق الفحل شقشقة: هدر لسان العرب المحيط 2 / 343
  - 3- راجع منهاج البراعة 1 / 131 وما بعدها
  - 4- شرح نهج البلاغة 1 / 205 وما بعدها
  - 5- شرح نهج البلاغة لميثم 1 / 251 وما بعدها
  - 6- صبحي الصالح: مقدمة تحقيق نهج البلاغة ص 10

ما اعتبره المشككون (تعريضا)، ويرجع ذلك إلى أحكام مسبقة، مصدرها عدم تجرد بعض الباحثين من ترسبات الماضي أثناء دراسة الحوادث التاريخية مما أدى بهم إلى عدم التفريق بين التعريض والنقد.

فالتعريض لغة خلاف التصريح وهو «التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل وهو حديث مخرج عن عمران بن حصين، مرفوع: أن في المعارض لمندوحة عن الكذب - أي سعة» (1).

وفهم من ذلك أنه نوع من الكذب المغلف المستساغ وليس أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب «أما في المعارض ما يغني المسلم عن الكذب» (2). ولو حاولنا تطبيق معنى التعريض على ما ورد في (نهج البلاغة) من أقوال في بعض الصحابة، سنجد أن معاني تلك الأقوال من الوضوح والصرحة ما ليس في حاجة إلى تورية أو تزوير، فإتسامها بالوضوح ينأى بها عن التعريض، كما يبعتها عن الشتم، فمما لا يتناسب ومنزلة علي بن أبي طالب عليه السلام قول عبد الزهراء الحسيني «ليتني أدري لماذا يمتنع علي عليه السلام شتم خصومه وأعدائه الذين شتموه ونكثوا بيعته، وبغوا عليه وتألّبوا لقتاله؟ وأي إنكار على (نهج البلاغة) إذا نقل فيه شيء من ذلك» (3)، لأن مقولة الإمام «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»، هي إحدى دعائم شخصيته الفذة في التعامل مع من حوله من الناس، فإذا كان هو لا يلتزم بتلك المقولة فكيف يسوغ له

ص: 60

1- ابن منظور لسان العرب المحيط 743/2، الزبيدي تاج العروس 412/18

2- ابن منظور، السابق 344/2

3- مصادر نهج البلاغة واسبابه 118/1

أن يقول لأصحابه الذين سمعهم يسبون أعداءه من أهل الشام «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتُم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر» (1). وما نصح به اتباعه وشيعته من أهل الكوفة، هو ذاته ما قاله في الصحابة وهو ما لا يمكن تسميته بالتعريض أو الشتم، لأن وصف الأعمال على حقيقتها وإظهار أوجه الحسن والقبح فيها هو ما يسمى بالنقد البناء، وهو ما كان علي عليه السلام يعمل به ويدعو أصحابه إلى العمل به أيضاً. فالنقد كتعبير عن الفكر الحر ظاهرة ليست جديدة أو مبتدعة في الفكر الإسلامي، إذ إنها ولدت بمولد رسالة الإسلام، فعمربن الخطاب ينتقد تصرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تنازله لقريش في صلح الحديبية (2)، ويعارض طلب الرسول الدواة والكتف حين وفاته صلى الله عليه وآله وسلم (3)، ومهما تأولنا ذلك وجعلنا له مخارج، فإنه نقد لتصرفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ» (4)، فقد بلغ ذلك النقد في بعض الأحيان حد الصلابة من ذلك قول الخويصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجل، فكيف رأيت، فقال: لم ارك عدلت» (5). كما كان الصحابة أنفسهم ينتقدون بعضهم البعض، وليس أدل على ذلك من قول الخليفة الثاني في الستة الذين رشحهم لإمامة المسلمين (6)، ولو كان يقصد بذلك تجريحهم أو

ص: 61

1- الجدولة - خطبة رقم 200

2- راجع موقف عمر بن الخطاب من صلح الحديبية - تاريخ الطبري 2/ 634 وما بعدها

3- راجع ما أورده ابن سعد في ذلك الشأن الطبقات الكبرى 2/ 243 - 244

4- النجم/ 3

5- ابن هشام - 4/ 138

6- في حوار دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس فيمن يستخلفه عمر لإمامة الناس من بعده قال ابن عباس «فقلت له: أين أنت عن عبد الرحمن بن عوف؟ فقال ذلك رجل ممسك وهذا الأمر لا يصلح إلا لمعط في غير سرف ومانع في غير اقتار. قال فقلت: سعد بن أبي وقاص؟ قال: مؤمن ضعيف، قال فقلت: طلحة بن عبيد الله؟ قال: ذلك رجل يناول الترف والمديح، يعطي ماله حتى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر. قال فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام؟ قال: ذلك يوم انسان ويوم شيطان، وعفة نفس، ان كان ليكادح على المكيلة من بكرة إلى الظهر حتى يفوته الصلاة. قال عثمان بن عفان؟ قال: ان ولي حمل ابن أبي معيط وبني أمية على رقاب الناس وأعطاهم مال الله... تاريخ اليعقوبي 2/ 158

الغض من مكانة احدهم لما رشحه لذلك المنصب الخطير، ويكفي دلالة على ذلك قوله في علي عليه السلام «لو وليهم تحملهم على منهج الطريق، فاخذ المحجة الواضحة، إلا أن فيه خصالاً؛ الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيك للناس مع حداثة السن»<sup>(1)</sup> وبسبب نقد كثير من الصحابة لسياسة عثمان فقد حذر عليهم حتى الكلام، وقد رأى القدماء ان ضربه لعبد الله بن مسعود<sup>(2)</sup> ولعمار بن ياسر<sup>(3)</sup>، ونفيه لابي ذر<sup>(4)</sup> الا بسبب ذلك. فالنقد مشروع في الإسلام، لذلك لا نستبعد ان ينتقد علي عليه السلام الصحابة، وما قاله في خشونة عمر قد سبقه إليه طلحة بن عبيد الله حين علم باستخلاف أبي بكر لعمر وذلك في قوله «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وانت معه؟ وكيف به إذا خلا بهم وانت لاق ربك»<sup>(5)</sup>، كما ان ما قاله علي عليه السلام في عثمان هو عين ما قاله عمر فيه<sup>(6)</sup>.

ص: 62

---

1- اليعقوبي، السابق 2/ 158 ، 170

2- اليعقوبي، السابق 2/ 158 ، 170

3- راجع ابن عبد البر الاستيعاب بهامش الإصابة 2/ 477

4- راجع اليعقوبي، السابق 2/ 171

5- ابن الأثير الكامل في التاريخ 2/ 292 ويمكن مقارنته بما جاء في الخطبة 3 من وصف لعمر في النهج

6- راجع الهامش رقم 5 من هذا الصفحة مع مقارنة قول عمر في عثمان بما جاء في الخطبة رقم 3 فقرة 2، نهايتها

اما الشتم والتعريض فهو أسلوب أولئك الذين يحرصون على الحفاظ على مصالحهم الذاتية ولو أدى بهم ذلك إلى التضحية بقيم الإسلام وتعاليمه، وهو ما يصوره قول عمر بن عبد العزيز «كان أبي إذا خطب فنال من علي عليه السلام تلجلج فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت إلى ذكر علي عليه السلام عرفت منك تقصيراً، قال: أو فطنت لذلك، قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي عليه السلام ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده» (1).

ثم إن مشروعية نقد الرجال في الإسلام ولدت ما يسمى بعلم «الجرح والتعديل» فهل في ذلك من غضاضة من عدم الأخذ من أبي هريرة وهو صحابي «إلا ما كان من ذكر جنة أو نار» (2)، أو أن يقال عن فلان صادق وفلان متروك، وفلان مدلس ما دامت تلك الصفات صحيحة. وعليه فانا متى نظرنا إلى ما ورد في النهج عن الصحابة بنظرة الناقد النزوية، فس نجد أن ذلك يتناسب وواقع الفترة التي عاشها علي عليه السلام في جميع مراحل حياته وليس أدل على ذلك من قول عمر لابن عباس «والله يا بن عباس أن علياً ابن عمك لأحق الناس بها ولكن قريشاً لا تحتمله» (3). علاوة على ذلك فإن نقد الرجال في النهج وإن كان شديداً مؤلماً في بعض الأحيان، إلا أنه في أحيان أخرى يتسم باللين والرفق كما جاء في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (4)، وكما ورد في النص الذي قرظ خلافة عمر في رأي ابن أبي الحديد وفي خلافة أبي بكر في رأي ميثم البحراني (5)، وكما ورد في نص

ص: 63

1- ابن الاثير: الكامل 154/4

2- ابن أبي الحديد - شرح النهج 68/4

3- اليعقوبي - السابق، 159/2

4- راجع نص رقم 96 من باب الخطب الفقرة الخامسة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

5- راجع نص 225 باب الخطب وتفسيره عند كل من ابن أبي الحديد وميثم



ثالث من مدح للأنصار(1). وفي كلتا الحالتين الشدة واللين كان ذلك النقد ينطلق من موضوعية وصراحة لا مجاملة فيها ولا تعريض وذلك يجعلنا ننزل كلام الإمام علي عليه السلام الوارد في النهج المنزلة التي يعنيه الإمام مع عدم تحميل الكلمات أبعاداً أخرى بفعل ترسبات كامنة في النفوس، وإذا ما فعلنا ذلك فسنجد الحقيقة واضحة جلية من خلال ما أسميناه تعريضاً وهو في الحقيقة نقد.

3 - الطول المفرط في بعض الخطب والعهود بما لا يتناسب وادب صدر الإسلام:

يجب أن يكون دارس الأدب موضعياً أثناء دراسته لأية فترة من فترات الأدب. والموضوعية تقتضي منه أن يدرس الملابس التي تحيط بالنصوص موضوع الدراسة بنظرة محايدة ثم يصدر فيما بعد أحكامه. فظاهرة الطول في الأدب نثراً كان أو شعراً لم تكن من اختراع الإمام علي عليه السلام

، فلقد تميز الشعر الجاهلي مع خطابيته بذلك الطول، إذ بلغت معلقة امرئ القيس تسعين بيتاً وبلغت معلقة طرفة ابن العبد مئة وعشرين بيتاً(2)، وبلغت معلقة لبيد تسعة وثمانين بيتاً(3)، كما يمكن اعتبار الحوار الذي دار بين عبد المطلب ممثلاً لوفد قريش وبين سيف بن ذي يزن من النصوص الطويلة(4)، كما أن راجع نص رقم 117 من باب الخطب.

ص: 64

1- راجع أبا زيد القرشي جمهرة اشعار العرب 114 ، 304 ، 237

2- راجع أبا زيد القرشي جمهرة اشعار العرب 114 ، 304 ، 237

3- راجع أبا زيد القرشي جمهرة اشعار العرب 114 ، 304 ، 237

4- راجع ابن عبد ربه العقد الفريد 2/ 24 ، 31 وما بعدها. فإذا ما دخل الشك في خطب الجاهلية تلك، فإن خطب وفود العرب بين يدي الرسول وكتاب صلح الحديبية يمكن اعتبارها من النصوص الجاهلية

خطب وفود العرب بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما تخللها من مناقشات حول الدين الجديد، تعد من النصوص الطويلة نسبياً<sup>(1)</sup>.

ويعد الإطناب من خصائص القرآن الكريم، فإذا ما استثنينا السور الطويلة التي اشتملت على آيات الأحكام نجد بغيتنا في السور الطويلة ذات الموضوع الواحد كسورة يوسف وسورة الكهف.

والطول أيضاً من الظواهر التي تميزت بها بعض خطب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك ما روي «عن أبي زيد الأنصاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل وصلى العصر، فصعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا ما كان وما هو كائن فأعلمنا وأحفظنا»<sup>(2)</sup> ثم أن الكتاب الذي كتبه صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم، وهو أول عهد كتب في الإسلام<sup>(3)</sup>، يفند مقولة عدم تناسب الطول لخطابة صدر الإسلام وعهوده.

والمتمامل في تلك النصوص التي أشرنا إليها يدرك أن الطول والقصر سواء أكان ذلك في الكتابة أم في الخطابة تقرضه المناسبة والحاجة، فالوضع القائم أثناء ذلك هو العنصر الأساسي الذي يحدد الطول والقصر، لذا فإن من يحاول المقارنة في أساليب الخطابة والعهود، بين عهدي أبي بكر وعمر وبين عهد علي عليه السلام دون دراسة الظروف والملابسات التي حدثت في كل عصر فانه بذلك يلغي أثر الحوادث في مجرى التاريخ.

ص: 65

1- المصدر السابق

2- البنا الفتح الرباني 21 / 372 والحديث مروى في مسند أحمد بن حنبل

3- راجع ابن هشام السيرة 2 / 147 150

فَعَصَرَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا جَذْرِيًّا عَنْ عَصَرَ مِنْ سَبْقِهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ الْمُدَّةُ الزَّمْنِيَّةُ بَيْنَ عَهْدِهِمْ وَعَهْدِهِ قَصِيرَةً جَدًّا فِي حِسَابِ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّ تَغْيِيرَ الْعَقْلِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَفْتِيحَهَا بَعْضَ الشَّيْءِ عَلَى طَابَعِ الْجَدَلِ بِفِعْلِ التَّفَاعُلِ الْحَضَارِيِّ، أَدَّى بِالْعَرَبِيِّ ابْنَ الصَّحْرَاءِ إِلَى التَّسَاوُلِ عَنِ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِي مَجْرَى الْحَوَادِثِ فِي مَحَاوِلَةٍ لِمَعْرِفَةِ أِبْعَادِهَا وَمَشْرُوعِيَّتِهَا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ فَتَحَّ بَابُ الْجَدَلِ عَلَى مَصْرَاعِيهِ. فَهَلْ كَانَ مِنَ الْحَقِّ قَتْلُ عُثْمَانَ؟ وَمَدَى مَشْرُوعِيَّةِ مَحَارِبَةِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَمَعَهُمَا عَائِشَةُ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِمَاذَا اسْتَحَلَّ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِتَالَهُمْ وَلَمْ يَسْتَحَلَّ سَبِيهِمْ وَتَقْسِيمَ أَمْوَالِهِمْ كَغَنِيمَةِ حَرْبٍ؟ وَهَلْ كَانَ مَعَاوِيَةَ عَلَى حَقٍّ فِي تَمَسُّكِهِ بِدَمِ عُثْمَانَ بِتَنْصِيبِ نَفْسِهِ وَلِيًّا لِذَلِكَ بِالْاعْتِمَادِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا» (1)؟. وَمَا مَدَى الصَّوَابِ فِي اسْتِخْدَامِ الْخَوَارِجِ شِعَارَ «لَا حَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»؟ (2).

فَاعْتِمَادُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ دُونَ تَأْوِيلِهِمَا هُوَ مَا كَانَ مَعْمُولًا بِهِ قَبْلَ خِلَافَةِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَّا وَقَدْ بَدَأَ الْفِكْرُ الْعَرَبِيُّ فِي التَّطَوُّرِ، وَأَخَذَتْ رُوحُ الْجَدَلِ تَتَّبِعُ مَكَانَتَهَا، فَلَا بَدَّ مِنْ اتِّسَاعِ نِطَاقِ الْقَوْلِ لِقَرَعِ الْحِجَّةِ بِالْحِجَّةِ. فَاسْتَشْهَدَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ ضَمَّنَ جَيْشَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَادَ أَنْ يَشِيرَ فِتْنَةً فِي جَيْشِ مَعَاوِيَةَ اعْتِمَادًا عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِعِمَارٍ «تَقْتَلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ» (3). وَقَدْ تَدَارَكَ مَعَاوِيَةَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ «إِنَّمَا قَتَلَهُ مِنْ أَتَى بِهِ» (4) . وَحِكَايَةُ الْكُوفِيِّ، وَادْعَاءُ الشَّامِيِّ فِي جَمَلِهِ،

ص: 66

1- الإسراء / 33

2- تاريخ الطبري 55 / 5

3- ابن هشام السيرة 142 / 2

4- تاريخ الطبري 41 / 5 ، وراجع تعليق الإمام علي على تلك المقولة، خطبة رقم 140

وحكم معاوية للشامي على حساب حق الكوفي(1) تحمل من دلالات التضليل أكثر مما تحكيه من طرافة. أضف إلى ذلك قول علي عليه السلام إلى ابن عباس حين أرسله إلى مناظرة الخوارج «لا تخصصهم بالقرآن فانه حمال ذو وجوه ولكن حاكمهم بالسنة»(2). فذلك يبين بوضوح مدى ما بلغه الجدل في عصر علي عليه السلام. كما ان اعتزال بعض الصحابة علياً ومعاوية قد طرح كثيراً من التساؤلات التي لا بد من ايضاحها. ولا يتأتى معالجة كل تلك المشاكل الا بالأقوال الواضحة المبنية على الحجج المقنعة، لكشف أساليب التضليل، وفصح التأويلات الباطلة وهذا ما جعل علياً وهو قطب رحا المعركة يراوح بين الطول والقصر في خطبه حسبما تقتضيه الظروف.

فالمناسبة والظرف المحيط بها - وليس العصر - هما اللذان يحددان نوعية الكلام، فقد لا يؤدي الكلام الموجز في بعض المواقف ما تحتاجه المناسبة من إطالة وشرح يمكن اعتباره في عرف الأدباء إيجازاً، لأن الإيجاز لا يعني قصر العبارة بل يعني ملائمة المقال لمقتضى الحال، فالإيجاز بمعنى الاختصار «ليس بمحمود في كل موضع وبمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال، ولو كان

ص: 67

- 
- 1- الحكاية كما يرويها المسعودي في مروج الذهب 41 /3 - ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له في دمشق في حالة منصرفهم من صفيين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفيين، فارتفع امرهما إلى معاوية واقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقتة فقضى معاوية على الكوفي، وأمر بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: اصلحك الله انه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وساله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً اني اقاتله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل
- 2- نهج البلاغة وشرحه رسالة رقم (77)

الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل ذلك، ولكنه اطل تارةً للتوكيد وحذف تارةً للإيجاز، وكرر تارةً للإفهام»(1).

لذلك فإن القول بعدم تناسب بعض الخطب والعهود الماثورة في النهج عن علي عليه السلام وعصر صدر الإسلام، لا يتفق وروح الأدب، لأن قائله لم يضع في عتباره ما ابتلي به الإمام عليه السلام في عصره من مشاكل ومحن، خاصة ان تلك النصوص التي قيل عنها انها طويلة لو وضعت في مكانها الصحيح من التاريخ الإسلامي لتمكنا من خلالها من استلهاهم «نظراته الثاقبة، وآرائه البعيدة في مبادئ السياسة، وأساليب، حكم الرعية، وإدارة شؤونها، والحرص على دفع الفتن عنها حتى تعيش في بحبوحة العز والرخاء»(2).

4 - الوصف الدقيق المستوفي لجميع أجزاء الموصوف(3).

إن وصف علي عليه السلام للخفاش وللطاووس هو أساس تلك التهمة، فأحمد الحوفي على ما يبدو قد قبل ما جاء من وصف للنملة في النهج سوى طريقة أكلها(4)، كما انه قد تجاوز عن وصف الجرادة سوى ما جاء في وصف عينها(5)، واستبعد نسبة وصف الخفاش لعلي عليه السلام خاصة وصف أجنحته(6)، كما واستبعد أيضاً

ص: 68

- 
- 1- ابن قتيبة - أدب الكاتب ص 19
  - 2- صبحي الصالح - مقدمة تحقيق نهج البلاغة، ص 11
  - 3- من جملة الشكوك التي وجهها أحمد أمين لنصوص النهج قوله «هذا إلى ما فيه من معان دقيقة على أسلوب لم يعرف الا في العصر العباسي كما نرى في الطاووس» فجر الإسلام ص 149
  - 4- محمد عبد المنعم خفاجي بلاغة الإمام علي ص 104 ، 105 ، 106
  - 5- المصدر نفسه
  - 6- المصدر نفسه

نسبة وصف الطاووس لعلي عليه السلام خاصة ما ورد في وصف السفاد(1) كما لم يقبل ما جاء من وصف دقيق «لجسم الطاووس وريشه وساقيه وتحليله لصياحه»(2) ويمكن تقسيم الوصف المشكوك في نسبته لعلي عليه السلام من تلك الأوصاف إلى قسمين:

1 - ما هو مقبول جزئياً.

2 - ما هو مرفوض كلياً.

ان قبول جزء من كلام ما وحذف جزء اخر منه، دونما دراسة دقيقة لذلك، لا يتسق وطبيعة البحث في النصوص الأدبية. إذ يفترض في الدارس أثناء معالجته للجزء المقبول والجزء المرفوض ان يلاحظ ما اسماه عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم المتمثلة في دراسة العلاقة بين المفردات والجمل في البنية الأساسية للنص، لأن النظم ليس (سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض)(3). فإذا ما تمكن الباحث من تحليل نسيج النص قيد البحث، ودرس علاقات الألفاظ فيه دراسة مقارنة، بعده يمكنه إصدار حكمه. إذ لا يمكن في مجال تلك الدراسات ان نصف فصاحة تلك النصوص «وصفاً مجملاً، ونقولها قولاً مرسلًا، بل لا تكون معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتسميتها شيئاً شيئاً»(4)، وبعد ذلك إذا ما لوحظ ثمة تفاوت أو اختلاف بين الجزئين فلا مجال للموافقة على النص بأكمله بسبب دخول الزيف في نسيجه،

ص: 69

1- المصدر السابق

2- المصدر السابق

3- دلائل الاعجاز المقدمة (ص 30 - 31)

4- دلائل الاعجاز المقدمة (ص 31)

وإلا فإن الأحكام العامة غير المعللة لا يمكن قبولها في مجال البحث.

فقد جاء في وصف النملة بين المقبول والمرفوض في نهج البلاغة: «انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبَّت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدّها في مستقرّها. تجمّع في حرّها لبردها، وف وُودها لصدريها، مكفول برزقها، مرزوفة بوقفيها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجامس! ولو فكرت في مجاري أكلها، وفي علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينيها وأذنيها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً فتعال الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها! ل يسرّك في فطررتها فاطر، ول يعنه على خلقها قادر» (1).

فبالتمعن فيما اجتزانا من وصف للنملة، نلاحظ انه لا يكتمل معناه ولا تتم الغاية منه، الا إذا وضعناه في سياقه الاصلى، لكونه جزءاً أصغيراً من كل متكامل، الا ان الدراسة اقتضت ذلك. فلورجعنا للنص ثانية وحذفنا من سياقه ما هو مشكوك فيه من كلام وقلنا:

«انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر...

إلى قوله: ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس ثم انتقلنا بعد حذف ما هو مشكوك فيه إلى قوله: لقضيت من خلقها عجباً... بقية النص»، لوجدنا ان البناء الداخلي للنص يختل بحيث يأبى العقل قبوله، بسبب النقلة المفاجئة بين وصف النملة غير المكتمل والتفكر في قدرة الله تعالى، هذا من حيث المعاني في السياق.

أما من حيث نسق الجمل وجرس الألفاظ فيجدر ملاحظة الأمور التالية:

ص: 70

الجزء المقبول الجزء المشكوك فيه انظروا إلى النملة:

في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر.

كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعددها إلى مستقرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها لو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها

1 - بناء النص في كلا جزئيه على الجمل القصيرة ذات الطابع التأملي العميق الهادئ والاعتماد على حروف الجر وضمير الغائبة، مما يعني صدورها من مجرى نفسي واحد.

2 - التناسق التام في العلاقة الترابطية بين الجمل باستخدام الفصل والوصل، ويتضح ذلك من ربط كل جملتين مشتركيتين في ابراز معنى جزئي بواو العطف، مثل ذلك: «لا تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر»، و«ما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها»، مع ملاحظة أن الفصل في كلا القسمين لا يكون إلا في الانتقال من فكرة جزئية إلى فكرة أخرى تكون في خدمة المعنى العام للنص، إذ لم يستخدم العطف أو بالأحرى الوصل الا بين الجمل التي تتكامل في معانيها، ولم يستخدم الفصل إلا في الانتقال بين الأفكار

ص: 71



الجزئية التي تكون العناصر العامة لبناء النص متكاملًا، هذا ولم يخالف مؤلف النص ذلك النسق إطلاقاً وفي جميع الفقرات رغم طول النص وتنوع الأفكار فيه.

3 - التجانس التام بين جرس الألفاظ من حيث مخارج حروفها وتكامل معانيها مما يجعل المواءمة بين القسمين واحدة لا انفصام فيها.

أما ما ورد في النهج من وصف للجرادة فهو «وإن شئت قلت ف الجرادة، إذ خلق لها عَيْنَيْنِ حَمْرَ أَوْيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَادِقَتَيْنِ قَمْرَ أَوْيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْحَهْفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحَسَّ الْقَوِيَّ، وَنَاتَيْنِ بِمِهَا تَقْرُضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِمِهَا تَقْبُضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إِصْبَعًا مُسْتَدَقَّةً» (1).

فالمشكوك فيه كما يرى الحوفي هو العناصر التالية: «اذ خلق لها عينين...»

حتى قوله: منجلين تقبض بهما». وعلى هذا يصير المقبول من وصف الجرادة «وان شئت قلت في الجرادة يرهبها الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون دبها...»

إلى آخر الفقرة». وهذا بطبيعة الحال لا يتسق ووصفه السابق لشكل النملة ولا لوصف بقية الظواهر الطبيعية التي وردت في سياق النص، فالتفصيل والدقة في تلك لا تناسب والاختصار في هذه. ثم إن علاقة علي عليه السلام بالجرادة - سواء أكان بالمدينة أم بالكوفة - كانت علاقة مباشرة فلقد كان بالمدينة - على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعهد أبي بكر وعمر وعثمان -

ص: 72

يمارس مهنة الزراعة(1)د، كما كان ولّ أمر المسلمين حين أقام بالعراق تلك البيئة الزراعية، فلا بد انه صادف في حياته تلك زحف أسراب الجراد وما يحدثه من كوارث كانت موضع اهتمامه كما كانت موضع اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبله. من ذلك دعوته صلى الله عليه وآله وسلم على الجراد بقوله

«اللهم أقتل كبارهم، واهلك صغارهم واقطع دابره، وخذ بأفواهمها عن معاشنا ورازقنا، إنك سميع الدعاء»(2). وعلى هذا فإن احتكاكه المباشر بالجرادة في كلتا البيئتين أتاح له التأمل في خلقتها، فتولد عنه ذلك الوصف الذي شك في نسبته إليه.

فإذا ما عدنا بعد هذا إلى ما ورد من وصف للجرادة عند علي عليه السلام لنضعه في مكانه من الخطبة التي اجتزنا منها، سنلاحظ اندماجه التام مع الأفكار الأخرى التي بنيت عليها من حيث الوصف والغاية، إضافة إلى ذلك فإن جمل نص وصف الجراد وعباراته تكاد تكون جزءاً من بناء متكامل من حيث مقاطع الجمل وترتيب الفواصل فيما بينها، مما يجعلها تتناغم في جرس مخارج ألفاظه متزنة في بناء كلماته، فمطلع النص:

الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد(3)

ولا تحويه المشاهد

ولا تراه النواظر

- الجزء الثاني في الصلاة على النبي:

ص: 73

1- من ذلك انه حفر عين أبي نيزر بيده كما جاء في معجم البلدان 176/4

2- ابن الأثير جامع الاصول 274/8

3- يمكن ملاحظة ذلك من قراءة الخطبة السابقة كاملة ب فقراتها الست. والآية من سورة الرعد 15/

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي

وأمينه الرضي

- الجزء الثالث في معنى التأمل في قدرة الله وعظمته وقد ورد الوصف ضمنه:

لوفكروا في عظيم القدرة

وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق

ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدحولة

ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه...

وصف النملة: انظروا إلى النملة في صغر جثتها...

وصف الكون: وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء...

وصف الجراد: وإن شئت قلت في الجراد...

خاتمة النص: فتبارك الله الذي يسجد له «من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً» فجعل النص ومقاطعته تتبع في نسقها نظاماً واحداً مبنياً على التتابع الموسيقي المصطلح عليه بلاغياً بالازدواج، فلكل جملتين متعاطفتين نسقاً موسيقياً واحداً مع ارتكاز تام على الجمل القصيرة الهادئة، التي لا يزيد طول الواحدة منها في أغلب الأحيان على الثلاث كلمات، وتتابع تلك الجمل داخل النص أتاح لواو العطف لأن تكون الرابط الرئيسي في حركة الوصل. إذ تكون من مئة واحد وعشرين جملة في ست فقرات استخدمت واو العطف خلالها مئة مرة وواحدة.

أضف إلى ذلك الترابط الوثيق بين الأفكار والمتمثل في التنقل بين أساليب الخطاب من الحديث عن جمع الغائبين إلى الحديث عن المفرد الغائب فالمفرد

المخاطب، وتجنب الوعظ المباشر لثقل وطأته على النفوس، ومحاولة الأخذ بفكر المستمع في رحلة تأملية في واقع الخلق وعظمة الخالق تؤدي في نهايتها إلى الغاية المطلوبة من الخطبة، كل تلك العناصر مجتمعة تدل دلالة قاطعة على التوحد في أسلوب الخطبة وصدورها من مجرى نفسي واحد مما يبعد بعض فقراتها عن الشك.

2 - ما هو مرفوض كلياً من نصوص في نهج البلاغة ويتمثل في:

أولاً: وصف الخفاش (1):

رغم إننا لم نعثر على مصدر للخطبة التي ورد وصف الخفاش ضمنها إلا أننا نرجح نسبتها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن وصف الخفاش لم يكن بدعاً في الإسلام، فلقد جاء في تفسير قوله تعالى «أَنَّ قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنَّ أَلْخُلُقَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ» (2) ان الطير المذكور في الآية هو الخفاش، فقد «ذكر انه لما اراد ان يخلق الطير من الطين سألهم أي الطير أشد خلقاً فقليل له الخفاش» (3) ، «ويقال: إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه انه لحم ودم، يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، ويضحك كما

ص: 75

1- راجع الخطبة رقم 155

2- آل عمران / 49

3- تفسير الطبري 9/3

يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة»(1). فبالمقارنة بما ورد من وصف للخفاش في تفسير الذكر الحكيم وما جاء من وصف له في (نهج البلاغة) لانجد ثمة اختلاف الا في الصياغة والأسلوب في محاولة لتجسيد الصورة لإبراز ما في ذلك الحيوان العجيب من إبداع للتدليل على قدرته سبحانه خاصة ان ذلك الوصف لم يرد في النهج إلا ضمن سياق خطبة وعظية تأملية.

ثم إنه بدراسة أسلوب النص وتحليل معانيه، سنجد أنه لا يكاد يختلف عما ورد في النهج من نصوص وعظية تعمد إلى التأمل وتتسم بالنظرة الواقعية، وتمتاز بكثرة الفواصل بحيث يمكن آدماج النص في بناء الوعظ المتكامل الوارد في النهج دون ان يحدث أي نشاز في المجرى العامل لتلك النصوص، لأن البناء الكلي يهدف إلى غاية واحدة تكمن في محاولة تأكيد قدرة الخالق والايمان به في نفوس بدأت الحياة المادية تجرفها. فلو اجتزانا وصف الخفاش من سياقه ووضعناه مكان وصف النملة أو حتى بجانبه لوجدنا ان منبع كلا النصين واحد «كالجسيم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية»(2)

ثانياً: وصف الطاووس(3) :

لم تتمكن من العثور على مصدر قبل النهج للخطبة التي ورد وصف الطاووس ضمنها، الا ان ما يرجح نسبتها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وورد

ص: 76

---

1- القرطبي - الجامع لاحكام القرآن 4 / 94

2- ابن أبي الحديد - شرح النهج - 10 / 28

3- ورد وصف الطاووس ضمن خطبته رقم 166

جزء منها في (ربيع الأبرار)(1)، كما فسر غريبها في عدة مواضع من (النهاية في غريب الحديث)(2)، الذي جعلنا نميل إلى تصحيح نسبتها: نص كلا المؤلفين على نسبتها إلى علي عليه السلام بما لا يدعو إلى الشك، وعدم استخدامها العبارات الترجيحية أثناء إيراد أجزاء من الخطبة على الرغم من استخدام تلك العبارات عند شكهم في نسبة نص إلى قائله أو جهلها لذلك القائل(3)، علاوة على ذلك تعديل كليهما عند علماء الرجال، لأخذهما في كتبهما بالروايات الصحيحة، وتحريهما الدقة في النقل(4).

ذاك عن توثيق النص من المصادر المعتمدة، أما من حيث الأسلوب فالنص لا يكاد يختلف في معانيه عما ورد في وصف النملة والجرادة والخفاش، إلا بما يتناسب والحيوان الموصوف من مفردات لغوية، فالقاموس اللغوي العام هو لا يكاد يتغير إلا بما يتناسب وجانب الرؤية، والجرس اللفظي لم يتغير من حيث تدفقه النابض بالإيمان العميق النابع من أعماق نفس عاشت معاني القرآن الكريم لتخرج منه بتلك الأوصاف التي يمكن اعتبارها ظلاً وإرفاً

ص: 77

1- الزمخشري 293 / 1

2- راجع ابن الأثير: 37 / 1 ، 140 / 2 ، 238 / 3 ، 470 307 ، 144 / 4 ، 123 / 5

3- مثال ذلك ما ورد عند ابن الأثير في غريب الحديث 31/5 «منه حديث علي، وقيل عمر». لأنه لم يتأكد من نسبة الحديث. وكذلك 32/5 : «منه حديث عمر وقيل علي». وقال ابن أبي الحديد عن الزمخشري «مذهبه الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم وكذلك في انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقالاتهم» شرح النهج 280/9

4- قال ياقوت عن الزمخشري معجم الأدباء 19 / 26 «كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفنناً» وقال ابن خلكان عن ابن الأثير «إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم» وفيات الأعيان 348 / 3

لمعاني التنزيل، جاهد علي عليه السلام بكل طاقاته اللغوية والبلاغية لإسباغه على الحياة ليلتجئ إليه اللاهثون من تعب الجري وراء حياة لا محالة من زوالها.

والوصف مهما بلغ من الدقة لم يكن علي عليه السلام أول من ابتكره، فقد سبق الجاهليون إليه والشعراء منهم خاصة، فوصف طرفة بن العبد لناقته ضمن معلقته، قد بلغ من الدقة ما أدى بطه حسين إلى الشك في نسبته إليه بسببما حواه ذلك المقطع من الغريب بما لا يتناسب وسهولة المفردات التي تميزت بها بقية المعلقة(1)، لكن المتأمل في ذلك الوصف ومحاولة دمجه في موقف الشاعر، يخلص إلى أن الوحدة المعنوية لموضوع المعلقة هو ما جر الشاعر إلى انتهاج ذلك الوصف الدقيق الوعر وعورة نفسه المتألّمة، فالمعلقة بأكملها تصور الحياة من وجهة النظر القائلة، بأنها لا يمكن أن تكون على وتيرة واحدة. كما يتجلى لنا روعة وصف الطبيعة عند لبيد(2) ضمن معلقته عاكسة خيبة امله وتألّمه لما أحدثه الزمن من تشويه في ربوع كانت عزيزة على نفسه.

على أن الأمثلة من الشعر الجاهلي قد لا تحقق غايتنا المرجوة للتدليل على ما نحن بصدده من دقة وصف أثر عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة)، لأن ذلك الشعر ابن بيئته، ولم يصف شيئاً من خارج تلك البيئة، أما الطاووس فبعيد كل البعد

ص: 78

---

1- مطلع وصف ناقه طرفة (طويل): واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي جمهرة القرشي 308

2- راجع ما قاله طه حسين عن ناقه طرفة حديث الأربعاء 58/1

عن بيته علي عليه السلام كما يرى كثير من الشاكين، الا ان الوصف عند الجاهليين يقربنا مما نحن بصدد اثباته، لأننا لا نريد المقارنة بين الوصفين الجاهلي بيته ووصف الإمام علي عليه السلام للطاوس الا من حيث الدقة التي تحتاج إلى عين ثاقبة في الأشياء ونفس متأملة شفاقة يمكنها ملاحظة كل صغيرة وكبيرة في المحيط الموصوف لتوظيفها فيما يتيح استكمال الصورة من جميع جوانبها، علماً بأن عنصر دقة الملاحظة لا يمكنه أن يؤدي المطلوب الا إذا دعم بثقافة عميقة متعددة النواحي يكون للبيئة أثر كبير في بلورة تلك الثقافة وصيغها بسماتها، التي عادة ما تكون بارزة في النتاج الأدبي الذي ينتمي إليها، وهذا ما جعلنا لا نقتنع بالمقارنة بين ما ورد من وصف عند الجاهليين وبين ما ورد من وصف منسوب في النهج لعلي عليه السلام، الا في حدود عنصر الدقة، مما يعني اختلاف الوصف في النهج من حيث المضامين والاساليب والاهداف التي تتناسب والإسلام في صورته الناصعة، ومن هنا يمكننا ان نقول: بأن القرآن الكريم لم يترك صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالحياة الا وتناولها بالوصف المفصل أو المجمل اللماح، وفي كلتا الحالتين فتح باب التأمل والتفكير مشرعاً للمسلم ليزداد من خلال ذلك التأمل ايماناً وليقوى يقيناً بنظراته إلى الحياة نظرة شاملة بتأملها في الذرة الصغيرة المتمثلة في الخردلة إلى الإنسان في نفسه بنفسه فمن الوصف البالغ الدقة في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ مِّلَّةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَعْصُوعَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا عَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا حَسَنًا نَاهٍ خَلَقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَنْشَأَ مَا تُمُّ أ



الخالقين<sup>(1)</sup>. فذلك الوصف المتناهي في الدقة يدعو صادق الإيمان الى التأمل منطلقاً من نفسه الى ان يشمل تأمله المخلوقات الاخرى، خاصة إذا كان المتأمل قد رضع الإسلام وشم ريح الوحي وتربع في احضان النبوة. لذا فإن وصف الطاووس هو انعكاس الألوان زاهية استلهم علي عليه السلام معانيها من أوصاف الجنة التي وردت في القرآن الكريم، ثم ان وصف صياحه تألماً، ليس الا إثباتاً بأن الكمال لله سبحانه. فمهما بلغ المخلوق من الحسن والجمال فإنه بعيد المنال عن الكمال، إذ لو حاولنا تتبع مصدر ذلك الوصف الدقيق في النهج فسنخرج بنتيجة فحواها: ان تلك الأوصاف لن يقدر على تصويرها في أسلوبها الرائع ذلك الا من عايش كتاب الله معايشة عميقة ومباشرة، وهو ما ينطبق على حال علي عليه السلام، الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه «اكرمهم سلماً، واكثرهم علماً واعظمهم حِلماً»<sup>(2)</sup> فلقد «اعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مؤثقة»<sup>(3)</sup>. ثم ان الوصف من الموضوعات التي اهتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها، فقد جاء في صحيح مسلم باب خاص مأثور عن النبي في «الجنة وصفة نعيمها واهلها»<sup>(4)</sup>، اضافة إلى ذلك وصفه صلى الله عليه وآله وسلم للفتن واشراط الساعة<sup>(5)</sup>. لذا فإنه لا يستبعد ان تكون موضوعات الوصف المذكورة في (نهج البلاغة) من كلام علي بن أبي طالب، عليه السلام خاصة أنها لم تكن مقصودة لذاتها فتوظيفها المحكم في قضايا الإيمان والتوحيد تؤكد تلك النسبة.

ص: 80

1- المؤمنون/ 14

2- المحب الطبري ذخائر العقبى ص 78 - 79

3- المحب الطبري ذخائر العقبى ص 78 - 79

4- مسلم بن الحجاج - 4 / 2174 حتى 2206 - 2207

5- المصدر السابق نفسه

وردت في نهج البلاغة نصوص عالجت قضايا التوحيد، ونفي الصفات عن الخالق سبحانه وبسبب اختلاف المذاهب الإسلامية في هذا الصدد انكر بعض الدارسين نسبة تلك النصوص إلى علي ع بحجة عدم تناسب تلك الأفكار وروح عصر صدر الإسلام، لأنهم يرون ان الجدل حول التوحيد والعدل ونفي الصفات، وغيرها من القضايا التي تتعلق بالخلق والخالق لم تظهر الا في فترات متأخرة، إلا أنه إذا ما ثبت توثيق بعض من تلك النصوص بصحة نسبتها إلى علي عليه السلام، فإن ذلك يدحض تلك المقولة، وهذا ما سنحاول اثباته قبل مناقشة القول من جوانبه الأخرى.

يعتبر النص الأول من باب الخطب في النهج من أطول النصوص واشملها حيث ابتداءً بخلق السماء والأرض، وخلق آدم، واشتمل على جوانب هامة وكثيرة من علم التوحيد، وتنزيه الخالق عن الصفات، وخلق السماء الأرض وقصة آدم، ومعصية إبليس، وهبوط آدم إلى الأرض ثم تكليف الرسل، واختتام الرسالة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم وصف القرآن الذي أنزل على الرسول وما حواه الكتاب الكريم من علوم، وعلاقة ذلك بالسنة النبوية الشريفة، ثم ختم الخطبة بذكر الحج. فالخطبة من النصوص الطويلة نسبياً التي أوردها الشريف الرضي، إلا انه لم يذكر إسنادها ولا المصدر الذي أخذ منه. وهي الخطبة التي حامت حولها

ص: 81

---

1- أشار إلى ذلك العقاد في عبقرية الإمام ص 43 بقوله «ربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علي - رضي الله عنه - لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لا بد ان يمازجها من علوم القرن الثالث وبعده» هذا وقد توسع الحوفي في كتابه بلاغة الإمام وركز في شكه على النص الذي قمنا بتوثيقه، راجع الكتاب المذكور ص 26 وما بعدها

الشكوك في سياقها بالتفصيل، فهي المثال الذي يتخذه أولئك ذريعة لاتهامهم جانب التوحيد والعدل في النهج. ولكن بتتبعنا لها في المصادر الاخرى تأكد لنا انها مما أثر عن علي عليه السلام، خاصة الجزء المشكوك فيه منها.

فمن ذلك ذكر الراوندي إسندها المتصل بعلي بن أبي طالب عليه السلام وتعقيبه على ذلك الاسناد بقوله «ولو اردت ذكر ما حذفه الرضي من هذه الخطبة لطل هذا الكتاب» (1)، كما ورد الجزء الخاص بنفي الصفات عن الله سبحانه عند أبي علي السكوني (ت 717) (2)، هذه وان كانت وفاته بعد الشريف الرضي (ت 406) جامع النهج، الا ان الاختلاف في الرواية عند كلام المؤلفين يؤكد بأن مصدر السكوني غير مصدر الرضي، اضف إلى ذلك ان الزمخشري قد أورد جزءا من الخطبة في باب «السماء والكواكب» (3)، وجزءا اخر في باب (الملائكة) (4) باختلاف يسير أيضاً في روايته، وهذا يؤكد صحة نسبة الخطبة لعلي عليه السلام على ما اعتقد، ثم انه يؤكد نسبة ما ورد في النهج مثلها إذا ما وضعنا في اعتبارنا المقارنة بين أساليب النصوص والتشابه التام في نظمها.

وعليه فإن المصطلحات التي وردت في النهج لعلي عليه السلام هي من ابتكاره، والذين ينكرون وجود مثل تلك الكلمات الجديدة في عصر صدر الإسلام انما يحاولون الغاء التطور الذي أحدثه الإسلام في اللغة العربية بتأثير القرآن

ص: 82

1- منهاج البراعه 109/1

2- راجع عيون المناظرات ص 182 حتى 184 وقارن ذلك بما ورد في نص رقم 1 من باب الخطب في النهج

3- راجع ربيع الأبرار للزمخشري 1/114 ، 115 ، 372 وقارن ذلك بما ورد في نص رقم 1 باب الخطب

4- المصدر نفسه

الكريم، كتغيير لبعض المفاهيم العربية كمعنى (زكاة، وصلاة) (1) ثم أنهم ينكرون الاشتقاق والنحت مما يجعلهم يشكون في قدرة المسلمين الأوائل على توليد كلمات مثل (العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والأزل والأزلية،

ص: 83

1- بشأن تغيير المعنى يتغير الظرف، يقول ابن فارس في الصحاحي من فقه اللغة ص «38 كان العرب في جاهليتها على إرث من آبائهم في لغاتهم ونسائهم وقرايبهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام، حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر زيادات زيدت...»، أما بشأن ما استحدث في اللغة من جديد في الإسلام فيحدثنا ابن دريد في المجتبي ص 21، فيقول «قال علي رضوان الله عليه: ما سمعت كلمة عربية إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. سمعته يقول «مات حنط انف» وما سمعتها من عربي قبله صلى الله عليه وآله وسلم. وورد في المزهر للسيوطي 1/ «302 وفي الصحاح قال أبو عبيد: الصير في الحديث انه شق الباب، ولم يسمع هذا الحرف، وقال: والزمارة في الحديث انها الزينة، قال أبو عبيد: ولم اسمع هذا الحرف الا في الحديث، ولا أدري من أي شيء أخذ. وفي ذلك دلالة على ان اللغة تتطور بتطور الظروف، كما ان الاختراع في اللغة لم يكن مقصورا على عرب الجاهلية بدلالة ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام ربيب الرسول وتلميذه، فلا غرابة ان ياتي في اللغة بالمخترع الجديد. وقد أشار إلى بعض من ذلك الرضي أثناء تعليقه في النهج على قول الإمام «عليه السلام فما عدا مما بدا» بقوله «وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الكلمة». ثم ان قول الحوفي في كتابه بلاغة الإمام علي ص 127 «بان كلمة الازل غير عربية» يفتقر إلى الدقة والنزاهة العلمية، لأن معنى «الازل بالتحريك: القدم، أزلي. ذكر بعض أهل العلم ان أصل هذه الكلمة قولهم للقديم: لم يزل، ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا باختصار فقالوا: يزلي ابدلت الياء، الفأ لأنها اخف، فقالوا: ازلي كما قالوا في الرمح المنسوب إلى ذي يزن: أزني، ونصل أثري»، ابن فارس (ت 395) مجمل اللغة 1/ 94 ، 95 ، الجوهرى (ت 398) الصحاح 4/ 1622 ، ابن منظور (ت 711) لسان العرب المحيط 1/ 57 ، الفيروز ابادي (ت 817) القاموس 1/ 57 بترتيب الزاوي

والأين، والكيف) والسبب في شكهم أنهم لم يجدوا لها شواهد في كلام العرب، فهل وجدوا شواهد في كلام العرب لكل ما جاء به القرآن الكريم(1)؟ وهل يريدون ان تقف العبقرية اللغوية عند الشاهد اللغوي لا تتعداه؟ لأن عدم وجود الشاهد اللغوي لا يعني عدم ابتكار كلمات أو مصطلحات جديدة فطاقات اللغة لا يحدها زمن، الا ان الناس بالنسبة إلى الابتكار فيها «رجلان:رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره، واخر جمع الأمرين معاً، وهذه الرتبة العليا، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة، وعليها يعول أهل النظر والفتيا، وذلك ان طالب العلم اللغوي يكتفي من اسماء الطويل باسم الطويل لا يضيره الا يعرف الأشق والأسق»(2) لذا فإن كل ما ورد في النهج مما سمي بالمصطلحات الفلسفية، هو من باب الاشتقاق مما لا يدعو إلى الريبة في صدره عن علي عليه السلام، أو عن غير علي عليه السلام من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن لهم الباع الطويل في فهم القرآن فهماً عميقاً.

اما البحث في الوجود والكون والخلق والخالق فلم يكن وفقاً على العصر الأموي أو العصر العباسي، لأنه وان كان بسيطاً في بدايته فهو معرق في القدم،

ص: 84

1- وردت في القرآن الكريم كلمات عربية كثيرة لم يرد لها شواهد في الشعر الجاهلي من ذلك قوله تعالى: «أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا» الحجرات/6، قال ابن الأعرابي لم يسمع في كلام الجاهلية في شعر ولا كلام (فاسقاً) قال وهذا عجب، كلام عربي ولم يأت شعر جاهلي - ابن فارس مجمل اللغة: 3/731، كما ورد قوله تعالى: « ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ الآية الحج/29» والتفت: ما كان من نحو قص الأظافر والشارب، وحلق الراس والعانة، وزمي الجمار، ونحر البدن، قال أبو عبيد: ولم يجيء فيه شعر يحتج به صحاح الجوهري 1/274. وبالامكان مراجعة ذلك وامثاله كثير عند السيوطي في المزهر 1/

294 وما بعدها

2- السيوطي - المزهر 5/1

من ذلك ما ورد في الذكر الحكيم عن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحقيقة في قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ جَبَّ سَخْلَمًا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْإِهْلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)) (1). كما «كان للعرب قبل ظهور القرآن شيء من النظر العقلي في بعض النواحي الفلسفية، وان لم يكن ذلك قائماً على أساس أو منهج معروف محدد» (2)، فقول طرفة بن العبد (طويل):

فذرني أروي هامتي في حياتها \*\*\* مخافة شرب في الحياة مصرد

كريم يروي نفسه في حياته \*\*\* ستعلم ان متنا عدا اينا الصدي

ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي \*\*\* عقيلة مال الفاحش المتشدد

ارى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة \*\*\* وما تنقص الأيام والدهر ينفد (3)

فوقفته تلك تعكس وجهة نظر فلسفية بسيطة، تتناسب ونزق الشباب والحياة اللاهية، مما يجعلها تختلف عن تأمل اكثم بن صيغي في الحياة والموت في تعزيمته لعمر وبن هند في اخيه بقوله: «ان أهل الدار سفر لا يحلون عقد

ص: 85

1- الانعام / 74

2- محمد يوسف موسى القرآن والفلسفة ص 17

3- القرشي - جمهرة اشعار العرب 327 - 330 وهامتي: رأسي، والمصرد: للمقلل والصدي: العطشان، ويعتام: يختار، ويصطفي: ياخذ صفوته وخيرته، وعقيلة المال: أكرمه وأحسنه وأنفسه، والفاحش السيء الخلق، والمتشدد: البخيل

الرحال الا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع اليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك»(1). وهذا التأمل البسيط في الحياة والموت هو ما حدا بالعربي في صحرائه للبحث عن حقيقة الوجود وسر الحياة فتمثل الجن، وأخذ بنصح الكهان، حتى جاء الإسلام، فطرح في القرآن الكريم مشكلة الخلق والخالق، فكان التوحيد أول أركان الإسلام، وتقبل المسلمون ذلك في بداية الأمر ببساطة، ودونما أية مناقشة، لانشغالهم بنشر الدعوة، ولكن ما لبثوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى أخذوا في التساؤل عن آي القرآن الكريم وعن صفات الخالق، من ذلك ان يهوديا حضر مسجد المدينة على عهد أبي بكر وقال له «اريد ان اسالك عن اشياء لا يعلمها الا نبي أو وصي نبي، فقال أبو بكر: سل عما بدا لك، قال اليهودي: اخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله، فقال أبو بكر: هذه مسائل الزناقة يا يهودي، وهَمَّ أبو بكر والمسلمون باليهودي، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما انصفتم الرجل... فقام أبو بكر ومن حضر معه حتى أتوا علي بن أبي طالب عليه السلام... فقال علي: ما تقول يا يهودي، فرد اليهودي المسائل. فقال علي عليه السلام اما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود ان العزيز ابن الله، والله لا يعلم ان له ولداً، واما قولك اخبرني بما ليس عند الله، فليس الله عنده ظلم للعباد، واما قولك اخبرني بما ليس لله، فليس له شريك»(2)، وتلك مرحلة من مراحل الجدل الفلسفي البسيط على ما نعتقد. وشبيهه منه سؤال رجل لعلي عليه السلام «اين كان ربك قبل ان يخلق السماوات والارض؟»(3). لأن القرآن الكريم قد حث الإنسان على

ص: 86

1- ابن عبد ربه العقد الفريد، 307/3

2- ابن دريد المجتبي ص 45

3- السكوني عيون المناظرات 138

استعمال العقل لاستنباط الأشياء وعدم قبول الأمور على علاتها. قال تعالى:

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)» (1)، فالغفلة هي عدم البحث عن الحقيقة المؤدية إلى الإيمان التام.

ان الاسئلة التي طرحها اليهودي على أبي بكر، والسؤال الذي طرحه الرجل على علي عليه السلام كلها تصب في مجرى واحد هو البحث في قضية الكون، وخالقه، وهي القضايا التي لم ينفك علي عليه السلام يتحدث فيها كلما واثته المناسبة، لإدراكه العميق بأهميتها بالنسبة لبقاء الإيمان الصادق ثابتاً وقويا في النفوس، فلشعوره بتزعزع قيم الإسلام الروحية أما القيم المادية التي نتجت عن الفتوح واختلاط المسلمين بغيرهم، وبسبب الأهمية التي يوليها علي عليه السلام للتوحيد، فقد جعله العنصر الاساسي في وصيته لابنه الحسن عليه السلام بقوله «وان ابتدأك بتعليم كتاب الله وتأويله وشرائع الإسلام واحكامه وحلاله وحرامه، ولا اجاوزك إليغيره، ثم اشفقت ان يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من اهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له احب الي من اسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة» (2).

إذن فالقول بعدم خوض علي عليه السلام في قضايا التوحيد والعدل والتنزيه يحتاج إلى دليل يدعمه، فلم يكن في سيرته ما يشير إلى عقابه لسائل عن تلك القضايا كما لم يؤثر عنه ترك مجادلة القدرية في عصره، فالمواقف التاريخية كلها تشير إلى

ص: 87

1- الاعراف/ 179

2- رسائل 31، فقرة 6



معالجته لذلك، فالنصوص المأثورة عنه في غير النهج(1) تبطل زعم القائلين «بظهور أثر الصنعة - في أقواله - ظهوراً يساير ما كان قد نشأ في دولة بني العباس من ثقافة اليونان وطرائق تفكيرهم»(2). فنسبة ما ورد في نهج البلاغة إلى المعتزلة يتعارض مع رواية ابن النديم «حدثنا أبو الهذيل العلاف، قال: أخذت الذي انا عليه من العدل والتوحيد، عن عثمان الطويل، قال أبو الهذيل: واخبرني عثمان انه أخذه عن واصل بن عطاء، وان واصلاً أخذه عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وان عبد الله أخذه من ابيه محمد بن الحنفية، وان محمداً أخبره انه أخذه عن ابيه عليه السلام، وان أباه أخذه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم»(3)، بإقرار رؤوس المعتزلة بأخذهم التوحيد والعدل والتنزيه عن علي بن أبي طالب عليه السلام يؤيد صحة ما نسب إليه من ذلك، كما ان ما أثر عن ائمة أهل البيت من اقوال في ذلك الشأن(4) يعضد تلك النسبة، خاصة ان التوحيد والعدل من الاصول التي يعتمدها الشيعة الإمامية في مذهبهم(5) اقتداء بعلي عليه السلام واولاده من الأئمة

ص: 88

1- حول القضاء والقدر ومناظراته مع القدرية، راجع: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 146، عيون المناظرات ص 176، وحول التنزيه ونفي الصفات عن الخالق جل شأنه، راجع اقوال علي عليه السلام في: العقد الفريد 4/ 76، ترجمة الإمام علي عليه السلام في تاريخ دمشق 3/ 232، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 146، عيون المناظرات من ص 245 حتى 178

2- الباقر علي امام الأئمة ص 36

3- ابن النديم الفهرست 202

4- راجع على سبيل المثال ما ورد عند الكليني اصول الكافي 1/ 72 وما بعدها

5- عن ذلك يقول الزنجاني في كتاب عقائد الإمامية الإثني عشر 1/ « 25 ان الله تعالى واجد الوجود بذاته ولذاته وفي ذاته، ومنزه عن التجسيم والحلول والتركيب والنقائص ومستجمع لجميع صفات الكمال من العلم والقدرة والارادة والعدل ونحوها وان صفاته الحقيقية عين ذاته وهو الواحد الاحد لا شريك له...»

6 - استخدام التقسيم في شرح المسائل ووصفها(1):

ان التقسيم العددي ليس هو الباعث الحقيقي على الشك في بعض نصوص النهج لأنه قديم قدم اللغة، والذين قالوا بذلك يدركون تمام الادراك بأنه موجود في الشعر الجاهلي، فقد كان عمر بن الخطاب يتعجب من قول زهير (وافر):

فان الحق مقطعه ثلاث \*\*\* أداء أو نفار أو جلاء(2)

ومن التقسيم أيضاً قول الاعشى ميمون بن قيس (خفيف):

ظللنا ما بين شاو وذي قد \*\*\* ر وساق ومسمع محفال(3)

ومنه أيضاً في الشعر الجاهلي قول طرفة بن العبد (طويل):

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى \*\*\* وجدك لم احفل متى قام عودي

فمنهن سبق العاذلات بشرية \*\*\* كميت متى ما تعل بالماء تزيد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب \*\*\* بهكنة تحت الخباء المعمد

وكري إذا نادى المضاف محنباً \*\*\* كسيد الغضا ذي السورة المتورد

ومما جاء من تقسيم في النثر الجاهلي قول قبيصة بن نعيم حين وفوده وقومه ص: 89

---

1- قال بهذا الرأي أحمد أمين في فجر الإسلام ص 149

2- ابن رشيق - العمدة (1/ 55) أبو زيد القرشي جمهرة اشعار العرب 234، محفال: يجتمع الناس لسماح غنائه لجمال صوته

3- السابق 326 ، 327 العود: الزوار عند المرض، العاذلات: اللوم، الكميت: الخمر التي تضرب إلى السواد، تعل بالماء: تخلط بالماء، تعصير يوم الدجن: تخصيص يوم المطر، بيكينة: الحسنة الخلق، الخباء: بيت الشعر، المضاف: المحرج الذي احيط به، محنباً، المحنب: الذي بدت عظامه من الجوع والاعياء، والسيد: الذئب، شجر صحراوي وذئابه من أخبث الذئاب، ذي السورة: البالغ العطش، المتورد: بلغ ورد الماء

على أمرئ القيس ومنه «فأحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في احدى خلال: اما ان اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدمناه إليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك قصدته فيقول رجل:

امتحن بهلك عزيز فلم تستل سخيمته الا بتسكينه من الانتقام، أو فداء بما يروح من بني أسد من نعمها فهي الوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الاحن على البرءاء، وأما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الازر ونعقد الخمر وفق الرايات...» (1).

وفي صدر الإسلام ورد التقسيم في الحديث الشريف، فمما أثر عنه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك قوله «احلت لنا ميتتان ودمان، فاما الميتتان فالسمك والجراد، واما الدمان فالكبد والطحال» (2)، ومن التقسيم في حديث أبي بكر قوله «ثلاث من كن فيه، كن عليه: البغي والنكث والمكر، قال تعالى: (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ)، وقال تعالى (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) وقال تعالى (وَلَّيْحِيْقُ هُلِهِ)» (3). ومنه في حديث عمر قوله «ثلاث قد ضمنهن الله تعالى ولا خلف فيهن: ان الله لا يضيع أجر المحسنين، إن الله لا يهدي كيد

ص: 90

---

1- الأصفهاني الاغاني 101 / 9 ، خلال: خصال، النسع: السير الذي تقاد به الدابة وهو هنا كناية عن الانقياد والطاعة، حسامك: سيفك، السخيمة: الحقد، نعمها: حيواناتها ودوابها، القضب: السيوف، أجفانها: أغمادها، الإحن: الحقد، تضع الحوامل: تلد النساء والعبارة وما بعدها كناية عن طلب مهلة أو هدنة

2- الثعالبي برد الاكباد في الاعداد ص 104 - 114

3- الثعالبي - السابق

الخائنين، ان الله لا يصلح عمل المفسدين»(1). ومنه في حديث عثمان قوله «أصلح الأعمال ثلاث: خوف الله تعالى في السر والعلانية، والحكم بالعدل في حال الرضى والغضب، والاقتصاد في الغنى والفقر»(2). ولو أردنا استقصاء ذلك لطال بنا المقال. وعليه فلا مجال للشك في نسبة ما ورد من تقسيم عددي في النهج لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فالشك الذي قيل عن التقسيم العددي موجه بالذات إلى رسالة علي عليه السلام التي كتبها لقاضيه شريح عندما بلغه انه اشترى داراً بثمانين ديناراً(3) وكتب بذلك عهداً اشهد فيه شهوداً فكتب له الإمام عليه السلام بذلك عهداً ينعى عليه فعلته، وما ورد في ذلك العهد من تقسيم وتحديد هو الباعث الحقيقي لذلك الشك، لأنه لم يؤثر عن الصحابة نص نسج على منواله، لكن ابن أبي الحديد قد اتخذ من شرط الإمام علي عليه السلام الذي كتبه لشريح دلالة على أن مثل ذلك الشرط كان معمولاً به في زمن الصحابة، الا ان احداً منهم لم ينقل الصيغة الفقهية إلى المعنى الوعظي سوى الإمام علي عليه السلام. والشاكون في هذا النص يأخذون عليه التحديد الدقيق للشرط الفقهي بادعاء أن مثل ذلك لم يتبلور بعد في عصر صدر الإسلام. ويدحض ذلك الزعم ما ورد في القرآن الكريم من دقة متناهية في كتابة الشروط كما ورد في قوله تعالى:

ص: 91

1- الثعالبي السابق

2- الثعالبي السابق

3- يقول أحمد أمين في فجر الإسلام ص « 148 ... نهج البلاغة وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية... وقد شك في مجموعها النقاد... كالذي فيه

من وصف الدار وتحديدها بحدود وهي أشبه بتحديد الموثقين... » (( راجع شرح النهج 14 / 30 - 31

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسَّ تَطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ» (1)، فشروط الدين كما ينص القرآن الكريم عليها هي من الدقة المتناهية بحيث يمكن اعتبارها نموذجاً يحتذى به في كتابة العقود الفقهية الأخرى التي ضاعت في خضم ما ضاع من التراث الإسلامي. أضف إلى ذلك ما قام به عثمان بن حنيف من مسح لسواد العراق بتكليف من عمر بن الخطاب بعد فتح فارس (2)، فيه دلالة على معرفة المسلمين الأوائل بعمليات المسح وتحديد الأراضي، لأن مسح تلك المساحات الشاسعة وتحديد حدودها الجبائية من قبل احد الصحابة يعني بدهياً أنه لا يعوز علي عليه السلام - وهو أئمة وأقضاها - أن يملي شرطاً مماثلاً لشروط ابتياع الأملاك.

ثم ان ذلك الشرط يتناسب تماماً والزهد الذي التزمه علي عليه السلام - وحث قضاته وعماله عليه فهو قد اقتبس من شرط تحديد العقار شكله، اما المضمون فقد نحا

ص: 92

1- البقرة/ 282

2- راجع أبو عبيد: الأموال ص 68 وما بعدها، وراجع أيضاً: البلاذري فتوح البلدان ص 268 ، فقد ورد فيه «ان عمر بن الخطاب بعث عثمان بن حنيف الأنصاري يمسح السواد فوجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب»

به نحواً زهدياً الهدف منه الوعظ.

ومما يجعلنا أكثر اطمئناناً في نسبة النص لعلي عليه السلام، وروده باختلاف في روايته عند الصدوق (ت 361) في أماليه(1) كما ورد أيضاً باختلاف في بعض عباراته وسند متصل بالشعبي عند سبط ابن الجوزي (ت 654)(2) بحيث لا- يمكن الشك في نسبة النص لعلي عليه السلام، ولا فيما ورد من تقسيم عددي منسوب إليه في النهج كما نعتقد.

7- ورود كثير من المغيبات في ثنايا بعض نصوص النهج(3):

أورد الشريف الرضي في (نهج البلاغة) نصوصاً تحكي حوادث مستقبلية تأولها كل حسب تصوره واعتقاده، من ذلك وصف التركمان، أو شعوب ما وراء النهر أو المغول حسب تفسير البعض(4)، كما وردت نصوص مأثورة عن علي عليه السلام يتنبأ فيها بما سيحدث من فتن وما سيصيب الناس جراء تلك الفتن من جوع وقتل وتشريد(5) إلى غير ذلك من أمور كظهور المهدي(6) وحكم بني

ص: 93

---

1- أمالي الصدوق - المجلس 51 ص 256 ، وراجع في ترجمة الصدوق الكنى والألقاب 212/1

2- تذكرة خواص الأمة ص 149

3- يقول العقاد في عبقرية الإمام ص «126 من المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا ان النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارت التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه. ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل»

4- راجعها جميعاً حسب ترتيبها في المتن الخطب النصوص رقم: (128) (100،107،138،151)، (160،97)، (115)، (14)

5- المصدر السابق نفسه

6- المصدر السابق نفسه

أمية وما سيصيب الكوفة من إذلال بفعل الحجاج(1) وغرق البصرة(2) .

كل ذلك جعل بعض الدارسين يشكك في نسبتها لعلي عليه السلام، وينظرون إلى ذلك من زاويتين:

الأولى - تاريخية:

وتتمثل في التنبؤ بالمغول وما سيحدثونه من رعب في أرض الإسلام وهذا يتنافى ومنطق التاريخ لبعد الشقة الزمنية بين علي عليه السلام وبين حملات التتار على دولة الإسلام إذ سقطت بغداد سنة 656 هـ بينما كانت وفاة علي عليه السلام سنة 40 ، مما يجعل أولئك الشاكين يجزمون بأن مثل ذلك قد أضيف على النهج في فترة متأخرة بعد وفاة جامعه الشريف الرضي ويمكن الرد على هذا الزعم من ناحيتين:

1 - بخصوص ما زعم من اضافات إلى (النهج) بعد الشريف الرضي، ويدحض ذلك النسخة التي كانت بخط الشريف الرضي، والنسخ التي نقلت عن تلك النسخة في عصره، أي قبل بدء حملات التتار فكل تلك النسخ تذكر النص الذي حامت حوله الشكوك بسبب ورود أوصاف تلك الشعوب ضمنه، وغزوهم دولة الإسلام، ونسخة الرضي تلك من النسخ التي عول ابن أبي الحديد عليها في شرحه، ويؤيد ذلك إشارته إليها في مواضع متفرقة من ذلك الشرح. كما ان نسخ (نهج البلاغة) المخطوطة منها والمطبوعة على كثرتها لا تكاد تختلف الا في ترتيب بعض النصوص بالتقديم والتأخير، وقد أشار إلى

ص: 94

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

ذلك ميشم البحراني في شرحه (1) فلو كانت هناك أية إضافات لكنت بعض النسخ أقصر من الأخرى إذ «كان طبيعياً بعد ان استفاضت شهرة الكتاب وطبقت الافاق، وتواتر متنه على ألسنة الأدباء والفضلاء ان يقل الاختلاف في نصه، وان ينتقل من جيل إلى جيل برواية تكاد تكون واحدة. واذا اضفنا إلى شهرته الأدبية ما احيط به من معاني التعظيم بل التقديس ولا سيما لدى اخواننا علماء الشيعة الكرام، لم نعجب لسلامته من الزيادة والنقصان، وندرة ما وقع فيه من التحريف والتصحيح (2). اضافة إلى ذلك فانه بمناسبة الذكرى الألفية الوفاة الشريف الرضي فقد قام السيد عبد العزيز الطباطبائي بدراسة لحياته ومؤلفاته (3). وقد وقف طويلاً عند (نهج البلاغة) وذكر بعضاً من مصادره، وتعرض أيضاً لذكر مخطوطاته الباقية في المكتبات منذ عصر الرضي حتى القرن الثامن الهجري، وقد عرض إلى مخطوطة سنة تسع وستين واربعمئة لنسخها الحسين بن الحسن بن الحسين المؤدب وهو من أعلام القرن الخامس الهجري، وقد عاصر الشريف الرضي فيما يعتقد، وتعتبر النسخة من أقدم النسخ المخطوطة للنهج وأنفسها، وقد قامت لجنة الاحتفال بتصويرها وتمكننا من الحصول على صورة من تلك المخطوطة ويتصفحنا إياها وجدنا الخطبة ماثراً الشك موجودة ضمن نصوصها مع ملاحظة أن النسخة قد فرغ من كتابتها قبل سقوط بغداد بمئة وتسع وثمانين سنة. لذا فإن الإدعاء بالزيادة في نهج البلاغة بعد الشريف الرضي - في اعتقادنا - ضرب من المكابرة.

ص: 95

---

1- راجع شرح نهج البلاغة لميثم 413/3

2- صبحي الصالح مقدمة تحقيق النهج ص 18

3- راجع مجلة تراثنا، العدد 5 السنة الأولى 1406 - 1985، ص 55 وما بعدها



2- ان ما مورد من وصف في (نهج البلاغة) لتلك الشعوب، فقد ينطبق على المغول أو على غيرهم من شعوب القوقاز الأخرى التي غزت البلاد الإسلامية وتسلطت على الخلافة، فالنص في اعتقادنا لا يحدد جنساً معيناً أو بالأحرى لا يعني التتار بالذات ولم يضاف إلى النهج بعد غزوهم لبغداد، فمن الدلالات المؤكدة على وجود النص في نهج البلاغة قبل سقوط بغداد سنة 656 وجوده في نسخ نهج البلاغة التي اعتمدها ابن أبي الحديد في شرحه، وكما هو معلوم أن ابن أبي الحديد قد شرع فيه قبل سقوط بغداد فقد تم تصنيف الشرح «في مدة قدرها أربع سنين وثمانية أشهر وأولها غرة رجب سنة أربع وأربعين وستمائة، وآخرها سلخ صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة»<sup>(1)</sup>، كما أن الشارح قد توفي سنة 655 أي قبل سقوط بغداد بعام بحيث يمكن القول ان النص لم يضاف إلى النهج بعد حملة التتار على بغداد.

ثم إن الوصف الذي ورد في (نهج البلاغة) لتلك الشعوب، هو ذات الوصف الذي أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيها، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم «ينزل الناس من امتي بغائط يسمونه البصيرة عند نهر يقال له دجلة، يكون عليه جسر، يكثُر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين وفي رواية أخرى المسلمين - فإذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطورا، عراض الوجوه، صغار الاعين حتى ينزلوا على شط النهر، فيتفرق أهلها ثلاث فرق...»<sup>(2)</sup>، وما ذكر في النهج من وصف لا يكاد يختلف في مضمونه عما ورد في الحديث الشريف.

ص: 96

---

1- ابن أبي الحديد - شرح النهج 20 / 349 - دار احياء التراث

2- ابن الأثير - جامع الأصول 10 / 403، وقد جاء في صحيح مسلم 4 / 2233 ممثلة تحت رقم 66-62

فالغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وما ورد في (نهج البلاغة) من مغيبات يتنافى وقوله تعالى «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ» (1)، وقد عرضنا لمفهوم علي بن أبي طالب عليه السلام للغيب في موضع آخر من هذا البحث (2) ولكن الذي نريد أن نسجله هنا أن ما أثر من استكناه لبعض الأمور المستقبلية لم يكن قصراً على علي بن أبي طالب عليه السلام دون غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين أخذوا ذلك كله عنه صلى الله عليه وآله وسلم. فلورجع من قال بالشك فيما ورد في بعض النهج من استكناه لأمر مستقبلية إلى الصحاح الستة لوجد أن كل النصوص التي تعرضت للمغيبات في النهج تتماشى مع ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك الشأن (3)، بالإضافة إلى ذلك فقد أثر عن عمر بن الخطاب ما هو أدق تفصيلاً مما ورد في النهج منه قوله لابن عباس عن خلافة علي عليه السلام «أما أنه سيليها بعد هياط ومياط ثم تزل قدمه فيها، ولا يقضى منها اربه، ولتكونن شاهداً ذلك يا عبد الله، ثم يتبين الصبح لذي عينين» (4)، ومنه ما رواه ابن الأثير في ذكره لفتح (فسا، ودار بجرد) من فارس، إذ «دهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير واتاهم الفرس من كل جانب، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم في ساعة من النهار، فنادى الغد الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء، إن أقاموا

ص: 97

1- النمل / 65

2- راجع القضايا الكلامية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن هذا البحث ص 505 وما بعدها

3- راجع جامع الأصول 4/ 429 في قتل عثمان، 431 في وقعة الجمل، 432 في الخوارج، 442 في أمر الحكمين 445 في ذكر بني مروان 446 في ذكر الحجاج

4- شرح ابن أبي الحديد 12 / 80

فيها احيط بهم، وان استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤثروا الا من وجه واحد، فقم وقال: يخطب يا سارية بن زعيم الجبل الجبل، ثم اقبل عليهم وقال: ان لله جنوداً ولعل بعضها ان تبلغهم، فسمع سارية ومن معه الصوت، فلجئوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم من وجه واحد فهزمهم الله، واصاب المسلمون مغانمهم»<sup>(1)</sup>، فمن الملاحظ ان عمر بن الخطاب قد تمكن من انقاذ جيش المسلمين وتوجيهه إلى النصر بفارس عن طريق حلم، ثم نداء في ساعة معينة من المعركة من على منبر المدينة المنورة التي بينها وبين ارض المعركة مسافات شاسعة.

واحتمال تصديق مثل ذلك والاعتقاد به، يستوجب احتمال تصديق ما أثر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة من مغيبات، والا فان الشك يشمل كل ما أثر عن الرسول وصحابته الكرام في هذا الشأن، اضافة إلى ذلك فإن المغيبات المأثورة عن علي عليه السلام لم يكن ليقتصر عليها (نهج البلاغة) فقط، فقد ورد الكثير منها عند المبرد<sup>(2)</sup> وعند أبي حنيفة الدينوري<sup>(3)</sup>، وكل ذلك يجعلنا نميل إلى الرأي القائل باحتمال صحة نسبة تلك النصوص إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

8 - ورد في النهج الكثير من النصوص التي فحواها الوهد والتصوف وذكر المسيح:

يمكن ان نشك فيما ورد من نصوص زهدية في النهج، لو انها لا تتناسب وسرة من نسبت إليه تلك النصوص، ولكن واقع الحال يخالف ذلك، ففي سيرة

ص: 98

---

1- ابن الأثير الكامل في التاريخ 21/3 - 22

2- راجع الكامل في الأدب 303/1

3- راجع الأخبار الطوال ص 151 ، 152

علي عليه السلام من الأمثلة الكثيرة التي تؤكد أن ذلك المنحى من طبيعته، بحيث لا يمكن فصله إطلاقاً عن سيرته، من ذلك ما أورده أحمد بن حنبل على لسانه «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون الفاً»<sup>(1)</sup>، ومنه أيضاً قول معاوية بن أبي سفيان «لو كان لعلي عليه السلام بيت من تبن وآخر من تبن لأبعد التبر قبل التبن»<sup>(2)</sup>. هذا وقد دار حديث حول الزهاد في مجلس عمر بن عبد العزيز «فقال قائلون: فلان، وقال القائلون: فلان فقال عمر بن عبيد العزيز: أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب عليه السلام»<sup>(3)</sup>، ويكفي دلالة على زهد علي عليه السلام قول ضرار «فاشهد لقد رأيت في بعض مواقفه وقد ارخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا، اليك عني، أبيّ تعرضت؟ أم إليّ تشوقت؟ لا حان حينك، هيهات: غريّ غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشتك قصير، وخطرك يسير وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد»<sup>(4)</sup>. فالزهد جبلة زرعها الإسلام في أعماق علي عليه السلام بفعل عيشه في كنف أعظم الزهاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقتدائه به في جميع شؤون حياته، فقد ورد في الأثر «عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليه عمر، وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال يا نبي

ص: 99

- 
- 1- البناالفتح الرباني، 106/ 19
  - 2- ابن عساكر ترجمة علي من تاريخ دمشق 158/3 من تحقيق محمد باقر المحمودي
  - 3- ابن عساكر - السابق 202/ 3
  - 4- ورد هذا الخبر في كثير من المصادر منها - المسعودي - مروج الذهب 433/2 ، القالي المالي 143/2 ، الحصري القيرواني - زهر الآداب 40/1 ، ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة 44/3 ، الابشيهي - المستطرف 210/1

الله، لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال: ما لي والدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا الا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»(1). لذلك فإن محاولة الدس فيما ورد من زهد في النهج بالقول باثر المسيحية فيه لا يستند لأية حجة، لأن ما اسماء أولئك بمنهج المسيح - بسبب ذكر المسيح في نص واحد من (نهج البلاغة) قد أثر الكثير منه عن صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فافرد أحمد بن حنبل فصلاً كاملاً بما أثر عنهم في «زهد عيسى عليه السلام ومواعظه»(2)، ومما أثر عن أبي هريرة في ذلك قوله «كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول لأصحابه: اتخذوا المساجد مساكن، والبيوت منازل، وكلوا من بقل البرية وانجوا من الدنيا بسلام... واشربوا الماء القراح»(3)، ومنه ما روي عن مالك بن أنس، قال «بلغني ان عيسى بن مريم عليه السلام قال لقومه: لا- تكثروا الكلام- بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم ارباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، وإنما الناس رجлан: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا أهل العافية»(4).

وبالمقارنة بين ما ورد في النهج وبين ما روي عن الصحابة في زهد المسيح عليه السلام نلاحظ ان لا اختلاف بين هذا وذاك الا في صياغة الألفاظ مع انطلاق المعاني ودورانها في رحاب الإسلام بعيدة كل البعد عن رهبانية المسيحية بالانزواء عن الدنيا وترك ملذاتها. إضافة إلى ذلك فإن ما اسماء أولئك بمنهاج المسيح، لم يتعدَّ

ص: 100

1- البنا الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد 19 / 102

2- كتاب الزهد 176 / 1 حتى 203

3- ابن مبارك كتاب الزهد ص 198

4- السابق ص 44

في (نهج البلاغة) الأربعة أسطر وردت ضمن خطبة وعظية(1) ، ذكر فيها زهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الرسل عليهم السلام، وذلك يجعلنا لا نرتاب في نسبتها هي وغيرها من النصوص الأخرى إلى علي عليه السلام، لأن الزهد في كل تلك النصوص يتطابق تماماً ونهج الإسلام لانطلاق ذلك الزهد من ذم الدنيا ولهوها، فهو مبني على:

- ما ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ)(2).

- وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(3).

- ومن وصف عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظل اليوم يتلوى، ما يجد دقلاً يملأ به بطنه»(4)

أضف إلى ذلك ما روته المصادر عن زهادة علي عليه السلام وخشونة لباسه وجشوبة طعامه(5).

9- وصف الحياة الاجتماعية وصفا دقيقا وانتقاد سلوك بعض الولاة واخلاقهم(6):

ان الشاكين في نسبة نصوص نهج البلاغة التي تعرضت بالنقد لسلوك الولاة وفضح أعمالهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام، إنما ينكرون فترة خلافته التي ص: 101

---

1- راجع باب الخطب، نص رقم 161

2- الحديد 20 وال عمران: 185

3- صحيح مسلم 4/ 2273

4- السابق 4/ 2285، والدقل: بفتح الدال والقاف أراد التمر صحاح الجوهري 4/ 1698

5- راجع أحمد بن حنبل كتاب الزهد 2/ 47 وما بعدها

6- راجع أثر الشيع في الأدب، ص 60 - 61

امتدت من 35 هـ الى 40 هـ ولم تشهد حياته خلالها الاستقرار، حيث بدأت القيم تتغير بغلبة النزعة المادية على النزعة الروحية في طبيعة الإنسان المسلم، ووجود علي عليه السلام في خصم فترة الانتقال تلك جعله يحس للوهلة الأولى من توليه الخلافة، ان الإمارة قد أصبحت مغنماً مادياً في نظر كثير من الصحابة، فهذا هو معاوية يشترط في بيعته لعلي عليه السلام ان يقره والياً على الشام(1)، والزبير بن العوام يطلب منه ولاية البصرة(2)، كما يبدي طلحة بن عبيد الله رغبته في ولاية الكوفة(3).

ولما كانت مبادئه تأبى عليه المصانعة، كان لابد له من حسم الأمر منذ البداية - وان كلفه بذلك الكثير مما جعل أولئك يتظاهرون عليه ويؤلبون الأمة على الثورة بقصد نقض خلافته(4)، مع ملاحظة أن من أولويات الأمور التي قام بها طلحة والزبير عند دخولهما البصرة الاستيلاء على بيت المال(5). وإذا ما تركنا ذلك جانباً، نجد أن بعض ولاته لم يكونوا في مستوى المسؤولية التي أناطها بهم في الفترة الانتقالية تلك، من ذلك أن أبا موسى الأشعري واليه علي الكوفة كان «كارهاً للقتال مخذلاً الناس عن نصره امامهم»(6)، كما «لم تكن طاعة مصقلة - والي أذربيجان - لعلي عليه السلام طاعة الرجل الذي يصدر في كل ما يأتي

ص: 102

1- راجع ابن قتيبة الإمامة والسياسة 1/117، البلاذري انساب الاشراف 2/293

2- راجع تاريخ 4/429، 438

3- المصدر السابق نفسه

4- راجع السابق 4/475 - قول عبد الله بن الزبير لحكيم بن جبلة في أمر عثمان بن حنيف «لا نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً»

5- راجع البلاذري أنساب الأشراف 2/133 ففي قول الزبير لما دخل بيت مال البصرة

6- طه حسين علي وبنوه 34

عن معرفة الحق والايمان»(1)، اضافة إلى العصبية القبلية التي كانت تنضح بها نفوس بعض ولاته كالأشعث بن قيس(2)، لكنه بالرغم من كل تلك المصاعب لم يتهاون إطلاقاً في إحقاق الحق، فقد «كان شديد المراقبة لعماله، يشدد عليهم في الحساب، وفي سيرتهم العامة والخاصة وأنه كان يرسل الارصاد والرقباء ليطلعوه على سيرة العمال»(3). فمن يقوم بتلك الأعباء الثقيلة دون هوادة، في عصر مضطرب، لا يعوزه القول إذا كان يملك بجانب الشجاعة والجرأة، الورع وقوة البيان. وعليه فإن ما ورد في (نهج البلاغة) من وصف للمجتمع، ونقد لاذع لسلوك بعض الرجال كمعاوية(4)، وطلحة والزبير(5)، وعبد الله بن عباس(6) والأشعث بن قيس وغيرهم، هو من كلام علي عليه السلام ويؤيد ذلك، وقائع التاريخ وورود تلك النصوص باختلاف في رواياتها في المصادر التاريخية السابقة للنهج.

ص: 103

1- السابق 116

2- راجع ابن مزاحم صفين 20 وما بعدها، وراجع أيضاً قول الإمام في الأشعث الاغاني 19/21

3- أحمد محمود صبحي نظرية الإمام 284

4- راجع ابن مزاحم السابق ص 29، 57 وما بعدها

5- عما قاله في ذم طلحة راجع العقد الفريد 314/4، اما عما قاله الإمام علي عليه السلام في علاقته بالزبير فراجع منه ابن الأثير أسد الغابة 3/243

6- أخذ عبد الله بن عباس أموالاً طائلة من بيت مال البصرة التي هو وال عليها من قبل علي عليه السلام فلما علم علي عليه السلام بذلك كتب إليه في هذا الشأن يهدده ويوبخه وقد دارت بينهما مشادة سجل جزء منها البلاذري انساب الاشراف 2/170 وما بعدها



10 - نسبة بعض نصوص النهج لغير علي عليه السلام في مصادر اخرى(1):

ان النصوص التي وردت منسوبة لغير علي عليه السلام في بعض المصادر، بينما نسبتها الرضي في (نهج البلاغة) لعلي عليه السلام، تكاد تكون من القلة بحيث يمكن مناقشة كل نص منها على حدة، ففي باب الخطب وردت اربعة نصوص وهي:

1 - الخطبة رقم «32 أيها لناس انا قد اصبحنا في دهر عنود». وقد علق الشريف الرضي عليها بقوله «هذه الخطبة ربما نسبتها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه»(2)، ثم أورد تعليق الجاحظ الذي حقق في نسبتها بقوله «وفي هذه الخطبة ابقاك الله - ضروب من العجب:

منها ان الكلام لا يشبه السبب الذي من اجله دعاهم معاوية، ومنها ان المذهب في تصنيف الناس في الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، اشبه بكلام علي عليه السلام ومعانيه وحاله منه بحال معاوية، ومنها انا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد»(3)، هذا وقد وثق عبد الزهراء الحسيني(4) النص بما يثبت صحته نسبه إلى علي عليه السلام من كتاب (مطالب السؤل لمحمد بن طحله الشافعي) الذي ذكر مكان الخطبة بعد ان مهد لها بما يثبت انه لم يأخذها من نهج البلاغة، وفيما ورد من تعليقات كل من الجاحظ والشريف الرضي بالإضافة إلى توثيق النص ما يؤيد نسبه إلى علي عليه السلام.

ص: 104

---

1- أحمد زكي صفوت ترجمة الإمام علي ص 122 بواسطة عبد الزهراء الحسيني مصادر نهج البلاغة 1/ 113

2- راجع النص رقم 32 باب الخطب

3- الجاحظ البيان والتبيان 2/ 61

4- مصادر نهج البلاغة 1/ 417

2 - الخطبة رقم « 46 اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر...» (1) ، قال عنها الرضي «وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قفاه أمير المؤمنين بأبلغ كلام وتممه أحسن تمام من قوله: ولا يجمعهما غيرك» (2) ، وبالفعل فإن من يراجع كتب الحديث الشريف (3) يلاحظ ما ذيل به الإمام علي عليه السلام ذلك الدعاء المأثور عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مما لا يدعو إلى الشك بأن الإضافة كانت لعلي عليه السلام، وفي ذلك دلالة أكيدة على أمانة الشريف الرضي العلمية وحرصه على إبعاد الشك عن مختاراته لعلي عليه السلام في (نهج البلاغة).

3 - الخطبة رقم « 110 اما بعد فإني احذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة...» (4). سكت الرضي عن التعليق عليها، وأوردها إيراد المسلمات بنسبتها لعلي عليه السلام، مما يدل على أنه قد أخذها من مصدر يثق في روايته، ولو وجد حولها أي شك لما سكت عن ذلك. ولكن الجاحظ (5) ، وابن قتيبة (6) وابن عبد ربه (7) قد نسبوا الخطبة إلى قطري بن الفجاءة وقد علق بن أبي الحديد على نسبة الجاحظ لها لقطري بقوله «واعلم ان هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) ورواها لقطري بن الفجاءة، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب (المؤنق) لأبي عبد الله المرزباني مروية لأمير

ص: 105

- 1- يمكن الرجوع إلى النص وتعليق الرضي عليه من خلال النهج باب الخطب
- 2- يمكن الرجوع إلى النص وتعليق الرضي عليه من خلال النهج باب الخطب
- 3- راجع ابن الأثير جامع الاصول 86/5
- 4- راجع جدول النهج باب الخطب
- 5- البيان والتبيين 126/2
- 6- عيون الأخبار 250/2 نتفة من الخطبة
- 7- العقد الفريد 141/4

البلاغة المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه، وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره، وقد لقي قطري أكثرهم»<sup>(1)</sup>، وفي سكوت الرضي عن التعليق على النص، وتعليق ابن أبي الحديد على نسبه بعد توثيقه ما يجعل ترجيح نسبه إلى علي عليه السلام أقرب.

4 - الخطبة رقم «197 أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار...»<sup>(2)</sup>، جعل الرضي نسبة هذا النص إلى علي عليه السلام من المسلمات بعدم التعليق عليه كعادته في كل نص يحوم حوله الشك، إلا أن ابن أبي الحديد قد نبهنا إلى أن المبرد قد نسبه إلى اعرابي نقلاً عن رواية الأصمعي معلقاً على ذلك بقوله «واكثر الناس على أن هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام، ويجوز أن يكون اعرابي حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم»<sup>(3)</sup>. فسند رواية المبرد<sup>(4)</sup> الأصمعي «والعلاقة بين العلويين والأصمعي لم تكن مرضية، فقد قطع علي بن أبي طالب عليه السلام يد جد الأصمعي في سرقة شن رخيص، ولم يتمكن من التغلب على هذه العقدة»<sup>(5)</sup>، فلا اعتقد أن الأصمعي وهو الخبير بكلام العرب لا يعرف هذه نسبة الخطبة لعلي عليه السلام، ولكن ما يحمله من بغض للعلويين وللإمام علي عليه السلام على وجه الخصوص جعله لا يصرح بذلك، وما تخطته للكفيت في قوله

(كامل):

ص: 106

---

1- شرح النهج 236/7 وراجع التعليق على الخطبة بأكمله

2- راجع جدول النهج - باب الخطب

3- شرح النهج 11 / 3 - 4

4- الكامل في الأدب 108/4

5- داود سلوم الكفيت 31/1

إلا محاولة تخطئة علي بن أبي طالب عليه السلام (1) بطريق غير مباشر في قوله «وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الفشل» (2)، فرواية الأصمعي لا يعتد بها في هذا الموضوع. علاوة على ذلك فقد روى الصدوق في أماليه منسوباً إلى علي عليه السلام بزيادة واختلاف في بعض العبارات مما يؤكد أن الشريف الرضي لم يأخذه عنه (3) وعليه فإن هناك مصدراً ثالثاً أخذه عنه الرضي وهذا يؤكد نسبته إلى علي عليه السلام مما لا مجال للشك فيه.

## القسم الثاني

ويقتصر على النص رقم 297 من باب الحكم «كان لي فيما مضى أخ في الله...» (4)، وقد أورده الرضي دون التعليق عليه مما يعني تأكده من نسبته إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، كما لم يشر ابن أبي الحديد إلى الشك في نسبته أيضاً، لكن وجود النص بعينه عند عبد الله بن المقفع (5)، ملتحمًا بنسيج الموضوع الذي أورده فيه آثار شكوك البعض، لأن بن المقفع لم ينسبه إلى قائله. لكن

ص: 107

---

1- راجع تعليق داود سلوم حول تخطئة الأصمعي للكميته، هامش 1/ 225 - 226 من شعرالكميته فقد أورد فيه قول الأصمعي ورأي المعري في ذلك القول

2- نص 9 من باب الخطب، وراجع تعليق ابن أبي الحديد على النص أيضاً.

3- أمالي الصدوق ص 97

4- جدولته النهج باب الحكم والكلمات القصار

5- الأدب الكبير، ص 133

المتأمل في النص ومعانيه، يجد تفاوتاً كبيراً بين أسلوب ومعاني الفصل الذي أدرج فيه، إذ يغلب على عبارات ابن المقفع الواقعية المتسمة بالجفاف فيبعض المواضع، بينما يغلب على عبارات النص المقحم في الفصل، المثالية المتسمة بالروحانية التي لا يمكن لابن المقفع ان يعبر عن مثلها لا لقصور في أدواته التعبيرية، ولكن لبعده روحياً عن شحنت العاطفة العميقة الجياشة التي تسري في شرايين تلك المعاني الهادئة السلسلة عليها مسحة من إيمان عميق يبلغ في بعض من تعابرها حد التصوف. فلنلاحظ الفجوة بين الأسلوبين ليصبح ما نقول أكثر وضوحاً، إذ يقول ابن المقفع: «قد رأينا من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ما يشتفي بصاحبه، في تصغير أمره وتكدير النعمة عليه، ان يذكر الزوال والفناء والدول كأنه واعظ وقاص، فلا يخفي ذلك على من يعني به ولا غيره ولا ينزل قوله بمنزلة الموعظة والابلاغ، ولكن بمنزلة الضجر من النعمة إذا راها لغيره، والاعتماد بها والاستراحة إلى غير روح»<sup>(1)</sup>، فابن المقفع في الفقرة السابقة يصف واقع التحاسد في مجتمع يتكالب أفراده على المادة ويغلي في نفوس أبنائه الحسد بعبارات سهلة وأسلوب علمي اقرب منه إلى الأسلوب الأدبي لخواه من الخيال والمحسن اللفظي. ثم فجأة ينقلنا إلى جو مشبع بالمثالية، بأسلوب يكاد يكون روحانياً في قوله «واني مخبرك عن صحاب لي، كان من اعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عيني، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه ربية، ولا يستخف له رأياً ولا بدنأ، وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا

ص: 108

1- السابق، ص 132

يعلم، ولا يتنازع فيما يعلم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة...»(1)، فهنا في هذه الفقرة يختلف الوضع من حيث التزاوج بين الأفكار من حيث السلاسة والهدوء في انسياب المعاني، وتناغم الفواصل، والتصوير الفني المنسجم تماماً وواقع الموضوع، كالكناية عن زهد الصديق في نظرتة إلى الدنيا باستصغار وان للطن واللسان والفرج قوة جامحة ولكنها مكبوحة الجماع. فالنفس في هذا الفقرة تختلف تماماً عنها في الفقرة السابقة من حيث هيئتها واسلوبها ومثالياتها، وعليه فإن الصديق الذي تحدث عنه ابن المقفع كمثال، لا يمكن أن يكون ذا علاقة به حتى يتمكن من عيش روحه وسبر أعماق نفسه ليترجم إحساساته وكأنه يكتب عن نفسه ويصف حاله، لأن ابن المقفع ذاته كان قريب عهد بالاسلام(2) ولما تشيع روحه بنورانيته حتى يمكنه ان ينقل عن صاحبه الكامل الإيمان مثل ذلك الوصف المشيع بالروحانية وبأخلاق سامية تختلف الناس فيمن تكون «فقال قوم هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... واستبعده قوم... وقال قوم هو أبو ذر الغفاري واستبعده قوم... وقال قوم هو المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الاسود... وقال قوم انه ليس إشارة إلى اخ معين»(3).

فلو كان النص لابن المقفع - وقد فات الرضي ذلك فلن يسكت ابن أبي الحديد عنه وهو الذي ناقش في شرحه الكبير جل نصوص النهج وما دار

ص: 109

1- الأدب الكبير، ص 133

2- عبد الله بن المقفع «اسمه بالفارسية روزبه... يكنى قبل إسلامه أبا عمر، فلما أسلم اكتنى بأبي محمد، والمقفع ابن المبارك وإنما تقفع لن الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجته من مال السلطان» ابن النديم الفهرست ص 132

3- ابن أبي الحديد شرح النهج 19 / 184

حولها من خلاف. ثم ان ابن قتيبة(1) قد نسب النص للحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، ولا يستبعد ان يكون الحسن عليه السلام قد سمعه من أبيه وأورده في مناسبة ما إيراد المسلمات، هذا وقد أشار ابن ميثم البحراني أثناء تعليقه على النص إلى ان ابن المقفع(2) قد نسب ذلك القول للحسن عليه السلام الا اننا لم نجد ذلك في النسخ المطبوعة، فلربما يكون قد اطلع عليه في نسخة خطية لم تصلنا ولربما حذف الاسم بفعل التحريف، كما روى الكليني(3) النص منسوباً إلى الحسن بن علي عليه السلام باختلاف يسير في روايته عما أورده كل من ابن المقفع والشريف الرضي، كما نسب الزمخشري النص إلى الإمام علي عليه السلام أيضاً وعليه فإن الأرجح عندنا نسبته إلى علي عليه السلام(4).

11 - ورود كلمة (وصي): وهي مصطلح شيعي مستحدث في أكثر من موضع في النهج(5):

من أسباب الشك في بعض نصوص (نهج البلاغة) لعلي عليه السلام، ورود كلمة (وصي) بالمعنى السياسي الذي يرمي منه الشيعة اسباغ الشرعية على الدعوى القائلة بأحقية علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة دون غيره من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فمصطلح (وصي) من وجهة نظر أولئك المشككين، هو من اختلاف الشيعة في عصور متأخرة بعد بروز الشيعة الموالين لعلي عليه السلام كحزب معارض تبلورت

ص: 110

1- عيون الأخبار 2/ 335

2- شرح النهج 5/ 389

3- الاصول من الكافي 2/ 237

4- ربيع الابرار 1/ 305

5- راجع محمد سيد كيلاني أثر التشيع في الأدب العربي، ص 66. وحول إنكار كلمة وصي فيما أثار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتهام الشيعة بتلفيقها، راجع أحمد أمين: فجر الإسلام ص 267

افكاره ومعتقداته(1). والمتأمل فيما ورد في النهج من نصوص لا يجد كلمة وصي بمعناها السياسي الا في موضع واحد هو «لهم خصائص الولاية وفيهم الوصية والوراثة»(2)، والمعنى بالضمير في (لهم وفيهم) آل البيت عليهم السلام. فإذا ما أردنا إثبات صحة نسبة تلك الخطبة، أو بالأحرى تلك العبارة القصيرة التي وردت فيها لعلي عليه السلام، فمن المتوجب ان نثبت بأن مصطلح وصي قد ورد في المأثورات النبوية بنفس المعنى الذي تعنيه عقيدة الشيعة له، وذلك بتتبعه تاريخياً. فأول ما تصادفنا كلمة (وصي) بمعناها الاصطلاحي في علي عليه السلام، في بداية تباشير الدعوة الإسلامية، إذ انه لما نزل قوله تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)(3) أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علياً بأن يدعو عشيرته ويعد لهم طعاماً، وبعد ان تجمعوا وفرغوا من طعامهم قال لهم صلى الله عليه وآله وسلم «اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟ قال علي: فأحجم القوم عنها جميعاً قلت: وإني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً، أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: ان هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»(4).

وبصدد كلمة وصي، سأل سلمان الفارسي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يا رسول الله ليس

ص: 111

---

1- راجع أحمد محمود صبحي: نظرية الإمامة لدى الشيعة ص 28 وما بعدها، فقد عرض لنشأة التشيع

2- خطب 12

3- الشعراء 214

4- تاريخ الطبري 321/2، ابن الاثير الكامل في التاريخ 42/2



من نبي إلا وله وصي وسبطان، فنوصيك وسبطاك؟... فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظهر، قال: ادن يا سلمان... فقال: سألتني عن شيء لم يأتني فيه أمر، وقد اتاني ان الله قد بعث اربعة الاف وصي، وثمانية الاف سبط، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين، وان وصيي لخير الوصيين، وسبطاي خير الاسباط»(1).

وقد تكررت كلمة وصي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي علي عليه السلام بالذات في مواطن متعددة، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم «إن لكل نبي وصياً وإن علياً وصيي ووارثي»(2)، وفي موطن آخر قال صلى الله عليه وآله وسلم «وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز مواعيدي علي بن أبي طالب عليه السلام»(3). وفي وصية منه صلى الله عليه وآله وسلم في علي بن أبي طالب عليه السلام «أوصي من آمن بالله وصدقني، بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، من تولاه، فقد تولاني ومن تولاني فقد تولى الله، ومن احبه فقد احبني ومن احبني فقد احب الله عز وجل»(4).

كما وردت كلمة (وصي) بمعناها السياسي، وفي علي عليه السلام أيضاً في شعر صدر الإسلام كما في قول شاعر الأنصار النعمان بن عجلان في رده على عمرو بن العاص حين هجا الأنصار بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (طويل):

وكان هوانا في علي وانه \*\*\* لأهل لها يا عمر من حيث لا تدري

وصي النبي المصطفى وابن عمه \*\*\* وقاتل فرسان الضلالة والكفر(5)

ومنه أيضاً قول حسان بن ثابت الانصاري (طويل):

ص: 112

1- ابن اسحاق السيرة ص 105

2- المحب الطبري ذخائر العقبى، ص 71

3- المحب الطبري ذخائر العقبى ص 71

4- الزبير بن بكار الأخبار الموقفيات ص 312

5- المصدر السابق، ص 593

جزى الله عنا والجزء بكلفه \*\*\* أبا حسن عنا ومن كابي حسن

حفظت رسول الله فينا وعهده \*\*\* اليك ومن أولى به منك من ومن

الست اخاه في الهدى ووصيه \*\*\* واعلم منهم بالكتاب وبالسنن(1)

وفي نفس السياق يقول أبو الاسود الدؤلي (وافر):

احب محمداً حبا شديداً \*\*\* وعباساً وحمزة والوصيا(2)

ومن ذلك أيضاً ما ورد في خطبة الحسين بن علي عليهما السلام قبل استشهاده يوم عاشوراء (اما بعد، فانسيوني، فانظروا من انا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحل لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟ الست ابن بنت نبيكم e وابن وصيه وابن عمه(3)).

تلك إذا كلمة (وصي) بمعناها السياسي، كما وردت في الحديث النبوي الشريف، وفي الشعر وفي الخطابة، وهي تدحض ما زعم بان الشيعة هم الذين ابتدعوا وألبسوها ذلك المعنى لذلك فإن وجودها في (نهج البلاغة) مأثورة عن علي بن أبي طالب عليه السلام مما لا ريب فيه.

12 - ذكر الإمامة على لسان علي عليه السلام وأحقيقته فيها في مواضع كثيرة من النهج هو ما لم يحدث منه على الإطلاق(4):

عرض (نهج البلاغة) لأحقية علي بن أبي طالب عليه السلام في خلافة المسلمين دون

ص: 113

1- الزبير بن بكار الأخبار الموافقيات، ص 598

2- المبرد الكامل 205/3

3- تاريخ الطبري 424/5

4- راجع أثر التشيع في الأدب العربي، السابق ص 65

غيره من قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته في أربعة عشر نصاً<sup>(1)</sup>. وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى الشك في نسبة نصوص النهج لعلي عليه السلام، أو على الأقل الشك في نسبة تلك النصوص الأربعة عشر، على اعتبار ان علياً عليه السلام بايع من قبله طوعاً ولم يدع لأحقته في الخلافة. ولكن الباحث المحايد في تاريخ صدر الإسلام سيجد ما يناقض تلك المقولة، إذ ما نفاك يذكر احقيته في الخلافة طيلة حياته ابتداء من اليوم الأول الذي بويع فيه لأبي بكر. يحدثنا ابن قتيبة عن ذلك فيقول «ثم ان علياً عليه السلام أتى به إلى أبي بكر، وهو يقول: انا عبد الله وأخو رسول الله، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبابكم وأنتم أولى بالبيعة لي»<sup>(2)</sup> وقد يرى أولئك الشاكون ان ذلك القول مختلق على علي عليه السلام، ولكن الذي يؤيده ويثبت صحته ما ورد على لسان أبي بكر عند وفاته «إني لا آسي على شيء في الدنيا إلا على ثلاث فعلتھن ووددت اني تركتھن، وثلاث اني تركتھن ووددت اني فعلتھن، وثلاث وددت اني سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنھن، فإما الثلاث اللاتي فعلتھن ووددت اني تركتھن: فوددت ان لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وان كانوا أغلقوه على حرب»<sup>(3)</sup>، وكشف بيت فاطمة عليها السلام الذي تمنى أبو بكر انه لم يفعله يعني ضمناً معارضة علي عليه السلام، ثم يعني ان علياً عليه السلام، اكره على بيعة أبي بكر بعد اخراجه من بيت فاطمة بالقوة، فقول علي عليه السلام وما صاحبه من أمر على البيعة بالإضافة إلى الوق بكشف بيت فاطمة، كل ذلك يعني معارضة علي عليه السلام وانه لم يؤد البيعة لأبي بكر الا مكرها، فشعوره بالغبن الذي وقع عليه بعد وفاة

ص: 114

1- راجع الخطب: 2، 3، 4، 26، 37، 66، 73، 99، 152، 163، 173، 180، 212 والحكمة رقم 187

2- ابن قتيبة - الإمامة والسياسة 1 / 11

3- ابن عبد ربه - العقد الفريد 4 / 268

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هاجس ظل يلاحقه، إذ ما فتىء يذكر ذلك بالم ومرارة في كل مناسبة تقتضيه، حتى بعد ان بويع بالخلافة، فمن ذلك قوله في أول خطبة بعد ان بويع له «قد كانت لكم امور ملتة علي فيها ميلة لم تكونوا عندي فيها بمحمودين ولا مصيبين. أما اني لو أشاء لقلت، عفا الله عما سلف، سبق الرجلان، وقام الثالث كالغراب همه بطنه...» (1).

ويتضح من النصوص التي بين أيدينا أن شكواه من ذلك كانت من المرارة والألم بحيث رواها عنه حتى المنابذين له، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال:

قال علي بن أبي طالب عليه السلام «ما لقي أحد من هذه الأمة ما لقيت، توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أحق الناس بهذا الأمر فبايع الناس أبا بكر واستخلف عمر، فبايعت ورضيت وسلمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت ورضيت وسلمت، وهم الأنيميلون بيني وبين معاوية» (2)، كما ان القول بأحقيته في الخلافة قبل انعقاد الشورى (3)، وعلى الملاً يوم بويع لعثمان مشهور (4)، وأيضاً مناشدته الصحابة بسماعهم حديث الغدير (5) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه من الدلالات الأكيدة: على

ص: 115

1- الجاحظ البيان والتبيان 50/2

2- البلاذري أنساب الأشراف 77/2

3- راجع قوله لعنه العباس بعدما رشحه عمر للخلافة ضمن الستة أصحاب الشورى تاريخ الطبري 4/229، 230

4- راجع قوله لعبد الرحمن بن عوف بعد أن بايع لعثمان ابن الأثير الكامل 37/3

5- الغدير - غدير خم: بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان معجم البلدان 4/188. وهوالموضع الذي اعلن فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الملاً بعد حجة الوداع قوله «من كنت مولاه فهذا علي مولاه...» وقد أورد أحمد بن حنبل مناشدة علي صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة عن سماعهم حديث الغدير ورواه في مسنده بسبعة طرق مختلفة راجع الفتح الرباني 23/25/27، كما رد ابن عساكر تلك المناشدة بثلاث عشر رواية مختلفة ترجمة علي من تاريخ دمشق 1/5-30

قوله بأحقيقته بالخلافة، لذا فإن ما ورد في (نهج البلاغة) من مثل تلك النصوص المنسوبة إليه، ما هي الا غيوض من فيض أثر عنه، مما لا يدع إلى الشك في صحة نسبتها، وان جل تلك النصوص موثقة من مصادر إما إنها قد الفت قبل الشريف الرضي، واما انها قد وردت فيها باختلاف في رواياتها(1) يدل على أنها أخذت من مصادر غير الصادر التي اعتمدها الرضي.

### 13 - السجع المفرط والأناقة اللفظية في كثير من نصوص (نهج البلاغة)(2)

من أسباب الشك في نسبة كثير من نصوص (نهج البلاغة) لعلي بن أبي طالب عليه السلام، شيوع السجع والازدواج في الكثير منها، على اعتبار ان الأناقة اللفظية قد دخلت النثر الفني العربي في وقت متأخر، بعد تفاعل الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات المجاورة بفعل التأثير والتأثير(3)، إلا أننا نعتقد ان تلك الفكرة مصيبة لبعدها عن الواقع، إلا إذا كان القصد من القول: الزخرفة اللفظية الخارجية التي يعمد إليها الأديب، لاهتمامه بالسجع كغاية يهدف إليها على حساب المضامين.

فالنثر الجاهلي وان لم يصلنا منه سوى النزر القليل، إلا أننا نعتقد انه قد بلغ حد الاتقان والروعة، لأن نزول القرآن الكريم بأساليبه التعبيرية المعجزة وموسيقاه الرائعة المبنية باحكام لا يمكن محاكاتها، فيه الدلالات البعيدة والأكيدة على ان العرب في جاهليتهم قد كانوا على دراية تامة بأساليب العربية، وذوق بلاغي

ص: 116

1- راجع مصادر النصوص الاربعة عشر

2- راجع أحمد امين: فجر الإسلام ص 149، شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص 62

3- راجع أحمد أمين: السابق

رفيع، وما تحديه لهم بآياته إلا لأنهم قد بلغوا مكانة سامقة من الصياغة الأدبية، تحتاج إلى نماذج معجزة تفهمهم وتتحداهم في اعز ما يملكونه ويفخرون به.

فالقران الكريم «في بلاغته انما كان يخاطب قوماً يفهمونه ويتذوقونه، وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن ان يقع اتفاقاً وبلا استعداد»(1).

فإذا ما سلمنا بمعجزة القرآن البلاغية، فلا بد ان تكون موسيقاه اللفظية جزءاً لا يتجزأ من تلك المعجزة. وعليه فالسجع بصوره الواردة في كتاب الله «طابع اصيل في اللغة تطور مع تطور الزمن»(2) دولقد أشار أبو هلال العسكري لذلك بقوله «لو استثنى كلام عن الازدواج، فكان القرآن الكريم، د لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه»(3). كما ان قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «اسجعاً كسجع الكهان»(4) يؤكد وجود نوع من السجع الجاهلي المستكره بجانب السجع المقبول المحبب للنفس، ولولا ذلك لما ورد السجع في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم التي منها «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»(5). يعلق الجرجاني على الحديث الشريف بقوله «فانت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع وترك لما هو احق بالمعنى منه وأبر به وأهدى إلى مذهبه»(6).

فإحساس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقيمة الموسيقية للفظ في بعض الأحيان

«ربما غير الكلمة

ص: 117

1- زكي مبارك: النشر الفني 55 / 1

2- السابق 54 / 1

3- أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين 260

4- السابق 161

5- اسرار البلاغة 12

6- اسرار البلاغة 13

عن وجهتها للموازنة بين الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة. وإنما أراد ملمة»<sup>(1)</sup>.

إذن فالسجع والازدواج وغيرهما من المحسنات البديعة، خصائص أصيلة في النظم العربي إذ لم تدخل فيه جراء تأثيرات حضارية وافدة، وعليه فإن ما ورد من سجع وازدواج وغير ذلك من موسيقى لفظية ومحسنات بديعية في (نهج البلاغة) أصيلة في نسبتها إلى علي عليه السلام لأنها لا تتعدى في بنائها وانسجامها السير في ظلال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من غير افراط ولا تقريط، بحيث يمكننا تقويمها وتقديمها من خلال ما يمكن استنباطه من قواعد واصول شيد عليها البناء الفني في الذكر الحكيم والمأثورات النبوية، لبعدها عن التكلف، والانسجام في تناغم الفاظها من حيث المخارج، واتساقها في نصوصها لخدمة المعاني في جوها الذي قيلت فيه، مما ينأى بها عن الافتعال لأنها صادرة في صخبها وهدوئها عن عاطفة صادقة في تمثيلها لروح العصر الذي قيلت فيه، بدلالة احساسنا من خلال العبارات في جرسها عن نبض صادق لا يمكن لأية نفس مهما اوتيت من ملكة بلاغية ان تنقله بالصورة الحية تلك الامن خلال معاشته في واقعه، لأن ترجمة انفعالات الآخرين وأحاسيسهم إلى أفكار من الصعوبة والتعقيد، بحيث لا يمكن أن يعبر عنها إلا صاحبها، وهذا ما يمكن أن نعيشه بالفعل، عند دراستنا للأساليب التعبيرية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>(2)</sup>.

ان (نهج البلاغة) بنصوه المتكاملة واشلاء الخطب المتناثرة وما ورد فيه

ص: 118

1- كتاب الصناعتين، ص 161

2- يمكن استخلاص ذلك من قراءة في الباب الخامس من هذا البحث ص 601 وما بعدها

من رسائل وعهود وحكم وكلمات قصار، هو بناء متكامل ومنسجم «امتزج فيه أدب وفلسفة وفروسية وسياسية امتزاجاً لا نستطيع معه ان نسل عنصراً منها لنقيمه وحده بعيداً عن سائرالعناصر»<sup>(1)</sup>. وذلك الاعتبار في حد ذاته يعني صدور النهج من مجرى واحد في بنائه بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نرى في هندسته صدعاً أو في تناغم أصواته نشازاً لأنه كل متكامل وان حاول الشريف الرضي توزيع نصوصه على شكل منهج معين ارتاه فكره.

ص: 119

---

1- زكي نجيب محفوظ: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص 29





## منهج الشريف الرضي في تصنيفه

لنصوص (نهج البلاغة)

بلغ عدد النصوص التي اختارها الشريف الرضي للإمام علي عليه السلام ضمن كتاب (نهج البلاغة) ثمان مئة واثنى عشر نصاً، بين صغير لا يتعدى الجملة المكونة من الكلمتين أو الثلاث والمتوسط المتكون من فقرة أو فقرتين، والكبير الذي بلغ عدة صفحات وقد صنفت في الكتاب حسب الجدول التالي:

الخطب وما يجري مجراها الرسائل الوصايا العهود الحكم والكلمات القصار 244 61 14 4 489 اما المنهج الذي اختطه الشريف الرضي لتوزيع المادة في المنهج ف «يدور على ثلاث اقطاب:

- أولها: الخطب والأوامر.

- وثانيها: الكتب والرسائل.

ص: 121

- ثالثها: الحكم والمواعظ(1) .

وعلى هذا فقد ضم الكتاب، مقدمة وثلاثة ابواب:

1 - المقدمة:(2) وقد بين فيها الشريف الرضي الأسباب التي دعتة إلى جمع ما تيسر من مأثورات الإمام علي عليه السلام، والمنهج الذي ارتآه في تنسيق مادته، مع الاشادة بعبقرية الإمام علي عليه السلام في مجال البلاغة وغيرها من العلوم، كما ذكر ضمن تلك المقدمة سبب تسمية الكتاب ب «نهج البلاغة» ثم تلا ذلك ابواب الكتاب:

2 - الباب الأول: المختار من محاسن خطب الإمام علي عليه السلام، وقد احتوى على مئتين وأربعة وأربعين نصاً بين صغير وكبير، متنوعة المضامين، منها السياسية ومنه الاجتماعية ومنها التأملية التي تبحث في شؤون الخالق والخلق ومنها الزهدية إلى غير ذلك من أدعية وتفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

3 - الباب الثاني: المختار من محاسن كتبه وعهوده ووصاياه، وعدد نصوص هذا الباب تسعة وسبعون نصاً، يمكننا من خلالها دراسة أسلوب علي عليه السلام الاجتماعي والسياسي وطرق تعامله مع أعدائه وعلاقاته بعماله من قضاة وجباة خراج وقادة وولاة، ونظرتة إلى طبقات الأمة، وكيفية التعامل مع كل طبقة من خلال علاقة الحاكم بالمحكوم، إلى غير ذلك من وصايا أخلاقية تتعلق بشؤون الدنيا والدين(3) .

3 - الباب الثالث: المختار من محاسن حكمه وما أشرعنه من أقوال قصيرة

ص: 122

1- مقدمة الشريف الرضي للنهج - ملحق رقم 1

2- راجع المقدمة السابقة

3- المصدر نفسه

ويتكون هذا الباب من أربع مئة وتسعة وثمانين نصاً تقريباً، وهو من الثراء بحيث لا يمكن حصر مضامينه في موضوعات معينة، إذ بالإمكان عدّه شاملاً لجميع شؤون الحياة.

إضافة إلى المجهود الكبير الذي بذله الشريف الرضي في جمع المادة وانتقاء شواهده منها وتبويبها، فقد تجلت قدرته كمؤلف بارع ذي ثقافة موسوعية، أثناء عرضه لكثير من النصوص بالتعليق عليها، اما لغاية التوثيق، أو لتبيان قيمة بلاغية دقيقة(1)، وأما لشرح بعض الغريب(2)، أو لمناقشة مسألة فقهية عرض إليها النص(3)، إلى غير ذلك من مسائل كلامية أو سياسية. ولما كانت الغاية البلاغية هي الهدف من جمع تلك النصوص(4)، فقد أدى ذلك إلى تجزئتها، وتفريقها على فصول مختلفة ومتباعدة داخل الكتاب(5)، أضف إلى ذلك اجتزائه بعض العبارات من خطب لم يذكرها، مما يصعب معه فهم تلك العبارات فهماً دقيقاً وأدى إلى كثرة التأويلات حولها(6)، ومنه أيضاً ورود فقرات متتالية في فصل واحد من خطب متعددة(7)، والشريف الرضي إذ يقوم بذلك فإنه على وعي تام بما يفعل، يقول في المقدمة «ربما جاء فيما اختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة لأن أورد النكت واللمع ولا

ص: 123

- 1- راجع على سبيل المثال الخطبة رقم 21
- 2- راجع على سبيل المثال تعليقه على النص رقم 3، باب الخطب، والخطبة 42، والخطبة 48
- 3- راجع تعليق الرضي على الحكمة رقم 263
- 4- راجع مقدمة الشريف الرضي للنهج
- 5- لقد أشرنا إلى ذلك في ص 37 من هذا البحث
- 6- راجع ص 37 وما بعدها من هذا البحث
- 7- وسبق وان اشرنا إلى ذلك في ص 37 وما بعدها من هذا البحث

اقصد التالي والنسق»(1) .

كما أن الهاجس البلاغي الذي ملك على الرضي إحساسه أثناء تنسيق المادة أوقعه في كثير من المعاني المكررة وعذره في ذلك «أن روايات كلامه - أي الإمام علي عليه السلام - تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق المختار في روايته فنقل على وجهه ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير موضعه الأول، إما بزيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة، فتقتضي الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيره على عقائل الكلام، وربما بعد العهد أيضاً بما اختير فاعيد بعضه سهواً أو نسياناً لا قصداً واعتماداً»(2) .

وما يمكن استخلاصه مما سبق، أن منهج الشريف في تنسيقه مادة (نهج البلاغة) قد انبنى على محورين:

- الأول: أساسي وهو البلاغي.

- الثاني: ثانوي وهو تصنيف النصوص حسب الموضوعات.

وسيطرة المحور الأول على فكر الرضي أدت إلى تجزئة كثير من النصوص لتسليط الضوء على الجانب البلاغي فيها، وقد أوقعه ذلك في أخطاء لا بد من ذكرها:

أولاً: إن التركيز على الجانب البلاغي واجتزائه من النص دون المراعاة لمعناه التام في سياقه، حال دون فهم بعض الجوانب الفكرية التي انطمت معالمها بسبب ذلك مما فتح الباب للتخمين والافتراضات حول معاني تلك النصوص(3) .

ص: 124

1- الشريف الرضي مقدمة النهج

2- المصدر نفسه

3- يقول ابن أبي الحديد في شرحه للنهج 294/8 اثناء تعليقه على الخطبة رقم «133 فاما قوله: (وكتاب الله) إلى قوله: (لا يخالف بصاحبه عن الله) ففصل آخر مقطوع عما قبله ومتصل بما لم يذكره جامع (نهج البلاغة)»

ثانياً: إن إيراد فقرات متتابعه في فصل واحد، أدى إلى التناغم الأسلوبي بين الفقرات، والتنافر في سياقها المعنوي كفصل منتظم، مما يوقع الدراس في حيرة، خاصة إذا اعتمد في دراسته على (نهج البلاغة) دون شروحه المطولة كشرح ابن أبي الحديد وشرح ميثم البحراني أو منهاج البراعة للخوئي، لأن تلك الشروح هي التي حاولت معالجة مثل تلك الفصول بإسهاب(1) معتمدة على المصادر السابقة على النهج.

ثالثاً: توزيع النص الواحد في فصول متفرقة متباعدة داخل الكتاب، حال دون الوحدة العضوية التي أرادها الإمام علي عليه السلام من النص.

رابعاً: قد نتغاضى عن التكرار الذي أورد الرضي له عذراً في مقدمته، ولكن هناك نصوصاً كررها الرضي بعينها دون أية زيادة جديدة فيها وأشار إلى ذلك التكرار عند إيرادها(2).

خامساً: عالج بعض ما ورد من غريب في كلام الإمام علي عليه السلام ضمن باب الحكم والكلمات القصار، في ثمانية نصوص(3)، استأنف بعدها الباب المذكور، وحذا لو افرد لها باباً خاصاً توسع فيه، لأن الغريب لم يقتصر على تلك النصوص الثمانية في مختاراته الكثيرة المتنوعة.

ص: 125

---

1- عرضنا لنماذج من ذلك في ص 37 وما بعدها من هذا البحث

2- على سبيل المثال راجع الفقرة الأخيرة من الخطبة رقم 173 وقارنها بالنص رقم 212 من باب الخطب - جدول النهج

3- للتثبت من ذلك، راجع باب الحكم ابتداء بالحكمة رقم 260 وانتهاء بالحكمة رقم 268

على أن كل ذلك لا يغض من المجهود الكبير الذي بذله الشريف الرضي في حفظه هذا الكم الوافر من التراث الإنساني الذي أثر عن علي عليه السلام كما أنه لا ينقص من قيمة النهج كأثر أصيل يمدنا بفيض زاخر من عبقرية تراثنا الفكري في مجال السياسة والاجتماع والأخلاق والفلسفة والأدب والبلاغة.

ص:126

من خلال دراسة متعمقة في نصوص (نهج البلاغة) يظهر بنتيجة مفادها أن تلك النصوص، وإن تنوعت في موضوعاتها، إلا أنها تكاد تكون متكاملة من حيث أساليبها ونوعها الفكري، فهي تمثل «الجمع العجيب - الجميل - في رجل واحد، بين أن يكون الفارس الذي يجيد القتال بسيفه وجواده، وهو السياسي الذي يجادل ويقاوم، وهو الأديب الذي كيف صياغة اللفظ في أروع ما تكون الصياغة... وهو الفيلسوف الذي ينزع بفلسفته إلى ضم الكون كله في أحكام موجزة مركزة نافذة إلى صميم الحق»<sup>(1)</sup>، وتلك الاشعاعات المتفرعة من ذلك الكل المتكامل هي التي منحت (نهج البلاغة) الثراء من حيث:

#### 1 - القيمة الأدبية والبلاغية:

عرفنا مما سبق أن الهدف البلاغي هو الأساس الذي من أجله جمعت نصوص

(نهج البلاغة) ولا أعتقد أن الشريف الرضي حين قام بذلك الجمع - وهو الأديب الشاعر ذو الذوق الرفيع - قد غفل عما سيحدثه الكتاب من ضجة في الأوساط الأدبية، وما سيناله من مكانة رفيعة عند المهتمين بالبلاغة والأدب،

ص: 127



خاصة أنه قد ألفه وجمع شتاته بناء على رغبة المتأديين من أبناء عصره(1)، كما ان اطلاعه على أثر تلك النصوص في بلاغة من سبقه من الكتاب(2) كان حافظاً له على ذلك الجمع، أضف إلى ذلك معاشته لتلك النصوص أثناء الاختيار منها فببراعته وحذقه بصناعة الكلام تمكن من اختيار درر الكلم، التي أصبحت من بعده قطب رحي الدراسات والشروح فما أن ظهر الكتاب إلى الوجود حتى تناولت الأقلام نصوصه بالشروح الكبيرة والصغيرة(3)، وتناقلتها الألسن في لغاتها المختلفة(4)، فأصبحت معانيها ميداناً تبارى العقول في إظهار عجائبها، وشرح غريبها، والوقوف عند أسرار بلاغتها، بحيث شكلت تلك الدراسات والشروح مكتبة تكاد تكون متكاملة(5). أضف إلى ذلك الدراسات التي ألفت حول النهج وعلى هامشه، فقلما صدرت دراسة أو ترجمة للإمام علي عليه السلام وحياتها لا وتعرضت لبلاغته، مشيرة في ذلك لما حواه النهج من روائع، كما أنه من النادر جداً أن يترجم للشريف الرضي دون ذكر نهج البلاغة وموضوعاته وما دار حولها من جدل له أو عليه.

ولم تقتصر الدراسات في (نهج البلاغة) على القديم، بل ما زالت مستمرة،

ص: 128

1- راجع مقدمة الشريف الرضي للنهج

2- لا بد أنه قد أطلع على ما روي عن عبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت 132 هـ) حين سئل «ما الذي مكنك من البلاغة، وخرجك فيها؟ قال: حفظ كلام الأصلع: يعني أمير المؤمنين الجهمياري الوزراء، والكتاب ص 182، كما قد أثر عن استاذة ابن نباتة الفارقي (ت 374 هـ) قوله «حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيد الانفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواظ علي بن أبي طالب عليه السلام»، ابن أبي الحديد: شرح النهج 24/1

3- لقد تعرضنا لذلك في ص 19 وما بعدها من هذا البحث

4- لقد تعرضنا لذلك في ص 19 وما بعدها من هذا البحث

5- لمعرفة ذلك بالتفصيل: راجع عبد الزهراء الحسيني مصادر نهج البلاغة وأسانيده 220/1 وما بعدها

فمحمد عبده في معرض اشاداته بالكتاب يوصي «الطالبين لنفائس اللغة، والطامعين في التدرج لمراقبيها، ان يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم، وافضل مأثورهم، مع تفهم معانيه في الاغراض التي جاءت من اجلها. وتأمل الفاظه في المعاني التي صيغت للدلالة عليها»(1). فبلاغة نصوص النهج واساليبها الرفيعة، شحذت عقول الدارسين وحيرت افهامهم لا لأنها اتخذت من القوالب الجمالية غاية، بل لأن العقلية الفذة التي صاغتها استطاعت توظيف البلاغة العربية في طبيعتها الخالصة لمعالجة موضوعات الحياة، معالجة تتسم بالحيوية والصدق، فأذابت الفروسية والسياسة والأخلاق والفلسفة والزهد في قوالب محكمة من المتعذر الفصل بين عناصرها وإقامة أي عنصر منها «وحده بعيداً عن سائر العناصر»(2). وعلى ذلك فإن عنصري البلاغة والأدب في (نهج البلاغة) وان كانا هما السبب المباشر في جمع نصوص الكتاب إلا أنهما لم يكونا عنصري القيمة الوحيدين، لأن معالجة تلك النصوص لجوانب متعددة من الحياة منحها القيمة العالية على اعتبارها أثراً إنسانياً له مكانته من حيث القيمة التاريخية.

## 2 - القيمة التاريخية:

إذا كان مؤرخو فترة صدر الإسلام يذكرون الحوادث التاريخية متسلسلة اعتماداً على روايات أخذت سماعاً، فإن في (نهج البلاغة) نصوصاً كثيرة تؤرخ لمعظم تلك الحوادث عن مشاهدة وعيان، لأن قائلها طرف أصيل في تلك الحوادث في بداية الدعوة الإسلامية، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وقطب رحي تلك الحوادث بعد مقتل عثمان بن عفان. وبناء عليه فإن نصوص النهج إذا ما نظرنا فيها بحيدة هي من أصدق الوثائق التاريخية التي أرخت لتلك الفترة ومن أهمها مقدمة.

ص: 129

---

1- شرح نهج البلاغة ص 12 من طبعة دارالأندلس

2- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص 29

أيضاً. وتتجلى أهمية تلك الوثائق التاريخية، في عدم اقتصرها على سرد الحوادث ووصف المشاكل التي عرضت للمجتمع الإسلامي، بل في مناقشتها لتلك المشاكل من جميع الوجوه مع محاولة لوضع الحلول المناسبة لها، فالنصوص التاريخية المأثورة في النهج عن علي عليه السلام «تعطي صورة واضحة عن نظراته الثاقبة وآرائه البعيدة في مبادئ السياسة وأساليب حكم الرعية وإدارة شؤونها والحث على دفع الفتن عنها»<sup>(1)</sup>. ثم أن الدراسات للحوادث التاريخية من خلال النهج يمكنه أيضاً متابعه التاريخ الإسلامي في انعطافته الكبيرة التي عبر عنها حديثاً بـ «الفتنة الكبرى»<sup>(2)</sup> التي تمكن دارس تلك الحقبة من معرفته الأسرار الخفية الدقيقة التي بسببها استحوطت الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض.

لذلك فإن أية دراسة لتاريخ صدر الإسلام، لا تتخذ من (نهج البلاغة) مصدراً من مصادرها تعتبر في عقادنا قاصرة، خاصة أن التاريخ العام لتلك الفترة لا يحلل الحوادث كتحويل نصوص النهج لها من واقع معاشتها حيث يرى الباحث من خلال العبارات «أن حروباً قد شبت وغارات شنت... والحق منتصر، والباطل منكسر، ومرج الشك في خمود، وهرج الريب في ركود»<sup>(3)</sup>. فالحوادث التاريخية في النهج لا تحتسب من النوافل، وإنما هي من أسسه التي لم تكن الصياغة إلا خادمة لها لإجلاء وجهها ورفع غبار الزمن عنها لتبدو جلية واضحة تجعل الباحث يعيش التاريخ ويحلل الحوادث بعيداً عن أية تأثيرات خارجية.

ص: 130

1- صبحي الصالح: مقدمة تحقيق نهج البلاغة ص 11

2- أرخ طه حسين لفترة عثمان ثم لفترة علي عليه السلام في كتابين منفصلين بعنوان «الفتنة الكبرى» وقد أرخ في ذينك الكتابين إلى ما أصاب الدولة الإسلامية من شرخ عميق أحالها في نهاية الأمر إلى ملك وراثي

3- محمد عبده: مقدمته لشرح نهج البلاغة ص 10 من طبعة الأندلس

تعد النواحي الفكرية من الركائز التي انبنى عليها كثير من نصوص (نهج البلاغة) التي عرضت لمعالجة قضايا العدل، والتوحيد، وعلم الأخلاق والسياسة والمجتمع إلى غير ذلك من موضوعات ما وراثية تتعلق بالحياة والموت، وذلك ما جعل النهج مصدراً مهماً وأساسياً بالنسبة لجميع الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربها:

فمن ذلك تعويل الشيعة على نصوصه كمصدر لعقائدهم وبالأخص العدل والتوحيد على أساس «أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه وخطبه فإنها تتضمن ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه»<sup>(1)</sup>.

كما يمكن للباحث أن يتعرف على كثير من العناصر الأولية التي انبنت عليها آراء الخوارج وعقائدهم في الإمامة وأحكام القرآن وغير ذلك من الآراء التي تدور حول الإيمان والكفر، وذلك من خلال الجدل الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وبينهم بعد قضية التحكيم، وقد حفظ لنا النهج طرفاً كبيراً من ذلك النزاع.

أما تأثير المعتزلة وعلماء الكلام بأقوال علي عليه السلام وخطبه فواضح باعتراف شيوخهم<sup>(2)</sup> وقد أدى ورود بعض الكلمات التي استعملها المعتزلة وعلماء الكلام كمصطلحات في بعض من نصوص النهج، إلى الشك في نسبة تلك النصوص لعلي عليه السلام.

هذا وقد اعتمد الأشاعرة في كثير من حججهم الكلامية وعقيدتهم في الخلق

ص: 131

1- الشريف المرتضى: اماليه 1/ 140

2- راجع: ابن انديم الفهرست ص 202

والخالق على ما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام من خطب وأقوال (1).

كما اتخذ المتصوفة من أقواله في الزهد والتكشف وصفات المؤمنين ما يتناسب وأفكارهم، حتى لقد أول أحد الشارحين بعض نصوص النهج تأويلاً صوفياً (2)، كما أفرد شارح آخر فصلاً طويلاً لدحض تلك الأفكار والرد عليها (3).

فالمصنف لشروح (نهج البلاغة) المطولة، يجد كل تلك الأفكار مبسطة فيه، وذلك بناء على تأويل النصوص بما يتناسب وكل عقيدة على اعتبار أن ما ورد فيه من كلام هو «عند أهل الفطنة والنظر دون كلام الله ورسوله، وفوق كلام البشر واضحة مناره، مشرقة آثاره، لا يستبعد في هذا الدهر أن يلتبس شيء من مشكلاته على من يقتبس إما من ألفاظه الغرائب أو معانيه العجائب» (4).

فعلى ضوء ما سبق يمكننا اعتبار (نهج البلاغة) نصاً متكاملًا تدرج موضوعاته تحت عناوين «ثلاثة هي نفسها الموضوعات الرئيسية التي ترد إليها محاولات الفلاسفة قديمهم وحديثهم على السواء ألا هي: الله والعالم والإنسان» (5)، وهي أيضاً المحاور الأساسية التي سترتكز عليها دراستنا في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام كما يبدو من خلال نهج البلاغة.

ص: 132

- 1- راجع ما قاله ابن أبي الحديد في ذلك شرح النهج 17/1، هذا وقد اعتمد الأشاعرة في الكثير من مناظراتهم على ما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام من خطب وأقوال، وقد ذكر أبي علي عمر السكوني في كتابه عيون المناظرات إحدى عشرة مناظرة من ص 167 حتى 184
- 2- راجع على سبيل المثال شرح ميثم البحراني للنص رقم 216 من باب الخطب
- 3- عرض الخوئي للصوفية وتسفيه مذهبهم في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 13 / 133 . حتى 417، 2/14 حتى 24 وذلك في استطراد طويل أثناء تعليقه على ما ورد من زهد في الخطبة رقم 203
- 4- الراوندي: منهاج البراعة 4 / 1
- 5- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص 30

## الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة

### إشارة

- الفصل الأول: مفهوم الإمامة ي فكر علي عليه السلام.
- الفصل الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام في مجربات السياسة في عصره.
- الفصل الثالث: مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية في فكر علي عليه السلام.

ص: 133



1 - سياسة الدولة في الإسلام:

من خلال نظرة شاملة ومتعمقة لتصرفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ندرك انه قد كان بجانب تبليغه الدعوة يضع أسس الدولة التي ستحتضن الدين، ولم يكن ذلك التصرف منه اجتهاداً شخصياً، استناداً لقوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (1)، فالأمر السماوي في الآية الكريمة يشمل جميع التصرفات القولية والفعلية لا يفرق في التشريع بين العقائد والعبادات، لذلك فأنا نعتقد ان «جميع الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت لتشريع حكم من الأحكام التي تتعلق بموضوع الدولة وشؤونها جاءت على أساس قيام دولة شرعية في المجتمع الإسلامي» (2).

لكون الإسلام كلاً متكاملًا لا يمكن تجزئته بين عمل دنيوي وآخر اخروي للترابط الوثيق بينهما، فالدين «هو الحياة بأسرها وهو روحها الناطقة الحية

ص: 135

1- الحشر/ 7

2- عبد الرزاق الفضلي: الدولة الإسلامية ص 12



ومحركها الرئيسي وقوتها الدافعة وهو الفهم والشعور والوعي والفكر والنظر والادراك»(1). فالرابط بين الدين والدولة في الإسلام ينطلق من منظوران الحياة بالنسبة للمسلم، مسلك يعبره من خلال معاملاته وعلاقاته الإنسانية، ليصل إلى النعيم المقيم الدائم في الآخرة، لأن «مقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم»(2). وبسبب الترابط التلازمي بين الدين والدولة، نجد أن سياسة الدولة في الإسلام مرتبطة ارتباطاً تتابعياً، يكون الدين قائداً والسياسة مقودة، ويمكن ملاحظة ذلك من تتبعنا لتكوين الدولة في الإسلام.

## 2 - تكوين الدولة في الإسلام:

مما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد تمكن من بعد بيعة العقبة الثانية(3) من وضع اللبنة الأساسية للمجتمع الإسلامي، نواة الدولة لأنه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه البيعة قد

ص: 136

1- أبو الأعلى المودودي: الحكومة الإسلامية ص 13

2- ابن خلدون المقدمة ص 238

3- بيعة العقبة الثانية: العقبة: موضع بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين وعندها مسجد، ومنها ترمى حجارة العقبة، وكان من حديثها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بدء امره يوافي الموسم بسوق عكاظ وذو المجاز ومجنة، ويتبع القبائل في رحالها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليلبغ رسالات ربه، فلا يجد احداً ينصره، حتى إذا كانت سنة إحدى عشرة من النبوة لقي ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة، فدعاهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام وعرض عليهم ان يمنعوه... فأمنوا به وصدقوه... فانصرفوا إلى المدينة وذكروا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام، ثم لما كانت سنة اثنتي عشرة من النبوة وافى موسم الحج إثنا عشر رجلاً فأمنوا وأسلموا (فسميت بيعة العقبة الأولى) فلما كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة اتى منهم سبعون رجلاً وامراتان وبايعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على المنعة، وهي بيعة العقبة الثانية ياقوت معجم البلدان 4/ 43

تمكن من وضع اثنتين من أهم ركائز الدولة الإسلامية:

الركيزة الأولى: الحصول على الحماية والمنعة التي كان محتاجاً إليها لتأمين حياة أصحابه ولتمكين الدعوة من الاستقرار ليتهاج لها الانتشار، ففي قوله صلى الله عليه وآله وسلم للمبايعين ليلة العقبة «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»<sup>(1)</sup> دلالة على الجهد العظيم الذي يسعى من أجله لإقرار الدعوة داخل سياج أمين قوي، لأن ما طلبه من حماية ليس بالسهل اليسير على العربي الذي يرى في العرض وصيانته أعلى القيم وامنعها. هذا بالإضافة إلى أن تلك المعاهدة ستعرضهم إلى ما لا قبل لهم به من عداوة قريش وسخطها لما لها من قوة ونفوذ في القبائل العربية بحكم مكانتها الدينية.

الركيزة الثانية: وتمثل في هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع من آمن به إلى المدينة بأمر من الله تعالى لقوله:

(قَالَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)<sup>(2)</sup>، فحماية المؤمن أو موالاته لا تكون فرضاً على المؤمنين حتى يهاجروا من دار الكفر إلى المدينة المنورة دار الإيمان آنذاك لقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)<sup>(3)</sup>، هذا وقد وردت «الهجرة» والحض عليها بالمعنى الذي نقصده في ثلاثة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم<sup>(4)</sup>، مما يدل على أهميتها في بناء

ص: 137

1- ابن هشام - السيرة 2/ 89

2- النساء / 89

3- الأنفال / 72

4- البقرة / 218 - آل عمران/ 195 - النساء/ 89 ، 97 ، 100 - الأنفال/ 72 ، 74 ، 75 التوبة/ 20، 100 ، 117 - النحل/ 41 ، 110 - الحج/ 58 ، -  
النور/ 22 الاحزاب/ 6، 50 - الحشر/ 8، 9 الممتحنة/ 10

الدولة الجديدة لكونها تدعو إلى تجمع بشري يعتمد العقيدة أسأفي بناء العلاقات الإنسانية.

بعد أن دخل ذلك التجمع مرحلة التنفيذ بتوافد المسلمين إلى المدينة امثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى، دخلت الدولة الفتية مرحلة وضع القوانين التي تربط مختلف الفئات التي كانت تقطن المدينة بالجماعة الوافدين إليها، خاصة أنها لم تكن بعد حكراً على المسلمين، فقد كان يستوطنها بجانبهم اليهود، والكفار، فكان كتاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود (1). والمتمعن في محتوى ذلك الكتاب يجد انه اختصار دقيق وشامل لما ورد في القرآن الكريم من تبيان للعلاقات بين المسلمين وعلاقة المسلمين بغيرهم في حالتي السلم والحرب من جهة أخرى، ومعالجة لتلك القضايا وما ينجم عنها من مغامر، ووجوب رجوع سكان المدينة من مسلمين وغيرهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كل الأمور السياسية، وعدم إبرام أية معاهدة الا بعلم منه. والمتصفح للقران الكريم سيجد في آياته تاييداً لكل شرط من شروط ذلك الكتاب، ومن المعلوم ان الكتاب قد كتب في بداية السنة الأولى من الهجرة، أي قبل نزول معظم آيات التشريع، وليس يعني هذا ان القرآن قد كان ينزل بحسب رغبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ترجمة لأفكاره، وإنما يعني في اعتقادنا أن تصوره لذلك الكتاب من قبيل المعجزة الالهية، حيث تمكن صلى الله عليه وآله وسلم أن يرسم الخطوط العريضة للدولة دون سابق تجربة أو ممارسة، وعليه يمكننا القول أن الأساس الذي قامت عليه دولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الوحي الإلهي، وحتى المسجد النبوي الشريف (مقر حكومة

ص: 138

---

1- راجع ابن هشام: السيرة 147/2، فقد ذكر نص الكتاب وعرض لتفسير غريبه

النبي صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن باختيار احد، فعلى الرغم من العروض الكثيرة التي عرضها اهالي المدينة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للسكنى في جوارهم والأخذ بزمام ناقته فقد قال للجميع «انها مأمورة، خلوا سبيلها... فانطلقت حتى بركت في محل من محلات بني النجار، وذلك في محل المسجد»(1).

ثم ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد كتاب الموادة ذلك، سارفي بناء الدولة خطوة هامة الهدف منها محاولة إنشاء مجتمع اسلامي متكامل، وجعل المدينة نواة الدولة بوتقة ذلك الانصهار باذابة الفوارق، وتبديد هاجس الغربة من نفوس النازحين إليها، بزرع مواطنة جديدة اساسها العقيدة واخوة الإسلام، تجعل من الأرض والمال شيئاً ثانوياً، فكانت مؤاخاته بين المهاجرين والانصار، فقد «أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، وشد ازربعضهم البعض»(2) واستمرت تلك المؤاخاة بشموليتها لكل شيء بما في ذلك الميراث، حتى تمكن الإسلام من النفوس، واطمأن المسلمون في وطنهم الجديد، بعد ان ذابت الفوارق ولم تعد الغربة تشكل هاجساً مقلقاً للنفوس المؤمنة، فنزل القرآن الكريم لفسخ الجانب المادي من تلكالمؤاخاة لجعلها روحية خالصة لوجه الله تعالى، ففي قوله جل شأنة

(وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(3)، قصر سبحانه التوارث على القرابة من الأهل بعد أن كانت مؤاخاة

ص: 139

1- الحلبي: السيرة الحلبية 2/ 245

2- السهيلي: الروض الانف. عن السيرة لابن هشام 2/ 150 الهامش 4

3- الأنفال / 75

«النبى صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه وبينه وبين علي عليه السلام في النصرة والميراث»(1)، وبقية المؤاخاة بين المسلمين - دون الارث - على حالها لقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(2)، فالتصر في الآية على المؤمنين يؤكد بقاء تلك الاخوة واستمراريتها. فإذا كانت الدولة «هي جمع من الناس مستقرون في اقليم معين الحدود ويستقلون بحكم أنفسهم وفق نظام خاص»(3)، فإن ما قام به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من خطوات يكاد يطابق ما حدده ذلك التعريف للدولة، كما ان ذلك الكيان الجديد لم يكن من اجتهاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الوحي كان يساير عمله صلى الله عليه وآله وسلم خطوة بخطوة كما لاحظنا سابقاً.

ثم إن نظم الجهاد وقواعد الحرب وما يترتب على ذلك من غنم أو غرم هو من وحي السماء، فعن الإذن بمحاربة الكفار واعداء الإسلام بعد ان قامت الدولة، يقول سبحانه:

(«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»)(4)، ويقول سبحانه في أهلية القيادة:

(وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)) (5)، وعن الاستعداد للحرب من أجل اقرار السلم والعدل يقول سبحانه:

ص: 140

1- مغنية التفسير الكاشف 516/3

2- الحجرات / 10

3- يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية 245

4- الحجج / 39

5- القصص / 5

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (1)، وعن الجنوح إلى السلم يقول سبحانه:

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (2)، ومبايعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الموت كشرط سياسي هي مبايعة لله سبحانه وتعالى وفقاً لقوله الكريم في بيعة الرضوان (3)،

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) (4). وفي قضية الاسرى وهي منالمشاكل السياسية المتولدة عن الحرب، يقول سبحانه:

(«مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ») (5)، فالراى الراجح في سبب نزول هذه الآية بعد عزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، انه كان عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم المعنى: «ما كان ينبغي لكم ان تفعلوا هذا الفعل الذي اوجب ان يكون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اسرى قبل الاثخان ولهم هذا الاخبار بقوله:

ص: 141

1- الأنفال / 60

2- الأنفال / 61

3- بيعة الرضوان: كانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ، قيل ألفاً وثلاثمئة، وقيل أربعمئة وقيل خمسمائة والأوسط أصح: تفسير ابن كثير 5/ 343. والحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة وسميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها... وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل... وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ياقوت: معجم البلدان 2/ 229

4- الفتح / 10

5- الأنفال/ 67 ، والاثخان في الشيء المبالغة فيه والإكثار منه والمراد المبالغة في قتل الكفار

(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا)، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخذ الدية<sup>(1)</sup>، والمستخلص من ذلك ان القرار السياسي الذي اتخذته بعض المسلمين في أسرى بدر كان مخالفاً لحكم الإسلام ولم يسكت القرآن الكريم عن ذلك، مما يؤكد رابطة الدين بالدولة، لأن قواعد الحرب وما يترتب عليها من معاهدات بشأن السلم والتسلح والأسرى وغير ذلك من امور عسكرية وأخرى اجتماعية لا يمكن ان تكون ذات فاعلية إلا في مجتمع مستقر تحكمه القوانين.

ثم إن جميع آيات التشريع، جاءت لتنظم العلاقات الاجتماعية والسياسية بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، وبين المسلمين والكفار، علاوة على ذلك، فقد أحكم القرآن الكريم طريقة التعامل مع من يمتنع عن الدخول في الإسلام من الأفراد والجماعات، فحكم السيف في رقاب الكفار من قاطني شبه الجزيرة العربية، بينما ترك حرية العبادة لأصحاب الديانات السماوية شريطة دفع الجزية. ولو امعنا النظر في صلح الحديبية<sup>(2)</sup> الذي تنازل

ص: 142

1- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 45/8، 46

2- صلح الحديبية: كان في ذي القعدة من السنة الخامسة لهجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معتمراً لا يريد حرباً ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار ومن تبعه من الأعراب ألف وأربعمائة... فلما سمعت قريش بمسيره اجتمعت على منعه من دخول مكة، فلما استقر به المقام في الحديبية أخذ يفاوض قريش، فانبثق عن تلك المفاوضات صلح الحديبية شروطاً خمسة قد تبدو من حيث الظاهر أنها مجحفة بحق الإسلام والمسلمين، الا انها قد كانت في باطنها ذات فوائد عظيمة من عدة نوح: أولاً: اعتراف قريش بدولة الرسول كقوة يمكنها التفاوض من مركز قوة، كما يمكنها ادخال أي تحالف قبلي تحت حمايتها ثانياً: فترة السلام التي تعاهد الطرفان عليها أتاحت للناس التفكير في أمن واستقرار، فكان ذلك من أهم عوامل انتشار الإسلام، فقد دخل فيه تلك الفترة مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر. ثالثاً: ثم إن شرط عدم قبول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسلمة قريش الا بموافقتها، قد طلبت قريش من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الغاء وعدم العمل به، بعد ان فر عتبة بن اسيد الثقفي وهو مسلم من سجنه لم يقبله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم امتثالاً للمعاهدة، ففر هو وسبعون رجلاً - بإسلامهم - إلى ذي المروة على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، فضيقوا على قريش، يعترضون قوافلهم التجارية، فأرسلت قريش إلى النبي يناشدونه الرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن، فأواهم رسول الله، وبذلك صارت الهجرة إلى المدينة آمنة دون أية معارضة من قريش، فتحولت جميع بنود الصلح لصالح الإسلام مما أتاح له الانتشار في قبائل العرب راجع بشأن ذلك: ابن هشام السيرة 321/3 ابن الأثير الكامل في التاريخ 135/2، ياقوت معجم البلدان 1229/2

فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن كثير من صلاحياته، إلى حد جعل عمر يقول للرسول صلى الله عليه وآله وسلم «يا رسول الله، أأنت برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟، قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟، فكان رد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك بقوله: انا عبد الله ورسوله، ولن اخالف امره ولن يضيعني»<sup>(1)</sup>، فصلح الحديدية بناء على قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد كان بوحى من الله.

ويعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رسله إلى ملوك الممالك المجاورة في السنة السادسة للهجرة يدل على ان البعد السياسي في الدولة تابع للبعد الديني<sup>(2)</sup>، لأن فحوى كتبه لأولئك الملوك أما الدخول في دين الإسلام، أو الخضوع لإرادة دولة الإسلام امتثالاً لقوله تعالى:

ص: 143

1- تاريخ الطبري 643/2

2- جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تاريخ الطبري 643/2 إلى الموك وغيرهم بدعوتهم إلى الإسلام فإن أبو الفجزية، وذلك كان يوصي أمراء جيوشه وسراياه، وللإطلاع على نماذج من هذه الكتب، راجع: أبو عبيد الأموال ص 20 وما بعدها



(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)(1) ، فلم تكن بعوثة تلك -بوحى من الله. فبناء الدولة في الإسلام بجميع مؤسساتها جزء اصيبل من الدين، لأنها لم تكن خارجة عن نطاق الوحي، بحيث يمكننا القول بأن الركائز الأساسية قد تم وضعها باكتمال الدين واتمام النعمة، وقد سارت سياسة الدولة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في نفس الاتجاه الديني في ظل تشريع القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

لم يتغير شيء من سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الا بعد التغيرات الاجتماعية التي حدثت للمتجمع العربي أثر تغير خريطة الدولة الإسلامية بعد الفتوح الواسعة وانتشار الإسلام، فكان من جراء ذلك التغير محاولة العرب الانحراف بالسياسة الدينية نحو المصاحل الدنيوية، وقد بدأ ذلك الانحراف يأخذ طريقة إلى نفوس القرشيين في الخفاء منذ حكم عمر بن الخطاب(2) ، ثم تكشفت معالمه في حكم عثمان(3) وأسفر عن وجهه في خلافة علي عليه السلام الذي عاش ظروف ذلك المنعطف الخطير في السياسة الدينية بكل إحساساته، وحاول جاهداً إعادتها إلى الجادة التي رسمها صاحب الرسالة، ولكن بعد فوات الأوان بانطلاق الشهوات المادية من عقالها، وخفوت جذوة القيم الرويحة، فكان على علي عليه السلام ان يعيد التمثل بالسياسة الدينية على اعتبار انه الممثل الشرعي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في توكيد تلك السياسة ومحاولة احيائها بتبديد ما اثير حولها من شكوك، لذلك نجده في خطبته الأولى التي اعلن فيها سياسته، يقرر بأن حكومته ما هي الا امتداد

ص: 144

1- سبأ 28

2- راجع مقتل عمر ص 289 من هذا البحث

3- راجع مقتل عثمان ص 290 - 291 من هذا البحث

لحكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يبدو من قوله «الا وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم، والذي بعثه بالحق لتبليبن بلبله، ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر، حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم»<sup>(1)</sup>، فالظاهر من تشبيهه عصره بعصر بداية البعثة النبوية انه عازم على اعادة تلك السياسة التي نبذتها قريش إلى نصابها، لذا فانه يقول للمسلمين في خطبة أخرى «ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقيام بحقه ونعش سنته»<sup>(2)</sup>، ومن هذا المنطلق يمكننا دراسة السياسة الدينية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام.

### 3 - السياسة الدينية في فكر علي عليه السلام ومقارنتها بالسياسة الإسلامية:

بعد ان استشرى في النفوس حب السلطة جريا وراء نفعها المادي بجمع الأموال واقتناء الضياع والاماء والعبيد والجواري<sup>(3)</sup>، أخذت السياسة طريقها في الاستقلال عن الدين شيئا فشيئا، وقد صور لنا علي عليه السلام واقع المتكالبين على السلطة تصويراً دقيقاً في مواضع متعددة من النهج فصنفهم إلى أربعة أصناف:

- الصنف الأول: هو المتعاس عن طلب السلطان لا لشيء، إلا لشعوره بحقارة نفسه وضعفه عن مقارعة المتنافسين بسبب قلة الأعوان وعدم امتلاك الثروة فهو «لا يمنع من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلاله حده ونضيض

ص: 145

1- خطب 16

2- خطب 170

3- بشأن ما كان يمتلكه بعض الصحابة من ثروات راجع: طبقات بن سعد 109/3 ، 222 ومروج الذهب 242/2 ، 342 ، ومعجم البلدان 138/5 ، والعقيدة والشريعة للمشرق جولد سهير 121

- الصنف الثاني: المتمثل في الإنسان الحاقدا الذي يبتغي للشر أية وسيلة بتنحية القيم الإنسانية جانبا، وتحكيم السيف في رقاب العباد من أجل إرضاء غرور النفس في حب التسلط فهو «المعلن بشره المجلب بخيله ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقتب يقوده أو منبر يقرعه»(2).

- الصنف الثالث: هو المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن، برفع الشعارات البراقة واتخاذ الدين وسيلة للوصول إلى السلطة، بالتصنع في الأقوال والأفعال «قد طامن من شخصه وقارب من خطوه، وشمر عن ثوبه، وزخرف من نفسه الأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية»(3).

- الصنف الرابع: هو الذي أقعده عن طلب السلطة اقتناعه الداخلي بأنهلئس أهلاً لها لعدم قدرته على التعامل مع الناس، وهروباً من ذلك تزيابزي الزهاد، واتخذ القناعة ستاراً فهو الذي «أبعده عن طلب الملك صؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال عن حاله فتخلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى»(4).

فالسطة في عرف الفئات الأربع مطمع دنيوي لا يمت للدين بصلة، وبسبب نجوم تلك الفئات المتسلقة وقع الحيف على عامة الناس الذين استحالوا جراء أطماع أولئك إلى «خائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان

ص: 146

1- خطب 32

2- المصدر نفسه

3- المصدر نفسه

4- خطب 32

موجع، قد أحملتهم التقية، وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا»(1). فكما يبدو من تصنيف علي عليه السلام للفئات الأربع المتسلقة، فإن الدين والسلطة ليسا خطين متوازيين، بل إنهما خطان متداخلان يشكل الدين فيهما أساس التداخل المنظم للعلاقات في اطار تمازجهما، ونلمس ذلك من خلال دراستنا لعلاقة السلطة بالدين في فكر علي عليه السلام.

#### 4 - السلطة والدين في فكر الإمام علي عليه السلام:

لقد عرفنا من القول بان سياسة علي عليه السلام امتداد لسياسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى ذلك الأساس، فمن المرجح أن الركيزة الأساسية في فكر علي عليه السلام السياسي هي خضوع السلطة المدنية للسلطة الدينية خضوعاً مطلقاً، لذلك ارتأى ان في محاربته الخارجين على سلطته بعد ان ولي الخلافة واجباً دينياً، وان المهادنة مع أولئك كفر بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم استناداً لقوله «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعي النوم، فما وجدتني يسعني الا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكانت معالجة القتال اهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدنيا اهون علي من موتات الآخرة»(2) فعلي عليه السلام يرى من واجبه كامام للأمة أن لا يتهاون ولا يهادن على حساب ما شرعه الإسلام، لأن غاية السلطة تحقيق العدالة في ظل شريعة السماء.

ومن منطلق إسلامي بحث بنى أيضاً سياسته المالية، فلا محاباة ولا مفاضلة المصدر

ص: 147

1- السابق بنفسه

2- خطب 54 ، وجاء مثله أيضاً في الخطبة رقم 43

بين طبقات المجتمع في توزيعه لأن «المال مال الله»<sup>(1)</sup> وقد عايش هو جميع الصحابة تصرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المال، فطلحة والزبير وغيرهما من المسلمين ليس لهم في المال إلا بقدر ما شره الإسلام لكل فرد لذلك فإنه يقول لطلحة والزبير لما عتبا عليه مساواتهم بغيرهم من المسلمين «أما ما ذكرتما من أمراؤنا، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأي، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فرغ منه، فلم احتج إليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي»<sup>(2)</sup>. ثم إن ممارسته للسلطة تقوم على السياسة الدينية نستشف ذلك مما قاله لطلحة والزبير حين احتجا على سياسته في تسيير الأمور دون مشورة منهما «لما افضت الي نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به، فاتبعه وما أستن النبي فأقمته، فلم احتج إلى رأيكما ولا رأي غيركما»<sup>(3)</sup>. فأسلوب الحكم في فكر علي عليه السلام لا يقاس نجاحه برضى العامة وإنما يقاس بمدى مطابقتها لما جاء في الشريعة الإسلامية، فوجهات النظر المختلفة حول التطبيق الصحيح لأساليب الحكم والمعاملة هو ما حدا بعلي إلى القول لمن بايعه «ليس أمري وأمركم واحداً، أني أريدكم إلى الله وأنتم تريدونني لأنفسكم»<sup>(4)</sup>. فالقيادة في فكر علي عليه السلام مبنية في الأساس على الدين، ومهمة الخليفة أو الإمام بتطبيق الشرع على جميع شؤون الحياة، لذلك فإن الطاعة التي يتوخاها في جمهور المسلمين ليست لشخصه، وإنما هي لمصلحة المطيعين، لأن قيادته لهم قيادة هداية وصلاح، وفي هذا الصدد يقول لأهل

ص: 148

1- خطب 126

2- خطب 199 ، والعتبي: العتاب واللوم

3- خطب 199

4- خطب 136

البصرة «فإن أطمعوني فإني حاملكم إن شاء الله على طريق الجنة، وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة...»<sup>(1)</sup>، فالقيادة الحققة هي التي تؤدي إلى الجنة وهي غاية الإسلام من الحكم كما يراها عليه السلام مما يؤكد الارتباط الوثيق بين الدين والدولة في النظام الإسلامي «لان الإسلام دين وليس قانوناً أخلاقياً ولا مذهباً فلسفياً»<sup>(2)</sup>، وذلك على أساس المفهوم الواسع لمعنى الدين في شموليته على اصول الشرائع وفروعها بما تنطوي عليه من اعتقادات وعبادات، وممارسات متعلقة بجميع شؤون الدين والدنيا فوصف الدين على أنه:

أ - ممارسة شعائر وطقوس معينة.

ب - الاعتقاد في قيمة مطلقة لا تعدلها أية قيمة.

ج - ارتباط الفرد بقوة روحية عليا<sup>(3)</sup>.

يقصره على العبادات والطقوس وهو ما يتنافى وشمولية الإسلام الذي وصفه عليه السلام بأنه «التسليم والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»<sup>(4)</sup> المطلق اللامحدود بزمان أو مكان لبناء خير الإنسانية «لان لفظ العمل يشمل الاعتقاد والنطق باللسان وحركات الاركان... كل ذلك عمل وفعل»<sup>(5)</sup> وهذا يبطل الزعم بعدم وجود فرق بين الإسلام والمسيحية، من حيث الحكم والسياسة على اعتبار «ان الإسلام دين

ص: 149

1- خطب 156

2- عبد المجيد النجار: العقل والسلوك في البيئة الإسلامية ص 23

3- خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية، ص 247

4- حكم 122

5- ابن أبي الحديد، السابق 18 / 314

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوجه إلى الخير ويبعد عن الشر... ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه، ولا مر ما قال عيسى عليه السلام للذين جادلوه من بني اسرائيل: اعطوا ما لقيصر وما لله لله»(1). لأن مفهوم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كمصطلح ديني في الإسلام لا يمكن افراغه اطلاقاً من مضمونه الثوري الذي بثه الإسلام فيه، فتصوره على انه مجرد نصح وارشاد وتبشير يبعده عن مفهومه السياسي كمبدأ من مبادئ الثورة على الظلم وهدم الفساد، وقد منحه المسلمون في كثير من العصور ذلك البعد السياسي الذي أراده الإسلام له، فمما يؤثر عن الحسين بن علي عليه السلام في خطبته لاهل الكوفة عند خروجه على يزيد قوله «أيها الناس، ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري»(2).

ثم ان الاستشهاد بمقولة المسيح بحسب مفهومها الذي وردت في سياقه(3)

ص: 150

1- طه حسين: الفتنة الكبرى عثمان ص 27

2- تاريخ الطبري 403/5

3- يبدو ان المقولة قد صدرت عن المسيح عليه السلام لأولئك الهيرودسيون الذين حاولوا ان ينتزعوا اعترافاً منه بالتمرد على السلطة القائمة حين قالوا له «يا معلم، نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق لا تبالي باحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا نظن. ايجوز ان نعطي جزية، لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبتهم، وقال: لماذا تجربوني يا مراؤون، أروني العملة التي تدفع بها الجزية، فقدموا ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: اعطوا إذا ما ليقصر ليقصر، وما لله لله...، عن كتاب تاريخ الأفكار السياسية 1/157 نقلاً عن أنجيل متى الاصحاح الثاني والعشرون/ الآية 16 - 22 . الآية 16 - 22 . فمفهوم مقولة المسيح عليه السلام في السياق الذي وردت فيه تعني الخضوع للسلطة الدنيوية حتى وان كانت ظالمة وهذا لا يتناسب ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كعنصر فعال من عناصر السياسة الدينية في الإسلام، يهدف إلى دفع الأمة نحو الاحسن والاصح، بنسف الفساد وفضح أساليب الالتواء والغش، ويكفي في هذا الصدد بأن «كلمة حق عند سلطان جائر» هي من لب قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تتناقض ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين الإسلامي، لأن معناها «أنه يجب الإذعان إلى الضرورات السياسية، إذ لا قيمة لها يجب دفع الضريبة الرمز الخالد للطاعة المدنية وذلك بالتحديد لأنها لا تخص الله»<sup>(1)</sup> فالفكر السياسي معدوم تماماً في الديانة المسيحية على اعتبار ان السياسة من اختصاص المجتمع الديني وأن «أموال المجتمع الديني تدرك بأنها مختلفة اختلافاً جذرياً عن أمور المجتمع السماوي»<sup>(2)</sup>، فالتبشير المسيحي مبني على أساس تثبيت الوضع القائم، وإقرار بالواقع الديني بكل عيوبه، وهو موجه بالذات إلى المنبذين والمعدمين لمحاولة إقناعهم بأن «الهناء الحقيقية في نظام ملذات الأرض وأنه يجب تحمل حالات التعاسة الأرضية أو الاجتماعية أو الجسدية»<sup>(3)</sup> بعكس نظرة الإسلام للدين، حيث يرى فيه «أنه أساس المواطنة، فالدين هو بالماهية، قيمته من طبيعته السياسية، لا بل هو القيمة الحقيقية الوحيدة لهذه الطبيعة السياسية»<sup>(4)</sup>، لذلك فإن ما زعم من دنيوية السياسة في .

ص: 151

---

1- تاريخ الأفكار السياسية 148 / 1

2- المصدر نفسه / 149

3- المصدر نفسه / 148

4- المصدر نفسه / 191



الإسلام استناداً على تنازع المسلمين على خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لأنه توفي من غير أن يسمي أحداً يخلفه من بعده»<sup>(1)</sup> تتبني على ركيزتين:

1 - رفض نظرية الإمامة<sup>(2)</sup> عند الشيعة.

2 - الاعتماد على مقولات فقهاء السنة في الإمامة والمستخلصة في وصف الواقع وتبريره دون محاكمته.

أولاً: رفض نظرية الإمامة عند الشيعة، ودراستها لغاية نقدية هجومية على الرغم من استقراءها ادلتها وبراهينها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ثانياً: الاعتماد على مقولات فقهاء السنة في الإمامة، والتي لم تكن سوى وصف لما حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في محاولة لرفع الملام عن تصرف الصحابة وذلك في القديم وتأييداً لدنيوية الحاكمية في الإسلام في العصر الحديث، على الرغم مما يكتنف تلك المقولة من تناقضات.

الوصفية التبريرية تكمن في قولهم بشرطي صحة انعقاد الإمامة وهما:

1 - اختبار أهل العقد والحل.

2 - بعهد الإمام من قبل<sup>(3)</sup>.

فعلى ضوء ما حدث في سقيفة بني ساعدة من مجلات انتهت بإشهار بيعة أبي

ص: 152

---

1- راجع: خالد محي الدين: والاشتراكية ص 162 ، علي عبد الرزاق: الإسلام واصول الحكم ص 181، ممدوح حقي: التعليق على كتاب الإسلام واصول الحكم ص 187

2- حول نظرية الإمامة عند الشيعة، راجع ص 166 من هذا البحث

3- راجع كيفية انعقاد الإمامة عند: عبد القاهر البغدادي: اصول الدين ص 279، الماوردي: الأحكام السلطانية ص 6، ابن حزم: الفصل في الملل والنحل /4

بكر(1) انبثق شرط اختيار (أهل الحل والعقد) وصار شرطاً أساسياً في صحة انعقاد الإمامة. ثم ان شرط جواز قبول الإمامة بعهد الإمام من قبل فهو أيضاً تبرير لعهد أبي بكر في عمر(2)، ثم في حصر عمر الخلافة في ستة يتفقون فيما بينهم لاختيار احدهم خليفة(3).

أما تبرير الواقع، فهو القبول والتسليم بما حدث في الثلاث حالات على أنه من من الأمور السياسية المقطوع بصحتها، بناء على صحة انعقاد الحكم باختيار فئة معينة هم (اهل الحل والعقد) أو بعهد من الخليفة السابق للخليفة اللاحق، مما اتاح فيما بعد للفقهاء ابتكار تبريرات أخرى جديدة تؤيد نظم الحكم التي فرضت نفسها بالقوة على دولة الإسلام.

وافتقار كلا الشرطين إلى الدليل الشرعي هو ما أتاح القول بانفصال الحكم عن الدين رغم الاقرار أن «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»(4)، فالتعريف كما يبدو ينص على ان الخلافة منصب ديني الهدف منه حمل الناس كافة على موائمة الأعمال الدنيوية، لتتناسب وأعمال الآخرة التي ترضي الله. وقد يبدو التعريف من وجهة نظرنا - متوازنا من الناحية الدينية، لولا اسناده اختيار صاحب ذلك المنصب الخطير

ص: 153

1- راجع ص 180 من هذا البحث

2- راجع ص 180 من هذا البحث

3- راجع ص 180 من هذا البحث

4- ابن خلودون: المقدمة 239

لاهل الحل والعقد مما يجعل الجانب الديني في بعض نواحية يخضع إلى الجانب الديني، الذي عادة ما تؤثر فيه العواطف الذاتية والانفعالات الشخصية من عصبية وموالة، وحب، وكره وهو ما يتنافى في مجال التطبيق باعتراف المشرعين الإسلاميين كما يبدو من المقولة بأن «الأنظمة السياسية في الإسلام تتصف بأنها إسلامية أو بالأحرى دينية»<sup>(1)</sup>، وما دام الدين هو القيم على السياسة في الإسلام فلا بد أن يكون للإمامة - الحارسة لتلك السياسة والمنفذة لها - شروطها المعتمدة مما يحتم عليها التعرض لها من حيث الوجوب وشروطه في الفكر الإسلامي، ومدى تطابقه وما جاء في فكر علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة.

### مفهوم الإمامة:

1 - اللغوي: تجمع المعاجم اللغوية<sup>(2)</sup> على أن مفهوم كلمة إمام: هو القدوة أو المثال أو النموذج الذي يحتذى، كما يفهم من ذلك ان كلمة إمام لا يقتصر إطلاقها على الإنسان فقط، إذ قد يكون الكتاب إماماً، كما في قوله تعالى:

(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا)<sup>(3)</sup>، «ويقال أن الخيط الذي يجمع الخرز إمام»<sup>(4)</sup> والإمام «المثال، وما يتعلمه الغلام في المكتب... وخيط البناء،

ص: 154

1- أحمد محمود صبحي: نظرة الإمامة ص 17

2- راجع: الجوهري: الصحاح 5/ 1865، ابن فارس: مجمل اللغة 1/ 82، ابن منظور: لسان العرب 1/ 151

3- هود/ 17

4- ابن فارس: مجمل اللغة 1/ 82

وخشبة البناء، والطريق»(1). وعلى هذا فإن تحديد معنى الكلمة ومعرفة نوعها وطبيعتها يمكن استخلاصه من السياق الذي ترد فيه سواء أُقصدَ من ذلك المدح كما في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(2) أم الذم كما في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾(3)، وقد ترد في السياق لغرض بلاغي كما في قوله تعالى:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(4)، فالمقصود امام كما يبدو في السياق الكناية عن «معلومات الله سبحانه على التفصيل»(5) ولما كانت معاني مفردة (امام) تنحصر في المثال والقيادة سواء أكانت معنوية أو مادية، فقد تولد عن ذلك المعنيان: الاصطلاحي، والسياسي، لكون السياق التعييري منحهما ذلك.

2- المعنى الاصطلاحي: لا يمكن تحديد الفترة الإسلامية لمصطلح إمام، الا أننا كان في فترة مبكرة جداً لارتباط المعنى ارتباطاً وثيقاً بالصلاة التي فرضت على المسلمين في السنة الأولى من البعثة النبوية(6)، وللأهمية التي يوليها المسلمون للمعنى الاصطلاحي لكلمة (إمام) فقد اختلفت السنة والشريعة في

ص: 155

1- ابن منظور: لسان العرب 61 / 1

2- الأنبياء / 73

3- القصص / 41

4- يس / 12

5- الطبري: مجمع البيان 12 / 22

6- راجع في شأن ذلك رواية صلاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بخديجة وعلي عليهما السلام عند البيت العتيق بمشهد من العباس ابن عبد المطلب وهي كما نعتقد أول امامة للصلاة في الاسلام تاريخ الطبري 311 / 2

أمر امامة المسلمين في الصلاة أثناء مرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي توفي فيه في السنة الحادية عشرة من هجرته (1). اذ يرى السنة ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد استناب أبا بكر عنه في الصلاة بالناس، بينما يرى الشيعة ان صلاة أبي بكر بالناس أثناء مرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت بأمر من عائشة، حتى تمكن له من السلطة فيما بعد. وهذا الاختلاف يدل على انبثاق المعنى السياسي الذي سيبرز بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وللاحتراز من الخلط بين المعنى الاصطلاحي وبين المعنى السياسي وجب تقييد أحدهما فوجدوا إنه من الاجدى تقييد المصطلح الديني بإضافته فقد «قال قوم أن اسم الإمامة قد يقع على الفقيه والعالم وعلى متولي الصلاة بأهل مسجد ما، قلنا نعم، لا يقع على هؤلاء الا بإضافته لا بالإطلاق، فيقال: فلان إمام الدين، وإمام بني فلان، فلا يطلق لأحدهم اسم الإمامة بلا خلاف» (2). وعلى

ص: 156

1- قال الزهري: حدثني حمزة بن عبد الله عن عمران عن عائشة قالت «لما استعز برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس... ابن هشام السيرة النبوية 301 / 4 ، وفي رواية أخرى عن عبد الله بن زمعة عن الاسود بن المطلب بن اسيد قال «لما استعز برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا عنده في نفر من المسلمين قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا من يصلي بالناس - السابق 303 / 4 . ومن الملاحظ أن الرواية الأولى تنص على تكليف أبي بكر بالصلاة بينما لم تعين الرواية الثانية فرداً بعينه. ويحتج الشيعة بالرواية الثانية على «أن ذلك القول كان من عائشة لبلال: قل لأبي بكر يصلي بالناس، فلما أفاق صلى الله عليه وآله وسلم وقد سمع مقالته قال: انكن صويحبات يوسف، ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم متوكئاً على علي عليه السلام والفضل بن العباس... وتقدم فصلي بالناس» ابن شاذان الايضاح ص 183، وراجع أيضاً استخلاف الصلاة بالتفصيل برواية الشيعة عند المفيد الإرشاد ص 97 ، على أننا نعتقد ان صلاة أبي بكر لم تكن السبب المباشر لمبايعته في سقيفة بني ساعدة ولكن احتجاجه بالحديث «الأئمة من قريش» هو ما احدث البلبلية في نفوس الأنصار، راجع ص 204 - 202 من الحديث

2- ابن حزم: الفصل في الملل والنحل: 90 / 4

هذا الأساس اكتسبت لفظة إمام (مطلقة) معناها السياسي.

3 - المعنى السياسي: إذا ما اطلقنا كلمة (إمام) على شخص ما دون تقييدها فأنها بالمفهوم الإسلامي تعني القائد الديني والسياسي للأمة لأن الإمامة «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»<sup>(1)</sup> ونطلق على متقلدها لقب (إمام) لأهليته واعتباره قدوة في أفعاله وأقواله، وقد اعتبر صحة انعقادها في صدر الإسلام قياساً على إمامة الصلاة، اعتباراً بقول كل من عمر بن الخطاب وأبي عبيدة الجراح لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة «لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين... ابسط يدك نبايعك»<sup>(2)</sup>، إذ صارت امامة أبي بكر للمسلمين في الصلاة من أهم المزايا التي أهلته لامتهم في تدبير شؤون دنياهم. ولكن هذا لا يعني ان المضمون السياسي لكلمة امام وليد اجتماع السقيفة.

بالإضافة إلى ذلك فإن الإمامة ليست من «الألقاب المستجدة للخليفة أثناء الدولة العباسية بالعراق»<sup>(3)</sup>، بدلالة ورودها بمضمونها السياسي في القرآن الكريم، باتفاق المفسرين على أن قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ من قوله:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

ص: 157

1- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 5

2- تاريخ الطبري 3 / 221

3- القلقشندي: مآثر الأنافة 1 / 21

الوَارِثِينَ(5)(1)، أي نجعلهم «ولاة وملوكاً»(2). كما أثر المعنى السياسي للإمام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله «الأئمة من قريش»(3)، وقد رجح احتجاج أبي بكر بنص الحديث السابق، على مطالبة الأنصار بالخلافة في سقيفة بني ساعدة(4).

فالإمامة بالمعنى السياسي يمكن اعتبارها من أقدم التعريفات لولي الأمر في الدولة الإسلامية، كما أنها الأنسب من حيث تداخل المهام الدينية بالمهام الدنيوية في اختصاصاته كقائد وقادة وقيم على الدين، لذلك فمن المرجح، أن اختيار الشيعة للإمامة كمصطلح سياسي يطلقونه على «الرياسة العامة على جميع الناس»(5) هو من باب الاختيار الدقيق لجمع السلطتين الدينية والدنيوية في شخص الإمام على أساس الترابط الوشيق، استيحاء من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة(6) على أنه بجانب لقب امام، فإن هناك لقبين آخرين مساويين له في القيمة، استخدمهما المسلمون للتعريف القائم بأمور المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهما:

ص: 158

1- القصص / 5

2- راجع تفسير الطبري 19 / 20، الطبرسي: مجمع البيان 163 / 20، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 13 / 349

3- مسند الإمام أحمد (الفتح الرباني 6 / 23)

4- راجع العقد الفريد، 4 / 258

5- الطريحي: مجمع البحرين 6 / 15

6- وردت كلمة امام بالمفهوم السياسي عن علي بن أبي طالب عليه السلام في (نهج البلاغة) اثنتين وسبعين مرة، تسعة وثلاثون اسماً صريحاً وثلاثة وثلاثون ضميراً راجع على سبيل المثال: الخطب: 18، 104، 152، والرسالة 6، لمعاوية بن أبي سفيان

### لقب خليفة رسول الله:

يعرف أبو البقاء الكفوي الخلافة بأنها «النيابة عن الغير اما لغيبة المنوب عنه، واما لموته، واما لعجزه»<sup>(1)</sup> ويكون الاستخلاف اما للجدارة والقدرة و «اما لتشريف المستخلف، وعلى هذا استخلف الله عباده في الأرض»<sup>(2)</sup>، فالخليفة، بهذا المعنى هو الذي يقوم مقام من هو قبله في تدبير الأمور المناطة بالمستخلف. ومنه تولد المعنى السياسي بتعريف الخلافة بالإمامة الكبرى<sup>(3)</sup> والخليفة بأنه «السلطان الأعظم»<sup>(4)</sup> أو الحاكم، كما ورد في قوله تعالى:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) (5)

أي «ملكاً لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتخلف من كان قبلك من الأنبياء، والائمة الصالحين»<sup>(6)</sup>، كما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشأن الخلافة بالمعنى السياسي قوله «لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»<sup>(7)</sup>.

يقال إن أول من اتخذ لقب خليفة في الإسلام هو أبو بكر، حين وافق

ص: 159

1- الكليات 2/ 299

2- السابق

3- راجع ابن خلدون: المقدمة ص 239

4- ابن منظور: لسان العرب المحيط 1/ 882

5- سورة ص / 26

6- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 15 / 188

7- صحيح مسلم 3/ 1403



على ان يسمى بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منكرًا على من سماه بخليفة الله لأنه «انما يستخلف من يغيب أو يموت، والله تعالى باق موجود على الأبد لا يغيب ولا يموت» (1). ويرى أحمد بن حنبل وجوب اطلاق اسم خليفة على الراشدين الأربعة والحسن بن علي عليه السلام دون غيرهم استناداً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الخلافة في امتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك» (2)، على أساس احتساب مدة خلافة الراشدين والحسن بن علي عليه السلام والمقدرة بثلاثين سنة، إلا- أن رأي أحمد بن حنبل ذلك ومن تابعه من الفقهاء، لم يمنع من اطلاق لقب خليفة على كل من تمكن من السلطة سواء بالعهد أو بالقهر، وذلك لتجوز بعض الفقهاء تسمية أي متسلط بخليفة «وان كان مخالفاً لسيرة أهل العدل» (3).

أمير المؤمنين: الأمر بمعناه المطلق - ما لم يخرج عن صيغته الاصلية لغرض بلاغي هو طلب الشيء على سبيل الاستعلاء ومنه سمي الامير ملكاً «لنفاذ أمره والجمع أمراء وأمر الرجل بأمر إمارة إذا صار عليهم أميراً... والتأشير تولية الإمارة، وأولو الأمر الرؤساء وأهل العلم» (4).

وإضافة أمير إلى المؤمنين من الألقاب المستحدثة في خلافة عمر بن الخطاب، كما يرى أهل السنة والسبب في ذلك استتقال لقب (خليفة خليفة رسول الله) فاطلق عليه المسلمون لقب (أمير المؤمنين) وقيل ان أول من اسماه بذلك أبو

ص: 160

1- القلقشندي: مآثر الأنافة 15/1

2- بذل المجهود في حل أبي داود 18 / 170 ، القلقشندي: مآثر الانافة 12/1

3- مآثر الأنافة 14/1

4- لسان العرب المحيط 97/1 ، 98

وبرة(1) وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وفي رواية ثانية، ان أول من طلق عليه ذلك اللقب عمرو بن العاص، حين دخل عليه يستأذنه في دخول لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم(2)، بعد قدومهما من عامله على العراق، بعد ان طلب عمر من ذلك العامل ان يرسل إليه برجلين عارفين بأمور العراق(3). أما الشيعة الإمامية فيرون ان لقب (أمير المؤمنين) هو من مستحدثات عصر النبوة، وانا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد اختص به علياً «لم يسم به احداً قبله ولم يسم بعده»(4) فعن انس، قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم يا أنس أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين وخاتم الوصيين، قال انس «قلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكنتمته. إذ جاء علي عليه السلام فقال: من هذا يا أنس؟ فقلت: علي فقال مستبشراً فاعتنقه...»(5).

ص: 161

1- أبو وبرة: هكذا ورد الاسم في مآثر الأنافة 26/1، 27 ولم اعثر له على ترجمة

2- عدي بن حاتم: بن عبد الله بن سعد بن الحشرج: أبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالوجود...اسلم وحسن اسلامه. وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة، كان جواداً شريفاً في قومه، معظماً عندهم وعند غيرهم... كان منحرفاً عن عثمان... شهد بعض الفتوح الإسلامية وشهد صفين مع علي عليه السلام، توفي سنة سبع وستين من الهجرة وله من العمر مائة وعشرون سنة. راجع أسد الغابة 8/1، 9، 10

3- حول هذا الأمر راجع: مآثر الأنافة 26/1، 27

4- الطريحي: مجمع البحرين 211/3

5- أبو نعيم الاصفهاني: حلية الأولياء 63/1، وعن المفيد في الارشاد ص 28: عن بريدة بن خصيب الأسلميأنه قال «ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني وأنا سابع سبعة فيهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير، فقال: سلموا على علي بامرة المؤمنين فسلمنا ذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حي بين أظهرنا» وورد مثل ذلك عند: الطبرسي - الاحتجاج ص 157، والمجلسي - بحار الانوار 290/37 وما بعدها (باب ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التسليم عليه بامرة المؤمنين) ونحن نرجح مقولة الشيعة في تلقيب علي ب(أمير المؤمنين) منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استناداً إلى الوقائع التاريخية المرتبطة بذلك. فعن أبي نيزر قال «جاءني علي بن أبي طالب وانا اقوم بالضيعتين: عين أبي نيزر والبغيغة، فقال لي هل عندك طعام؟ فقلت طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين عليه السلام، قرع من قرع الضيعة بإهالة سنخة (الإهالة: ما أذيب من الشحم، والسنخة: المتغيرة الرائحة)، فقال: علي به، فقام إلى الربيع وهو جدول فغسل يده، ثم أصاب من ذلك شيئاً، ثم رجع إلى الربيع فغسل يده بالرمال حتى انقأها، ثم ضم يديه كل واحدة منهما إلى اختها، وشرب بهما حساً من ماء الربيع، ثم أخذ المعول وانحدر في العين، فجعل يضرب، وأبطأ عليه الماء، وقد تفضج عرقاً، فانتكف العرق عن جبينه، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين، فاقبل يضرب فيها وجعل يهيمهم، فانتالت كأنها عنق جزور، فخر جسمراً، فقال: أشهد أنها صدقة، علي بدواة وصحيفة، قال فجعلت بهما إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين...» المبرد الكامل 208/3، البكري معجم ما استعجم 657/2، ياقوت معجم البلدان 175/4. فمن المعلوم أن علياً قد اشترى الضيعتين على ما ذكرت تلك المصادر في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصحابي عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الذي استوباها وكره العيشة فيهما، وقد وردت عبارة (أمير المؤمنين) ضمن الرواية مرتين: الأولى على لسان أبي نيزر قبل أن يبدأ علي بحفر عين، والثانية عندما كتب علي عليه السلام صك الصدقة المتزامن مع تقجر ماء العين في نفس اليوم كما يستنتج من قول علي عليه السلام بعد تقجر الماء مباشرة (أشهد أنها صدقة علي بدواة وصحيفة). ومن المرجح أن يكون حفر العين قبل تولي علي الخلافة، لأنه بعد ما بويع له بالخلافة انشغل تماماً بإعادة أمور الدولة إلى نصابها في محاولة منه لإخماد الفتنة وإخراج الثوار من المدينة وتوزيع عماله على الأمصار، مما يحول بينه وبين العمل في الضيعتين اللتين هما في ينبع خارج المدينة، علماً بأن المدة بين بيعته وبين وقعة الجمل التي بارح بسببها مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى العراق اربعة اشهر، لأنها وقعت في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين هجرية، أما البيعة له بالمدينة فقد كانت في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية، وعليه فليس بإمكانه في هذه المدة القصيرة المليئة بالأحداث والفتن أن يترك شؤون الدولة ليذهب إلى العمل في ضيعته، ثم أنه لم يعد إلى المدينة إطلاقاً بعد مغادرته إيها، إذ بقي في العراق حتى اغتيل سنة أربعين هجرية، لذلك فالأرجح أن حفر العين وكتابة صك الصدقة قد تأقبل أن يبائع له بالخلافة سواء أكان ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو في عهد أبي بكر وعمر، مما يرجح أن اللقب قد أطلقه عليه أبو نيزر قبل توليه الخلافة، وهذا يعني من وجهه نظرنا أنه من الألقاب التي خصه بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خاصة أن الضيعتين كانتا تدران أموالاً وفيرة على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استناداً لرواية أحمد بن حنبل في كتاب الزهد (ص 51) عن علي قوله «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأني لأربط الحجر على بطني من الجوع وأن صدقتي اليوم لأربعون الف دينار». ثم إن قول المبرد «بأن وقف الضيعتين لسنتين من خلافته» لا يتناسب

والتزامية التي وردت في الرواية لأن علياً عليه السلام في ذلك التاريخ لم يكن متواجداً في المدينة حتى يقوم بالحفر ويكتب صك الوقف، لذلك فقد يكون ما عناه المبرد بالوصية، ليس صك الوقف، ولكن وصيته العامة في كيفية تصريف في أمواله التي ذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة (الرسالة رقم 24)



وجوب الإمامة: من اعظم انجازات البشرية في مراحل تطورها الحضاري، ابتكار الحكومة كحاجة ملحة لتنظيم علاقات الافراد، ووضع الأمن في نصابه، فضرورة التجمع الإنساني ولدت الحاجة إلى التكامل في ايجاد الوسائل الضرورية لتهيئة أسباب العيش، وهذا من جانب آخر ولد التنافس وتعارض المصالح مما ادى إلى محاولة تسلط ذوي القدرة على المستضعفين من ابناء المجتمع في سبيل امتلاك الأسباب وتسخيرها لمصالح فردية، فالاجتماع «اذا حصل للبشر... تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن البعض لما في طباعهم الحيوانية من العداوات والظلم»<sup>(1)</sup>، ووجوب الوازع هو السبب المباشر في انبثاق الحكومة التي اطلق المسلمون عليها الإمامة العظمى. فقد اتفقت جميع الفرق الإسلامية على «وجوب الإمامة... وانه لا بد للمسلمين من

ص: 163

أما ينفذ أحكامهم، ويقيم حدودهم ويغزي جيوشهم... وخالفهم شذمة من القدرية(1) كأبي بكر الأصم(2) وهشام الفوطي(3)(4).

فوجوب الإمامة يعدّ نقطة التقاء الفرق الإسلامية، ولكنها سرعان ما تفترق في طريقة الوجوب إذ بينما يرى الأشاعرة والسنة أنها مدرك شرعي

ص: 164

1- القدرية: لقب أطلقه أهل السنة والأشاعرة على المعتزلة، وقد نفى المعتزلة ذلك عن أنفسهم لقول القاضي عبد الجبار(ت 415 هـ) «ان هذا اللقب لم يثبت لنا... لأننا نزع من ذلك اللقب لمن يخالفنا في الحق، ونزعم ان افعال العباد من خلق الله وانها بقضائه وقدره... فأ القدرية فهم الذين يزعمون ان الله تعالى قدر المعاصي، وجعلوا ذلك كالعذر للمعاصي حتى اعتقد بعضهم انه لا يقدر ولا يصح منه غير ما قدر الله تعالى... وأصحابنا نفوا المعاصي عن الله وهم اثبتوه، فيجب ان يكون اللقب لهم لازماً» فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 167 ، وحسب المفهوم العلمي فإن القدرية «هم الذين يؤمنون بكون الأشياء محددة مدبرة في الأزل حيث تصبح لا مناص من وقوعها» يوسف خياط معجم المصطلحات العلمية ص 521

2- أبو بكر الاصم (ت 200 هـ) كان من المعتزلة المعدودين، وفيه ميل على أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبذلك كان يعاتب، فأخرجه المعتزلة من جملة المخلصين وله كتب كثيرة - ابن النديم الفهرست ص 214، وبشان وجوب الإمامة كان يزعم «ان الناس لو كفوا عن الظلم لاستغنوا عن الإمام» عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ص 271

3- هشام بن عمرو الفوطي: كان من أصحاب أبي الهذيل فانحرف عنه فعم عليه المعتزلة وانحرفوا عنه... وكان من أهل البصرة وسافر إلى عدة بلدان من البحر وكان داعية إلى الاعتزال. لم تذكر وفاته - ابن النديم - ص 214 ويتمثل رأيه في الإمامة: «الأمة إذا اجتمعت كلها على الحق احتاجت حينئذ إلى الإمام، وأما إذا عصت وفجرت وقتلت الإمام لم يجب على أهل الحق منهم حينئذ إقامة الإمام» عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ص 272

4- اصول الدين السابق ص 271 وتكاد جميع مصادر السنة التي تناولت الموضوع تتفق على ذلك. راجع: المارودي - الأحكام السلطانية ص 5، ابن حزم - الفصل في الملل والنحل 87/4

يشاركهم في ذلك معتزلة البصرة(1)، يرى الشيعة أنها «تدرك بالعقل لا بالأوامر السمعية»(2). وقد أخذ بالمدرک العقلي أيضاً معتزلة بغداد بالإضافة إلى الجاحظ من معتزلة البصرة(3).

وتكاد تنحصر نقطة الخلاف بين الدليل الشرعي وبين الدليل العقلي - في اعتقادنا - في تاريخية ابتداء الإمامة، فمن البحث في دليل القائلين بالمدرک الشرعي، نجد أنهم ينظرون من واقع ما حدث في سقيفة بني ساعدة يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فابن خلدون حين يقول «إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين»(4) ويعني بالوجوب ما تم يوم السقيفة باتفاق بعض الصحابة. ومن هنا يتضح الخلط في فكر القائلين بالمدرک العقلي، بين الحكومة ساعة انتخابها، وبين وجودها كواقع موجود بالفعل في أحقاب متأخرة من تاريخ الإنسانية السياسي. والسبب المباشر في ذلك الخلط يرجع إلى عدم وجود نظرية محددة متكاملة للإمامة عند السنة، لعدم الحاجة إلى مثل ذلك بالنسبة لهم كسلطة قائمة تمارس الحكم، ولأن النظريات في العادة تتولد من فكر «احزاب المعارضة التي لا تكتفي بموقف سلبي من الحكم القائم، وإنما تقدم نظرية متسقة في أصول الحكم»(5) لذلك يمكن عدّ ما قيل من قبل السنة حول نظرية الإمامة، هو مجرد رد فعل.

ص: 165

1- راجع ابن أبي الحديد، السابق 308/2

2- الحلبي - الالفين ص 27

3- راجع ابن أبي الحديد، السابق 308/2

4- المقدمة ص 240

5- محمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ص 23

والشيعة حين يتفقون مع المعتزلة بالقول بالمدرك العقلي في وجوب الإمامة فانهم يختلفون معهم لأن المعتزلة «يوجبون الرياسة على المكلفين من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع ومضار دنيوية»<sup>(1)</sup>، أما الشيعة الإمامية فيوجبونها على الله تعالى. ثم أنهم حين يقولون بالمدرك العقلي، انما يصفون الحكومة منذ نشأتها كواقع ينظم حياة الافراد بناء على «اتفاق العقلاء في كل صقع وفي كل زمان على إقامة الرؤساء»<sup>(2)</sup> وهو الأساس الذي يبنون عليه دليلهم العقلي، لكونه أسبق من الدليل الشرعي، لأن الشرع من وجهة نظرهم لا يمكن الاخذ به كقانون ملزم الا بمدرك عقلي وهبه الله للانسان ليتمكن من حرية الاختيار والارادة في الاخذ بالخير وتجنب الشر، فلو لم تكن الإمامة من الملكات العقلية «لكان الله تعالى مخلا بالواجب في أكثر الناس، لأنه ان امتنع الفعل وكان من فعله، كان إلقاء وهو ينافي التكليف»<sup>(3)</sup> والقول بوجوب الإمامة عقلاً من الأفكار التي يمكن تلمس ملامحها عند علي بن أبي طالب عليهم السلام في (نهج البلاغة)، على اعتبار ان ازمة الاستخلاف، وما دار حولها من جدل كانت من اصعب مراحل حياته الفكرية.

وجوب الإمامة في فكر علي عليهم السلام:

بطبيعة الحال لا نتوقع الحصول على تعريف فلسفي محدد في الإمامة ووجوبها، فيما أثر عن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أقوال في (نهج البلاغة) ولكن ذلك لا يعني سكوته عن الموضوع بصفته قطب رحي المعارضة التي استدارت

ص: 166

1- ابن أبي الحديد، السابق 308/2

2- الحلبي، الألفين ص 15 ، 16 ، والالهاء: الاضطراب والجاه اضطره لفعل ما لم يكن مقتنعا به

3- المصدر السابق نفسه



حولها نظرية الإمامة. فعلي عليهم السلام في هذا المجال لم يكن منظراً، بل كان مطبقاً لنظرية متكاملة الجوانب فإذا «كان علاج أبي بكر وعمر (لقضية الإمامة) علاجاً مؤقتاً، لدرء فتنة متوقعة، دون وضع أسس كاملة لنظام الحكم»<sup>(1)</sup> فقد حاول علي عليهم السلام - كما يبدو من (نهج البلاغة) - أثناء خلافته القصيرة المليئة بالأحداث والفتن، ان يضع تلك الأسس على ضوء القرآن والسنة، كما أفهمها له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم<sup>(2)</sup>. فالإمامة في فكر علي عليه السلام واجبة وضرورية، ولا يمكن على الإطلاق ان يسود النظام بدونها وينعم الناس بالأمن وتستقر الحياة، وفي هذا المجال يقول لما سمع قول الخوارج «لا حكم الا لله»: «كلمة حق يراد بها باطل، نعم انه لا حكم الا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمره إلا لله، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، و يبلغ فيها الأجل، ويجمع به الفياء ويقا تل به العدو، وتأم ن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر»<sup>(3)</sup>، فنص علي عليه السلام السابق يركز على ثلاث نقاط:

- الأولى: الالتباس في فكر الخوارج بين الأحكام التشريعية والإمارة بمعناها القيادي، المناط بها تطبيق شريعة السماء.

- الثانية: وجوب الإمارة مطلقة. الثالث: الغاية المطلقة من الإمارة.

1 - الالتباس في فكر الخوارج بين الأحكام الشرعية وبين الإمارة: إذ يفهم من

ص: 167

1- محمد محمود صبحي نظرية الإمامة ص 26

2- أرجع قول علي عليه السلام عن نفسه في هذا الشأن، الخطبة رقم 240

3- خطب 40

قول علي عليه السلام إن الخوارج قد خلطوا بين التشريع وبين نفي الإمارة، بعدم قبولهم التحكيم، لعدم وجود نص يدعم أو ينفي ذلك القبول، إذ يفهم من قولهم (لا حكم الا لله) «بأنه لا حكم كلي ولا جزئي لمجتهد أو أمير أو أي إنسان كائناً من كان إلا في الأشياء المنصوص عليه كتاباً وسنة، ما غير المنصوص عليها فيترك امرها إلى الله»<sup>(1)</sup> ولكن المنطق والعقل يأيان ذلك لأن «أكثر الأحكام الفرعية غير المنصوص عليها مع انها أحكام الله، بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وسائر طرقها لمن كان أهلاً لذلك»<sup>(2)</sup>. فقولهم بأن (لا حكم الا لله) قد نقوا الإمارة لغير الله مع أن الاستنباط العقلي يقول بضرورة الحاكم الذي تستقيم به مصالح الناس واحوال الرعية.

2 - وجوب الإمارة مطلقة: فعلي عليه السلام قد قال بوجوب (الإمارة) أو السلطة أو الإمامة كرادع، يقيم أود المجتمع، إلا أنه قد قال بإطلاقها، فهو لا يريد من القول إمارة معينة في وقت معين، ذات طبيعة خاصة، فقوله «لابد للناس» تعني أي ناس يتفقون فيما بينهم لتأمر أحدهم عليهم ليصون مصالحهم، لذلك جاء في السياق «بر أو فاجر». وهنا يجدر الأخذ بعين الاعتبار ان علياً عليه السلام قد جعل الإرادة الحرة المتمثلة في العقل هي الأساس في وجوب الإمارة باعتبارها وليدة التفكير الجماعي، أما عدم ربطه إياها بالدين كما يتبين من النص فلأنه قد نظر إليها من حيث الاطلاق كإمارة، وليست إمارة محاطة بسياج من التشريع الإسلامي، فليس مجال النص ما طرحه ابن أبي الحديد أو الخوئي من كون

ص: 168

1- مغنية في ظلال نهج البلاغة 1/ 753

2- ميثم البحراني شرح نهج البلاغة 2/ 102

مناقشة الإمامة كمنصب ديني(1)، فهو يعني - كما يبدو من النص - الإمارة بمعناها المطلق في مجالها التاريخي العام دون تحديدها أو ربطها بتشريع إلهي.

ثم إن الدليل العقلي على وجوب الإمامة في فكر علي عليه السلام يمكن استنتاجه من كلام قاله لرسول قوم ارادوا منه استطلاع «حقيقة حاله من أصحاب الجمل، لتزول الشبهة من نفوسهم فبين له عليه السلام من إمرة معهم ما علم انه على حق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم، ولا أحدث حدثاً حتى ارجع إليهم، فقال عليه السلام: أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغي لهم متساقط الغيث، فرجعت إليهم واخبرتهم عن الكأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجاذب، ما كنت صانعاً؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكأ والماء فقال عليه السلام فامدد اذاً يدك، فقال الرجل: فوالله ما استطعت ان أمتنع عند قيام الحجة علي فبايعته»(2).

فقد طلب علي عليه السلام بيعه الرجل من وجهة عقلية مبنية على الإرادة التامة في حرية الاختيار، بعد أن أوضح له الطريق، فاستجابة الرجل هنا لم تكن مبنية على نصوص تشريعية بقدر ما هي مبنية على اقتناع داخلي بأن موقف علي عليه السلام هو الحق، وذلك من خلال توظيف علي عليه السلام للصورة العقلية، ولو أن الرجل رفض بيعته فباختياره المحض أيضاً، لأن الحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال تعرف بالحق، لذلك فقد قال علي عليه السلام للحارث بن حوط(3) حين سأله عن أصحاب الجمل، أكانوا على حق أم كانوا على ضلال، قال: «يا حارث إنك نظرت تحتك

ص: 169

1- راجع ابن أبي الحديد 2/ 308، الخوئي منهاج البارعة 4/ 178

2- خطب - 171

3- الحارث بن حوط، بالحاء المهملة. ويقال: إن الموجود في خط الرضي «ابن حوط» بالخاء المعجمة - المضمومة ابن أبي الحديد 19 / 148 يبدو أنه من أصحاب الإمام علي عليه السلام، لم أعثر له على ترجمة

ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق، فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه»<sup>(1)</sup> أي أنك «نظرت إلى طلحة والزبير من خلال صحبتهما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى عائشة من خلال حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»<sup>(2)</sup>، والحق لا يمكن إدراكه بالوجهة والمركز وإنما من خلال أعمال العقل بالتأمل في ماجريات الأمور تأملاً متروياً وعميقاً، وعليه فإن الاخذ بما حدث في السقيفة بأنه تشريع أو نص قانوني، لأن بعضاً من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أقروا به، لا يمكن قبوله من وجهة نظر علي عليه السلام .

3 - إما من حيث الغاية من الإمارة: فقد قصرها علي عليه السلام على الشؤون الدينية العامة لكونه يتحدث عن ضرورة السلطة لحفظ نظام لاستتباب امن المجتمع سواء أكان اسلامياً أو غير اسلامي، لذلك لا يمكننا استكمال صورة الإمامة ووجوبها من الناحية الشرعية في فكر عليه السلام الا بالتعرض إلى الشروط التي يجب توفرها من وجهة نظر الفرق الإسلامية ومن ثم مقارنتها بما رود عند الإمام علي عليه السلام في ذات الموضوع.

4 - شروط استحقاق الإمامة من وجهة نظر الفرق الإسلامية: تكاد الفرق الإسلامية كلها تتفق على شروط معينة من الواجب توفرها، فيمن يستحق الإمامة العظمى ويحصرها فريق في أربعة، بينما يرى الماوردي حصرها في سبعة شروط هي:

1 - العدالة على شروطها الجامعة.

2 - العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل.

ص: 170

1- حكم 270

2- مغنية في ظلال النهج /4

3 - سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

4 - سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

5 - الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

6 - الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

7 - النسب، وهو أن يكون من قریش، لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه»(1).

«وزادت الشيعة في هذا الشروط العصمة من الذنوب»(2). ويكاد شرط العصمة يكون هو الأساس في استحقاق الإمامة عندهم، وهم لا يقصدون بالعصمة الاضطرار إلى الطاعات والامتناع عن المعاصي لا إراديا، وإنما العصمة عندهم قوة إرادية يزود الله سبحانه بها المعصوم لاختيار الفضائل وتجنب المعاصي بكابح داخلي ذاتي، مع الاقتدار على فعل المعاصي بالاختيار الحر الخالي من كل إكراه، فالعصمة في اعتقاد الشيعة «هي اللطف الذي يفعله الله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح»(3). وعلى اعتبار ان العصمة من خصوصيات الإمام عند الشيعة دون سائر البشر، فانهم لا يقصدون بشرطية العلم والعدالة وغيرهما من الشروط على المحمول اللفظي لتلك المعاني، لأنهم

ص: 171

1- الماوردي: الأحكام السلطانية ص 6، واتفق عبد القاهر البغدادي في أصول الدين ص 277 وابن خلدون في المقدمة ص 241 على ان الشروط التي يجب توفرها في مستحق الإمامة أربعة هي «العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي» بينما ذكر القلقشندي في مآثر الأنافة 1/ 31، 39، أربعة عشر شرطاً هي «الذكور، البلوغ، العقل، البصر، السمع، النطق، سلامة الأعضاء، الحرية، الإسلام، العدالة، النجدة، العلم المؤدي إلى الاجتهاد، صحة الرأي، التدين، سلامة النسب» وأخذنا بقول الماوردي في المتن لأنه الأخصر والأشمل

2- أصول الدين ص 277

3- الشريف المرتضى: أمالي المرتضى 2/ 377

يوجبون في الإمام «ان يكون أفضل زمانه دينا وورعاً وعلماً وسياسة»<sup>(1)</sup> فأفعل التفضيل «أفضل» هنا يقصد به، ان العلم والعدالة والاجتهاد وحدها لا تكفي، لأن الجدارة والاستحقاق للأفضل والأقوى.

فشروط الفريقين في استحقاق الإمامة، وإن بدت متفقة في الظاهر فيما عدا العصمة الا انها بأفعل التفضيل الذي جعله الشيعة الشرط الرئيس للاستحقاق قد باعد بين الرأيين. وهذا ما سنحاول طرحه في موضوع عقد الإمامة بين النص، والاختيار وولاية العهد وذلك بعد محاولتنا تلمس الشروط التي يجب ان تتوفر في مستحق الإمامة في فكر علي عليه السلام.

### شروط استحقاق الإمامة في فكر الإمام علي عليه السلام:

الإمامة في فكر علي عليه السلام كما يبدو في النهج، ولاية مطلقة عامة، يتحمل الإمام بمقتضاها مسؤولية صيانة الاعراض والدماء والأموال، وتطبيق الشريعة بمقتضى الانصاف والعدل اللذين نص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عليهما، فلا «ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وامامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف فيها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة»<sup>(2)</sup>. فالإمامة ليست منصباً شريفياً يتوصل عن طريقه الفرد لتحقيق مآرب خاصة على حساب حقوق العباد الدينية والدنيوية، لأنها في جوهرها

ص: 172

1- الحلبي: الألفين 41

2- خطب - 131 ، 175

رعاية مصالح المؤمنين بما يؤمن لهم الحياة السعيدة في الدنيا والنعيم الدائم في الآخرة، فالأسس التي يجب ان تقام الإمامة عليها هي الكرم والعدل والنزاهة في تنفيذ الأحكام بما يصون حقوق الأفراد، لذلك يرى علي عليه السلام «ان أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله»<sup>(1)</sup> فقد حصر الاستحقاق في شرطين هما:

1 - الأقوى على الأمر.

2 - الأعلم بأمر الله.

أما شرط الأقوى على الأمر فيمكن اعتباره جامعاً مانعاً لكل ما يمكن توفره من شروط الإستحقاق المدينة، إذ يجب أن يكون المستحق «هو الأكمل قدرة على السياسة، والأكمل علماً بمواقفها وكيفية تدبير المدن والحرس وذلك يستلزم كونه أشجع الناس»<sup>(2)</sup>.

وبالشرط الثاني تستكمل حلقة الاستحقاق في فكر الإمام علي عليه السلام، لأن الاعلم بأمر الله يجب ان يكون محيطاً إحاطة تامة ومتناهية في الدقة بأصول الدين وفروعه ليتمكن من معالجة المستجدات في الحياة بما يتناسب تماما والشريعة الإسلامية.

ومن الملاحظ ان علياً قد استخدم في ذكره لشرطي الاستحقاق افعال التفضيل «الأحق والأقوى»، وقد علق ابن أبي الحديد على ذلك بقوله «وهذا لا ينافي مذهب اصحابنا البغداديين في صحة امامة المفضل، لأنه ما قال: ان إمامة غير الأقوى فاسدة، ولكنه قال: أن الأقوى أحق»<sup>(3)</sup>. وكما يبدو لنا من

ص: 173

1- السابق

2- ميثم البحراني شرح النهج 340/3

3- ابن أبي الحديد 328/9

السياق، ان الشرطين لا يحتاجان إلى تأويل بحسب فكرة الزيدية(1)، وبعض المعتزلة، والقائلة (بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل)، لأن علياً يعني ان المؤهل الوحيد المستحق للإمامة هو: الأقوى والأعلم، ويمكن تفسير ذلك بناء على ما ورد في موضع اخر من النهج «ان أولى الناس بالأنبياء اعلمهم بما جاءوا به»(2)، فلاحق للناس بنياية الأنبياء والقيام مقامهم، الا للعالمين برسالاتهم العاملين بها الناصرين لها في جميع المواطن، فلا مجال للمفاضلة في الأسلوب إذ يمكننا القول باقتصار فكر علي عليه السلام في الاستحقاق على الأقوى والأعلم دون غيره من الناس فالقول بتقديم المفضول مع وجود الأفضل من الحجج الكلامية التي يقول بها الزيدية وبعض المعتزلة، هو من باب الاحتجاج باقتضاء المصلحة بتقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي عليه السلام من أجل الإسلام والخوف من فتنة قريش إذا ولي علي عليه السلام مع انه الأفضل في نظر أولئك، لكن السنة والاشاعة يرفضون الفكرة، وبناء على رفض المقولة يقول أبو الحسن الأشعري بوجوب كون «الإمام أفضل أهل زمانه... ولا تتعقد الإمامة لاحد مع وجود من هو

ص: 174

1- الزيدية: هم اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة عليها السلام ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين عليه السلام... وكان من مذهب زيد «جوز إمامة المفضول مع قيام الأفضل فقال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل الصحابة، الا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطبيب قلوب العامة» الشهرستاني الملل والنحل 1/ 155 وكذلك قال بهذا الرأي معتزلة بغداد راجع ابن أبي الحديد 9/ 328 ، وأحمد محمود صبحي الزيدية ص 225

2- حكم 96



افضل منه فيها»(1)، وعلى هذا فإن ترتيب الخلفاء كان بحسب الافضلية، وان جوزوا المفاضلة فلا تدخل فيها خلافة أبي بكر ولا خلافة عمر إذ تنحصر المفاضلة عندهم بين عثمان وعلي عليه السلام(2) فوضع المفاضلة في الخلافة - من وجهة نظر الاشاعرة والسنة - يتخذ من التسلسل التاريخي نصاً شرعياً، لكون جمهور من الصحابة قد اقروه واتفقوا عليه. كما يرفض الشيعة الإمامية القول بتقديم المفضل مع وجود الافضل لمصلحة اقتضتها الظروف، لما في القول من منافاة لمنطق العقل، لأن عدم قبول الأفضل من لدن فئة معينة تقدم مصلحتها الذاتية على مصلحة الأمة بأكملها مما يباه العقل ولا يقره القرآن الكريم، لأن «العقل يقبح تقديم المفضل وإهانة الفاضل، ورفع مرتبة المفضل وخفض مرتبة الفاضل، والقرآن الكريم، قد نص على إنكار ذلك، فقال تعالى:

(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(3). ثم إن علياً عليه السلام ذاته لا يقبل المفاضلة، إذ يجد لكم نفسه الأ-حق والأفضل، يقول لمعاوية ضمن رده على احدى رسائله «زعمت ان افضل الناس في الإسلام فلان وفلان... وما أنت والفاضل والمفضل، والسائس والمسوس... فدع عنك من مالت به الرمية فإننا صنائع ربنا، والناس صنائع لنا»، إذ لا فضل لأحد علينا سوى فضل الله سبحانه، اما فضلنا فقد

ص: 175

- 
- 1- عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ص 252، وراجع أيضا: ابن حزم - الفصل في الملل والنحل 105/4 فقد رفض القول بالمفاضلة وشنع على القائلين بها، وقال بأفضلية بحسب ترتيبهم في خلافتهم
  - 2- راجع عبد القاهر البغدادي اصول الدين ص 293
  - 3- المطهر الحلي: نهج الحق ص 188 والآية موضع الشاهد من سورة يونس/ 35

عم جميع الناس لأنهم اهتموا بنا إلى الإسلام. وعلى نفس المعنى يمكن حمل قوله في موضع آخر من النهج «ابن الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وادخلنا واخرجهم، بنا يستعطي الهدى، ويستجلى العمى»<sup>(1)</sup>. فهو رد صريح على أولئك الذين يقولون بالمفاضلة على أهل البيت عليهم السلام، فالعلم المؤهل للهداية والقيادة هو المتمثل فيه، وفي عترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من صلبه فموقفه على ما يبدو من قضية جواز تقديم المفضول على الأفضل هو موقف الرفض، بحيث يمكن القول تجاوزاً بأسبقيته إلى نفي تلك المقولة قبل ان تبرز على سطح السياسة الإسلامية.

فاستخدامه لاسم التفضيل (أحق وأعلم) يعني حصر استحقاق الإمامة في من يتوفر الشرطان فيه دون أية مفاضلة، واستخدامه في السياق (إنّ) المشددة التي تعني التوكيد.

فشروط الاستحقاق التي حصرها السنة والاشاعة ومعتزلة البصرة في (العلم والعدالة والكفاية) تكاد تتفق في مضامينها مع ما أثر عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) من قول، إلا إنها تختلف مع فكر علي عليه السلام في الكيفية التي تحدد تلك الشروط، إذ بينما يقول أولئك بوجود كون الإمام أفضل رعيته، فإنهم يكتفون من ذلك بكونه (عالمًا، عادلاً، كفوًا)<sup>(2)</sup>، فلا يحددون المقياس الذي صار به الإمام هو الأفضل. بينما يرى علي عليه السلام ان مستحق الإمامة يجب ان يكون (الأعلم، والأعدل والأكفى)، وبذلك صار الأفضل لتفرده بتلك المزايا دون سواه من افراد امته، ومن هذا النبع استقى الشيعة الإمامية نظريتهم في الإمامة،

ص: 176

1- خطب - 144

2- راجع شروط انعقاد الإمامة عند السنة والاشاعة ص 170 - 171 من هذا البحث

ثم بعد ذلك بينوا الكيفية التي يمكن معرفة الأفضل بها.

اما شرط وجوب «الأئمة من قريش» الذي يكاد يكون لا خلاف عليه لتواتره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فوجهة نظر علي عليه السلام فيه الحصر لا الاطلاق لقوله «ان الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح الولاية من غيرهم»<sup>(1)</sup>، فالإمامة ليست دولة في قريش، بل يجب حصرها في البطن الهاشمي الذي منه جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أثر عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله «ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بين هاشم»<sup>(2)</sup>، وبناء على ما ورد في الحديث الشريف فإن بني هاشم هم المصطفون من قريش، لذلك فإن علياً عليه السلام يرى ان «لهم خصائص حق الولاية»<sup>(3)</sup> دون غيرهم كما خصهم الله سبحانه بالنبوة دون غيرهم.

اما شرط (العصمة) الذي انفرد به الشيعة، فيمكن تلمسه في فكر علي عليه السلام في مواضع عدة من (نهج البلاغة)، فتميز علاقته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون سائر قرابته وصحابته منذ طفولته، غرس في نفسه المثل العليا فراض نفسه على الصدق قولاً وعملاً منذ نعومة اظفاره ويمثل ذلك قوله «قد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد، يضميني إلى صدره، ويكتنفي في فراشة... وما وجد لي كذبة في قول ولا خطللة في فعل»<sup>(4)</sup>، ولكن تعلقه بالفضيلة ومتناعه عن الرذيلة لم يكن

ص: 177

1- خطب - 144

2- صحيح مسلم 4/1782

3- خطب - 2

4- خطب - 190

عن تقليد، كما لم يكن تصرفاً آلياً لا خيار له فيه مما يعد من قبيل الاجراء ولكن تحكمه في نفسه بضبط ارادته هو ما حال بينه وبين الآثام بتصرف إرادي حر(1)، ويقول ضمن إحدى خطبه «إني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا- آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»(2)، فالخطأ والصواب من طبائع البشر، وهو أيضاً من البشر، الا ان امتلاكه لزام نفسه يحول بينه وبين موقعة الخطأ مهما كان ضئيلاً، بفضل قوة ايمانه ورسوخ يقينه، فقوله ذلك لا يعني اعترافاً منه بعدم عصمته على سبيل التواضع كما يقول بذلك شارحان لنهج البلاغة(3)، ولكنه يعني العصمة الإختيارية بحمل الإستثناء في قوله (إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك مني) على قوله تعالى على لسان يوسف:

(«وَمَا أَبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»(4) على اعتبار «ما رحم ربي: في موضع نصب بالإستثناء. وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء»(5). وقول علي عليه السلام

ص: 178

1- مما يدل على التصرف الارادي الحر في فكر علي عليه السلام قوله «انما هي نفسي أروضها بالتقوى لتاتي امنة يوم الخوف الاكبر، وتثبت على جوانب المزالق، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي» رسائل 45

2- خطب 211

3- راجع: شرح ابن أبي الحديد 11 / 108، وشرح ميثم البحراني 4 / 48

4- يوسف / 53

5- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 9 / 210، واعتبر المستثنى في الاية منقطعاً على أساس انه ليس بعضاً من المستثنى منه ويمكن تقديره الا بلكن

بالعصمة لا يعني اقتصارها على نفسه دون سواه من ولده من أهل البيت الذين وصفهم بأنهم «أزمة الحق، واعلام الدين، ولسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن»<sup>(1)</sup>، والقرآن كتاب الله الذي:

«لَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»<sup>(2)</sup>. وإنزال آل البيت عليهم السلام منازل القرآن يعني الإقرار بعصمتهم، لذلك جاء امره إلى المكلفين «بأن يجروا العترة في اجلالها واعظامها والانتقاد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن»<sup>(3)</sup>. فقول بعض المعتزلة باختصاص علي عليه السلام بالعصمة دون سواه من آل البيت<sup>(4)</sup> لا يتسق واستخدامه للعترة ضمير جمع الغائب (هم أنزلوهم). وعليه فإن العصمة كشرط من شروط استحقاق الإمامة، لم يكن من ابتكار متكلمي الشيعة، وفقهائهم لأنهم كما يبدو قد أخذوه عن علي عليه السلام، الذي يرى ان الإمامة نيابة عامة ومطلقة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما يتعلق بالدنيا والدين، وعلى ضوء ذلك يمكننا دراسة فكره في كيفية انعقاد الإمامة، ورأيه في الأفكار التي طرقت المجال ذاته.

عقد الإمامة: حصر القلقشندي<sup>(5)</sup> طرق عقد الإمامة عند السنة في ثلاث:

ص: 179

1- خطب - 86

2- فصلت/ 42

3- ابن أبي الحديد 376/6

4- راجع ابن أبي الحديد 376/6، فقد قصر العصمة على علي عليه السلام دون سواه

5- اخترنا القلقشندي: مآثر الانافة 39/1 وما بعدها لحصره جميع الآراء التي قيلت في الموضوع تقريباً، ولأن السابقين عليه قد حصروا العقد في طريقتين، كما نص على ذلك عبد القاهر البغدادي في (أصول الدين 279) إذ قصره على النص أو اختيار أهل الحل والعقد، وكذلك فعل الماوردي في (الأحكام السلطانية ص 6) وما بعدها، وقد تحدث ابن خلدون في المقدمة ص 262 عن ولاية العهد، ولم يتطرق لشرط اختيار أهل الحل والعقد، وذلك على أساس انه شرط مفروغ من صحته وثباته، وذلك لأنه قد ذكره عند المبادرة إلى بيعة أبي بكر في فصل (اختلاف الأمة في حكم منصب الإمامة وشروطه) المقدمة ص 239. اما عن القهر والاستيلاء فقد ضمنه فصل (انقلاب الخلافة إلى ملك) المقدمة ص 253

الأولى: في انعقاد الإمامة باجتماع أهل الحل والعقد واتفاقهم على عقدها فيمن يستجمع شروطها «وعلى ذلك كانت خلافة أبي بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»<sup>(1)</sup>.

الثانية: تتعد الإمامة لشخص الإمام بعهد من الإمام الذي قبله «والأصل في ذلك ما رويناه لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه»<sup>(2)</sup> عهد بالإمامة من بعده لعمر فصحت بيعته.

الثالثة: تتعد الإمامة «للمتغلب عليها بالقهر والاستيلاء إذا جمع شرائطها من غير عهد إليه ولا بيعة، وجوز أصحاب الشافعي امامة المتغلب وان كان فاسقاً»<sup>(3)</sup>.

أما الشيعة الإمامية فيرون «ان الإمامة... من جملة ما هو أعظم أركان الدين وان الإيمان لا يثبت بدونها»<sup>(4)</sup> لذلك لا يجوز على الخالق اسنادها لاختيار المكلفين «لأن القصد من نصب الإمام، امثال الخلق لأوامره ونواهيه، والانقياد إلى طاعته، وسكون ثائرة الفتن وإزالة الهرج والمرج، وإبطال التغلب

ص: 180

---

1- مآثر الانافة 40/1 ، 48

2- السابق

3- السابق 58/1

4- المطهر الحلي: الألفين 36

والمقاهرة»(1)، فلو أسند الاختيار إلى المكلفين لتدخلت الأهواء وتغلبت المصالح الذاتية مما يتنافى والقصد من الإمامة لذلك «ذهبت الإمامية كافة إلى ان الطريق إلى تعيين الإمام أمران:

- النص من الله تعالى أو نبيه، أو إمام تثبتت إمامته بالنص.

- ظهور المعجزات على يده لأن شروط الإمامة العصمة، وهي من الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى»(2).

وفكرة المكانة الدينية العالية في نيابة الإمام عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حمل العباد على النهج القويم، لم تكن مقصورة على الشيعة، فقد وردت عند ابن خلدون عن مكانة الخليفة «إن الله سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمر عبادته ليحملهم على مصالحهم ويردهم على مضارهم»(3)، فابن خلدون وإن لم يقر بمقولة الشيعة (بالنص) إلا أنه يعطي للخليفة مكانة قدسية في نيابته عن الله في خلقه، وهو بذلك يدحض زعم القائلين ان فكرة الشيعة في الإمامة غريبة عن روح الإسلام(4)، لكونها تقول بمنزلة الخليفة الدينية التي - فيما

ص: 181

1- السابق ص 38

2- المطهر الحلي: نهج الحق وكشف الصدق 168

3- المقدمة 245

4- يقول خالد محي الدين، في الدين والاشتراكية ص «: 61 إننا إذا استعرضنا كل التيارات الفكرية، والفرق الإسلامية لم نجد غير الشيعة الإمامية الذين يمكن ان يقترب فكرهم حول (الإمامة) من نظرية الحق الإلهي، فهم يرون اقامة (الإمام) واجباً على الله وليس واجباً على الناس، وان الله قد حدد اشخاص الأئمة، وان الرسول قد اوصى بذلك في (علي عليه السلام) وبينه، ونحن نتفق معه في كل ما جاء به من عقائد الشيعة في الإمامة ونتفق معه أن المذاهب الأربعة ومعظم الفرق الإسلامية ترفض القول بالوصية في علي عليه السلام وأولاده، مع أنها تقر بوصية أبي بكر في عمر، ولكننا لا نتفق معه في أن الشيعة الإمامية يقولون بأن الخليفة «نائب الله» لانه يناقض ما جاء عندهم ان «الإمامة عبادرة عن خلافة شخص من الاشخاص للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في اقامة قوانين الشرع وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على الأمة كافة الالفين ص 12». أما تفسيره لقول الله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) بإضافة «من أمور الدين» إلى الآية، فهو فيما نعتقد عدم ادراك من الباحث ان القرآن الكريم لم يقتصر على العبادات التي كان يقصد بها (امور الدين) ولكنه كتاب تشريع وعبادة وانكاره ذلك لا يغير من كلون الإسلام بعيداً كل البعد عن الاسقاطات الايديولوجية الحديثة من اشتراكية وغيرها من اطروحات حاول الكاتب الباسها ثوب الإسلام، ومقولة ان الخلافة ظل الله التي نسبها الاستاذ إلى الشيعة هي من ابتكار بعض الخلفاء السنة الذين حاولوا الباس خلافتهم صبغة دينية ويمكن مراجعة مثل ذلك المعنى فيما جاء على لسان زياد بن ابيه في خطبته البتراء العقد الفريد 4/ 112، وما أثر عن أبي جعفر العباسي العقد الفريد 4/ 99. اضافة إلى ذلك فإنه لم يؤثر مثل هذا القول عن علي عليه السلام أو عن الأئمة الإثني عشر كما لم يقل فقهاؤهم بأن الإمام نائب الله في الأرض، بل قالوا فيما نعتقد نائب للرسول

نعتقد أيضاً تتفق مع ما ورد عند الماوردي، بأن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»<sup>(1)</sup>، والاختلاف ينحصر أساساً في طريقة تعيين الإمام، إذ يتمسك السنة بالجانب الدنيوي المتمثل في اختيار العباد، على الرغم من أنهم يقولون بأن الإمامة منصب ديني ودنيوي، بينما يرى الشيعة أن الناس مهما بلغت بهم المعرفة والعلم، فإنهم ليسوا في مستوى الاختيار النزاهة البعيد عن الميل إلى جانب دون الجانب الآخر، لما في الطباع البشرية من ميل نحو المصالح الشخصية والمكاسب المادية، وجنوح نحو الأثرة والأنانية، لذلك فإن من لطف<sup>(2)</sup> الله بالعباد فقد أوجب النص على الإمام ليكون حجة عليهم

ص: 182

1- الأحكام السلطانية ص 5

2- للطف في عرف المتكلمين ما يقرب من الطاعات ويبعد عن المعاصي، ولا- حظ له في التمكين ولا- يبلغ الإيجاد لمنافاة التكليف... وهو من المصطلحات التي يعول عليها الشيعة، راجع: مجمع البحرين 120/5



أمام الله، وقد تعرض الإمام علي عليه السلام إلى معظم آراء انعقاد الإمامة في ثنايا خطبه ورسائله، اما على سبيل الاحتجاج على خصومه السياسيين، وأما لتوضيح وجه نظره التي يؤمن بها ويتبناها وهي هذه.

### طريق انعقاد الإمامة في فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة:

لم تكن مقولات الإمام علي عليه السلام عن طريق انعقاد الإمامة لمجرد الإدلاء برأية في قضية شرعية بقصد التنظير، خاصة وان تلك المقولات تمسه مباشرة لاعتقاده بأنه صاحب حق وقطب من أقطاب سياسة عصره، لذلك لم يقبل مقولة: انعقاد الإمامة باتفاق أهل الحق والعقد لأنها فكرة استحدثت لتبرير الواقع، بل وإنها أيضاً لم تكن مستكملة الجوانب لأن معظم رؤوس أهل الحل والعقد الذين كانوا في المدينة كانوا غير متواجدين أثناء انعقاد البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، فقد انعقدت تلك البيعة حسب معظم المصادر (1) بخمسة هم: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وأسيد بن حضير (2)، وبشير بن سعد (3)،

ص: 183

1- راجع القلقشندي: مآثر الأنافة 1/ 42 فقد أورد مقالة غيره من المصادر في القضية ذاتها

2- اسيد بن حضير: بضم الهمزة والحاء... الانصاري الاوسي الاشلهلي... اسلم قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير بالمدينة، وكان اسلامه بعد العقبة الأولى وقبل الثانية، وكان أبو بكر يكرمه ولا يقدم عليه واحداً... أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين زيد بن حارثة. توفي في شعبان من سنة عشرين أسد الغابة 1/ 111 وما بعدها

3- بشير بن سعد بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج... شهد العقبة الثانية ويدرأ واحداً والمشاهد بعدها يقال انه أول من بايع ابابكر يوم السقيفة من الأنصار وقتل يوم عين التمر مع خالد بن الوليد بعد انصرافه من اليمامة سنة اثنتي عشر - أسد الغابة 1/ 231

وسالم مولى أبي حذيفة(1) ، ولمجرد الاحتجاج وتسجيل الموقف على تلك البيعة يقول علي عليه السلام «واعجباه أتكون الخلافة بالصحابه، والقراية؟ وروي له شعر في هذا المعنى - (طويل):

فإن كنت ملكت أمورهم \*\*\* فكيف بهذا والمشيرون غيب

وإن كنت بالقربى حجت خصيمهم \*\*\* فغيرك أولى بالنبي وأقرب(2)

فإذا كان مقياس صحة انعقاد الإمامة لأبي بكر، كما يراها عمر، هي صحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الموطن، فالأولى بها القريب اللحمية ومن صحبه صلى الله عليه وآله وسلم منذ نعومة أظفاره حتى اليوم الذي الحده صلى الله عليه وآله وسلم في قبره، اما الاحتجاج «بالاختيار ورضا الجماعة»(3) فلم يثبت لغياب جل الصحابة عن السقيفة حين انعقدت البيعة، اما الاحتجاج بانعقاد البيعة قرابة الرحم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حسب قول أبي بكر يوم السقيفة بشأن قريش «هم اولياؤه وعشيرته، واحق الناس بهذا الأمر بعد»(4) ، فعلى ذلك المقياس بالقراية القريبة من عترة آل البيت عليها السلام هم احق واولى بالأمر دون سائر قريش.

ثم إن علماً عليها السلام في مجال رده على معاوية حين امتنع عن بيعته بحجة افتقاد

ص: 184

---

1- سالم مولى أبي حذيفة وهو سالم بن عبيدا بن ربيعة... من أهل اصطخر... هاجر إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم... أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين معاذ بن معاض... شهد المشاهد كلها، قتل يوم اليمامة سنة احدى عشرة من الهجرة - أسد الغابة 416/2

2- حكم - 187

3- ابن أبي الحديد السابق 416 / 18

4- تاريخ الطبري 220 / 3

شرط الاجماع على خلافته، يقول «لئن كانت الإمامة لا تتعقد حتى يحضرها عاملة الناس فما إلى ذلك من سبيل»<sup>(1)</sup>، فشرط الاجماع الذي اتخذه معاوية ذريعة للامتناع عن البيعة، لم يكن الا من باب طلب المستحيل، لذلك يجب على معاوية وامثاله من الذين امتنعوا عن البيعة الانقياد إلى ما تعارف الناس عليه منذ حكم أبي بكر بالرجوع إلى أهل الحل والعقد الذين «يحكمون على من غاب عنها، ثم ليس للشاهد ان يرجع ولا للغائب ان يختار»<sup>(2)</sup>. وفي اعتقادنا ان كل ما ورد عند الإمام علي عليه السلام عن انعقاد الإمامة بالقرابة أو باتفاق أهل الحل والعقد أو بالشورى كان لمجرد الاحتجاج على من يحاولون تبرير الواقع بعد ان تم اقراره «لأن الشورى التي قيل باستخلاف أبي بكر بمقتضاها، أو نظر إليها على انها الأساس المقرر لاختيار الخلفاء فإنها مبدأ لاحق مسبوق لم ينشأ ساعة الإستخلاف بل طرأ من بعد على الأذهان»<sup>(3)</sup>، إذ يبدو للمتابع للنصوص المتعلقة بالإمامة في (نهج البلاغة) ان ما قيل من اتفاق أهل الحل والعقد لم يكن الا محاولة من سياسيي العصر لإضفاء شرعية على واقع فرض بالقوة، كما ان الشورى التي لاكتها الأفواه ما هي الا «مجرد اسم تلعب به الشفاه، أفرغ من مضمونه»<sup>(4)</sup>. اضف إلى ذلك بأن علياً عليه السلام لم يكن ليقيم للقرابة أية صلة بعقد الإمامة لأنه يعتقد «ان ولي محمد من اطاع الله وان بعدت لحمته، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته»<sup>(5)</sup>، وهو كما نلاحظ رد على القرشيين الذين

ص: 185

1- خطب 175

2- المصدر السابق نفسه

3- عبد الفتاح عبد المقصود - السقيفة ص 146 ، 264

4- المصدر السابق

5- حكم 94

احتجوا على الأنصار يوم السقيفة بزعمهم أنهم أولى بالخلافة لقرابتهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فعلي عليه السلام وان نوه بالقرابة في استحقاق الإمامة، الا انه لم يكن يقصد من ذلك سوى إقامة الحجة على من اتخذ القرابة ذريعة، لذلك فإنه «لم يضع قرابته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مزية ترشحه للخلافة من بعده»<sup>(1)</sup>.

فمن خلال ترتيبنا لنصوص (نهج البلاغة) التي عالجت شروط انعقاد الإمامة، نجد ان علياً عليه السلام يقرر بما لا يدعو إلى الشك إلى أن الأرض لا تخلو (من قائم لله بحجة، اما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج اللهوأنيائه)<sup>(2)</sup>، ووجود الحجة في الفكر الشيعي لطف من الله بعباده يقربهم من الطاعات ويبعدهم عن المعاصي، وعليه بنى الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله «لو لم يبق في الأرض اثنان لكان احدهما الحجة»<sup>(3)</sup>، لذلك يعد علي عليه السلام نفسه مبلغاً عن النبي عليه السلام، قائماً مقامه قائلاً بلسانه، يقول لاصحابه «والله ما اسمعكم الرسول شيئاً الا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه، وما اسماعكم اليوم بدون اسماعكم

ص: 186

1- العقاد - عبقرية علي ص 111

2- حكم - 145 ، فقرة 6، وقد علق ابن أبي الحديد على قول علي عليه السلام ذاك بأنه «يكاد يكون تصريح بمذهب الإمامية، على ان اصحابنا أي المعتزلة يحملون على ان المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عن انهم في الأرض سائحون» شرح النهج 18 / 351 ، ويرى ميشم البحراني شرح النهج 5 / 336 انه تصريح منه عليه السلام بوجود الإمام بين الناس في كل زمان ما دام التكليف قائماً»، ونحن نميل إلى رأي ميشم لخلوه من التاويل ولان علياً عليه السلام في كثير من نصوص (نهج البلاغة) يعتبر نفسه وآل البيت عليهم السلام هم الحجة على الخلق عند الخالق سبحانه من ذلك قوله «أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين - خطب 74» وقوله أيضاً «بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه خطب 189»

3- الكليني اصول الكافي 1 / 179

بالامس»(1)، وهو حين يقوم بذلك الا لأنه يعتقد بأن مكانته في الإسلام تأتي تالية بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المنزلة استناداً لروايته عنه صلى الله عليه وآله وسلم حين ابتداء نزول الوحي إذ قال له «انك تسمع ما اسمع، وترى ما أرى، الا انك لست بنبي، ولكنك لوزير، وانك لعلى خير»(2). إذ يفهم مما أثر عنه من اقوال انه حين يقوم بامر المسلمين، فليس لأنه خليفة منتخب من قبل جمهور المسلمين، ولكن لكونه يعتقد بأنه امام منصوب عليه من قبل الله سبحانه، كما يتضح مما ورد في وصيته لعماله على الصدقات «ارسلني اليكم ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في اموالكم»(3)، فنصه على أنه ولي الله يلقي ضوءاً على تفكيره في ان الإمامة لا تكون مطلقة يرشح لها أهل الحل والعقد من يرونه صالحاً لها، لأن رؤيتهم مهما اتسعت في شموليتها فهي دون رؤية الخالق سبحانه في مصالح عباده، فالأئمة في فكر علي عليه السلام «قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار الا من انكرهم وانكروه»(4)، وهنا يستوقفنا تفسير المقولة بين المعتزلة والشيعة، فابن أبي الحديد من المعتزلة يؤولها في ضوء

ص: 187

1- خطب - 88

2- خطب - 90 ، فقرة 27 . ويروى ابن أبي الحديد لعلي عليه السلام 20 / « 216 انا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالعضد من المنكب، وكالذراع من العضد، كالكف من الذراع، رباني صغيراً، وأخاني كبيراً ولقد علمتم اني كان لي منه مجلس سر لا يطلع عليه غيري، وانه اوصى لي دون أصحابه وأهل بيته، ولأقولن ما لم اقله لاحد قبل هذا اليوم، سألته مرة ان يدعو لي بالمغفرة فقال: افعل، ثم قام فصلى، فلما رفع يده للدعاء استمعت إليه، فإذا هو يقول: اللهم بحق علي عبدك اغفر لعلي، فقلت: يارسول الله، ما هذا ؟ فقال أو أحد اكرم منك عليه فاستشفع به إليه؟

3- رسائل - 25

4- خطب - 152 فقرة 2

(يَوْمَ نَدْعُوا نَاسًا بِإِمَامِهِمْ) (1)، أي «ينادي كل قوم باسم امامهم» (2).

اما ميشم البحراني من متكلمي الشيعة فيرى ان كلام علي عليه السلام يعني به نفسه والأئمة من ولده، وقد استند في رأيه ذلك على نقطتين (3):

الأولى: ان الشريعة بما حوته من اوامر ونواه محتاجة إلى من يوضح كيفية العمل بها لتسلك بالانسان طريق الخير والجنة، ولا يتأتى ذلك الا بمعرفة من يعمل بها، وهم الأئمة الواجب الإفتداء يهديهم.

الثانية: وهو المشهور عن علي عليه السلام ان الأئمة الذين يريدهم هم أهل بيته عليهم السلام ومعرفة امامتهم ركن من اركان الدين يؤدي إلى الجنة ويبعد عن النار. ولعل رأي ميشم هو الأرجح، فالأئمة الذين يعينهم علي عليه السلام - كما نعتقد - هي العترة من آل بيت النبوة، على اعتبار انهم احق الناس بولايتهم دون الخلق اجمعين في كل منقول معقول، لأنه «لا يقاس بأل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الأمة احد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليهم ابداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين... ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة» (4). وقد تأول ابن أبي الحديد الولاية في الشاهد بأنها «حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الخلق» (5)، فلا يقصد بها الإمامة كما تزعم الشيعة، وتأول (الوصية والوراثة) بأنها ليست «النص والخلافة ولكن

ص: 188

1- الإسراء / 71

2- ابن أبي الحديد 152 / 9

3- راجع شرح نهج البلاغة 3 / 235 ، 236

4- خطب 2 فقرة 3

5- ابن أبي الحديد 139 / 1

أموراً أخرى لعلها - إذا لمحت - أشرف واجل» (1)، ومع تجاوزنا عن قول ابن أبي الحديد، فإنه «لا يعدم كل أحد أن يستنبط من كل كلام ما يوافق غرضه وإن غمض» (2)، فعلى أي محمل يمكن تأويل قول علي عليه السلام بعد كلامه السابق، وفي نفس الفقرة «الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله» (3)، فالحق الذي رجع إلى أهله باتفاق جميع تفاسير النهج هو الخلافة (4)، والسياق يشير لذلك ولا مجال فيه إلى التأويل. ثم اننا لو قبلنا قول ابن أبي الحديد بأن المقصود من الوراثة وراثه العلم، فعلى أي محمل يمكننا تأويل قول علي عليه السلام «كانت في ايدينا فذك، من كل ما اظلتته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله» (5) فعلى عليه السلام يؤكد حقهم في فذك (6) مما

ص: 189

1- المصدر السابق نفسه 140/1

2- المصدر نفسه - 8 / 266

3- خطب - 2

4- راجع الراوندي - منهاج البراعة 1/ 114، ابن أبي الحديد 1/ 140، فقد فسر الحق بالخلافة ثم تأول المعنى حسب القائلة بجواز تولية المفضول مع وجود الافضل، ميثم البحراني شرح النهج 1/ 248، محمد عبده شرح النهج 1/ 38، الخوئي منهاج البراعة 2/ 343، مغنية في ظلال النهج 1/ 82

5- رسائل - 45

6- فذك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، افأوها الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنة سبع صلحاً معجم البلدان 4/ 238. وجاء في كتاب فضائل الخمسة في صحاح الستة للفيروز آبادي 3/ 168 عن السيوطي في ( الدر المنثور) في ذيل تفسير قوله تعالى: عليها السلام «وَأَنْتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ... قال: وأخرج البزاز وأبو يعلى وابن أبي حاكم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية...دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليه السلام فاعطاها فذكا. وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جاءت فاطمة عليه السلام حينئذ تطلب صدقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة فذك وما بقي من خمس خبير، فقال أبو بكر: ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا نورث ما تركناه صدقة... فأبى أبو بكر ان يدفع إلى فاطمة عليها السلام منها شيئاً، فوجدت عليه حتى توفيت طبقات ابن سعد 2/ 315. ويبدو من كلام علي عليه السلام خلاف ما أثر عن أبي بكر وانه كان يقول بتوريث النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل ما يورثه المسلم لاهله لتفصيل ذلك وتضارب الآراء فيه، راجع: ابن أبي الحديد 16 / 205 وما بعدها الطبرسي الاحتجاج ص 90، وراجع أيضاً تعليقات شراح النهج لقول علي عليه السلام عند دفنه السيدة فاطمة عليها السلام «وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فاحفها السؤال واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر» خطب - 196

يجعل مقولة اقتصار وراثه آل البيت عليهم السلام على العلم دون سواه من لوازم الوراثة - الأخرى في فكر علي عليه السلام غير مقبولة، وان لم تكن الوراثة هي الحجة التي اعتمد عليها علي عليه السلام في المطالبة بالخلافة، لأنه في اعتقاده أن النص هو الأساس وهو ما اعتمده كحجة لا تقبل الجدل، فلا يجوز له وهو أول من آمن برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان يكذب عليه ويدعي ما ليس له، فلو لم يكن واثقاً ان الخلافة من حقه بالنص لما جادل دونها ولما طالب بها، وما قوله

«اتراني اكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ والله لانا أول من صدقه، فلا اكون أول من كذب عليه، فنظرت في امري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي واذا الميثاق في عنقي لغيري»<sup>(1)</sup> ، وتكاد تتكرر كلمة الحق في الخلافة بمرارة في ثنايا الكثير من خطبه من ذلك قوله «فو الله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يومنا هذا»<sup>(2)</sup> ، وفي معرض رده على احدى رسائل معاوية إليه يقول «وقلت اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش، حتى اباع، لعمر الله لقد اردت ان تدم فمدحت وان تقضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في

ص: 190

---

1- خطب - 37 ، 6

2- المصدر السابق نفسه



دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكنني اطلعت لك منها بقدر ما سنجح من ذكرها»(1)، فالشاهد يوضح بجلاء - كما نعتقد - ان علياً عليه السلام كان يطالب بحق، لا يرتاب في انه له، وان تنازله عن ذلك الحق لم يكن بمحض ارادته وسكوته عن ذلك لا يعني اقتناعه بصلاحيه حكم من سبقه بدلالة قوله «لو قد استوت قدمي من هذه المداحض لغيرت اشياء»(2)، فالأشياء التي كان يتوق إلى تغييرها هي وضع قائم لا بد من نسفه واحلال مكانه ما يراه الاصلح من وجهة نظر دينية بحتة.

ويبدو التناسق في الربط بين النبوة والولاية في فكر علي عليه السلام من خلال محاولة تجسيده لمنزلة آل البيت عليهم السلام الدينية بتبيان علاقتهم الروحية بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما لذلك من تأثير على المكلفين من حيث السعادة والشقاء في الدنيا والاخرة.

فمن خلال تنسيق النصوص المتعلقة بآل البيت عليه السلام في (نهج البلاغة) يمكننا ادراك الرابط الوشيج بين الرسالة والولاية في تفكير علي عليه السلام، فعلى الرغم منكرة تلك النصوص(3)، وتعدد مناسباتها، الا انه بالامكان تشكيلها في وحدة متكاملة من حيث السياق الفكري، من ذلك على سبيل المثال قوله «اعلموا انكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تاخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوه عند أهله، فانهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن

ص: 191

1- رسائل - 35 ، فقرة 4

2- حكم 280

3- بلغ عدد النصوص التي وردت في ذكر آل البيت عليهم السلام في نهج البلاغة خمسة عشر نصاً - من الخطب 2، 4، 92 ، 95 ، 98 ، 142 ، 145 ، 150 ، 152 ، 187 ، 188 ، 237 ، والحكمة 137 ، هذا ما عدا ما ورد في ثنايا الرسائل متفرقا

علمهم وصمتهم عن منطقتهم»(1) ، فهو يعني نفسه وآل البيت عليه السلام من ولده بحيث يمكن متابعة السياق في قوله «نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينايع الحكم، ناصرنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة» لأن الله سبحانه قد «خلق فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق... الا ان مثل ال محمد صلى الله عليه وآله وسلم كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع واراكم ما كنتم تاملون»(2) . فالتفاوت بين موسيقى النصوص بين هدوء وصخب، وتعدد مناحيها وتباعد مناسباتها لا يحول بيننا وبين ادراجها في سياق واحد، تمثل خلاصته الفكرية ان حق قيادة الناس وهدايتهم، يجب ان تنحصر من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آل بيته عليه السلام من دون سواهم حتى قيام الساعة، لتميزهم عن الخلق بالعلم الواسع المتطابق وشريعة الله المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا ما حولنا الربط بين قول علي بالوصية والولاية، وبين المنزلة الدينية التيخص بها آل البيت عليهم السلام من دون غيرهم من سائر المسلمين فيما أثر عنه من اقوال فس نجد ان ذلك الفكر مبني علي ان الإمامة قد كان النص عليها في آل البيت عليه السلام من قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكن يمر في روع علي عليه السلام أو يخطر على باله «ان العرب تزعج هذا الأمر بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته»(3) .

فإذا كان الكمي (ت 126) أول من تكلم في الإمامة وفصل القول فيها

ص: 192

1- خطب - 147 فقرة 3

2- السابق 99 ، فقرة 6

3- رسائل 62 ، فقرة 1

في هاشمياته(1) وان عيسى بن روضة (ت 158) أول من ناظر في الإمامة(2) وان أول من «الف في ذلك علي بن اسماعيل بن ميثم»(3)، المعاصر لواصل بن عطاء (ت 131)(4) فإن جميع أولئك على ما نعتقد لم يبدأوا من فراغ اقوالهم في الإمامة وتفريعاتها لأن الخطب والرسائل والعهود والكلمات القصار التي أثرت عن علي عليه السلام وكان كل أولئك قريبي عهد بها كانت بمثابة الزاد الفكري الذي مهد لهم الطريق وفتق لهم الكلام. فقد راينا من اشلاء الخطب والرسائل التي وصلتنا ضمن (نهج البلاغة) كيف طرح علي عليه السلام قضية الإمامة التي ما فتئ يكرر حقه وحق آل بيته عليهم السلام فيها، طوال عهده وعهد من قبله، مما يجعلنا نرجح بأن البراهين الكلامية التي بنى عليها الشيعة نظريتهم في الإمامة قد كانت وليدة عصر صدر الإسلام، حيث وضع أسسها الفكرية علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم جاء من بعده متكلمو الشيعة وبسطوا القول فيها، مقتفين اثره، مما يجعلنا نرفض ما قال به جولد سهير من تأثر الشيعة بفكر المعتزلة(5)، في هذا المجال.

ص: 193

- 1- جاء عند السيوطي - في شرح شواهد المغني 1/ 28 عن الكميت «كان جدلاً، وهو أول من ناظر في التشيع»
- 2- عيسى بن روضة التابعي مولى بني هاشم صاحب أبي جعفر العباسي (ت 158) أول من صنف في علم الكلام. له كتاب في الإمامة، وبقي إلى عصر أبي جعفر العباسي، لم أعثر على سنة وفاته اعيان الشيعة 8/ 383
- 3- ابن النديم الفهرست ص 323
- 4- راجع ترجمته في السابق، ص 202
- 5- يقول جولد سهير في كتاب العقيدة والشريعة ص « 200 مما يستعري النظر ان علم الكلام الشيعي يتجه بصفة خاصة نحو المعتزلة، لأنه يستند فيما يسوقونه من براهين لتأييد نظرية الإمامة على قواعد اعتزالية بحثه، فالحاجة إلى وجود امام لكل عصر، وما يجب ان تمتاز به هذه الشخصية من عصمة وقداسة، وقد ربطها الشيعة لا شك في طابعها الاعتزالي»، وقد سقنا من النصوص الماثورة عن علي عليه السلام في مواطنها من هذا الفصل ما يؤيد مقولة الشيعة من غير تأثيرات خارجية. علما بأن المهدي كاعتقاد موجود عند جميع الفرق الإسلامية راجع الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل 24 / 49 وما بعدها، بذل المجهود في حل أبي داود 17 / 190 وما بعدها، فضائل الخمسة في الصحاح الستة 3 / 398 وما بعدها. والاختلاف حول المهدي المنتظر عند الفرق الإسلامية ليس في وجود كمعتقد، بل في كيفية وجود المهدي. إذ بينما يقول السنة وغيرهم من الفرق الإسلامية بأنه لم يخلق بعد ويغلق متى شاء الله، يعتقد الشيعة الإمامية بأنه امامهم الثاني عشر الذي غاب عن الأنظار وسيظهر في اخر الزمان فأصل عقيدة المهدي مأخوذة من الاحاديث النبوية الشريفة ولا دخل في تأثر الشيعة بالمعتزلة في اثباتها بالحجج الكلامية

وإذا كان علي عليه السلام يعتقد بأحقيته في الإمامة التي أقصى عنها فلا بد ان يكون له موقف فكري محدد تجاه أولئك الذين حالوا بينه وبين ممارسة حقه، وهذا ما سنحاول تتبعه من خلال نصوص نهج البلاغة التي عرضت لذلك.

ص: 194

**إشارة**

فقبل الدخول في فكر الإمام علي عليه السلام في مجريات عصره يجدر النظر في نقطتين يرتكز عليهما ذلك الفكر كما يبدو من خلال تتبعنا لنصوص نهج البلاغة:

- الأولى: واجب الحاكم في نظر الإمام علي عليه السلام.

- الثانية: الإستقلالية في فكر الإمام علي عليه السلام.

**1 - واجب الحاكم في نظر الإمام علي عليه السلام:**

من الممكن ادراك الغاية من الحكم في فكر الإمام علي عليه السلام من خلال نظرتة الزاهدة في الحياة بحيث لا يمكن الفصل بين تصرفه الخارجي في معاملاته مع الناس، وبين إيمانه الداخلي، فهو ذو شخصية واحدة تمتت التلون وتناهى عن الازدواجية، فلا يأمر بطاعة الا ويوجبها على نفسه اولاً، ثم يطبقها على غيره بعد ذلك، ولا ينهى عن معصية الا وهو القدوة في تجنبها(1)، وعلى ذلك فهو فرد

ص: 195

من افراد الأمة مساو في المنزلة لأي فرد من افرادها مهما كانت منزلته الاجتماعية لا لشيء الا لأنه قدوة، والقُدوة مثال يجب ان يحتذى من قبيل الشرائح الواسعة بين طبقات الأمة، وبطبيعة الحال فإن الفقراء والمعدمين هم الكثرة الغالبة فمن المتوجب «على ائمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبع بالفقير فقره» (1). ومساواة الإمام نفسه بأفقر طبقات الأمة - كما يرى الإمام علي عليه السلام فرض من الله وليس محاولة لإرضاء شريحة من شرائح المجتمع، للتقرب إليها بالتزّيّ بزّيّا. لذلك يمكن اعتبار زهده وتقشفه من مستوجبات الإمامة، لأن في مقدوره وهو القائم بالأمر في الأمة الإسلامية ان يستمتع بملذات الحياة، فيأكل مصفى العسل مع الخبز المصنوع من لباب القمح ويلبس ألين الملابس وأفخرها (2)، ولكن شعوره بالمسؤولية يأبى عليه ذلك، فليس من العدل فيمفهومه ان يشار إليه بالقول «هذا أمير المؤمنين ولا (يشارك امته) في مكاره الدهر، أو (يكون) اسوة لهم في جشوبة العيش» (3) فمن خلال التزامه بمبادئ الإسلام يرى ان الإمامة ليست منصباً تشريفياً غاية الملك والسطوة كما أثر عن معاوية في قوله لأهل الكوفة «اتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون ولكن قاتلتكم لأتأمر على رقابكم» (4).

فقضية الإمامة أو بمعنى أصح، التحكم في رقاب العباد - كما يرى ذلك علي عليه السلام إذا لم تصدر عن اقتناع بمبادئ الإسلام، مع خلوها من أية اطماع دنيوية، أو أية مزايَا شخصية، مثلها في ذلك مثل أي شكل من اشكال المادة الزائلة، التي لا

ص: 196

1- خطب - 203، ويتبع: يهيج به

2- راجع في ذلك قوله لعثمان بن حنيف عامله على البصرة - رسالة رقم 45

3- رسائل 45 - فقرة 3 وجشوبة العيش: خشونته

4- ابن أبي الحديد 16 / 75

جدوى من امتلاكها مادامت لا تحقق الهدف المرجو منها، وهو سعادة الناس في ظل عدالة اجتماعية شاملة. لذلك فقد اعتبر علي عليه السلام ثورة أبي سفيان المفتعلة<sup>(1)</sup> في سبيل حق الهاشميين وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام بعد ان بويح لابي بكر، ما هي الافقاعات زبد القصد منها اشعال نار الفتنة وتبديد شمل المسلمين، من أجل أمر تافه لن ينقص من قيمة علي عليه السلام، ولن ينال من مكانة الهاشميين، لأن الخلافة كمنصب القصد منه التسلط وشهوة الملك ما هي الا «ماء اجن، ولقمة يغص بها أكلها»<sup>(2)</sup>.

فالغاية من الحكم في فكر الإمام علي عليه السلام، بقاء قواعد الإسلام قوية حتى ولو كان ذلك على حساب اهتضام حقه المشروع. يقول لأصحاب الشورى لما عزمو على مبايعة عثمان «لقد علمتم اني احق بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمتمور المسلمين ولم يكن فيها جور الا علي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة»<sup>(3)</sup> فلا يهم ان يكون مظلوماً ما دام الإسلام مصاناً، لأن نظرتة الشمولية المتعمقة لمجريات الاحداث بعد وفاة الرسول عليه السلام حتمت عليه ان يبقى في الظل نائياً بمبادئه من ان تمس، أو ان يحور اصراره على المطالبة بالحكم بأنه شهوة حب التسلط في رقاب العباد لأن اقتناعه التام بتكامل طرفي الإسلام، كعبادة واسلوب حياة، لا مجرد طقوس وشعائر، هو ما جعله ينبه لأحقيته في الحكم كوصي منصوب عليه معللاً ذلك التنبيه وتلك المطالبة ليست من أجل اشباع رغبة التسلط والامتلاك، ولكنها من أجل

ص: 197

---

1- راجع ص 263 من هذا البحث، فقد فصلنا القول في ذلك

2- خطب 5، 73

3- المصدر السابق نفسه

حماية الدين واعادة نصابه إليه بإصلاح ما افسدته المادة واعادة الحقوق إلى نصابها بجمع الظلم والظالمين(1).

وما دامت شرائع الإسلام كما يراها علي عليه السلام - تؤدي على الوجه المرضي، فلن تكون غضاضة عليه، في السكوت عن حقه، متربصاً باي زيغ تحدثه السلطة، إذ لم يكن وقوفه في الظل الا وليد نظرة واقعية في مجريات الأمور في فترة كان الدين فيها مازال طرياً اخضر العود لما تشتد بعد عليه السلام(2)، على هذا يمكن قياس موقف الإمام علي عليه السلام الفكري تجاه الرجال والأحداث في عصره.

## 2 - الاستقلالية السياسية في فكر الإمام علي عليه السلام:

ان اعتقاد الإمام علي عليه السلام بالنص عليه كوصي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حدد فكره المتعلق بسياسة الدولة في حدود القرآن والسنة دون غيرهما، لذلك رفض الوصاية على تلك السياسة، التي انبنت عليها كصاحب مبدأ يجب ان يدافع عنه مهما بلغت التضحيات في سبيله، فلقد كان بإمكانه ان ينال الخلافة بعد مقتل عمر حين دعاه عبد الرحمن بن عوف إليها بشرط العمل «بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من بعده»(3)، ولكنه رفض الشرط قائلاً «أرجو أن أفعل

ص: 198

1- راجع خطب، 136 ، فقرة 2

2- ذلك بناء على قول علي عليه السلام في رسالته لاهل مصر «فوالله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر ببالي ان العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته، ولا- انهم منحوه عني من بعده، فما راعني الا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فامسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت ان لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً، أو هدماً تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم... فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه...» رسالة رقم 62

3- العقد الفريد 4/ 279



وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي»(1)، فلو كانت الخلافة في حد ذاتها طلبته لقبول العمل بسيرة الشيخين، حتى وإن كان القبول بالقول، إلا أنه لم يرض بذلك، لأنه يرفض الإلتواء ولأنه يحج أحقيته بأن يؤخذ برأيه، لا أن يأخذ برأي غيره، لأنه انما يعمل بعلمه علمه آياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له بأن يعيه صدره، وتضطم عليه جوانحه(2). فهو إذ ما وضع بين اختيارين مصلحته أو مصلحة الإسلام فإنه يختار ما فيه مصلحة الإسلام، مهما عظمت خسارته الشخصية، لذلك لم يكن من السهل قبوله منصب الخلافة بعد مقتل عثمان، الا بعد الحاح شديد من الناس، واشتراط منه على المبايعين، القبول بالحكم كما يعلمه هو لا كما يريدون، وفي هذا الصدد يقول «اعلموا أنني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب»(3).

ولما أفضت إليه الخلافة، كان عليه ان يتصدى للاضطرابات التي سادت أرجاء ما أحدثه عمال عثمان من فتن أسخطت صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجرأة العامة على قتل عثمان، فأشار عليه المغيرة بن شعبة أن يقر ولاية عثمان حتى يستتب الوضع له، ثم يعزلهم، أو على الأقل يقر معاوية على ولايته إلى فترة ما، لأنه لم تكن له حجة في اقرار بقية ولاية عثمان، فإن حجته في إقرار معاوية على الشام، بأن عمر قد أقره من قبل، فلم يكن غريباً أن يرفض اقتراح المغيرة رفضاً قاطعاً بقوله «لا أدهن في ديني ولا أعطي الدنيا من أمري... ولا استعمل

ص: 199

1- السابق

2- راجع نهاية الخطبة رقم 128

3- خطب - 91

معاوية يومين ابداً»(1) ثم ان طلحة والزبير حين بايعاه كانا يرجوان ان تكون لهما الحظوة دون غيرهما، وقد روي انهما قالوا له حين البيعة «نبايعك على اننا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا ولكنكما شركاي في الفيء، لا استأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدع بدرهم ما دونه، لا انا ولا ولداي هذان»(2).

فالمواقف الصلبة في ذات الله جعلت من فكر الإمام علي عليه السلام السياسي، منهجاً صلباً لا يقبل المناورة والمداورة، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى ذلك التفرد السياسي في شخص علي عليه السلام بقوله «لو وليتهم يحملهم على منهج الحق، فاخذ المحجة الواضحة، الا ان فيه خصالاً الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيك للناس»(3). ويرغم ما في المقولة من تناقض كما يتراءى لنا بين الاستبداد بالرأى، وهو نوع من الشعور بتضخم الشخصية والتعالي، وبين الدعابة التي تعني التبسط والهزل(4)، الا اننا نلمس فيها أيضاً مانحاً بصدده من قول حول شخصية علي عليه السلام السياسة، فمنهج الحق الذي يقصده عمر، هو ما يعنيه علي عليه السلام بقوله لطلحة والزبير حين طلبا منه ان يولييهما

ص: 200

---

1- تاريخ الطبري 4/ 440، كامل ابن الأثير 3/ 101 وقد ذكر المصدران حوار علي عليه السلام مع المغيرة بأكمله

2- ابن أبي الحديد 7/ 42

3- تاريخ يعقوبي 2/ 159

4- ما قيل عن استبداد علي عليه السلام برأيه ودعابته وتبكيته للناس يخالف تمام ما وصفه أصحابه الذين عاشروه به من ذلك ما أثر عن ضرار الضابي حين طلب معاوية منه وصف علي قوله «وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سالناه، وينبتنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه ايانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله» الحصري القيرواني زهر الاداب 1/ 41

«اعلمنا اني لا اشرك في امانتي الا من ارضى بدينه وامانته من اصحابي ومن قد عرفت دخيلته»<sup>(1)</sup> لأن مقياس علي عليه السلام السياسي في الولاية، البعد عن كل شهوة مادية، وطلحة والزبير ممن لا يرتضي أمانتهما، لأنه يعرف دخيلتهما وحرصهما على الامارة من أجل دعم مصالحتها الشخصية اما ما أشار إليه عمر من طبيعة استبدادية في شخص علي عليه السلام، فليس الا لأنه يرى أن المنزلة التي حظي بها عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم تتغير حتى بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وإقصائه عن الخلافة، فهو يسير على نهجه ويتقفى خطاه صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول في هذا الصدد «الا ان موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته، كموضعي منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنتهون عنه»<sup>(2)</sup> ، فتمسك علي (برأيه، نابع من ايمانه وتصوره لنهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن الدين والدولة كل لا يتجزأ.

وعلى هذا الأساس يمكن دراسة مواقفه السياسية تجاه رجال عصره واحداثه، فما وافق الدين فهو رضا بالنسبة إليه، لذلك فإن وقوفه في الظل طيلة السنوات التي اقضي عما يعتقد حقه، لم يحل بينه وبين المشاركة في سياسة الدولة إذا ما طلب منه ذلك، فمن خلال ما سميناها بواجب الحاكم والاستقلالية السياسية يمكننا الدخول إلى فكر علي ع في ماجريات عصرهما رسمها (نهج البلاغة).

### يمكن تقسيم فكر علي عليه السلام في ماجريات عصره السياسية إلى مرحلتين

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما قبل خلافته عليه السلام، وتمتد من السنة الحادية عشرة للهجرة، حتى مقتل عثمان بن عفان سنة خمس

ص: 201

1- ابن أبي الحديد 1 / 231

2- ابن أبي الحديد 7 / 37

وثلاثين، ويمكن دراسة فكر علي عليه السلام في هذه المرحلة من خلال الوقائع التاريخية التالية:

1 - مؤتمر سقيفة بن ساعدة.

2 - حكم أبي بكر.

3 - حكم عمر بن الخطاب.

4 - الشورى.

5 - حكم عثمان بن عفان.

- المرحلة الثانية: وهي التي تمثل فترة خلافته وتمتد من سنة خمس وثلاثين هجرية حتى سنة اربعين، ويمكن دراسة فكره في هذه المرحلة من خلال الوقائع التالية:

1 - أصحاب الجمل - أو - الناكثون

2 - معاوية وبنو أمية أو القاسطون

3 - الخوارج المارقون

4 - إرادة قريش.

### **المرحلة الأولى:**

والمتمثلة في فترة ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

**1 - مؤتمر سقيفة بني ساعدة في فكر الإمام علي عليه السلام:**

ص: 202

لم يكن علي وآل بيت الرسول وجل المهاجرين حضوراً في اجتماع السقيفة، لأنهم كانوا في شغل بتجهيز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والاعداد لدفنه، فلم يعلموا بخبرها الا بعد ان «بويح أبو بكر واقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»<sup>(1)</sup>، فلم يكن إلا ذهولاً اصاب النفوس، إذ كيف تسنى لأولئك ان يرموا أمراً في مثل ذلك اليوم العصيب دون ان يستشار جميع أولي الأمر، وعلى ذلك الأساس بنى علي عليه السلام فكرته فيما أثر عنه من قول لأبي بكر (طويل):

فان كنت بالشورى ملكت أمورهم \*\*\* فكيف بهذا والمشيرون غيب<sup>(2)</sup>

فعلي عليه السلام - على ما يبدو - لا يعتقد ان ثمة شورى في انعقاد البيعة لأبي بكر، لأن الشورى تقتضي حضور جميع من يهمهم الأمر، اما وجهة نظره في مؤتمر السقيفة فقد بناها على تنفيذ منطلق كل من الأنصار والمهاجرين الذين حضروا السقيفة ذلك اليوم. فالإسلام لا يجيز للأنصار الادعاء بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على اعتبار انهم موصى بهم من قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومن يوصى به لا يجوز لا عقلاً ولا شرعاً ان يكون قائداً، وبناء على ذلك قال لما بلغته أنباء السقيفة «ما قالت الأنصار؟، قالوا: قالت منا أمير ومنكم امير، قال عليه السلام: فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذه الحجة عليهم؟، فقال عليه السلام: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم»<sup>(3)</sup>.

ص: 203

1- الزبير بن بكار - الأخبار الموقفيات ص 578

2- حكم: 187

3- خطب - 66

أما طرف السقيفة الثاني، وهم قريش، فقد احتجوا بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في قول عمر بأنهم «أولياؤه وعشرتُهُ»<sup>(1)</sup>، وهم بحجتهم تلك لا يستحقون الإمامة أيضاً من وجهة نظر علي عليه السلام وذلك بناء على قول الله تعالى:

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) (2)، فإذا كان مقياس استحقاقهم الأمر لقرابتهم البعيدة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فالأولى به أن يكون في رحمه القريب وعترته، ويمثل وجهة نظر علي عليه السلام تلك قوله «ماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة»<sup>(3)</sup>، فالثمرة وهي النتاج الأصلي للشجرة أولى بأن يكون لها الحق دون غيرها من سائر الفروع، و على ذلك بنى علي عليه السلام فكره من خلافة أبي بكر، كراي مضاد الهدف منه إقامة الحجّة.

## 2 - موقف علي عليه السلام من حكم أبي بكر:

لم يحسم أمر البيعة بالحكم لأبي بكر حسماً تاماً في مؤتمر السقيفة كما تصوره لنا المصادر التاريخية، إذ يبدو من خلال فلتات المؤرخين في ثنايا سردهم للحوادث ان صراعاً خفياً قد احتدم وان المسلمين قد تحزبوا إلى فرقتين إذ يمكن ان يستنتج من القول بأن «اسلم اقبلت بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك فبايعوا، فكان عمر يقول: ما هو الا ان رأيت اسلم فأيقنت بالنصر»<sup>(4)</sup>، أي

ص: 204

1- تاريخ الطبري 220 / 3

2- الانفال / 75

3- خطب - 66

4- تاريخ الطبري 222 / 3 وأسلم اسم يطلق على عدة بطون وقبائل، والذين يعينهم عمر - كما اعتقد - هم اسلم بن افضى: بطن من خزاعة وهم: بنو اسلم بن افضى بن حارثة بن عمرو من القحطانية، من قراهم وبرة قرية ذات نخيل من اعراض المدينة كحالة معجم قبائل العرب 2 / 1

أن فوز أبي بكر لم يتحقق بسهولة ويسر، إذ لو كان الأمر كذلك لما قال «فأيقنت بالنصر» مما يعني ان الرؤية قد كانت غامضة قبل مبايعة اسلم، فاليقين هنا يتبع شكاً، والوجل والخوف من الفشل، كما ان كلمة (النصر) في السياق تتم عن الصراع الخفي الذي كاد ان ينفجر ليرجح كفة على اخرى. فما ان استقر أمرالسقيفة لابي بكر جراء الجدل الذي أخذ القوم على غرة، وتبه أولئك المجتمعون للسرعة المذهلة التي تمت فيها تلك البيعة، حتى «ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب عليه السلام، وهتفوا باسمه، وانه في داره فلم يخرج إليهم، فجزع لذلك المهاجرون، وكثر في ذلك الكلام»(1)، ثم ان المنافرات بين الأنصار والمهاجرين كادت ان تحدث فتقا في الإسلام، بإثارة النعرات القبلية، لولا تدارك بعض الصحابة للأمر بسد افواه موتوري قريش على الأنصار وعلي عليه السلام، لما فعلوه بآبائهم وأجدادهم وأخوانهم في حروبهم معهم في الجاهلية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(2). ثم ان هناك كثير من رؤوس المهاجرين ممن امتنع عن بيعه أبي بكر من أمثال: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، ولم يدلوا ببيعتهم(3) الا مكروهين «وكان إبان بن سعيد أحد من تخلف عن بيعه أبي بكر

ص: 205

1- الزبير بن بكار - الأخبار الموقيات 583

2- راجع ذلك بالتفصيل عند الزبير بن بكار، السابق من ص 595 حتى ص 602

3- راجع سليم بن قيس الهلالي الكوفي (ت في حدود 90 هـ) - كتاب سليم بن قيس ص 89 وما بعدها، وقد ذكر الكتاب وصاحبه ابن النديم الفهرست ص

275 في اخبار فقهاء الشيعة وما صنفوه من الكتب، راجع ايضا: تاريخ يعقوبي 124/2

لينظر ما يصنع بنو هاشم فلما بايعوا بايع»(1)، وكان إبان في موقفه ذلك تبعاً لأخيه الأكبر خالد بن سعيد بن العاص الذي أسلم وأبو بكر في يوم واحد(2)، وقيل ان أبا بكر قد أمر خالداً ذلك على جيوش الشام، فاعترض عمر على ذلك قائلاً «أتولي خالداً وقد حبس عنك بيعته، وقال لبني هاشم ما قد بلغك؟ فوالله ما أرى ان توجهه»(3) فامتثل أبو بكر لذلك فعزله وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح(4). لذلك فمن المرجح ان البيعة لأبي بكر لم تتم ولم يستقر له الأمر الا بعد ان بايعه علي بن أبي طالب عليه السلام، وتبعه بنو هاشم إذ تحدثنا بعض المصادر التاريخية عن المحاولات التي بذلتها قريش لاضعاف جانب علي عليه السلام وارغامه علي البيعة «من ذلك توجه أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة إلى منزل العباس بن عبد المطلب ليلاً ليجعلوا له في الحكم «نصيباً يكون له ولعقبه من بعده»(5)، ليفتوا من عضد علي عليه السلام ولكنهم لم يفلحوا في اقناع العباس بذلك، وبقي علي عليه السلام ومن تبعه من آل بيته عليهم السلام وأشياعه «سنة أشهر لم يبايعوا حتى ماتت فاطمة عليها السلام فبايعوا»(6).

ويبدو مما أثر عن علي عليه السلام من نصوص في (نهج البلاغة)، وما دار حولها من شرح وتعليقات أن علياً عليه السلام قد حاول في الأيام الأولى من مبايعة أبي

ص: 206

1- ان الأثير أسد الغابة 47/1، وراجع ترجمة إبان في المصدر نفسه

2- السابق 97/2، 98، وترجمة خالد هناك أيضاً

3- تاريخ يعقوبي 133/2

4- راجع السابق 133/2

5- راجع الحادث باكملهم عند ابن قتيبة الإمامة والسياسة 15/1، وتاريخ يعقوبي 124/2 وما بعدها

6- ابن الأثير الكامل في التاريخ 224/2



بكر أن يسترجع ما كان يعتقد حقه، وقد وقفت زوجته السيدة فاطمة عليها السلام بجانبه(1) ولكنه لم يفلح، من ذلك ما أثر عن معاوية في إحدى رسائله لعلي عليه السلام قوله «لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه ورمت افساد امره، وقعدت في بيتك، واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته»(2)، فمعاوية يتهم علياً عليه السلام بالإفساد والتعدي والتحريض لإفشال بيعة أبي بكر ومهما انطوت تلك المقولة على مكر وخديعة بقصد الإساءة لعلي عليه السلام، فإنها تضيء جوانب من موقف علي عليه السلام وكثير من الصحابة إزاء بيعة أبي بكر مما يجعلنا نعتقد بأن تلك البيعة قد احدثت في بدايتها نوعاً من التشتت الفكري في مصداقية الإسلام في نفوس أولئك الذين لما تتمكن مبادئ الإسلام منها، إذ وجدت في اختلاف صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذريعة للتمرد على الدين(3). لذلك لم يجد علي عليه السلام بداً من اتخاذ موقف حاسم إزاء هذه المتناقضات التي كادت ان تحدث شرحاً في الإسلام، حتى لو كان ذلك على حساب حقه، لأن مصلحة الإسلام تقتضي منه التوضيح(4) وكانت بيعته لأبي بكر الذرورة في هذه التوضيح، الا ان تلك البيعة لم تأت عن طواعية ولم تحدث الا بعد جدل طويل سجلت لنا بعض المصادر

ص: 207

- 1- راجع ما قاله سليم بن قيس في كتابه بشأن حمل علي فاطمة الزهراء على حمار وأخذه بيدي ابنه الحسن والحسين عليهم السلام وذهابه إلى بيوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناشدهم الله في حقه ص 82 - 83
- 2- رح ابن أبي الحديد 15 / 186
- 3- نعني بذلك ارتداد بعض القبائل عن الإسلام وامتناع القبائل الاخرى عن دفع الزكاة، يمكن مراجعة ذلك في تاريخ الطبري 3 / 301 وما بعدها
- 4- بشأن امتناع علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر، والسبب الذي جعله فيما بعد يبايع، راجع قول علي عليه السلام في رسائل 62، فقرة 1

التاريخية جانباً منه<sup>(1)</sup>، مقتصرة على السرد، لذلك لم تتمكن من تمثيل الصورة الصادقة لمعاناته النفسية أثناء مجادلته عن ذلك الحق ولكن (نهج البلاغة) قد نقل إلينا بعض مآثرات علي عليه السلام التي توضح بعض الجوانب من تلك المعاناة، من ذلك قوله في شأن من نقلوا حقه لغيره بتأويلات مفتعلة تنم عن نكوصهم عما أوصى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «حتى إذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم رجع قوم على الاعقاب، وغالتهم السبل واتكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي امروا بمودته ونقلوا البناء عن أساسه، فبنوه في غير موضعه»<sup>(2)</sup>، ويبدو من المقولة كما نعتقد ان علياً عليه السلام يختلف مع الشيخين اختلافاً بشأن قضية الاستخلاف وما امتناعه عن البيعة لأبي بكر مدة ستة أشهر<sup>(3)</sup>، الا تعبير واضح عن ذلك، ثم ان بعض المصادر الأدبية تذكر لعلي عليه السلام نصوصاً يقول فيها بمنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحقيقته دون غيره بالخلافة، من ذلك ما رواه له الجاحظ من عتاب وجهه لمن امال الخلافة عنه من جمهور المسلمين<sup>(4)</sup>، كما ان ما دار من جدل بين علي عليه السلام وبين أبي بكر في اليوم الثاني بعد بيعة السقيفة، يدل على الخلاف العميق بين وجهتي نظر كليهما، ولكنه خلاف «يقف عند حد النقاش والحوار وقرع الحجة بالحجة»<sup>(5)</sup>، لاعتقاد علي عليه السلام بأن الاحتكام إلى السيف في مثل تلك الظروف العصبية لن يكون في صالح الإسلام، فكان صراع

ص: 208

1- راجع على سبيل المثال الإمامة والسياسة لابن قتيبة 12/1 ، 13 ، ابن اعثم: الفتوح 12/1 ، 13

2- خطب - 148

3- أكثر المصادر ترجح ان بيعة علي لأبي بكر لم تحدث الا بعد ستة اشهر - راجع: تاريخ الطبري 208/3 ، العقد الفريد 260/4 ، ابن الأثير الكامل في

التاريخ 220/2

4- راجع البيان والتبيين 50/2 ، 51

5- مغنية - في ظلال النهج 305/2

بين العاطفة والعقل بالنسبة لعلي عليه السلام، حيث حسم ذلك الصراع لصالح العقل، فأقر علي عليه السلام بالتسليم على اهتضام حقه، وألم ممض فاضت به أعماقه(1).

فاعتقاده بأحقيته بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المحور الأساس الذي اعتمده في مواجهة من جادله من الصحابة بشأن ذلك، يقول له أبو عبيدة بن الجراح حين حاولوا ارغامه على التسليم لأبي بكر بالبيعة «يا ابن عم، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم، ولا- أرى أبا بكر الا اقوى على هذا الأمر منك»(2) فكان رده على تلك المقولة «يا أبا عبيدة، اطال عليك العهد فنسيت، أم نافست فأنسيت؟ لقد سمعتها ووعيتها فهلا رعيتها»(3) فمن الملاحظ ان علياً عليه السلام لم يتطرق إلى مسألة الاحقية بالسن التي أثارها أبو عبيدة لإدراكه - كما نظن - بأن عامل السن من العوامل المستحدثة ضمن ذلك الجدل لافتقار الطرف المقابل إلى الحججة، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين أمر أسامة، وهو الحدث، على المهاجرين الأولين لم يضع السن مقياساً لذلك التأمير.

لذلك فإننا لو أخذنا مسألة الخلافة من منظور الإمام علي عليه السلام كما هو منصوص عليها في (نهج البلاغة)، فسنبخلص إلى أنه قد كان يرى أنها حقه المنصوص عليه من قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سلب منه عنوة إذ ما فتىء يكرر ذلك في كل مناسبة، يقول في خطبته المسماة بالشقشقية «اما والله لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلى الطير»(4).

ص: 209

1- راجع خطب 3، فقرة 1

2- الإمامة والسياسة 1/ 12

3- ابن أبي الحديد 20 / 307

4- خطب 3، فقرة 1

إلا أن ما حملته في نفسه من ضميم لم يحل بينه وبين تقديم العون والمشورة كلما دعت الحاجة لذلك، «فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وحد كانا فيه»<sup>(1)</sup>، لذلك لم ييخل برأيه، ولم يتردد في إبداء موقفه بصدق وأمانة وحماس كلما لجأ أبو بكر إليه، فحين عزم على ارسال الجيوش الإسلامية لغزو الروم شاور كثيراً من الصحابة «فقدموا واخروا، فاستشار علي بن أبي طالب عليه السلام، فأشار عليه ان يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت»<sup>(2)</sup> فأخذ بمشورته فكان الظفر للإسلام، لم يكن الإمام علي عليه السلام ينظر إلى شخص أبي بكر في حد ذاته الا من خلال نظراته الشمولية إلى مصلحة الإسلام، فالطاعة والاستجابة هنا ليست امتثالاً لشخص أبي بكر، لذلك يمكننا القول بأن حياة الإمام علي عليه السلام في عهد أبي بكر لم تكن سوى المناصحة والطاعة المقرونة بالإيمان، والانتظار المقرون بالأمل عسى ان يعود الحق إلى نصابه، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «تولى أبو بكر تلك الأمور، فيسر وسدد، وقارب واقتصد، وصحبته مناصحاً واطعته فيما اطاع الله فيه جاهداً، وما طمعت ان لو حدث به حادث وانا حي ان يرد الي الأمر الذي نازعته فيه، طمع مستيقن، ولا يئست منه يأس من لا يرحوه، ولولا خاصة ما كان بينه وبين عمر لظننت انه لا يدفعها عني، فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا واطعنا وناصحنا»<sup>(3)</sup>، فمسألة مركز الخلافة الإسلامية في فكر الإمام علي عليه السلام وان كان ذو اهمية عظيمة الا انه مسألة ثانوية، مادام الإسلام مصاناً وحقوق العباد مؤداة في ظل الشرع من غير عسف ولا ارهاق وعلى ذات النهج

ص: 210

1- شرح ابن أبي الحديد 20 / 218

2- تاريخ اليعقوبي 133 / 2

3- ابن أبي الحديد 20 / 218

يمكننا تتبع موقفه من شخص عمر بن الخطاب وتحديد فكره من سياسته.

### 3 - موقف الإمام علي عليه السلام من خلافة عمر:

ليس ثمة شك في ان تثبيت بيعة أبي بكر وتقويم أمر سلطته يرجعان إلىجراً عمر ومبادرته بالمبايعة له في السقيفة على رؤوس الأشهاد، فلقد جاهد جهاداً مستميتاً في سبيل ذلك إلى الحد الذي جعله يعد الخلافة معركة وفوز أبي بكر بها نصراً شخصياً له بعد أن بايعت قبيلة أسلم كما أسلفنا القول في ذلك.

وتحدثنا المصادر التاريخية بأنه قد حاول إرغام سعد بن عباد على البيعة لأبي بكر بالإكراه، لولا تصلب سعد في امتناعه وتدخل بشير بن سعد الأنصاري حسماً للنزاع وتجنباً من الفتنة(1). ولاعتداد عمر بمنزلته فقد اعتبر مبايعته لابي بكر ملزمة للمهاجرين، إذ إنها تعادل من وجهة نظره كما نعتقد - بيعة الأنصار كافة(2). ولم يأل جهداً لترسيخ دعائم تلك البيعة بملاحقة المتخلفين عنها(3). واستمر عمر يشد من أزر أبي بكر ويقوم مقامه طيلة خلافته، فقد كان يصلي بالناس نيابة عنه أثناء تغيبه عن المدينة، كما كان أبو بكر لا يمضي امراً دون مشورة عمر، وكان يرجح رايه في كثير من الأحيان على آراء جماعة

ص: 211

- 
- 1- راجع ذلك بالتفصيل: تاريخ الطبري 222/3 ، العقد الفريد 258/4 وفي ص 260 ذكر ابن عبد ربه الكيفية التي اغتيل بها سيد الخزرج سعد بن عباد الأنصاري، ابن الأثير الكامل في التاريخ 224/2
  - 2- راجع في ذلك الصدد ما قاله عمر للمهاجرين في مسج المدينة بعد ان تمت بيعة السقيفة في الإمامة والسياسة 11/1 ، وراجع حصّنه على إتمام البيعة لأبي بكر في اليوم الثاني في تاريخ الطبري 203/3
  - 3- بشأن معاملة عمر المتخلفين عن بيعة أبي بكر راجع ابن الحديد 174/1

المسلمين(1)، فمواقف عمر تلك المكانة التي تبوأها في عهد أبي بكر جعلت علي عليه السلام ينظر إليه ومنذ البداية على أنه المؤهل للأمر بعد أبي بكر، وهو ما يمكن استخلاصه من قول علي عليه السلام حين قال له عمر «إنك لست متروكاً حتى تباع، فقال له علي: احلب حلباً لك شطره، واشدد اليوم امره يردده عليك غداً»(2). والتحليل المنطقي للحوادث يكاد يعزز ما قاله علي عليه السلام فقد حزم أبو بكر امره منذ الوهلة الأولى التي تسلم فيها على تجريد الهاشميين من كل ما يمكن وراثته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بما في ذلك الخلافة بوضعها في قريش عامة وفي عمر بن الخطاب على وجه الخصوص، فقول عمر لعبد الله بن عباس «لولا رأي أبي بكر في بعد موته لأعاد أمركم إليكم» يتضمن الاختيار المسبق لعمر والأبعاد المتعمد لآل البيت عليهم السلام عن حقهم بدلالة قوله «أمركم إليكم»(3)، فالإضافة في السياق تعني الاختصاص والأحقية. ثم أن عهد أبي بكر لعمر يؤكد مقولة الاستخلاف للنص فيه على «أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب»(4) مما يتعارض مقولة الترشيح الذي لا يمكن تحوله إلى استخلاف إلا بعد موافقة المسلمين(5)، إذ لا يمكن استخلاص أية عبارة تنم على الترشيح من سياق العهد المذكور حتى ولو حاولنا التعسف في تأويل العبارات، لثبات نص الاستخلاف في سياقها، إضافة إلى ذلك فإن قول أبي

ص: 212

- 1- راجع على سبيل المثال موقف أبي بكر من طلب كل من عيينه بن حصين والاقراع بن حابس ورد عمر على ذلك الموقف وما قاله لهما أبو بكر بشأن رد عمر شرح بن أبي الحديد 58 / 12
- 2- الإمامة والسياسة 11 / 1
- 3- ابن أبي الحديد 190 / 1. وقد أورد مثله باختلاف الطبري في تاريخه 222 / 4
- 4- تاريخ الطبري 428 / 3، ابن الأثير الكامل في التاريخ 292 / 2
- 5- راجع: طه حسين الشبخان ص 48

بكر للمسلمين «فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة واني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له واطيعوا»<sup>(1)</sup> يبين تلميحاً - على ما نعتقده - بأن هناك سابقة استخلاف بالقرابة يحاول أبو بكر إبعاد مثلها عن نفسه، كما وان الأمر بالسمع والطاعة للمستخلف هو بعيد عما قيل من شوري، إذ لو كان أبو بكر يبغى من قوله الشوري لجعل الاستخلاف في صيغة اقتراح لا في صيغة أمر مؤكد متبوع بالسمع والطاعة.

وإذا ما حاولنا ترتيب عهد أبي بكر لعمر ترتيباً زمانياً، فسنجد المصادر التاريخية التي أرخت لذلك تكاد تتفق جملها على التالي:

أولاً: ان سؤال أبي بكر لكل من عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان قبيل كتابة عهد الاستخلاف كان محصوراً في شخص عمر<sup>(2)</sup> دون غيره من الصحابة مما يعني فيما نظن ان أبا بكر قد بنى امره على النص لعمر وما ذاك السؤال الا من قبيل التمهيد.

ثانياً: ان ذاك السؤال من قبل أبي بكر لم يأت فيما نعتقد الا بعد ايمانه التام بكفاءة عمر، فهو يقول لعبد الرحمن بن عوف عن غلظة عمر «لو أفضني الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه»<sup>(3)</sup>.

ثالثاً: محاولة أبي بكر التكتّم على قضية الاستخلاف وحصر خبرها في اثنين دون الهيئة المكونة من العشرة من الصحابة الذين حصرت بعض المراجع مجلس

ص: 213

1- تاريخ الطبري 3 / 428، ابن الأثير الكامل في التاريخ 2 / 292

2- راجع ذلك في المصدرين السابقين في موضوع (ذكر استخلاف عمر)

3- المصدر السابق

الشورى فيهم(1) ، مع ملاحظة ان أولئك العشرة فيما نظن لم يصيروا هيئة استشارية الا بعد ان حصر عمر بن الخطاب الخلافة في ستة منهم أثناء وفاته(2) وذلك بعد موت ثلاثة منهم رابعهم عمر بن الخطاب، اصف إلى ذلك فإن تلك الهيئة الاستشارية لم تجتمع بأكملها قط للتداول في أمر الخلافة أو غيرها من شؤون الحكم، كما ان التاريخ لم يحدثنا اطلاقاً عن اتفاق حتى نصف نصابها على شأن من شؤون الأمة، بل هو تحاشي أبي بكر وكتمانه أمر الاستخلاف عن بعض أفرادها(3) ، كما حدث أمر علي بن أبي طالب عليه السلام وهو زعيم الهاشميين واحد

ص: 214

1- العشرة هم: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليه السلام وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وقد وردت فيهم احاديث عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بتبشيرهم بالجنة، الا ان تلك الاحاديث لم تتضمن انهم أهل الحل والعقد ولا انهم أهل الشورى، راجع ما روي فيهم من احاديث عند: المحب الطبري الرياض النضرة في مناقب العشرة 31/1 حتى 38

2- راجع الشورى في فكر علي عليه السلام ص 221 من هذا البحث

3- تذكر المصادر التاريخية ان أبا بكر لما اراد ان يعقد بالخلافة لعمر بن الخطاب «دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: اخبرني عن عمر، فقال: يا خليفة رسول الله، هو والله افضل من رايك فيه من رجل... فقال أبو بكر:... لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً، ثم دعا عثمان بن عفان، قال: اخبرني عن عمر، قال: انت اخبر به، فقال أبو بكر: علي ذاك يا أبا عبد الله، قال اللهم علمي به ان سريره خير من علانيته... قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبد الله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً» تاريخ الطبري 3/428 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ 2/291 ، 292 ، فمن الملاحظ ان استشارة أبي بكر قد اقتصر على اثنين فقط من أهل الشورى دون غيرهما، وتحديد الاستشارة في عمر بالذات وتبرير غلطته مما يعني إنها تمهيد لعقد الخلافة في شخص عمر وليس استشارة، ويعزز ذلك الاعتقاد محاولة أبي بكر التكتّم على الخبر حتى لا تتم معارضته قبل أن يتم



من عدّ في الشورى، مما يعني تشكيل تلك الهيئة من اختراع المؤرخين المحدثين بناء على استنتاجات تاريخية لا تمت للواقع بصلة، فأبو بكر كما يرى علي عليه السلام لم يتسلم الخلافة الا بتعصيد من عمر ودون علم معظم من سموا بهيئة الشورى وعلى رأسهم علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان متواجداً مع أبي بكر في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين جاء عمر وأسرّ لأبي بكر خبر اجتماع السقيفة(1) دون غيره ممن كانوا حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الساعة.

رابعا: إن سرية العهد لم تحل دون علم بعض الصحابة ومن ثم اعتراضهم عليه، من ذلك قول طلحة بن عبيد الله التيمي - أحد أفراد هيئة الشورى لأبي بكر «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، وكيفبه إذا خلا بهم وانت لاق ربك»(2)، فلو كان الاستخلاف متولداً عن مشورة لما جاءت مقولة طلحة لأبي بكر المريض بهذه الحدة المتضمنة التهديد بعقاب الله، ثم أن أبا بكر ذاته يؤكد استخلافه لعمر ضمن رده على طلحة في قوله «أبالله تخوفني؟ إذا لقيت ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك»(3)، علماً بأن الحوار الحاد الذي دار بين أبي بكر وطلحة يأتي في ترتيبه الزمني الأول قبل كتابة العهد، وقبل أمر أبي بكر المسلمين بالسمع والطاعة لعمر، مما يرجح أن الاستخلاف قد كان وارداً قبل المداولات التي جرت فيما بعد أسبغ الشرعية عليه، إذ يمكن الاستنتاج مما أثير عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة أن اتفاقاً مسبقاً(4) قد أدى بالخلافة إلى عمر ولولا ذلك لما تعداه أبو بكر.

ص: 215

1- راجع تاريخ الطبرس 219/3، ابن الأثير الكامل في التاريخ 222/2

2- الكامل في التاريخ 292/2

3- السابق

4- راجع خطب 3، فقرة 1، وطابقه بالمحاجة التي دارت بين عمر وعلي عليه السلام بشأن البيعة في الإمامة والسياسة 11/1

بناء على ما سبق لا يمكن قبول قول من قال «بأن خلافة عمر لم تتم بعهد من أبي بكر»<sup>(1)</sup> لأن القائل قد بنى استنتاجه ذلك على أساس انه ليس من حق الخليفة ان يعهد لمن بعده، لكن ذلك يتعارض مع قول من تحدثوا في الإمامة من فقهاء السنة، لأنهم قد جوزوا عهد الخليفة لمن بعده<sup>(2)</sup> وبشأن اهمية الاستخلاف العظيمة تقول عائشة لعبد الله بن عمر حين بلغها الاعتداء على عمر بن الخطاب في المسجد «يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً فإنني اخشى عليهم الفتنة»<sup>(3)</sup>. فمحاولة الباس عهد استخلاف عمر ثوباً من الديمقراطية بالقول باشتراك المسلمين في اتخاذه، ومشاورتهم فيه، لا ينفي كونه قراراً فردياً في نظر علي بن أبي طالب عليه السلام كما ورد في النهج «حتى مضى الأول لسبيله فأدلى به إلى فلان من بعده»<sup>(4)</sup> فقد اتفق شراح النهج على تفسير (ادلى بها) في سياق الخطبة طبقاً للقول (ادلى ما له إلى الحاكم، إذا دفعه إليه رشوة)<sup>(5)</sup>، وخرج ابن أبي الحديد العبارة طبقاً لقوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)<sup>(6)</sup>، «اي تدفعوها لهم رشوة... لما كان عليه السلام يرى ان العدول بها عنه إلى غيره اخراج لها إلى

ص: 216

1- فتحي عبد الكريم الدولة والسيادة ص 247

2- راجع ص 180 من هذا البحث

3- الإمامة والسياسة 23 / 1

4- خطب، 3

5- الراوندي - منهاج البراعة 124 / 1

6- لبقرة / 188

غير جهة الاستحقاق»(1).

ومهما بلغت الحدة في نقده لخلافة أبي بكر ومن بعده خلافة عمر فهي في اعتقادنا لا تخرج عما ذكره التاريخ في شخصيهما، فالإختلاف هنا يكمن في طريقة تناول، فعلي عليه السلام قد عبر عن نقده بأسلوب ساخط ممزوج بالألم، وإلا فإن أبا بكر قد قال في مطلع حكمه مستقبلاً عبء الخلافة زاهد فيها «لا حاجة لي في بيعتكم اقولوني بيعتي»(2)، وقد تناول الإمام علي عليه السلام ذات التعبير في معرض الاستغراب والتعجب من التناقض بين القول والفعل، إذ بينما يظهر أبو بكر الزهد في الخلافة أثناء حياته، يراه علي عليه السلام يحرص بالوصية في عقدها لعمر بن الخطاب بعد وفاته معبراً عن ذلك بقوله: «فيا عجباً، بينا هو يستقبلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته»(3)، لأن المفروض وجهة نظر علي عليه السلام فيمن «يستقبل من أمر علي ظاهر الحال، يجب أن يكون زاهداً فيه متبرماً منه...»

ومن عقده لغيره ووصى به إلى سواه فهو على غاية التمسك به»(4).

فإذا كان علي عليه السلام ينكر على أبي بكر ذلك، فإنه في ذات الوقت ينتقد شخص المعقود له حين يصفه بالخشونة وعدم الثبات في الأحكام، بحيث أصبح عهده من حيث الفتيا والقضاء لا يلتزم منهجاً معيناً، فقد كان عمر «ما يحكم بالأمر ثم يتقضه، ويفتي بالفتيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به»(5) من ذلك انه

ص: 217

- 1- شرح النهج 1/ 163
- 2- الإمامة والسياسة 1/ 14
- 3- خطب 3، ويستقبلها يطلب الاعفاء منها
- 4- الراوندي: منهاج البراعة 1/ 125
- 5- ابن أبي الحديد 1/ 171 ، 181

قضى في توريث «الجد مع الأ-خوة قضايا كثيرة مختلفة، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة، فقال: من أراد أن يقتحم جرائم جهنم فليقل في الجد برأيه»(1)،

هذا بالاضافة إلى حدة مزاجه وسرعة غضبه، وقد تمثل علي عليه السلام كل تلك الصفات في خطبته المسماة (بالششقية)(2)، وبغض النظر عما حواه أسلوب الخطبة من حدة، فمن المرجح ان ما ورد فيها من نقد لا يخرج عما قاله التاريخ فيه ووصف به نفسه. فعبد الرحمن بن عوف يقول لابي بكر حين ساله عن عمر «فيه غلظة»(3). وفي خطبته الأولى بعد توليه الحكم يقول عمر «اللهم اني غليظ فليني لاهل طاعتك... اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف، اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين...»(4)، فما قاله علي عليه السلام في عمر لا يتعدى ما قاله عمر عن نفسه، فهو ليس سب ولا تعريض، وإنما هو نقد خال من كل ما يسيء. فالغلظة والجفاف وسرعة الغضب من طبع عمر حتى قيل انه «اذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتى يعرض يده»(5)، الا أن ذلك لم يكن ليثلم في متانة ايمانه وصدق عزمته في النصح للاسلام واهله، لذلك فبالرغم من الاختلاف في وجهات النظر بينه وبين علي عليه السلام، فلم يكن عمر ليتردد في استشارة علي عليه السلام، كما لم يبخل علي عليه السلام من اسداء المشورة والنصح بروح ملئوها التسامح والصدق، لأن الغاية بقاء الإسلام قوياً عزيزاً.

لقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب كثيراً من المشاركات القضائية

ص: 218

1- السابق

2- راجع خطب 3، فقرة 2

3- تاريخ الطبري 3/ 428، ابن الأثير الكامل في التاريخ 2/ 29

4- العقد الفريد 4/ 65، ابن أبي الحديد 12 / 31، وقد أوردتها باختلاف

5- الزبير بن بكار - الموفقيات ص 602

والفقهية(1) التي ساهم علي عليه السلام في عهد عمر الذي كان «يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن»(2) ، ومن الاقوال المأثورة عن عمر في حق علي عليه السلام «لولا علي لهلك عمر»(3) .

مما اسلفنا من مناقشات يمكن أن نخلص إلى فكر علي عليه السلام السياسي تجاه حكم عمر من خلال نصوص (نهج البلاغة)، فإذا كان علي عليه السلام قد تحدث عن غلظة عمر وخشونته فإنه في الجانب الثاني قد قدم له من الآراء السياسية ما فيه دلالة على عمق نظرتة لوقائع الأمور كما تنبئ عن إخلاصه وصدق اجتهاده في النصح، ففي النهج ثلاثة نصوص يمكننا اعتبارها في غاية الأهمية من الناحية السياسية:

الأول منها: في تبيان الصلاحية الشرعية التي تخول للحاكم استخدام الأموال الخاصة لتجهيز الجيوش الإسلامية، وتطلق وجهة نظر علي عليه السلام في هذا الشأن من أحكام القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحكام توزيع المال ووضعه في المواضع التي خصصها له الشرع «فلا يجوز التصرف في شيء من الأموال والمنافع الا باذن شرعي»(4) ، وعلى هذا الأساس لما استشار عمر علياً عليه السلام في تجهيز جيوش المسلمين بما كان في الكعبة من حلي ومال، قال له «ان القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في

ص: 219

- 
- 1- راجع بعض مشاركات علي عليه السلام القضائية في عهد عمر عند: المحب الطبري الرياض النضرة في مناقب العشرة 3/ 163 ، 164 ، 165 وسبط ابن الجوزي تذكرة الخواص ص 135 وما بعدها
  - 2- ابن عبد البر الاستيعاب بهامش الإصابة 3/ 39
  - 3- المصدر السابق نفسه
  - 4- ابن أبي الحديد 19 / 278

الفرائض، والفيء فقسمة على مستحقه، والخمس فوضعه حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عليه مكاناً، فأقره حيث أقره الله ورسوله»(1)، فالقضية الأساسية التي من أجلها أراد عمر التصرف في حلي الكعبة سياسية، حيث أراد تجهيز جيوش المسلمين بتلك الأموال، ولكن علياً عليه السلام اعتبرها فرعية إزاء الحكم الشرعي، مما يعني من وجهة نظره عدم تجويز التصرف في أي ملك من ممتلكات الدولة الإسلامية الا في ظلال الشرع، وعلى ما نعتقد من خلال موقف علي عليه السلام ذلك إن «الفرق بين الشريعة والسياسة من وجهة نهايتهما ان نهاية السياسة هي الطاعة للشريعة»(2) لذلك فقد عمل عمر بمشورة علي عليه السلام دون غيره من المسلمين الذين أشاروا عليه بالتصرف، فترك حلي الكعبة على حاله قائلاً لعلي عليه السلام «لولاك لا فتضحنا»(3).

أما النصان الآخران فتمحور الاستشارة في كليهما حول القيادة لجيوش الإسلام فحين أراد عمر ان يقود جيوش المسلمين لغزو الروم(4) وقاتل الفرس(5) استشار علياً عليه السلام في ذلك، فأشار عليه في كلتا الحالتين ألا يخرج بنفسه ويكلف من ينوب عنه من أهل الخبرة والدراية بالحرب وبيعت معه من ذوي الرأي من رجال المسلمين ممن يعتمد عليهم وعلى ما يبدو فإن عمر قد أخذ

ص: 220

1- حكم - 278

2- أفلاطون في الإسلام ص 200 بتحقيق عبد الرحمن بدوي

3- حكم - 278

4- راجع خطبة 134 وخطبة 146

5- المصدر السابق نفسه

بمشورة علي عليه السلام في حرب فارس (1) ألا انه لم ياخذ برأيه في حرب الشام (2) .

فإذا ما اعتبرنا الاستشارة مجرد اختيار من حق المستشار قبولها أو رفضها فإن ذلك يجعل علياً عليه السلام لا يجد أية غضاضة في نفسه حين لم يعمل عمر بمشورته، بل بقي أميناً على عهده صادقاً في نصحه طيلة خلافته.

فمن خلال وقفة تأمل في النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) إبان حكم عمر نجدها تحمل في طياتها معاني التعاطف والتسامح المشبعين بروح إسلامية عميقة لا يشوبها زيف ولا يكدرها رياء، لأنها تعبير صادق عن عناصر الأصالة التي فاضت بها حنايا علي عليه السلام تجاه كل مخلص للإسلام، رغم معاناته وتألّمه لحقه المضاع، ولكن تلك المعاناة الشخصية لم تكن لتؤثر على تصرفاته كورث لحكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمله في جعل الإسلام ورفعته هي الغاية، لذلك كان نصحه لعمر نابع من اقتناعه بضرورة تقديم المصلحة العليا للأمة الإسلامية على الخلاف الذي كان بينهم في سلب حقه، فكان يعطي النصيحة باخلاص إلا أنه بجانب ذلك الاخلاص، فقد حز في نفسه أن يرى حقه في الخلافة يؤول للمرة الثالثة بعد عمر لغيره، دون أدنى حق الا المفاضلة المبنية على العصبية التي مقتها الإسلام وفي هذا الصدد يقول: «وتولى عمراً لم يكن مرضي السيرة ميمون النقية حتى إذا احتضر فقلت في نفسي لن يعدلها عني ليس بدافعها عني فجعلني سادس ستة فما كانوا لولاية أحد منهم كراهة لولايتي عليهم وكانوا يسمعون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجاجة أبي بكر وأقول يا معشر قريش إنا أهل

ص: 221

1- بشأن موقف عمر من المشورتين راجع تاريخ الطبري 3/ 608 ، 4/ 125

2- المصدر السابق نفسه

بيت أحق بهذا الأمر منكم»(1) فمن خلال علاقته بالسنة الذين رشحهم عمر - أثناء احتضاره - لاختيار واحد منهم لخلافته، يتحدد الاتجاه الذي انبنت عليه سياسة عمر في ذلك الاختيار فيما سمي في التاريخ الإسلامي بالشورى.

#### 4 - الشورى في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة:

لما أصيب عمر بن الخطاب سنة ثلاثة وعشرين وأحس بدنو أجله، حصر اختيار الخليفة من بعده في احد ستة من الصحابة، هم: عثمان بن عفان الأموي، وعلي بن أبي طالب الهاشمي عليه السلام، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيد الله التيمي، والزيبر بن العوام الأسدي، وقد فوض إليهم الاتفاق فيما بينهم على احدهم لذلك المنصب الخطير، اما سبب ترشيحه لأولئك الستة دون سواهم فلكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد مات وهو راض عنهم. ويبدو من خلال دراستنا لتاريخ الفترة ان ذلك الاختيار من قبل عمر لم يكن وليد ساعته. فلقد احس عمر بما يدبر في الخفاء أثناء خلافته حين نمى إليسمعه «أن الزيبر قال: لو قد مات عمر لبايعنا علياً عليه السلام»(2) وكان قوم يقولون «لو قد مات أمير المؤمنين اقمنا فلاناً، يعنون طلحة بن عبيد الله»(3) وجاء مثل ذلك في رواية عن المغيرة بن شعبة(4)، وبطبيعة الحال، فلقد وقف عمر من ذلك موقف المتشدد لقطع دابر تلك النوايا في خطبته بالمدينة بعد قفوله من اخر

ص: 222

1- ابن أبي الحديد: 96/6

2- القسطلاني: ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري 10 / 19

3- المصدر السابق نفسه

4- راجع: العقد الفريد 4 / 281



حجة له بقوله «انه بلغني ان قاتلاً منكم يقول: لو قد مات أمير المؤمنين بايعة فلاناً، فلا يغرن امرؤ ان يقول: ان بيعة أبي بكر فلتة»<sup>(1)</sup>، فما حدث في بيعة أبي بكر من استعجال وسرعة لا يرغب عمر ان يتكرر مرة اخرى، مما يعني انه قد كان يفكر جدياً فيمن سيخلفه، من ذلك كثرة سؤاله عن الشخص المؤهل الذي ترصيه قريش لنفسها من بعده، فقد «روي عن عبد الله بن عباس قال: طرقتي عمر بن الخطاب بعد هدأة من الليل، فقال: أخرج بنا نحرس نواحي المدينة، فخرج وعلى عنقه درته حافياً حتى اتى بقيع الغرقد فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب اخصص قدميه بيده وتأوه صعداً، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عباس، قال: إذا شئت اخبرتك بما في نفسك، قال: غص غواص، ان كنت لتقول فتحسن، قال: ذكرت هذا الأمر بعينه، والى من تصيره، قال صدقت»<sup>(2)</sup>، ثم تذاكر الرهط الستة الذين رشحهم عمر فيما بعد لاختيار الخليفة فيما بينهم، ويبدو ان عمر قد انتقد انه كان يميل كل واحد منهم مما يثلم في أهليته للخلافة<sup>(3)</sup>، ولكن ينتابنا شعور انه كان يميل إلى جانب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أكثر من ميله إلى الاربعة الباقين فمما يرون في شأن عثمان، عن حذيفة بن اليمان «أنه قال: قال لي عمر: من ترى الناس يؤمرون بعدي؟ قال: قلت سمو لها عثمان، قال: فسكت»<sup>(4)</sup> حتى قيل ان أمر عثمان قد اشتهر وطارت به حداة الابل وعمر ما زال حياً، «روي عن حارثة بن

ص: 223

1- تاريخ الطبري 285/3

2- راجع الحديث باكملة في تاريخ اليعقوبي 158/2

3- المصدر السابق نفسه

4- القاضي عبد الجبار - المغني 20 /القسم الثاني/ 30 وقد جاء في انساب الاشراف 214/2 عن حارث قال «حججت مع عمر فسمعت حادي عمر يحدو: ان الامير بعده ابن عفان

مضروب قال: سمعت الحادي يقول: الا ان الأمير بعده ابن عفان»(1).

كان عمر يميل إلى عثمان، وقد شعر علي بن أبي طالب عليه السلام بذلك الميل، واحس منذ الوهلة الأولى التي قبل فيها ان يكون ضمن رجال الشورى، ان الخلافة ستؤول إلى عثمان، فمما يؤثر عنه في ذلك قوله لبني هاشم «ان اطيع فيكم قومكم فلن يؤمروكم ابداً، وتلقاه العباس فقال له: عدلت عنا، قال له: وما اعلمك، قال:

قرن بي عثمان، ثم قال: ان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلاً، فكونوا من الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، لا يختلفون، فلو كان الاخران معي ما نفعاني»(2)، ولا نعتقد أن عمر حين قسم أصحاب الشورى ذلك التقسيم كان لا يدرك أن الأمر سيؤول إلى عثمان، لداريته بأهمية القرابة والعصبية في تشكيل المواقف عند العرب فصيلة القرابة التي تربط عبد الرحمن بن عوف بسعد بن أبي وقاص وبعثمان بن عفان، تجعل علياً عليه السلام في الكفة الخاسرة، هذ على افتراض وقوف طلحة والزبير بجانبه، مع ملاحظة ان طلحة وان كان غائباً يوم الشورى فإنه من المستبعد ان يكون في الكفة التي ترجح علياً عليه السلام بسبب معارضة هذا الاخير لبيعة أبي بكر التيمي نفس الفرع القرشيالذي ينتمي إليه طلحة، لذلك تحقق ما كان علي عليه السلام يتوقعه، وبويع لعثمان بعد ان فوض الاختيار لعبد الرحمن بن عوف الذي اخرج نفسه من الشورى كي يصبح الاختيار في يده»(3)، ولمعرفة عبد الرحمن بأسلوب علي ومبدئه بالإضافة إلى موقفه

ص: 224

---

1- القاضي عبد الجبار - المغني 20 / القسم الثاني/ 30 وقد جاء في انساب الاشراف 2/ 214 عن حارثة قال «حجبت مع عمر فسمعت حادي عمر يحدو: ان الامير بعده ابن عفان»

2- العقد الفريد 4/ 276

3- السابق 4/ 277

الحاسم من خلافة الشيخين، فإنه لم يزو الأمر عنه، إنما اشترط عليه فيما لو بويع له بالخلافة فإن عليه «عهد الله وميثاقه ليعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من قبله»<sup>(1)</sup>، وقد رفض علي عليه السلام النقطة الثالثة من الشرط، لاعتقاده بأحقية اتباع الشيخين له لا باتباعه سيرة الشيخين، فالنقطة تلك موضوعة في الأساس على ما نعتقد - لعلي عليه السلام، لأن عثمان لن يعترض عليها لأنه لم يرفه منافساً للشيخين، ولم تؤثر عنه أية معارضة لخلافتهما، لذلك فقد تحققت مقولة عمر في علي عليه السلام من كراهة قريش اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم<sup>(2)</sup>، كما ان قريش حسب تعبير عمر - لا تحتمل علياً عليه السلام «ولئن وليهم ليأخذنهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة»<sup>(3)</sup>، فالشورى بحسب تخطيط عمر لها، لم تكن رضاً بالنسبة لعلي عليه السلام كما يبدو من قوله «حتى مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم إني أحدهم فيا لله ويا للشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر، ولكنني أسففت إذ أسفوا، وطرت إذ طاروا فصغوا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هن وهن»<sup>(4)</sup>. فتبرم علي عليه السلام بالشورى وعدم رضاه عنها يبدو واضحاً من خلال تعبيراته الهادرة بالغضب، لما اصاب منزلته من استصغار بقبوله الدخول ضمن تلك الشورى وذلك حين قرنه بستة ليس فيهم من يتمكنمن القيام مقامه أو يساويه في منزلته، مع انه يعتقد في قرارته أنه أحق بالأمر من

ص: 225

1- العقد الفريد 4/ 279

2- راجع العقد الفريد 4/ 280، ابن أبي الحديد 12 / 9

3- تاريخ يعقوبي 2/ 159

4- خطب - 3، واسف الرجل: إذا دخل في الأمر الدنيا وأصله من اسف الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه، والضغن: الحقد ومع هن وهن أي مع امور يكنى عنها ولا يصرح بذكرها وأكثر ما يستعمل في الشر

أبي بكر. لقد قبل علي عليه السلام بمحض إرادته أن يدخل في الأمر بدافع المطالبة بحقه، لكن تدخل عامل القرابة في الشورى، وتشبع نفس احدهم بالحق والضعيفة (1)، بالإضافة إلى أمور متفق عليها في الخفاء لم يكشف على عليه السلام النقاب عنها (2) كل تلك العوامل أدت إلى افلات الخلافة منه للمرة الثالثة. كما ان الشورى في حد ذاتها قد احدثت شرخاً عميقاً في الصف الإسلامي، حين اوجدت في الساحة السياسية متنافسين على الخلافة لم يكونوا كذلك من قبل، الا ان ترشيح عمر لهم أعطى كل فرد منهم الثقة في نفسه، وجعله ومن ورائه عشيرته، يعتقد أهليته وصلاحيته للمنصب الخطير، مما احوال المنافسة بينهم إلى صراع دام كلف المسلمين الكثير (فلم يشتت بين المسلمين، ولا فرق اهواءهم ولا خالف بينهم حسب قول معاوية الا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر... لم يكن رجل منهم الا

ص: 226

1- يقول ابن أبي الحديد: ان علياً عليه السلام يعني بالحقاد «طلحة... فأما الرواية التي جاءت بأن طلحة لم يكن حاضراً يوم الشورى، فإن صححت فذو الضغن سعد بن أبي وقاص، لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، والضعيفة التي عنده على عليه السلام من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم وتقلد دماءهم... 189/1، 190

2- اعتقد ان الأمور التي لم يكشف عنها علي عليه السلام وكنى عنها ب «هن وهن» هي الاتفاق فيما بين عبد الرحمن وعثمان ان يرجع الأمر إليه فيما بعد كما يروي صاحب العقد الفريد 4/279 «ان علياً عليه السلام قد قال لعبد الرحمن بن عوف: حبوته محابة، ليس باول يوم تظاهرت فيه علينا، اما واللهما وليت عثمان الا- ليرد الأمر اليك» وقد نشب خلاف بين عبد الرحمن بن عوف وعثمان ادى إلى القطيعة فيما بينهما، وقد ارجع اليعقوبي ذلك الخلاف وتلك القطيعة إلى الأسلوب الذي حاول به عثمان ان يعهد بالخلافة لعبد الرحمن إذ «روي أن عثمان اعتل علة اشتدت به، فدعا حمران بن ابان، وكتب عهداً لمن بعده، وترك موضع الاسم ثم كتب بيده: عبد الرحمن بن عوف، وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان، فقراه حمران في الطريق، فأتى عبد الرحمن فاخبره، فقال عبد الرحمن وغضب غضباً شديداً: استعمله علانية ويستعملني سرا» تاريخ اليعقوبي 2/169

رجاها لنفسه ورجاها له قومه... ولو ان عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف»<sup>(1)</sup>. وبرغم الافرازات الخطيرة التي تنبأ بها علي عليه السلام جراء الشورى إلا أنه من أجل وحدة المسلمين بايع طائعاً بعد ان قال في محضر من جماعة الشورى وحشد من المسلمين «لقد علمتم اني احق بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن فيها جور الا على نفسي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة»<sup>(2)</sup>، وعلى أساس بيعته الطوعية تلك يمكننا تتبع فكره أثناء حكم عثمان.

## 5 - موقف الإمام علي عليه السلام من حكومة عثمان:

يبدو ان الدسائس قد لعبت دورها لتفريق بين عثمان وعلي عليه السلام، كما مهدت السبل لاغتيال الثالث في ظروف يمكن معها اقضاء علي عليه السلام من المسرح السياسي، وتهيئ الجو المناسب لاستمرارية السلطة في الأمويين عشيرة عثمان، فلقد حاولت فئة من أصحاب المصالح تشوير عثمان على علي عليه السلام فأفلحت إلى حد بعيد<sup>(3)</sup> وتباين المواقف الفكرية في العصر الحديث من علاقة علي عليه السلام بعثمان

ص: 227

1- العقد الفريد 4 / 181

2- خطب - 73

3- من ذلك إقبال عثمان على عبد الله بن عباس بقوله «مالي ولكم يا ابن عباس، ما اغراكم بي واولعكم بتعقب امري، اتقمون علي أمر العامة؟ أتيت من وراء حقوقهم أم امركم، فقد جعلتهم يتمنون منزلتكم، لا والله لكن الحسد والبغي وتشوير الشر واحياء الفتن... فقال ابن عباس: على رسلك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جهراً بسررك ولا- مظهراً ما في نفسك، فما الذي هيجك وثورك؟ أنا لم يولعنا بك أمر، ولا نتعقب أمرك بشيء، أتيت بالكذب وتسوف عليك بالباطل... فما دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك؟ قال دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي طالب عليه السلام فقال ابن عباس وعسى أن يكذب مبلغك. قال عثمان: انه ثقة. قال ابن عباس: انه ليس بثقة مع بلغ واغرى» الزبير بن بكار - الأخبار الموفقيات 604 و 605

تعكس تلك الصورة، فقد اعتبر احد المستشرقين ما حدث بين علي عليه السلام وعثمان من مشادات كلامية بداية تشكل معارضة علي بن أبي طالب عليه السلام (1) بينما اتهم دارس اخر علياً عليه السلام وبعض الصحابة ببغض عثمان والكيد له، والنقمة عليه حين اعتبر علياً عليه السلام وطلحة والزبير «على رأس الناقمين على عثمان» (2)، واعتبر دارس ثالث علياً عليه السلام من الذين وقفوا من عثمان موقفاً محايداً «فلم يدافع عنه ولم يعن عليه» (3)، ويرى آخر انه «كان عليه السلام مخلصاً لعثمان مدافعاً عنه مليباً لدعوته ماداً إليه يده ومعونته عند الحاجة» (4)، وهناك أيضاً رأي خامس يعتبر علياً عليه السلام «ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبتة عن قلوب رعاياه، ناصحاً للخليفة بإقضاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها» (5).

وإذا ما استقتينا (نهج البلاغة) لمحاكمة تلك الآراء المتضاربة فس نجد ان الرايين الاخيرين المتمثلين في نصح عثمان والمدافعة عنه ونقد سياسته، هما اللذان ينطلق منهما فكر علي عليه السلام السياسي تجاه عثمان وحكومة، إذ لم يؤثر عن علي عليه السلام الجنوح إلى السلبية في مواقفه السياسية على اعتبار ان النصح للدين مبدأ لا يحيد عنه، وذلك ليس من باب المعارضة أو الثورة طمعاً في السلطة، إذ لو كان السلطة .

ص: 228

1- راجع بلا شيرتاريخ الأدب العربي 14/1

2- نبيه عاقل: خلافة بني أمية ص 14

3- عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب عليه السلام ص 287

4- محمد رضا: الإمام علي بن أبي طالب ص 51

5- عباس العقاد: عبقرية علي، ص 63

غايته لقبها بشرط عبد الرحمن بن عوف «العمل بسيرة الشيخين»<sup>(1)</sup>، حين عرضت عليه قبل المبايعة لعثمان على اعتبارها حيلة سياسية، ولكن الغاية في فكر علي عليه السلام وضع تعاليم الإسلام في مسارها الصحيح في ضوء القرآن والسنة، ففي رده على رسالة وردت إليه من معاوية يتهمه بالتأليب على عثمان والمشاركة في قتله يقول «وما كنت لاعتذر أني كنت أنقم عليه أحداثاً، فإذا كان الذنب إليه ارشادي وهدايتي له، فربّ ملوم لا ذنب له: (طويل) وقد يستفيد الظنة المتتصح»<sup>(2)</sup>.

وما اردت الا الاصلاح ما استطعت، (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)<sup>(3)</sup>، فاللوم الموجه لعلي عليه السلام - كما يبدو من قوله لم - يكن بسبب تخليه عن عثمان أو لكراهيته له أو معارضة خلافته، ولكنه بسبب نصحه لعثمان، ومحاولة ارشاده، وفضح أساليب بطانته التي استغلت اموال المسلمين لأجل مصالحها الذاتية. فلو قبل من الأموال ما قبله غيره وتعامى عما احدهه ولاة عثمان في الامصار الإسلامية، لما وجه إليه أي اتهام، ويمثل وجهة نظره تلك قوله لأبي ذر لما وجهه عثمان إلى الربذة<sup>(4)</sup> المتضمن اشادة علي عليه السلام بثبات أبي ذر على مواقفه الراضية لكل المغريات المادية ومهاجمته العنيفة لسياسة البذخ التي كان الأمويون يتبعونها بموافقة الحاكم، وتنبع إشادة علي عليه السلام تلك من مبدئه

ص: 229

1- راجع ص 198 وما بعدها من هذا البحث

2- هو عجز لبيت صدره: وكم سقت في آثاركم من نصيحة. قائله مجهول: المبرد: الكامل 4/ 126

3- رسائل - 28 فقرة 7 والآية في السياق من سورة هود / 88

4- راجع خطب - 130 ، والرَبْذَةُ بفتح الراء والباء والذال: من قرى المدينة، راجع معجم البلدان 3/ 24

الفكري والتزامه الأخلاقي الذي قد يتحمل في سبيله كل التضحيات إذا ما دعت الحاجة بذلك وكان يعيب على عثمان امرين هما:

1 - الولاة وأحداثهم في الأمصار الإسلامية.

2 - طريقة عثمان في التصرف في الأموال العامة.

وهما الأمران اللذان نعيهما عليه كثير من الصحابة وثوار الامصار.

فعن مراقبة الولاة وأخذهم بالحزم والشدة، صيانة للعدل، وحفاظاً على مصالح المسلمين يقول عثمان لعلي عليه السلام: «أنشدك الله يا علي، هل تعلمان المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم ان عمر وياه؟ قال: نعم، قال: فلم تلومني ان وليت ابن أبي عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي عليه السلام: ان عمر يطاء صماخ من ولي ان بلغه عنه حرف جلبيه، ثم بلغ به اقصى العقوبة، وانت لا تفعل، ضعفت، ورفقت على اقربائك... قال عثمان: هل تعلم ان عمر ولي معاوية، فقد وليته، فقال علي عليه السلام: أنشدك الله، هل تعلم ان معاوية كان اخوف لعمر من يرفأ غلام عمر له؟ فقال: نعم، قال علي عليه السلام: ان معاوية يعطي الأمور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه؟» (1) فتولية عثمان قرابته وتساهله معهم، وغضه عن كثير من تصرفاتهم، جعلهم يستغلون حبه لهم بالتممر على الطبقات المستضعفة من المسلمين، مما حدا باللقاء اللوم عليه شخصياً وانتقاده، فعلي عليه السلام لا يرى مجالاً للمقارنة بين سياسة عمر تجاه ولاته، وبين سياسة عثمان تجاه ولاته، وان كان احدهم وهو معاوية، قد ولي الشام من قبل عمر فأقره عثمان عليها، فمراقبة عمر لولاته غاية في الحزم، بحيث بلغت

ص: 230

1- ابن الاثير: الكامل في التاريخ 76/3



في كثير من الأحيان ايقاع العقاب عليهم(1)، ومصادرة بعض ثروتهم التي يجمعونها أثناء عملهم له(2)، وهذا ما لم يفعله عثمان مع احد ولا ته قط، وذلك ما نعه علي عليه السلام على سياسة عثمان في ادارة الولايات بتعيين ولاة من أهله.

اما من حيث السياسة المالية، فقد تصرف عثمان وولايته باموال المسلمين تصرفاً لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عن الشيخين من بعده من ذلك انه أعطى «عبد الله بن خالد بن اسيد صلة مقدارها أربعمئة الف، وتصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمهزور موضع سوق بالمدينة على المسلمين، فأقطعها الحارث بن الحكم اخا مروان واقطع فدك مروان وهي صدقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واقطع افرقية وأخذ خمسة فوهبه لمروان»(3) كما اعتبر سعيد بن العاص والي عثمان على العراق ما افاء الله على المسلمين من ضياع لقريش وحدهم وذلك في قوله في جمع من قراء الكوفة «السواد بستان قريش، فما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»(4)، لذلك لم يكن يوسع علي عليه السلام ولا غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يسكتوا عن هذه السياسة بعد ان زكمت الأنوف رائحتها، وانتشر التبرم منها بين عامة المسلمين، فاول من وجه اللوم لعثمان على تلك السياسة عبد الرحمن بن عوف الذي بايع له بالخلافة، فدخل عليه معاتباً بقوله «انما قدمتك على ان تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخالفتها وحاببت أهل بيتك، وأوطأتهم رقاب المسلمين، فقال: ان عمر كان يقطع قرابته في الله وانا أصل قرابتي في الله، قال عبد الرحمن:

ص: 231

1- لمعرفة ما يوقعه عمر بن الخطاب من عقاب على المنحرفين عن الجادة من عماله راجع: ابن أبي الحديد 26 / 12

2- حول مصادرات عمر لعماله، راجع ابن أبي الحديد 42 / 12 - 43

3- ابن عبد ربه: العقد الفريد 284 / 4

4- راجع تاريخ الطبري 323 / 4، ابن الاثير: الكامل في التاريخ 70 / 3، ابن أبي الحديد 21 / 3

البلاغة لله علي الا اكلمك أبدا»(1). فإذا كان موقف عبد الرحمن بن عوف من سياسة عثمان موقفاً سلبياً اتخذ جانب السكوت والمقاطعة، فإن علياً عليه السلام لم يجد في ذلك ما يعود على الأمة بالصلاح، وعلى الخليفة بالرشاد، فاتبع أسلوباً ناقداً، مما أدى في كثير من الأحيان إلى المجابهات الكلامية بينه وبين عثمان الذي لم يفلح في إسكاته بإغرائه المال(2).

فنقد علي عليه السلام لسياسة عثمان عامة وسياسته المالية على وجه الخصوص، نابع من مبدأ إسلامي هو لب السياسة الإسلامية والمرتكز الذي تعتمد عليه في بناء شخصية الفرد المسلم ذي الفكر الحر، فيقول الحق بصراحة وصدق دونما رهبة ولا رغبة، ذلك هو مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(3).

والحقيقة التي لا مرء فيها ان عثمان كان كثيراً ما يستجيب لنصح علي عليه السلام، ويستمتع لنقده، ويحاول العمل بمشورته، الا ان وقوعه تحت تأثير مروان ومن شايعه من بين أمية، هو ما يحول بينه وبين ذلك، وقد التفت العباس بن عبد المطلب إلى ضعف شخصية عثمان وتأثير أهله عليه بقوله «ما هذا يعني عثمان ... من أمره من شيء»(4)، لذلك بدت الهوة سحيقة جداً بين وجهة نظر علي عليه السلام ووجهة نظر عثمان، بحيث يستحيل التوفيق بينهما حتى قيل أنه «لا سبيل إلى صلحهما»(5). فبعد أحداث الحصار ومقتل عثمان والمبايعة لعلي عليه السلام

ص: 232

1- العقد الفريد 280/4

2- راجع الزبير بن بكار: الأخبار الموقفيات ص 612، فقد تحدث عما عرضه عثمان على علي عليه السلام من مال في سبيل ارضائه ورفض علي عليه السلام ذلك المال، وما قام به عثمان تجاه علي عليه السلام حين رفضه

3- راجع ص 368 - 369 من هذا البحث

4- الأخبار الموقفيات ص 611، 617

5- السابق

بالخلافة، يستعرض في أول خطبة له بالمدينة تاريخ الخلافة في عجالته، ثم يقف عند عثمان، ناعياً عليه تصرفه في أموال المسلمين ووضعه أياها في غير استحقاقها مشبها إياه بالغراب في قوله «سبق الرجلان، وقام الثالث كالغراب همته بطنه، يا ويحه لو قص جناحاه، وقطع راسه لكان خيراً له»<sup>(1)</sup>، وقص الجناح وقطع الرأس لا يعني التحريض على القتل كما يظن ولكنه يعني كما نعتقد المعالجة الحكيمة لسياسة التصرف في المال، بقطع دابر القيل والقال، والنأي بالنفس عن الشبهات، ووضع الأموال في المواضيع التي أرادها الله، دون تمايز في توزيعها، لأن الحاكم في مركزه ذلك لا يمثل عشيرته وقومه، وإنما يمثل الأمة بأسرها، مما يحتم عليه ان يسمو بنفسه عن العصبية العشائرية فتساوى الناس عنده في الحقوق والواجبات، فالقص والقطع في النص - كما نفهمها - إنما يقصد منهما انه كان من المتوقع على عثمان النظر إلى مكانته كراس للمسلمين لا كراس لبني أمية، وهو ما لم يكن عثمان يدرك ابعاده من خلال تأمله في مركزه الجديد بعد ان بويع له بأن يكون حاكماً فاختلطت عليه الأمور «وقام معه بنو ابيه يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع، إلى ان انتكث عليه فتله، واجهز عليه عمله»<sup>(2)</sup>، إذ يفهم من ذلك ان الذي أودى بحياة عثمان ليس الشوار الذين حصروه، لأن أولئك لم يكونوا سوى افرات لسياسة مدبرة لم يكن الحاكم المقتول يعي ابعاده، لأن البطانة التي احاطت به قد حجبت عنه الحقيقة وحالت بينه وبين سماع صيحات السخط من حوله. وقد بذل علي عليه السلام كل طاقته لإيصال تلك الصيحات إلى سمع الحاكم، ولكن نفسية عثمان لم تكن مهياً لسماع أية نصيحة،

ص: 233

---

1- الجاحظ: البيان والتبيين 2/ 51، العقد الفريد 4/ 67، وقد ورد في الخطبة الشقشقية خطب 3 فقرة 2، من النقد ما هو اشد من ذلك

2- خطب - 3

خاصة من علي عليه السلام، لما نمته إليه بطانة السوء حوله بأن علياً عليه السلام انما يقوم بدورالناصح حسداً ونكاية لإظهار عيوب الحاكم للناس لتثويرهم حتى يتسنى له الوصول إلى السلطة، وما تمثل به عثمان من شعر في احدى خطبه مومناً لعلي عليه السلام فيه دلالة على ذلك الاعتقاد الذي بلغ من عثمان حداً لا يمكن معه ازالته من نفسه: (طويل)

توقد بنار اينما كنت واشتعل \*\*\* فلست ترى مما تعالج شافيا

تشط فيقضي الأمر دونك أهله \*\*\* وشيكا ولا تدعى إذ كنت نائيا(1)

فالتمثيل بالبيتين يدل على موقف عثمان الراض لكل نصح أو نقد أو استشارة مصدرها علي عليه السلام، اما الخلافة فلن ينالها علي عليه السلام وسوف يقضي فيها أهل الحل والعقد، دون ان يكون علي عليه السلام طرفاً فيها، ولا حتى في المشاورات التي على اساسها يبايع للحكم.

الا ان التصلب من ناحية عثمان كان يقابله اللين والرفض من جانب علي عليه السلام الذي لم يمتنع من الوقوف بجانب الحاكم أثناء محنته العصبية حين حصره الثوار، فقد تحمل السفارة بينه وبينهم، ينقل مطالبهم والتفاوض عنهم في محاولة منه لمنع انتشار الفتنة، من ذلك قوله لعثمان «ان الناس ورائي، وقد استسفروني

ص: 234

---

1- الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص 603، وقد ذكر البيتين ضمن خطبة لعثمان مشحونة بالسخط والغضب على منتقدي سياسته المالية. «وكانه يومي فيهما إلى علي عليه السلام» بحسب رواية الزبير بن بكار، ثم ان ما دار من جدل بين عثمان وبين عبد الله بن عباس حول فحوى الخطبة بعد فراغ عثمان منها ورجوعه إلى بيته يرجح ان معاني الخطبة كانت موجهة إلى الهاشميين عامة والى علي عليه السلام على وجه الخصوص، راجع ذلك الجدل الذي بلغ حد النزاع الزبير بن بكار الأخبار الموفقيات ص 604 وما بعدها

بينك وبينهم، ووالله ما ادري ما اقول لك، ما اعرف شيئاً تجهله، ولا ادلك على أمر لا تعرفه... فلا تكونن لمروان سيقية يسوقك حيث شاء، بعد جلال السن وتقضي العمر... (فقال عثمان مستجيباً لسفارته كلم الناس ان يؤجلوني حتى اخرج إليهم في مطالبهم) (1)، إلا أن البطانة التي التفت حول عثمان قد حالت بينه وبين الاستماع إلى شكاوى الناس وتظلماتهم، بل تمادت بعض الايدي الخفية - في دسها على الحاكم - ان تزور كتاباً إلى عامله على مصر يتقضى كتاب الحاكم في عزل ذلك الوالي استجابة لأهالي مصر، ودبرت من المكر ما يمكن معه ان يقع الكتاب في ايدي أولئك الثوارالقافلين إلى ديارهم بعد ان حصلوا على مطالبهم، وذلك بقصد ارباك الحاكم والايقاع به لتشتيت أمر المسلمين وتفتيت وحدتهم حتى يفلت زمام السلطة من ايديهم، مع ان الضامن لما في كتاب عثمان الأصلي من شروط هو علي بن أبي طالب عليه السلام بشهادة بعض الصحابة، فلما واجه علي عليه السلام عثمان بالكتاب المزور عليه والمختوم انكر ان يكون قد كتبه، وقد صدقه علي عليه السلام ومن معه وعرفوا من الخط ان كاتبه مروان هو الذي زوره على الحاكم، فطالبوا عثمان بتسليمه إليهم لاستجوابه، وكان عنده في الدار، ولكن عثمان أبي عليهم ذلك وأصر على عدم تسليمه إليهم، فغضب علي عليه السلام ومن معه من الصحابة (2) فتركوه وشأنه مع الثوار فشدوا حصارهم على داره، وبعض افراد

ص: 235

1- خطب - 165 ، وجاء مثله في تاريخ الطبري 4/ 337 ، العقد الفريد 4/ 308

2- توسط علي عليه السلام بين عثمان وبين الثوار من اهالي مصر وذلك بطلب من عثمان نفسه على ان ياخذ علي عليه السلام منه عهداً غليظاً وميثاقاً مؤكداً بأن يستجيب لكل طلب عادل ومعقول يطلبونه وبالفعل فقد افلحت وساطة علي عليه السلام وتولد عنها كتاب فحواه «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله عثمان بن عفان لجميع من نقم عليه من أهل البصرة والكوفة واهل مصر، ان لكم علي ان اعمل فيكم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وان المحروم يعطى والخائف يؤمن والمنفي يرد، وان المال يرد على أهل الحقوق وان يعزل عبد الله بن سعد بن أبي السرح عن أهل مصر ويولى عليهم من يرضون، قال أهل مصر: نريد ان تولي علينا محمد بن أبي بكر، فقال عثمان: لكم ذلك، ثم أثبتوا في الكتاب «وأن علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن بالوفاء لهم بما في هذا الكتاب، شهد على ذلك الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، ابن أعثم الكوفي الفتوح 2/ 410 . أما عن طلب عثمان وساطة علي عليه السلام بينه وبين الثوار، وكيف استطاع مروان بن الحكم أن يثني عثمان عما وعد الناس به من وعود فراجع تاريخ الطبري 4/ 358 وما بعدها وراجع أيضاً تاريخ الطبري 4/ 180 حول طلب عثمان من علي عليه السلام مساعدته في رد الناس عنه بعد أن ضيقوا عليه الحصار، ثم عدوله عما اشترطه على نفسه بعد أن فك الثوارالحصار عن داره

قريش يساعدونهم في الخفاء على ذلك(1) ، الا ان غضب علي عليه السلام وسخطه من تصرف عثمان بشأن مروان لم يمنعه من تقديم النصح إليه، فقد كان عثمان يظن وهو محصوران من الأسباب التي البت الناس عليه وجود علي عليه السلام تحت اعينهم بالمدينة، خاصة وان كثيراً من الثوار المحاصرين لدارالحاكم قد كانوا يهتفونباسم علي عليه السلام، للخلافة(2) ، مما ادى بعثمان إلى الحيرة بتصرفه إزاء علي عليه السلام، فتارة يطلب منه مبارحة المدينة وتارة أخرى يدعوه للقدوم حين تدعو الحاجة لطلب المعونة في الذب عنه، حتى ان علياً عليه السلام قد ضاق ذرعاً من تصرفات عثمان تلك، فقال لعبد الله بن عباس متبرماً لما قدم إليه بأمرعثمان بمبارحة المدينة «ما يريد عثمان الا ان يجعلني جملاً ناضجاً بالغرب، اقبل وادبر، بعث الي ان اخرج، ثم بعث الي ان اقدم، ثم هو الان يبعث الي ان اخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت ان اكون اثماً»(3) ، لقد حاول علي عليه السلام جاهداً ان يدفع عثمان ولكن تيار

ص: 236

1- راجع موقف طلحة بن عبيد الله من عثمان وهو محصور وما أمر به الثوار الكامل في التاريخ 87/3

2- راجع مقدمة الخطبة - 165

3- خطب - 215 . وورد مثل ذلك القول عند ابن عبد ربه في العقد الفريد 4/310 بزيادة منها «فخرج علي عليه السلام إلى ينبع فكتب إليه عثمان حين اشتد الأمر: اما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوزالحزام الطبيين، وطمع في من كان يضعف عن نفسه» (طويل والبيت لا مرئ القيس): فإنك لم يفخر عليك كفاخر \*\*\* ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب فأقبل الي على أي أمر احببت، وكن لي أم علي، صديقاً كنت أم عدواً (طويل والبيت للمزق العبدى): فإن كانت مأكولاً فكن خيراً \*\*\* كل وإلا فادركني ولما أمزق

فنقد علي عليه السلام لعثمان ولسياسته، وارتياب عثمان في نوايا علي عليه السلام الصادقة تجاهه لم يمنع علياً عليه السلام من الدفاع عن عثمان، ولكن السياسة الملتوية ابت الا ان تلصق دم عثمان بعلي عليه السلام وذلك بعد البيعة له بالخلافة مباشرة، لأن مصلحة من اذكوا نار الفتنة من بني أمية وغيرهم من القريشيين تقتضي ذلك، فمما يؤثر عن مروان بن الحكم قوله «ما كان في القوم احد ادفع عن صاحبنا من صاحبكم يعني علياً عليه السلام عن عثمان قال: فقلت له: فما لكم تسبون علي المنابر؟ قال: لا يستقيم الأمر إلا بذلك»<sup>(1)</sup>. فمناهضة علي عليه السلام ورفض تقده ومحاولة اخماد صوته أثناء حكومة عثمان كان الهدف منه علي ما نعتقد محاولة اقصائه عن الحياة السياسية، وعدم تمكينه من الخلافة، ولكن الظروف السياسية أبت إلا أن يكون رجل الساعة المتقد بالنسبة للفئات المغلوبة على أمرها من عامة المسلمين مما يتعارض مع ما كانت الارستقراطية القرشية تتبغيه، وذلك بزعامة بني أمية عشيرة عثمان، فعملت جاهدة على إفشال مخطط علي عليه السلام السياسي بتوجيه الاتهامات الباطلة إليه، وهذا ما يمكن تتبعه من دراستنا لفكر علي عليه السلام السياسي في تعامله مع المناهضين لحكومته والناقمين على سياسته.

ص: 237





- البيعة لعلي عليه السلام بالخلافة:

لم يكن بوسع احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتحمل عبء الخلافة وتركاتها الثقيلة، بعد مقتل عثمان بن عفان، لأن الحياة في المدينة قد آلت إلى الفوضى والاضطراب بحيث لم يعرف أي فرد موضع قدمه، كما ان اختلاط الأمور جعل الكثير لا يميز بين الصبح والخطأ، فلقد ملك الثوار على الناس كل مسلك، وفقدت الخلافة قدسيتها وهيبتها، وظلت المدينة في الأيام الخمسة التي تلت مقتله بدون امام (1)، واستتر رؤوس الصحابة في بيوتهم هروباً من الاتهام بالتحريض والفتنة، وظل جثمان عثمان ثلاثة أيام دون ان يوارى الثرى خوفاً من سخط الشوار، ولما سمع بعض الثائرين عليه بأنه سيدفن «فعدوا له في الطريق بالحجارة... فلما خرج به على الناس، رجموا سريره، وهموا بطرحه» (2)، فكل

ص: 239

---

1- يروي الطبري في تاريخه ان المدينة بقيت «بعد قتل عثمان خمسة أيام واميرها الغاقي بن حرب يلتمسون من يجيهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه»

تلك الاحداث تعني ان وضع الأمة الإسلامية قد تعقد للغاية بحيث لم يعد بوسع احد ان يتصدى لتلك الفتنة، وإعادة الأمور إلى نصابها، بالقود للحاكم المقتول، وتأمين أهل المدينة مما اعتراهم من خوف وهلع، فلا بد لذلك الظرف الدقيق الحساس من رجل حازم، يستطيع ان يقود الأمة إلى بر الأمان، فوقع اختيارهم على علي عليه السلام. لقد تردد علي عليه السلام كثيراً قبل ان يستجيب لنداءات الناس الملحة من كل صوب(1) واضعاً نصب عينيه أمرين:

الأول: مسؤول إخماد الفتنة والقود من قتلة عثمان وتأمين الناس.

الثاني: العدل في العطاء.

ويحتاج الأمر الأول إلى الحكمة والتؤدة وسعة الصدر لاستئلال ما في نفوس العامة من غيظ، مع الصبر في معالجة القضايا حتى تنكشف الجوانب المبهمة، لمعاقبة الجناة والعودة بالحياة إلى طبيعتها. ولكن رفض طرفي النزاع الجاني وأهل المجني عليه لتلك السياسة المرحلية المتأنيبة سيؤدي إلى وضع الأمة على طريق غامض مظلم، لتعارض اهداف طرفي النزاع، مما يعني ان قتل عثمان لم يكن الا بداية خطيرة كامنة في النفوس.

اما الأمر الثاني في تحقيق العدالة، فهو وان كان مطمع الثوار والفئات المستضعفة الناقمة على سياسة عثمان، الا أنه يتعارض تماما وطموحات القرشيين من امثال طلحة والزبير(2) الذين اذكوا نار الفتنة ضد عثمان لما وجدوا ان بين

ص: 240

1- راجع تاريخ الطبري 4/ 427 ، 428

2- من أجل معرفة دور الزبير وطلحة في فتنة عثمان راجع قولهما في ص 253 وما بعدها من هذا البحث

أمية قد استأثروا دونهم بالمال، لأن سعيهم في الخفاء، وان كان في الظاهر من أجل الحرص على مصالح الناس، فقد كان من أجل مصالحهم الذاتية، ثم ان قبولهم بالحق سيعرضهم للعقاب لأنهم، وان لم يباشروا قتل عثمان، فإنهم قد هبأوا الظروف المناسبة لقتله بتأليب الثوارعليه. لذلك حاول علي عليه السلام رفض الخلافة مبيناً وجهة نظره في مستقبل الأمة بعد ان عايش ما انتاب المجتمع الإسلامي من هزات عنيفة عقيب مقتل عثمان، مما ادى إلى تهرب جميع الصحابة من المسؤولية التي عبر عنها في احدى خطبه بالغموض، لتعدد وجوهها، وتشكل الوانها، مما جعل العقول لا تستوعبها لما اكتنفها من تشويش، حجب الحقيقة خلف غيوم كثيفة داكنه(1).

وفي مثل هذا الجو المضطرب، لابد من منقذ يخرج الأمة من مأزقها الخطير، ولابد ان يكون ذلك الإنسان مرضيا عند جميع عامة المسلمين، لا عند فئة معينة من الأستقراطية القرشية. لذلك فمن الأرجح ان تردد علي عليه السلام في قبول الخلافة، هو خشيته من عدم اتفاعة في الرأي من حيث سياسة توزيع المال مع تلك الفئة، التي لن ترضى بسياسة تتعارض ومصالحها. وحتى يحتاط لنفسهم من الدخول مع تلك الفئة القرشية في مواجهة، فيما لو اضطر لقبول الخلافة، امثالاً- للاحاح عامة المسلمين، كان قوله «واعملوا اني ان اجبتكم ركبتم بكم ما اعلم، ولم اصغ إلى قول القائل وعتب العاتب»(2)، ولقد قبلت تلك الفئة شرطه ذاك على دخن، بينما قبلته عامة الناس بابتهاج وسرور، ولكن علياً عليه السلام لم يَرِ بدأً من التريث والنظر في واقع الأمة نظرة المتأمل، المتفكر في عواقب قبوله

ص: 241

1- راجع خطب - 91

2- راجع خطب 91

لقيادتها(1)، إلا ان الحاح الجماهير كما يبدو كان أقوى من تريثه وتردده، فكانت البيعة له بالخلافة رغم امتناعه كما وصف ذلك في قوله «وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتتها»(2). فالبيعة لعلي عليه السلام انعقدت له باقتناع تام وطواعية وسرور«وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه... ثم بايعه الزبير وسعد واصحاب النبي جميعاً»(3). ويستنتج من وصف علي عليه السلام لبيعته أن أكثر الناس استبشار بها، الطبقات المستضعفة من المسلمين الذين وجدوا فيه الضامن لحقوقهم من غير محاباة لقريب أو تمييز بين مسلم وآخر بالأسبقية والصحبة، كما كانت استجابة الامصار الإسلامية لبيعته سريعة فيما عدا الشام(4) التي كانت تحت ولاية معاوية، مما يدحض القول بأن اكتفائه ببيعة الثوار واهل المدينة دون

ص: 242

1- جاء عند ابن أعثم الكوفي في الفتوح 432/2 أنه لما رضي جمهور الناس بالبيعة لعلي عليه السلام بالخلافة قال لهم «أخبروني عن قولكم هذا رضينا به طائعين غير كارهين، أحق واجب هذا من الله عليكم أم رأي رأيتموه من عند أنفسكم؟ قالوا: بل هو واجب أوجهه الله عز وجل علينا، فقال علي عليه السلام فانصرفوا يومكم هذا إلى غد... فلما كان من الغد أقبل الناس إلى المسجد، وجاء علي بن أبي طالب عليه السلام فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الأمر أمركم فاختراروا لأنفسكم من أحببتهم، وأنا سامع مطيع لكم... فصاح الناس من كل ناحية وقالوا: نحن على ما كنا عليه بالأمس» فلقد أعطى علي عليه السلام لنفسه فرصة للتفكير كما أعطى للناس فرصة لمراجعة أنفسهم قبل الإقدام على بيعته كما نلاحظ من الرواية

2- خطب - 226 المطلع

3- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة 47/1، وراجع أيضاً ابن أعثم الكوفي: الفتوح 431/2، العقد الفريد 310/4

4- راجع موضوع: تفريق علي عليه السلام عماله على الامصار بتاريخ الطبري 442/4، وراجع أيضاً ابن أعثم الكوفي 435/2 وما بعدها

سائر الامصار هو السبب في عدم الاعتراف بخلافته(1) فالقضية التي كانت تشغل علياً عليه السلام وتقلقه، ليست بيعة الامصار كما نرى ولكن كيفية التعامل مع رجال السياسة من الصحابة وغيرهم من علية القوم، الذين يرون لأنفسهم احقية التفضل ماديا ومعنويا على غيرهم من افراد الامة، خاصة ان سياسته التي اعلن عنها، في خطبته الأولى، بعد المبايعة له لا- تتناسب وطموحات تلك الفئة فقوله «ان الله سبحانه انزل كتاباً هادياً، بين فيه الخير والشر، فخذوا الخير تهتدوا، واصدقوا عن سمت الشر تقصدوا... الفرائض الفرائض ادوها إلى الله تؤد بكم إلى الجنة، ان الله حرم حراماً غير مجهولٍ واحل حلالاً غير مدخولٍ»(2).

يعني الغاء الامتيازات والمفاضلة، والالتزام التام بالعمل بما جاء في الكتاب والسنة والمساواة التامة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات، لأن الإسلام مسؤوليه التزامية، تعني اندماج طبقات المجتمع، في كل متكامل يزيل التمايز ويعطي لكل حق حقه، وذلك بالطبع لا يرضي أصحاب الطموحات المادية من القرشيين الذين يريدون خليفة يحافظ على امتيازاتهم ومكاسبهم أو على الأقل يترك لهم في ايديهم ما جنته من مغنم واستأثرت به من مال على حساب المستضعفين باسم الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقراية منه، ولكن تصميم علي عليه السلام

ص: 243

1- يقول شلبي أبو زيد في كتابه: الخلفاء الراشدون ص «156 لم ينتظر علي عليه السلام حتى بايعه أهل الامصار ظنا منه ان بيعة أهل المدينة والثوار كافية في جعل أهل الامصار يعترفون بخلافته» وقد تناسى المؤلف ان الخلفاء الراشدين الثلاثة قد انعقد لهم البيعة وصحت خلافتهم ببيعة أهل المدينة، كما انه تجاهل في تحليله للاحداث ان جميع الامصار الإسلامية قد ارسلت ببيعتها للخليفة في المدينة فيما عدا الشام

2- خطب - 168 ، فقرة 1

على تجريد أولئك مما غنموه من أموال وضياع من غير استحقاق(1)، والمحاولة من حد اطماعهم جعلهم يتألبون عليه ويحرضون الناس على محاربتة لعرقلة سياسته تلك، وقد استخدموا شتى الوسائل للوصول إلى غايتهم من ذلك:

- مطالبتهم إياه بالاقتصاص من قتلة عثمان في حينه، أي بعد توليه الخلافة مباشرة، لادراكهم ان ذلك لا يمكن تحقيقه الا بعد ان تهدا النفوس وتتجلى الحقيقية(2).

- التغاضي عما حققه الأمويون من مكاسب على حساب المسلمين أثناء حكم عثمان وهو ما لا يتسق والسياسة الدينية التي ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، مما جعله يرفض مطالبهم في اقراره لهم ما جنوه من اموال في حكم عثمان مقابل اقرارهم بالولاء له(3)، ومحاولة طرف ثان جنى مكاسب مادية على حساب الاقرار له بالخلافة كطلب طلحة والزبير الولاية(4)، وطلب معاوية اقراره على ولاية الشام(5) وهو ما يتعارض في اختيار ولاته ممن يرتضيه لدينه، لذلك لما يش أولئك من حصولهم على ما ينتغون لجأوا إلى الحل المسلح عليهم يدركون من علي عليه السلام ما لم يدركوه منه بالاكتيال «فنكثت طائفة ومرقت اخرى، وقسط آخرون»(6).

ص: 244

1- راجع مقولته في رد فطائع عثمان - خطبة 15

2- راجع مقولته في ذلك خطب 169

3- راجع ص 257 من هذا البحث وما بعدها

4- راجع ص 253 من هذا البحث وما بعدها

5- راجع ص 270 من هذا البحث

6- خطب 3

وقد تتبعت نصوص (نهج البلاغة) الفئات الثلاث التي ذكرها علي عليه السلام في خطبته السابقة وهي: الناكثون والقاسطون والمارقون.

## أولاً: الناكثون - أي أصحاب الجمل:

النكث بفتح الفاء - لغة: هو المخالفة بعد اظهار الاتفاق و «نكث العهد والحبل فانكث، أي نقضه فانقض»<sup>(1)</sup> والناكثون الذين يعينهم علي عليه السلام «هم أهل وقعة الجمل لأنهم كانوا بايعوه ثم نقضوا بيعته وقاتلوه»<sup>(2)</sup>، إذ لم يقبل طلحة والزبير سياسة علي عليه السلام التي لا تتفق ومصالحهما التي من اجلها ثورا الناس على عثمان، ومهدوا لقتله، لاستئثار اسرته بالثروات وولاية الامصار، ثم ان علياً عليه السلام لم يحقق لهما ما كان يطمحان إليه من ولاية فاستنجدا «في محاربتة وتاليب الناس عليه بعائشة»<sup>(3)</sup> بحجة استبداده بالحكم دون مشورة المسلمين، وإيوانه قتلة عثمان، فكان التظاهر عليه بقصد خلعه ورد الأمر شورى ليختار المسلمون خليفتهم<sup>(4)</sup>، والثأر لعثمان، ولكن أبعاد القضية - كما يراها علي عليه السلام - ليست حسب ما يدعيان، لأن الهوى، وعدم التبصر في العواقب هو الذي جعلها العوبة في يد الشيطان، «فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل»<sup>(5)</sup>. وتسيير امور الناس والحكم فيهم في فكر علي عليه السلام لا يكون وليد تحقيق الرغبات الجامحة والميول الذاتية، لأن

ص: 245

1- صحاح الجوهري 1/ 295

2- ابن منظور: لسان العرب المحيط 3/ 714

3- أحمد امين: يوم الإسلام ص 57

4- راجع بشأن ذلك ما ورد عند ابن قتيبة في الإمامة والسياسة 1/ 68

5- خطب 7

أية سياسة تبني على رغبات فئة معينة همها المحافظة على امتيازاتها ومصالحها، تؤدي بالمجتمع إلى التناقضات الطبقة التي ينجر عنها في نهاية الأمر تصدع في بنيته الأساسية. فتغليف الفتنة بشعارات براقة لا يغير من كونها فتنة القصد منها تفتيت وحدة المجتمع بضرب فئاته بعضها ببعض. فموقف الناكثين من وجهة نظر علي عليه السلام ليس موقفاً اجتهادياً لأنهم قد سبق أن طلبوا منه الاقتصاص من قتلة عثمان، فوافقهم على ذلك، وطلب المهلة حتى يستتب الأمن، وتعود الأمور إلى مجاريها، فينجلي الغموض، وتتبدد غيوم الفتنة كيلاً يؤخذ البريء بالمدنّب(1)، إلا أنهم فيما يبدو لم يكونوا جادين فيما طلبوه، لأن القصد الحقيقي من سخطهم كما يقول علي عليه السلام طلب «هذه الدنيا حسداً لمن آفأها الله عليه»(2).

فطلحة والزبير حين بايعا علياً عليه السلام، كانا يظنان أنه سيستجيب لرغباتهما في الإمرة، ولكنه رفض شرطهما عارضاً عليهما أن يكونا شريكاه «في القوة والاستقامة»(عونه) على العجز والالود(3)، لأن المشاركة في الإمامة غير مقبولة لا عقلاً ولا شرعاً إذ «لا يجوز الاشتراك فيها»(4). كما أن دوافعهما شخصية، فحين لم يحقق رغبتهما أظهر التآليب عليه، بحجة انهما بايعا مكرهين(5)، وإن كانت الوقائع التاريخية تشكك في ذلك، فالزبير من وجهة نظر علي عليه السلام قد أضمر في بيعته غير ما كان يظهر. وهو ادعاء متهافت إذا ما وضع في صور مناظرة، لأن الحجة تكون عليه لا له، وفي ذلك يقول علي عليه السلام

ص: 246

1- راجع في ذلك الخطبة - 169

2- خطب 170 - فقرة 2

3- حكم 200

4- الأحكام السلطانية ص 9

5- راجع ما قاله بشأن ذلك في تاريخ الطبري 4/ 426، وايضاً في كامل ابن الأثير 3/ 98



«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبائع بقلبه، فقد اقر بالبيعة، وادعى الوليعة فليأت عليها بأمر، والا فليدخل فيما خرج منه»<sup>(1)</sup> لأن من واجب المدعي اثبات صحة ادعائه، وإلا فإن ما يدعيه باطل، فبيعة الزبير لعلي عليه السلام ملزمة وصحيحة، وما دام مقرا بها فمن المحتم عليه ان يقبل الحق، واذا ما احتوى كل من الزبير وطلحة بالسلطة التي يسعيان في الحصول عليها، فانهما سينأيان بنفسهما كما يبدو من قول علي عليه السلام من العقاب لمشاركتهما في دم عثمان<sup>(2)</sup>، ولما لم يتمكننا من ذلك، اختلفا شبهة تلبس على الناس ما اقترفاه في حق عثمان تبرئهما من دمه، فالسياسة في مثل هذه الظروف تقتضي التمويه، فلم يكن بدأ من الحرب، بعد ان حاول علي عليه السلام ان يثبتهما عن ذلك بالتفاهم وتحكيم العقل بقوله «واني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم...»<sup>(3)</sup> ولكنهما أيا إلا الحرب.

فوقعة الجمل لم تنشب بسبب عدم انعقاد البيعة لعلي عليه السلام كما يزعم القائل «لا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد»<sup>(4)</sup> لأن ما أثر عن علي عليه السلام من أقوال تؤكد بيعة طلحة والزبير له بالخلافة<sup>(5)</sup>، ويعضد تلك الأقوال ما ذكرته المصادر التاريخية بشأن بيعتهما<sup>(6)</sup>، بالإضافة إلى ذلك فإن صاحب المقولة، لم يعرف أصحاب الحل والعقد، وكم عددهم آنذاك والكيفية التي يتم على

ص: 247

1- خطب 8

2- رجع خطب 22، فقرة 2

3- السابق

4- فتحي عبد الكريم: الدولة والسيادة ص 257

5- راجع: رسائل - 6، 9، 54،

6- راجع بشأن بيعة الزبير وطلحة لعلي عليه السلام: ابن أعثم الكوفي: الفتوح 1/ 431، ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة 1/ 47، ابن الاثير: الكامل 3/

اساسها اجتماعهم، فطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص من أصحاب الشورى الذين بقوا على قيد الحياة، وقد بايعوا علياً عليه السلام كما بايعه كافة الأنصار سوى عدد قليل منهم (1)، ثم ان جميع الامصار الإسلامية تبع المدينة، فالبيعة لعلي عليه السلام قد انعقدت بمبايعة من سمووا بأهل الشورى، وأهل المدينة، ومن حضر من ثوار الامصار، ولم يحدث حدثاً يبطل خلافته، ولكن اصرار أصحاب الجمل على نكث بيعته، هو العامل الذي ادى إلى اضرام نار الحرب، بقتلهم المسلمين صبراً، واستيلائهم على بيت مال البصرة. يلخص علي عليه السلام ما احدثوه بالبصرة قبل قدمه إليها قائلاً «قدموا على عمالي، وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي، وعلى بيعتي فشتتوا كلمتهم، وفسدوا على جماعتهم، ووثبوا على شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدرًا، وطائفة عضوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين» (2).

فبرغم تراكم الاحداث والغموض المحيط بالجو السياسي، فلقد كانت رؤية علي عليه السلام واضحة فكان يسير بخطوات ثابتة ومدروسة، يقول في هذا الصدد «ان معي لبصيرتي، ما لبست على نفسي، ولا لبس علي» (3). يقابله في الاتجاه الثاني التخبط حيث يقول الزبير قبل بدء المعركة «ما كنت في موطن منذ عقلت الا وأنا أعرف فيه أمري، غير موطني هذا» (4) مما يرجح عدم اثبات أصحاب الجمل على قاعدة صلابة في خروجهم على علي عليه السلام إذ لم يكونوا صادقين حتى مع بعضهم، فقد أثر عن المقربين منهم القول «والله لو ظفرنا لافتتنا، وما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا

ص: 248

1- راجع في ذلك الشأن قول ابن الأثير: الكامل في التاريخ 98/4

2- خطب 213

3- خطب 10

4- تاريخ الطبري 4/ 455، 502

خلى طلحة بين الزبير والأمر» (1) فهم حسب قول علي عليه السلام قد «أتلعوا أعناقهم إليأمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه» (2) .

فعلي عليه السلام لم يكن راغباً في الحرب، ولم يبدأها، وتكاد معظم المصادر التاريخية تتفق في ذلك مع ما أثر عن علي من أقوال، إلا أن الطرف المقابل هو الذي كان يصير عليها لذلك فإن التعويل على الروايات الضعيفة التي تدعي أن إشعال تلك الحرب قد بدأ «من ذوي الاغراض الخبيثة من جيش علي عليه السلام، وهم أولئك الذين اشتركوا في حصار عثمان... فخافوا على أنفسهم إذا ما تم الصلح» (3) لا يثبت حجة، لأن الذين مهدوا لقتل عثمان هم المطالبون بالثأر له «فلم يكن احد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد على عثمان من طلحة» (4) كما كانت عائشة من أكبر المحرضين على قتله وهي القائلة قبل خروجها من المدينة إلى مكة أثناء حصر عثمان «اقتلوا نعتلاً فقد كفر» (5) .

فوقعة الجمل كحدث مربع، أحدث صدعاً عميقاً في الصف الإسلامي، ولم يكن مقبولاً بحقائقه الأليمة، لأن في ذلك مساً بقدر الصحابة وحطاً من مكانة عائشة، ومن أجل تبرة أولئك، عول على أسطورة (ابن سبأ أو ابن السوداء) (6) التي تقرر الطبري بروايتها، اعتماداً على سند ضعيف مصدره

ص: 249

1- السابق

2- خطب 214

3- محمد الطيب النجار: علي بن أبي طالب نظرة عصرية ص 90

4- العقد الفريد 4/ 299، وقد أثر عنه لما صيب في وقعة الجمل بالسهم القاتل «اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى» الكامل في التاريخ 3/ 124

5- تاريخ الطبري 4/ 459

6- ابن السوداء، أو عبد الله بن سبأ: «تنسب إليه الطائفة السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، اصله من أهل اليمن، وكان يهودياً من أمة سوداء، فأظهر الإسلام، طاف ببلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة، ويلقى بينهم الشر، وكان قد بدا أولاً بالحجاز ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم دخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فلم يقدر على ما يريد عند احد من أهل الشام، فاخرجه حتى اتى مصر فاعتمر فيهم واطهر مقالته بينهم ابن بدران» تهذيب تاريخ ابن عساکر 7/ 431 وقد وردت الاشارات عن عبد الله بن سبأ وانسياحة في البلاد أيام عثمان وعلي عليه السلام في تاريخ الطبري (ت 310 هـ) 4/ 283، 326، 331، 340، 349، 398، 493، 505. وتاريخ الطبري هو مصدر الاسطورة كما نعتقد وقد أخذها عنه الكثير من المؤرخين الذين اتوا من بعده، فسنده الرواية التي عول ابن عساکر (ت 571) في شأن عبد الله بن سبأ هو «روى سيف بن عمر بن أبي حارثة، وأبي عثمان قالاً...» ابن بدران تهذيب تاريخ ابن عساکر 7/ 432، وهو سند رواية الطبري عن سيف، أم ابن الاثير (ت 630) فقد ذكر اعمال عبد الله بن سبأ والسبئية في حكم عثمان ومن ثم في خلافة علي عليه السلام الكامل في التاريخ 3/ 57، 77، 120، 72، دون اسناد، لكنه ذكر في مقدمة تاريخه 1/ 5 بأنه في تأليفه قد ابتدأ «بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري... (فأخذ) ما فيه من تراجمة لم (يخل) بترجمة واحد منها»، ويعرض ابن خلدون (ت 732) (الرواية عبد الله بن سبأ في موضوع «أمر الجمل» تاريخ ابن خلدون 2/ 606، ثم يقول في نهاية الرواية 2/ 622 «هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدنا للوثوق بسلامته»، وإذا ما رجعنا إلى الطبري في مقدمة تاريخه 1/ 8 فإنه يقول «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل انه لم يعرف له وجهها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وانما اتى من قبل بعض ناقله الينا، وانا انما ادينا ذلك على نحو ما ادي الينا» فهو يبريء ساحته ويلقي بالمسؤولية التامة على من أخذ عنهم من الرواة وإذا ما عدنا إلى سند رواية عبد الله بن سبأ كما أوردها الطبري، فسنجد أن مصدرها هو سيف بن عمر الضبي، الذي قال عنه الرازي (ت - 327) في كتاب الجرح والتعديل 4/ 278 «ضعيف الحديث.. متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي»، وقال فيه ابن حجر (ت 852) في كتاب تهذيب التهذيب 4/ 495 «سيف بن عمر البرجمي، ويقال السعدي، ويقال الصنعي، ويقال الاسدي الكوفي، صاحب كتاب الردة والفتوح... ضعيف الحديث، ليس خير فيه... قال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: ضعيف... وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الاثبات... وقالوا: انه كان يضع الحديث... وقال الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط... مات زمن هارون»، فسنده الرواية متهافت، اضافة إلى ذلك، فإن كتب الطبقات والتاريخ المعول عليها والسابقة في تأليفها لتاريخ الطبري قد سكتت تماماً عن ابن سبأ واعماله الشنيعة تجاه الإسلام، فابن سعد (ت 230) في الطبقات الكبرى 3/ 19 وما بعدها و 53 وما بعدها في سيرتي علي عليه السلام وعثمان؛ لم يات على ذكر ابن سبأ واسطوره أثناء ذكره لحوادث عصر كلا الخليفين، كما لم يذكر ذلك أيضاً البلاذري (ت 279) في انساب الاشراف 2/ 305 وما بعدها، فالاسطورة كما نعتقد من نسج خيال سيف بن عمر ومن شابعه من مرتزقة الرواة وتتفق مع طه حسين بأن «أكبر الظن... ان خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا

في أمر عبد الله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الاحداث إلى عثمان وولائه من ناحية، وليشنعوا على علي عليه السلام من ناحية اخرى، فيردوا بعض أمر الشيعة إلى يهودي اسلم، كيداً للمسلمين»، الفتنة الكبرى - عثمان 1/ 134



سيف بن عمر(1) ، ولكن ذلك لا يعي من الواقع، لأن الذين خرجوا إلى علي عليه السلام من أهل الكوفة لم يلبوا دعوته الا بعد جدل طويل وأخذ ورد، بمعنى انهم كانوا في بداية امرهم مترددين، وقد سجل التاريخ جانباً من ذلك الجدل(2) ، وعليه فإن من خرج منهم إلى علي عليه السلام خرج مقتنعاً، ولو كانت هناك ايد خفية خائفة لسمع صوتها وبان تأثيرها في ذلك الجدل الذي اشترك فيه كل من عمار بن ياسر والحسن بن علي عليه السلام، وهاشم بن عتبة(3) ، وصعصعة بن صوحان(4)،

ص: 251

1- راجع الهامش السابق

2- بشأن ذلك الجدل راجع تاريخ الطبري 481 /4

3- هاشم بن عتبة صحابي من أصحاب علي عليه السلام استشهد في صفين راجع ترجمته في أسد الغابة 377/5

4- صعصعة بن صوحان العبدي، كان مسلماً على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه لم يره، وهو من سادات عبد القيس - كان من أصحاب علي

عليه السلام توفي في أيام معاوية - أسد الغابة 21 /3

وأبي موسى الأشعري(1) ، ومالك الأشر(2) ومحمد بن أبي بكر(3) . ثم ان جيش علي عليه السلام - كما تحدثنا المصادر التاريخية - قد كان تحت قيادته المباشرة، ملتزماً بتعليماته، من ذلك انه قال للأشر وقد كان علي ميمنته يوم الجمل «احمل فحمل في اصحابه، فكشف من بازائه، ثم قال لهاشم بن عتبة... وكان علي الميسرة أحمل فحمل في المضربة، فكشف من بازائه فقال علي عليه السلام لأصحابه، كيف رايتم ميسرتي وميمنتي»(4) ، وفي ذلك ما يدل على انضباط قيادته، وائتمار جنده بإمرته، مما لا يدع مجالاً لللدس بينهم، خاصة وان ساسته الحربية تعتمد الدفاع في أية حرب يجبر على خوضها، بالرغم من اعتقاده بسلامة موقفه لأنه يرى ان بدء العدو بالحرب حجة عليه لكونه البادئ، لذلك كان يوصي جنده في كل موطن قتال بقوله «لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم»(5) ، فالقتال -

ص: 252

- 1- أبو موسى الأشعري - عبد الله بن قيس - صحابي استعمله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ربيد وعدن واستعمله عمر على البصرة وأقره عثمان عليها ثم عزله، وكان أحد الحكمين (ت 42 هـ) أسد الغابة 36/3
- 2- مالك الأشر - أحد أشراف الأبطال المذكورين، كاد يهزم معاوية في صفين لولا رفع المصاحف لما رجع من صفين جهزه علي عليه السلام واليا على مصر، فمات في الطريق مسموما سنة ثمان وثلاثين راجع سير أعلام النبلاء، 4/34
- 3- محمد بن أبي بكر من أصحاب علي عليه السلام ولاه مصر، لما رجع معاوية من صفين جهز له جيشاً، فانهزم محمد وقتل واحرق جثمانه سنة ثمان وثلاثين. راجع ترجمته عند العماد الحنبلي شذرات الذهب 1/48
- 4- العقد الفريد - 4/325
- 5- تاريخ الطبري 10/5 ، رسائل - 14

من وجهة نظر علي عليه السلام - هو الملاذ الاخير الذي يلجأ إليه مضطراً بعد ان تنفذ كل جهوده السليمة، لأنه يرى نفسه هادئاً ومصلاً لا متسلطاً يسعى إلى الحكم بأية وسيلة (1).

فحرب الجمل قد خاضها علي عليه السلام مضطراً ليس بفعل المندسين في جيشه، ولكن أراده طلحة والزبير ومعهما عائشة، هي التي حتمت عليه خوضها، خاصة ان اقطاب حرب الجمل الثلاثة قد ادركوا ان المساومة مع علي عليه السلام على حساب المباديء لن تجدي، فلجأوا إلى الحل المسلح لإقصائه حتى يتمكنوا من تحاشي تهمة تاليهم على عثمان فيما لو استقر الوضع، وكى يصلوا إلى تحقيق هدفهم المادي المشترك المتمثل في تمكنهم من السلطة فيما لو انتصروا عليه.

فطلحة بن عبيد الله التيمي، قد كان من اكبر المؤيدين على عثمان، فهو الذي أمر الشوار بتشديد الحصار عليه، ومنع الماء عنه، كما استولى على مفاتيح بيت المال أثناء الحصر (2)، وقد حاول علي عليه السلام ثنيه عن كل ذلك، ولكنه ظل مصراً على موقفه (3) ولما قتل عثمان ووجد اقبال الناس على علي عليه السلام بايعه معتقداً انه سينال الخطوة عنده بحكم صحبته فطلب منه ان يوليه البصرة (4)، فأبى عليه ذلك.

والزبير بن العوام كان من أكبر المعاضدين لعلي عليه السلام، والمساندين لحقه في المطالبة بالخلافة منذ اليوم الذي تمت فيه البيعة لأبي بكر (5) حتى الوقت

ص: 253

1- راجع قول علي عليه السلام عن موقفه من الحرب خطب 54

2- راجع العقد الفريد 4/ 299 وتاريخ الطبري 4/ 379 ، 407 ، والإمامة والسياسة 1/ 38

3- المصدر السابق نفسه

4- راجع قول طلحة بشأن ذلك - تاريخ الطبري 4/ 405

5- راجع موقفه من بيعة أبي بكر في: الإمامة والسياسة 1/ 11



الذي انعقدت فيه لجنة الشورى، فلقد كان من ضمن الستة الذين رشحهم عمر للخلافة، فتنازل عن حقه في تلك اللجنة لعلي عليه السلام(1)، إلا أنه غير موفقه من علي عليه السلام بعد ان تمت البيعة له بعد مقتل عثمان، ويعزى ذلك التغيير فيما نعتقد إلى عدة عوامل، في مقدمتها العامل المادي، إذ لم يكن الزبير راضياً عن نظام المساواة لتعارضه مع مصلحته الذاتية(2)، كما ان علياً عليه السلام لم يحقق له رغبته في توليته الكوفة(3)، إذ يبدو من حوار مع علي عليه السلام حول طلب الولاية، ان العامل المادي هو الذي اسخظه على عثمان، إذ يقول هو وطلحة لعلي عليه السلام بعد ان بايعاه «قد رايت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها، وعلمت رأي عثمان في بني أمية، وقد ولاك الله الخلافة من بعده، فولنا بعض اعمالك»(4)، ولما امتنع علي عليه السلام عن الإستجابة لما طلباه، قال الزبير متذمراً «هذا جزاؤنا من علي عليه السلام، أقمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب، وسببنا له القتل، وهو جالس في بيته، وكفي الأمر، فلما نال ما اراد جعل دوننا غيرنا»(5)، أضف إلى ذلك تأثير ولده عبد الله ابن اسماء شقيقة عائشة عليه، فلقد كان الطموح إلى الإمارة يملأ حنايا الابن، بحيث لم يترك لأبيه مجالاً للتفكير في عاقبة مجابهة علي عليه السلام ونكث بيعته، ولإدراك علي عليه السلام مدى تأثير الابن على ابيه روي عنه قوله «ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله»(6). ولقد

ص: 254

1- راجع ذلك عند - ابن عبد ربه - العقد الفريد 4/ 278

2- راجع ص 148 من هذا البحث

3- راجع أنساب الأشراف 2/ 218

4- شرح ابن أبي الحديد 1/ 231

5- ابن قتيبة - الإمامة والسياسة 1/ 51

6- حكم - 461

بذل علي عليه السلام كل ما في وسعه لصد الزبير عما عزم عليه متبعاً أسلوب الملاينة المقرون بعنصر القرابة، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً، من ذلك أنه قبل بدء القتال قال لابن عباس حين أرسله للتفاهم مع أصحاب الجمل «لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور، عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير، فإنه لين العريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتنى بالحجاز، وانكرتنى بالعراق، فما عدا مما بدا»<sup>(1)</sup> لكن الزبير لم يشب إلى رشده ويعتزل القتال، إلا بعد أن نشب القتال.

عائشة: بدأ صوتها يعلو في أيام حكم عثمان متخذاً جانب المعارضة فكانت «أشد الناس تأليباً عليه وتحريضاً»<sup>(2)</sup>، والسبب المادي كما يتهيأ لنا هو الدافع وراء ذلك، لأن عثمان قد صيرها «اسوة غيرها من نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»<sup>(3)</sup> بعد أن كان عطاؤها في عهد عمر يزيد عليهن بألفي درهم<sup>(4)</sup>، فدخلت معه في منافرات، وحرصت على قتله<sup>(5)</sup>، وكانت تتمنى لو حل في مكانه، طلحة بن عبيد الله التيمي<sup>(6)</sup> على اعتبار أنها تيمية أيضاً فلما قتل عثمان ووصلها خبر مبايعة الناس علي عليه السلام، ادركت ان طموحتها في إرجاع الخلافة تيمية أصبح بعيد المنال<sup>(7)</sup>، هذا بالإضافة إلى ما كانت تحمله في نفسها على علي عليه السلام، فكتب السيرة

ص: 255

1- خطب - 31

2- ابن الأثير أسد الغابة - 591 /3

3- تاريخ اليعقوبي 175 /2 ، وورد مثله عند ابن أعثم الكوفي في الفتوح 419 /2

4- راجع سير اعلام النبلاء 187 /2

5- راجع ص 249 من هذا البحث

6- راجع مقالاتها بشأن - طلحة تاريخ الطبري 407 /4

7- راجع مقاله بشأن مبايعة علي عليه السلام - تاريخ الطبري 359 ، الإمامة والسياسة 25 /1 ، الكامل في التاريخ 106 /3

تحدثنا بأنها لم تكن تحب حتى ذكر اسمه(1).

لقد تهبأت لأصحاب الجمل كل الظروف التي تتيح لهم محاربة علي عليه السلام، حين توفرت لهم الطاعة، والسخاء، والشجاعة، وقد اجمل علي عليه السلام تلك المزاي في قوله «اني منيت بأربعة: ادهى الناس، وأسخاهم طلحة، واشجع الناس الزبير، واطوع الناس في الناس عائشة»(2) والرابع يعلى بن منية(3) الذي وصفه علي عليه السلام بأسرع الناس إلى اشعال الفتنة.

فقضية حرب الجمل قد كانت محسومة بالنسبة لعلي عليه السلام، فهولا يجد مبرراً في الخروج على السلطة ما دامت تسير بامور المسلمين بما يتماشى مع القرآن والسنة وتحقيق العدل للجميع فالتصدي للفتنة واخمادها واجب ديني في حالة عدم جدوى النصح، وهو ما يمكن استخلاصه مما أثر عنه عليه السلام من اقوال، فبصدد كشفه أساليب التضليل التي حاول بها أصحاب الجمل تمويه الحقيقة يقول «انا فقأت عينالفتنة، ولم يكن ليجتري عليها احد غيري، بعد ان ماج غيبتها واشتد كلبها»(4)، والاجتراء الذي يقصده علي عليه السلام هو تبصره بملاسات الفتنة ومعالجتها بمقتضى الشرع. فإن تكن واقعة الجمل قد احدثت انقساماً في الصف الإسلامي، الا ان نتائجها لم تخل من ايجابيات، لم تكن لتعرف لولا تلك المعركة، لأن علياً عليه السلام قد

ص: 256

- 
- 1- راجع سيرة ابن هشام 4/ 298، وتاريخ الطبري 3/ 189
  - 2- ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة 2/ 221
  - 3- يعلى بن منية - وهو اسم امه واسم ابيه أمية، استعمله عمر على بعض اليمن وكان على الجند باليمن حين بلغه قتل عثمان، فأقبل لنصره، ولكنه لم يدركه، فقدم مكة بعد انقضاء الحج، وأخذ يحرض على الثأر من قتلة عثمان، راجع ترجمته في أسد الغابة 5/ 523
  - 4- خطب - 92

عامل أصحاب الجمل بعد هزيمتهم معاملة تكاد تختلف تماماً عما عهدته المسلمون في معاملتهم للمهزومين، حيث يجعلون من اراضيهم واموالهم غنيمة للمحاربين، ومن نسائهم واطفالهم واسراهم سبايا يحق بيعهم واسترقاقهم، ولكن علياً عليه السلام في حرب الجمل لم تأخذ بذلك الاسلوب، مما جعل أصحابه يستغربون تصرفه وينكرونه عليه بقولهم «تحل لنا دماءهم، ولا تحل لنا نساءهم؟ فقال: كذلك السيرة في أهل القبلة، فخاصموه، قال: فهاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة...»

ففرقوا وقالوا نستغفر الله»(1)، فحرب الجمل وتناجها من وجهة نظر علي عليه السلام، مسألة فقهية، وضحت واستبانة حين باشرها بنفسه «اذ لم يكن المسلمون قبلها يعرفون كيفية قتال أهل القبلة»(2)، فقد أثر عن الشافعي قوله «لولا علي لما عرف شيء من أحكام أهل البغي»(3)، الا أنها وان حسمت في صالح علي عليه السلام فإنها لم تكن سوى تمهيد لحرب تزعمها من أسماهم علي عليه السلام القاسطين.

### ثانياً: القاسطون - أي بنو أمية:

والقاسطون في اللغة هم الجائرون الباغون، وقد جاء في القرآن الكريم (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)(4)، «لذلك قيل: قسط الرجل:

إذا جار واقسط: إذا عدل»(5). وفي التفريق بين معنى المفردتين يقول ابن

ص: 257

1- المتقي الهندي - كنز العمال - 337 / 11

2- شرح ابن أبي الحديد 331 / 9

3- المصدر السابق نفسه

4- الجن / 15

5- الراغب الاصفهاني - المفردات في غريب القرآن 608

منظور «اقسط يقسط، فهو مقسط إذا عدل، وقسط يقسط، فهو قاسط إذا جار، فكأن الهمزة في اقسط للسلب كما يقال شكا إليه واشكاه»<sup>(1)</sup> . ومفردة قاسط التي تعني الجور كمصطلح سياسي، قد اطلقت على الأمويين ومن شايعهم لخروجهم على علي عليه السلام ومحاربتهم له في صفين، فقد أثر عنه قوله «عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»<sup>(2)</sup> ، وذلك يكشف لنا عن موقف علي عليه السلام المتشدد تجاه الأمويين عامة وتجاه معاوية بن أبي سفيان على وجه الخصوص لم يكن بدافع العصبية أو حب التسلط، وإنما هو موقف تابع من اعتقاد ديني بحت، وإن حاولت السياسة الباسه ثوب العصبية، ذلك الوتر الذي حاول الأمويون العزف عليه للوصول إلى ماريهم فكان البدء مطالبتهم الخليفة بالاعتصام من قتلة عثمان الأموي، فجانب العصبية قد يكون له قيمته العالية في لقضية إذا ما نظرنا إليه من الزاوية الأموية، فقد حتموا بذلك كشعار من أجل معارضتهم لخلافة علي عليه السلام حين وضعوه كشرط لاقرارهم بخلافته وذلك منذ الأيام الأولى التي انعقد فيها الأمر له، فقد تخلف عن البيعة بعض الأمويين، فبعث إليهم ليكلمهم في ذلك، فتكلم الوليد بن عتبة فقال «يا أبا الحسن، إنك وترتنا بأجمعنا، أما أنا فقتلت أبا صبراً يوم مكة، وخذلت أخي عثمان فلم تنصره، وأما سعيد بن العاص فقتلت أبا يوم بدر... وأما مروان فسحقت أباه عند عثمان لما رده إلى المدينة وضمنه إليه، ونحن نبايعك على ان تقتل من قتل صاحبنا... وعلى انك تسوغنا ما يكون منا وعلى انا ان خفناك على

ص: 258

---

1- لسان العرب المحيط 86/3

2- ابن الأثير أسد الغابة 4/115 ، لسان العرب المحيط 3/86 ، ويمكن مراجعة تخرجات أخرى للحديث في: فضائل الخمسة من الصحاح الستة لمرتضى الحسيني الفيضو أبادي 2/396 وما بعدها

أنفسنا لحقنا بالشام عند ابن عمنا معاوية»<sup>(1)</sup> فالشروط التي وضعها أولئك الرهط من الأمويين لم تكن في مجملها ذات طابع اسلامي، وإنما هي مبنية على العصبية الجاهلية والمادة، وبعيدة عن مفهوم السياسة الدينية<sup>(2)</sup>، لذلك فهي تتعارض وفكر علي عليه السلام، وهذا ما أدى إلى رفضها جملة وتفصيلاً ويكمن ذلك في رده عليهم بقوله «أما ما ذكرتني أني وترتكب فإن الحق وترتكب، وأما وضعي عنكم ما يكون منكم فليس لي أن اضع عنكم حقاً لله تعالى قد وجب عليكم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لم يمتني اليوم قتلهم لقتلتهم أمس، وأما خوفكم إياي فأني أو منكم مما تخافون»<sup>(3)</sup>. فالجدل الذي دار بين علي عليه السلام وبين أولئك الأمويين يكشف تباين المواقف الفكرية عند كلا الطرفين، إذ بينما ينطلق فكر علي عليه السلام من قاعدة دينية أساسها الحق والمساواة، وينطلق فكر أولئك من قاعدة أساسها المصلحة الذاتية المتكونة من عناصر مادية وأخرى عصبية.

لقد حاول الأمويون كبح جماح رغباتهم في فترة صدر الإسلام، وإن لم يخفوا بعض تطلعاتهم التي كانت تصطرع في نفوسهم، فعثمان بن عفان وهو من الصحابة السابقين الأولين الذين دخلوا الإسلام طواعية وعن اقتناع، قد جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو وجبير بن مطعم<sup>(4)</sup> لما قسم صلى الله عليه وآله وسلم سهم ذوي القربى بين

ص: 259

1- ابن أعثم الكوفي - الفتوح 2/ 441

2- راجع ص 195 وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في واجب الحاكم في فكر علي عليه السلام

3- ابن أعثم الكوفي، السابق 2/ 441

4- جبير بن مطعم من حلماة العرب وساداتهم، يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة، كان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يد، وهو أنه كان أجار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قدم من الطائف حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام، وكان أحد الذين قاموا بنقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب، وكان إسلامه بعد الحديبية، وقبل الفتح، توفي سنة سبع وخمسين من الهجرة ابن الأثير: أسد الغابة 1/ 323

بني هاشم وبني عبد المطلب، فقال له «يا رسول الله، هؤلاء بنو هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أرايت بني عبد المطلب؟ أعطيتهم ومنعتنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة» (1)، ونحن إذ نورد هذا الشاهد لا نشك في اخلاص عثمان للإسلام وبذله الأموال الطائلة في سبيل إعلاء كلمته ولكن مبادرته الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلك القول تعني التماس السؤدد بالاندماج فيمن خصهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالخمس من ذوي قرباه.

لقد فقد الأمويون كل امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية بعد دخولهم الإسلام كرها فعدوا من الطلقاء، بعد ان سن عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح (2)، ولا بد أن يكون ذلك قد ترك أثراً عميقاً في نفوسهم، وإن حاولوا اضماره والاندماج في المجتمع الجديد، كما حاول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بدوره استئلال النعمة من نفوسهم بتألفهم بالمال، فأعطى أبا سفيان من غنائم حنين «مائة بغير وأربعين أوقية، كما أعطى سائر المؤلفلة قلوبهم وأعطى ابنه يزيد ومعاوية» (3)، كما استعمل صلى الله عليه وآله وسلم منهم في بعض اعماله من ارتضى دينه ووثوقه من حسن اسلامه مثل إبان بن سعيد بن العاص (4) الذي ولاه صلى الله عليه وآله وسلم البحرين بعد أن «عزل عنها

ص: 260

1- أبو عبيد: الأموال 341

2- سمووا بالطلاق نسبة إلى قول رسول الله يوم الفتح في السنة الثامنة «يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»، سيرة ابن هشام 55/4، تاريخ الطبري 61 المسعودي مروج الذهب 2/297

3- ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة 2/190

4- إبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، اسلم قبل خيبر وشهداها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين قبل إسلامه، اسلم بعد أن عرف حقيقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من راهب بالشام واستعمله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على البحرين، وكان أحد من تخلف عن بيعة أبي بكر لينظر ما يصنع بنو هاشم، فلما بايعوا بايع، اختلف في سنة وفاته، فقيل سنة اثنتي عشر وقل سنة اربع عشرة بعد الهجرة... وقيل توفي سنة تسع وعشرين. أسد الغابة 1/47

العلاء ابن الحضرمي»(1)، وبعث خالد بن سعيد بن العاص(2) عاملاً على صدقات اليمن ولم يزل على عمله حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستعان بعثمان بن عفان على كتابة الوحي(3) وبخالد بن سعيد ومعاوية بن أبي سفيان في كتابة حوائجه(4)، كل ذلك - على ما نعتقده في سبيل تأليف نفوس الأمويين، وادماجهم في الحياة الجديدة، فخبث طموحاتهم بعض الشيء وإن كانت لتظهر من الشاذين منهم على شكل تصرفات عدائية بقصد الاستهزاء بالإسلام، الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسبب عدم مقدرتهم على التفاعل مع القيم الإنسانية التي حطت من مكانهم الاستعلائية لتفضل عليهم من كانوا عبيداً وسوقة من الفقراء، وذوي الأنساب الخاملة. فعبد الله بن أبي السرح أخو عثمان في الرضاعة، قد ارتد مشركاً وكان من كتبة الوحي «وصار إلى قريش بمكة فقال لهم: إني كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يملي علي عزيز حكيم، فأقول: أو

ص: 261

1- أسد الغابة 47/1

2- خالد بن سعيد بن العاص، من السابقين الأولين في الإسلام لم يتقدم عليه في ذلك سوى علي عليه السلام وأبو بكر وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص، هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها من المسلمين، شهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض غزواته، وبعثه عاملاً على صدقات اليمن، ولم يزل بها حتى توفي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فرجع وأخواه عمرو وإبان عن أعماهلم، وتاخروا عن بيعة أبي بكر حتى بايعت بنوهاشم، استشهد في وقعة اجنادين سنة ثلاث عشرة من الهجرة أسد الغابة 98/2

3- راجع الجهشيارى الوزراء والكتاب ص 12

4- السابق



عليه وسلم؟ فيقول: نعم، كل صواب»(1)، وقد أهدر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دمه يوم الفتح لولا الحاح عثمان بالشفاعة فيه(2). ومن ذلك أيضاً طُرْدَه صلى الله عليه وآله وسلم الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس من المدينة، بسبب محاولته إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالاستهزاء عليه، وتصنّته على بيوته ونقل أخباره «إلى كبار أصحابه من مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين»(3).

فمن الملاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد سار في الأمويين بسيرة الترغيب تارة باستئلافهم وتقريب المؤمنين منهم، وبإغداق الأموال على الذين لم يثبت الإسلام في نفوسهم، والترهيب تارة أخرى بالقتل والنفي، مما جعل أولئك الذين دخلوا في الإسلام كرهاً أن يتقبلوا الحياة الجديدة على مضض مع بذلهم كل ما في وسعهم من طاعة مشاركة تخفف عن كواهلهم وطأة الاستصغار الذي لحق بهم جراء دخولهم الإسلام مرغمين(4)، وحاولوا جاهدين كبح جماح طموحاتهم وإضمارها في أعماقهم، لذلك فما ان انتقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وانعقدت البيعة لأبي بكر حتى ارتفع صوت أبي سفيان بن حرب قائلاً لعلي عليه السلام «مال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجالاً»(5)، إذ تبدو العبارة وكأنها صادرة عن حمية جاهلية أو قل عصبية عشائرية يقصد به صيانة حقوق الهاشميين، ولكن الحقيقة من وجهة

ص: 262

1- أسد الغابة 3/ 259

2- المصدر السابق نفسه

3- الاستيعاب بهامش الإصابة 1/ 317، وراجع ترجمته هناك أيضاً

4- لمعرفة شعور الأمويين بعد دخولهم الإسلام راجع قول هند وأبي سفيان لابنهما معاوية حين استعمله عمر على مكة - العقد الفريد 4/ 365

5- تاريخ الطبري 3/ 209

نظر علي عليه السلام ليست كذلك، لأنها وان كانت عصبية في ظاهرها، فما هي سوى فتنة اراد بها رأس الأمويين شق عصا المسلمين، لذلك بادره علي عليه السلام بالقول «يا أبا سفيان طالما عادت الإسلام واهله فلم تضره بذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها هلاً»<sup>(1)</sup>، فعلي عليه السلام أدري بما يضمه الأمويون للإسلام، فلو كانت مقولة أبي سفيان تلك تعبيراً عن عصبية خالصة، لما سكت عندما خلى له أبو بكر ما كان في يده من الصدقات التي كلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجمعها قبل وفاته وذلك امتثالاً لنصيحة عمر بأن «هذا قد قدم وهو فاعل شراً، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستألفه على الإسلام، فدع ما بيده من الصدقة، ففعل، فرضي أبو سفيان وبايعه»<sup>(2)</sup>. مع ملاحظة التباين بين موقف علي عليه السلام، وبين موقف أبي بكر من تصرف أبي سفيان، فكلتا الشخصيتين تدركان تزعم إيمان رأس الأمويين مع التباين في أسلوبهما في معالجة ذلك، فقد استخدم أبو بكر العامل المادي لقطع دابر الفتنة، ولكنه بذلك قوى العزم وانعش الأمل في نفوس الأمويين في تعويض ما افتقدوه من سلطان في ظل الإسلام، وذلك باتباعهم ذات الأسلوب ولكن بطرق مختلفة قد تكون أكثر احكاماً ودهاء، اما علي عليه السلام فقد حسم الأمر بفضح أساليب أبي سفيان وكشف نواياه الحقيقية تجاه الإسلام، في محاولة منه لواد أية طموحات غير مشروعة تعود بالضرر على الإسلام، خاصة وأن الإسلام لم يعد في حاجة إلى استئلاف المنافقين وضعفاء الإيمان، بعد ان اشتد عوده وكثرت اعوانه بشهادة عمر بن الخطاب في قوله «كان يتألفكم والإسلام يومئذ ذليل وان الله قد أعز الإسلام»<sup>(3)</sup>، فلم تعد الحاجة إليه، لأن المنافقين ومن تابعهم من ضعفاء

ص: 263

1- المصدر السابق نفسه

2- العقد الفريد 4 / 257

3- ابن أبي الحديد 12 / 59

الإيمان أصبحوا قلة لا يشكلون أية خطورة على الإسلام.

ففي نفس الوقت الذي كان فيه الشيخان الأول والثاني قد ارتابا في نوايا أبي سفيان تجاه الإسلام في مطلع حكم أبي بكر كما اسلفنا، فإنهما قد قلدا الأمويين بعض الاعمال المهمة، وذلك على اعتبار ان الإسلام قد ازال ما في نفوس الأمويين (1) من عصبية جاهلية، ولكن الخليفة الرابع لم يثق قط بمعظم الأمويين، خاصة أولئك الذين تأخر دخولهم في الإسلام من الفرعين السفيناني والمرواني، إذ يقسم في أحد المواقف تأكيداً لمقولته «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرؤا الكفر فلما وجدوا أعوانا أظهروه» (2).

فوثوق أبي بكر وعمر بالأمويين عامة وبمعاوية على وجه الخصوص لا يعني سلامة موقفهم بحيث يرتضيهم علي عليه السلام في معاونته على اعباء الحكم، فمعاوية الذي رفع راية العصيان في وجه علي عليه السلام، لا بد انه كان يتعجل موت عمر ويتمناه، وقد كان يتكلف ما يرضي عمر، لذلك فلقد تنفس الصعداء حين بلغة نبأ وفاة عمر وهو مازال على ولاية الشام، إذ اعتبر بقاءة في الولاية تزكية له فهو يقول لمن تفاهم إليه عثمان من اعيان أهل الكوفة حين عابوا سياسته وطالبوه بالاعتزال عن ولاية الشام «لقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري اقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث

ص: 264

1- لمعرفة رأي علي عليه السلام في الأمويين راجع: البلاذري - أنساب الأشراف 103/2، صفين لابنمزامح ص 215، خطب 24، 76، 91

2- ابن مزامح 215، رسائل - 16

ما ينبغي لي أن أعتزل عملي»(1)، ثم إن عثمان قد احتج بتلك الحجة(2) على علي عليه السلام حين ناقشه في شأن ولاته وبالأخص معاوية الذي كان يقطع الأمور باسم عثمان الذي لا ينكر عليه ذلك.

لقد وضحت نوايا الأمويين بجلاء في إبان حكومة عثمان، إذ لم يكن في مقدورهم اعتبار الحكم في ظل الشريعة الإسلامية على أنه خلافة، بل ملك، فقد استغل الأمويون قرابتهم من عثمان وحبه الشديد لهم اسوأ استغلال فأخذوا «يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع»(3)، فسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة يرى أن سواد العراق «بستان لقريش»(4) أما مروان بن الحكم(5) فإنه يرى أن الخلافة الإسلامية لن تخرج من البيت الأموي إلا بالدم معتبراً إياها سلطاناً وملكاً لا خلافة، وذلك بقوله وفي محضر من المسلمين في مسجدهم والحاكم حاضر «أما والله لا يرام ما وراءنا حتى تتواصل سيوفنا وتتقطع أرماحنا»(6).

فالتسلط والمال هما الهدفان اللذان كان الأمويون يرمون إليهما، وهم في سبيل ذلك مستعدون لدوس القيم الإنسانية، باستخدام أساليب الزيف والتضليل،

ص: 265

- 
- 1- تاريخ الطبري 325 /4
  - 2- راجع ص 229 وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في شأن ولاة عثمان هناك
  - 3- خطب - 3.
  - 4- تاريخ الطبري 323 /4
  - 5- مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. وهو ابن عم عثمان بن عفان، لم ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه خرج إلى الطائف طفلاً لا يعقل لما نفى أباه الحكم، وكان مع أبيه بالطائف حتى استخلف عثمان فردهما واستكتب عثمان مروان أسد الغابة 144 /5
  - 6- الزبير بن بكار: الأخبار الموقفيات 618. وقد ورد مثله في تاريخ الطبري 334 /4

بحيث وصلت بمعاوية الجرة أن يوهم طلحة والزبير بأنه بايع لهما بالخلافة على الشام شريطة استظهارهما طلب الثأر لعثمان والتمرد على خلافة علي عليه السلام لنقضها(1)، غير أنه بما سبب من دم، وبما سيحل بالاسلام من الكوارث، قد تؤدي إلى تمزيقه وتشتيت وحدته، كل ذلك في سبيل البقاء في السلطة، بعد أن عرف عزم علي عليه السلام على تجريده وبني أمية من المكاسب التي اجتتوها في عهد عثمان، لكونها من وجهة نظر الإسلام ثروات غير مشروعة، إذ يؤثر عن علي عليه السلام قوله في هذا الصدد «ألا ان كل قطعة اقطعها عثمان، ومال من مال الله فهو رد على المسلمين في بيت مالهم، والله لو رأيناه نكح به النساء، وتفرق به في البلدان، لرددناه، لأن الحق قديم لا يخلق، وأن لكم في الحق سعة، ومن ضاق عنه الحق فالباطل أضيّق»(2).

فالعنصر المادي الذي حاول علي صلى الله عليه وآله وسلم تجريد الأمويين منه، كان هو السبب المباشر في التصدي للتيار الديني الداعي إلى المساواة المتمثل في سياسته التي أعلنها في الأيام الأولى من قبوله الخلافة(3). وهو ما يدعونا إلى طرح مقولة ابن خلدون «بأن الفتنة بين علي عليه السلام ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دينوي، ولا لا يثار باطل...»

وانما اختلف اجتهادهم في الحق، وسفه كل واحد منهم نظر صاحبه...»(4)

على بساط المناقشة، فمفهوم العصبية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام - كما يبدو لنا يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهومها عند ابن خلدون، الذي يرى ان الدعوة

ص: 266

1- راجع رسالة معاوية إلى كل من طلحة والزبير شرح ابن أبي الحديد 1/ 231

2- خطب 15 . أورد الرضي القسم الأخير منها وأخذناها بتمامها من أبي هلال العسكري:

3- راجع خطب 16

4- المقدمة 1/ 269

الدينية لا يمكن ان تتكلم بالنجاح ما لم تعتمد على عصبية قومية(1) ، بانبا نظريته على الحديث الشريف «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه»(2) ، بينما يرى علي عليه السلام إن الذين أرادوا الكيد بالاسلام وإطفاء نوره هم قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعشيرته من قريش إذ يقول في إحدى رسائله لمعاوية «فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا، وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل وأحلسونا الخوف، واضطرونا إلى جبل وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب»(3) ، فالدين في نبذه للعصبية

ص: 267

1- السابق 199 /1 ، 200

2- السابق 199 /1 والحديث كما ورد بنصه عند أحمد بن حنبل الذي انفرد بروايته المسند 533 /2 قال صلى الله عليه وآله وسلم: قال لوط: لو ان لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال: قد كان ياوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته، فما بعث الله عزوجل بعده نبيا الا في ذروة قومه، قال أبو عمر: فما بعث الله عز وجل نبيا الا في منعة من قومه» فمن الملاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل «في منعة» ولكنه قال «في ذروة قومه» باضافة ذروة إلى قومه «وذروة كل شيء اعلاها»، ابن دريد الجمهرة 312 /2 ، والذروة هنا كما اعتقد يقصد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهاعلو النسب وعراقتة، وقد كان اعلى قريشاً نسباً واطيبها ارومة، الا انه لم يكن الاقوى ولا الاغنى، بلاضافة إلى ان القول «في منعة من قومه» لم يكن كما يبدو لنا في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما كان تعقياً من الرواي على قوله صلى الله عليه وآله وسلم كما ان الحديث بمفهوم العصبية التي أرادها ابن خلدون، لا يتسق مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات بشأن وضع الابناء في اقوامهم، من ذلك قوله تعالى: (رَوِيَ قَوْمٌ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) هود/89 ، فسياق الآية يدل على ان العصيان والشقاق تجاه دعوات الرسل يأتي عادة من ذوي البأس والقوة في اقوامهم. انظر الأعراف / 148 والتوبة/ 70 وهود/ 60 وق/ 12 ... ولو ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما اضطرته قريش هو صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته من الهاشميين والطلبيين إلى الشعب ولما عرض نفسه على القبائل الاخرى في مواسم الحج، ولما اضطرته قريش إلى الهجرة عن موطنه في نهاية المطاف

3- رسائل - 9

يجيز مقاومة العشير وقتلهم بدافع الجهاد في سبيل الله وهو فحوى فكر علي عليه السلام الذي يعبر عنه بقوله «لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان القتل ليدور بين الاباء والأبناء والأخوان والقرايات، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق»<sup>(1)</sup>. فالعصبية في مفهوم علي عليه السلام كما يتهاً لنا هي مجموعة من القيم الأخلاقية تعني التوق إلى بناء مجتمع مثالي يسير في ظل المبادئ الإسلامية. أما العصبية الأموية فهي مبنية على القيم الجاهلية التي تعتمد على النظرة الضيقة المحصورة في نطاق مصلحة العشيرة، كما أن العصبية الأموية لم تكن في اعتقادنا مبنية على أسس الاقتناع النفسي لكونها غلاًفاً خارجياً يقصد به المحافظة على المكاسب المادية، لذلك فإن ما اسماه ابن خلدون باجتهاد معاوية لا يتسق مع معنى الاجتهاد في الشريعة وهو «إعمال الرأي في التماس الحكم الشرعي»<sup>(2)</sup> في حالة عدم وجود نص الحكم لا في الكتاب ولا في السنة، ولكن القضية التي نشب النزاع بسببها بين علي عليه السلام ومعاوية حكمها ثابت شرعاً، كما يتهاً لنا، لأن الدعوة الأساسية التي عمد معاوية إلى تضليل جمهور أهل الشام والسذج من المسلمين، وطلاب الدنيا من ذوي المصالح، هي الثأر لعثمان من قتلته، وهي دعوى متهافئة من جميع جوانبها كما يتبين لنا من خلال ما تبودل من رسائل بين علي عليه السلام ومعاوية. فمعاوية من الناحية الشرعية ليس هو الولي بدم عثمان حتى يطالب بالثأر من قتلته لأن أبناء عثمان وأخوته أولى منه بذلك<sup>(3)</sup>، ثم ان علياً عليه السلام يفترض أنه لو قبل ولاية معاوية في المطالبة بدم عثمان على أساس القرابة، فعلية أولاً؛ أن يدخل فيما دخل فيه عموم الناس من بيعة ملزمة، ومن

ص: 268

1- خطب - 121

2- محمد تقي الحكيم: مقدمة كتاب النص والاجتهاد ص 43

3- راجع رسالة علي عليه السلام إلى معاوية: ابن أبي الحديد 89/3

ثم يحاكم القتلة أمام القائم بالأمر(1)، إذ لا يحق شرعاً لأي فرد من أفراد الأمة مهما علت منزلته أن يقتص من مجرم وأن يقيم حداً على زان أو أن يقتل قاتلاً في حالة وجود سلطة شرعية يمكنها القيام بذلك، لأن محاكمة الجناة في الإسلام وفي غيره من الشرائع السماوية والوضعية من اختصاص الحاكم، فقوله تعالى:

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلِيسُوفِ فِي الْقَتْلِ(2)، وهي الآية التي اعتمد عليها معاوية في تضليله في المطالبة بالاختصاص من قتلة عثمان، لا- تعني في تفسيرها: قيام أهل القتل وقرابته من الاختصاص له من قتلته بأنفسهم، بل عليهم أن يمثلوا ومن اتهموه بالقتل أمام الحاكم «فإن حكم بالحق استقيمت حكومته، وإلا فسق وبطلت إمامته»(3)، لذلك فإن ادعاء معاوية بالتظاهر من أجل دم عثمان، هو في تصور علي عليه السلام مثله مثل «خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال»(4)، تلك الخدعة التي حاول معاوية التستر بها للبقاء في ولاية الشام طيلة حياته وبدون أي التزام تجاه خلافة علي عليه السلام(5)، مما يعني استعداده للسكرتة عن عصبيته في المطالبة بالثأر من قتلة عثمان، فيما لو استجاب علي عليه السلام لطلبه.

فالغرض الدينوي الذي حاول ابن خلدون تبرئة معاوية منه هو لب ثورته المفتعلة وهو في الوقت نفسه السبب المباشر الذي جعل علياً عليه السلام يقف منه موقف

ص: 269

1- راجع قول علي عليه السلام لمعاوية في شأن عثمان وقتلته الرسالة رقم 64

2- الاسراء/ 33

3- ابن أبي الحديد 18 / 21

4- رسائل - 64، الفقرة الأخيرة

5- في طلب معاوية ولاية الشام من علي عليه السلام بتلك الشروط راجع: ابن مزاحم - صفين 470



المتصلب، من أجل افشال مخططات الأمويين وعلى رأسهم معاوية الذي «قاد لمة من الغواة وعمس عليهم الخبر»<sup>(1)</sup> فجعلهم لا يعرفون من يحاربون<sup>(2)</sup>

فمأرب معاوية من العصيان وتجريده الجيوش لمقاتلة علي عليه السلام كما نرى هو مأرب دنيوي، بينما نرى أن موقف علي عليه السلام المتشدد تجاه معاوية ومن شايعه من الأمويين موقف ديني يحث هدفه المحافظة على نصاعة تعاليم الإسلام، لأن الحزم عنده «أن يخطر أمر الدين ثم لا يفكر في الموت»<sup>(3)</sup>.

فسياسة معاوية كما تبدو من وجهة نظر علي عليه السلام مبنية على التلون حسب مقتضيات الظروف، مع استخدام جميع الأساليب المتاحة التي تمكنه من غرضه، فتارة يطالب بدم عثمان واخرى يلح على علي عليه السلام بإقراره على الشام، ثم أنه يهدد تارة ثالثة بالحرب، ويأمر بقتل النساء والأطفال وترويع الآمنين<sup>(4)</sup>، في الوقت نفسه الذي ينادي فيه بإنها الحرب، لما أحدثته من خسائر في الأرواح والأموال مستجيراً في ذلك برابطة الرحم<sup>(5)</sup>. على ان موقف علي عليه السلام من كل تلك الاساليب المتلونة واحد لم يتغير، وهو اعتبار معاوية فرداً من أسرة هدفها جعل الإسلام مطية لتحقيق أغراضها، فوجودهم ضمن المجتمع الإسلامي فتنة

ص: 270

1- خطب - 15

2- لقد مارس معاوية مع أهل الشام كل أساليب التضليل التي تنأى بهم عن معرفة حقيقة علي عليه السلام راجع على سبيل المثال: ابن الاثير: الكامل في تاريخ 159/3

3- المبرد: الكامل في الأدب 1/ 206

4- قول علي عليه السلام «وقد بلغني ان الرجل منهم يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة... الخبطة» خطب 27. هو من الصور البشعة التي كان جنود معاوية يمارسونها أثناء غارتهم على اطراف بلاد الإسلام في خلافته

5- يمكن استنتاج ذلك من رسالة رقم 17 وهي رد على رسالة من معاوية

شغلت حيزاً واسعاً من فكر علي عليه السلام، فتكرر ذكرهم في نهج البلاغة ما يقارب من اربع وخمسين مرة في ثمانية وثلاثين نصاً أثرت عن علي عليه السلام(1)، مما يعني استيعاب قضيتهم لمساحة واسعة من فكره السياسي، ليس بصفتهم معارضة هدفها اثراء الحوار الفكري والسياسي، ولكن لكونهم خطراً يهدد الإسلام من الداخل، ويحاول تقويض دعائم الرويحة، لذلك فإن من أهم الأسباب التي جعلت علياً عليه السلام يقبل الخلافة، في وقت لم تكن فيه الا مجرد مشكلة سياسية معقدة تجلب المتاعب والمحن لمن يتقلدها، الا لخوفه من استحواذ بني أمية عليها مما يتيح لهم تصريف شؤون الدين بحسب أهوائهم(2).

لقد شكل الأمويون خطراً حقيقياً على الإسلام سبب لعلي عليه السلام قلقاً فكرياً، باستخدامهم الأساليب الملتوية للوصول إلى غاياتهم دون مراعاة لأية قيمة دينية، فمعاوية يعقد صفقة بينه وبين عمرو بن العاص حين يجعل مصر - التي لم تكن تحت إمرته - طعمة لعمرو بن العاص طيلة حياته في سبيل استمالته إلى جانبه ضد علي عليه السلام(3)، ثم أنه يعقد صفقة ثانية مثلها مع خالد بن المعمر(4).

ص: 271

1- راجع الخطب: 43، 51، 55، 74، 76، 82، 85، 91، 95، 99، 103، 105، 136، 156، 160، 162، 164، 168، 178، 198، 236، والرسائل: 6، 9، 10، 15، 16، 27، 31، 32، 36، 43، 53، 57، 63، 69، والحكم: 120، 464، مع ملاحظة أنه تارة يعبر عن ذلك ببني أمية، وتارة أخرى بأهل

الشام وثالثة بمعاوية ويقصد من ذلك الأمويين على ما نعتقد

2- راجع قول علي عليه السلام في ذلك عند: البلاذري، أنساب الأشراف: 103/2

3- راجع الإمامة والسياسة 97/1

4- خالد بن المعمر الدوسي، كان رئيس بكر بن وائل في عهد عمر، وكان خالد مع علي عليه السلام يوم الجمل وصفين م امرائه، وعلى ما يبدو لم يكن مخلصاً لعلي عليه السلام بدلالة قوله الشاعر لمعاوية (طويل) وقائله مجهول: معاوي أمر خالد بن معمر \*\*\* فإنك لولا خالد لم تؤمر وقد أمره معاوية على أرمينية فوصل إلى نصيب فمات بها ابن حجر - الإصابة 461/1

قائد ميمنة علي عليه السلام ورأس من رؤوس ربيعة بصفين يجعل فيها خراسان طعمة له فيما لو تراجع عن مسيرته «وقد شارفوا أخذه»<sup>(1)</sup>، كما كان يستخدم أساليب الكذب والتضليل فيما لو أعيته الحيل من استمالة الرجال، من ذلك ما ادعاه من دخول قيس بن سعد بن عبادة<sup>(2)</sup> - والي مصر من قبل علي عليه السلام - في طاعته بعد ان يش من استمالته، مما أدى بعلي عليه السلام إلى عزله رغم إخلاصه، وذلك بإلحاح من بعض رجاله الذين انطلت عليهم خدعة معاوية وشكوا في نزاهة سعد وصدقة<sup>(3)</sup>، وهو ما كان معاوية يرمي إليه من وراء كذبه تلك، كما أنه استغل المال أبشع استغلال لشراء ضمائر ذوي الأطماع، فقد أخذ في مكاتبة وجوه أهل العراق، كالأشعث بن قيس وغيره، والبذل لهم بسخاء في سبيل تخذيل الناس عن علي عليه السلام، وبلغ به القول عن بذل الأموال في سبيل ذلك «والله لأستميلن بالأموال ثقات علي عليه السلام ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي على آخرته»<sup>(4)</sup>.

لكن كل تلك الأساليب الملتوية التي اتبعها الأمويون بقيادة معاوية لم تكن لتخفى على علي عليه السلام، ولا على أولي العزم من أصحابه الذين عاشروا الأمويين

ص: 272

1- ابن أبي الحديد 228/5

2- قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي من فضلاء الصحابة، وهو من ذوي الرأي والمكيدة في الحرب، مع النجدة والشجاعة، وكان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، مما يلي من أموره، صحب علياً عليه السلام لما بويع له بالخلافة، واستعمله على مصر، فكأيد معاوية فلم يظفر منه بشيء، فكأيد علياً عليه السلام وأظهر أن قيساً قد صار معه يطلب بدم عثمان، فبلغ الخبر علياً عليه السلام، فلم يزل به محمد بن أبي بكر وغيره حتى عزله، صار مع الحسن بعد مقتل علي عليه السلام توفي سنة تسع وخمسين أسد الغابة 4/424

3- راجع البلاذري - أنساب الأشراف 2/288، ابن الأثير الكامل في التاريخ 3/138

4- ابن مزاحم - صفين ص 319 وص 436

وخبروا نواياهم، فكان قول عمار بن ياسر «والله ما طلبتهم بدمه أي دم عثمان ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمروها وعلموا ان الحق ان لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم»<sup>(1)</sup> انعكاساً لفكر علي عليه السلام تجاه الأمويين، بحيث اعتبرهم فتنة لابد من استئصالها من جذورها، أو على الأقل تبصير المسلمين بمدى خطورتها لأنها «فتنة عمياء، مظلمة عمت خطتها، وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها»<sup>(2)</sup>.

لقد بذل الأمويون كل ما في وسعهم من جهد لزعزعة علي عليه السلام عن موقفه الفكري تجاههم، فلم يتمكنوا من تغيير سياسته تجاههم، قيد أنملة، فاستمرت مقاومته، لا تجاههم المادي بكل ضراوة سواء أكان ذلك باللسان أم بالسيف، فلما احسوا بعدم قدرتهم على مقاومته وان نهايتهم قد قربت في صفين، لجأوا إلى حيلة رفع المصاحف<sup>(3)</sup>، كورقة يدرأون بها الهلاك عن أنفسهم، مما فتح لعلي عليه السلام جبهة معارضة ثالثة، تولدت هذه المرة من بين أصحابه الذين حارب بهم أصحاب الجمل، والأمويين في صفين، فاضطر غير راغب إلى مواجهة تلك المعارضة التي أطلق على رجالها: لقب المارقين.

### ثالثاً: المارقون، أي الخوارج:

المروق هو الخروج من غير مدخله، والمارقة «الذين مرقوا من الدين لغلوهم

ص: 273

1- السابق

2- خطب - 92

3- راجع ذلك مفصلاً عند نصر بن مزاحم - صفين ص 478 وما بعدها وتاريخ الطبري 48/5 وما بعدها، وكامل ابن الأثير 160/3

فيه»(1) ، ولقد أطلق لقب المارقين على الخوارج لغلوهم في الدين، وتكفيرهم كل من يخالف عقيدتهم(2) وسموا أيضاً بالمحكمة الأولى لرفضهم صحيفة التحكيم(3) بعد أن أجبروا علياً عليه السلام على قبول عرض أهل الشام بتحكيم القرآن، إثر رفعهم المصاحف حين أوشكت أن تحل الهزيمة بهم، وأدركوا أن لا مفر من القيام بعمل يفت من عزيمة أصحاب علي عليه السلام، ويحول بينهم وبين النصر المحقق.

### 1 - موقف علي عليه السلام من قضية رفع المصاحف:

قد يقال إن قضية رفع المصاحف في صفين، هي من وحي ساعة الهزيمة كما تذكر معظم المصادر التاريخية(4) ، ولكن المرجح غير ذلك، لأن المفروض في أية قيادة عسكرية قبل عزمها على مواجهة عدوها أن تضع في حساباتها احتمالي النصر والهزيمة، وتضع لكلا الاحتمالين خطته المناسبة. لذلك فمن المعتقد ان قضية رفع المصاحف كانت محسوبة تماماً، ومخطط لها من قبل، باتفاق قد يكون مجرد فكرة في البداية، ولكن استتالة أمد الحرب، جعل ذلك الاتفاق شبه مؤكد بالنسبة لمعاوية، والمخذلين في جيش علي عليه السلام، خاصة أن المصادر التاريخية تطلعنا

ص: 274

1- لسان العرب المحيط 472/3

2- راجع عقائد الخوارج عند الاشعري، مقالات الإسلاميين ص 86 وما بعدها

3- راجع: الشهرستاني: الملل والنحل 1/115

4- راجع ذلك عند: البلاذري: انساب الأشراف 2/323 ، الدينوري: أخبار الطوال ص 188 اليافعي: مرآة الجنان 1/138 ، أما ابن مزاحم - صفين، ص 477 فيرى ان قضية رفع المصاحف قد أعد لها من قبل

على جوانب كثيرة من الحوار المتبادل بين طرفي النزاع فجاء أثناء فترات الهدنة(1) .

ثم أن فكرة تحكيم القرآن - في حد ذاتها - ليست جديدة أو مفاجئة بالنسبة لكلا طرفي النزاع، فلقد سبق ان عرضها علي عليه السلام على أصحاب الجمل، ولكن قبل نشوب المعركة كحل يتفادى به احتكام المسلمين إلى السيف(2) ، وليس عرضه على معاوية الدخول فيما دخل فيه الناس، ثم محاكمة قتلة عثمان بالقرآن(3) ، إلا من قبيل حقن الدماء، لذلك فليس من المستبعد ان يعلم أهل الشام بما فعله علي عليه السلام «من رفع المصاحف لأهل الجمل ففعلوا مثله»(4) .

فالمفاجأة لا تكمن في رفع المصاحف، ولكنها تكمن في توقيت رفعها، وهو مما أوقع كثيرًا من فرق الجيش المنتصر في الإرتباك والحيرة، ثم توقفها عن مقاتلة من لجأوا إلى القرآن حكماً. وهنا في هذا الموقف الدقيق والمحير تتجلى رباطة جأش علي عليه السلام وبعض أصحابه المخلصين، بإصرارهم على مواصلة القتال حتى النهاية، لا لأنهم لا يريدون النزول إلى حكم القرآن، ولكن مواصلة القتال كما يقول «ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه»(5) ، إلا أن استطالة امد الحرب، وما أحدثته المفاجأة من تشتت فكري، حال بين علي عليه السلام وبين اقناع أولئك المتمردين بالمضي في الحرب حتى

ص: 275

- 
- 1- راجع على سبيل المثال: الرسالتين المتبادلتين بين علي عليه السلام ومعاوية في صفين شرح ابن أبي الحديد 250/17 ، بشأن تداخل طرفي النزاع وتسامح بعضهما عن بعض راجع: صفين ص 332 ، 334 ، 335 ، 366 ، 368 ، 385
  - 2- راجع ذلك عند الطبري: تاريخ الرسل والملوك 4 / 511 ، ابن أعمش الكوفي: الفتوح 2 / 477
  - 3- راجع قول علي عليه السلام لمعاوية بشأن ذلك: رسائل 64 ، فقرة 5
  - 4- أنساب الأشراف 2 / 323
  - 5- ابن مزاحم - صفين، ص 489 - 490

نهايتها، في مقابل إصراره «جاء زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم... فنادوه باسمه، لا يا مرة المؤمنين: يا علي عليه السلام أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، والا قتلناك»(1). مع ملاحظة أن ذلك الحماس الجامح لم يكن عن اقتناع إيماني، وإنما هو وليد عاطفة آنية، ناجمة عن نظرة سطحية في مجريات الحوادث.

فمحاربتهم لمعاوية ومن ناصره من أهل الشام، قد كانت نابعة من اعتقاد ديني هدفه ارجاعهم عن ضلالهم، وها هم قد تابوا إلى رشدهم، واستجابوا لما يراد منهم لذلك فمن الملزم الاستجابة لطلبهم بالنزول إلى حكم القرآن في قضية الحاكم المقتول (عثمان). وقد حاول علي عليه السلام جاهداً ثنيهم عن عزمهم، وحثهم على مواصلة القتال بتبصيرهم بحقيقة الأمويين من خلال مرارة تجربته معهم، فهم من وجهة نظره «ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن... والله ما رفعوها - أي المصاحف - إنهم يعرفونها ويعلمون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة»(2)، فما اقدموا عليه بعد شعورهم بالهزيمة، كما يقول علي عليه السلام «ظاهرة إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة»(3) لذلك فمن واجب أهل العراق، المضي فيما هم عليه من جهاد العدو حتى النهاية «دون الالتفات إلى ناعق نعق، ان أجب أضل وان ترك ذل»، لكن جهوده في إقناعهم لم تقلح فأوقفهم تقديرهم المرتجل في شرك الخديعة التي حذرهم علي عليه السلام منها، والتي يمثل توقيت رفع المصاحف الجانب الأول منها، تلاه

ص: 276

1- السابق

2- المصدر السابق

3- خطب - 121 ، فقرة 2

اختيار من يمثل الطرفين في الحكم بالقرآن، في القضية المختلف فيها.

## 2 - اختيار الحكيم وموقف علي عليه السلام من ذلك:

بعد أن أجبر علي عليه السلام على وقف القتال، تبرع الأشعث بن قيس (1) بالوساطة بين علي عليه السلام ومعاوية، فاتفق هو ومعاوية على اختيار حكيمين (2)، مهمتهما فض نزاع الطرفين حسب شروط يتفق عليها. وقد حزم معاوية أمره على أن يكون عمرو بن العاص ممثلاً له في ذلك التحكيم (3)، وتلافياً من وقوعه فيما لا- يحمد عقباه من نتائج حاول ان يسد الباب في وجه علي، عليه السلام ويحول بينه وبين اختيار من يرتضيه حكماً، فاقترح علي الأشعث، بطريقتين مباشرة، أبا موسى الأشعري ليقوم بمهمة تمثيل أهل العراق في التحكيم، وذلك بعد ان أجال فكره في رجال علي عليه السلام، قال للأشعث، على

ص: 277

1- الأشعث بن قيس واسمه معدي كرب بن قيس، أسلم في السنة العاشرة من الهجرة، كان ممن ارتد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن، فأخذوا الأشعث أسيراً، فأحضر بين يديه فقال له: استبقني لحربك وزوجني أختك، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته... توفي بعد علي عليه السلام بأربعين ليلة سنة اربعين من الهجرة أسد الغابة 1/ 118 . قال الطبري في التاريخ 3/ 338 : كان الأشعث «يلعنه المسلمون، ويلعنه سبايا قومه، وسماه نساء قومه: عرف النار كلام يمان يسمون به الغادر»، وقال عنه ابن أبي الحديد 1/ 297 «كان الأشعث من المنافقين في خلافة علي عليه السلام وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه

2- راجع صفين ص 498 ، 499

3- المصدر السابق نفسه



سبيل الاقتراح المتضمن النصح «إن الناس قد ملوا هذه الحرب، ولم يرضوا إلا-رجلاً له تقيّة، وكل هؤلاء لا تقيّة لهم يعني رجال علي عليه السلام المخلصين ولكن انظروا اين انتم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تأمنه أهل الشام، وترضى به أهل العراق، فقال عتبة: ذلك أبو موسى الأشعري»<sup>(1)</sup>، فوجد الاقتراح قبولاً عند الأشعث، فكان لمعاوية ما أراد. فعلي عليه السلام على الرغم من انحراف أبي موسى الأشعري عن علي عليه السلام إلا ان الأشعث وبقيّة اليمانية<sup>(2)</sup> في جيشه، بالإضافة إلى القراء، قد ألزموه على قبوله رغم محاولاته المستميتة في رفضه، وتنبيه أولئك المتمردين بمغبة اختيارهم، عليهم يتكون له مجال ترشيح من يراه أهلاً لمواجهة دهاء عمرو بن العاص. لكن إرادته لم تفلح للمرة الثانية، فاستقر رأي الفريقين على الحكمين برضا معاوية، وسخط علي عليه السلام، ولم يبق الا الاتفاق على شروط التحكيم وكتابتها.

### 3 - شروط التحكيم وما تنطوي عليه من أبعاد:

لقد تم بين قيادة العراق المتمثلة في الخلافة الشرعية وبين قيادة الشام المتمثلة

ص: 278

1- ابن قتيبة الإمامة والسياسة 1/129. أما عتبة الذي ذكر أبا موسى الأشعري تعقباً على حديث معاوية، فهو عتبة بن بي سفيان (ت 44 هـ) أخو معاوية - ترجمته في أسد الغابة 3/560، اما الاقتراح بترشيح أبي موسى الأشعري بالذات فلأنه منحرف عن علي عليه السلام، ثم انه ضعيف الشخصية بإزاء دهاء عمرو بن العاص. راجع بذلك الشأن ما قاله علي عليه السلام عنه في صفين ص 499 وما أورده ابن عبد البر عن انحراف الأشعري عن علي عليه السلام في: الاستيعاب بهامش الإصابة 2/372 وعن الخلل في شخصية أبي موسى الأشعري. راجع وصية معاوية لعمر بن العاص حين توجه إلى مكان التحكيم عند: ابن عبد ربه العقد الفريد 4/347

2- إصرار اليمانية على أبي موسى الأشعري لأنه يمانى - راجع صفين ص 500

في الإمارة المتمردة، على صيغة التحكيم وشروطه التي من أهمها: رضا أهل العراق وأهل الشام النزول «عند حكم القرآن، والوقوف عند أمره، وأن لا يجمع

(بينهم) الا- ذلك (وأنهم) جعلوا كتاب الله فيما بينهم حكماً فيما (اختلفوا) فيه من فاتحته إلى خاتمته»(1). فالإختلاف الأساسي بين الطرفين هو مطالبة معاوية الاقتصار من قتلة عثمان ليس غير، والقضية محسومة سلفاً من وجهة نظر علي عليه السلام، الذي لا يرى في مطالبة معاوية تلك أي مبرر للخروج على الخلافة الشرعية. وهذا ما جعل الحقيقة تتكشف لأولئك الذين اغتروا برفع المصاحف من أصحاب علي عليه السلام، فثابوا إلى رشدهم، ولكن بعد أن تم توقيع الصحيفة، مما لا يمكن معه نقضها إطلاقاً على الأقل من وجهة نظر علي عليه السلام لما تتضمنه من التزام خلقي فحواه المحافظة على العهد والتمسك بالمواثيق.

فلقد عاد أولئك الذين أرغموا علياً عليه السلام على إيقاف الحرب، يطالبونه باستئنافها مقرين بخطئهم، وبمشاركته الذنب معهم حين استجاب لهم، متأولين بذلك الاقرار بالذنب والتوبة عما بدر منهم(2)، لكن علياً عليه السلام لم يقبل عذرهم، ولا طلبهم باستئناف القتال - لا لأنه لا يرغب في مواصلتها - ولكنه ملتزم بعهد لا يمكنه نقضه، لأن في ذلك نقضاً لقوله تعالى:

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَنٌّْ مَسْئُولًا)(3) مما يخالف منهجه الإسلامي.

ص: 279

1- صفين ص 499 وما بعدها

2- راجع السابق ص 513 وما بعدها

3- الإسراء / 34

إن المواجهة بين علي عليه السلام والخوارج تكمن في اختلاف وجهتي نظرهما من نواحٍ عدة فكرية تضمنتها صحيفة التحكيم بعد إقرارها، ويمكن تبيان ذلك الخلاف من خلال نقاط ثلاث هي:

1 - مفهوم تحكيم القرآن كما نصت عليه الصحيفة: فقد تأول الخوارج ما جاء في صحيفة التحكيم بشأن رجوع الحكمين إلى القرآن فيما اختلف طرفا النزاع فيه، على أنه تناول على القرآن بقبول علي عليه السلام تحكيم الرجال فيه والوصاية عليه (1). وهو تأويل ينم عن قصور في نظرهم الفكرية تجاه استنباط الأحكام من القرآن الكريم. وقد حاول علي عليه السلام ان ينبههم لذلك بقوله «أنا لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مستور بين الدفتين، ولا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال... وقد قال الله سبحانه:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، ورده إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان نأخذ بسنته» (2).

فصحيفة التحكيم لم توكل للحكمين الوصاية على كتاب الله، بل جعلتهما ناطقين فيما اختلف الفريقان عليه، مما يعني الخطأ في فهمهم لمقولة «لا حكم الا الله» لأن الله سبحانه قد امضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع باستنباط الأحكام مما نص القرآن عليه.

ص: 280

1- راجع بذلك الشأن الدينوري: الأخبار الطوال ص 196 ، 197

2- خطب 125 . والاية من سورة النساء/ 59

إسقاط علي عليه السلام حقه في الخلافة بتخليه عن لقب أمير المؤمنين في الصحيفة:

ويرى علي عليه السلام ان موافقته على محو اللقب من تلك الوثيقة لا يغير من واقع كونه الخليفة الشرعي وهو بعملة ذلك انما أخذ سابقة حدثت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قبل، فقد وافق صلى الله عليه وآله وسلم من محو لقب (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من صحيفة صلح الحديبية، نزولاً عند رغبة الكفار، مما يعني ضمنا اعتبار علي عليه السلام بني أمية في عداد المنافقين الذين اظهروا الإسلام واسروا الكفر، مثلهم مثل الكفار الذين كتب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معهم صحيفة صلح الحديبية(1) .

### 3 - موافقة علي عليه السلام على شرط الهدنة التي نصت الصحيفة عليها:

فقد نعي الخوارج على علي عليه السلام التزامه بفترة الهدنة التي نصت الصحيفة عليها - مما يعني من وجهة نظرهم - تساهله في طلب الحق، وقد بين لهم، أن سبب قبوله فترة الهدنة تلك، لا يعني تراخيه وفتوره عن مطالبة الحق، لكنه يعني افساح المجال للطرف المقابل في التفكير «ليتبين الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بأكظامها فتعجلعن تبين الحق»(2) .

ولكن إسقاط الحكمين رغبتهما الذاتية في فحوى التحكيم، بعد فترة الهدنة أدى إلى توسيع هوة الخلاف بابتعادها عن مناقشة جوهر الخلاف الكامن فيما نصت عليه

ص: 281

---

1- راجع محو النبي صلى الله عليه وآله وسلم اسمه من صحيفة الحديبية، نزولاً عند رغبة قريش وقوله لعلي (لتبتلين بمثلها). ابن الأثير الكامل في التاريخ 138/2 ، ثم راجع موقف علي عليه السلام من كتابة وثيقة التحكيم، والجدل الذي دار بينه وبين عمرو بن العاص حين وافق على محو امرة المؤمنين من اسمه. صفين 508 ، الأخبار الطوال ص 194 ، شرح ابن أبي الحديد 532/2

2- خطب 125 . والأكظام جمع كظم: مخرج النفس: والاخذ بالأكظام: المضايقة

الوثيقة من شرط فحواه، جعل القرآن حكماً في ما اختلف الطرفان فيه. فكلا الحكيمين قد جاء إلى مكان التحكيم حاملاً خلفيات مسبقة، لا تمت لقضية الخلاف بصلة.

فوثيقة التحكيم لم تنص اطلاقاً على مناقشة تغيير الخليفة، أو استحقاق الخلافة، ثم انها لا تخول الحكيمين حق التثبيت والخلع، فأهل الشام كانوا قد بايعونا معاوية على الأخذ بالثأر من قتلة عثمان(1)، وكان ذلك مطلبهم حتى اليوم الذي توقف القتال فيه، مما يعني أن الخلاف الذي يجب أن يعرضه الحكمان على كتاب الله هو الحكم في (مقتل عثمان)، اما رغبة أبي موسى الأشعري في احياء سيرة عمر بن الخطاب(2)، ورغبة عمرو بن العاص في تثبيت معاوية حاكماً(3)، فذلك من وجهة نظر علي عليه السلام خروج عن روح الصحيفة، ونبد لكتاب الله بتحكيم الرغبات والأهواء(4) لذلك فليس ثمة خدعة فيما صدر عن الحكيمين من حكم، فقد تكون الخديعة في توقيت إيقاف الحرب المفاجئ، وفي ترشيح أبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، وقد حاول علي عليه السلام تلافي كل ذلك في ابانه، الا ان نتيجة التحكيم لم تكن مفاجئة بالنسبة لعلي عليه السلام ولأصحابه المخلصين لعلمهم بدخيلة كلا الحكيمين.

لقد أحدثت نتيجة التحكيم شرخاً عميقاً في صفوف رجال علي عليه السلام، إلا انها لم تغير من موقفه الصلب تجاه معاوية في معاودة الكرة لإزالته ومن شايعه من القرشيين، لذلك فقد بذل كل ما في وسعه من جهد لإقناع الخوارج بالعودة إلى الجماعة، محاولاً توضيح ما وقعوا فيه من لبس بخلطهم بين مفهومي الحكومة والتحكيم. وجره ذلك إلى الدخول معهم في صراع فكري ثري وعميق، اتخذ

ص: 282

1- راجع ابن مزاحم - صفيين ص 32 ، 541 وما بعدها

2- المصدر السابق

3- المصدر السابق

4- راجع خطب 125

مسارب متعددة يمكننا من خلالها استكناه فكره في محاربه لأهل الملة(1)، وحقيقة الكفر والایمان ومعنى التوبة(2). ويبدو أن تلك المناظرات الفكرية قد بلغت من الاتساع الحد الذي ادى بالخوارج إلى اللجوء إلى تأويل آيات القرآن الكريم بما يتناسب وميولهم الفكرية، مما حد بعلي عليه السلام إلى أن يوصي ابن عباس أثناء مناظرته مع الخوارج أن يعتمد على السنة دون القرآن بقوله «لا تخصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال، ذو وجه، تقول ويقولون...، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا منها محيصاً»(3)، وكاد ذلك الجدل أن يؤتى ثماره، حين عاد الخارجون عن الجماعة إلى صفوف أصحاب علي عليه السلام بعد ان اقتنعهم بالاستغفار والتوبة(4).

### موقف الأشعث بن قيس من عودة الخوارج:

لم تكن عودة الخوارج وانتظام أمر الإمام علي عليه السلام في صالح الأشعث ومن

ص: 283

---

1- راجع المناظرات التي دارت بين الخوارج وعلي عليه السلام عند: السكوني: عيون المناظرات ص 169، 180، 181

2- المصدر السابق نفسه

3- رسائل - 77

4- يقول ابن أبي الحديد 2/280: حاول علي عليه السلام أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض والمواربة من ذلك أنهم قالوا له: تب إلى الله مما فعلت، كما تبنا نهض معك إلى حرب أهل الشام فقال لهم كلمة مجملية مرسلة، يقولها الأنبياء والمعصومون وهي قوله: استغفر الله من كل ذنب، فلم يتركه الأشعث، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً، وهاتكأ ستر التورية... ولم يستفسره عنها الا بحضور من لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دخن... والجأه بتصديق الخناق عليه، أن يكشف ما في نفسه، فانتقض ما دبره وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى

شايعة من أصحاب المصالح الخاصة الذين يعملون لمعاوية في الخفاء. لذلك فما ان سماع الأشعث نبأ عودتهم حتى أخذ يلح على علي عليه السلام، كي يجعله يفصح عن موقفه الذي حاول تعميته سياسة منه لاستمالة الخوارج، مما جعله في نهاية المطاف يصرح بما أضمره(1)، ويعترف بتمسكه بكل شروط وثيقة التحكيم، وانه لن يعدل عنها، ولن يعاود محاربة معاوية، إلا بعد انقضاء الهدنة وظهور نتيجة التحكيم، فكان لذلك العمل المتعمد من الاشعث أثره في انسلاخ الخوارج عن جماعة الإمام علي عليه السلام مرة ثانية، فاستجد الجدل بينه وبينهم، وتمكن من اقناع الكثير منهم(2). ولكن بقي عدد منهم لا يستهان به على موقفهم المتصلب من سياسته، مما حتم المواجهة الدامية معهم.

### المواجهة الدامية وأسبابها:

لما ينس الإمام علي عليه السلام من اقناع البقية الباقية من الخوارج، تركهم وما هم عليه، متجنباً الدخول معهم أية حرب، فأجرى لهم الأرزاق مثلهم مثل غيرهم من المسلمين الداخلين في طاعته، شريطة ألا يثيروا أي مشاكل(3)، وكان غرضه تحييدهم، حتى يتسنى له التفرغ إلى معاوية مصدر الخطر الرئيسي على دولة الإسلام. لكن اصرارهم على المكابرة وتماديهم في العصيان والتأليب،

ص: 284

1- انظر الهامش السابق

2- بشأن جدل علي عليه السلام مع الخوارج الذي على أثره اقتنع بعضهم بالعودة إلى صفوفه راجع: ابن أعثم الكوفي: الفتوح 2/ 251، 252

3- بشأن إجراء أرزاق الخوارج، راجع قول علي عليه السلام عند البلاذري أنساب الأشراف 2/ 359

ومقاطعته أثناء صلاته (1)، ووصمهم إياه بالكفر في ملاء المسلمين (2)، جعله ينذرهم مصوراً ما سيؤولون إليه، إن هم لم يرتدعوا (3)، لكنه في النهاية لم يجد بداً من الدخول معهم في معركة كادت تستأصلهم (4)، بعد أن أحدثوا أحداثاً تألولوها لا يمكن السكوت عنها (5).

### موقف علي عليه السلام من الخوارج بعد فراغه من محابتهم:

إن محاربة علي عليه السلام الخوارج وانتصاره عليهم، لم يسلبهم حقوقهم الشرعية في الوقت الذي كان يحض فيه على مقاومة الأميين، فقله «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» (6)، هو من قبيل المقارنة بين موقفه من الخوارج اللذين «لم يطلبوا الباطل بكونه باطلاً بل طلبوا الحق بالذات، فوقعوا بالباطل، ومن لم يكن غرضه الا- الحق لم يجزئته» (7)، وبين معاوية المشار إليه في المقولة (بمن طلب الباطل فأدركه).

ص: 285

1- حول مقاطعته في صلاته راجع ابن أبي الحديد 2/ 268 و 311، أما بشأن اتهامه بالكفر، فراجع استنكاره عليهم ذلك في خطب 57، وتعقيب الخارجي على حديث علي عليه السلام في حكم 428 وبشأن تحذيره لهم راجع خطب 36

2- انظر الهامش السابق

3- المصدر السابق

4- كان ذلك في معركة النهروان سنة سبع وثلاثين هجرية. راجع تاريخ الطبري 5/ 84 وما بعدها

5- راجع مثلاً تأولهم قتل عبد الله بن خباب، وقتلهم الخنزير: أنساب الأشراف 2/ 367 وما بعدها

6- خطب 60

7- ميثم البحراني: شرح النهج 2/ 155



اتخذت سياسة علي عليه السلام من مناوئيه موقفين مختلفين، فقد اعتبر محاربه لأصحاب الجمل ولأهل الشام من الفئة القرشية من قبيل ازاحة الباطل واحقاق الحق بالعودة بتعاليم الإسلام إلى أصلتها التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما محاربه لمناوئيه من الخوارج، فلقد كانت من أجل تطهير صفوفه وتوحيد جبهته الداخلية للنفرة للعودة لأهل الشام. وهو ان استطاع ان يحسم قضيته مع الخوارج جزئياً، الا انه لم يتمكن من الوصول إلى غايته من مواجهته لقريش، التي كانت إرادتها ان تكون جبهة واحدة تتصدى لكل من يعرض مصالحها الذاتية للخطر كائناً من كان.

#### رابعاً إرادة قريش كما تبدو في فكر علي عليه السلام:

رابعاً إرادة قريش (1) كما تبدو في فكر علي عليه السلام:

على الرغم من صعوبة الحياة، وجفاف الأرض وقلة المطر في ارض

ص: 286

1- قريش: قبلية عربية عظيمة تتكون من تحالف عدة بطون ينتمون لأب واحد على ما ذهب إليه جمهور النسابين اما ما قيل في تسميتهم بقريش يمكن الرجوع إليه في المظان الاصلية وتنقسم القبيلة إلى قسمين عظيمين: قريش البطاح وهم الذين ينزلون الشعب بين اخشي مكة، وقريش الظواهر وهم الذين ينزلون خارج الشعب. ويرجع الفضل في اعزاز جانب قريش إلى قصي بن كلاب، فهو الذي جمعهم من متفرقات مواطنهم من شبة جزيرة العرب، واستعان بمن اطاعه من احياء العرب على حرب خزاعة التي كانت تهيمن على البيت العتيق، فطردهم عنه وتولاه وتراس على قومه بعد دماء غزيرة بينهم وبين خزاعة التي اقرت لهم بالسيادة على مكة في نهاية الأمر. ولما كانت قريش سكان الحرم وحمامته، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع فقد كانوا يمرون في الشتاء والصيف آمنين والناس يتخطفون من حولهم، فلا يتعرض الناس لهم، وبذلك اشتهرت قريش بالتجارة، حتى قيل أنها سميت بقريش اشتقاقاً من القرش أي الاكتساب، وقد اكتسبت قريش مكانتها بين العرب في الجاهلية لكونها محط البيت مجمع آلهتهم ومحط أسواقهم التجارية والأدبية، ثم انها اكتسبت مكانتها في الإسلام لكونها القبيلة التي ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها راجع: القرطبي: الجامع لإحكام القرآن 20 / 202 وما بعدها، القلقشندي: نهاية الأدب في معرفة انساب العرب ص 364 وما بعدها، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب 947 / 3 وما بعدها

الحجاز فلقد تمكن القرشيون من تكوين مجتمع مستقر حول بيت الله الذي كانت العرب تؤمه من كل حدب وصوب ويفضل ذلك الاستقرار وقدسيتها الأرض تبوأ الحجاز مكانة استراتيجية هامة، إذ أصبحت همزة وصل لأهم طرق التجارة الصحراوية بين الشام واليمن والحبشة وفارس، فانتعشت الحياة في مكة، فقد افادها الاستقرار في نمو تجارتها الخاصة المعتمدة على أسواقها الموسمية<sup>(1)</sup> التي يحضرها العرب لشراء ما يحتاجونه ومقايسة سلعهم بسلع أخرى، بالإضافة إلى عرضهم على قريش ما جادت به قرانهم من أشعار، والتحاكم إليها وإلى قبائل العرب الأخرى بشأنها<sup>(2)</sup>. ولأهمية التجارة في حياة قريش، فقد عقدت اتفاقيات سلام مع كل الممالك والامبراطوريات المجاورة، «فكان هاشم يؤلف ملك الروم، أي يأخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به تجارته إلى الشام، واخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس»<sup>(3)</sup> فتدقعت بسبب ذلك الثروات على الحجاز مما جعل قريشاً في بحبوحة من العيش والرخاء، فتولد عن ذلك التفاوت في طبقات المجتمع، فانقسم «في القرن السادس للمسيح إلى ثلاث فئات: الأولى قريش ولها كل الحقوق، والثانية حلفاء قريش وهم اناس من العرب، والثالثة العبيد الذين لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم»<sup>(4)</sup> وعادة ما يؤدي مثل ذلك الانتعاش الاقتصادي إلى الميل إلى الاستقرار والدعة وتجنب التغيير، كما ان الميل إلى

ص: 287

1- حول تعامل قريش واسواقها، راجع: كحالة: معجم قبائل العرب 949/3

2- من ذلك قول ابن قتيبة: الشعر والشعراء 101/1 «كان النابغة يضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ، فتاته الشعراء فتعرض عليه اشعارها»

3- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 204/20

4- مغنية: التفسير الكاشف 612/7

المادة والتمرس بأعمال التجارة يتعارض والتقلبات الاجتماعية. لذلك رفض القرشيون الإسلام رفضاً قاطعاً، وقاوموه بضراوة، وتتبعوا مؤيديه والمؤمنين به بالتعذيب والقتل والسجن والتشريد، كل ذلك في سبيل ابقاء المجتمع المكي مستقراً في حياته الرتيبة التي ورثها الأبناء عن الآباء أجيالاً متعاقبة، خاصة ان عقلياتهم التجارية التي تضع المادة نصب العين كانت ترى في الرسالة زعزعة للاستقرار وتغييراً في التركيبة الاجتماعية تفقدتهم مكانتهم التي تبواتها كعقيدة دينية سمحة من أهم مبادئه المساواة بين الناس بمحو التفاضل والتفاخر وازالة التفاوتات الاجتماعية بالاتجاه نحو عبادة إله واحد، هورب لكل البشر، مما يعني ان رعايتهم لما في الكعبة من اصنام سيزول، وستزول معه وصايتهم على أديان العرب، لذلك وقفت في وجه الإسلام جبهة متحدة، وقاومته بالمال والحرب مقاومة شعواء منذ بزوغ نوره، ولم تسلم بالأمر الواقع إلا بعد أن رأّت جيوش الإسلام قد أحاطت بشعاب مكة، فكان دخولها الإسلام رهبة لا رغبة، فخدمت العصبية القرشية وبقيت جذوتها في النفوس متقدة نعمة على الهاشميين، وبالأخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام متحينة الفرصة ولو بعد حين.

لقد خسرت قريش كثيراً في مواجهتها المباشرة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ففقدت كثيراً من أبطالها، ومن ثم مكانتها كمركزاستقطاب للقبائل العربية، ورضخت في نهاية الأمر مرغمة لإدارة الله فأكسبتها تلك الحوادث الأليمة تجارب قيمة، فلم ترتد عن الإسلام حين ارتدت الكثير من قبائل العرب(1)، ثم انها دعمت أبا بكر وساندت تثبيت حكمه حين وجدت مصلحتها تقتضي ذلك(2).

ص: 288

1- راجع ابن الاثير: الكامل في التاريخ 2/220

2- بشأن موقف قريش من بيعة أبي بكر ومعاضدتها حكمه، راجع ابن قتيبة: الإمامة والسياسة 1/11 وما بعدها

وتعاونت مع عمر بن الخطاب بحذر شديد وفي حدود مصلحتها فلما احست بخطره على طموحاتها، وتأكد لها أنه سيجعلها اسوة بغيرها(1) دبرت اغتياله - فيما نعتقد - بيد غريبة، وهي بمنأى عن الاتهام(2)، ثم تعاونت مع عثمان واطهرت له الود والاخلاص حين سمح لها بما لم يسمح به عمر من الإنسيح في الامصار الإسلامية واقتناء الضياع وامتلاك العبيد، وجمع الثروات، وبناء الدور الفخمة(3)، ولكن تفضيله فئة قرشية على أخرى جعله موضع سخط .

ص: 289

- 1- جاء عند الطبري في تاريخه 397/4 ان عمر «لم يمت ملته قريش»، وروى اليعقوبي في تاريخه 154/2 قول عمر في اخر سنة من حكمه «ان عشت هذه السنة ساويت بين الناس، فلم افضل أحمر على أسود، ولا عربياً على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر»
- 2- إن اغتيال عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة، ذلك العبد الذي قيل عنه أنه ربما كان مجوسياً أو مسيحياً، وتحت سمع المسلمين وبصرهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لِمَنْ الأمور التي تبعث على الشك، وتطرح كثيراً من التساؤلات، إذ كيف تسنى لذلك العبد ان يقدم على الدخول إلى المسجد دون ان يلفت إليه الانظار، في وقت يقتضي تواجد جل المسلمين فيه، ثم ان الحوار الذي دار بين عمر والعبد لا يشكل دافعاً لقيام العبد بذلك العمل الجريء، اضافة إلى ذلك فإننا نستبعد ان يكون الاغتيال بدافع الشعوبية، لأن القاتل لم يكن في مستوى النضج الفكري بحيث يشكل عنده الدافع القومي هاجساً ينزع به إلى القتل، اذ ان المصادر التاريخية لم تحدثنا ان القاتل مصاب بلوثة أدت به إلى الإقدام على ذلك، مما جعلنا نعتقد ان قريشاً هي التي دبرت مقتل عمر، فأغرت به ذلك العبد وهيأت له الظروف المناسبة بطريقة محكمة وذكية، لأنها احست بتهديد عمر لمصالحها المادية بالعودة بنظام توزيع الأموال كما كان عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر بشأن موقف عمر من قريش في آخر حياته راجع تاريخ الطبري السابق، أما بشأن اغتيال عمر فراجع أحداث السنة الثالثة والعشرين هجرية في جميع المصادر التاريخية
- 3- بشأن معاملة عثمان اللينة لقريش راجع تاريخ الطبري 397/4

الفئة المفضولة(1) ، وترى الفئة المفضولة(2) التي لا تهمها سوى امتيازاتها، فاتحدت الفئتان في الاهداف، فكانت النتيجة اغتيال الحاكم الثالث في منأى من اتهام قريش أيضاً. ولكنها أخطأت التقدير حين واجهت علياً عليه السلام في وقعة الجمل، مما جعلها تعود لمراجعة حساباتها ثانية، فتتخفى وراء سياج متين من سياسة الخداع، بالالتواء على النص القرآني وتأويله بما يتناسب ومصحتها، فكان لها ما أرادت في صفيين، حين استطاعت ان تقف حائلاً دون عودة الصف الإسلامي إلى وحدته في كنف السياسة الدينية المتمثلة في الخلافة.

ان اغتيال عثمان احدث ارباكاً في صفوف القرشيين المتربصين به، فطلحة الذي كان يتهيأ للأمر لم يتمكن من التحرك السريع لاحتواء القضية، وعائشة التي كانت تبارك طموحات طلحة، كانت غائبة عن ساحة الاحداث، هذا بالإضافة إلى الوجوم والهلع الذي حل بالناس أثر ذلك العمل المريع، فلم يعد زمام المبادرة في المرة الرابعة بيد قريش، التي عادة ما توجه السياسة الإسلامية في المدينة حيث تريد، لذلك توجه المسلمون المتواجدون المدينة عن بكرة أبيهم إلى علي عليه السلام لمبايعته، الأمر الذي لم يكن يخطر ببال قريش لأن زعامتها تدرك جيداً أنه لو وليهم «لم تخرج من بني هاشم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش»(3) .

وقد ترتضي قريش علياً عليه السلام أو غيره من أفراد بني هاشم خليفة، فيما لو ترك لما ما تريد، الا ان زعاماتها لم تنس مقولة عمر بن الخطاب لعلي عليه السلام قبيل وفاته «إنك

ص: 290

---

1- راجع ص 230 وما بعدها من هذا البحث

2- بشأن موقف معاوية من مقتل عثمان، راجع تاريخ الطبري 4/ 368 ، وراجع أيضاً رسائل 37

3- تاريخ الطبري 4/ 233

أحرى القوم أن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم»(1)، فقريش لا تريد من الحق الا الذي يكون في صالحها. وذلك يتعارض تماما مع مبادئ علي عليه السلام في سياسته للناس، لذا «اجتهدت قريش كلها من مبدأ الأمر في اخماد ذكره وستر فضائله»(2).

فقريش عن بكرة ابيها لا- تنكر فضل علي عليه السلام وسابقته وشجاعته وتشدده في ذات الله الا انها لا ترضى بتطبيق ذلك عليها. يقول عمرو بن العاص لمعاوية ضمن حوار دار بينهما حول تأمرهما على افشال خلافة علي عليه السلام«أما علي فلا تسوي العرب بينك وبينه في شيء من الاشياء، وأن له في الحرب لحظا ما هو لأحد من قريش، قال معاوية: صدقت، وانما نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه دم عثمان، فقال عمرو: وإن أحق الناس أن لا يذكر عثمان لا أنا ولا- أنت، أما أنا فتركته عيانا وهربت إلى فلسطين، أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام»(3). وفي الجانب الآخر من قريش تألبت على خلافته عاتشة ومن ورائها طلحة والزبير وغيرهم من موتوري قريش من ذوي الثراء، لأنه لم يكن ليرخص لهم أن يثروا على حساب عامة المسلمين خاصة بعد أن عرفوا عزمه الأكيد على رده كل ما اقتطعه عثمان لأهله من قطائع وأموال من بيت مال المسلمين(4)، لذا «لم يحارب علياً عليه السلام من العرب أحد إلا قريش ما عدا يوم النهروان»(5)، وحتى يوم

ص: 291

1- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة 25 / 1

2- ابن أبي الحديد 18 / 8

3- انساب الاشراف 287 / 2

4- راجع خطبة 15

5- ابن أبي الحديد 221 / 10

النهران وان لم يتقابل فيه علي عليه السلام قريشاً وجهاً لوجه، إلا أن من حاربهم في تلك الموقعة، قد خرجوا عليه بتدبير ومكيدة من قريش في صفين(1)، فالخوارج نتيجة طبيعية لما دبرته قريش لعلي عليه السلام، فلقد كانت إرادتها ان تبدأ القتال مع علي عليه السلام متى تشاء وبالأسلوب التي تشاء، وتنتهي القتال بالطريقة التي ترتبها في صالحها دون مراعاة لأية قيمة اسلامية، مما أودى بحياة آلاف من المسلمين في صفين(2)، كل ذلك في سبيل السلطة والمال.

لقد كانت شكوى علي عليه السلام من تألب قريش عليه وعلى حكومته ممضنة ومؤلمة، فهي قد أضمرت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ضروباً من الشر والغدر»(3)، فلما لم تتمكن من إصابته بشر ودخلت الإسلام مرغمة، صبت جام حقدتها على آل بيته عليهم السلام في الوقت الذي كانت تتخذ من اسمه صلى الله عليه وآله وسلم «ذريعة إلى الرياسة، وسلماً إلى العزوالإمرة»(4)، ولولا حصولهم على تلك الامتيازات لما «عبدوا الله بعد موته يوماً واحداً ولارتدت في حاضرتها»(5). فمباهاة قريش بالإنتماء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتصريحهم بحبه في الملاء، ما هو - في رأي علي عليه السلام - الا طلاء خارجي ليحققوا الثراء في الوقت الذي يطؤون فيه رقاب آل بيت عليهم السلام هويحاولون اخماد ذكرهم(6).

ص: 292

1- راجع ص 274 وما بعدها من هذا البحث

2- انفضت وقعة صفين عن سبعين ألف قتيل، خمسين ألفاً من أهل الشام، وعشرين ألفاً من أهل العراق - العقد الفريد 343

3- ابن أبي الحديد 20 / 298

4- ابن أبي الحديد 20 / 298

5- المصدر السابق نفسه

6- أثر عن علي عليه السلام قوله ضمن المأثورات التي جمعها ابن أبي الحديد 20 / 308 «مالنا ولقريش يخضمون الدنيا باسمنا ويطؤون على رقبانا، فيا لله وللعجب، من اسم جليل لمسمى ذليل»

لذلك كان اصرار علي عليه السلام على مواجهتهم والحد من اطماعهم ووضعهم في المنزلة التي أرادها الإسلام لهم، فقريش الامس من وجهة نظر علي عليه السلام هي قريش اليوم، لم تتغير الا من حيث المظهر الخارجي، فالحمية الجاهلية مازالت مستكنة في نفوسهم لم يهذبها الإسلام، يقول لأخيه عقيل الذي اخبره بتسلل القرشيين من المدينة إلى معاوية تهافتاً على المادة «قد اجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلي» (1)، إذ يفهم من القول السابق أن علياً عليه السلام يرى المبرر قوياً لقتال قريش، غير أنه بما يقال فيهم، وما يدعونه لأنفسهم من قرابة وصحبة، لا تخولهم امتلاك رقاب الناس، فإذا ما أرادوا فرض إرادتهم بالقوة، فإن القوة هي العلاج للحد من غلوائهم، يقول في إحدى خطبه عند خروجه لملاقاة أصحاب الجمل «مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين» (2).

فقتاله لهم هو من أجل «استقامتهم على الدين ورجوعهم إلى الحق، عند الضلال» (3). فقريش كما يراه علي عليه السلام تقيس الحق بما يتلاءم ومصصلحة ابنائها، لذلك حالت بينه وبين حقه محاولة اكراهه على النزول عند رغبتها بتصرفها في حقه في الخلافة كما تشاء، كما في قوله «اللهم إني استعديك بك على قريش ومن اعانهم، فانهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثم قالوا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه» (4). ويجدر بنا أن نقف

ص: 293

1- رسائل - 35

2- خطب - 33

3- شرح مبث 75/2

4- خطب 173 ، فقرة 2. ويذكر ابن أبي الحديد بإسناده أن مثل هذه العبارة قد تكررت من علي عليه السلام مرات عديدة



عند مفهوم الحق في هذا الموضوع الذي يرمي علي عليه السلام إليه، فابن أبي الحديد يخرج معنى الحق في المقولة على تأويل الافضلية لأن «جملة الاستحقاق بالنص تكفير أو تسيق لوجه المهاجرين والأنصار»<sup>(1)</sup>. لكن الذي نفهمه نحن من القول بأن في السياق بعني الخصوصية التي لا يمكن تأويلها على أساس الافضلية لأنه لو كان يقصد الافضلية لذاتها لقال: أنا أفضلهم أو أنا أقربهم، أو أنا حقهم بالافضلية مما يعني ان الحق مطلقاً دون الإضافة كما نفهمه يعني الاختصاص بالأمره دون غيره بدلالة قوله في السياق «أجمعوا منازعتي أمراً هولي» لما فيه من توكيد الاحقية التي لا تحتاج إلى تأويل، فالفضية هنا لا يمكن اجراءها كما يرى ابن أبي الحديد «مجرى الآيات المتشابهات التي لا يعمل بها ابداً»<sup>(2)</sup>، لأن «المتشابه من القرآن: ان أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، اما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى»<sup>(3)</sup>، ومقولة علي عليه السلام واضحة وجلية من ناحيتي الألفاظ والمعاني، خاصة ان علياً عليه السلام قد اتبع مقولته لمفهوم الحق عند قريش بالتصرف فيه «كما تشاء، بالأخذ والترك... وهذه شكاية ظاهرة لا تأويل فيها»<sup>(4)</sup>. إلا ان علياً عليه السلام - كما يبدو في النهج - لم يكن يحمل لقريش أية ضغينة أو حقد لأن أخلاقه الإسلامية تسمو بروحه العالية عن ذلك، وهو الداعي إلى الحب بتؤدة والبغض بتؤدة أيضاً في قوله «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»<sup>(5)</sup>. فعلى

ص: 294

1- ابن أبي الحديد - 307/9

2- السابق 307/9

3- الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن ص 373

4- شرح مبتم - 3/313

5- حكم - 276

الرغم من مواقف قريش العدائية تجاهه وتجاه حكومته، واستماتتهم في افشال امره، لم يحابهم الا مضطراً، بعد أن نفذت جميع أسلحة التفاهم معهم(1)، يقول متألماً لمصارعهم حين نظر إلى قتلاهم في وقعة الجمل «والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب»(2).

فمن مآثرات الإمام علي عليه السلام يمكن الاستنتاج أن المواجهة بينه وبين قريش قد ابتدأت منذ اليوم الذي انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى واستمرت حتى بلغت ذروتها إبان خلافته، حين حاول التصدي لها والحد من طموحاتها، لكنه لم يفلح في مساعيه، لأنها استطاعت أن تخلق له المشاكل ما حال بينه وبين تنفيذ سياسته ومن ثم التدبير لاغتياله بيد احد ممن خرجوا عليه من أصحابه، بعد أن أفلحت في تدبير قضية التحكيم تلك المأساة التاريخية الفظيعة، مما يعني أن قريشاً لا يمكنها أن تحقق إرادتها بالمواجهة المباشرة، لذلك كانت كثيراً ما تلجأ - للوصول إلى مآربها - بوضع يد غيرها في النار ثم تقف متفرجة لتقطف ثمرة غيرها، إلا أن الظروف المعقدة التي اختلقتها قريش لتعطيل أفكار علي صلى الله عليه وآله وسلم السياسية لم تحل بينه وبين جهاده المستميت لتحقيق تلك السياسة.

ص: 295

1- راجع ص 249 وما بعدها من هذا البحث

2- خطب 217



إشارة

في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بين الدولة والحكومة والسياسة

قد يتبادر إلى الأذهان ونحن نقرأ في (نهج البلاغة) بأن المفاهيم: دولة وحكومة وسياسة، تعني في مجملها معنى واحداً، لذلك لا بد لنا من الوقوف عند كل مفهوم من المفاهيم الثلاثة على حدة.

أ - الدولة:

تمكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة 622 ميلادية من وضع أسس الدولة الإسلامية، في مجتمع متجانس، أساس المواطنة فيه المؤاخاة بين أفرادها، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يؤثر عنه أي تعريف لمفهوم الدولة، إلا أنه بالإمكان استنتاج مثل ذلك من الخطوات العملية التي باشروا بها حيث نستطيع القول بأن دولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد خلقت مجتمعاً قوياً تمكن من نشر الإسلام في فترة قصيرة جداً بفضل التجانس البشري الكامن من أخوة الإسلام والإخلاص الصادق الذي انبنت عليه تلك الأخوة،

ص: 297

ولكن ذلك التجانس قد بدأ في التداعي جراء الثروات المتدفقة بغزارة على ذلك المجتمع بعد الفتوحات الإسلامية العظيمة، فأخذت الطبقة في التبلور. ولم تكن مقولة عمر بن الخطاب، بعد ان عرضت عليه غنائم فارس، وفيها من أطايب الأطعمة التي لم يخبرها العرب من قبل «يا معشر المهاجرين والأنصار ليقتلن منكم الابن أباه والأخ أخاه على هذا الطعام»<sup>(1)</sup>، والا احساس صادق بقرب ذلك. فقد تسلم علي عليه السلام مقاليد الدولة الإسلامية، وهي في طريق الانهيار لافتقاد المسلمين روح المؤاخاة، أساس المواطنة الإسلامية ويرجع سبب ذلك إلى الاتجاه المادي البحت، ونجوم النعرة القبلية ثانية بعد ان خمدت وكادت جذوتها تنطفئ.

تسلم علي عليه السلام مقاليد الدولة الإسلامية في السنة الخامسة والثلاثين هجرية، بعد تفكر عميق، وأخذ ورد<sup>(2)</sup>، لإحساسه بثقل مسؤولية إعادة بناء النسيج الداخلي من جديد، لأن التصور الواضح للدولة في فكر علي عليه السلام - طبقاً لنصوص النهج - هو الرجوع بالمواطنة داخل المجتمع الإسلامي إلى النهج الذي اختطه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فلقد دخل علي عليه السلام الكوفة سنة ست وثلاثين هجرية وهي مقسمة إلى اسباع، بحسب الانتماء القبلي، والرابطة الاقليمية التي اختطها سعد بن أبي وقاص في السنة السابعة عشرة هجرية، حين باشر بتمصيرها<sup>(3)</sup>، هذا بالإضافة إلى غير العرب من المسلمين وغيرهم الذين استوطنوها، مما يعني في طياته افتقاد المواطنة الإسلامية داخل المجتمع الكوفي، الذي يمكن اعتباره

ص: 298

1- المحب الطبري: الرياض النضرة 2/ 386

2- راجع ص 268 وما بعدها من هذا البحث

3- راجع تمصير الكوفة: تاريخ الطبري 4/ 44، 45، وما سنيون: خطط الكوفة ص 10

صورة مصغرة للمجتمع الإسلامي. فالتكتل الطبقي بين سكانها أعاد المؤاخاة الإسلامية فيها إلى ولاء قبلي، بالامتثال للزعامة القبلية ولرؤساء العشائر، فكان علي عليه السلام إذا ما أراد للدولة أن تستمر كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها والإسلام أن ينتشر، أن يقوم بإعادة بناء هيكل المواطنة المثالي بمجانسة أفراد المجتمع المتنافر عن طريق إعادة الأخوة الإسلامية إلى النفوس، وفك الهيمنة القبلية بتحويل الولاء للدولة، فهو في نفس الوقت الذي اضطر فيه إلى التعامل مع الزعامة القبلية بما يتماشى وروح الإسلام، قد بذل جهداً كبيراً في التنبيه للخطر الذي تشكله تلك الزعامات، والتحذير من مغبة الامتثال لها، لما في ذلك من هدم للمثل والقيم الإنسانية، من ذلك قوله «الاحذر الاحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسابهم، وترفعوا فوق نسبهم، القوا الهجنة على ربهم... فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم اركان الفتنة، وسيوف اعتزاز الجاهلية... لا تطيعوا الأدياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم وأدخلتم في حقكم باطلهم»<sup>(1)</sup>. فالدولة في فكر الإمام علي عليه السلام يجب أن تقوم على التجانس الإنساني داخل المجتمع، بصهر الطبقات في بوتقة المساواة، وإذابة فوارق الجنس، والتعصب للأخلاق الحميدة وهو ما يمكن ان نلمسه ضمن قوله لأبناء مجتمع الكوفة «فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، يعاسب القبايل، بالأخلاق الرغبية والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة والآثار المحمودة، تعصبوا لخلال الحمد من الحق للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن

ص: 299

البغي والاعظام للقتل، والانصاف للخلق، والكظم للغيط، واجتناب الفساد في الأرض»(1)، فمن تلاحق العبارات وتتابع الجمل، بعطف بعضها على بعض، نحس ان علياً عليه السلام قد كان مشحوناً غيظاً بسبب ما الت إليه بنية المجتمع من تصدع، بحيث لم يعد للحكومة أية قيمة في ظل نظام قبلي، لا يرى الدولة ولا يفهم مقوماتها الا في حدود منظاره الضيق المتمثل في مصلحة القبيلة، مما يحول دون الانسجام بين افراد المجتمع الواحد، والدولة «كيما تضمن لمرافقها العامة اقصى مردودها

(يجب) ان تعمل على تأمين انسجامها مع الاوضاع الخاصة بالحياة المحلية وبالادوات الاقليمية ذات المصالح المشتركة»(2).

لذلك كانت نظرة علي عليه السلام إلى الدولة نظرة مختلفة تماماً عن نظرة زعماء القبائل. فالمجتمع الكوفي - بل الإسلامي بأكمله - لم يكن قصراً على المسلمين العرب فهو مكون من خليط من اقوام غير متجانسة، منها فئات عربية ترى نفسها حاكمة لفضلها في نشر الإسلام، فمن حقها الاستئثار بكل الامتيازات، ومنها فئات غير عربية، دخلت الإسلام فراراً من الاضطهاد، وبحثاً عن العدالة والمساواة وفي ظل التعصب العربي لم تحصل على ذلك، ثم ان الفئات العربية داخل بنيتها الاجتماعية غير متجانسة أيضاً بسبب العصبية القبلية وتفاضل بعضها على بعض، هذا بالإضافة إلى عدم تجانسها أيضاً مع الفئات غير العربية، بسبب النظرة الإزدرائية لأولئك الاجانب، لذلك فإن الزعامات القبلية في المجتمع الكوفي ترى ان جميع امكانات الدولة يجب أن تكون تحت تصرفها ورهن إشارتها، حتى الحاكم رأس الدولة وقدوتها لكونه عربياً يجب أن يكون قصراً على العرب

ص: 300

1- خطب 240، فقرة 16

2- دوفابر - الدولة 91

في القيام بمصالحهم واعطائهم دون غيرهم، على العكس من نظرة علي عليه السلام الذي يرى أن الانتماء الإسلامي أقوى وأمتن من انتمائه العربي (1) من ذلك «أن الأشعث قال له وهو على المنبر: غليتنا عليك هذه الحمراء، فقال علي عليه السلام: من يعذرني من هؤلاء الضيافة، يتخلف أحدهم على فراشه وحشاياه كالعير، ويهجر هؤلاء للذكر، أطردهم؟ إني إن طردتهم لمن الظالمين، والله لقد سمعتهاي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: والله ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم بدءاً» (2) إذ يبدو ان علياً عليه السلام يرى من منظوره الإسلامي بأن التجانس داخل الدولة لا يعني الانتماء إلى جنس مميز على غيره، ولهذا السبب بين للأشعث ولغيره من زعماء القبائل بأن احتواءه لأولئك غير العرب لتمسكهم بالدين بمعناه الصحيح واسلوبه القويم، فمقياس المواطنة كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام هو الاخوة في الدين، يقول رداً على المرأة العربية التي طلبت منه ان يفضلها في عطائها على غير العربية «قد قرأت ما بين اللوحتين، فما رأيت لولد اسماعيل على ولد اسحاق عليه السلام فضلاً ولا جناح بعوضة» (3)، إذ يمكن ان نستنتج من ذلك القول ان اندماج الاجناس في الدولة في كل متكامل، هو السياج المتين الذي يحفظ كيانها، ويوحد بين مواطنيها، مما يعني ان التصور السياسي لمفهوم الدولة وضح على ما نعتقد في فكر علي عليه السلام، وان لم يضعه في قالب اصطلاحى، لذلك

ص: 301

1- راجع حكم 94

2- ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث 1/ 438 باب حمر، 3/ 87 باب ضطر، وابن أبي الحديد 19/ 124، ويعني بالحمراء: العجم والموالي، والضيافة

جمع ضيطر: الضخم الذي لا تنفع فيه والحمراء أي الفرس، لحمرة لونهم

3- البلاذري - انساب الاشراف 2/ 141



فإن مفردة (دولة) (1) في نهج البلاغة لا تخرج في معانيها عما أورده القاموس اللغوي من (تحول أو نصرة أو استيلاء أو تسلط) (2)، إلا ان المتعمق الدقيق لا يعدم الحصول على ما تعنيه المفردة بمفهومها الاصطلاحي كما في قوله «فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه... طمع في بقاء الدول» (3)، فالدول - على ما نظن - تعني في السياق العلاقات الترابطية بين الحاكم والمحكوم داخل اطار معين.

ولكن أكثر ما ترد مفردة دولة في السياق - عند علي عليه السلام بمعنى التسلط والحكم، كما في قوله للأشتر حين ولاء مصر «اني قد وجهتك إلى بلاد، قد جرت عليها دول قبلك» (4)، أي تسلط وحكومات مختلفة في احقاب متعاقبة، مع ملاحظة استخدامه لمفردة بلاد عوضاً عن اقليم أو دولة، إلا ان ذلك لا يعني التداخل بين مفهومي دولة وحكومة في فكر علي عليه السلام، فقد بينا فيما سبق مفهومه للدولة، مما يحتم علينا تبيان مفهوم حكومة عنده.

## ب - الحكومة:

إذا كانت الدولة «هي البنية السياسية لما لها من عادات وتقاليد وبما تقتضيه

ص: 302

- 1- وردت مفردة دولة في النهج بصيغة المفرد والجمع في سبعة مواضع: خطب 4 وفي نهايتها وخطب 131 فقرة 2 وخطب 210 ورسائل 53 فقرة 4 ورسائل 69 نهاية الفقرة الأولى، ورسائل 72، وحكم 346
- 2- راجع باب - دول - في: لسان العرب المحيط 1/1034، الطريحي: مجمع البحرين 5/57، المعجم الوسيط 1/304
- 3- خطب 120، وقد جاء في بعض الطبوعات: طمع في بقاء الدولة
- 4- رسائل رقم 53، الفقرة 4

من العلاقات بين الحكام والمحكومين»(1)، فإن الحكومة هي المؤسسة التي تنظم العلاقات داخل الدولة، فالدولة كيان موجود بالفعل، أما الحكومة كمؤسسة موجودة بالقوة للحاجة الماسة إليها(2).

وقد ورد مفهوم (حكومة) في نهج البلاغة بما لا يختلف عن مفهومها المتعارف عليه وان ورد استخدام الإمامة(3) في كثير من المواضع بدلاً من (الحكومة) بتسمية القائم بالأمر(إمام) عوضاً عن تسميته (حاكماً) لما في معنى الإمامة من جمع بين شؤون الدنيا والدين، ولقد استوعب مفهوم الحكومة بكل مسمولاته مساحة واسعة من فكر علي عليه السلام، فتحدث عن أهميتها، وعن مكانة الحاكم بالنسبة للدولة وعن الصفات التي يجب ان تتوفر فيه، وعن المسؤوليات المناطة بالحكومة.

فعن أهمية الحكومة ووجوبها ومسئولياتها كان حديثه مع الخوارج(4)، أما عن أهمية الحاكم ومنزلته كقائد الدولة فيمثله قوله «مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه»(5)، فمحاسبة مركز الحاكم في فكر علي عليه السلام دقيقة للغاية على اعتبار أنه قلب الأمة والخيط الجامع لها، ولخطورة ذلك المنصب بالنسبة لصالح الأمة، فقد كان علي عليه السلام حريصاً على صيانتها عن كل ما يسيء.

فلقد عرض عليه معاوية إقراره على ولاية الشام في سبيل عدم مقاومته والتأليب

ص: 303

1- ما كيفر: تكوين الدولة ص 50

2- راجع ص 163 من هذا البحث

3- راجع مفهوم الإمامة ص 154 وما بعدها من هذا البحث

4- راجع ص 166 من هذا البحث

5- خطب 146، الفقرة 1

على سلطته فكان رده «حاشى لله ان تلي للمسلمين بعدي صدرا أو وردا أو اجري لك على احد منهم عقدا أو عهدا»(1). فالتسلط - في فكر علي عليه السلام - لا يكسب صاحبه الشرعية في تولي رقاب الناس، مهما بلغت قوته، لأن الحاكم من وجهة نظره من يستطيع امتلاك زمام نفسه وينأى بها عن شهوة الامتلاك لغاية إشباع رغبة جامحة في استعباد الناس والتصرف في حقوقهم، ولن يتأتى ذلك إلا لمن تتوفر فيه مزايا يستطيع من خلالها مباشرة الحكم، ومن تلك المزايا يتولد الرضا عن الحكومة، لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست علاقة قهر وانما هي علاقة تبادل حقوق، فالحاكم على هذا الأساس مثله مثل أي فرد في الدولة وليس متميزاً على أحد إلا بكونه يحمل من التبعات ما لا يستطيع غيره تحملها، فمن منظور علي عليه السلام الديني «إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيخ بالفقير فقره»(2)، فمسؤولية الحكومة في فكر علي عليه السلام تكمن في امرين اساسيين: اقامة الحق بمفهومه الإسلامي ودفع الباطل، فإذا لم تتمكن الحكومة من الوفاء بذينك الشرطين فلا قيمة لها ولا جدوى من ورائها «قال عبد الله بن عباس... دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: والله لهي احب الي من امرتكم، الا- ان اقيم حقاً أو ادفع باطلاً»(3)، وإقامة الحق ودفع الباطل تعنيان في مضمونهما - كما نعتقد - تنظيم العلاقات بين الافراد بأسلوب قويم ومحكم اساسه الحياة السعيدة لكل فرد من افراد الأمة، تقوم الحكومة بالتخطيط له ومن ثم تنفيذه، وذلك الأسلوب هو ما نعنيه بالسياسة.

ص: 304

1- رسائل 65

2- خطب - 203 ، ويقدرها - يقيسوا، ويتبيخ - يهيج به ألم الفقر

3- خطب - 33

تعني السياسة بالمفهوم الإصطلاحي: المنهاج أو الخطة التي تتبعها الحكومة لتدبير مصالح الناس وطريقة التفاهم معهم، والسياسية بمفهومها العام هي «القيام على الشيء بما يصلحه، واشتهرت عند أهل العصر في العمل لأموال الدولة داخلها وخارجها»<sup>(1)</sup>، فهي إذن أسلوب تضعه الحكومة على أساس خطة محكمة تتفق ووضع الدولة من حيث الاقتصاد والاجتماع والامن، وتتلاءم مع المحيط الدولي الذي توجد الدولة ضمنه، ومن الملاحظ ان مفهوم السياسة ذاك يتعلق بالشؤون الدنيوية فقط، أما السياسة بالمفهوم الإسلامي فتعني في اعتقادنا ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالدين، لكونها من وجهة نظر اسلامية خطة أخلاقية تقوم على «استصلاح الخلق يارشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل»<sup>(2)</sup>، فهي بهذا المعنى تبع للدين، تسير في خطاه، وتستتير بهديه، وعلى ذلك يمكن التفريق بين السياسة بالمفهوم الأخلاقي، وبين السياسة بالمفهوم الانتهازي، المرتبط بالمصالح الذاتية لفئة معينة من الناس، والمبنية في مجملها على الاحتيال والخداع والمراوغة باتخاذ الدين وسيلة لما يقارب من الدنيا<sup>(3)</sup>، بالباس الشهوات صبغة دينية تبرر المآرب المعوجة، فالدين «شيء والسياسة شيء آخر لو أريد من السياسة الغدر والنفاق والكذب والخداع»<sup>(4)</sup>.

ص: 305

1- أحمد رضا: معجم متن اللغة 247/3

2- أبو البقاء الكفوي: الكليات 31/3

3- راجع حكم -413

4- باقر القرشي: النظام السياسي في الإسلام ص 60

وإذا ما أردنا الدخول في فكر علي عليه السلام السياسي، في ضوء ما ورد في النهج من نصوص يجب ان نضع في اعتبارنا أننا نبحث في سياسة دينية، الأخلاق دعائمها، والمبادئ السامية سياجها، فالنظرة الشمولية المتعمقة منحت المسؤولية في فكر الإمام علي عليه السلام اتساعاً لا يقتصر على العلاقات الإنسانية بين الحاكم والمحكوم فحسب، بل شملت كل ما يتعلق بالإنسان في محيطه، فضمن عرضه لسياسته في أوائل خلافته يقول «اتقوا الله في عباده وبلادهم، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»<sup>(1)</sup>، فالمسؤولية في السياق تعني الالتزام الذي يترتب عليه حال تركه أو اهماله المحاسبة والعقاب، أما المجتمع فقد استوعب جل فكر علي عليه السلام السياسي لكونه الركن الأساس الذي تقوم عليه دعائم الدولة. فبالقاء نظرة على ما ورد في خطبه ورسائله من وصايا إنسانية سنجد ان قضايا المجتمع قد كانت شغله الشاغل، كما أن استخدامه بكثرة المفردات (أمة، جماعة، رعية)<sup>(2)</sup> لدليل واضح على قيام سياسته على قواعد اجتماعية مرتبطة بالقاعدة المكونة من السواد الأعظم من الناس الفقراء والمعدمين، وهو كما نلاحظ يعول على تلك الطبقات ويستمد منها القوة الحقيقية لبقاء الدولة، ودلالة ذلك قوله لمالك الأشتر حين ولاه مصر «إن سخط العامة يححف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس احد من الرعية اثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة في البلاء وأكره للإنصاف... من أهل الخاصة

ص: 306

#### 1- خطب 168

2- من خلال احصائية قمنا بها في نصوص النهج وجدنا أن: كلمة أمة قد تكررت في ما يقارب تسعة وأربعين موضعاً، وأن كلمة جماعة قد تكررت في ما يقارب من خمسة وعشرين موضعاً، اما كلمة رعية فقد وردت في اربعة وتسعين موضعاً تقريباً

وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الامة»(1). لذا فقد سارت سياسته الاقتصادية إلى جانب أولئك المعدمين، برعاية شؤونهم، وتديير مصالحهم، وعدم تمكين الفئات المتسلطة من التسلق على حسابهم، فالمال مال الجميع ليس لاحد فضل فيه على أحد، فحين طلب منه بعض أصحابه اسلاف بعض الزعامات القبلية وأشرف قريش بالمفاضلة في العطاء قال لهم «لا والله لا أفعل ما طلعت شمس... ثم سكت واجماً ثم قال: الأمر اسرع من ذلك، قالها ثلاث مرات»(2). فعلي عليه السلام يدرك تماماً انه يستطيع تحقيق النصر الشخصي في قضية الحكم بتوظيف المال توظيفاً سياسياً معوجاً، ولكن ذلك سيكون على حساب المبادئ والقيم فوجومه ثم تكراره عبارة «الأمر أسرع من ذلك» تحمل في طياتها على ما نعتقده شعوره بالألم لانزلاق القيم وترديها بأسرع مما يتصوره إنسان، علاوة على ما تتضمنه العبارة من تهيب وتخويف من كتاب الخالق سبحانه، مما جعله يتشدد في تسوير سياسته بسياج أخلاقي متين، ليتمكن - على الأقل - من ابقاء جذوة المبادئ متقدة في مواجهة ذلك التيار المتنامي للتكالب على السطلة وجمع الثروات واقتناء الضياع والاماء والعبيد على حساب الفئات

ص: 307

1- رسائل - 53، فقرة 7، وسخط: تبرم وعدم رضاً، ويجحف: يذهب ويزيل

2- أخذنا هذا النص من ابن أبي الحديد 2/ 203 عن رواية علي بن محمد المدائني، وقد ورد هذا النص باختلاف في بعض عباراته في نسخ نهج البلاغة في باب الخطب تحت رقم 126. فقد ورد في نص النهج «والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً بدلاً من قوله عند ابن أبي الحديد: والله لا أفعل...»، ثم أن الشريف الرضي لم يورد الزيادة التي أوردها ابن أبي الحديد وهي قول علي ثلاث مرات «الأمر أسرع من ذلك» وأما معنى لاح أي ظهر وبان، وواسيت ساويت، وأطور به لا أقر به، ما سمر سمير: الدهر أي أبد الدهر ما قام وما بقي، وما أمَّ نجم: أي قصد وتقدم

المستضعفة، فمن خلال نظرة فاحصة في المصطلح السياسي، في فكر علي عليه السلام، سنجد أن المفاهيم الأخلاقية في تلك النماذج تكاد تتقابل بين الإيجاب والسلب أو بمعنى أوضح، بين القيم الأخلاقية، وبين العيوب والسلبيات التي نجمت في المجتمع، مع ملاحظة تركيزه على الجوانب السلبية، مما يعني استفحال ذلك بين متسلقي السلطة في عصره، وبتحول السياسة عند أولئك إلى مفهوم فارغ من أية قسمة أخلاقية، واهتبال الفرص للوصول إلى الغاية المنشودة بأية وسيلة، فالغدر والاحتيال، والخيانة، وإشاعة الفتن، ذكاء وفطنة وفهم. ففي معرض المقارنة بين مفهوم السياسة عنده، ومفهومها عند سياسي عصره يقول علي عليه السلام «أيها الناس، ان الوفاء توأم الصدق، ولا اعلم جنة اوفى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد اصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة، مالهم، قاتلهم الله، قد يرى الحَوْلُ القَلْبَ وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»<sup>(1)</sup>، فالحيلة والخداع والغدر والكذب لا تعني إلا هدرًا للأخلاق وهدماً للدين في قاموس علي عليه السلام السياسي، لأن مقياسه لرجل السياسة الصحيح هو الاتفاق بين ما يظهر وبين ما يبطن، لأنه هو ذاته «من تماسك الشخصية بحيث لا يتناقض أبداً، وهو من سلامة وأصالة الفكر بحيث لا يتعارض»<sup>(2)</sup>، لاقتزان القول بالفعل في كل تصرفاته، وهو القائل

ص: 308

1- خطب -41 التوأم: الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، والوفاء والصدق قرينان في المنشأ والجنة بضم الجيم: الوفاية، والمرجع - بكسر الجيم -: العودة لله سبحانه للحساب، الكيس بفتح الكاف: العقل، والحوّل القلب بضم الأول وتشديد الثاني وفتح في اللفظين: البصير بتحول الأمور وتقلبها، والحريجة: التحرج والاحتراز

2- جورج جرداق: علي صوت العدالة الإنسانية 1/ 168

«من لم يختلف سره وعلايته، وفعله ومقالته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة». فالإخلاص في القول وفي الفعل قيمتان خلقيتان مرتبطتان في فكر علي عليه السلام السياسي بالأمة والعبادة(1). ومن ذلك المنطلق الأخلاقي يقول عن سياسته إزاء سياسة معاوية «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفر، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»(2). فمن ذلك نستنتج ان علياً عليه السلام قد كان على دراية تامة بما يحدث على الساحة الإسلامية من مراوغات وألعيب سياسية في عصره، وكان بإمكانه ان يتخذ من أساليب سياسته ما يثبت سلطته، ولكنه كان «ملجماً بالورع عن جميع القول والفعل إلا ما هو لله عز وجل، رضاءاً، وممنوع اليدين من كل بطش الا ما هو لله رضا»(3). ففكر علي عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة يتمثل في محاولة إصلاح ما فسد في دولة الإسلام، بإرجاع الحقوق إلى نصابها، وبناء المجتمع المثالي القائم على المؤاخاة في الله والتسامح والتعاون، فكان ان خطط للمؤسسات التنفيذية في حكومته ما يمكنها من تحقيق تلك السياسة.

ص: 309

- 
- 1- رسائل 26، الفقرة الأولى
  - 2- خطب 194. ويفجر: يفسق ويكذب
  - 3- ابن أبي الحديد 10 / 229





## إشارة

في كما يبدوي نهج البلاغة

من خلال قراءة متأنية في نهج البلاغة، يمكننا القول، إن الجهاز الحكومي الذي اعتمد عليه علي عليه السلام في تسيير شؤون الدولة الإسلامية يميل إلى البساطة، وإن هذا الجهاز مبني في الأساس على قيم أخلاقية عالية تضع في الاعتبار مصلحة عامة الناس قبل خاصتهم، فهو جهاز اجتماعي أخلاقي مكون من:

## أولاً: الخلافة :

أولاً: الخلافة(1) :

أعلى مركز سياسي ديني في الدولة الإسلامية، وقد استحوذ على مساحة واسعة من فكر علي عليه السلام، فتكرر مصطلحها في النهج ما يقارب من اثنين وسبعين مرة باسم (الإمامة) ومشتقاتها، كما تكرر ما يقارب من خمس وأربعين مرة اسم (خليفة) مشتقاته، ولو راجعنا النصوص التي عالج علي عليه السلام فيها مسألة الخلافة، فسنجد انه قد عالجها من جميع جوانبها من شروط استحقاق(2) ،

ص: 311

---

1- لمعرفة أهمية هذا المنصب وخطورته راجع ص 163 وما بعدها من هذا البحث

2- راجع ص 172 من هذا البحث

وطريقة انعقاد(1)، هذا بالإضافة إلى حديثه بإسهاب عن المهام المناطة بالخليفة في عدة نصوص بحسب مقتضيات مناسباتها. فمن أساسيات تلك المهام عنده، رعاية «الجنود والمصر، وبيت المال وجباية الأرض، والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين»(2)، فالمهام المناطة بالخليفة من وجهة نظر علي عليه السلام شاملة لجميع شؤون الدنيا والدين، لذا يجب ان يكون متقلد ذلك المركز قدوة لجميع افراد الأمة في القول والفعل، فلا يستأثر بشيء دون أفقر الناس(3)، ولا- يقوم بما لا- يرضاه لأبي فرد طبقا لقوله «إني والله ما أحثكم على طاعة الا واسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية الا وأتأهي قبلكم عنها»(4)، وعلى ذلك النهج الأخلاقي تبلور فكره في اختيار ولايته لكونهم يمثلونه ويقومون مقامه في ولايات الدولة.

## ثانيا: الوالي:

يحتل الوالي مكانة كبيرة في حكومة الإمام علي عليه السلام، ويمكن اعتباره نائب الخليفة والقائم بمهامه في إدارة شؤون ولايته، ورعاية مصالح العباد فيها، ولأهمية الوالي كمنفذ لسياسة الحكومة - في فكر علي عليه السلام - فقد تكررت كلمة (والي وولاية) في النهج ما يقارب من خمس وثمانين مرة.

ومن خلال قراءة متمعنة في تلك النصوص يمكننا تلمس الأسلوب الدقيق

ص: 312

1- راجع ص 183 من هذا البحث

2- خطب 118

3- راجع ص 195 من هذا البحث

4- خطب 177 ، الفقرة الأخيرة

الذي يتبعه علي عليه السلام في اختيار ولاته، فمن الأولويات التي يضعها في اعتباره فيمن يرشحه للولاية «اللياقة الذاتية للحكم حسب سلوكه الطبيعي والاجتماعي، وحسب إيمانه العقائدي»<sup>(1)</sup>، مما يعني دراسة حالته دراسة مستفيضة، من حيث مسلكه الإنساني وتصرفاته الاجتماعية، ومدى إخلاصه للعقيدة، على أن تكون الدراسة متبوعة بمراقبة دقيقة أثناء ممارسة مهام الولاية، لكون علي عليه السلام يرى أنه «إذا قوي الوالي في عمله حركته ولايته على حسب ما هو مركز في طبعه من الخير والشر»<sup>(2)</sup>، مما يعني في طياته أن الطبع يغلب التطبع، فما دام الإنسان بعيداً عن واقع العمل فقد تصدق الفراسة فيه، وقد تخون، خاصة إذا حاول التزيي بما ليس في طبعه، إذ سرعان ما ينكشف حين يباشر ما أوكل إليه من أعمال فتتبدى طموحاته في الظهور لتبين ما في دخيلته من ميول خيرة أو شريرة، لذا لم يرشح للولاية إلا من لدينه<sup>(3)</sup>، واضعاً شروطاً تكاد تكون نادرة إلا في القليل من الرجال، لأن طبعه المثالي وحبّه للإنسانية جعلاه يتوق دائماً إلى المثال في كل ما يتعلق بالإنسان ويمكن حصر الشروط التي بتوخاها على عليه السلام في الوالي المثالي في النقط الثمان التالية:

1 - الإيمان القوي التام<sup>(4)</sup>

2 - الورع والنزاهة<sup>(5)</sup>

ص: 313

---

1- مهدي محبوبية: ملامح من عبقرية الإمام ص 83

2- ابن أبي الحديد 20 / 269

3- راجع ص 198 وما بعدها من هذا البحث

4- راجع رسائل 38 - الفقرة الثانية في وصفه عليه السلام لمالك الأشتر

5- المصدر السابق نفسه

3 - الخوف المؤدي إلى محاسبة النفس على كل حقير أو عظيم(1)

4 - العدل بمعناه الشامل لكل الأشياء ولجميع أفراد الولاية الفقير قبل الغني والضعيف قبل القوي(2)

5 - ثقافة واسعة تمكن الوالي من الدراية التامة بأحوال البلاد وما مر عليها وعلى مواطنيها من حكومات سابقة اتصفت بالعدل أو بالجور لمقارنة حكمه بحكم أولئك وتلمس الطريق الأصوب والأسلم في سياسته، من ذلك قوله للأشتر «اعلم يا ملك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ماكنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده»(3)

6 - الشجاعة والقوة والجرأة، ف «لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الاعداء ساعات الروع»(4)

7 - الإلتزام التام بأمر خليفة في كل ما يعترضه من مهام خطيرة تتعلق بالبلاد والعباد قبل ان يتخذ رأيه فيها(5)

8 - ان يكون قدوة في القول والفعل بالنسبة لمواطني ولايته(6)، متبعاً

ص: 314

1- المصدر السابق نفسه

2- راجع رسائل 26 ، الفقرة الأولى، ورسائل 76

3- رسائل 53 ، الفقرة الرابعة وما بعدها

4- رسائل 38

5- راجع السابق الفقرة الثانية

6- راجع رسائل 45 ، الفقرة الثانية

الصراحة بمكاشفتهم بالأمر المتعلقة بمصالحهم(1)، إضافة إلى ذلك الحلم وسعة الصدر(2) والتعويل على استشارة أولي الألباب في المهمات(3)، وحضور البديهة عند كل ملمة، والنظر في مجريات الأحداث بحذرواثة ومعالجتها بما يتناسب والشرع حتى ولو كان في ذلك اجحاف بالحكومة واضرار بمصالحها الدنيوية(4).

وهو إذ يضع تلك الشروط الدقيقة فيمن يتوخاه لتحمل أعباء الولاية، لأنه يعتبره شريكه فيما اوكل إليه من امانة، يقول لعبد الله بن عباس واليه على البصرة «أربع أبا العباس، رحمك الله، فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإننا شريكان في ذلك»(5)، والشراكة التي يقصدها علي عليه السلام، تعني أن مهام الوالي في ولايته تكاد تكون نفس مهام الخليفة، أي بمعنى أوضح انها ولاية اختيارية عامة(6)، حسب ما وضحه الماوردي الذي جعل اختصاص الوالي العام في سبع نقاط هي:

1 - النظر في تدبير الجيوش.

2 - النظر في الأحكام وتقليد القضاة.

3 - جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما، وتقريب ما استحق منها.

ص: 315

1- راجع رسائل 53، الفقرات 4، 13، 32

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

5- رسائل 18، وأربع: أي أرفق عند حدود ما تعرف

6- راجع الأحكام السلطانية، ص 27

4 - حماية الدين والذب عن الحريم.

5 - إقامة الحدود في حق الله.

6 - الإمامة في الجمع والجماعات.

7 - تسيير الحجيج (1).

ولو نظرنا فيما أورده الإمام علي عليه السلام من اختصاصات الوالي فسنجدها تشمل إضافة إلى ما أورده الماوردي النظر في العلاقات الإنسانية بين الناس، والستر على عيوب الرعية ما أمكن (2)، ورعاية كل طبقة بما يصلحها (3)، بالإضافة إلى الطريقة المثلى في السياسة اتجاه العدو في وقت الحرب والسلم (4)، من صلح وكتابة معاهدات، إلى غير ذلك من شؤون تتعلق بمصلحة البلاد والعباد، وهو بذلك جعل مهمة الوالي متسعة باتساع ولايته، إذ يدخل ضمنها كل بيت من بيوتها، وتشمل الرعاية كل شخص، بل حتى البقاع وما يدب عليها من حيوان، وعلى ذلك فإن الشروط التي أرادها في شخص واليه في منتهى المثالية والندرة ولكنها هي المؤهلات لصاحبها للقيام بمهام الولاية طبقاً لمعاني الحق في فكر علي عليه السلام الذي يدرك تماماً بأن «الحق كله ثقيل، قد يخصه الله على اقوام طلبوا العافية، فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم» (5). وبطبيعة الحال فإن الاختصاصات الواسعة التي أوكلها علي عليه السلام لواليه تحتاج إلى جهاز إداري

ص: 316

1- السابق

2- راجع رسائل 53، الفقرات: 8، 14، 33

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

5- رسائل 53، فقرة 26

محكم، حتى يتمكن من القيام بمسؤوليته على اكمل وجه.

### ثالثاً: جهاز الدولة الإداري، كما يبدو في النهج:

#### إشارة

تعتمد الحكومة في تسيير شؤون الدولة ومصالح الناس كما يبدو في النهج على جهاز اداري مكون من (1):

1 - الوزارة.

2 - الجيش.

3 - القضاة.

4 - بيت المال.

5 - العمال.

6 - الدواوين.

7 - الرقابة الإدارية.

#### 1 - الوزارة:

1 - الوزارة (2):

يختلف مفهوم الوزارة عند علي عليه السلام عنه عند الماوردي، فالماوردي يجعل الوزير في مرتبة ثانية بعد الخلفية، ويضع للوزارة شروطاً تكاد تكون مقاربة لشروط

ص: 317

1- سنشير إلى مصدر كل نقطة عند طرحها للمناقشة

2- رسائل 53، فقرة 10 . والوزير لغة هو المساعد والمعين وفي التنزيل «وَأَجْعَلْ لِي وُزِيرًا مِّنْ أَهْلِي».... طه/ 29) أي معينا ومساعداً



انعقاد الإمامة فيما سوى النسب (1). أما علي عليه السلام فيضع الوزير في مرتبة المستشار الذي لا تتعدى صلاحياته الاستشارة ويأتي في مرتبة دون الوالي، ويستدل على ذلك من قوله لمالك الأشر «إن شر من كان للأشرار قبلك وزيراً» (2)، مما يعني ضمناً تفويض علي عليه السلام للوالي أمر اختيار المستشارين والوزراء الذين يعول على آرائهم وحكمتهم، وقد وردت مفردة (وزير) ومشتقاتها - كمصطلح سياسي في النهج - ما يقارب من اثنتين وعشرين مرة وهي تدل في معظم سياقاتها على ان أهمية الوزير تأتي دون أهمية الوالي، ولا تتعدى صلاحياته وصلاحيات المستشار سوى النصيح، وإبداء الرأي إذا طلب منه، من ذلك قوله للناس لما أرادوا مبايعته على الخلافة بعد مقتل عثمان «أنا لكم وزيراً خيراً لكم مني اميراً» (3) أي معاوناً ومستشاراً لكم، امدمكم بالآراء التي تصلحكم في امور دينكم ودنياكم كما كنت في أيام الحكام السابقين، مع ملاحظة أن مصطلح (وزير) بمعنى النيابة العامة والمكانة المرموقة قد ورد في النهج في موضع واحد، على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شخص علي عليه السلام بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «إنك تسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير» (4) في شركك إياي في المعاونة والقوة وتثبيت دعائم الدين. أما الشروط التي يجب أن تتوفر في المستشار أو الوزير كما حددها علي عليه السلام فهي:

1 - أن لا يكون بخيلاً أو جباناً أو حريصاً لأن «البخل والجبن والحرص

ص: 318

---

1- راجع الأحكام السلطانية ص 20، وطرحه لمفهوم الوزارة ذاك - مبني على ما تصوره - في العصور الإسلامية المتأخرة وخاصة الأعصر العباسي

2- رسائل 53، فقرة 10

3- خطب 91

4- خطب 240، فقرة 27

غرائز شتى بجمعها سوء الظن بالله»(1).

2- أن يكون ذا ماضي مشرف ونظيف ولم يشارك الأشرار في حكومات سابقة، حتى ولو كان مؤهلاً لذلك المنصب(2).

3- ان يكون شديداً في أمر الله لا ينافق في الحق ولا يعرف سواه طريقاً(3).

## 2 - الجيش.

### إشارة

من خلال قراءة تنافي نصوص النهج المتعلقة بالجنود والحرب، نجد أن علياً عليه السلام قد أعطى المؤسسة العسكرية من الأهمية ما يضعها على رأس الطبقات التي يوصي عماله بها خيراً، يقول للأشتر «الجنود بأذن الله، حصون الرعية، وزين الولاية، وعز الدين، وسبل الامن، وليس تقوم الرعية الا بهم»(4)، فالجنود في فكر علي عليه السلام للبناء والسلام والجهاد والمحافظة على الاستقرار والامن، مما يعني ضمناً أن لهم مؤسستهم الخاصة القائمة بذاتها التي عادة ما تكون تحت إشراف الوالي المباشر، ومن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر لها كي تقوم بتأدية واجبها على أسس أخلاقية متينة:

- أن يكون الانخراط فيها تطوعياً، لأنها مؤسسة ذات طابع أخلاقي، هدفها الأسمى تثبيت القيم، وإزهاق الباطل، ويجدر بالمنتسب إليها أن يكون مؤمناً بذلك. وأن تكون المادة عنصراً ثانوياً بالنسبة إليه، لأن الجهاد بمعناه العقائدي يكون بقوة الإيمان بالقيم التي تدفع الإنسان إلى الاستشهاد في سبيلها، لذلك

ص: 319

1- رسائل 53، فقرة 9

2- راجع السابق، فقرة 10

3- المصدر السابق نفسه

4- السابق، فقرة 15

فقد وردت جميع الخطب الداعية إلى الجهاد في النهج، خالية من أية إغراءات مادية دنيوية.

- أن يكون الترابط بين الجند وقادتهم محكماً، لذلك فقد عول علي عليه السلام على قاعدة في اختيار قادة الجيوش قوامها الكفاءة القتالية المقرونة بالأخلاق العالية، يقول للأشتر «فولاً من جنديك أنصحهم في نفسك لله، ولرسوله، ولإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطئ عند الغضب، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على الاقوياء»<sup>(1)</sup> ذلك من الناحية الأخلاقية.

- أما اختيار القادة من حيث الخيرة فيبلورها فكر علي عليه السلام في ذوي النسب والشرف السامق والمجد من الشجعان الكرام<sup>(2)</sup> الذين لا يطرهم المركز لكونه لا يرفع من منزلتهم ولا يزيدهم شرفاً، وكما نلاحظ أن الخبرة والاخلاق عنصران متلازمان ومتداخلان عنده، بحيث يستعصي الفصل بينهما.

- ان تكون العلاقة بين قادة الجند وجندهم علاقة انسانية، تحكمها الرأفة والعطف والحب، بعيدة عن روح التسلط، فأفضل قادة الجند عند علي عليه السلام «من (واسى جنده) في معونته وأفضل عليهم من جدته»<sup>(3)</sup>.

- إن انخراط الجندي الطوعي في الجيش لا يعني حرمانه من المادة، فقد يتبادر إلى الذهن ان علياً عليه السلام لم يكن يضع للمادة أي اعتبار أو أي أثر في اصلاح الجند، ولكن الذي تقرأ في النهج يخالف ذلك، فعلي عليه السلام لم يقصر الدخول في الجندي على العمل المجاني، بل جعل التطوع في المقام الأول لكونه واجباً دينياً، يحتم

ص: 320

1- رسائل 53، فقرة 15. وأنقاهم جيئاً: أظهرهم صدرأ، وينبو عليهم: يشدد عليهم

2- راجع السابق فقرة 17

3- السابق، الفقرات 16، 17، 18، وواساهم: ساعدهم وجدته بكسر الجيم وفتح الدال: كرمه

على كل مسلم قادر مباشرته إذا دعت الحاجة إلا أنه في الوقت نفسه قد وضع للمادة اعتبارها، وتأثيرها في الروح القتالية بالنسبة للجند فهو يرى ان إعطائهم «ما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم»<sup>(1)</sup> يجعلهم يدركون أن من ورائهم حكومة تتفقد أمورهم الدنيوية بما يكفل لهم ولأولادهم ونسائهم وعجزتهم الحياة الكريمة، فيكون في ذلك اخلاصهم فيما كلفوا به من قتال في وقت الحرب، وتفانيهم في بث الطمأنينة وإشاعة الامن بين الناس وقت السلم حيث «لا تظهر مودتهم الا بسلامة صدورهم»<sup>(2)</sup>.

- ثم انه لما كان للحوافر المادية أثرها الفعال في اخلاص الجند، فقد جعل لها علي عليه السلام مكانة، في فكره العسكري، بوصيته ولاته وامراء جنده ان يعرفوا «لكل امرئ ما ابلى»، مع تجنب المحاباة على أساس المكانة والنسب حال تقسيم مثل تلك الحوافر إذ يجب ان يأخذ كل جندي حقه كاملاً، يقول ضمن عهده للأشتر «ولا يدعونك شرف امرئ أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ ان تصغر من بلائه ما كان عظيماً»، هذه بالنسبة لتكوين الجيش في فكر الإمام علي عليه السلام أما سياسته العسكرية فيمكن حصرها في محاور أربعة هي:

1 - علاقة الخليفة أو القائد العام بأمراء الجيوش.

2 - علاقة أمراء الجيوش بالجند.

ص: 321

---

1- رسائل 53، الفقرات 16، 17، 18، خلوف - بضم الخاء واللام -: جمع خلف، بفتح الخاء وسكون اللام، وهو ما يتركه الجند وراءهم من نساء واطفال وعجزة

2- المصدر السابق نفسه

### 1 - علاقة الخليفة بأمراء الجيش:

يبدو أن علاقة ولي الأمر أو الخليفة بقيادة الجند تنبني على تبادل الحقوق، في فكر علي عليه السلام الذي يرى ان من حق القادة الاطلاع على جميع أسرار الدولة العسكرية والأمنية، الا فيما يختص بحرب أو يتعلق بحكم من الضروري كتمانته حتى حينه، كما أن على الخليفة أو من يقوم مقامه ان لا يفضل قائداً على اخر في رتبته الا بما يمتاز به من بلاء ويلتزم أيضاً بأداء جميع حقوقهم المالية والقانونية كاملة، فإذا ما استوفوا كل ذلك فمن حق الخليفة عليهم «الطاعة، وأن لا ينكصوا عن دعوة ولا يفرطوا في صلاح وان يخوضوا الغمرات إلى الحق»(1).

### 2 - علاقة أمراء الجيوش بالجند:

من واجب أمير الجيوش - في فكر علي عليه السلام - أن يراعي راحة جنده ولا يرهقهم بالقيام بمجهودات شاقة تحول بينهم وبين تأدية الواجب على أتم وجه، ففي أثناء سيرهم نحو معركة ما أو لإخماد فتنة في اقليم ما، يجب عليه ان يختار الاوقات المناسبة، ففي وصيته لأحد أمراء جيوشه يقول «لا تقاتلن الا من قاتلك وسر البردين، وغور بالناس ورفه في السير، ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكتاً، وقدره مقاما، فأرح فيه بدنك وروح عن ظهرك، فإذا وقفت حين

ص: 322

ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسر على بركة الله»(1).

فالراحة البدنية والترويح عن الجنود، تجعلهم في حالة نفسية مرتفعة أثناء الحرب، ولكن ليس معنى ذلك استخدام الليونة التي تؤدي بالجندي إلى التهالك على ملذات الدنيا ومن ثم الانهيار، فعلي عليه السلام يرى ان من مميزات رجل الحرب ان يتحمل خشونة العيش وصعوبة الحياة(2)، والتعود على البعد عن الاهل، فكان إذا شيع جيشاً لحرب أو حشر جنداً في معسكر استعداداً لحرب، يوصيهم من ضمن نصائحه بقوله «اعذبوا عن النساء ما استطعتم»(3). إذفراحة الجنود التي يرمي علي عليه السلام إليها، هي الاطمئنان النفسي والراحة الجسدية المبينتان على الرأفة والرحمة بجانب عدم التهالك على الشهوات المادية تهالكاً يؤدي بالجندي إلى الانهيار.

وعن علاقة القائد بجنده حين ملاقاته العدو، يرى علي عليه السلام، ان من واجبه ان ينظم صفوفه باتخاذ الموقف الوسط من جنده ويضبط نفسه، ويكبح جماح حماسه باستخدام العقل، فلا يدنو من عدوه «دنو من يريد ان ينشب الحرب ولا يتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس»(4)، ولا يغامر بالدخول مع العدو في

ص: 323

1- رسائل 12، وسر البردين: أي وقت برودة الأرض والهواء من حر النهار بمعنى أن السير يكون إما في الصباح أو في العصر، وغور بالناس: أي أنزل بهم وقت القائلة في منتصف النهار حين يشتد الحر، ورفه: أي هون ولا تتعب نفسك ولا جنديك ولا دابتك، وينبطح: أي ينسبط وهو مجاز عن استحكام الوقت بعد مضي مدة منه أو بقاء مدة منه

2- راجع مقولة علي عليه السلام في ذلك الشأن ضمن: رسائل 45 الفقرة الثالثة

3- حكم 266 . ومعناها كما يقول الشريف الرضي: اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن وامتنعوا عن المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية، ويقدم في معاهد العزيمة

4- رسائل 12

حرب حتى يتلقى أمر القائد العام أو الخليفة(1)، أما إذا اضطره العدو لذلك، فمن واجبه - إثارةً للسلم - وحفاظاً على الأرواح.

- أن يدعوهم لما فيه خير وأمن البلاد والعباد، ولا يلجأ إلى الحرب إلا بعد أن يستنفذ كل ما لديه من أعدار سلمية(2)، لأن سلامة أرواح الناس عند علي عليه السلام - فوق كل اعتبار، ما لم يتعارض ذلك مع الغاية النبيلة المتمثلة في احقاق الحق وتقوية دعائم الدين، فالقائد بالنسبة لجنوده أبٌ رحيم(3)، وبالنسبة لأعدائه داعية سلام. أما الحرب فهي العلاج الأخير.

### 3 - الطلائع والعيون:

المخابرات العسكرية من أهم الدعائم التي اعتمدها الدول لحفظ أمنها منذ أقدم العصور(4)، إذ عن طريقها تعرف تحركات العدو، وما يمتلكه من سلاح وعتاد، ومواضع الضعف والقوة في دفاعاته، ورسم الخطط والخطط المضادة لهجوماته المباغتة. لذلك فقد اهتم بها علي عليه السلام اهتماماً عظيماً وجعلها ضمن مخططات مؤسسته العسكرية، فاستخدم العيون والطلائع فقد كانت له عيون بالشام ترصد له تحركات معاوية(5)، كما كانت له بعض العيون في

ص: 324

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- راجع رسائل 53، الفقرة 16

4- للاطلاع على قدم أنشطة الاستخبارات العسكرية - راجع عبد الله مناصرة الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 15 وما بعدها

5- راجع ابن مزاحم: صفين ص 65 وما بعدها ورسائل 33

جيش معاوية بصفين(1) ، هذا بالإضافة إلى الطلائع التي كان يرسلها في مقدمة جيوشه كما فعل في صفين، يقول ضمن وصيته لجيش من جيوشه «اعلموا ان مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم»(2) ، وذلك يعني ان علياً عليه السلام قد كان على علم واسع بالشؤون العسكرية.

والجوسسة كعمل مشروع يراد منه الحفاظ على مصالح الأمة وحماية الإسلام، لم يقصرها علي عليه السلام على الناحية العسكرية من دون غيرها من النواحي الامنية الأخرى، ففي كتاب له لقمم بن العباس(3) واليه على مكة، يقول «أما بعد فإن عيني بالمغرب كتب إلي يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام»(4) .

لكن علياً عليه السلام لم يحاول استخدام الجوسسة لقمع على الإطلاق، لأنه كان يستكف الإساءة لأي إنسان في سبيل توطيد سلطته، فهو كقائد يتحلى بروح الفروسية في أنبل معانيها يجد أن «الأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر»(5) .

#### 4 - الصفات التي ينبغي للجندي ان يتحلى بها في نظر الإمام علي عليه السلام:

مما أثر عن علي عليه السلام من توجيهات ونصائح كان يزود جنده بها أثناء توجيههم

ص: 325

1- راجع ابن مزاحم: السابق ص 468

2- رسائل 11 ، والنص يحوي نصائح عسكرية جلييلة رغم صغر حجمه

3- قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، استعمله علي عليه السلام واليا على مكة فلم يزل واليا عليها حتى قتل علي عليه السلام، سار أيام معاوية إلى سمرقند فمات بها شهيداً أسد الغابة 392/4

4- رسائل 33

5- ابن أبي الحديد 20 / 303



إلى أية معركة يمكننا التعرف على صفات الجندي المثالي عنده.

فعلي عليه السلام كما عرفنا لم يبدأ بحرب قط(1) و«لم يقاتل يوماً من أهل القبلة ممن خالفه حتى يدعوهم»(2) إلى الاحتكام للعقل، لذلك فقد أراد لجنده أن يقتلوا به ويأخذوا بنهجه في ضبط نفوسهم وتحكيم عقولهم، ولا يبادروا بمقاتلة أعدائهم إلا إذا بدأوا هم بذلك، وينطلق من نظرية تلك على اعتبار أن في بدء القتال عدواناً، واستصغاراً للقيم، وانهما داخليا للنفس المعتدية يؤدي بها إلى الانهيار، جاء في نصحه لابنه الحسن عليه السلام قوله «لا تدعون إلى مبارزة، وإن دعيت فأجب، فإن الداعي باغ، والباغي مصروع»(3) لاعتداده بشجاعته وقوته دون ارتكازه على قاعدة خلقية يؤدي به إلى الغرور فتكون هزيمته حتمية.

أما إذا اضطر الجند للدخول في مواجهة حتمية مع العدو، فمن واجب كل جندي أن يعرف موقعه، ويلتزم بتوجيهات قيادته، ليدفع عن نفسه الهلاك، ويحقق النصر. فقبل نشوب أية معركة يجب على جميع المقاتلين أن يلتزموا بقاعدة عسكرية فحوها تقدم أصحاب الدروع من الجند، وتأخر الحاسرين ممن ليس لديهم ما يدرأ عنهم ضرب السيوف وطعن الرماح(4).

هذا من ناحية التحرك العسكري في مواجهة العدو في أثناء بدء المعركة، أما من ناحية درء الجندي خطر الموت باتقاء الضربات القاتلة أثناء احتدام القتال،

ص: 326

---

1- راجع ص 252 وما بعدها من هذا البحث

2- أبو يوسف: كتاب الخراج ص 214

3- حكم 232

4- راجع خطب 124. وقد ورد ضمنها نصائح عسكرية أخرى تتعلق بالرايات وكيفية حملها ومن هو المؤهل لتلك المهمة الخطيرة الصعبة

فيرى علي عليه السلام أنه من الأجدى بالجند في أثناء التحامهم بالأعداء، أن يعضوا على أضراسهم بشدة(1) كي تمنح تلك العملية جماجمهم صلابة وقوة قد تحول دون سيوف الأعداء والقطع، ثم ان العض على الأضراس يزيد من شدة المقاتل في ضرب القطع، لما لتلك العملية من تأثير نفسي وجسمي في حشد القوة لمواجهة الصعوبات والتغلب عليها بإصرار. ويجب على الجند ان يتحاشوا رماح الأعداء أثناء اشتجارها ببقطة وانتباه واستخدام لياقتهم البدنية للإنعطف عن أسننها في خفة وحذق يجنبهم إصابتها(2).

ومن عوامل النصر - من وجهة نظر علي عليه السلام العامل النفسي المتمثل في طرد الخوف والاقبال على القتال بقلوب قوية عزيمة صادقة، لذلك فمن الأجدى للجنود في أثناء احتدام القتال، غض أبصارهم عما تهرق من دماء، وتزهق من ارواح لأن ذلك كما يقول «أربط للجأش وأسكن للقلوب»(3)، إضافة إلى التزام السكينة والهدوء طرداً للفشل(4).

ولما كان تعاون الجند فيما بينهم من أهم عوامل النصر فلقد ركّز علي عليه السلام واضحاً نصب عينيه احتمال ان يصاب الجندي بأنهباء نفسي في أثناء مشاهدته الموت من حوله، وفي مثل هذه المواقف يجب على أخيه الجندي أن يقف بجانبه ويشد أزره ليمنحه الإحساس بالاطمئنان، فيكون ذلك دافعاً له على مواصلة القتال، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش

ص: 327

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- خطب - السابق

4- المصدر السابق نفسه

عند اللقاء، ورأى من أحد إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فُضِّلَ بها عليه كما يذب عن نفسه»(1).

ومن أهم الصفات التي يجب أن يتحلّى الجند بها - من وجهة نظر علي عليه السلام - التزام أخلاق الفرسان بتجنّبهم كل ما يحط من القيمة الأخلاقية، في أثناء المعركة وبعد أن تحسّم لصالحهم، ويمثل ذلك قوله «إذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا سراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمنَ أعراضكم وسببنَ أمراءكم وصلحاءكم»(2).

ففكر علي عليه السلام العسكري فكر تكاملي من حيث مآزجه بين السياسة العسكرية بشقيها الإداري والتربوي وبين الأخلاق المتمثلة في الإيمان بالقيم والتعاون والبناء، والأخذ بالأساليب الإنسانية في مواجهة الأعداء، لأن خبرته العسكرية وشجاعته «هما بمنزلة التعبير عن الفكرة، أو بمثابة العمل من الإدارة، لأن (محوها) الدفاع عن طبع في الحق وإيمان بالخير»(3).

### 3 - القضاء:

#### إشارة

«كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرون بأنفسهم»(4)، ويرجع ذلك إلى الأهمية التي أولاها الإسلام له، وأسوة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يقضي بين المسلمين في المدينة بنفسه، ويرسل من يتوخى فيهم العلم والدراية والإنصاف من

ص: 328

1- خطب 122

2- رسائل 14

3- جورج جرداق: علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية 80/1

4- المصدر السابق

صحابته للقضاء بين الناس في الولايات البعيدة، ومن أولئك الذين اعتمد عليهم صلى الله عليه وآله وسلم في القضاء (علي بن أبي طالب عليه السلام وهو من أجل القضاة)<sup>(1)</sup>. وقد اهتم علي عليه السلام بالقضاء في دولته لسببين:

- الأول: مكانة القضاء كمنصب ديني يهيم الناس كافة، بالفصل في الخصومات، وأخذ الحق للمظلوم وردع الظالم، وإقامة الحدود بما يتطابق واحكام القرآن والسنة.

الثاني: مباشرته القضاء بنفسه على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعهد الحكام الثلاث من بعده. وتمرسه في ذلك جعله على دراية تامة بخبايا تلك الوظيفة الحساسة، وما تحتاجه من علم وخبرة، وسعة اطلاع في طبائع البشر، لمعرفة الأعيب المحتالين، إلى غير ذلك من أمور يحتاجها القاضي في أثناء مزاولته القضاء، فمن خلال تجربته في مباشرة ذلك المنصب يقول علي عليه السلام «لو يعلم الناس ما في القضاء، ما قضوا في ثمن بعرة، ولكن لا بد للناس من القضاء»<sup>(2)</sup>، لذلك يرى علي عليه السلام: ان على القاضي ان يتحرى الحق وان يحكم بالعدل دون أي التباس، لأن القاضي الجائر والقاضي المخطئ وان كانت نيته العدل كلاهما في النار من وجهة نظر علي عليه السلام<sup>(3)</sup>.

ويبدو ان الاغراءات المادية والسعي وراء الشهرة في صدر الإسلام أدى بكثير من الناس إلى الجري وراء ذلك المنصب، مما جعل علي عليه السلام يحمل حملة شعواء على مثل أولئك المتطفلين على الوظيفة، وقد ورد ذلك في نصين في النهج:

ص: 329

1- مقدمة ابن خلدون ص 375

2- وكيع: اخبار القضاة 5/1، 21

3- راجع السابق 18

- الأول منهما يبين خطورة القاضي الجاهل بعلم القضاء، وما ينجر عن جهله من كوارث على الناس، جاء في خاتمته «جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات، لم يعض على العلم بضرر قاطع... لا يحسب العلم في شيء مما انكره، ولا من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإن أظلم عليه أم أكتتم به لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء وتعج منه الموارث»<sup>(1)</sup>.

- أما النص الثاني فيتمثل في اختلاف الفتيا بين القضاة في قضية واحدة بعينها بحيث يحكم فيها كل قاض بخلاف حكم الآخر، ثم يجتمعون عند من «استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد، وكتابتهم واحد. أفأمرهم الله - سبحانه - بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه»<sup>(2)</sup>.

لذلك وضع شروطاً شاملة ودقيقة فيمن يصلح لتولي ذلك المنصب المهم وهي:

1 - شروط أخلاقية.

2 - شروط ثقافية.

3 - شروط نفسية.

### أولاً - الشروط الأخلاقية:

وحصرها في وجوب كون القاضي من حيث اختياره، من أفضل الرعية عند

ص: 330

---

1- خطب 17، فقرة 2. تعج: يرتفع صوتها مولولة، ويقول محمد عبده أن «صراخ الدماء وعج الموارث، تمثيل لحدة الظلم، وشدة الجور» راجع نهج البلاغة بشرح محمد عبده ص 61 الأندلس

2- خطب 18، الفقرة الأولى

ولي الأمر أخلاقاً(1) وصورة هذه الأخلاق تتجلى في:

الصبر والتأني والثبات فلا «تضييق به الأمور»(2) في مجلس القضاء وأن لا يكون اعسر الخلق لجوجاً، حتى يمكنه تجنب استخدام أساليب الضغط في أثناء طلبه من أحد المتخاصمين الإدلاء بحجته، فهو بهذه الخصيصة الأخلاقية «ممن لا تمحكه الخصوم»(3). وإذا ما زل على أحد المتخاصمين وشعر بذلك فمن الواجب عليه أن يراجع نفسه فلا «يتمادى في الزلة»(4)، وإذا ما أخطأ واستبان فلا يصر عليه «ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه»(5).

### ثانياً - الشروط الثقافية:

بالإضافة إلى تبحر القاضي في الشريعة الإسلامية يجب أن يكون مزوداً بثقافة موسوعية عامة، فلا يقصر نظره في قضايا الناس على ما يستبين له من براهين لأول وهلة، بل يجب أن يستقصي في دراسته لتلك البراهين كل الأدلة الشرعية الناتجة عنها «فلا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه»(6). وقد تشبه الأمور عليه ويلتبس الحكم، وفي هذه الحالة يجب أن يتحرز من الوقوع في الشبهات،

ص: 331

- 1- راجع رسائل 53 فقرة 20
- 2- المصدر السابق نفسه
- 3- المصدر السابق نفسه
- 4- راجع رسائل 53، فقرة 20
- 5- المصدر السابق نفسه
- 6- المصدر السابق

ولا بيت في حكم إلا بعد أن يطمئن إلى عدالته (1). ثم أنه يجب أن يكون ممن يعتمد في قضائه على سماع جميع أقوال المتخاصمين (2)، ويزنها بميزان العدل يارجاعها إلى الأصول المعتمدة، ومقارنتها بمثيلاتها، ومن ثم يصدر حكمه بناء على قوة الحجج، لا من حيث الجدل والمماحكة، وقوة الأسلوب، ولكن من حيث قوة المنطق ومطابقتها للحق (3).

### ثالثاً - الشروط النفسية:

إن النفس الإنسانية التي تجعل من المال هدفاً وغاية، قد تضطر إلى التخلي عن التزاماتها في سبيل ذلك، لذا فقد رأى علي عليه السلام أن يكون المؤهل لمنصب القضاء ممن لا «تشرف نفسه على طمع» (4). كما أن التبرم والضيق لا يتفقان وطبيعة العمل القضائي. فمن خاصية القاضي أن يكون منشرح الصدر يستمع إلى الخصوم بإصغاء دونما ملل «من مرجعة الخصم» (5) ويتحلى بضبط النفس «حتى تتكشف الأمور» (6)، ويجب أن يتمتع بمزايا الشجاعة والجرأة والصرامة في الوقوف بجانب الحق «عند اتضاح الحكم» (7). وينأى بنفسه عن الخيلاء

ص: 332

- 1- المصدر السابق
- 2- المصدر السابق
- 3- المصدر السابق
- 4- المصدر السابق
- 5- المصدر السابق
- 6- المصدر السابق
- 7- المصدر السابق

وينبذ النفاق والتزلف «فلا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء»(1).

وعلي عليه السلام حين يضع لمنصب القضاء تلك الشروط المثالية، فهو على وعي تام بأن الحصول على مثل أولئك الرجال قليل(2)، ولكن قلتهم لا تمنع من البحث عنهم بين الناس لحاجة المجتمع إليهم، إلا أنه في الوقت نفسه واحترازاً من الوقوع في الخطأ، واطمئناناً على حقوق الناس اوجب على ولي الأمر مراقبة القضاة، ومراجعة احكامهم من حين إلى حين(3).

وحيثما يجنب القضاة الانزلاق في هاوية الحاجة بقبول الرشواي والاغراءات المادية فقد أوصى لهم من المال «ما يزيل (غلتهم) وتقل معه (حاجتهم) إلى الناس»(4).

ولاستقلالية القضاء مكانة عالية في فكر علي عليه السلام، لأنه كما نتصور يرى إبعاد القاضي من أي ضغط من شأنه التأثير في نزاهة الحكم بالإرهاب، أو بأية وسيلة أخرى، وحتى يكون حكم القضاة نافذاً في كل الأوقات، وعلى جميع الناس، فقد أوصى أولياء الأمور ممن يوكل إليهم اختيار القضاة، أن يكون أصحاب أولئك المناصب تحت إشرافهم المباشر(5) ولا يوكلوا أمر الإشراف عليهم من قبل هيئة معينة. وذلك حتى يقوى مركزهم، ويشعرون بأن وراءهم قوة تسندهم في حال ابتلائهم بقوة تحد من سلطتهم وتعطل احكامهم، وبذلك

ص: 333

1- المصدر السابق

2- المصدر السابق

3- المصدر السابق

4- المصدر السابق

5- المصدر السابق



يمكن القول ان علياً عليه السلام قد وضع دستوراً مثالياً متكاملًا، يتناسب ومثاليته المتناهية في حب الإنسان والإنسانية.

#### 4 - بيت المال:

#### إشارة

لا يكاد نهج البلاغة أن يمدنا بشيءٍ كثيرٍ عن المؤسسة المالية في فكر علي عليه السلام اعتماد جامع نصوصه منهجاً انتقائياً معيناً، حال بينه وبين نقل جميع ما أثر عن علي عليه السلام وقد أشار إلى ذلك في مقدمته (1). إلا أننا لا نعدم الخطوط الأساسية العريضة لتلك المؤسسة من خلال الإشارات الخاطفة التي يرسلها علي عليه السلام في خطبه أو ضمن بعض رسائله ووصاياه وحكمه خاصة عهده للأشتر الذيوصلنا كاملاً وضمنه علي عليه السلام كثيراً من أفكاره في بناء الدولة وسياستها. فمن ذلك النص والنصوص الأخرى يمكننا استنتاج أهم موارد الخزينة (بيت المال) وطريقة جبايتها، والوجوه التي تصرف فيها، فأهم موارد الدولة المالية في عهد علي عليه السلام كما يتهبأ لنا هي:

#### 1 - الزكاة (2).

ص: 334

---

1- راجع مقدمة نهج البلاغة في أية نسخة من نسخ نهج البلاغة وراجع أيضاً ص 123 من هذا البحث  
2- الزكاة أو الصدقة، يفترق الاسم ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها، الأحكام السلطانية ص 99، ويقول محمد جواد مغنية: الفقه على المذاهب الخمسة ص 166: ان الشيعة الإمامية والمالكية يوجبون الزكاة على الكافر كما يوجبونها على المسلم، ويوجب الشيعة الإمامية الخمس في كل ما يفضل عن مؤونة سنة الإنسان وعياله مهما كانت مهنته ومن أي نحو حصلت فائدته، سواء أكان من التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو الوظيفة أو العمل اليومي، أو من الاملاك أو من الهبة أو من غيرها، ولو زاد على مؤونة سنته قرش واحد أو ما يعادله فعليه أن يخرج خمسة - الفقه على المذاهب الخمسة، السابق ص 187. أما مذاهب السنة فيحددون الخمس في الأموال التي تجبى من الكفار من فيئ وغنيمة، كما يبدو من كلام الماوردي في الأحكام السلطانية ص 110 . وقد عرضنا إلى اختلاف المذاهب الإسلامية في توزيع الخمس ضمن هذا البحث

2 - الجزية (1) .

3 - الخراج (2) والعشر (3) .

4 - التجارة والصناعة.

ويمكننا مما بين أيدينا من نصوص استنتاج ملامح فكر علي عليه السلام في الكيفية التي اختطها لجميع تلك الضرائب، والسياسة التي يتبعها في صرف الأموال في وجوهها المستحقة والوازنة بين الداخل والخارج وحساب المستقبل.

## 1 - الزكاة:

أو الصدقة، وينبع الاهتمام بها في الإسلام لكونها ضمن العبادات، وهي

ص: 335

---

1- الجزية: ضريبة مالية «موضوعة على الرؤوس، وتتخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام... وتجب على الرجال الأحرار» الأحكام السلطانية ص

127

2- الخراج: هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها. والخراج يؤخذ على الكفر والإسلام بمعنى أن الأرض الخراجية تبقى على حالها من حيث أداء الضريبة المقررة عليها بغض النظر عن دخول مالكة الإسلام، أو شرائها من قبل مسلم. راجع السابق ص 124 ، 127

3- العشر: هو ما يوظف على الأرض الميتة إذا ما أحيها مسلم بمدّها بالماء، وتعهد تربتها، واستغلال مواردها، فإن الإسلام يملكها له استناداً على قول الرسول « صلى الله عليه وآله وسلم من أحيأ أرضاً مواتاً فهي له». الأحكام السلطانية السابق ص 153، وذلك التملك يكون بشروط معتبرة في كتب الفقه راجع السابق - وفيما لو أحيأ أحد المسلمين أرضاً مواتاً فهي ملك له شريطة أن يدفع لولي الأمر عشر ما تدره الأرض كضريبة سنوية - راجع السابق

الركن الثالث في الإسلام، استناداً لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت، وصوم رمضان» (1). وقد أعطى علي عليه السلام للزكاة مكانة هامة، جعلته يتتبع جمعها من المسلمين منذ بداية العملية حتى اللحظة الأخيرة من توزيعها على مستحقيها.

وجمع الزكاة في فكر علي عليه السلام، يقوم على دعامة أخلاقية متينة، تحول بين جامعيتها والقسرة في جبايتها، لأنها في الأساس تطهير للنفس من الشح، وإبعادها عن حب الذات بالتكالب على المادة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا كان المزكي ذا قلب سليم ونفس سمحة، فمن وصيته لعماله على الصدقات بأمرهم بالقول «عباد الله، ارسلني اليكم ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه، فإذا قال قائل: لا، فلا تراجع، وإن انعم لك فانطلق معه» (2). ثم أن على ذلك العامل ألا يأخذ من المتصدق أكثر من حق الله المفروض في ماله (3). ولا يأخذ من المال إلا ما هو رضاءً لصاحبه (4) إذ ليس تعني الموافقة على دفع الزكاة، بأن تقوم السلطة بمحاسبة المزكي محاسبة دقيقة باستخدام العسف والإرهاب، لذا يجب على العامل أن يأخذ ما أعطي، اعتماداً على صدق المزكي، وإخلاص إيمانه، وفي حالة امتلاك المتصدق إبلاً أو ماشية فعلى العامل أن لا يدخل إليها إلا بإذنه لأن «أكثرها له... فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تقزعها، ولا تسوعن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار، فلا

ص: 336

1- صحيح مسلم 45/1

2- رسائل 25. وأنعم: أجب بنعم

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

تعرضن لما اختاره، ثم أصدع الباقي صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فإن استتالك فأقله ثم اخلطهما ثم أصنع مثل الذي صنعت حتى تأخذ حق الله في ماله»(1).

فالمثالية - كما نلاحظ قد بلغت الذروة، فلم تقتصر عند علي عليه السلام على الموافقة على أداء الزكاة بل تعدتها إلى التخيير المتناهي في عدالته، وشملت أيضاً طريقة التعامل مع المال والحيوان، إلا أن ذلك لا يعني في فكر علي عليه السلام القبول بأي شيء لا يتناسب ومصلحة مستحقي الصدقة، ففي زكاة الحيوان، على سبيل المثال، يجب عدم قبول المعيب أو المريض(2)، إذ من واجب عامل الزكاة أن لا يقبل إلا ما هو صالح للناس.

ثم إن علياً عليه السلام في مثاليته، يسير مع عامله على الصدقات خطوة بخطوة خلال رحلته الشاقة، فينصحه بأن لا يوكل بما اجتمع عنده من مال المسلمين «إلا ناصحاً شفيقاً أميناً حفيظاً، وغير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب»(3). كما يجب عليه أن يراعي الله فيما اجتمع عنده من حيوانات، حتى تصل إلى مستقرها، فتقسم على مستحقيها وهي سليمة غير متعبة(4).

فإذا اكتملت عملية جمع الزكاة في كل ولايات الدولة، واستقرت الأموال في بيوتها، فعلى القائم بالأمر أن يباشر بتقسيمها على السبعة الذين خصهم الله تعالى في قوله:

ص: 337

---

1- السابق. وأصدع: أقسم، واستتالك: أي ظن في نفسه سوء الاختيار فطلب منك أن تعيد عملية القسمة

2- المصدر السابق نفسه

3- السابق. وملغب: المعني من التعب

4- المصدر السابق نفسه

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّ السَّبِيلَ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ) (1) ، ولا أن يتعدى المسؤول في توزيعها أولئك السبعة. وكما يبدو من كلام علي عليه السلام في وصية أخرى إلى عماله على الصدقات، أن المتولي على جمع صدقات البقعة أو الحي، هو الذي يقوم بتوزيع ما اجتمع عنده على المحتاجين، والضعفاء، وذوي الفاقة، من أهل المنطقة ذاتها، كما ان على المتولي ان لا يأخذ حقه من الصدقات الا بإذن ولي الأمر، وبالمقدار الذي يفرضه له، وفي ذلك يقول لعامله على الصدقات «ان لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء وذوي فاقة، وأنا موفوك حقك فوفهم حقهم» (2) . وعلى ذلك فإنه لا يرجع إلى بيت المال المخصص للزكاة الا ما زاد عن حاجة فقراء المنطقة التي جمعت منها، وهو ما يشير حسب فهمنا ان علياً عليه السلام قد خصص مقدراً معيناً لكل مستحق في دولة الإسلام، لأنه عادة ما يأمر ولايته بتوزيع الزكاة على مستحقيها، ثم يرسل ما تبقى عنده منها إلى عاصمة الدولة ليقوم الخليفة بتقسيمه بما يقيم التوازن بين الولايات كلها، إذ لا بد ان تكون الزكاة في ولاية ما أكثر منها في ولاية أخرى، لذا فقد اوجب علي ولي الأمر أن يراعي ذلك أثناء جمع الصدقة وتوزيعها، واننا وان كنا لا نملك نصاً صريحاً بذلك في النهج، إلا أنه يمكن استنتاجه من قوله إلى قثم (3) بن العباس عامله على مكة «انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فأصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والجماعة، مصيباً مواضع الفاقة والخلات، وما فضل عن

ص: 338

1- التوبة/ 60

2- رسائل 26 ، فقرة 3

3- راجع ترجمته في ص 325 من هذا البحث

ذلك فاحمله الينا لتقسمه فيمن قبلنا»(1)، والتقسيم فيمن قبله على ما نعتقد لا يعني الكوفة عاصمة الخلافة بالذات، بل يعني محاولة العدل في التوزيع بين فقراء المسلمين في كل بقاع الدولة.

## 2 - الجزية:

في اعتقادي أن أثر هذه الضريبة في موارد الدولة - على عهد علي عليه السلام كان ضئيلاً نسبياً، لكون كثيراً ممن كانوا يدفعونها قد دخلوا الإسلام، إما تخلصاً من دفعها، فلم يبق من دفعيها إلا قلة من اليهود والمسيحيين فيما عدا التغلبيين(2)، لذلك لا نرى للجزية أي ذكر في نصوص النهج، أو قد يكون ضمن النصوص التي لم تدخل ضمن اختيار الجامع(3).

## 3 - الخراج والعشر:

أو ضريبة الأرض، وقد أهتم المسلمون بها اهتماماً بالغاً لكونها المصدر الرئيس لتمويل مشاريع الدولة، وصرف مرتبات الجند والقضاة والعمال وغيرهم من الموظفين، ومن دواعي الاهتمام بها فقد دخلت تلك الضريبة في

ص: 339

---

1- رسائل 67، الفقرة الثانية، وقبلك بكسر ففتح: أي عندك، والفاقة: شدة الفقر والخلة بفتح الخاء -: الحاجة

2- صالح عمر بن الخطاب نصاري بني تغلب أن يضاعف عليهم الزكاة عوضاً عن الجزية شريطة ألا يشتركوا في حرب ضد المسلمين وأن لا ينصروا أولادهم. راجع الخراج لأبي يوسف ص 120

3- راجع ص 123 وما بعدها من هذا البحث

كتب الفقه الإسلامي كموضوع قائم بذاته، فافرد لها أبو يوسف (1) (ت 182) فصلاً عرفها فيها، بالإضافة إلى كيفية جمعها من الفلاحين وملاك الأرض، والنواحي التي تصرف فيها تلك الأموال. كما عالج ضريبة الأرض أيضاً أبو عبيد القاسم بن سلام (2) (ت 224)، وحظيت أيضاً باهتمام يحيى بن آدم (3) (ت 370 هـ)، وعرض الماوردي لها (4)، كما افرد الحافظ عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت 795 هـ) كتاباً، خاصاً بالخراج أسماه (الاستخراج في أحكام الخراج)، ولورجعنا للنهج لنستقري فكر علي عليه السلام في ضريبة الأرض تلك، فسنجد إن اهتمامه قد انصب أولاً وقبل جباية الأموال على العامل أو الفلاح، ومن ثم على الأرض التي يعملون عليها، وهما كما نلاحظ دعامة الثروة الرئيسة في المجتمع الزراعي، الذي كانت الدولة الإسلامية تعتمد عليه في معيشة سكانها، وفي إدارة دفة الحكم. يقول علي عليه السلام في عهده للأشتر «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم، صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج» (5)، فالخراج في النص كناية عن الأرض، وليست الضريبة المفروضة عليها، ثم إن أهل الخراج هم الفلاحون وتفقدتهم يعني إصلاح حالهم وتعهدهم بإنشاء القنوات، ومد الجسور، وحفر الآبار، واستصلاح الأرض، والوقوف إلى جانبهم في وقت الكوارث الطبيعية، من جفاف أو فيضان أو جراد، فإن كل ذلك يمكن الفلاح من زيادة إنتاجه، ويعني

ص: 340

- 1- راجع كتاب الخراج ص 33، 47، 63، 133
- 2- راجع كتاب الأموال ص 73، 79، 83، 102، 524
- 3- راجع كتاب الخراج ص 22، 63، 84
- 4- راجع الأحكام السلطانية ص 124 وما بعدها و ص 153 وما بعدها و ص 167 وما بعدها
- 5- رسائل 53، فقرة 22

في نهاية المطاف الزيادة في دخل الخراج، ومن أجل ذلك يقول علي عليه السلام للأشتر «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة، اخرج البلاد واهلك العباد ولم يستقم امره الا قليلاً» (1)، لأن العمال والفلاحين سيهجرون الأرض وبذلك تكثر المجاعات وينهدم الاقتصاد فيختل الأمن، مما يدعو في النهاية إلى زوال نظام الحكم، فالعمران - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - هو ما ينمي الدخل «وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها، وانما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبير» (2) وهو ما يعني ضمناً ان حكام السياسة المتعلقة لا يكمن في ارهاق العباد بفرض الضرائب وجمع الأموال لملء خزينة الدولة لأن دخل الدولة الحقيقي ورصيداها المالي هو الإنسان ذاته، فإذا صلح الإنسان وصلحت حاله، تمكن من العطاء بما يعود عليه وعلى البلاد بالخير العميم، وفي تاريخ الإنسانية من العبر الكثيرة التي يمكن للحكام الانتفاع بها لو تأملوها بعين العقل. على تلك الأسس الإنسانية الممتينة باشر علي عليه السلام سياسته المالية تجاه الأرض مصدر الرزق الاساسي في عصره، فمن وصية له إلى عماله على الخراج يقول «ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضرب أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تمسن مال احد من الناس مصل ولا معاهد، الا ان تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على الإسلام» (3)، إذ لا يمكن ان تؤخذ الضريبة من الإنسان

ص: 341

1- المصدر السابق

2- رسائل 53، فقرة 22. اعواز أهلها: جعلهم في حاجة مستديمة، اشراف: تطلع

3- رسائل 51



على ضرورياته الحياتية «من غذاء أو كساء أو أثاث أو آلة أو حيوان»<sup>(1)</sup>. وبهذا الأسلوب المثالي السامح تدفقت الضرائب من خراج وعشر على بيت مال الدولة مما جعل العطاء يزيد ويكثر<sup>(2)</sup> إلى الحد الذي أدى بعلي عليه السلام إلى اطعام اليتامى والمساكين العسل<sup>(3)</sup>.

#### 4 - التجارة والصناعة:

هما من مصادر الدولة المهمة في عصر صدر الإسلام وإن لم تكونا في مستوى الخراج أهمية. فقد كان عمر بن الخطاب يستوصي بالتجار، ويسهر على راحتهم، حتى بلغ به الأمر حراستهم وحراسة أموالهم بنفسه، فمما يؤثر عنه انه «كان يعس ليلاً، فنزلت رفقة من التجار بالمصلى، فقال لعبد الرحمن بن عوف، هل لك ان نحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما»<sup>(4)</sup>، ولأهمية التجارة في حياة الأمة وفي انتعاش اقتصاد الدولة، فقد أفرد لها علي عليه السلام مساحة من فكره الاقتصادي يمثلها قوله لمالك الأشتر «ثم استوص بالتجار، وذوي الصناعات واوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب ماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلابها من المباعده والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك حيث لا يلتئم الناس لموضعها ولا يجترئون عليها»<sup>(5)</sup>. فالتجارة بما يكتنفها من المخاطر والمغامرة بالأموال

ص: 342

1- مغنية: في ظلال النهج 41 / 4

2- راجع انساب الاشراف 136 / 2 وما بعدها

3- المصدر السابق نفسه

4- ابن أبي الحديد 12 / 14

5- رسائل 53، فقرة 24، والمضطرب بماله: الذي لا يستقر في بلد ما، والمترفق ببدنه: المتكسب من عمل يده من بناء ونجار وغيره، والمرافق: ما ينتفع بها من ادوات، جلابها: الذين يأتون بها

من قبل التجار، إلا أنها ضرورية بل وأساسية في حياة الناس، لأنها توفر ما يحتاجونه من اله وكساء وطعام، هذا بالإضافة إلى ما تدره على بيت المال مندخل يتمثل في جباية الأسواق بالإضافة إلى الضرائب التي يدفعها التجار مقابل ما يجلبونه من مؤن وبضائع إلى البلاد، لذا من واجب الحكومة ان ترعاهم بما يكفل لهم الربح المعقول، وتجنبهم الخسارة، بتوفير الامن والحماية لهم، إذ لا- يمكن أن تستقر تجارة إلا- في مجتمع مستقر، ولا- يمكن للتاجر أن يستثمر أمواله إلا إذا شعر بالأمان، لما في طبعه من حذر وحيطه وجبن، فالتجار على العموم - من وجهة نظر علي عليه السلام- «سلم لا تخاف بانقته وصلح لا تغشى غائلته»(1).

لكن علياً عليه السلام لم يترك الحبل على غاربه للتجار، بحيث يمكنهم التصرف في الاسواق كما يشاؤون، فهو في الوقت نفسه الذي أحاطهم فيه بالرعاية، فإنه قد نبه إلى ان «في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكاً للمنافع وتحكما في البياعات»(2)، لذا فمن وجب ولي الأمر والسوق مفتوحة للجميع - ان يراقب الاسعار ويحول بين التجار والاضرار بالناس(3) فالتجارة وإن كانت ضرورية، ومصدراً مهماً من مصادر الدخل - كما تبدو في فكر علي عليه السلام - إلا أنها مقننة بما يتماشى ومثاليته المتناهية في تطبيق شرائع الإسلام طبقاً للكتاب والسنة.

أما الصناعة والصناع الذين وصى واليه الأشر بهم خيراً(4)، فإن الذي يقصده من وصيته تلك - كما نستخلص من سيرته(5) - أنه يريد بذلك حمايتهم

ص: 343

1- السابق، وبانقته: داهيته ومكره، وغائلته: عصيانه وتمرده

2- المصدر السابق

3- المصدر السابق

4- راجع السابق، مطلع الفقرة

5- راجع ابن أبي الحديد 199/2 طريقة علي عليه السلام في تقسيم ما في بيت المال

وحماية صناعتهم من الانقراض، حتى لا يتضرر الناس ويتأثر الاقتصاد، فإن قلة الحاجة إلى بعض الصناعات في وقت ما لا يعني إهمالها وعدم رعايتها، فقد تكون تلك الصناعة متوفرة في إقليم ونادرة في إقليم آخر، فتعهدا وحمايتها يعني التكامل الاقتصادي فيما بين أقاليم الدولة المختلفة لأن «اختصاص بعض الأمصار ببعض الصناعات تدون بعض، وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون» (1). لذا كان علي عليه السلام - فيما نعتقد - يأخذ ضمن الجزية والخراج والزكاة، بعض الصناعات المتداولة في عصره. يقول أبو يوسف «كان علي بن أبي طالب عليه السلام فيما بلغنا يأخذ منهم (أي أهل الذمة) في جزيتهم الإبر والمسال ويحسب لهم من خراج رؤوسهم» (2).

وقد ورد عند البلاذري أن علياً عليه السلام كان «يقسم العطور بين نساتنا» (3).

كما كان يقسم بينهن الإبر التي كان يأخذها «من اليهود مما عليهم من الجزية» (4) وهو بعمله ذلك انما يهدف إلى تشجيع الصناعات والابقاء عليها باعتبارها احد مصادر الدولة. تلك هي اذن مصادر المؤسسة المالية وكيفية جبايتها - كما تبدو في فكر علي عليه السلام - فما هي سبل صرفها؟

### **سياسة التصرف في موارد الدولة المالية كما تبدو في النهج:**

يخلص القارئ المتسرع في سيرة علي عليه السلام أنه لم يكن يتمتع بفكر اقتصادي

ص: 344

1- مقدمة ابن خلدون 472

2- الخراج ص 122 ، المسال: ابر الخياطة الكبيرة التي يخاط بها الخيش:

3- أنساب الأشراف 137/2

4- المصدر السابق نفسه

قويم ولا بسياسة مالية محكمة، لعدم اهتمامه بالمال، فقد اشتهر عنه انه لا يرتاح وتطمئن نفسه حتى يقسم كل الأموال الواردة(1). إلى بيت المسلمين، ثم ينضح ارضه بالماء ويصلي فيه(2) كما أثر أنه قد اقترح على عمر بن الخطاب، لما وردت إليه أموال الفتح أن يقسمها في الناس حتى لا يبقى منها شيء(3)، ويروي أبو الاسود الدؤلي: أن علياً عليه السلام قد قسم كل ما وجد في بيت المال البصرة على أصحابه بعد وقعة الجمل(4). وتلك تصرفات لا تتم عن حنكة سياسية، وتمرس بأساليب الحكم لما فيها من عدم حساب للمستقبل، وإهمال لمشاريع الدولة، وتعطيل لأجهزتها، بسبب وفاض الخزينة من المال الذي تحتاجه لكل ذلك.

ولكن المتأمل فيما أثر عن علي عليه السلام في النهج يرى عكس ذلك، إذ يبدو ان بيت المال في أثناء خلافته كان مقسماً على أقسام ثلاثة هي:

الأول: ديوان الزكاة: وهو مؤسسة مالية قائمة بذاتها تختص بجمع الزكاة ثم توزيعها على مستحقيها بالعدل في جميع ارجاء الدولة الإسلامية تحت إشراف الخليفة واموال هذا الديوان لا يبقى علي عليه السلام منها شيئاً لكونها من المنصوص عليه في القرآن الكريم.

الثاني: ديوان العطاء: وهو مؤسسة مالية قائمة بذاتها أيضاً استحدثت

ص: 345

---

1- راجع أبا عبيد: الأموال ص 384 ، فقد روى ان علياً عليه السلام يفرض العطاء أكثر من مرة في العام

2- راجع البلاذري - انساب الاشراف 132 / 2

3- راجع ابن أبي الحديد 94 / 12

4- السابق 250 / 1

في عهد عمر بن الخطاب(1) ويدخل فيه أربعة أخماس(2) ما يجبي من الغنيمة(3) والفيء(4) وتقسّم في الجند بالسوية(5) ، وهو ما كان يتصرف فيه علي عليه السلام بإعطاء كل ذي حق حقه بالعدل بموجب ما يدخل فيه من مال وثمر وعسل وغيره من الصناعات. وجميع أموال هذا الديوان لا تدخل ضمن الصرف على مشاريع الدولة، لذلك يقوم علي عليه السلام بتقسيم جميع أمواله حتى لا يُبقي فيه شيئاً.

الثالث: بيت المال: أو خزينة الدولة، ومن مهامه الصرف على ديوانالجند وما يتعلق بمشاريع الدولة من اصلاحات واعمار، ودفع مرتبات الولاة والقضاة والعمال وغيرهم من موظفي الدواوين. ومصادر هذا الديون خراج مالم يأخذه المسلمون من الكفار لا عنوة ولا صلحاً(6) ، وبالإضافة إلى الخمس(7) الخامس من مال الفيء والغنيمة، وذبك بعد اقتطاع سهم ذوي

ص: 346

1- راجع أبا عبيد، السابق ص 236، وابن أبي الحديد 12 / 75

2- راجع يحيى بن آدم: الخراج ص 18

3- الغنيمة: ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذه - السابق ص 17

4- الفيء: ما صولحوا عليه دون قتال - السابق

5- راجع السابق ص 18

6- وهو ما هرب عنه أهله من مال وضياع، وتركوه من غير قتال، السابق ص 17

7- يلاحظ هنا اختلاف المذاهب الإسلامية في سهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الخمس بعد وفاته «فذهب من يقول بميراث الأنبياء إلى انه موروث عنه مصروف إلى ورثته. وقال أبو ثور: يكون ملكاً للإمام بعده لقيامه بأمر الأمة مقامه، وقال أبو حنيفة: قد سقط لموته، وذهب الشافعي إلى ان يكون مصروفاً في مصالح المسلمين. والسهم الثاني سهم ذي القربى، زعم أبو حنيفة انه قد سقط حقهم منه اليوم، وعند الشافعي حقهم ثابت» الماوردي الأحكام السلطانية ص 110 ، 111 ويتفق الشيعة الإمامية من وجهة النظر القائلة بتوريث نصيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الخمس لآل بيته عليهم السلام استناداً لقول جعفر الصادق عليه السلام «الخمس لنا فريضة» الحر العاملي وسائل الشيعة 6 / 337. وهم إذ يقولون ذلك يعتقدون بعصمة الإمام مما يجعله يضع الخمس في صالح الإسلام وأهله، لذلك يرى الخميني في كتاب الحكومة الإسلامية ص 25 أن «الخمس مورد ضخم إنما هو من أجل تسيير شؤون الدولة الإسلامية، وسد جميع احتياجاتها المالية، وأن هذه الأموال الطائلة ليست لرفع حاجات سيد أو طالب علم... بل لسد احتياجات امة بأكملها» لكون الخمس من وجهة نظر الشيعة اوسع في مفهومه مما هو عند السنة، راجع صفحة 334 من هذا البحث وما بعدها

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بحسب ما ورد في قوله تعالى:

(وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (1) مع ملاحظة ان سهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد دخل ضمن اختصاصات ولي الأمر القائم بشؤون الدولة، يصرفه حيث تقتضي مصلحة الإسلام. وبيت المال هذا هو ما يمكننا ان نطلق عليه تجوزاً (وزارة المالية) وهو أيضاً ما يمكننا ان نستنتج منه سياسة علي عليه السلام المتعلقة بتصريف الشؤون المالية إبان حكمه.

فمما يبدو من عهده لمالك الأشر أن ميزانية الدولة عنده مقسمة كالتالي:

أولاً: الصرف على المشاريع العمرانية من طرقات وجسور وقنوات وتعهد للأراض. وقد وضع ذلك كشرط أساس في العهد (2)، مما يعني ضمناً أن العمران من أول واجبات الحكومة نحو البلاد.

ثانياً: أفراد ميزانية خاصة بالمؤسسة العسكرية (3)، يصرف منها على الجند

ص: 347

1- الأنفال / 41

2- راجع رسائل 53 - الفقرة 1، 22

3- راجع السابق، الفقرات 17، 20، 21، 25

ورجال الامن، مع توفير ما تحتاجه الدولة من عتاد وسلاح.

ثالثاً: أفراد ميزانية خاصة لدفع مرتبات الموظفين، من قضاة وعمال ومراقبين وكتبة، وكل ما يتعلق بالدواوين الحكومية من خصوصيات(1).

رابعاً: تخصيص ميزانية للصرف على العجزة والمسنين وذوي العاهات من مسلمين أو معاهدين يعيشون في كنف دولة الإسلام(2).

ثم ان فكر علي عليه السلام الاقتصادي لم تقتصر على جمع الأموال وصرفها بعد ذلك في وجوها المستحقة، بل وضع في الاعتبار كما نعتقد ما يسمى في العصر الحديث بموازنة الداخل بالخارج، والحساب للمستقبل حتى تتجنب الحكومة أية ضائقة مالية، وتتفادى أية ازمة اقتصادية، وذلك انطلاقاً من فهمنا لقوله «ان من لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدم لنفسه ما يحرزها»(3)، أي أن من لم ينظر بعين العقل إلى المستقبل ولم يحسب لعواقب الأمور، لم يستطع ان يجنب نفسه اللجوء إلى الحاجة والوقوع في الكوارث. وعلى هذا الأساس يمكن ان يقال فيما نظن ان سياسة علي عليه السلام المالية بما تضمنت من افكار مثالية، فهي أيضاً مبنية على نهج علمي وتخطيط سليم، انطلاقاً من لا إسراف ولا تقتير امتثالاً لقوله تعالى:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)(4).

ص: 348

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- رسائل 51، الفقرة الأولى

4- الاسراء / 29

نعني بالعمال أولئك الذين يباشرون جمع الزكاة وجباية الخراج، ومراقبة الأسواق، وقد اهتم الفرس قبل الإسلام بالخراج، فوضعوا له الديوان بعد ان مسحوا الأرض واحصوا الأنفس، وعرفوا ما يمكن جبايته من كل فرد(1)، وقد خصصوا رجالاً ذوي كفاءة لجمع الضرائب واشتروا فيهم الرأفة بالعباد، والأمانة للمحافظة على ما يجبون من اموال(2)، ولما فتح المسلمون فارس، اقتبسوا ذلك النظام من الفرس(3)، فوضعوا على كل أرض ما يناسبها من خراج، وعلى كل إنسان لا يرغب في الدخول في الإسلام أن يدفع مقداراً معيناً من المال أطلق عليه (الجزية). وقد وكلت جباية الأموال في بدايتها إلى الولاة وتقديراتهم(4)، ومن ثم اختص بها موظفون خاصون تحت إشراف الخليفة أو الوالي، اقتداء بعمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم(5). ولعمال الخراج، وغيرهم من مراقبي الاسواق، أهمية كبيرة في فكر علي عليه السلام، لاتصالهم المباشر بالناس على مختلف طبقاتهم، هذا بالإضافة إلى اطلاعه الواسع في أحوال الفرس، والنظام المالي

ص: 349

1- راجع الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص 4

2- راجع السابق ص 6

3- راجع: دانيال دينيث: الجزية في الإسلام ص 45 وما بعدها

4- راجع ابن أبي الحديد 42/2، 43، فقد جعل عمر بن الخطاب أبا هريرة عاملاً على هجر واليمامة وأقاصي البحرين بالإضافة إلى جباية أموالها وكذلك كان استعماله لعمر بن العاص على مصر

5- من ذلك استعماله صلى الله عليه وآله وسلم «خالد بن سعيد عاملاً على صدقات اليمن وقبل على صدقات مذحج» ابن الأثير أسد الغابة 98/2



عندهم، وأساليبهم في فرض الضرائب، وذلك عن طريق احتكاكه(1) بهم، بمجالسته إياهم في مجتمع الكوفة، فأضاف ذلك رافداً ثانياً إلى زاده الثقافي العميق الذي اكتسبه من الإسلام بمعاشرته الروحية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم(2). خاصة وإن علياً عليه السلام قد كان يوصي ولاته بدراسة ماضي الأمم التي يتولون رعايتها، وما حدث عليها من عدل أو جور في ظل الحكومات المتعاقبة عليها(3)، حتى يتسنى لهم تفادي سخط الناس، مما يعني أنه كان يعمل بذلك. وعليه فإن علمه الواسع بشرائع الإسلام واستلهامه أحوال الماضين من خلال قصص القرآن الكريم وعِبِهِ، بالإضافة إلى اطلاعه على أحوال العناصر الأجنبية في مجتمع الكوفة، منحه كل ذلك زاداً فكرياً في معرفة أحوال الناس وطبائعهم، وطرق التعامل معهم، فأتاح له بذلك اختطاط سياسة تركز على التعامل مع الجميع على أسس إنسانية عمادها الأخلاق، فكان اختياره للعمال نابغاً من تلك الأسس الإيمانية والاقتناع الفكري حين وضع شروط اختيارهم وصفاتهم، وكيفية التعامل معهم، لأنهم كما يقول «خزان الرعية، ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة»(4). وأهم الشروط التي وضعها فيمن يتوخاه من رجال لهذا الجهاز المالي الدقيق هي:

الاعتماد على النزاهة في تعيين أفرادهم، بالبعد عن المحاباة والأثر والوساطة(5) مع تجنب الاستجابة لأي فرد يلح على العمل في هذا الجهاز، لأن من يتهالك

ص: 350

1- أشرنا إلى ذلك في ص 389 وما بعدها من هذا البحث

2- راجع قول علي عليه السلام في علاقته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم: خطب 240، فقرة 26، 27

3- راجع رسائل 53، فقرة 4، 38

4- رسائل 51

5- راجع رسائل 53، فقرة 21

في الحصول على مثل هذه الوظيفة دون غيرها - في فكر علي عليه السلام - ليس الا لأن في طبعه «جماع من شعب الجور والخيانة»<sup>(1)</sup> ومحاولة الثراء على حساب الأمة.

لذلك لا يصلح لمثل هذه الاعمال إلا «اهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح اعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً وأغلب في عواقب الأمور نظراً»<sup>(2)</sup>، لأن ارتواء نفوسهم وعمق تجربتهم ورسوخ أقدامهم في الإسلام، كل ذلك يجعلهم على فهم واسع لطبيعة الناس الذين سيتعاملون معهم، بالإضافة إلى ان التدین، وطيب العنصر، ومتانة الأخلاق من المزايا التي تردع صاحبها عن قبول الرشوة، والتعامي عن الحق، والجور على الناس.

أما الكيفية التي يجب على ولي الأمر التعامل بها مع أولئك الموظفين فإنها تتمثل - كما يراه علي عليه السلام - في منع نفوسهم من النظر إلى ما في أيدي الناس وتجنبيهم الاغراءات المادية التي تجعلهم عرضة للسقوط، وذلك بتوفير الرزق الكافي لهم «فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم»<sup>(3)</sup> عن الاختلاس والسرقه والنهب. وحتى إذا ما ارتكبوا خيانة اصبح ذلك «حجة عليهم»<sup>(4)</sup> في التنكيل بهم. ولكن العطاء المجزي ليس وحده كافياً، بل من واجب الدولة أن تتفقد أعمالهم ببث «العيون من أهل الصدق والوفاء»<sup>(5)</sup> لأن في شعورهم بالرقابة، رادع لهم لتفادي أي مسلك معوج يؤدي إلى العقاب.

ص: 351

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- رسائل 53، فقرة 21

4- المصدر السابق نفسه

5- المصدر السابق نفسه

اولى المسلمون الكتابة اهتماماً بالغاً، ففي صدر الإسلام وعلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باشر كثير من الصحابة الكتابة بين يديه، فقد كان «علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان يكتبان الوحي، فإن غابا كتبه أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه»<sup>(1)</sup>.

ولأهمية الكتابة والكتب في الفكر الإسلامي، أفردت كتب الأدب أبواباً خاصة لدراسة أحكام تلك الصناعة وأهميتها وأثرها في العام والخاص من جمهور الناس<sup>(2)</sup>، كما أنفردت كتب خاصة أخرى بأدب الكتاب ومعالجة أساليب الكتابة، إلى غير ذلك من أمور أسلوبية ولغوية وبلاغية تتعلق بشؤون المهنة<sup>(3)</sup>، إذ يبدو أنه كان للكتّاب عندهم «احكام بينة كأحكام القضاة، يعرفون بها وينسبون إليها ويتقلدون سياسة الملك بها»<sup>(4)</sup> ومن أشهر رسائل الأدب العربي التي عرضت للكتاب وشؤونهم «رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب»<sup>(5)</sup> (ت 132 هـ) الشهيرة، وقد عرض فيها لكل ما يتعلق بالكتاب

ص: 352

- 
- 1- الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 12
  - 2- راجع على سبيل المثال موضوع «ادوات الكتابة والكتاب» عند: ابن عبد ربه - العقد الفريد 4/155 وما بعدها، وراجع أيضاً الجهشياري السابق - مقدمة الكتاب ص 1 وما بعدها وابن النديم - الفهرست ص 7، وما بعدها
  - 3- من أشهر الكتب: أدب الكاتب لابن قتيبة، والاقتضاب في شرح أدب الكتّاب - للبطلبوسي (ت 521 هـ)
  - 4- العقد الفريد 4/160
  - 5- للاطلاع على نص الرسالة راجع الجهشياري، السابق ص 73 وما بعدها

من آداب، بحيث عدت دستوراً متكاملًا للكتاب من حيث المضمون والشكل. وإذا ما نحن رجعنا إلى بلاغة عبد الحميد الكاتب فإنها - على ما نعتقد - رافد من روافد بلاغة علي عليه السلام فقد قيل لعبد الحميد «ما الذيمكنك من البلاغة، وخرجك فيها؟ فقال: حفظ كلام الأصلح، يعني أمير المؤمنين عليه السلام»<sup>(1)</sup>. لذلك فلا عجب أن تأتي رسالته إلى الكتاب كما تصورهما عبارة عن شرح مفصل لما عرضه علي عليه السلام من فكر عن مهنة الكتابة وأهميتها، وما يجب أن يتصف به الكتاب من مواصفات والأسس التي ينبغي عليها اختيارهم. مع الوضع في الاعتبار أن علياً عليه السلام «من أهل هذه الصناعة»<sup>(2)</sup> إذ لم يقتصر عمله الكتابي في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كتابة الوحي، بل زاول أيضاً كتابة العهود. فهو كما تحدثنا كتب السير والتاريخ - الذي كتب معاهدة صلح الحديبية<sup>(3)</sup> بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه فإن ما جاء في عهده للأشتر بشأن الكتاب نابع من تجربة واقتناع تام بمكانة الوظيفة. فوضع شرط الأخلاق الفاضلة على رأس شروط اختيار الكتاب<sup>(4)</sup> لما يحسه من شعور بأهمية مركزهم الذي يدخل ضمنه اسرارالدولة ومصالحها العامة، وكيفية التواصل بين القيادة والمصالح في طول البلاد وعرضها<sup>(5)</sup>، إلى غير ذلك من مهام بالغة في الدقة، لا يؤتمن عليها سوى الكتاب الشرفاء، الذين يعول على إخلاصهم، لشعورهم بأنهم ينطقون بلسان

ص: 353

1- السابق ص 82

2- العقد الفريد: 161 / 4

3- راجع على سبيل المثال: ابن هشام - السيرة 3 / 331 ، تاريخ الطبري 2 / 632 ، وقد عرضنا لصلح الحديبية في ص 142 الهامش (2) من هذا البحث

4- راجع رسائل 53 ، فقرة 23

5- المصدر السابق نفسه

الحكومة في كل ما يصدر عنهم من قريب أو بعيد(1). ومن مميزات المؤهل للوظيفة في فكر علي عليه السلام هو من يكون «ممتناً بكرامة»(2) من يعمل في خدمته، متجنباً الإجتراء عليه في خلاف حول موضوع ما «بمحضر ملأ»(3).

ومن يكون ذكياً نبياً لا يغفل أو يتساهل في مراجعة مكاتبات العمال «وإصدار جواباتها على الصواب»(4) بما يتماشى والسياسة التي يرسمها له ولي الأمر.

من يكون حازماً، ذا خبرة تامة بأساليب الكتابة التي لا يدخلها الخلل من حيث المنافذ القانونية، ولديه قدرة فائقة في التحكم بأساليب اللغة فلا «يضعف عقداً إعتقده ولا يعجز»(5) عن حل عقد يرى فيه مضرة لأئمة وإمامه.

من يكون عارفاً بقدر نفسه، واثقاً من مقدرته على إداء ما يناط به من مهام كتابية، معتقداً بعلو مكانته عند من يباشر خدمته «لأن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل»(6).

وتلك الشروط في مجملها تعني عند الإمام علي عليه السلام عدم الاعتماد على الفراسة وحسن الظن أثناء اختيار الكتاب، لأن التصنع والتظاهر بما ليس

ص: 354

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

5- المصدر السابق نفسه

6- المصدر السابق نفسه

في الطباع من الأساليب التي يتبعها كثير من البشر للوصول إلى غاياتهم(1)، لذلك فمن واجب المسؤول، وقبل ترشيحه مثل أولئك الذين يرغبون في الالتحاق بالخدمة، أن يشارأولا بدارسة ماضيهم الوظيفي واختيارهم بناء على «ما ولوا للصالحين»(2) قبله، لأنه بذلك يتمكن من توظيف «احسنهم كان في العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجهاً»(3).

ولضبط الجهاز الوظيفي في الدولة ضبطاً حكيماً، يجب تحديد المسؤوليات بتعيين رئيس لكل شعبة، ويكون ذلك الرئيس ذا شخصية قوية متمرساً في وظيفته «لا يقهره كبيرها ولا يشت عليه كثيرها»(4)، وبذلك يضمن نجاح الجهاز الوظيفي وتتجنب الدولة ما لا يحمد عقباه.

## 7 - الرقابة الإدارية:

مهما بلغت مؤسسات الدولة من الجدية والاحكام والاخلاص، فإنها لا يمكنها الاستمرار في السير في الطريق السليم ما لم تكن تحت إشراف الخليفة(5) مباشرة، ولا يمكن للخليفة أو الحاكم أن يلم بكل التبعات الثقيلة الا بمعاونة من جهاز يمكن الاعتماد عليه في معرفة سير دواليب الدولة سيراً متوازناً وسليماً، لذلك على ما نعتقد استخدم على الرقابة الإدارية كمؤسسة قائمة

ص: 355

1- المصدر السابق

2- المصدر السابق

3- المصدر السابق

4- المصدر السابق

5- راجع السابق فقرة 27

بذاتها، يمكنه من خلال موظفيها معرفة سير الولاة واحوال الولايات، إذ يبدو من كثير مما ورد في النهج من نصوص أنه، وعن طريق أولئك الرقباء، قد كشف كثيراً من الأعيب الولاة واختلاساتهم(1) وقد بلغ من دقة أولئك المراقبين من اطلاعه حتى على فحوى الرسائل الخاصة التي كانت تصل إلى بعض عماله من اعدائه ومناوئيه(2). ويبدو أن جهاز المراقبة، عند علي عليه السلام، لا يقتصر على مراقب واحد لكل إقليم أو مؤسسة، لأن في ذلك على ما نعتقد اجحافاً بحق الوالي أو المسؤول، مما يجعل الحكم في حقه جائراً، فكان تعدد المراقبين من أجل تقادي ذلك، كما أننا نفهم من سياق النصوص أن علياً عليه السلام قد اعتمد في اختياره للمراقبين(3) الإداريين عدم معرفة بعضهم البعض(4)، حتى يتجنب الاتفاق فيما بينهم على باطل، وقد اشترط مسبقاً أن يكونوا من «أهل الصدق والوفاء»(5)، حتى إذا اجتمع رأيهم عند ولي الأمر على اتهام مسؤول بالتقصير أو الخيانة فإنه «يكتفي بذلك شاهداً»(6) لمعاقبة الجاني بما يستحق، وبذلك ضمن لنا علي عليه السلام كما يتهدى لنا سياسة عادلة هدفها سعادة الإنسان، وبث الطمأنينة في نفسه ووضعه في المكانة المناسبة لإنسانيته، له من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

ص: 356

1- راجع على سبيل المثال: رسائل 3، 20، 40، 41، 43

2- راجع رسائل 44

3- راجع رسائل 53، فقرة 24

4- المصدر السابق نفسه

5- المصدر السابق نفسه

6- المصدر السابق نفسه

النجاح والفشل في عالم السياسة امران نسبيان، فقد يكون النجاح اخفاقاً من وجهة نظر معينة، وقد يكون العكس من وجهة نظر أخرى، ويرجع ذلك إلى مفهوم السياسة عند كلا وجهتي النظر، فالذي يرى ان السياسة تسلط ومكر واحتيال ودهاء، لا يقيم للأخلاق الفاضلة ولا للعدل أي وزن، باعتقاده أن أية سياسة لا تتفق مع مصلحته ومصلحة فئة معينة من الأمة محكوم عليها بالفشل، وجهة النظر تلك عادة ما تأخذ من فشل السياسة الأخلاقية على صعيد الواقع في كثير من الأحيان مثالا، أما أولئك الذين ينظرون إلى السياسة نظرة أخلاقية وينزهون أساليبها عن كل التواء، فإنهم لا يعتبرون إخفاق السياسي المثالي في تطبيق سياسته المثالية اخفاقاً للمثالية. والمتأمل في سياسة علي عليه السلام سيجد انها من النوع المثالي الذي لا يرى في التسلط أو شهوة الحكم غاية يركب إليها أية وسيلة، فقوله «لا يقيم أمر الله سبحانه، الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»<sup>(1)</sup> نابع من فكره الذي يؤمن به ويتبناه، ويسعى إلى تحقيقه على صعيد الواقع ويرجع ذلك - في اعتقادنا - إلى الانسجام التام في شخصيته بين الداخل والخارج، ولقد بذل كل ما في وسعه لخلق مثل ذلك الانسجام في أصحابه المقربين اولا ومن ثم في رعيته عامة، ولكن الحظ لم يحالفه، لا لعيب في أساليب التوصيل عنده ولكن العيب في اختلاف نفوس المسلمين في عصره، وقد شعره - ذاته - بذلك التغيير إلا انه لم يقبل لنفسه أن تتلون وفق مقتضيات الظروف، لارتكازه في سياسته على دعائم

ص: 357

---

1- حكم 109، ويضارع المضارعة المشابهة ويضارع يتشبه في عمله بالمبطلين



راسخة ومتينة، يقول لأصحابه «اني لعالم بما يصلحكم و يقيم أودكم، ولكني لا أرى أصلاحكم بإفساد نفسي»<sup>(1)</sup>، لأن الاقتناع الذاتي بأساليب الإصلاح في فكر علي عليه السلام يختلف عما يريده أصحابه لكونهم يتصورون ان الإصلاح فيما يرغبون فيه.

لقد أراد لأولئك الأصحاب أن يكونوا بالنسبة إليه مثل أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في اخلاصهم وتقانيهم للإسلام، دونما مقابل أو اجر، لكنه لم يستطع ان يحقق ذلك المجتمع، لأن الرجال الذين كانوا حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانوا ذوي نفوس مختلفة عن الرجال الذين كانوا حوله عليه السلام، لذلك راح علي عليه السلام شهيداً ضحية سياسته المثالية، ولكنه لم يخفق كما نعتقد في تخليد مبادئه من خلال التزامه السياسي الثابت في مجتمع مضطرب لأن «الالتزام بروح المبادئ التي ينطلق منها الحاكم، وتجسيدها على الصعيد العملي، وعدم التلاعب بمضمونها، هو النجاح في نظر الأخلاق ومقياسها وان خسر الإنسان جولة أو أكثر في سبيل ذلك»<sup>(2)</sup>.

ص: 358

---

1- خطب 68، وأودكم: اعوجاجكم

2- أحمد الوائلي: علي بن أبي طالب عليه السلام - نظرة عصرية حديثة ص 105

## الباب الثالث: فكر علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

### إشارة

\* الفصل الأول: المجتمع وحالته كما يبدو في فكر علي عليه السلام

\* الفصل الثاني: القيم الخلقية كما تبدو في فكر علي عليه السلام.

\* الفصل الثالث: التربية في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة.

ص: 359



لا نتوقع ونحن نبحت في فكر الإمام علي عليه السلام الاجتماعي الحصول على تعريف نظري للمجتمع لأنه لم يكن منظرًا. ولكن من خلال مزاولته للحكم ومما أثر عنه من أقوال، يمكننا تصور الملامح الأساسية لذلك الفكر المستنير بهدي القرآن الكريم والسائر في خطى السنة النبوية الشريفة. فالقرآن الكريم يدعو ضمن آياته إلى التجمع البشري ويشيد بالرابطة الإنسانية كما في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (1) والآية بما تضمنته من معان سامية، دعوة لبناء مجتمع إنساني واحد أساسه العدل والتعاون والمحبة دون أي تمايز بين أفرادها إلا بالعمل المثمر الذي يعود على الإنسانية بالخير العميم وما تكرر كلمة (الناس) في القرآن الكريم في مئتين وأربعين (2) موضعاً إلا دلالة على أن هدف الإسلام الأساسي هو بناء المجتمع المثالي «أمل الصفة»

ص: 361

1- الحجرات / 13

2- راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (ن و س)

من المفكرين وحلم المصلحين»(1). وقد تمكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالفعل من تحقيق ذلك الأمل في فترة وجيزة، حينما باشر في وضع اسس(2)، وذلك في السنة الأولى من الهجرة النبوية، بالمؤاخاة بين المهاجرين والوافدين على المدينة وبين الأنصار سكانها الاصليين، ثم بكتابة الوثيقة التي تنظم علاقات السكان منمهاجرين وأنصار ويهود. فبغض النظر عن التعريفات النظرية يمكننا القول، بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قيامه بذلك العمل العبقري الجبار، قد كان على دراية تامة بأهمية التجمع البشري في بناء المجتمع ولذلك فُرضت الهجرة إلى المدينة(3). وإذا ما تمعنا في النصوص القرآنية والاحاديث النبوية، نخلص إلى نتيجة قوامها ان المجتمع في الفكر الإسلامي، يعني في الأساس تأمين الحياة الفردية والاجتماعية بأسلوب يتسم بالتوازن الذي يقتضي الا يكون الفرد أساساً في التشريع والحكم ولا يكون المجتمع هو الأساس الوحيد الذي تبني عليه تشريعات الدولة، فالفرد بما له من خصائص إنسانية، هو عضو ضمن جماعة من الناس تتيح له ابراز تفرد وخصائصه على ان لا يكون ذلك التفرد على حساب الآخرين، فقول الرسول « صلى الله عليه وآله وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى»(4)

يعني أن الرابطة الاجتماعية في البناء الإسلامي تجعل من الفرد جزءاً من كل متكامل من حيث التعاون والتعاضد والمساواة لأن «مفهوم المجتمع في الإسلام يقوم على امرين: التعادل بين الفرد ذاته وبين الفرد الآخر، والثاني: التوازن بين

ص: 362

1- محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف 147 /7

2- راجع ص 136 وما بعدها من هذا البحث

3- السابق

4- صحيح مسلم 999 /4

الفرد والمجتمع»<sup>(1)</sup> ولو تتبعنا الفكر الاجتماعي عند علي عليه السلام لوجدناه ينطوي على تلك الثنائية بمعناها الشامل، فالإنسان السوي في فكر علي عليه السلام هو من لديه القدرة على فهم نفسه، حتى يتمكن من التعايش مع غيره لأن «الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل»<sup>(2)</sup>، ومعرفة النفس تحقيق لمكانتها، ومتياسطاع الفرد أن يتحقق من مكانته في مجتمعه، فستكون علاقته بالآخرين سوية لا تشوبهما شائبة ولا يعكر صفوها كدر وسيجنب نفسه التباغض والتحاسد محاولاً الدفع بالحياة إلى الإمام للرفع من مستوى المجتمع بوضع يده في يد الآخرين عن اقتناع جاعلاً نصب عينيه أن «من يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض منه عنهم يد واحدة ويقبض منهم عنه ايد كثيرة»<sup>(3)</sup>، إذ لا يستطيع الإنسان العيش بمفرده دون تعاون الآخرين معه مهما بلغت امكاناته<sup>(4)</sup>. فإذا تم التعاون بين الأفراد ينهض المجتمع، وتتوسع المسؤوليات لتشمل كل ما يحيط بالإنسان ويتعلق به من طبيعة وحيوان<sup>(5)</sup>، ومن خلال مباشرة الفرد لتلك المسؤوليات الواسعة يتحقق التوازن بين الفرج والمجتمع، ولكن ذلك التوازن لا يمكن ان يستقر ويستمر الا إذا أحيط بسياج من النظم تحمي حقوق الافراد وتصون مصالحهم المشتركة، وحتى لا يستغل القوي الضعيف فكانت فكرة الحكومة كرادع اجتماعي.

ص: 363

---

1- سيد عبد الحميد مرسي - النفس البشرية ص 30

2- رسائل - 53 فقرة 23

3- خطب - 23 الفقرة الثالثة

4- راجع بذلك الشأن ضرورة التجمع البشري - مقدمة ابن خلدون ص 54

5- راجع خطب - 168 الفقرة الاخيرة

تجنباً لتكرار ما عرضنا له بشأن ضرورة الحكومة في فكر الإمام علي عليه السلام (1) يجدر بنا أن نشير إلى أن موضوع الحكومة وأن أدرج في فكر علي عليه السلام السياسي، إلا أن الجانب الاجتماعي هو الغالب عليه لكون سياسة علي عليه السلام اجتماعية بحتة، هدفها بناء المجتمع على أسس التكافل والتضامن والعدل، فلا القرابة تعطي لأحد حق الأفضلية (2)، ولا تكون الصداقة مدعاة لإعطاء ما لا حقله فيه (3)، ولا الانتماء إلى جنس معين يعطي لأحد في التمايز على غيره (4) والحكومة العادلة هي التي تضمن كل ذلك فهي على هذا الأساس ضرورية، يقول علي عليه السلام: «لابد من إمارة ولا يزال أمرنا متمسكاً ما لم يشتم آخرنا أولنا، فإذا خالف آخرنا أولنا وأفسدوا هلكوا وأهلكوا» (5) فالحكومة - كما يتضح من قول علي عليه السلام - مؤسسة اجتماعية هدفها تنظيم العلاقات، ومتى اختل النظام بين المؤسسة وبين أفرادها جراء انحراف في أحد الطرفين، فإن ذلك يؤدي حتماً إلى الفوضى واختلال النظام، لأن الحكومة - في فكر علي عليه السلام - لم تنشأ لحماية حقوق فئة معينة، ولا يمكنها أن تكون أداة توازن بين جميع فئات المجتمع إلا

ص: 364

1- راجع ص 166 وما بعدها من هذا البحث

2- راجع خطب - 221 - الفقرة الثانية ما جاء فيها بشأن معاملة علي عليه السلام لأخيه عقيل حين استمأحه شيئاً من أموال المسلمين

3- راجع خطب - 225 بشأن رد علي عليه السلام على صاحبه عبد الله بن زمعة حين استمأحه العطاء من أموال المسلمين

4- راجع ص 241 وما بعدها و ص 300 وما بعدها من هذا البحث

5- رواه ابن مزاحم في صفين ص 15 وليس في نهج البلاغة

إذا وضعت في حساباتها أن النظام والقانون يطبقان على الجميع دون استثناء لأن الحكومة في الإسلام تقيم العلاقات بين الناس وتنظمها لصالح «الجميع بلا استثناء، إن أمكن، وإلا قدم صالح الأغلبية على الأقلية»<sup>(1)</sup> فالحكومة بتلك الصورة تجعل الحاكم مراقباً لتصرفات الفئات المستغلة للحد من جموحها في التمادي في اقتناء الثروات على حساب الفئات المستضعفة لذلك رأى علي عليه السلام أن يوضح الصورة لأولئك المترفين حين عرضوا عليه الخلافة بعد مقتل عثمان وذلك في قوله «ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد عمّرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الرّوفاة، فصار ذلك عليهم ناراً وسناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك وينكرونه ويقولون: حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا»<sup>(2)</sup> وعليه فإن أسس العلاقات الاجتماعية بين الحاكم والامة في فكر علي عليه السلام تنحصر في نقطتين:

### الأولى - بالنسبة إلى الحكومة:

أ - العدل واجتناب الظلم من قبل أولي الأمر وفقاً لقوله للأشتر «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيك فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»<sup>(3)</sup>

ولأهمية العدل العظيمة في فكر الإمام علي ع لم يجعل مسؤولية ممارسته قصراً

ص: 365

1- محمد جواد مغنية - في ظلال النهج: 97 / 4

2- رواها ابن أبي الحديد شرحه 37 / 7 وليست من ضمن نصوص نهج البلاغة

3- رسائل - 53 فقرة - 6



على أولي الأمر، فهو أيضاً من وجهة نظره - من مسؤولية العلماء - أي المثقفين اليوم - فردع الظالم والدفاع عن المظلوم طبقاً لقوله «ما أخذ الله على العلماء، أن لا يقاروا كُظّة ظالم ولا سغب مظلوم»(1).

ب - التواضع وتجنب التكبر، والنأي بالنفس عن حب الاطراء، والفخر وعلي عليه السلام يرى «أن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع مرهم على الكبر»(2) لذلك فإنه يدعو أصحابه قائلاً «فَلَا تُكَلِّمُونِ بِمِ تَكَلِّمِ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمَصَانِعَةِ، وَلَا تَتَّظُّوْا بِي اسْتِثْقَالًا فِ حَقِّ قِيَلِ لِي»(3) فالحاكم من وجهة نظر علي عليه السلام خادم للمجتمع، وما يؤدي من أعمال لصالح الناس هي من واجباته الأساسية التي لا تدعوا إلى شكره والثناء عليه، حتى لا يظن أن ما قام به من الواجبات، إن هي الا تفضل منه فيعتر بذلك، وتعالى نفسه ويتجبر ثم ينسى واجباته في خضم الشعور بتضخم الذات.

ج - المبادرة بإنجاز حقوق الناس دون تعطيل أو تسويق، حتى تتجنب الحكومة سخط عامة الناس الذي قد يؤدي إلى إفشال مخططاتها، ويخل بالنظام.

فحين وسط الثوار علياً عليه السلام كي يعرض مظالمهم على عثمان قال له: «كلم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم» فقال علي عليه السلام: «ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»(4) وذلك يعني أن من واجب

ص: 366

1- خطب 3 - فقرة 2 - والكظة بضم الكاف - التخمة، والسغب - الجوع

2- خطب 210 فقرة 2 - 3

3- المصدر السابق نفسه

4- خطب 165، الفقرة الاخيرة

د - على الحاكم أن يستخبر عن أحوال الناس (1)، لمساعدتهم في حل مشاكلهم، خاصة الفقراء والمحتاجين «ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال» (2) بتكليف رجال اكفاء يوثق بهم لتقصي أحوالهم ودراسة أوضاعهم، ثم المباشرة في حل مشاكلهم بما يتماشى والحق، مع تجنب تقصي عورات الناس، واستخدامها كوسيلة من وسائل الارهاب، لأن في تجنب مثل تلك الاساليب إرساء لدعائم الثقة بين الحاكم والحكومة، ومحافظة على القيم الإنسانية التي اوصى الإسلام بها من نبذ للتجسس والغيبة لما تنطويان عليه من تفتيت لأواصر المجتمع وفي ذلك يقول للأشتر «ان في الناس عيوباً، والوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك... فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيك» (3) فعلي عليه السلام يدرك أن أي مجتمع لا يخلو من العيوب، فعلى الحكومة صيانة كرامة الأفراد، وعدمك التشهير بهم، لأن للحاكم عيوبه أيضاً، فمتى شرع في البحث عن سقطات الناس، فإن الناس سيقتفون اثره في البحث عن سقطاته (4)، وفي ذلك مدعاة لهدم الشقة بين الحاكم والمحكوم، وهو ما سيؤدي في النهاية إلى انهيار المجتمع، وتصدع قيمه.

ه - وعلى القيمم بالأمر والحاكم أن لا يستغل سلطته ليولي رقاب الناس أهله وقرابته، ليستمد منهم القوة على عامة الناس، فلا بد له ان يلزم «الحق من

ص: 367

1- راجع ما ورد بشأن ذلك في رسالة رقم 53 الفقرة 24

2- المصدر السابق نفسه

3- السابق فقرة - 8

4- السابق

لزمه من القريب والبعيد»(1) ويضع قرابته واصحابه في مواضعهم المناسبة من المجتمع وبذلك ينأى بالحكومة عن مواضع التهم ويجنب أجهزتها مزلق المفاضلة بين الناس على أساس من الوساطة والمحسوبية والقرابة.

### الثانية: بالنسبة للمجتمع:

أ - إطاعة أولي الأمر، والامتنال لأوامر الحكومة ونواهيها فيما تسنه من نظم وقوانين تنظم العلاقات الاجتماعية بين مختلف الفئات، شريطة أن تقي الحكومة بكل التزاماتها تجاه الأمة، وفي هذا الصدد يقول علي عليه السلام متمثلاً ما لأولي الأمر من حقوق على المجتمع «أما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين ادعوكم والطاعة حين أمركم»(2) وهو بهذا يتمثل جميع الواجبات المفروضة على المجتمع تجاه الحكومة. إذ لا يمكن للحكومة ان تؤدي واجبها على أكمل وجه دون تجاوز من المحكومين، على أن تكون تلك الاستجابة متمشية مع الحق والشرع، وقد أدرج علي عليه السلام ذلك الشرط في كتابه إلى أهل مصر حين ولى الأشرع عليهم وذلك في قوله «أطيعوا أمره فيما يوافق الحق»(3) فطاعة أولي الأمر أو الحكومة مقرونة في فكر علي عليه السلام بالتزام الحكام العدل قولاً وفعلاً وفقاً لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لا طاعة لمن لم يطع الله»(4).

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يرى علي عليه السلام أن الأمر بالمعروف

ص: 368

1- المصدر السابق فقرة - 31

2- خطب 34 الفقرة الأخيرة

3- رسائل 38 الفقرة الثانية

4- مسند الإمام أحمد بن حنبل 213/3

والنهي عن المنكر من صميم واجبات كل فرد من أفراد الأمة وليس قصرأعلى الحكومة أو على فئة معينة، لذلك فمن واجب كل قادر ان يباشر بالإصلاح في مجتمعه قولاً وعملاً قدر استطاعته وبالأسلوب المتاح له وقد يتردد الفرد عن قول الحق خوف التنكيل أو البطش والغيلة، سواء أكان ذلك من لدن السلطة المتعسفة، أم من لدن أفراد متسلطين لهم وجاهتهم لدى السلطة، لكن عالياً عليه السلام بمنطقة الثوري الحاسم لا يرى في التردد والسكوت والخوف أية جدوى «لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وجهة نظره لا يقربان من أجل»<sup>(1)</sup> أي أن السكوت عن قول الحق والرضوخ للباطل لن يقدم أو يؤخر أجل الإنسان المقدر له، ولأهمية دينك العنصرين في فكر علي عليه السلام فقد عدتهما من دعائم الجهاد على اعتبار انهما فرض كفاية كما في قوله «الجهاد على أربع شعب، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنان الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر، أرغم أنوف الكافرين...»<sup>(2)</sup> وقد اعتبرهما من الجهاد لكونهما تضحية بالنسبة للإنسان في بحياته ويماله، إذا باشرهما على أصولهما، خاصة في المجتمعات الفاسدة، لأنهما يمسان القاعدة العريضة بين أبناء المجتمع، ويؤثران في تصرفات الناس وأخلاقهم «فالأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي عن المنكر ردة للسفهاء»<sup>(3)</sup> وعلى ذلك فإن تركهما أو التغاضي عنهما يعني الاختلال في بنية المجتمع بانتشار الظلم واستفحال الفساد، وهو ما يتنافى ومبادئ الإسلام التي

ص: 369

1- حكم، 380

2- حكم، 31، والمواطن: المواضع، ويقصد بها في السياق مواطن القتال في سبيل الحق والشنان - البغض

3- حكم، 251

أرادت للإنسان الكرامة في مجتمع متضامن يصون حقوق جميع الناس، وعلي عليه السلام يصير على زرع هذين المبدئين في نفوس الجميع لأنه يدرك تماماً ان في تركهما انهياراً حتمياً في قيم المجتمع خضوعاً للفرد واستسلامه للواقع بكل سيئاته مما يتيح للانتهازين والظلمة التسلق على اكتاف المستضعفين وهضم حقوقهم، فتقلب أوضاع المجتمع وتدهور قيمه وتعمه الفوضى. يقول علي عليه السلام «ان أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم بألسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً، ولم ينكر منكراً، قلب فجعل اعلاه اسفله واسفله اعلاه»<sup>(1)</sup> فكلمة الحق الصادقة والنصيحة المخلصة من أهم الأسس التي تنبني عليها شخصية الفرد في فكر علي عليه السلام، وأفضل النصح وأعزه وأقومه عنده يتجسد في «كلمة عدلٍ عند إمامٍ جائرٍ»<sup>(2)</sup>.

فإذا ما التزمت الحكومة بواجباتها تجاه الأمة وأدت الأمة ما عليها من واجبات «صلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة»<sup>(3)</sup> ويبدو من نصوص نهج البلاغة ان حكومة علي عليه السلام قد ادت كل ما عليها من التزامات تجاه الأمة، إلا أن الأمة لم تؤد التزاماتها، فانقلب الوضع كما يقول علي عليه السلام «لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي»<sup>(4)</sup> مما يعني في طياته، انحدار المجتمع الإسلامي هاهوية التمزق، ولكن قبل الدخول في وصف الحالة الاجتماعية في مجتمع الكوفة - من منظور علي عليه السلام يجدر بنا التعرف على الشرائح التي تكون ذلك المجتمع منها.

ص: 370

1- حكم، 381

2- حكم، 380

3- خطب 26 الفقرة الثالثة

4- خطب، 96، الفقرة الأولى

الكوفة مدينة استحدثها المسلمون في السنة السابعة عشرة للهجرة في عهد عمر بن الخطاب وذلك فيما يبدو بعد انتصارهم على الفرس في معركة جلولاء(1) ، وكان الغرض من انشائها في بداية الأمر عسكرياً، وذلك «ان عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا وان لا- يجعل بينه وبينهم بحراً... فتحول إلى الكوفة فاختمها، واقطع الناس المنازل، وانزل القبائل منازلهم»(2) ومعنى ذلك ان الكوفة اصبحت قاعدة لإمداد المسلمين بالجيوش، ومقراً للغنائم التي يغزونها من الجانب الشرقي وبطبيعة الحال، فإن ذلك ساعد على وفود كثير من العناصر غير العربية، وسرعان ما تحول ذلك المعسكر البسيط إلى مدينة عامرة، تعج بالناس على مختلف ثقافاتهم ومستوياتهم المعيشية، فالتسعت اتساعاً عظيماً في مدة قصيرة، فتحول المعسكر البسيط إلى ولاية ذات أهمية، تحسب الدولة لسكانها ألف حساب، ويستجاب لمطالبهم تقادياً لسخطهم وثورتهم، بحيث اصبح عمر بن الخطاب، برغم ما أثر عنه من حزم، يشكو من ذلك المجتمع، فقد أثر عنه قوله «من عذيري من أهل الكوفة ان استعملت عليهم القوي، فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه»(3) . والسبب كما نعتقد هو ان

ص: 371

- 
- 1- جلولاء: مقاطعة من مقاطعات «السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ... وبها كانت الوقعة المشهودة على الفرس سنة 16 ، فاستباحهم المسلمون فسميت جلولاء الوقعة، لما أوقع بهم المسلمون» معجم البلدان ح/156
  - 2- البلاذري - فتوح البلدان ص 387
  - 3- السابق

مجتمعها يعيش مرحلة انتقالية تفرض على الفرد ان يتعايش مع أجناس مختلفة في العادات والتقاليد والدين واللغة، وقد يساعد على كشف ذلك اطلالة سريعة على الأجناس التي تكون منها ذلك المجتمع إذ يمكن اجمالها في خمسة:

#### 1 - الأستقرابية العربية.

2 - الموالي.

3 - العرب البدو والذين يعتمدون على الولاء القبلي.

4 - الفرس والنبط والسريان وغيرهم ممن ظلموا متمسكين بديانتهم.

5 - العرب غير المسلمين من نصارى تغلب ونجران.

ومن الملاحظ من التقسيم السابق فقدان الرابطة الإنسانية التي دعا الإسلام إليها بين الاجناس، فمن خلال دراستنا لكل فئة على حدة يمكن الكشف عن العلاقات الاجتماعية في الكوفة.

#### 1 - الأستقرابية العربية:

لقد قسمت الكوفة منذ نشأتها الأولى على أساس قبلي، إذ يقال ان سعد بن أبي وقاص لما أراد تمصير الكوفة وجد ان جانبيها الشرقي خير من الجانب الغربي، وتناديا للفتنة والنزاعات القبلية في جيشه المكون من قبائل يمنية واخرى نزارية، فقد أقرع فيما بينهم، فصارت القرعة في صالح أهل اليمن «فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي»<sup>(1)</sup>، ثم استحدث داخل ذلك التقسيم تقسيما آخر كان الغرض منه تسهيل توزيع

ص: 372

1- السابق ص 388

الغنائم على القبائل فقسمت إلى سبعة أسباع، وأنزلت كل قبيلة منزلتها من ذلك التقسيم(1) «بحسب النسب والحلف»(2) ويلاحظ أن تعداد رجال تلك القبائل في بداية استيطانها الكوفة، لا يزيد على العشرين ألف رجل(3)، وقد انبثقت من زعامة هذه القبائل الأرستقراطية العربية، فاستقر في نفوس أولئك وأبنائهم بأنهم أشرف مقاماً، وأصرح نسباً من القبائل الأخرى، ثم الاستعلاء بالمقام والأفضلية على الأجناس الأخرى المستضعفة.

## 2 - الموالي:

الولي هو الحليف، والمولى ابن العم، والمولى: «المعتق انتسب إلى نسبك، ولهذا قيل للمعتقين الموالي»(4) وعلى هذا فإن الولاء ينقسم على قسمين: ولاء الحلف، وولاء العتاقة(5) حلف بالعتاق أي الإعتاق، وهو ان يعتق السيد عبده فيتحالف ذلك العبد معه وينضوي تحت - حمايته راجع لسان العرب المحيط 687/2 وراجع أيضاً بشأن ولاء العتاقة: احسان النص العصبية القبلية ص 67(6). ويأتي على ضربين:

الأول منهما: وهو ولاء العربي للعربي، وهذا النوع من أقدم الأنواع التي تعاقبت عليها القبائل العربية منذ الجاهلية. وقد تقسمت القبائل العربية

ص: 373

1- راجع السابق ص 387

2- راجع ماسنيون - خطط الكوفة ص 9

3- عن الشعبي قال: «كنا - يعني أهل اليمن) اثني عشر ألفاً، وكانت نزارثمانية آلاف، الا ترى أنا أكثر أهل الكوفة، ولقد خرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي» فتوح البلدان ص 389

4- لسان العرب المحيط 985/3

5- حلف بالعتاق أي الإعتاق، وهو ان يعتق السيد عبده فيتحالف ذلك العبد معه وينضوي تحت - حمايته راجع لسان العرب المحيط 687/2 وراجع أيضاً بشأن ولاء العتاقة

6- : احسان النص العصبية القبلية ص 67



بعد صلح الحديبية في تحالفها مع بعضها البعض على قسمين: قسم تحالف مع قريش (1) والقسم الثاني تحالف مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (2)، وقد ورد في الحديث الشريف ان «كل حلف كان في الجاهلية فلا يزيد الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام» (3).

الثاني: الولاء الذي يعقد بين العرب وبين الداخلين في الإسلام من العناصر الاجنبية «وهذا الضرب من الولاء انما هو صورة جديدة من ولاء الحلف المعروفة في الجاهلية» (4) وهو ما نرمي إليه أيضاً في دراستنا هذه، إذ لما استوطنت القبائل العربية بالكوفة تحالفت معها بعض العناصر الفارسية من جميع الطبقات الاجتماعية التي دخلت الإسلام، وقد استمد ذلك التحالف قيمته ومثاقه من خلال المكانة الاجتماعية التي ينضوي المتحالفون تحتها.

فالدهاقين (5) الذين دخلوا الإسلام طواعية «لم يعرض لهم عمر بن الخطاب ولم يخرج الأرض من تحت ايديهم، وازال الجزية عن رؤوسهم» (6)، وقد شكل أولئك، فيما نعتقد طبقة خاصة من الموالى لها امتيازاتها باحتفاظ اصحابها باقطاعاتهم وما عليها من عبيد، ولا بد انهم قد تحالفوا مع بعض القبائل العربية الفاتحة للمحافظة على اموالهم، وفي محاولة من أولئك المالي لتحسين مركزهم

ص: 374

1- تحالفت بنو بكر مع قريش ودخلوا في عهدهم - راجع - السيرة، لابن هشام 3/332

2- دخلت خزاعة في حلف مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - راجع السابق

3- ابن أبي الحديد 18 / 67

4- احسان النص - السابق ص 67

5- لدهاقين - دهقان، بكسر الدال أو فتحها: التاجر - فارسي معرب لسان العرب المحيط 1/1025، وقيل: زعيم فلاحي العجم، ورئيس الاقليم الزاوي

ترتيب القاموس المحيط 2/222

6- فتوح البلدان السابق ص 370

المالي، فقد استطاعوا ان يكونوا لهم مكانة اجتماعية مرموقة، ولكنها دون المكانة التي تسنمها الارستقراطية العربية. هذا بالإضافة إلى اربعة الاف من خاصة الجند في الجيش الفارسي، الذين اعتزلوا الفرس بعد انهزام قائدهم رستم فيالقادية(1)، ودخلوا الإسلام وشاركوا المسلمين في فتح المدائن(2). بعد ان استأمنوا «على ان ينزلوا حيث احبوا ويفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وانزلهم سعد بحيث اختاروا، وفرض لهم الف الف (درهم) وكان لهم نقيب»(3) يتولى شؤونهم.

وقد شكل أولئك أيضاً طبقة خاصة من المحاربين الموالي لهم من الحقوق ما للنخبة العربية، ولكنهم دونهم في المستوى الاجتماعي، هذا بالإضافة إلى الحرفيين، والصناع والتجار والفلاحين الذين «كانوا يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم لحمايتهم، ويعدونهم ساداتهم»(4).

ص: 375

1- القادسية: منطقة «بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً لها عدة اسماء وفيها كان يوم القادسية بين المسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب في سنة 16 هجرية وكان الفتح للمسلمين وقُتل رستم جازويه، ولم يبق للفرس بعده قائمة، معجم البلدان 4/ 291

2- المدائن: قاعدة ملك الأكاسرة الساسانية، كان كل واحد منهم إذا ملك يبني لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها، وكان فتح المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة 16 في أيام عمر بن الخطاب... فلما ملك العرب ديار الفرس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليهما الناس عن المدائن معجم البلدان 5/ 74

3- فتوح البلدان ص 594 وزهرة بن حوية السعدي بفتح جاء حوية وكسر الواو، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل ملك هجر فاسلم... وكان على مقدمة سعد في قتال القادسية... عاش حتى كبر، وقتله شبيب بن يزيد الخارجي... أيام الحجاج أسد الغابة 2/ 260

4- أحمد أمين فجر الإسلام ص 181

ومن الملاحظ مما سبق، إن تركيبة الجنس الفارسي التي شكلت الموالي قد كانت مقسمة في داخلها إلى طبقات تحكمها وتحدد امتيازاتها مكانة الطبقة الاجتماعية من منظور النخبة العربية الحامية لكل تلك الطبقات، مما جعل صراع ذلك الجنس يتسم بالازدواجية، فهو من ناحية صراع داخلي بين الفرس أنفسهم، وهو من ناحية أخرى صراع المغلوب للغالب العربي.

### 3 - العرب البدو والذين يعتمدون على الولاء القبلي:

ويشكل أولئك الغالبية العربية في المجتمع الكوفي، فقد هجروا الصحراء فراراً من شظف العيش، وطمعاً في الثراء الذي كانوا يرجونه من وراء الجهاد، إلا أنهم قد أصيبوا بخيبة أمل لكونهم لم يحققوا ما كانوا يطمحون إليه بسبب فئة معينة من النخبة العربية بالقسط الوافر من الفيء والغنيمة، مما أحال أولئك البدو إلى التبليل وعدم الثبات في مواقفهم، فأصبح ولاؤهم مساومة المنتفعين من زعامة العرب، ومن الطبيعي أن يولد ذلك حقداً في نفوس أولئك البدو على الزعامة العربية المتمثلة في قريش «فعدوها غاصبة وتمنوا زوال سيادتها واعلنوا أن أموال الفيء والغنائم هي لهم وليست للحكومة فهي أموال المسلمين»<sup>(1)</sup> وقد بين علي صلي الله عليه وآله وسلم خطورة أولئك البدو الذين اغتالوا عثمان، وملكوا على الناس كل مسلك في المدينة<sup>(2)</sup>.

### 4 - الفرس والنبط والسريان وغيرهم ممن ظلوا متمسكين بدياناتهم:

وأولئك هم الذين يشكلون الطبقة المسحوقة، وهم الغالبية في العراق

ص: 376

---

1- النعمان القاضي - الفرق الإسلامية في الشعر العربي ص 35

2- راجع خطب 169

ويطلق عليهم أهل السواد(1) لاشتغالهم بالزراعة، وهم خليط من الفرس عبدة النار، ونبط السواد من بقايا الأرمانيين(2) والسريان(3) من بقايا أسرى جند يسابور(4)، والنازحين من أهالي حران(5) ونصيبين(6)، ويمكننا التتف التاريخية التي بين أيدينا استنتاج ان سواد العراق قد كان مشحوناً بالفتن، ومصدر قلق للسلطة، ومن ذلك انه «شكا أهل السواد إلى علي عليه السلام فبعث مئة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني، فلما رجع ثعلبة قال في مسجد بني حمان: علي أن لا أرجع إلى السواد مما أرى فيه من الشر»(7) ففي الشاهد ما ينبئ عن غليان تلك الطبقة،

ص: 377

- 1- سواد كل شيء: كورة ما حوله من القرى والرساتيق (جمع رستاق بضم الراء القرى) واهلالسواد: الفلاحون وساكنوا القرى راجع مادة (سود) في تاج العروس 228/8
- 2- تاريخ الطبري 1/ 611 وقد ورد ذكر انباط السواد أيضاً في فتوح البلدان ص 366 وذلك يرجع كثرتهم في قرى العراق ابان الفتح الإسلامي وسموا بالارمانيين نسبة إلى أرم مدينتهم وللإطلاع على تاريخ الأنباط ولمعرفة أصولهم راجع: كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص 20 - 21 وجرجي زيدان - العرب قبل الإسلام ص 95 وما بعدها
- 3- بشأن السريان راجع: دى بور- تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 19 وما بعدها
- 4- جند يسابور: مدينة بخورستان بناها الملك الفارسي سابور بن أردشير فنسبت إليه واسكن فيها سبي الروم، وطائفة من جنده - معجم البلدان ح/ 170
- 5- حران: قسبة ديار مضر، بينها وبين (مدينة) الرها، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام، كانت منازل الصابئة، وهم الحرانيون معجم البلدان 2/ 235، وبشأن عقائد الصابئة راجع الشهرستاني الملل والنحل 2/ 5 وما بعدها
- 6- نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصل ستة أيام، كانت تابعة للروم ثم افتتحها كسرى أنوشروان وافتتحها المسلمون صلحاً سنة سبع عشرة هجرية بعد تمصير الكوفة - معجم البلدان 5/ 288
- 7- أبو يوسف - الخراج ص 37، وثعلبة بن يزيد الحماني الكوفي، كان على شرطة علي عليه السلام وكان غالباً في التشيع، قال البخاري: في حديثه نظر، لا يتابع وقال عنه النسائي: ثقة ابن حجر تهذيب التهذيب 2/ 26 وراجع ترجمته أيضاً في اعيان الشيعة 4/ 25، فقد سرد المصادر التي ترجمت إليه ولم يورد سنة وفاته

بعد ان فاضت مرارة العسف بها، وألهب نفوس أبنائها الاضطهاد الموجه من قبل السادة الفاتحين، أو من يقوم مقامهم من الدهاقين أو جامعي الضراب، ويبدو أن استخدام العسف والتعذيب لتحصيل الخراج قد كان منذ عهد عمر بن الخطاب، رغم الوصايا التي كان يزود بها عمال الخراج، باستخدام الرأفة واللين والرحمة أثناء استجلابه(1)، من ذلك أنه قد مر بطريقه إلى بيت المقدس سنة خمس عشرة هجرية يقوم «اقاموا في الشمس يعذبون، فقال عمر: ما بال هؤلاء يعذبون؟ فقتيل:

عليهم خراج»(2) وقد انكر الخليفة ذلك وأمر بإطلاق سراحهم لعدم قدرتهم على اداء ما عليهم، امثالاً لروح الإسلام بالرحمة والرأفة بالعباد.

## 5 - العرب غير المسلمين من نصارى الحيرة ونجران وتغلب:

يحدثنا البلاذري عن وجود كثير من الأديرة(3) بالقرب من الكوفة قبلتمصيرها، علاوة على ذلك فإنها متاخمة للحيرة(4)، قاعدة الملوك اللخمييين(5)

ص: 378

1- راجع بشأن استجلاب الخراج في فكر عمر: يحيى بن آدم - الخراج ص 76 - 77

2- الواقدي - فتوح الشام 237/1

3- راجع البلاذري - فتوح البلدان ص 397 ، 398

4- الحيرة: مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا ان بحر فارس كان يتصل به - معجم البلدان ح/ 328

5- للاطلاع على نسب اللخمييين - راجع ابن حزم الأندلسي جمهرة أنساب العرب ص 422 وما بعدها

العرب الذين انضوا في «آخر الأمر تحت لواء المسيحية»<sup>(1)</sup> بالإضافة إلى أولئك فقد نزح إلى العراق نصارى نجران، بعد ان اجلاهم<sup>(2)</sup> عمر بن الخطاب عن شبه الجزيرة العربية امثالاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك. وقد استوطنوا العراق «قرية تدعى نهرابان... من كورة البهقباد من طاسيج الكوفة»<sup>(3)</sup> ولقد عُد أولئك النصارى من أهل ذمة وفرضت عليهم الجزية. اما نصارى بني تغلب فقد كان لهم وضع خاص، يختلف عن بقية أهل الذمة يحدثنا ابن قيم الجوزية انهم انتقلوا «في الجاهلية إلى النصرانية، وكانوا قبيلة عظيمة لهم شوكة قوية، واستمروا على ذلك حتى جاء الإسلام ووصلحوا على مضاعفة الصدقة عليهم عوضاً عن الجزية»<sup>(4)</sup> شريطة ان لا ينصروا اولادهم ولا يمنعوا احداً منهم في الإسلام. بالإضافة إلى قلة من اليهود، الذين اجلاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ص: 379

- 
- 1- بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص 28
  - 2- بشأن اجلاء عمر بن الخطاب لنصارى نجران عن ارض اليمن بشبه جزيرة العرب راجع: 1 - أبو عبيد: الأموال ص 108 وما بعدها. 2 - أبو يوسف: الخراج ص 71 وما بعدها. 3 - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة 1/177 وما بعدها
  - 3- ياقوت - معجم البلدان 5/269، والبهقباد - بالكسر فالسكون فالضم - فارسي معرب اسم لثلاث كور ببغداد من اعمال سقي الفرات، منسوبة إلى قباد بن فيروز والد كسرى انوشروان. وتقع القرية التي استوطنها النجرانيون بعد نزوحهم عن نجران اليمن في البهقباد الاسفل الذي تقع فيه كورة الكوفة، والطسوج - بفتح الطاء وتضعيف السين وضمها فارسي معرب - الناحية والجمع طاسيج - تاج العروس 6/86
  - 4- ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة 1/75 ويمكن مراجعة الشروط التي صالحهم عليها عمر في المصدر نفسه ص 76 وما بعدها أما مساكن تغلب فكانت بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين، وتعرف بديار ربيعة كحالة - معجم قبائل العرب 1/120

عن قراهم بالمدينة(1). وأجلاههم عمر بن الخطاب عن شبه الجزيرة العرب امتثالاً لوصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ذلك هو إذن مجتمع الكوفة حين قدم إليها علي عليه السلام بعد وقعة الجمل.

### مجتمع الكوفة في فكر علي عليه السلام:

دخل علي عليه السلام الكوفة (يوم الاثنين لإثنتي عشرة مضت من رجب سنة ست وثلاثين)(2) ليتخذها عاصمة له فاستقبله القراء والأشراف(3) وأهل السواد(4). فاستطاع من تلك اللقاءات ان يستطلع الوضع عن كثب ويتعرف على مجريات الأمور، إذ كان يدرك تملل الناس من السيادة العربية، واستئثار الأشراف بالأموال دون الفقراء، والعسف في استخراجها من أهل السواد، وما السبب في مقتل عثمان، الا استئثار بني أمية بالأموال دون غيرهم(5)، ثم إن ثورة أهل الجمل المفتعلة ومناهضتهم إياه، الا لأنه أراد أن يحرّمهم الامتيازات التي استأثروا بها ويساويهم بعامّة المسلمين في الحقوق والواجبات(6) فإذا ما نحن استقرنا فكره بشأن طبقات مجتمع الكوفة، فنسجد انه قد كان على دراية تامة بمشاكل كل فئة وما يداخل نفوس أبنائها من آمال وآلام، وقد حاول أن

ص: 380

- 
- 1- بشأن إجلاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض اليهود عن المدينة راجع طبقات ابن سعد 29/2 وبشأن إجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب في عهد عمر بن الخطاب راجع أحكام أهل الذمة 183/1
  - 2- ابن مزاحم - صفيين ص 3
  - 3- السابق ص 3
  - 4- المصدر السابق ص 14
  - 5- راجع ص 230 وما بعدها من هذا البحث
  - 6- راجع ص 148 وما بعدها من هذا البحث

يضع النقاط على الحروف بالحد من غلواء المتمادين، والوقوف بجانب حقوق المستضعفين، فكان معه «العبيد والموالي والأعراب والمحرومون. وهؤلاء كانوا خائفين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش»<sup>(1)</sup>. وحتى يحقق علي عليه السلام الانسجام الذي يتوخاه لذلك المجتمع، فقد استخدم أسلوب الاصلاح التدريجي. فبدأ أولاً بمعالجة داء العصبية المستشري في اعضاء الزعامة القبلية.

### 1 - موقف علي عليه السلام من العصبية القبلية:

استشرت العصبية في مجتمع الكوفة وفي غيره من المجتمعات الإسلامية، وقد اجح لهيبتها وأحياها في النفوس، ما أحدثه ولاة عثمان الأمويون من احداث في الأمصار حين عدوا أنفسهم طبقة خاصة لها امتيازاتها<sup>(2)</sup>، فاستحالت العصبية القبلية إلى تيار جارف لا يمكن الحد منه والتصدي له، إذ انها اسدلت بحجبها المقيته على الحق كل سبيل. فالأشعث بن قيس<sup>(3)</sup>، احد زعماء اليمانية في الكوفة، يقوده التعصب الأعمى ليمانيته إلى فرض أبي موسى الأشعري ليمثل أهل العراق في التحكيم لأنه يمانى ليس غير، ولا تهمة بعد ذلك النتائج التي سينجر عنها ذلك الاختيار، فحين رشح علي عليه السلام عبد الله بن عباس للتحكيم عارضه الأشعث مقسماً «لا والله لا يحكم فيها مضريان... والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن، احب اليانا من ان يكون

ص: 381

---

1- النعمان القاضي - الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص 47

2- راجع ص 230 وما بعدها من هذا البحث

3- راجع ترجمته في هامش ص 277 من هذا البحث



بعض ما نحب في حكمها وهما مضرين»(1). ثم ان التنافس على المكانة الأثيرة عند الخليفة والنزول على طاعته مرتبط عند الزعامات بالعصبية القبلية. إذ لما حاول معاوية اشعال نار الفتنة بالبصرة لإخراجها عن طاعة علي عليه السلام سنة ثمان وثلاثين(2)، انقسمت فيها القبائل العربية على قسمين أحدهما ظل على بيعته لعلي عليه السلام، والآخر انضم إلى معاوية، وقد انحازت قبيلة تميم إلى جانب معاوية، وعاضدت رسوله وعامله عبد الله بن الحضرمي(3) على زياد بن ابية(4)، عامل علي عليه السلام على البصرة نيابة عن عبد الله بن عباس في أثناء غيابه عنها، فلما أحس التميميون في الكوفة بنية علي عليه السلام على ارسال قوة معظم رجالها من الأزدي لإخماد الفتنة، أرسلوا إليه شيث بن ربيعي التميمي(5) ليحول دون ذلك بوصفه الإزد

ص: 382

1- ابن مزاحم - صفيين ص 500

2- راجع بشأن ذلك - تاريخ الطبري 110/5 وما بعدها، وابن أبي الحديد 34/4 وما بعدها

3- عبد الله بن عامر بن الحضرمي استعمله عثمان على مكة وبقي والياً عليها حتى قتل عثمان سنة خمس وثلاثين، وهو من اوائل الذين استجابوا لعائشة في تحريضها على نكث بيعة علي عليه السلام، شارك في حرب الجمل، ثم لجأ بعد الهزيمة إلى معاوية الذي أرسله سنة ثمان وثلاثين لأثارة الفتنة بالبصرة لإخراجها عن طاعة علي عليه السلام، فلقبي حتفه هو وجماعة من أنصاره حرقاً على يد جارية بن قدامة السعدي أحد أصحاب علي عليه السلام المخلصين. راجع ابن الأثير الكامل في التاريخ 95/3، 106، 182

4- زياد بن أبية: وقيل تارة زياد بن امه، ولما أستلحقه معاوية قال أكثر الناس زياد بن أبي سفيان، وكان قيل استلحقه ينسب لأبيه عبيد، الذي كان عبداً، وبقي حياً حتى أيام زياد في الرق، فابتاعه واعتقه، كان زياد شجاعاً فصيحاً، وتجلت مواهبه منذ أيام عمر بن الخطاب واستعمله علي عليه السلام على إقليم فارس تحول إلى معاوية إثر مقتل علي عليه السلام، بعد أن أستلحقه، وولاية العراقيين، البصرة والكوفة وبقي فيها حتى وفاته في سنة 53 هجرية راجع ترجمة كاملة عند: ابن عبد البر الاستيعاب بهامش الإصابة 567/1، وشرح ابن أبي الحديد 16/179

5- شيث بن ربيعي التميمي اليربوعي: بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة أحد الأشراف الفرسان، كان ممن خرج على علي عليه السلام وانكر التحكيم، ثم تاب وأتاب توفي سنة سبعين هجرية وكان فيمن قاتل الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء الإصابة 162/2

بالبعءاء البغضاء، فلم يتمالك مخنف بن سليم الأزدي(1) - وفي محضر علي عليه السلام - ان يرد عليه بقول «ان البعيد البغيض من عصي الله وخالف أمير المؤمنين، وإن الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي وأحدهم خير لأمر المؤمنين من عشرة من قومك»(2) فمن تلك المشادة يمكن استخلاص ما تنضح به نفوس الزعامة القبلية عصبية، ومحاولة الاستئثار بالمكانة السامية في نفس الخليفة عن طريق الخدمات المغموسة حتى نهايتها في تلك العصبية المقيتة.

لقد بلغت العصبية ذروتها وكشرت عن أنيابها في أواخر خلافة علي عليه السلام. بحيث «كان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنخع مثلاً، أو يا لكندة، نداءً عالياً يقصد به الفتنة واثارة الشر»(3).

لقد بذل علي عليه السلام كل ما في وسعه من جهد لإخماد تلك العصبية، والعودة بالعرب إلى ما جاء به الإسلام من أخوة، واستخدم من أجل ذلك كل ما لديه

ص: 383

1- مخنف بن سليم الأزدي: له صحبة، وكان تقيب الأزدي بالكوفة، استعمله علي بن أبي طالب عليه السلام على مدينة أصفهان، وشهد معه الجمل وصفين، وكانت معه راية الأزدي يوم صفين وقد حدد الزركلي وفاته في سنة ست وثلاثين في وقعة الجمل والصواب انه توفي بعد معركة صفين أي بعد سنة سبع وثلاثين لأن ابن مزاحم في صفين ص 8 يذكر وجوده ضمن أشرف الكوفة حين دخلها علي بعد حرب الجمل. وجاء في ص 104 كتاب من علي عليه السلام إلى مخنف بن سليم يدعو فيه إلى القدوم إليه بالكوفة ليسيّر ضمن جيشه الذي جهزه لمحاربة معاوية. راجع: أسد الغابة 5/128 ، وأعلام الزركلي 7/194

2- ابن أبي الحديد 4/45

3- السابق 3/166 ، وقد رد علي عليه السلام تلك الأفعال بخطبة بليغة حلل فيها معاني العصبية اطلق عليها (القاصعة)، ذكرنا فقرات منها في ص 299 وبعدها من هذا البحث

من الاساليب المتاحة المشروعة من ذلك محاولته الغاء المواطنة المبنية على أساس الانتماء القبلي، بفك العلاقة بين الفرد وبين الزعامة القبلية عن طريق المساواة بين الناس في الحقوق(1)، وبالذعوة إلى مقاومة تلك الدعوات الهدامة، وإبادة من النفوس بالقوة كما في قوله «إذا رأيتم الناس بينهم الثائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لمهامهم ووجوههم بالسيف حتى يفزعوا إلى الله وإلى كتابه وستة نبيه، فأما تلك الحمية من خطرات الشيطان فاتتهوا عنها»(2).

ولإحساسه الملح بالحاجة إلى تلاحم الأمة الإسلامية في ظروفها الصعبة التي تعيشها، وهي على مفترق الطريق بين الخلافة الدينية وبين الملك العضوض لجأ أيضاً إلى كتابة حلف بين أهل اليمن، وبين ربيعة من أهم بنوده «أنهم على كتاب الله، يدعون، ويأمرون به، ويحيون من دعا إليه وأمر به، ولا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يرضون به بديلاً، وأنهم يد واحدة...»(3). ويبدو ان أسلوبه في مناهضة الزعامات القبلية ومواقفته لطموحاتها لم يرق للكثير، فأخذوا يتسللون(4) إلى معاوية جرياً وراء المادة، وإشباع غرور التسلط الذي مكنهم منه معاوية ولكناعلياً عليه السلام - كما يبدو- وقد نجح نجاحاً جزئياً في مساعيه للقضاء على تلك العصبية، فقد تمكن بعد كفاح مرير أن يجمع شتات المجتمع مرة ثانية ويعددهم للمسير إلى معاوية، إذ يحدثنا التاريخ أنه في أيامه الأخيرة، قد أفلح في جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، ومكنه ذلك من أن يعقد «للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في

ص: 384

1- راجع ص 317 - 318 من هذا البحث

2- ابن أبي الحديد 4/ 45

3- رسائل - 74

4- راجع رسائل - 70

عشرة آلاف ولغيرهم على أعداد آخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه... ابن ملجم... فتراجعت العساكر (فكانت) كالأغنام التي فقدت راعيها، تتخطفها الذئاب من كل مكان(1).

## 2 - موقف علي عليه السلام من الموالي ومن أهل السواد:

حين استقر العرب بالعراق بعد فتح فارس كونوا لهم مجتمعاً خاصاً بهم ولم يكونوا يسمحوا لغيرهم ممن دخل الإسلام من الأمم الآخر بمحاربتهم، فوضعوا الحواجز الاجتماعية بينهم وبين الموالي، على اعتبار أنهم دونهم في المكانة فلم يسمحوا بالإختلاط بهم وتجنبوا مجالستهم، واعتبروا الصلاة وراءهم تواضعاً وتقرباً إلى الله(2)، وحالوا دون التزاوج معهم، خاصة بالنسبة للرجال منهم، حيث حالوا بينهم وبين الزواج من العربيات، من ذلك أن سلمان

ص: 385

1- خطب 184 تعليق راويها في نهايتها، أما أبو أيوب الأنصاري فاسمه خالد بن زيد الأنصاري الخزرجي النجاري شهد سائر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مع علي بن أبي طالب عليه السلام ومن خاصته، شهد معه الجمل وصفين، وكان على مقدمته يوم النهروان، غزا أيام معاوية أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة احدى وخمسين وتوفي عند مدينة القسطنطينية أسد الغابة 25/6 . وعبد الرحمن بن ملجم المرادي، خارجي كان ضمن ثلاثة من الخوارج تعاقدوا في مكة على قتل علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، وتعاهدوا على القيام بذلك في شهر رمضان في الليلة التي قتل فيها علي عليه السلام وكان عبد الرحمن بن ملجم هو المتكفل بقتل علي عليه السلام، واستطاع ان يصل إلى غرضه، اما صاحبه وهما، البرك بن عبد الله التميمي، المتكفل بقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي المتكفل بقتل عمر و بن العاص، فلم يفلحوا، وقتل عبد الرحمن بن ملجم بعد وفاة علي عليه السلام سنة أربعين مقاتل الطالبين ص 43 وما بعدها

2- راجع العقد الفريد 413/3

الفارسي(1) ، وهو من كبار الصحابة المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خطب ابنة عمر بن الخطاب «فوعده بها، فشق ذلك على عبد الله بن عمر، فلقي عمرو بن العاص، فشكا إليه ذلك، فقال له: سأكفيك، فلقي سلمان، فقال له: هنيئلك يا أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنته، فغضب سلمان وقال: لا والله لا تزوجت إليه ابدا»(2) وكان عبد الله بن عمر يستنكف من ان يناسب سلمان لكونه فارسياً، وفي ذلك دلالة على تجنب العربي من تزويج ابنته لغير العربي مهما بلغت منزلته وسمت مكاتته، وقد بلغ التعصب بالعرب إزاء الموالي إلى القول «لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار، أو كلب، أو مولى»(3) كما أثر عن معاوية، أنه لما وجد كثرة الموالي، خطرت له فكرة اباداة قسم منهم، وترك قسم اخر لإقامة السوق وعمارة الطريق»(4) وقد ثناه الاحنف بن قيس(5) عن فكرته تلك. لذلك فلا عجب أن تلتف

ص: 386

1- سلمان الفارسي: أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير، اصله من فارس وكان مجوسياً، رحل إلى الشام وتحول إلى النصرانية هنالك، اسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، أول مشاهده مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الخندق، ولم يتخلف عن مشهد بعد الخندق، كان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم، وذوي القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توفي سنة خمس وثلاثين في اخر خلافة عثمان ابن الأثير أسد الغابة 417/2 وما بعدها

2- ابن عبد ربه العقد الفريد 90/6 وجاء عند أبي نعيم الحافظ (ت 430) في كتابه حلية الأولياء 186/1 - ان الذي رفض الزيجة عمر بن الخطاب وليس ابنه عبد الله

3- العقد الفريد 413/3

4- المصدر السابق نفسه

5- الأحنف بن قيس: والاحنف لقب له، لحنف (اعوجاج) كان برجله ادرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يره، كان أحد الحكماء الدهاة العقلاء، وكان فيمن اعتزل الحرب بين علي عليه السلام وعائشة، وشهد صفين مع علي عليه السلام، وبقي إلى اماراة مصعب بن الزبير على العراق وتوفي سنة سبع وستين - أسد الغابة 68/1

أولئك الحمراء(1) حول الإمام علي عليه السلام، والقعود إليه والاستماع لوعظه، فقد وجدوا في شخصه المنقذ والمنفذ الحقيقي لمبادئ الإسلام على أصولها، خاصة بكسره طوق العادات الجاهلية بتزويج ابنه الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إحدى بنات كسرى(2) اللواتي سبين في عهد عثمان بن عفان، وقد عرضنا فيما سبق لرد علي عليه السلام الغاضب على مقولة الأشعث بن قيس «غلبتنا عليك هذه الحمراء»(3) فقد كان علي عليه السلام يجالسهم ويتحدث معهم ويستقرئهم أحوال ملوكهم السابقين وسياساتهم(4) بما يشعروهم بقيمتهم الإنسانية مثلهم مثل أي مسلم آخر، فاحبوه، واخلصوا له وانعكس ذلك الحب فيما بعد على احفاده الذين بلغوا مكانة سامقة في نفوس أهالي فارس(5) .

فإذا كان الموالي وهم من المسلمين، قد لقوا من العرب الهوان والذل، فما بالك بأهل السواد من غير المسلمين، ولا خالني اجانب الصواب، إذا قلت إن العرب قد عدوا أولئك من رقيق الأرض مثلهم مثل أي متاع يباع ويشترى، ويعمل به سادته ما يشاؤون، مما جعل نفوس أولئك تمتلئ بالحقد والضغينة، والألم لأنهم خرجوا من ربة الذل في ظل الحكم الفارسي إلى الرق والامتهان

ص: 387

- 
- 1- الحمراء لقب كان يطلق على الموالي من الفرس - راجع ص 301 من هذا البحث
  - 2- أم علي بن الحسين هي (سلافة) من ولد يزيدجرد، معروفة النسب وكانت من خيرات النساء، وكان يقال لعلي بن الحسين عليه السلام، ابن الخيرتين، لقول «رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» لله من عباده خيرتان، من العرب قريش ومن العجم فارس - المبرد - الكامل في الأدب 2/ 120 ، 121
  - 3- راجع ص 301 من هذا البحث
  - 4- راجع بن مزاحم - صفين ص 14
  - 5- راجع - جليل منصور العريض - التفجع في شعر الشريف الرضي ص 34

والتعذيب في ظل النظام الإسلامي الداعي إلى المساواة خاصة انهم قد وجدوا ان دخولهم الإسلام لم يغير من اوضاعهم الاجتماعية كطبقة منبوذة من عبيد الأرض، لا حول لها ولا قوة، واجبها الوحيد خدمة السادة الجدد، وتوفير الراحة لهم. ولو ان التاريخ الإسلامي قد اغفل وصف تبرمهم وثوراتهم لكونه تاريخ حكام لا تاريخ شعوب إلا أن ذلك التبرم والضيق يمكن تصوره من خلال مواقفهم المعادية للتسلط العربي منذ البداية، خاصة تجاه بني أمية الذين حاولوا بينهم وبين الدخول في الإسلام طمعاً في الجزية التي يؤدونها، والتي ستسقط لا محالة عنهم بإسلامهم(1)، لذلك اعتمد المختار(2) عليهم اعتماداً أساسياً وانتصر بهم في عدة مواجهات(3) ضد عبد الملك بن مروان، إلا ان المختار بتقريب أولئك منه ألّب على نفسه الارستقراطية العربية التي تضررت مصالحها، بفعله، فتسببت في نهاية الأمر إلى سقوطه(4).

فحين دخل علي عليه السلام الكوفة كان على دراية تامة بما آلت إليه حال أهالي

ص: 388

1- راجع بشأن وصية عمر بن عبد العزيز إلى عامله على خراسان تاريخ الطبري 6/559، وبشأن عسف عمال بني أمية وظلمهم للرعية راجع فحوى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة - تاريخ الطبري 6/569. بشأن أخذ الأمويين الجزية ممن اسلموا - راجع أحكام أهل الذمة 1/59

2- المختار بن أبي عبيد مسعود الثقفي، ولد عام الهجرة، وليست له صحبة، وكان قد خرج يطلب بثأر الحسين بن علي عليه السلام، واجتمع عليه كثير من الشيعة بالكوفة فغلب عليها، وطلب قتلة الحسين فقتلهم وقتل بالكوفة سنة سبع وستين، وكانت امارته على الكوفة سنة ونصف السنة - أسد الغابة 5/122،

123

3- راجع - الدينوري - الأخبار الطوال ص 293 و 299 وما بعدها

4- المصدر السابق

السواد من يؤس وشقاء وتبرم ينذر بثورة، لذلك كان من الأولويات الهامة التي باشرها أن «حشراًهل السواد، فلما اجتمعوا اذن لهم، فلما رأى كثرتهم»(1) وعدم استطاعته من الاستماع إلى شكاواهم وتظلماتهم طلب منهم ان يسندوا أمرهم إلى أرضاهم في نفوسهم، كل ذلك من أجل وضع الحلول المناسبة لمشاكلهم بما يرضي الله، ويتمشى مع عدالة الإسلام، وبالفعل فقد باشر ذلك بصفة مستمرة طيلة عهده، فمما يؤثر في ذلك أنه كتب إلى كعب بن مالك(2) وهو احد عماله «أما بعد فاستخلف على عمك وأخرج في طائفة من اصحابكحتى تمر بأرض السواد كورة كورة فتسالهم عن عمالهم، وتنظر في سيرتهم حتى تمر بمن كان فيما بين دخلة والفرات»(3).

كما ان احتكاكه المباشر بهم مكنه من التعرف على اساليبهم الملتوية في التهرب من اداء ما عليهم من الخراج والجزية، مما جعله يستعمل معهم سياسة العطف والرحمة الممزوجة بالحزم حتى لا يفلت زمامهم من يده، فهو في الوقت الذي يأمر فيه عماله بالحزم والشدة على أولئك الفلاحين والصناع الا انه لا يرضى ان

ص: 389

1- ابن مزاحم - صفين - ص 14

2- كعب بن مالك الأنصاري، كناه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبا عبد الله، شاعر مشهور، شهد العقبة وبايع بها، وتخلف عن بدر وشهد ما بعدها، وتخلف عن تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، وقد أخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني سند شامي فيه ضعف وانقطاع، أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير دخلوا على علي عليه السلام، فناظروه في شأن عثمان، وأنشده كعب شعرا في رثاء عثمان ثم خرجوا من عنده فتوجهوا إلى معاوية فأكرمهم ابن حجرالإصابة 3/307 والراجع بشأن كعب أنه صحب علياً عليه السلام وولاه بعض سواد العراق، كما ورد عند القاضي أبي يوسف، في كتاب الخراج 118، وتوفى كعب في حكم معاوية

3- القاضي أبو يوسف - الخراج ص 118



يؤخذ منهم سوى ما يمكنهم دفعه قدر استطاعتهم(1)، وتلك هي عين العدالة الاجتماعية في الإسلام.

فالحزم مطلوب - في فكر علي عليه السلام الاجتماعي ولكن الرأفة والرحمة مطلوبتان أيضاً فكفر أولئك لا ينقص من حقوقهم الإنسانية، شكا إليه بعض أهل السواد من رؤساء الفلاحين غلظة احد ولاته فكتب إليه «أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة، ونظرت فلم أرهم لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا ويحفوا لعهدهم، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداوك لهم بين القسوة والرأفة...»(2).

فمن الملاحظ في فحوى الرسالة ان علياً عليه السلام قد جعل اللين جلباباً للوالي وجعل الشدة طرفاً من ذلك الجلباب، وتلك اعلى مراتب التربية الاجتماعية، لكون الارخاء واللين إذا لم يحاط بالحزم في أي أمر يتعلق بالنظام، فإنه لا محالة يؤديان إلى الفوضى والانفلات، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، مع الوضع في الاعتبار اشارة علي عليه السلام إلى كون أولئك كفاراً لا يعني على الاطلاق سلبهم حقوقهم الاجتماعية في العيش كمواطنين، مثلهم مثل أي إنسان لأن الناس من وجهة نظر علي «صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»(3) ويجب التعامل معهم على ذلك الأساس، وقد نبع موقف علي عليه السلام من

ص: 390

---

1- راجع بشأن ذلك حكاية علي عليه السلام مع الرجل الثقيفي الذي استعمله على عكبرا وهي بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرون فرسخاً - معجم البلدان 142/4 عند ابن القيم الجوزية في أحكام أهل الذمة 59

2- رسائل - 19

3- رسائل - 53 فقرة 3

أهل السواد على أنهم من الصنف الثاني، الذي يجب أن ترعى حقوقه من أجل الرابطة الإنسانية، ومن أجل احترام ارادة الله سبحانه وتعالى في خلقه.

### 3 - موقف الإمام علي عليه السلام من العرب البدو:

يصف ابن خلدون البدو «بطبيعة التوحش الذي فيهم، أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركب خطر... (وأنتهم) إذ تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية، باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوداً، لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه منافية للعمران»<sup>(1)</sup>، وذلك الوصف الواقعي لم يأت عند ابن خلدون من فراغ، إذ لا بد أنه قد عايش البدو واحتك بهم وعانى منهم جراء رحلاته الطويلة<sup>(2)</sup> وتقلبه في مناصب القضاء<sup>(3)</sup> بالإضافة إلى احتكاكه المباشر بالمغول<sup>(4)</sup> كما تحدثنا سيرته، ثم إن قراءته في التاريخ وسبر اغوار أحداثه، جعله يمعن الفكر في الاجتماع البشري بعين الباحث الدقيق<sup>(5)</sup>، فاستطاع ان يصور الحقيقة بأمانة وصدق، ودراستنا لحال الأعراب الذين كانوا يستوطنون الكوفة دليل على ذلك، ان أولئك رغم انتقالهم من الصحراء إلى المجتمع الحضري، فإن ذلك الانتقال لم يغير من طبائعهم

ص: 391

1- مقدمة ابن خلدون ص 186، 187

2- حول رحلات ابن خلدون المتعددة راجع تاريخه 437/7، 548، 557، 648، 657

3- بشأن تولي ابن خلدون منصب القضاء راجع تاريخه 563/7، 714، 741

4- بشأن مقابلة ابن خلدون التتار أو المغول راجع تاريخه 728/7، أما بشأن التتار وكيف بدأت هجماتهم على البلاد الإسلامية فراجع - ابن أبي الحديد 8/2 وما بعدها

5- لمعرفة منهج ابن خلدون في فلسفته لتاريخ الشعوب والأمم - راجع المقدمة ص 6 وما بعدها

بسبب توقعهم على أنفسهم عن طريق التكتل القبلي، فلم تعمل الحضارة في حياتهم وعاداتهم، لكونهم قد انتقلوا من الصحراء على شكل جماعات، وحملوا معهم طباعهم وعاداتهم التي ورثوها فأصبحت جبلة فيهم لا يمكن تغييرها، الا بالاحتكاك المباشر بالحضارة وهذا ما لم يفعلوه لتعارضه واساليبهم في الغزو والاستيلاء والنهب، فعلى سبيل المثال، عدم تعريقهم بين الحملات العسكرية المراد إعادة أولئك المحاربين من البدو ما أبداه علي عليه السلام تجاه أهل البصرة من تسامح بعد وقعة الجمل سنة وست وثلاثين، فقد احل علي عليه السلام لجيشه الاستيلاء على كل ما في معسكر المناوئين له، دون اسر الرجال وسبي النساء، أو مصادرة ما حوته مساكنهم من اموال، فقد كان علي عليه السلام ينظر لأولئك نظرة الخارجين عن الصف الإسلامي، لا نظرتة إلى الكافرين أو المرتدين، وذلك امثالاً لما ورد في الذكر الحكيم:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْحَابُ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْحَابُ بَيْنَهُمَا) (1)  
وقد عمل علي عليه السلام بحكم الآية الكريمة بتمامه، فحاول الاصلاح بين الفئتين على أساس أن كليهما تدينان بالإسلام، ولكن أولئك الأعراب الذين ملكت المادة عليهم كل سبيل لم يقبلوا ذلك منه، بقولهم باستنكار «ما أحل لنا دماءهم وحرم علينا اموالهم» (2) لأنهم لم يشربوا الإسلام في قلوبهم، وأقصروا نظرهم على الجانب المادي، ومن المعتقد أن الجدل قد استمر بينهم وبين علي عليه السلام ولم يقتنعوا بوجهة نظره إلا بعد أن قال لهم «هذه عائشة رأس القوم

ص: 392

1- الحجر/ 9

2- العقد الفريد 4/ 331

أتساهمون عليها؟<sup>(1)</sup> . يبدو أن الطابع البدوي قد غلب المجتمع الكوفي، بحيث أثر في أخلاق المجتمع وسار بالقيم نحو التداعي، مما جعل علي عليه السلام يتصدى له بكل قوة متبرماً من ذلك «اعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، لا تعقلون من الإسلام إلا اسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه تقولون النار ولا العار، كأنكم تريدون أن تكفتموا الإسلام على وجهه، انتهاكاً لحريمه، ونقصاً لميثاقه الذي وضعه لكم حرماً في أرضه»<sup>(2)</sup> . لقد كان أولئك الأعراب يعرضون ولاءهم على من يغدق عليهم وكان علي عليه السلام على دراية تامة بأساليبهم في تقريبهم إلى الولاة والحكام، لذلك لاحقهم وتبع تحركاتهم، خاصة أن انتقالهم إلى المجتمع المدني لم يشذب اخلاقهم، ولم يغير من عاداتهم، فعنصر الغزو الذي تشبعت به نفوسهم، قد شذب الإسلام بعض جوانبه، إلا أنه ما برح يراود نفوسهم، لذلك سلكوا أسلوباً آخر للكسب على حساب الأمة ياغراء ولاة الاقاليم بتبينهم فمن خلال رسالة كتبها علي عليه السلام إلى واليه علي أردشير خرة<sup>(3)</sup> نستنتج ان ذلك العامل بما تحمله نفسه من روح البداوة كان يغدق العطاء من اموال المسلمين على من اعتماه من اعراب قومه، لذلك كتب إليه علي بأسلوب مشحون بالغضب يتهدده متوعداً «فو الذي فلق

ص: 393

1- السابق

2- خطب - 240 ، فقرة 23

3- أردشير خرة: بفتح الألف وسكون الراء وفتح الدال وكسر الشين وياء ساكنة في (اردشير): وخاء مضمومة، وراء مفتوحة مشددة وها (خره)، وهو اسم فارسي مركب معناه بهاء اردشير، و اردشير اسم لملك من ملوك الفرس، و اردشير خره من أجل كور فارس وتدخل ضمنها كثير من المدن الهامة كشيراز وكازرون وغيرها معجم البلدان 1/ 146 ، أما عامل علي عليه السلام عليها فقد كان مصقلة بن هبيرة الشيباني فسترده ترجمته في ص 396 هامش (2) من هذا البحث

الحبة، وبرا النسمة، لئن كان ذلك حقاً، لتجدن لك علي هواناً، ولتخفن عندي ميزاناً»(1). وقد ظل أولئك الأعراب عقبة كأداء في خطط علي عليه السلام الإصلاحية، خاصة بعد أن انضوى معظمهم تحت راية الذين خرجوا على علي عليه السلام بعد قضية رفع المصاحف في صفين، وبعد مهزلة التحكيم، وحدثوا أحداثاً منافية للروح الإسلامية(2) ولم يتمكن الإمام علي عليه السلام من إعادة صف المجتمع الكوفي إلا- بعد قضائه على معظمهم في وقعة النهروان(3) سنة تسع وثلاثين، ولكن لم يحالفه الحظ في إتمام خطه الاصلاحى حين استشهد على يد واحد من أولئك الخوارج في السنة الاربعين هجرية.

#### 4- موقف الإمام علي عليه السلام من العرب غير المسلمين من نصارى تغلب ونجران:

لا نكاد نعثر على أي نص في نهج البلاغة يتعلق بموقف علي عليه السلام من نصارى

العرب، وان مجمل ما ورد في النهج يتعلق بأهل الذمة والمعاهدين وكل ذلك يندرج تحت وصاياهم، بالرفقة بهم وتجنب تكليفهم بما لا يطيقون إلى غير ذلك من وصايا انسانية(4) إلا- أننا لا- نعدم نصوصاً في المصادر الأخرى تضع أقدامنا على الطريق، في مجال التعرف على موقف علي عليه السلام من أولئك العرب. فإذا كان

ص: 394

1- رسائل - 43

2- بشأن فتنة الخوارج في خلافة علي عليه السلام والسبب في محاربهته ايهم راجع: الدينوري - الأخبار الطوال من ص 202 حتى ص 207

3- النهروان: وأكثر ما يجري بها على اللسنة بكسر النون، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة، وكان بها وقعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مع الخوارج مشهودة - معجم البلدان 5/ 324 ، 325

4- راجع رسائل - 51 و 53 فقرة 4

علي عليه السلام عاملهم معاملة إنسانية أساسها العطف والرحمة، فإن ذلك لا يعني انه قد ترك لهم الحبل على الغارب يعملون ما يشاؤون، فقد جعلهم تحت بصره وسمعه، لأنه يدرك بحسه العربي، ما يصطرع في نفوس أولئك العرب من قهر وضيم وصغار وقوعهم تحت طائلة القانون الذي يحرمهم من مزاوله الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، ولا يسمح بها إليهم الا في حدود ما عاهدوا عليه في سبيل ابقائهم على نصرانيتهم (1). ونفسية العربي عادة ما يراودها التمرد، مما جبل عليه من إباء وشيم ينفرانه من الخضوع والاستكانة، وأولئك النصارى مثل القبانل العربية الأخرى لكونهم أبناء بيئة واحدة، فتمردهم على السلطة لا بد أن يكون حتما، وان اتخذ أساليب مختلفة تنأى بهم عن الغزو والسبي، خاصة وانهم وجدوا ان علياً لم يكن دون غيره ممن سبقه في حزمه تجاههم، فقد شاهده وهو يحرق بيده قرية مسيحية في سواد الكوفة اشتهرت بصناعة الخمر وهو بعمله ذلك ينفذ شريعة الإسلام على اعتبار «أن الخبيث يأكل بعضه بعضاً» (2)، فكما يبدو أن نصارى تغلب قد احسوا بانشغال المسلمين ببعضهم البعض بفتنة عثمان بحرب الجمل والمشادات الكلامية ومن ثم العسكرية بين علي عليه السلام ومعاوية ففسخوا ما عاهدوا عليه عمر بن الخطاب، بأن يدفعوا ضعف الزكاة بدلا من دفعهم الجزية شريطة ألا ينصروا أولادهم، لأن علياً عليه السلام قد كان منشغلاً عنهم، ولن يطالهم عقابه، ولكنه كان على علم بنقضهم العهد إذ أثر عنه بشأن نصارى تغلب قوله «لئن فرغت لبني تغلب ليكون لي فيهم رأي:

لاقتلن مقاتلتهم، ولا سبين ذراريرهم، فقد تقضوا العهد وبرئت منهم الذمة

ص: 395

---

1- بشأن الشروط المفروضة على أهل الذمة راجع ابن القيم أحكام أهل الذمة 657/2 وما بعدها

2- السابق 729/2

حين نصرُوا أولادهم» (1) فلما أحسوا بموقف علي عليه السلام، منهم، أخذوا يكيّدون له في الخفاء، بالوقوف بجانب معاوية كيلا يمكنوه من التفرغ لهم، فعمل كثير منهم جواسيس لمعاوية في الكوفة، من ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيباني (2)، لما هرب من علي عليه السلام ولجأ إلى معاوية كتب لأخيه نعيم بن هبيرة (3) «مع رجل من نصارى تغلب... أما بعد، فإني كلمت معاوية فيك فوعدك بالكرمة، وهناك بالإمارة فاقبل ساعة تلقى رسولي» (4) فاطلع نعيم علياً على الكتاب وخبر الرسول التغلبي، فكانت نهاية ذلك الرسول الهلاك بعد أن قطع علي عليه السلام يده جزاء فعلته تلك وعلى العموم فقد نال نصارى تغلب حظوة عند الأمويين فيما بعد مكافأة على مواقفهم السابقة، فأباحوا لهم كل ما عاهدوا على تحريمه (5)

ص: 396

1- أبو عبيد: الأموال ص 24 وجاء مثله في أحكام أهل الذمة 79/1

2- مصقلة بن هبيرة الشيباني: كان من رجال علي بن أبي طالب عليه السلام ثم هرب إلى معاوية بعد أن اشترى سبي بني ناجية من عامل علي عليه السلام واعتقه، فلما طالبه علي عليه السلام ببقية المال بعد أن دفع قسطاً منه، لم يتمكن من سداه ففر إلى معاوية وكان في صفين قتل ومعظم جيشه في فتح طبرستان - راجع نسبه وخبره مع بني ناجية عند ابن أبي الحديد 127/3 . أما ترجمته فراجعها عند الزركلي الأعلام 249/7

3- نعيم بن هبيرة الشيباني: من أهل بيت وعدة في جاهلية والاسلام - راجع بشأن نسبه: جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي ص 321 - كان شيعياً ولعلي عليه السلام مناصحاً، وهو ممن شاركوا في ثورة المختار للثأر من قتلة الحسين عليه السلام، قتل سنة ست وستين في معركة دارت في الكوفة بين أصحاب المختار وبين شيعة الأمويين، وكان قائداً لتلك المعركة، راجع: تاريخ الطبري 130/5 و 24/6 ، 25

4- شرح ابن أبي الحديد 146/3

5- بشأن انحياز بعض نصارى تغلب إلى معاوية ضد علي عليه السلام راجع - البلاذري - أنساب الأشراف 469/2 . ويروى ان الاخلل التغلبي يجاهر بطلب شرب الخمر في مجلس عبد الملك بن مروان فلا يناله أي عقاب ثم أنه يمدح عبد الملك وهو سكران فيغدق عليه الخفية الأموي ويزيد في جائزته - وفي ذلك مثل على تساهل الأمويين مع التغلبيين النصارى، راجع الأغاني 293/8 ويشجع الأمويون غير المسلمين على البقاء في دياناتهم بفرض الجزية عليهم وان دخلوا في الإسلام وهذا بطبيعة الحال ساعد أولئك النصارى على تنصير أولادهم وهو ما يتنافى وشروط عمر بن الخطاب على التغلبيين راجع أحكام أهل الذمة 59/1 و ص 263 من هذا البحث

من قبل من سبق أمير المؤمنين عليه السلام من قبل.

أما نصارى نجران فلم يكن لهم من الحقوق مثل ما كان لنصارى تغلب، فقد كانوا يدفعون الجزية مثل بقية أهل الذمة إلا أن الذي بقي أثره في نفوسهم، ولم يستطيعوا نسيانه، قيام عمر بإجلائهم عن موطنهم نجران اليمن فأخذوا يتحينون الفرصة للعودة إلى بلادهم، فظنوا أنها مؤاتية بتولي علي عليه السلام الخلافة، وكانهم بذلك يريدون - بدهاء وخبث - أن يرد علي عليه السلام على عمر ذلك بالسماح لهم بالعودة، فطلبوا منه أن يكتب لهم عهداً بذلك شاكين إليه تصرف عمر، فبادر علي عليه السلام إلى زعيمهم بالقول «فلم يرجعهم إلى ديارهم»<sup>(1)</sup>. فالنصارى العرب وان لم يرد لهم ذكر في نهج البلاغة إلا أن دورهم فيما يبدو كان منحصراً في الكيد للإسلام في الخفاء، وانتهاز الفرص لتقضى العهود مما أدى بعلي عليه السلام إلى موافقتهم لمنعهم عما يرمون إليه.

ذلك إذن موقف الإمام علي عليه السلام من الفئات التي تكون مجتمع الكوفة منها، وهو - كما رأينا - مجتمع متباين في عاداته وفي تقاليده مختلف الديانات، غير منسجم في العلاقات بين أفرادها. وقد عاشه علي عليه السلام بكل إحساساته فبذل كل ما في وسعه من جهد لإعادة بنيته المتداعية، التي شبهها بالثوب البالي، الذي كلما خيط من

ص: 397

---

1- راجع أبو يوسف الخراج ص 74،



ناحية تهزج وتمزق من ناحية أخرى(1) ، فكان وصفه لحالة ذلك المجتمع وليد معاناته في تقويم ما انتابه من اعوجاج، أو بالأحرى محاولة مستميتة وصبورة لإعادة بنائه بفضح عيوبه لاطلاع الناس عليها وتبصرهم بخطورتها.

### حالة المجتمع كما تبدو في فكر علي عليه السلام

عاش علي عليه السلام مجتمع الكوفة بكل فئاته لإحساسه التام بمسؤوليته كحاكم، من الواجب عليه أن يلتم بجميع المشاكل ويضع لها الحلول المناسبة. ومن خلال احتكاكه المباشر أمكنه التعرف على حالة المجتمع من جميع جوانبها، كما مكنته ذلك من الدخول في نفوس الناس وسبر أغوارهم إزاء تيار المادة الجارف، الذي ادى بكل فرد - من ذلك المجتمع - إلى النظرة للحياة من الزاوية التي يرى فيها مصلحته لغض النظر في معظم الأحيان عن القيم والأخلاق، فشاع في جنبات ذلك المجتمع الاستغلال والفساد والقهر والمغالبة، فأحال ذلك الوضع المزري الناس كما يرى علي عليه السلام إلى «كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهر بعضها على البعض، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها، نعم معقلة، وأخرى مهملة قد أضلت عقولها، وركبت مجهولها، سروح عاهة، بواد عث، ليس لها راع يقيمها ولا ميسم يسيماها»(2) فالصورة التي رسمها

ص: 398

1- راجع: خطب - 68

2- رسائل 31 - الفقرة 19 . وضارية مولعة بالافتراس، يهر بكسر الهاء أو بضمها: أي يمقت ويكره، ومعقله - بتشديد القاف: - مشدودة بالعقال، وهو حبل يربط به رجلا الناقة الاماميتان للحد من سرعتها أثناء السفر عليها، وكنى على الابل المعقلة عن الضعفاء من أبناء المجتمع الذين لا حول لهم ولا قوة، والمهملة: المطلق سراحها، وهي كناية عن الأقوياء الجبابرة، وأضلت عقولها: أضاعت عقولها وتخبطت في الطريق المجهول، والسروح - بضم السين جمع سرح بفتح فسكون: وهو المال، السائم من إبل وحيوان وعاهة: آفة ومرض، أي أنهم يسرحون برعي المتاعب، والوعث: الرخو اللين الذي يصعب السير فيه

علي عليه السلام لحالة المجتمع الإسلامي في عصره تبدو قاتمة، ولكنها واقعية - على الأقل - من وجهة النظر المثالية التي تبناها علي عليه السلام، وسار على هديها للقضاء على الفساد الاجتماعي وليس أدل على ذلك من مقارنته بين ماضي الإسلام المفعم بالحب والاخلاص للمبادئ، وبين الواقع المؤلم المليء بالرزايا والمحن وانعدام الأخلاق. فرجال أمس في صدقهم لم يكونوا كرجال اليوم في كذبهم ونفاقهم، يقول علي عليه السلام بأسلوب ملؤه الأسى والتحسر «أين خياركم وصلحاؤكم، وأين أحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورعون في مكاسبهم المنتزهون في مذاهبهم، أليس قد ظعنوا جميعاً... وهل خلفتم إلا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم»<sup>(1)</sup>. فامتزاج الأسى بالازدراء لم يتولد في نفس علي عليه السلام لولا حبه غير المحدود للإنسانية، وإيمانه الصادق المتين بقيم الإسلام الأخلاقية، فما فعله من كشف لعيوب المجتمع وسلبياته، ووصفه ما آلت إليه حاله من تدهور، لم يكن يقصد من ورائه سوى النقد البناء، بفضح ما يعتور الطبقات الاجتماعية من عيوب، وعادات هدامة، وليس ثمة سبيل للقضاء عليها إلا بإشهارها، وتبصير الناس بما يكتنفها من أخطار لعلهم يعون وينظرون فيها نظرة واقعية، ويعرفون على ضوء كل ذلك السبيل القويم الذي أوداه الإسلام للمجتمع. لقد استمر علي عليه السلام في نقده العنيف للمجتمع وكشف عيوبه بإصرار دؤوب ليس له حدود، ونعتقد أن ذلك النقد قد انبنى على خمسة محاور، كل محور منها نتيجة للذي قبله وهي:

ص: 399

---

1- خطب - 129 ، والحثالة - بضم الحاء الردي من كل شيء

## 1- استفعال الجهل والاستبداد بالرأي:

الجهل عاهة اجتماعية مزمنة وخطيرة فإذا ما طبقت على مجتمع ما، فنهايته الحتمية الزوال والاندثار، لكون كل فرد من أفراد ذلك المجتمع ويسبب جهل - يركب رايه ويتخبط في ضلاله بجانب تخبط الآخرين من ابناء مجتمعه، في ظلمة دامسة وذلك يؤدي، بطبيعة الحال، إلى التقوقع دخل الذات والتشبث بالرأي محافظة على الكيان الفردي. ومعظم فئات مجتمع علي عليه السلام من ذلك النوع الجاهل بعواقب الأمور، مما أدى إلى تشعب الطرق بينه وبينهم، فانعدمت قدرته على التفاهم مع جهلهم لأنهم «يعملون في الشبهات ويسيروا في الشهوات، المنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، وكان كل أمرى إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات، واسباب محكمة»<sup>(1)</sup> والاستجابة لشهوات النفس والنزول على رغباتها من اكبر معاول الهدم لكيان الفرد ركيزة المجتمع الأساسية، فإذا ما افتقد الفرد توازنه، انعكس ذلك الاختلال على المجتمع بقدر دوره وفاعليته، ما يؤدي في نهاية الأمر إلى شيوع الفوضى وانعدام رابطة التعاون.

## 2 - شيوع الفوضى وانعدام رابطة التعاون:

النظام من أهم العوامل الحضارة، وشيوعه في مجتمع ما يحتاج إلى مستوى ثقافي معين، والتزام خلقي يجعل من كل إنسان نغمة متجانسة في جوقة المجتمع بكل فئاته، فالفردية وإن كانت تلزم صاحبها بالإحساس بكيانه وتفرد، الا

ص: 400

---

1- خطب 87، والمعضلات: الشدائد المغلقة، والتعويل: الفزع والاعتماد

أنها في الجانب الآخر يجب ان تذوب في كيان المجتمع وتتفاعل معه بالأخذ والعطاء، ولا يتأتى ذلك لمجتمع جاهل، لأن الجهل ضد النظام، لذلك فقد صور علي عليه السلام مجتمعه الجاهل بانفلاته من النظام «كالإبل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر»<sup>(1)</sup> فالإبل هم عامة الناس الذين يجهلون مصائرهم بانقيادهم إلى زعاماتهم بالتعصب لهم ولآرائهم عن جهل لأن أولئك الزعماء، والقادة الذين يجرون وراء مطامعهم الشخصية، إنما يقودونهم لتحقيق مآربهم الشخصية، فالمجتمع بفئاته المتفككة الأوصال في صوب، والقيادة المستنيرة في صوب آخر، والمدارة والتؤدة في معالجة الاوضاع من لدن تلك القيادة لا تجدان نفعاً، ولا تعودان بفائدة في مجتمع لا تكاد نظرة جل أفراده أن تتخطى ذواتهم في نطاق دائرة الانتماء الضيقة التي حصروا فيها نفوسهم، مما جعل رابطة التعاون بين الفئات المختلفة، مبنية على أسس من المصالح الذاتية البحتة التي في معظمها لا تراعي القيم، ولا تأخذ من النظم إلا ما يتناسب وهواها، فتستحيل تلك النظم والقيم إلى أساليب جوفاء مائعة باعتماد تفسيرها من قبل أفراد المجتمع تفسيراً معكوساً، ومخالفاً عما تنطوي عليه من معان سامية هدفها سعادة الجميع.

### 3 - تقهر المثل وانتقال أوضاعها:

إن التراجع في مثل المجتمع وتحويرها لتلائم فئة معينة، ما هي في الحقيقة الا نتيجة حتمية لشيوع الفوضى وانعدام روح التعاون في بنيتها، لأن غلبة الذاتية تجعل كل فرد ينظر إلى القيم الاجتماعية من الزاوية التي تتمشى ومصالحته، فإذا تعذر عليه

ص: 401

الوصول إلى غايته، وحالت النظم الاجتماعية بينه وبين تحقيق رغباته، فإنه يلجأ إلى لي تلك النظم وتمويه الحقيقة(1) بما يكسب أفعاله الشرعية، على الأقل من الوجة الخارجية، بالباس الحق ثوباً شفافاً من الباطل، والمزج بين القيم الإنسانية والأفعال اللإنسانية، فيلتبس الأمر على عامة الناس من الجهال فينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، وقد عانت حكومة علي عليه السلام من استفحال هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي، فعبر عنها بقوله «انا قد اصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظالم عتواً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا»(2) فالانقياد الأعمى والإصرار على الجهل، ما هو إلا قلب لموازين القيم، وعدم تدبر العواقب والحساب لها، فإذا ما وقعت فجأة، قام الناس وقعدوا في محاولة منهم لمصانعتها والاحتياط عليها، هروباً من حلها حلاً جذرياً يلزم كل فرد بنظام معين أساسه التعاون والصدق ووضع الحق في نصابه، مما لا يتلاءم والمصالح الفريدة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل التفكك الاجتماعي للنفاق فيه مكان الصدارة فتنزع القيم وتضيع الحقوق.

#### 4 - غلبة النفاق وبروز ظاهرة العصيان وانعدام الرحمة:

ونتيجة لتقهقر القيم فلقد غلب على المجتمع الإسلامي - في عهد علي عليه السلام النفاق والخضوع الكاذب، والتملق للزعماء ذوي العصبية القبلية، المتظاهرين بالإصلاح، كأصحاب الجمل(3)، ومعاقبة ومن شايعه من المؤلفة قلوبهم(4).

ص: 402

1- راجع خطب 41

2- خطب 32 الفقرة الأولى، والعود: الجائر، والكنود: الكفور، القارعة: الخُطب والمصيبة

3- راجع ص 245 وما بعدها من هذا البحث

4- راجع ص 257 وما بعدها من هذا البحث

الذين ألبوا الناس على العصيان وألبسوا على المسلمين أمورهم - كل ذلك رغبة في الوصول إلى قلوبهم، وتحقيق المطامع المادية من السير في ركابهم، والنفاق كظاهرة اجتماعية سيئة موجودة، تعود الفرد إلى التعامل مع مجتمعة بشخصيتين متناقضتين، لأن ما يعبر اللسان عنه، يختلف تمام عما يضمره في داخله، فيكون الكذب هو أساس المعاملة بين مختلف فئات المجتمع، فتتعدم روح الإخلاص فيما بينهم، أما لرغبة، أو لرغبة، فيترتب على ذلك غربة المصلحين وضياع جهودهم، بغلبة الرياء والمداهنة، وقد اكتوى علي عليه السلام بذلك فجسده نقداً عنيفاً في قوله «اعلموا رحمكم الله أنكم في زمان، القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق قليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم معاذق، لا يعظم صغيروهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم»<sup>(1)</sup>، ومجتمع يمثل تلك الصفات، جُبل أفراده على الأعمال السيئة، والصفات الرديئة، يفتقر إلى الحب والاحترام والتعاون وتبني العلاقات فيه على المداهنة والغش والبغض لا بد أن يكون خلوا من روح التكافل الاجتماعي.

## 5 - انعدام روح التكافل الاجتماعي:

الاخوة في الإسلام تعني السلام والحب بأوسع معانيهما، والتكافل في جميع ميادين الحياة بين مختلف الفئات الاجتماعية، فأساس قوة المجتمع من وجهة نظر الإسلام التعاون على فعل الخير، ونبذ الشر طبقاً لقوله تعالى:

ص: 403

---

1- خطب 23- الفقرة الثانية وكليل ضيف غير قاطع، معتكفون مداومون ومستمرون، الإدهان الغش، وإظهار الشيء على غير حقيقته، العارم الخبيث الشرير، معاذق غشاش ومذق اللبن خلطه بالماء، يعول يطعم ويكسي

«تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»<sup>(1)</sup> وهي دعوة صريحة لا لبس فيها يهدف الإسلام منها تماسك البنية الاجتماعية بشد بعضها البعض، ولكن المجتمع الذي عاش علي عليه السلام ضمنه - فيما يبدو - لم يعرف أكثر أفراده من الإسلام الا اسمه<sup>(2)</sup>، فأصبحت النفوس تنضح بالخبث، واستكن السوء والشر والاستغلال في ضمائر الأقوياء، فانعدمت بسبب ذلك مقومات التكافل الاجتماعي المبني على حاجة الناس لبعضهم البعض، لكون طبيعة العمران تقتضي ذلك التعاون<sup>(3)</sup>، مما يعني ضمناً أن الترابط الاجتماعي ظاهرة فطرية في الإنسان، ولا يستطيع معرفة مدى قوتها أو ضعفها الا من خلال ممارسة الفرد لها داخل البناء الاجتماعي الذي يؤثر فيها سلباً وإيجاباً، ويعتبر التجانس<sup>(4)</sup> من أهم العناصر التي تؤكد التكافل الاجتماعي في الفرد، ولما كان التجانس أنواعاً من حيث القومي ومن حيث اللغة، ومن حيث الطبقة الاجتماعية، فقد تصور علي عليه السلام - كما يبدو لنا - إن أنواع التجانس تلك كلها جانبية إزاء مفهوم الإسلام للتجانس الوارد في الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات، فالآية الكريمة تقرر في مضمونها بأنواع التجانس، ولكنها تضعه كمقياس للرابطة الاجتماعية، لأن التعاون الذي هو أساس التكافل الاجتماعي هو القاعدة التي يركز عليها الإسلام في بناء المجتمع ويؤيد ما ذهب إليه من تفسير سياق الآية في قوله تعالى:

ص: 404

1- المائدة / 2

2- راجع خطب - 240 فقرة 20

3- راجع ص 362 وما بعدها من هذا البحث

4- راجع المواطنة في مفهوم علي عليه السلام ص 317 من هذا البحث

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»(1). وإذا ما نحن تحولنا بفكرتنا تلك،

لنسبر على ضوئها فكر علي عليه السلام إزاء الأسباب التي أدت إلى فصم عرى التكافل في مجتمعه، فسنجد ان ذلك يكمن في التناقض بين معرفة الأخوة الإسلامية وبين تطبيقها على صعيد الواقع، خاصة بالنسبة لأولئك العرب الذين يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، ويمكننا استخلاص ذلك من قوله «إنما أنتم اخوان على دين الله، ما فرق بينكم الا خبث السرائر، وسوء الضمائر، فلا توازرون، ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادون»(2) فأولئك الناس الذين يتحدث علي عليه السلام إليهم، يعرفون حقيقة الإسلام الاجتماعية، ولكنهم لا يعملون بتعاليمه، لأنها كما يتهيأ لهم - تنقص من مصالحهم، وتحد من طموحاتهم، ولا تمكنهم من فرض نفوسهم كأسياذ كل حسب منزلته الاجتماعية(3).

لقد ولد ذلك التفتت في بنية المجتمع الإسلامي في عهد علي عليه السلام - ظواهر اجتماعية خطيرة من ظلم وجوع وفقير واستبداد، فانجر عن تقشي تلك الظواهر بروز طبقة عريضة من عامة الناس الذين اسماهم علي عليه السلام بالهمج الرعاع لأنهم «أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح»(4) وأولئك الناس يشكلون البنية التحتية للمجتمع من عمال وفلاحين وصناع وبنائين وخبازين ونساجين، وتوفير الفراغ لأولئك وعدم مراقبتهم في اعمالهم فيه مضرة للمجتمع، وهدم

ص: 405

1- الحجرات/ 13

2- خطب 122، الفقرة الثانية - وتوازرون - بفتح التاء والواو - تتعاونون، وتباذلون بفتح التاء والباء، تتفقون الأموال في الله على بعضكم البعض

3- راجع تصنيف الناس في فكر علي عليه السلام وطريقة تفكير كل صنف، خطب 32 الفقرة الثانية والثالثة

4- حكم- 145



أركانه بنقص احتياجاته لأنهم كما يرى علي عليه السلام «إذا اجتمعوا ضروا»<sup>(1)</sup> لما يحدثوه باجتماعهم من فوضى تسبب في زعزعة الأمن، واختلال النظام، وتعطيل الخدمات العامة، وحتى نجس المجتمع ما ينجم عن اجتماعهم منمضرة، يتحتم على الحكومة تفريقهم لأنهم إذا تفرقوا نفعوا، لرجوع كل منهم إلى مهنته «فينتفع الناس بهم»<sup>(2)</sup>. ولكن ذلك لا يعني أن علياً عليه السلام برأيه ذلك يريد أن يجعل من أولئك طبقة دنيا همها الوحيد تهينة احتياجات الطبقات العليا والسهر على مصالحها فهو لا يقصد من تفريقهم تفتيت الرابطة الاجتماعية، والقضاء على روح التعاون بين الفئات المختلفة، ولكنه يرمي من وراء ذلك التفريق اشغال كل فرد بتأدية واجبه تجاه غيره في مجتمع يصون الحقوق، وعلى ذلك فإن النظام ويحافظ على مصالح الجميع دون استثناء ولا تفضيل على ذلك فإن النظام الطبقي بمفهومه التمايزي يختلف اختلافاً جذرياً عن المفهوم الإنساني للطبقات الاجتماعية عند علي عليه السلام.

ص: 406

1- حكم - 197

2- حكم - 197

إذا ما أردنا الدخول في فكر علي عليه السلام الأخلاقي - كما ورد في نهج البلاغة - يجب أن نضع جانباً التعريفات والنظريات الفلسفية لعلم الأخلاق لأننا لن نجد فيما أثر عن علي عليه السلام أي تعريف فلسفي، لكون النهج يعرض علينا من خلال نصوصه، ما أثر عن علي عليه السلام من مأثورات تتعلق مباشرة بالقيم الخلقية التي يجب أن تمارس على أرض الواقع في المجتمع، فإذا كان الفلاسفة والأخلاقيون قد حاولوا تعريف القيمة فإن علياً عليه السلام قد باشر من خلال مسؤولياته كقائد إصلاح، في وضع القيمة موضع التنفيذ، بحث يتعذر علينا فهم أبعادها وآثارها إلا من خلال الممارسة التطبيقية لها لا من خلال دراستها دراسة (1) نظرية بمقارنتها

ص: 407

1- يقسم الأخلاقيون علم الأخلاق على قسمين: نظري وعملي، والأخلاق النظرية كما أعتقد هي تعريف فلسفي للفضائل وعلاقتها ببعضها ببعض ودراسة تاريخها من حيث أزلتها، ووصف آثارها في النفس الإنسانية وهي كما نلاحظ دراسة فلسفية محضة المراد منها التعرف على القيم بوصفها وصفا خارجياً عن طريق التعريفات النظرية. مع الإدراك بأن هذه التعريفات لا تعلم الإنسان الأخلاق، ما لم يباشر الفضائل مباشرة عملية، راجع على سبيل المثال معاني العادة والخير في الباب الأول والثاني والثالث من الكتاب الأول من (علم الأخلاق لأرسطو) ويصدد الفصل بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية يقول (أمانويل كانت) في كتابه (تأسس ميتافيزيقيا الأخلاق) ص 9 (أما والقانون الخلقي في نقائه وإصالته - وعلى هذين يعول السلوك العملي - يمكن البحث عنه في غير فلسفة نقية خالصة فلا بد لهذه الميتافيزيقية أن تسبقه وتقدم عليه، وبغيرها لن تقوم لفلسفة أخلاقية وجود، بل إن الفلسفة التي تخلط تلك المبادئ الخالصة بالمبادئ التجريبية لا تستحق أن تسمى فلسفة «فالمقولة تعول على الدراسة في أصل القانون الخلقي دراسة ما وراثية، ومن ثم فإنها تفصل بين المبادئ الخالصة التي اعتقد إنها المثال الذي يبحث الإنسان عنه ويتوق إليه والمبادئ التجريبية التي تنتج عن راسة الأخلاق كما تلحظ مباشرة الإنسان لها مع ملاحظة أن (كانت) في تسميته للأخلاق العملية بالتجريبية لأنها «تتناول بالبحث فكرة ومبادئ إرادة خالصة ممكنة» بل «تتناول أفعال وشروط فعل الإرادة الإنسانية بوجه عام» ص 11 وهذا في حد ذاته فصل بين الأخلاق النظرية المتمثلة في الفلسفة، والأخلاق العملية كواقع محسوس في حياتنا العملية، ومن الذين قسموا الأخلاق إلى هذين القسمين محمد عبد الله دراز في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) فقد أفرد باباً للأخلاق العملية، اقتصر فيه على نصوص من القرآن الكريم من ص 725 حتى ص 771. وبشأن تقسيم الأخلاق إلى نظري وعملي راجع أيضاً منصور رجب تأملات في فلسفة الأخلاق ص 38 وما بعدها

بمثيلاتها أو بما يقابلها من أفعال، يجدر التنبيه بأن فلاسفة الأخلاق أنفسهم، يدركون تماماً بأن دراساتهم ونظرياتهم لن تجدي نفعا ولن توتي ثمارها إلا إذا طبقت، يقول أرسطو «في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظرياً بالقواعد، بل هو تطبيقها، ففيما يتعلق بالفضيلة، لا يكفي أن نعلم ما هي، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها»<sup>(1)</sup> وفي نفس المساق يأتي

ص: 408

يقول علي «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل» (1) فالعلم النظري في فكر علي عليه السلام ليس بذى قيمة ولا تأثير إذا لم يقرب بالتطبيق، ومن هذا المنظور كان يباشر بتطبيق ما يقوله مبتدئاً بنفسه لأنه القدوة والرائد طبقاً لقوله «إني والله لا أحثكم على طاعة الا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأنهاى قبلكم عنها» (2) وهذا يعني أننا في دراستنا للجوانب الأخلاقية في فكر علي عليه السلام كما بثها في مؤثراته سنتناولها بالبحث باعتبارها أخلاق عملية محاطة بسياج متين من الدين، مع دراسة لظروف تحصيلها من حيث الغريزة والاكتساب، ومن ثم نوعية اختصاصها بالفرد وبالمجتمع وبالتالي المرتكزات الأساسية لتلك القيم ومدى ملائمتها لواقع الإنسان.

## 1- العلاقة بين الأخلاق والدين في فكر علي عليه السلام:

يكاد الكثير من علماء الأخلاق أن يميزوا بين الأخلاق الدينية وبين الأخلاق في القانون الوضعي (3)، ولكننا بدراستنا للأخلاق الإسلامية لا نجد «ثمة تمييز بين القانون والواجب الخلقي (4). فإذا كان أولئك ينظرون إلى الدين نظرة تجريدية، فإن بنظرتهم تلك لا يمكن تطبيقها على الإسلام لأنه «على العكس م ذلك، ظاهرة مجسدة تماماً وينبغي ان يدرك بكيته وخارج حدود الزمان» (5).

ص: 409

1- حكم -372

2- خطب 177 فقرة 3

3- للاطلاع على تلك الآراء كاملة من الناحيتين التاريخية والفلسفية راجع وليام ليلي المدخل إلى علم الأخلاق ص 445 وما بعدها ترجمة علي عبد المعطي أحمد

4- مارسيل بوازار إنسانية الإسلام ص 18

5- المصدر السابق، ص، 38

فالقائمة الأخلاقية من المرتكزات التي انبنت عليها دعائم الإسلام منذ بداية ظهوره وانتشاره، فحين سأل نجاشي الحبشة الذي لجأوا إلى بلاده من المهاجرين الأولين عن دينهم الذي فروا به من اضطهاد قريش، أجابه جعفر بن أبي طالب(1) بالقول «كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام... حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ومخلع ما كنا نعبد واباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصللة الرحم وحسن الجوار، واكلف عن المحارم، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات...»(2) فالعقائد والعبادات ليست مجرد طقوس إليه يمارسها المسلم، إذ يجب أن تدرك معانيها وأن تطبق تطبيقاً عملياً كيلا تكون معان مجردة، فمعنى الإيمان كما يقول علي عليه السلام: «معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»(3) فهناك تلازم تام بين المعرفة والقول والعمل، فقول علي عليه السلام على سبيل المثال للإنسان «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»(4) مبنية على مضمون عملي يكمن في العبادات المتمثل في قول المسلم

ص: 410

1- جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخو علي ابن أبي طاب عليه السلام لأبويه، وهو جعفر الطيار، كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خَلْقاً وَخُلُقاً، اسلم بعد إسلام أخيه علي عليه السلام بقليل، روي ان أبا طالب رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام يصليان، وعلي عليه السلام عن يمينه، فقال لجعفر: صل جناح ابن عمك وصل عن يساره، وله هجرتان: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى المدينة، استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان هجرية راجع: أسد الغابة 1/ 341 وما بعدها

2- ابن هشام السيرة 1/ 359 ، 360

3- حكم 225 وراجع أيضاً الحكمة 122

4- رسائل 31 فقرة 21

في صلواته الخمس يومياً «الله أكبر، ومعناه أن العقل الفاعل إذا تفكر في عمق المقولة سيجد نفسه قد اوصد الباب في وجه كل عبودية... وانه اعلن نفسه وحقق ذاته حراً بشكل أساسي(1) وهذه الحرية المؤمنة تعطي الإنسان احساساً بالأمان فيندفع إلى الاصلاح والبناء داخل المجتمع نفس مطمئنة دون رهبة من أية قوة مهما عظمت، ومن خلال ذلك الاعتقاد الحر يبني اقتناعه على «أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله وانهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق»(2) لاعتقاده القوي الراسخ بأن المحيي والرزاق هو الله سبحانه. فالقاعدة الأخلاقية الإسلامية كما نستخلصها من فكر علي(3) مشيدة على «معايير الهي وعقلي وتطلق منه إلى التطبيق العملي» فالشيء يوصف بأنه لقي أو غير خلقي، وعطي قيمته من هذه الناحية أو تلك، من خلال ممارسته كواقع، ويشمل ذلك كما يرى علي عليه السلام كل ما نص عليه السلام من عقائد وعبارات وأوامر ونواهي، ويمكن استنتاج ذلك من قوله «فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبباً للرزق، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق، والحج تقربه للدين، والجهاد عزا للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الرحم منماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنا تحصيناً للنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادة استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق والسلام اماناً من المخاوف، والامانات نظاماً للأمة، والطاعة

ص: 411

---

1- إنسانية الإسلام السابق ص 116

2- خطب 156 الفقرة 50

3- محمد جواد مغنبة فلسفة الأخلاق في الإسلام ص 21

تعظيماً للإمامة»<sup>(1)</sup> فشمولية النص قائمة على نظام محكم من التلازمات الدينية وتنتاجها الاجتماعية بحيث لا يمكن بأية حال من الأحوال تجزئة المضمون إلى وحدات دينية وأخرى أخلاقية، وهذا يوصلنا - كما نعتقد - إلى نتيجة مفادها، ان فكر علي عليه السلام الأخلاقي بما حواه من شمولية وثناء نابع في الأساس - من معتقد ديني راسخ على قواعد متينة مرتكزاتها أن «لا تمييز في العقيدة الإسلامية بين الواجب القانوني والواجب الخلقى»<sup>(2)</sup> وقد توحى كلمة واجب في السياق على الالتزام الآلي اللاواعي بالنسبة للأخلاق، مما يحيل القيم إلى قوانين قسرية، لا دخل للإرادة الواعية في رفضها لكونها تابعة من إرادة إلهية، فإلى أي مدى يصدق ذلك على فكر علي عليه السلام الأخلاقي؟

## 2- الإلزام الأخلاقي كما يبدو في فكر علي عليه السلام:

من خلال دراستنا للأخلاق الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، يمكن أن نخلص إلى ان مباشرة المسلم لها والسير على هديها ينبع من اقتناع داخلي يلزمه بالتقيد بالقيم ويفرض عليه احترام الأخلاق بحيث يجعل من نفسه خصماً وحكماً في الوقت نفسه، فقول الرسول صلى الله عليه و آله «إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه»<sup>(3)</sup> يعني بأن الإنسان مزود بقدرات ربانية خفية تتحكم في سلوكه، وتبصره بالطريق السوي دون أي توجيه خارجي قسري، بناء على الحرية المستتيرة التي وهبها الله للإنسان، وهي التي

ص: 412

1- حكم - 251

2- انسانية الإسلام السابق ص 18

3- المتقي الهندي كنز العمال - 11 / 95

تحدد له واجبه الذي في مقدوره مباشرته أو غير مباشرته بمحض إرادته أما قول القائل: «صار واجباً بالإيجاب، حديث محض، فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه، فلا معنى لانشغالنا به، اوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه» (1). ولورجعنا إلى نظرة علي عليه السلام إلى معنى الالتزام الأخلاقي، لوجدناه لا يحدد عن النظرة السابقة، فالإنسان هو الذي يلزم نفسه، وبيادته الحرة باختيار السبيل السليم و«من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ» (2) فالمرقبة مستمرة في كل وقت وكل مكان، منعقدة بكامل اعضائها انى سلكت بنا السبل، كما نفهمه من قوله «اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم» (3). فالمسؤولية الأخلاقية هي التي تؤدي بحكم الفاعل على نفسه حيث يستحيل إلى سائل ومسؤول في ان واحد، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقتك» (4)، فالإلزام الخلقي - في فكر علي عليه السلام يكمن ان صح التعبير في الوجوب الاختياري، بمعنى أن النهج السوي المؤدي إلى السعادة يمكن للإنسان تمييزه واختياره، فالأوامر الإلهية لا تتسم بالإلزامية القسرية، فالخالق جل شأنه قد «أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً» (5)، وعلى هذا الأساس الأخلاقي المبني على الاقتناع الفكري، لم يلزم على عليه السلام احداً بالبقاء في جانبه، لا عن طريق الإرهاب، ولا عن طريق الاغراءات المادية وقد ترك لكل فرد في حكومته أن يختار طريقه بحرية بناء على الوازع

ص: 413

1- الغزالي - احياء علوم الدين 4/4

2- حكم - 87 ، 332

3- حكم - 87 ، 332

4- حكم - تنسيق الحكم 387 ، 76

5- حكم - تنسيق الحكم 387 ، 76



الأخلاقي الكامن في اعماقه، ورسالته إلى واليه على المدينة سهل بن حنيف، حين اعلمه بتسلل بعض رجاله خفية إلى معاوية، خير مثال لما نحن بصدده (1) مما يرمي إليه علي عليه السلام من وراء الغرض الوارد في صدر النص.

ولما كان الأمر والنهي الأخلاقيان نابعين من اختيار الفرد واقتناعه فلا بد لنا من معرفة المنابع التي تستقي منها الافراد والجماعات قيمها، كما ورد في فكر علي عليه السلام.

### 3- منابع القيم الخلقية في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة:

لكي تتمكن من معرفة القيم الأخلاقية في فكر علي عليه السلام، فلا بد لنا أولاً أن نقرر ما إذ كانت الأخلاق من وجهة نظر علي عليه السلام نظرية أم مكتسبة (2)، وهنا تستوقفنا الآراء الإسلامية فيما يتعلق بذلك الشأن، فقد ورد في الذكر الحكيم «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (3). وتفسير أهل السنة للآية - كما يبدو - يتفق والنظرة القائلة، بأن الأخلاق فطرية في الإنسان وعلى ذلك يجمع المفسرون بأن «الله تعالى خلق في المؤمن تقواه وفي الكافر فجوره»، (4)، اما الشيعة فيرون ان الأخلاق اكتساب على أساس التفسير القائل بأن الله تعالى عرف النفس «طريق الفجور والتقوى وان احدهما قبيح والآخر حسن،

ص: 414

1- راجع رسالة رقم 70

2- للأخلاقين آراء متضاربة حول القول بفطرية الأخلاق واكتسابها يمكن الاطلاع عند: مسكويه - تهذيب الأخلاق ص 51 وما بعدها، ومحمد بيضار العقيدة والاخلاق ص 226 وما بعدها

3- الشمس/ 7، 8

4- تفسير الرازي 31 / 93 / وراجع أيضاً تفسير القرطبي 20 / 75، 76، وتفسير ابن كثير 6 / 420

وممكنها من اختيار ما شاء منهما»(1) فالقدرة على الاختيار متساوية في كلا الاتجاهين «وإنه خلق سبحانه في نفس الإنسان الاستعداد للفجور والتقوى معاً لأن الإنسان إنما يكون إنساناً بحريته وارادته»(2) ويكاد المعتزلة يتفقون مع الشيعة في الاكتساب، مع فارق في تحديد معنى الإرادة عند الإنسان (3)، أما إذا ما تركنا التفسير القرآني جانباً لنستقرئ فكر الأخلاقيين المسلمين فسنجد مسكويه يقسم الأخلاق على قسمين: طبيعي ومكتسب (4)، إلا أننا نعتقد بأن وجهة نظره تتمثل في أن الاكتساب هو الجانب الرئيسي في عملية اقتناء الأخلاق لأننا بمقارنتنا بين تعريف الغزالي للأخلاق وبين تعريف مسكويه لها نجد أن التعريفين يتفقان بأن الأخلاق «هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر ولا رؤية»(5) ويعرفها مسكويه بأنها «حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رؤية»(6) ولو حاولنا فهم فحوى التعريفين من وجهة نظر الغزالي فسنجد أن قوله «هيئة في النفس راسخة» تعني أن النفس الإنسانية مزودة بجهاز غامض يمكنها من التقبل والاكتساب، وليس أدل على ذلك من تقسيمة هيئة الإنسان في اقتناء الأخلاق إلى أربعة أقسام: «الأول فعل الجميل والقبيح (معاً).

ص: 415

1- الطبرسي - جوامع الجامع 850/2

2- محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف 571/7

3- راجع ص 166 وما بعدها من هذا البحث وراجع معنى اللطف الذي يعول عليه الشيعة ص 183 من هذا البحث

4- راجع تهذيب الأخلاق ص 51

5- إحياء علوم الدين 52/3

6- تهذيب الأخلاق ص 51

الثاني - القدرة عليهما (معاً).

الثالث - المعرفة بهما.

الرابع - هيئة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين»(1).

فالشروط الأربعة بحسب ترتيبها تدل على القدرة والاختيار وهما عنصرا الاكتساب. أما ما ورد في التعريفين من قول بأن الأفعال «تصدر من غير حاجة إلى روية أو فكر» فليس المقصود منها - كما نعتقد العمل الآلي غير المدبر، وإنما يقصد بها التلقائية المتعلقة، لكون الإنسان في نظر الغزالي يستطيع التظاهر بالكرم وهو غير كريم، فالتظاهر هنا مدبر عن غير اقتناع، أما الكرم التلقائي فهو المدبر باقتناع ويصدر من الإنسان دون أي تعقيد أو ربط بالمظاهر الخارجية المقصود منها تبيان أثر الفعل»(2)، وعليه فإن أغلب الأخلاقيين المسلمين يقولون بالاكتساب الأخلاقي، ثم أن للرسول صلى الله عليه وآله من الأحاديث الشريفة ما يؤيد القول باكتساب الأخلاق من ذلك ما روي عنه صلى الله عليه وآله «مثل المجلس الصالح والمجلس السوء مثل صاحب المسك، وكبير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، أما تشتريه أو تجد ريحه، وكبير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة»(3) ورحم الله البوصيري حيث يقول (بسيط):

والنفس كالطفل ان تهمله شب \* على حب الرضاع وأن تقطمه ينظم (4) فالأخلاق ممارسة واكتساب، وهو ما يمكن استخلاصه من فكر علي عليه السلام،

ص: 416

1- احياء علوم الدين 52/3

2- راجع السابق

3- كنز العمال 9/9

4- ديوان البوصيري ص 191

ليس في نهج البلاغة فحسب، فقد ورد عند ابن عبد البر القرطبي «قال علي رضي الله عنه في قوله عز وجل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا»... علموهم وادبوهم»(1) فالوقاية من النار في فكر علي عليه السلام لا تكون الا عن طريق التعليم والتأديب، والتعليم عملية اكتساب كما يفهم من سياق الأمر في تعليقه على الآية الكريمة، ثم ان قوله «ان لم تكن حليماً فتحلم»(2) يعني ان التخلق هو البداية في طريق اكتساب الاخلاق، بمحاولة تدريب النفس على تقبلها بإيمان واخلاص. ولكون «الحكمة ضالة المؤمن»(3) في فكر علي عليه السلام، فإنه يحض على اصطيادها والافادة منها عن أي طريق ومن أي شخص حتى وان كان منافقاً «فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره، حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن»(4). ومصادر اكتساب الأخلاق متعددة واهمها:

## أ- الوراثة والبيئة:

تعرف الوراثة علمياً بأنها «انتقال صفات مميزة للفرد من جيل إلى جيل»(5) ويقسمها علم النفس على نوعين:

1- بيولوجية: وهي «ما تنتقل من الوالدين إلى المواليد بواسطة المورثات»(6)

ص: 417

1- بهجة المجالس 112/1

2- حكم - 205

3- حكم، 77

4- حكم، 78

5- يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية ص 715

6- فاخر عاقل - معجم علم النفس ص 52. والبيولوجية، Biologic هي الأحيائية ومشتقة من علم الأحياء المصطلح على تسميته Biology

اجتماعية: وهي «انتقال العادات والافكار عن طريق الاحتكاك الحضاري»(1).

وعلى ذلك فإن الاكتساب هو العنصر الرئيسي في كلا النوعين، وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يؤيد الاكتساب الوراثي، إذ يمكن استخلاص فكرة الاكتساب البيولوجي من قول رسول الله صلى الله عليه وآله «تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس»(2) وروي عنه أيضاً صلى الله عليه وآله قوله «اختاروا لنطفكم»(3). كما يمكن استخلاص الاكتساب بالوراثة الاجتماعية من قوله تعالى «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ»(4) فالسير على طريق الأجداد وانتهاج سبيل الآباء في الأخلاق والعادات من الموروثات الاجتماعية.

وإذا ما استفتينا فكر علي عليه السلام في نهج البلاغة، فلن نجد أثراً للمورث البيولوجي، لا لأن علياً عليه السلام - كما نعتقد - لم يتحدث في ذلك، ولكن اختيار نصوص النهج على أسس بلاغية، جعل جامعه يغفل كثيراً من النصوص التي لا تدخل ضمن منهجه(5). على أننا لا نعدم النصوص الكثيرة التي تقول بأثر المجتمع في تشكيل عادات الفرد وأخلاقه. فالشر كخلق سيء يتولد في نفس الفرد جراء احتكاكه بالأشرار، فكما يقول ضمن نصيحة له «إياك ومصاحبة

ص: 418

1- فاخر عاقل - معجم علم النفس ص 52

2- المتقي الهندي- كنز العمال 16 / 296

3- الكليني: فروع الكافي 5 / 332

4- الزخرف 22

5- راجع ص 37 ، 38 ، 123 وما بعدها من هذا البحث

الفساق فإن الشر بالشر ملحق»(1). فالعادات والتقاليد والاخلاق مورثات اجتماعية تنتقل بين الافراد مثلها مثل الوراثة المادية، كما يتبين من قول علي عليه السلام بأن «الضغائن تورث كما تورث الأموال»(2) أي تنتقل بين الأبناء جيلاً بعد جيل، فالبيئة الاجتماعية من العوامل الهامة التي تشكل اخلاق الفرد، وهي وان لم تستطع التشكيل الكلي، فقد تترك اثرها البالغ «فإذا احسست من رايك ياكداد ومن تصورك بفساد فانهم نفسك بمجالستك العامي أو السيء الفكر، وتدارك اصلاح مزاج تخيلك بمكاثرة أهل الحكمة، ومجالسة ذوي السداد، فإن مفاوضتهم تريح الرأي المكدود، وترد ضالة الصواب المفقود»(3) فمن المقولة نخرج بنتيجتين هما:

1- ان الإنسان في فكر علي عليه السلام - يكتسب الكثير من العادات واخلاق ممن يخالطهم من ابناء مجتمعه.

2- انه يمكنه التحكم في تلك المكتسبات بقبول الصالح ولفظ الطالحاعمال الفكر.

واذا كان للوراثة الاجتماعية اثرها البين في اخلاق الفرد فإن للبيئة الطبيعية أثرها أيضاً على سلوكه وتصرفاته.

والبيئة أو المحيط كمصطلح علمي «يشمل كل الحوادث الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والاجتماعية التي تؤثر من الخارج على العضويات»(4) والذي

ص: 419

1- رسائل - 69 - المقطع الاخير

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 302 ، 339

3- شرح بن أبي الحديد 20 / 302 ، 339

4- معجم علم النفس ص 40

نرمي إليه هنا البيئة الطبيعية (الفيزيولوجية). إذ يرى علماء الاجتماع والأخلاق العرب أن لتلك البيئة اثرها في ترفيق الأخلاق وخشونتها (1). ومن الطريف في هذا المجال ان الشاعر علياً بن الجهم (2) قدم من البادية إلى بغداد لمدح المتوكل العباسي (3)، قال فيه متمثلاً صور البادية وإخلاقها: (حفيف)

انت كالكلب في حفظك للود وكالتيس\* في قراع الخطوب

انت كالذئب لا عدمنك دلوا\* من كبار الدلا كثر الذنوب (4)

وقد انكر عليه الحضور ذلك، ولكن المتوكل ادرك ان امامه شاعراً جيداً يحتاج إلى صقل حضاري فهياً له كل اسباب البيئة الحضرية من نعيم وخضرة

ص: 420

1- راجع على سبيل المثال: رسائل اخوان الصفا 302/1، مقدمة ابن خلدون ص 109 وما بعدها

2- علي بن الجهم: من شعراء العصر العباسي المجيدين، له اختصاص بالمتوكل العباسي (ت 247) اشتهر بانحرافه عن علي بن أبي طالب، كان من ناقلة خراسان إلى العراق، ثم نفاه المتوكل إلى خراسان سنة اثنين وثلاثين ومائتين لأنه هجاه، ثم رجع إلى العراق ثم خرج إلى الشام، وحاول العودة إلى العراق بعد ان بارح حلب، فخرجت عليه جماعة من بني كلب وقتلته في شعبان سنة تسع واربعين ومئتين راجع ابن خلكان وفيات الاعيان 355/3

3- جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل عاشر حكام بني العباس، تولى الخلافة بعد اخيه هارون بن المعتصم الملقب بالواثق في سنة ثلاث وثلاثين ومئتين، وكان شديد الانحراف عن آل علي عليه السلام... وقال من يعتذر له، انه كان كاخيه المأمون في الميل إلى بني علي عليه السلام، وانما كان حوله جماعة منحرفون عن أهل البيت عليه السلام فكانوا دائماً يحملونه على الوقعة بهم. كان بينه وبين ابنه محمد الملقب بالمنتصر - مباينة وكان كل منهما يكره الآخر، فتآمر الابن مع جماعة من الأمراء على قتل المتوكل وكبير أمرائه الفتح بن خاقان، فهجموا عليهما في مجلس شراب وفتكوا بهما واشاعوا ان الفتح بن خاقان قد قتل المتوكل، فقتلوه به وذلك في سنة سبع واربعين مئتين. راجع ترجمته في السابق 350/1

4- راجع بشأن الابيات والحكاية بتمامها ابن عربي - محاضرات الابرار 8/2

وزهور، واختلاط بالطبقات الرفيعة، وبعد ستة اشهر من ذلك انشد المتوكل قصيدته المشهورة (طويل)

عيون المهابين الرصافة والجسر\* جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري(1)

وفي ذلك من الدلالات على أثر البيئة في اخلاق الفرد وتصرفاته واسلوب تعامله. والقرآن الكريم كما نعتقد يشير إلى ذلك ففي قوله تعالى:

«وَاللَّهُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُهُ إِلَّا تَكْدًا»(2)

ما يوضح ما نحن بصدد تبيانه، دون تحميل النص القرآني على النظريات الحديثة، إذ نلاحظ من خلال التفسير المأثور ان معنى الآية عبارة عن تمثيل لقب المؤمن والكافر والبر والفاجر بالأرض التي خلق الجميع منها (3) مما يعني ان البيئة لها دخل في تشكل خلق الفرد، وفي مآثورات الرسول صلى الله عليه و آله ما يشير إلى ذلك في قوله صلى الله عليه وآله «ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب، وبين ذلك»(4)، فكما يبدو من الحديث الشريف ان للوراثة والبيئة اثرهما في الشكل الخارجي للإنسان بالإضافة إلى تأثيرهما في

ص: 421

1- راجع بشأن الابيات والحكاية بتمامها ابن عربي - محاضرات الابرار 8/2

2- الاعراف / 58

3- محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف 3/343، وقد أورد خلاصة ما في التفاسير المأثورة - راجع على سبيل المثال: القرطبي الجامع لأحكام القرآن 7/231، الطبري مجمع البيان 7/84 راجع أيضاً - محمد رشيد رضا تفسير المنار 8/482 فقد علق على الآية الكريمة بأنها تشير إلى الوراثة، وهو - بحسب رايه - ما قال به علماء الاجتماع والفلاسفة العرب وما اثبتته التجار من بعد

4- المتقي الهندي - كنز العمال 6/128



تصرفاته واخلاقه، على اعتبار ان التربية هي الاصل وان «جميع الأرض» مختلف البيئات الطبيعية. وذلك بطبيعة الحال احتمال يمكننا على ضوئه الدخول في فكر علي عليه السلام، لمعرفة موقفه من ذات الموضوع الذي نحن بصدده، فلقد أورد جامع نهج البلاغة نصا يكاد يستلهم معانيه مما ورد في الحديث الشريف السابق، مما يعني ان علياً عليه السلام قد كان ينهل من معين الرسالة النبوية، فقلوه «انما فرق بينهم مبادئ طينهم، وذلك انهم كانوا فلقة من سيخ ارض وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب ارضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون...» (1) ما هو الا تفصيل وتوضيح لمجمل ما ورد في السنة النبوية الشريفة، مما يحدو بنا إلى الاعتقاد، بقول علي عليه السلام بتأثير البيئة الطبيعية ممتزجة بالوراثة الكامنة في الطينة الاصلية التي شكل الله سبحانه وتعالى منها الإنسان.

## ب - ترويض النفس:

ان الحرية التي اودعها الله سبحانه، الإنسان، تمده بطاقات عظيمة، تمكنه من أقلمة حياته في أية بيئة ينتقل إليها، مهما كانت مميزاتها الطبيعية والقانونية والاخلاقية، وقد يجد في نفسه في البداية بعض الصعوبات التي تعيقه عن تحمل الجديد، ولكنه سرعان ما يجد نفسه قد انقادت إلى ما تعاقبت عليه الجماعة سواء ابت أم رضيت، مما يعني ان بإمكان الفرد ان يتحكم في ارادته ويعود نفسه على نمط معين من العيش إذا ما اراد لذلك، بترويضها، وجعل ما تشتبهه، أو ما تسول به له، تحت سلطان العقل، الذي هو بمثابة الكابح والمنظم لكل الشهوات كي تتناسب والقانون الاجتماعي للوسط الذي يعيش فيه، وقد

ص: 422

جاء في الذكر الحكيم من الآيات التي تؤيد القول بمقدرة الإنسان على ترويض نفسه والتحكم في الحد من شهواتها (1) ، كما في قوله تعالى:

«وَالْكُظُمِيزَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» (2). فالغيظ وهو «درجة متعاضمة من الغضب» (3) يمكن للإنسان إذا ما غلب عقله على عاطفته ان يطفى ثائرته ويقربها داخل نفسه بردعها وتصبيرها وتهوين الوقع عليها، لذلك فإن قوة الإنسان الحقيقية من وجهة نظر الإسلام ان يتمكن من التصدي لرغباته، وجعلها في المستوى المعقول الذي أراده الله لها فإن «خير الأمور اوسطها» (4). ويفهم مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله، ان ليست الشجاعة في قوة الجسم والبطش، ولكن الشجاعة الحققة تكمن في القدرة الفائقة على التحكم في النفس وكبح جماحها (5) لترضخ لنداء العقل وتستجيب للوازع الأخلاقي الذي يهيهء لها جو التعايش ضمن المجتمع باتزان. وبشأن ترويض النفس - كما يبدو في فكر علي صلى الله عليه وآله - يقف سائلاً إياها «متى اشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي:

لو عفوت؟» (6) وهنا تتابنا فكرة الصبر الاجباري، والعضو الاختياري، إذ في كلا الموقفين يتجلى صراع العاطفة والعقل، وفي كلا الموقفين يتضح

ص: 423

---

1- كما في قوله تعالى: «وَأَمَّا مَا مِنْ خَافٍ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» ونهي النفس ردعها وترويضها، النزاعات / 40 ، 41

2- ال عمران / 134

3- معجم علم النفس ص 94

4- من حديث شريف رواه الراغب الاصفهاني محاضرات الأدباء 1/ 449

5- راجع قول الرسول صليالله عليه وآله «ليس الشديد... الحديث» كنز العمال / 3

6- 521 حكم - 192

الترويض النفسي، ولكن الترويض في حالة الاجبار والقسرة لا يكون انتصاراً ولكنه انكسار ينكبت في الاعماق، ويتحول إلى شهوة في الانتقام حال الشعور بالقوة، اما في حالة العفو الاختياري، فيشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة بنزع شهوة الانتقام من النفس تلقائياً لا عن طريق الضغط الخارجي وبهذا يتمكن الإنسان من تعويد نفسه على ما يطابق الخير والواقع في آن واحد. وقد تبنى علي عليه السلام، ومن منطلق قوة الاختيار الثاني، فهو الخليفة الذي تجرى بين يديه ثروات الدولة الإسلامية يقول مقسماً «وأيم الله - يمينا أستثني فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص، إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينهما» (1)، وهو حين يعاهد نفسه على ترويضها، لا يقصد تجويعها أو ايداءها، ولكن الرياضة في مثل موقفه ذلك مسؤولية تجاه من ولي امرهم من الفقراء والمستضعفين، حين يرى ان من الواجب عليه ان لا يقنع بالمنصب دون ان يشارك جميع طبقات الأمة آلامهم، فالجوع هنا جانب من الجوانب الخلقية التي ارتضاها لنفسه في محاولة منه لترويض نفوس الطبقات الفقيرة حتى يتمكن من تعديل حالهم، لذلك نجده في كثير من وصاياه، وحكمه (2)، يحض على الترويض النفسي، منه قوله

ص: 424

1- رسائل 45 فقرة 5. وتهش: أي تنبسط وتفرح من شدة الحرمان، ومطعوماً حال من القرص أي مأكولاً، ومأدوماً، حال من الملح: أي ما يؤدم به القرص، لأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها: أي لأترك عيني مثل عين غار معينها أي ماؤها الجاري، ويقول محمد عبده: «اي ابكي حتى لا تبقى دمع» شرح النهج ص 509 الأندلسي - ونحن لا نتفق معه في ذلك لعدم اتفاق السياق مع ما رمى إليه، ونعتقد ان علياً عليه السلام قد اراد بالقول: استفراغ كلما في العين من نظرات الطمع والقناعة بأقل القليل

2- راجع خطب 75، 82 فقرة 8، 86 الفقرة الأولى، وايضا شرح ابن أبي الحديد 20 / 258 حكمة رقم 25، وص 296 حكمة رقم 382

«من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ»(1) فالواعظ المنطلق من داخل النفس ذاتها يجنبها كل المداحض والمزالق وضمن وصيته لابنه الحسن عليها السلام يقول «اخي قلبك بالموعظة، وامته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة...»

ومرارة اليأس خير من الطلب من الناس، والحرقة مع العفة خير من الغنى مع الفجور...»(2) فالخير كامن في اعماق الإنسان وإثارته فيه لا يكفي مالم تروض النفس عليه بإظهار كفعل وتصرف، وان احتاج إلى مشقة وجهد، فبالترار يستحيل إلى عادة وينغرس كجبله، يتوق الإنسان إلى مزاولتها كلما عاش نشوة مردودها في نفسه وفي الناس، فيستحيل الفعل إلى قدرة يتمثلها الناس في تصرفاتهم وافعالهم.

### ج- القدوة الحسنة:

القدوة هو المثال أو النموذج والافتداء، هو النظر في اقوال وافعال ذوي الأخلاق الفاضلة والاعمال الحميدة، والاخذ بأحسنها، فلكل انسان، مهما عظم شأنه، قدوة، حتى النبي صلى الله عليه وآله، فقد جاء في قوله تعالى:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ»(3) فالآية الكريمة، أمر الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله، بأن يأخذ بمسلك من سبقه من الرسل، والسير على نهجهم، والاسلام يلزم الفرد المسلم بالافتداء بالنبي صلى الله عليه وآله، في أقواله وأفعاله

ص: 425

1- حكم - 97

2- رسائل 31، فقرة 22، 4

3- الانعام/ 90

وأخلاقه، فقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله «فمن اقتدى بي فهو مني ومن رغب عني فليس مني» (1)، لذلك فقد اتبع علي عليه السلام الرسول صلى الله عليه وآله «اتباع الفضيل أثر امه» (2). فكان صلى الله عليه وآله قدوته ومثله الأعلى الذي لم يحد عن سنته ما في قوله إلى طلحة والزبير ضمن حوار بينه وبينهما بعد توليه الخلافة «لما أفضت إلي، نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن النبي فاقنته» (3). ولقد كان من أهم أهدافه أن يسير بالأمة على الدرب الواضح الذي اختطه الرسول صلى الله عليه وآله، فما أثر عنه في ذلك قوله «اقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن» (4). فمن خلال معاشته للنبي صلى الله عليه وآله وممارسته العملية لأخلاقه والارتواء من معينها الصافي الثر، تكون لديه اقتناع تام بتأثير القدوة في تصرفات الفرد، ويبدو ذلك ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام بقوله «واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي، تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك، والاختصاص بما مضى عليه الأولون من آباءك، والصالحون من أهل بيتك» (5) فالإقتداء بالمثال الجيد يمد الأخلاق بشمولية واتساع، مثلها في ذلك مثل الإفادة من تجارب الآخرين يتأملها يامعان ومن ثم إضافة خلاصتها إلى التجربة الخاصة، فتصير أكثر عمقاً، وأشد احكاماً لذلك فلا بد ان يكون «لكل امام مآثور يقتدي به ويستضيء بنوره» (6) فمن الاجدى ان يختار الفرد

ص: 426

- 1- مسند الإمام أحمد 5/ 409
- 2- خطب - 240 - الفقرة - 26
- 3- خطب - 199
- 4- خطب - 109
- 5- رسائل - 31 الفقرة 7
- 6- رسائل - 45 - فقرة 2

قدرته الصالحة التي تستطيع أن تمده بروافد غنية من مخزونها الأخلاقي الذي يعود عليه بالسعادة ويجعله منسجماً مع أفراد مجتمعه.

## جماع القيم الخلقية في فكر الإمام علي عليه السلام

علاوة على ذلك، يتضمن النهج أيضاً أساليب أخرى يمكن اعتبارها من المصادر الهامة في اكتساب الاخلاق، كالنظر في سير الماضين والاتعاظ بما حدث لهم إذ يعد علي عليه السلام العيش بالروح والفكر مع أولئك الماضين جزءاً هاماً من تجاربه الحياتية الخصبة. ويمكن استخلاص ذلك من قوله ضمن وصيته لابنه الحسن «اي بني، وان لم اكن عمرت عمر من كان قلبي، فقد نظرت في اعمالهم، وفكرت في اخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى غدوت كأحدهم، بل كأني بما انتهى الي من امورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره»<sup>(1)</sup>. وبتبصره ذلك، وعمق نظرتة في مجريات الحوادث، يرى أن من اللازم على الإنسان المتدبر في أمور الحياة، أن يجول بعقله في التاريخ، ليتعظ بحوادثه ويتأملها بروية وعمق، لأنه يستمد منها الكثير من الخبرات والقيم الإنسانية التي تكون له زاداً فكرياً يعول عليه في مسيرة حياته، فمن منطلق تجربته يقول لابنه الحسن «آخ قلبك بالموعظة... وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فأنظر فيما فعلوا، وعمما انتقلوا، واين رحلوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلوا ديار الغربة وكأنك عن قريب قد صرت كأحدهم»<sup>(2)</sup> فالتأمل

ص: 427

1- رسائل 31 - الفقرة - 4، 6

2- رسائل 31 - الفقرات - 6، 4

في التاريخ - كما يفهم من كلام علي عليه السلام - يمنح الفرد دفعات من الإيمان المتأنى، الذي يكسبه حب الخير للناس، والثقاني في خدمتهم لأن تشبع روحه بالإيمان يجعله يدرك انه لا يملك مما تحت يديه شيئاً الا ما كتب له التصرف فيه، حتى حياته. فخلاصة العبرة تأمل استبطاني عميق في مجريات الحوادث لكسب الخبرة العملية التي هي بمثابة الزاد العقلي والروحي الذي يغذي روح الإنسان، ويحافظ على اتزانها إزاء مغريات الحياة، وينحوبها إلى التعايش في المجتمع بما يتناسب والمثل العليا التي يطمح علي عليه السلام إلى إرسالها. ثم إن هناك الاكتساب الخلقي عن طريق النصيحة المباشرة التي يحتاجها جل الناس، ولكن لا يعيها من وجهة نظر علي عليه السلام الا العقلاء، أما «البهائم لا تتعظ الا بالضرب» (1).

تلك إذن هي أهم المصادر التي يكتسب منها الفرد قيمة الخلفية، كما يبدو في فكر علي عليه السلام، وهذا ينقلنا بدوره إلى تأمل تلك القيم. والحقيقة التي يجب ان توضح في هذا المجال ان ما ورد في النهج من نصوص قد بني على دعائم أخلاقية هدفها كرامة الإنسان وتوفير السعادة له، بحيث لا يمكن لدراستنا الإمام يبحث كل تلك القيم، فمن مكارم الأخلاق التي عرض لها النهج «السخاء، والحياء، والصدق، والأمانة، والتواضع، والغيرة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والشكر» (2) ويتحدث علي عليه السلام عن اهمية بعض القيم الخلقية فيقول «الجود حارس الأعراض، والعلم فدام السفية، والعفوزكاة الظفر، والسلو عوضك عن غدر، والاستشارة عين الهداية... والصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان، واشرف الغنى ترك المنى... ومن التوفيق حفظ التجربة، والمودة

ص: 428

1- رسائل 31 - الفقرة 24

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 375

قراءة مستفادة، ولا تأمنن ملولا»(1) فتلك إذن بعض القيم الخلقية التي نجدها ماثورة في تضاعيف نصوص النهج القصيرة والطويلة، خطب كانت أم رسائل أم وصايا أم حكم، وهي تارة ما تكون موجهة إلى فرد بعينه، وتارة أخرى نجدها موجهة إلى جميع أفراد الأمة، ولكن بتأملنا في تلك القيم الخلقية مجتمعة يمكننا اجمالها - كما يتهيأ لنا - في ثلاث هي: العدل، والحق، والتقوى.

## 1- العدل:

يعد حكماء اليونان العدل من الفضائل الأربع الرئيسية (2)، والثلاث الباقية عندهم هي: الحكمة، والشجاعة، والعفة ويعرفه أرسطو (ت 322 ق.م) على أنه «ذلك الكيف الأخلاقي الذي يحمله الناس على اتیان اشياء عادلة والذي هو العلة في فعلها وفي ارادة فعلها»(3) فالعدل عند أرسطو - على ما يبدو - ليس ملكة فطرية لأنه حالة أو كيف، يمكن إدراكه من الأمور المضادة له، أي من الظلم، وهو على كل حال تعريف فلسفي، يكاد يقترب في مفهومه من التعريف اللغوي القائل بأن العدل «هو ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور»(4) فهو إذاً إحساس أو حالة داخلية، وقد عرفه المعجم بما يقابله في اللغة، ولم يحاول ان يبين لنا أنواع العدل، أما التعريف الكلامي فلا يمت إلى دراستنا عن العدل الأخلاقي بأية صلة، لأن العدل عند المتكلمين يبحث

ص: 429

1- حكم - 209

2- راجع خياط معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 434

3- علم الأخلاق 2/ 55

4- لسان العرب - مادة عدل



«في العلوم المتعلقة يتنزه الباري عن فعل القبيح والاخلال بالواجب»<sup>(1)</sup>، ولكن من خلال تعريفهم يمكن ان نخلص إلى ان العادل هو الذي يحاول تجنب فعل القبيح، وينأى بنفسه عن الاخلال بالواجب<sup>(2)</sup>، الا اننا مازلنا ندور في فلك التعريف الفلسفي للعدل، والتقصير على التنظير، علاوة على ذلك فإننا لم نتمكن من معرفة الميادين الأخلاقية التي توصلنا إلى ادراك مفهوم العدل كقيمة خلقية، مما يلجئنا إلى الاستعانة بالتعريف الشرعي، فقد يكون أكثر تحديداً ووضوحاً بقوله ان العدل «عبارة الاستقامة على طريق الحق بالاختيار عما هو محظور ديناً»<sup>(3)</sup> فالعدل من وجهة نظر اسلامية قيمة خلقية ذات اهمية كبيرة جدا بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء، حتى لنكاد نتصور استحالة الحياة في مجتمع يفتقر إلى ابسط قواعد العدل، وهو على ما يبدو من خلال ممارسته «نوعان: نوع يوصف به الفرد فيقال انسان عادل، ونوع يوصف به المجتمع والحكومة»<sup>(4)</sup>. وقد امرنا القرآن الكريم بمباشرة العدل في جميع مجالات الحياة، ونظراً لقيمته الأخلاقية الهامة والكامنة اولا وقبل كل شيء في تفاهم الفرد مع نفسه كما في قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ»<sup>(5)</sup> وبرز العدل أيضاً كمنظم للمجتمع في مجال العلاقات الاسرية، حيث يرى

ص: 430

1- الطريحي - مجمع البحرين 5/ 420، 421

2- راجع - الشريف المرتضى - رسائل الشريف المرتضى 3/ 12، القاضي عبد الجبار فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 348

3- مارسيل بوزار - إنسانية الإسلام ص 130

4- أحمد أمين - كتاب الأخلاق 220

5- النساء / 135

الإسلام استحالة تحقيقه، إذا ما تفرعت الميول وتعددت الاتجاهات ففي مجال تعدد الزوجات جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى:

«وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ»<sup>(1)</sup>

فاستحالة تحقيق العدل في العلاقات الاسرية ينتج، كما يبدو من فهمنا للآية الكريمة، من تحكيم العاطفة وتغليبها على العقل، لذلك جاء الأمر بالعدل حتى في الأقوال مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك دون وضع أي اعتبار لأية صلة في قوله تعالى:

«وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى»<sup>(2)</sup>، وإذا ما تركنا العدل الأخلاقي في نطاق الاجتماعي الضيق المحصور في الأسرة، فإن الإسلام يوسع من دائرته لجعله يشمل جميع العلاقات الإنسانية بأوسع معانيها، ففي مجال القضاء والحكم يقول عز وجل:

«وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»<sup>(3)</sup>، ولم يقصر الإسلام

طلب العدل على القضاة وحدهم، بل جعله من مسؤولية الشهود أيضاً كما ورد في الذكر الحكيم:

«وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ»<sup>(4)</sup>. ثم ان العدل يجب

أن يكون العنصر الأساسي في المعاملات بين الناس، بضبطها ضبطاً محكماً، تحت إشراف عدول لا يزيغ بهم الهوى كما في قوله تعالى:

ص: 431

1- النساء / 129

2- الانعام / 152

3- النساء / 58

4- الطلاق / 2

«وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ»(1). والكتابة هنا تشمل - كما نعتقد جميع المعاملات التجارية والصناعية والاقتصادية وحتى الاتفاقيات السياسية، وكل ما يربط الإنسان بأخيه الإنسان من علاقات ومعاملات. والعدل الساسي في الإسلام يقتضي أيضاً التصدي للمعتدى وإن كان مسلماً، وردعه بالوقف في صف العدل، دونما تحيز لفئة لإرضاء فئة أخرى كما في قوله تعالى:

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»(2). ولكن ليس معنى هذا ان الإسلام يقصر العدل على المسلمين دون المشركين، لأن العدل في المفهوم الإسلامي «حق طبيعي للإنسان يستمدده بمقتضى كونه انساناً لا بمقتضى انه مسلم، ونظر فيه إلى الحق الاناني العام من غير نظر إلى لون أو جنس أو دين»(3). فالحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية ينص على ان العدل ليس قصراً على فئة اجتماعية معينة، فقله تعالى:

«حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»(4) شامل لجميع الناس، واذا كان أفلاطون قد عد ان «الفضيلة في النفس هي العدالة»(5) فإن الإسلام قد احكم العمل بتلك الفضيلة، فقد ورد العدل في القرآن الكريم في معظم الحالات

ص: 432

1- البقرة/ 282

2- الحجرات/ 9

3- محمد أبو زهرة - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ص 201

4- النساء/ 58

5- جمهورية افلاطون 9

بصيغة الأمر مما يعني في حد ذاته وجوب العمل به في كل الأحوال وعلى جميع المستويات، لذلك رفض النبي صلى الله و آله وسلم رفضاً قاطعاً توسط اسامة بن زيد في شان المرأة المخزومية التي سرقت(1)، لكونها شريفة جاعلاً العدل يأخذ مجراه.

وإذا ما استفتينا فكر علي بن أبي طالب عليه السلام بشأن فضيلة العدل، فسنجد انها قيمة أخلاقية تتسع لتشمل جميع النواحي الإنسانية، وهو في هذا المجال يسير في ظل النص القرآني وعلى نهج السنة النبوية الشريفة، مع محاولاته في إعطاء المفهوم قيمته الإنسانية المتناسبة وعصره، لذلك لم يأت العدل في قوالب الأمر لسن تشريعات، ولكنه ورد ضمن النصوص التطبيقية لتلك التشريعات، ويبدو لنا من النصوص التي بين ايدينا ان علياً عليه السلام يعد العهد من الدعائم الأخلاقية الهامة التي يقوم المجتمع عليها، فإذا ما اختلت تلك الدعامة أو تضععت «كثُر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، وفعل بالهوى، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهناك تذل الابرار وتعز الأشرار»(2) لذلك فقد باشر بتنفيذ العدل من ذ الوهلة الأولى التي تسلم فيها مقاليد الخلافة غير آبه بما سيجره ذلك عليه من فتن فد تززع السلطة من تحت رجله، فرد إلى بيت مال المسلمين كل القطنع التي اقتطعها عثمان لبني أمية وغيرهم قانلاً بكل حزم «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور اضيق»(3) فمفهوم العدل في فكر علي عليه السلام - لا يمكن إدراكه -

ص: 433

1- راجع الخبر في: سنن النسائي 72/8 وما بعدها، سنن ابن ماجه 85/2

2- خطب - 210 فقرة 2

3- خطب - 15

كما نعتقد - إلا من خلال مباشرته العملية له قولاً وفعلاً، لأنه جزء لا يتجزأ من تصرفاته الحياتية سار معه رحلته الطويلة منذ مقتبل العمر حين زاول القضاء على عهد رسول الله صلى الله على وآله، حتى آخر ساعة في حياته وهو يوصي بالتعامل مع قاتله بالعدل (1)، لذلك فنظرته الثاقبة إلى العدل تتمثل في قوله «العدل صورة واحدة، والجور صور، لهذا سهل ارتكاب الجور، وصعب تحري العدل، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها، وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد، والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك» (2) فالعمل بالعدل في فكر علي عليه السلام - صعب والسير في طريقه شاق، لأنه يحتاج إلى ترويض النفس على نبذ شهواتها، وتبصيرها الطريق القويم، وحثها على السير فيه، بعكس الجور الذي لا يحتاج فعله إلى أي مجهود فطرته كثيرة وسهلة ومحبية إلى النفوس في الغالب. لذلك فإن ترحي العدل في مجتمع ذي طرق متشعبة وأساليب ملتوية يغدو ضرباً في المخاطرة، فلا نستغرب إذن من «تبني الفكر الشيعي مفهوم العدل الاجتماعي، وارتكاز على العقلانية» (3) لأن ذلك الفكر - على ما نعتقد منبثق «من فهم - صحيح للروح الإسلامية» (4)، التي تميز آل البيت عليه السلام وعلى رأسهم علي عليه السلام الذي نجد للعدل في فكره ميداناً واسعاً منه:

1- العدل مع النفس: ويقصد منه المصالحة مع النفس بالنحو بها منحاً مستقيماً يوازن علاقتها بالآخرين بحيث لا تأخذ أكثر مما تستحق ولا تفرط في حقوقها على سبيل إرضاء الغير فقول له لابنه الحسن عليه السلام «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك

ص: 434

1- راجع رسائل 47 فقرة 8، 9

2- شراح ابن أبي الحديد 20 / 276

3- محمود اسماعيل - سوسيولوجيا الفكر الإسلامي 141 / 1

4- المصدر السابق

وبين الآخرين»(1) يعني بناء النفس من الداخل على أسس موضوعية تتقبل العطاء بنفس الروح التي ترغب بها في الاخذ، فتؤدي ما عليه وتأخذ ما إليها بكل رحابة صدر، فالعدل في المصالحة مع الذات كما نفهمه من خلال فكر علي عليه السلام - ينطوي على كل القيم الخلفية من صدق، وأمانة وإخلاص، ووفاء، وشجاعة، لأن الإنسان العادل هو الذي يمكنه أن يوازن بين الحق نفسه وبين حقوق الآخرين من حوله وفق معايير أخلاقية ثابتة قوامها الخير والحب للجميع.

2- العدل الاجتماعي: العدل في فكر علي عليه السلام - كما سبق صورة واحدة (2) ليس فيه ثمة تدرجات تفاضلية، لا بد ان نشير هنا ان العدل الاجتماعي، ما هو الا امتداد للخط المستقيم الذي تسير سياسته فيه، لأن العمل العادل هو الذي «يضع الأمور في مواضعها»(3) والامور في السياق تعني الشمولية والاتساع لتجعل من «العدل سائساً عاماً»(4) يهدف إلى تحقيق السعادة والخير والحب لجميع الناس. والعدل الذي يتوق علي عليه السلام إلى تحقيقه، يشمل حتى الحيوان فضمن وصيته إلى عمال الصدقات، فيمن يولونه مسؤولية حراسة ما يجبي من إبل ومواشي يشترط فيه «الا يحول بين ناقة وفصيلها، ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدا ركوباً، وليعدل بين صواحبه في ذلك»(5).

ويصل العدل ذروته في قوله «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت

ص: 435

1- رسائل - 31 فقرة 13

2- راجع ص 433 من هذا البحث

3- حكم - 446

4- حكم - 446

5- رسائل - 25 وفصيل الناقة: ولدها وهو رضيع، ويمصر: يقلل ببالغ في حلبها حتى يقل اللبن في ضرعها

أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»<sup>(1)</sup> فالعدل قيمة أخلاقية واحدة في موطن من مواطن الحياة، لا يمكن تجزئتها، أو العمل بمضمونها حسب نسب متفاوتة وهي في فكر علي عليه السلام، كما نلاحظ في نصوص النهج - نابعة من اقتناع ذاتي وإيمان راسخ وتام لا يمكن زعزعته تحت أية ظروف، ويمثل ذلك قوله «والله لأن أبيت على حَسَكِ السعدان مسهداً، وأجر في الاغلال مصفداً أحب الي من ان القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد»<sup>(2)</sup> لذلك فقد جاهد قولاً وفعلاً من أجل وضع فكره العادل موضع التنفيذ سواء في معاملاته الخاصة أو العامة أو على مستوى الحكم في الاقاليم الإسلامية.

أ- فعلى المستوى القضائي، فقد وضع شروطاً متناهية في دقتها فيمن يرشح لمنصب القضاء<sup>(3)</sup>، ثم انه جعل المراقبة دائمة ومتسمة<sup>(4)</sup>، كما أنه باشر القضاء بنفسه ابان خلافته في كثير من المواطن، انطلاقاً من اقتناعه التام بأن العدل يجب ان يأخذ مجراه مهما كانت الظروف<sup>(5)</sup>.

ب - وعلى المستوى الاجتماعي العام فقد باشر بإقامة العدل مبتدئاً بالأسواق

ص: 436

1- خطب - 221 - الفقرة الثانية، وجلب شعيرة: قشرتها

2- خطب - الفقرة الأولى، وحسك السعدان: شوكة، والسعدان نبت صحراوي له شوكة ترعاه الأبل، والسهاد: السهر، الاغلال: السلال توضع في الأعناق، المصفد: المقيد

3- راجع ص 328 وما بعدها من هذا البحث

4- راجع السابق

5- راجح حكايته مع المرأة التي اتته متظلمة من قسوة زوجها وموقفه من ذلك عند: ابن شهر آشوب مناقب آل أبي طالب 1/ 374، وراجع أيضاً قوله في عهده للأشتر بأن افساح المجال للضعفاء للتظلم عنده مباشرة، من دون أية مراقبة أو حجاب - رسائل 53 - الفقرة - 26

المحك الحقيقي لشرائح المجتمع والميزان الذي تتنافس الاطماع فيه، لا امتلاك زماما المادة على حساب الكادحين والمستضعفين، فقد كان يجوب الاسواق بنفسه (1)، لمراقبة الاسعار وفض الخصومات من أجل ارساء دعائم العدل، كما كان يتشدد في تنبيه ولاته على القيام بذلك كما في قوله للأشتر «وليكن البيع سمحا بموازين عدل» (2). واهتمام علي عليه السلام بالعدل في الأسواق لأنها الاماكن التي تتواجد فيها كل الطبقات الاجتماعية للتعامل فيما بينها بالأخذ والعطاء، ولا يتأتى ذلك الا في جو يتميز بالأمن والطمأنينة والثقة، والعدل هو الذي يمنح تلك الميزات للمتعاملين، لأن تطبيقه يكسبهم الراحة النفسية، وعدم الشعور بالغبن أثناء المعاملات والمبادلات.

3- العدل في ميدان السياسة: من العسير علينا ونحن نبحث في فكر علي عليه السلام الأخلاقي، ان نقول بوجود عدل اجتماعي وآخر سياسي، لأن سياسة علي عليه السلام في الاصل سياسة اجتماعية، تضع مصلحة عامة الناس من الطبقات الفقيرة في مقدمة الأولويات (3)، حتى لنكاد نشعر بالصعوبة إذا ما حاولنا الفصل بين عنصر السياسة وعنصر الاجتماع في ميدان الأخلاق الا ان ذلك لا يحول بيننا وبين تسلط الضوء على الفكر الأخلاقي العادل الذي يغلب الطابع السياسي عليه. فمن أهم ما يجب ان يتميز به الحاكم العادل في سياسته للرعية - ان يعمل بالعدل في كل صغيرة وكبيرة من أفعاله، حتى في النظر إلى رعيته، فلا يميل به الهوى إلى النظر بازدراء إلى الفقير لفقره، والبشاشة والترحاب بالغني لكثرة

ص: 437

---

1- راجع البلاذري - انساب الاشراف 129/2

2- رسائل - 53 - الفقرة 24

3- راجع السابق - الفقرة 7



امواله وعلو منزلته، إذ يجب ان تكون نظرتة لكلا الطرفين متماثلة، يقول لمحمد بن أبي بكر في عهده إليه حين ولاه مصر «اخفض لهم جناحك، والن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، واس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم»(1) فالسياسة العادلة - في مبدأ علي عليه السلام - ان لكل المواطنين اما القانون سواء، مسلمين وغير مسلمين وعدم دخول هؤلاء الإسلام لا يفقدهم حقوقهم الإنسانية (2) ، فالناس كما يقول علي عليه السلام ضمن عهده للأشتر: صنفان «اما اخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق(3) . فالحكومة الحقيقية هي التي تقدر العدل (4) ، وتختار لحكمها رجالاً يعرفون طريقه ويسرون على نهجه. ولن يتأتى لهم ذلك - كما يرى علي عليه السلام - الا إذا عرفوا أن يأخذوا العدل من نفوسهم، ومن خاصة أهلهم واقاربهم (5) لله ولجميع الناس، ومن لم يؤد ذلك تاماً فقد ظلم نفسه وظلم عباد الله «وكان الله حرباً حتى ينزع أو يتوب»(6) . فعلي عليه السلام يأمر واليه بالعدل بين رعيته، يكلم فيه الضمير ويرحك داخله الوازع النفسي مصدر القيم الخلقية، فهو لم يتهدده بالعقاب المادي المتمثل في العزل وفي المصادرة، لابل يلجأ إلى الترهيب النفسي المتمثل في قدرة الله سبحانه بإنزال العقاب الدائم المستمر على الجور

ص: 438

- 1- رسائل - 27 - الفقرة الأولى
- 2- راجع رسائل - 19
- 3- رسائل - 35 - الفقرة 4
- 4- راجع السابق - الفقرة 26
- 5- راجع السابق - الفقرة 6
- 6- السابق - فقرة 4 وفقرة 6

والجائر(1)، فالعدل - في فكر علي عليه السلام - ميزان الأخلاق، الذي يعدل كل مائل في المجتمع سواء أكان مادياً أم معنوياً، وهو على سعة ميادينه، فإن منبعه الإيمان بقدرة الإنسان على تمييز الصواب من الخطأ، والسير في طريق الصواب المتضمن كل القيم الأخلاقية، وهو في جوهر توأم الحق.

## 2- الحق:

الحق من أسماء الله الحسنى ويعني «الموجود المتحقق من وجوده والهيته»(2) وللحق معان متعددة يمكن معرفتها من خلال السياقات التي ترد فيها، فعلم القانون - على سبيل المثال - يعرف الحق «بأنه مصلحة ذات قيمة مالية يحميها القانون»(3)، فهو يحصره في النواحي المادية، ويربطه بالقانون سواء أكان وضعي أم تشريقي وقد يعرف «فلسفياً ما طابق الذهن والواقع ويقابل الباطل»(4)، «وحقائق الإيمان، أركانه وهو التصديق بوجود الله تعالى وبوحدانيته واعتبار اسمائه الحسنى»(5)، ويأتي بمعنى المطابقة والموافقة والثبوت(6)، ويطلق الحق أيضاً «على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب»(7) على أساس أنها تتضمن

ص: 439

1- يناسب ذلك قوله «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك» شرح ابن أبي الحديد 20 / 328

2- الطريحي - مجمع البحرين 148 / 5

3- عبد الزاق السنهوري - مصادر الحق في الفقه الإسلامي 9 / 1

4- يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 171

5- الطريحي، السابق 148 / 5

6- راجع: أحمد رضا - معجم متن اللغة 2 / 132

7- منصور رجب - تأملات في فلسفة الأخلاق ص 342

ذلك، «والحقيقة في مصطلح العلماء ما قابل المجاز»(1)، ويأتي الحق أيضاً بمعنى العدل كما في قوله تعالى:

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ»(2)، ويأتي بمعنى الصدق كما في قوله تعالى:

«حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ»(3)،

ويأتي الحق بمعنى المنزلة والقيمة المعنوية كما في قوله تعالى:

«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(4).

فالحق كقيمة خلقية يكون جماع من الصدق، والعدل، والرضا، والنأي بالنفس عن الأنانية، وتجنب الشح، فمرونته تجعل معانيه تتضمن الأخذ والعطاء. وإذا كان العدل يهدف إلى ارساء الطمأنينة في النفس فإن الحق بشموليته على العدل وتضمنه معاني التبادل الذاتي، هو العامل المحرك للفرد والمجتمع في طريق التفاهم والبناء، إذ لا يمكن لأي فرد أو أية فئة ان تطالب بحقوق معينه، الا في مقابل تأديتها لواجبات تترتب على تلك الحقوق.

وهذا التبادل بمفهومه العملي، هو ما يرمي إليه علي عليه السلام من مفهومه للحق، فقوله «الحق واسع الأشياء في التواصف واضيقها في التناصف»(5) يعني ان الحق كنظرية متمثلة في الوصف القولِي، هو من الاتساع بحيث لا

ص: 440

1- الطريحي، السابق 148/5

2- ص / 26

3- الاعراف / 105

4- الزمر / 67

5- خطب - 210 - الفقرة الأولى

يقاس ولا يحدد، ولكن سرعان ما يضيق وتنكر كل صفاته إذا ما اريد له يوجد في حيز التطبيق. ويريد علي عليه السلام من وراء تبيان تلك الخاصية، الحق العملي البعيد كل البعد عن الاقوال كما في قوله بأن الحق «لا- يجري لأحد الا جرى عليه، ولا يجري عليه الا جرى له»<sup>(1)</sup> فهو أخذ وعطاء مستمران باستمرار الحياة، وبين جميع البشر، وعلى جميع المستويات الاجتماعية لأنه دستور حياة، ولا يمكن لأي فرد مهما علت منزلته وسمت مكانته، ان تكون له حقوق، دون ان تكون عليه واجبات تسمى حقوقاً بالنسبة للغير، و«لو كان لاحد ان يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصاً لله سبحانه وتعالى دون خلقه لقدرة علي عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه»<sup>(2)</sup> هو ما لم يلزم به الله عباده لتدبروا معنى الحق في علاقتهم ومع نفوسهم لذلك «جعل حقه على العباد ان يطيعوه، وجعل جزاءهم مضاعفة الثواب»<sup>(3)</sup> فالحق - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام - ليس مجرد أفاظ جوفاء أو معنى خالٍ من مضمونه العملي لذلك فهو لا يعرف بالرجال كما يتراءى للبعض من خلال منطقتهم أو ما يحدثنا به التاريخ من سيرهم، ولكن الرجال يعرفون بالحق<sup>(4)</sup> أثناء مباشرتهم له، وفهمهم ابعاده، ونزولهم عند حدوده، بإيمان وصدق عزيمة لأنه «ثقیل مرئ»<sup>(5)</sup>، ثقيل لأن النفس تأباه إذا تعارض مع مصالحها ولكنه حسن العاقبة، لأنه يكبح من جماح شهواتها، ويحد من تمرداها، ويجعلها تحت

ص: 441

1- خطب - 210 - الفقرة الأولى

2- السابق

3- السابق

4- راجع حكم - 270

5- حكم 382

سلطان العقل، لذلك فعلى سبيل الجدل تجنباً للرديلة يقول علي عليه السلام «إلا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل»<sup>(1)</sup> ولا مرء فإن الباطل وان حسن مظهره، فإن مباشرته لا بد وان تؤدي إلى مضرة، وفي المقابل لا يعني ان العمل بالحق لا يعود بالنفع على مباشرته، لأن الحق في حد ذاته غاية الخير بمعناه الواسع.

ويتبعنا للحق كمنبع من منابع القيم الخلقية - في فكر علي عليه السلام - سنجد أنه بمثابة الحزم الضوئية المنبعثة من مصدر واحد يلم في داخله كل ما أمكنه من المعاني الخيرة التي تهدف إلى بناء الإنسان وسعادته بتكوينه تكويناً متوازناً مع نفسه ومتسقاً في علاقاته بالآخرين. والحقوق التي يتعين على الفرد مزاولتها لتكتمل سعادته - كما يرى علي عليه السلام - متعددة منها:

#### أ- حق الله:

يتجلى الرب على عباده في جميع نواحي الحياة المتعلقة بمعيشتهم على الأرض، وقد عرض علي عليه السلام في نهج البلاغة إلى كثير من هذه الحقوق التي منها: حقه سبحانه وتعالى على عباده في التعرف على ذاته وقد اوكل علي عليه السلام تلك المعرفة إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية الشريفة، يقول لمن سأله عن وصف الرب سبحانه «فانظر أيها السائل، فما ذلك القرآن عليه من صفته فأتم به واستضى بنوره، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وائمة الهدى اثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك»<sup>(2)</sup> فمن حق المسلم ان يفكر في الذات الإلهية،

ص: 442

1- خطب 28

2- خطب - 90 - الفقرة 2

ولكن في حدود ما رسمه الدين بمصدره الرئيسي، وذلك حسماً للخلاف وتجنباً من المروق، فمن حق الله عليك حتى تعبدته حق عبادته ان تعرفه. واذا كان ذلك حقه سبحانه نحو ذاته القدسية فإن من حقوقه على العباد نحوهم، مراعاة بعضهم البعض، بالتناصح فيما بينهم، وبذل العون إلى محتاجهم وضعيفهم، والعلم بما سنه الله من حقوق دون الاخلال بشيء منها<sup>(1)</sup> ومن حقوقه سبحانه، ما فرضه على عباده من نصيب فيما رزقهم من مال، وهو حق من الأهمية بمكان، لأن صيانة المجتمع من الانزلاق في هاوية الشح والقوضى والتسلط والحسد تتوقف على أدائه فهو في أساسه تطهير للنفس بالنسبة للمعطي والسمو بها عن التكالب الدؤوب على شهوات الدنيا، وهو في ذات الوقت طمأنة لنفس الفقير بتحسيسه بأن هناك ثمة من يعطف عليه ويحاول التخفيف من محنة الفقر التي يعيشها، وبهذا الحق الإلهي يزول الحقد والحسد، باستجابة النفس لنداء الواجب والحب فيأمن الغني على ماله ويطمئن الفقير على حاله، لذلك نجد علياً عليه السلام ومن منطلق اسلامي سمي الزكاة (حق الله)، فضمن وصيته لعماله على الصدقات، يأمر كل منهم إذا وصل إلى مكان عمله وتجمع الناس حوله بالقول «أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدونه»<sup>(2)</sup> والسؤال في السياق يدل كما يبدو، أن الزكاة في فكر علي عليه السلام، وإن كانت واجبة على كل مسلم في ماله نصاب يستحق إخراجها، إلا أنها لا تؤخذ منه كرهاً لأن في إخراجها بطريق الإكراه ما يفقدها قيمتها الأخلاقية، فالافتناع الداخلي من لدن الإنسان بأنها

ص: 443

---

1- يمكن استخلاص كل ذلك من - الخطب 98 فقرة 9، 178 فقرة 5، 192 فقرة 3، 210 فقرة 3، 211 فقرة 1، 239 فقرة 3، والحكمة رقم 243

2- رسائل - 25

حق الهي هو المحرك لقيمتها الأخلاقية، فحق الله سبحانه على الإنسان، يجب أن ينبع من فكر الإنسان، والاقتناع الذاتي بذلك الحق دون أي تأثير خارجي كما يرى علي عليه السلام وهو القائل «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(1)

## ب- حق النفس:

النفس الإنسانية، منبع كل خير وحكمة وعلم وهي في الوقت نفسه «مثار الجهل والضلال والشقاء والشر»(2). والقائد المحرك لكلا المتقابلين فيها، إحساس الفرد الداخلي بالمسؤولية، وهذا الإحساس هو مصدر الحق الذي خوله الله سبحانه وتعالى الإنسان، فإذا ما أراد التعايش في مجتمع تحكمه الأخلاق فعليه أولاً أن يبدأ بنفسه لأن «معلم نفسه ومؤديها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤديهم»(3) فالحق الأولي والرئيسي البدء بالنفس، وقد اجمل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام حقوق النفس في قوله «وأما حق نفسك عليك، فإن تستوفيها في طاعة الله، فتؤدي إلى لسانك حقه، وإلى رجلك حقه، وإلى بطنك حقه، وإلى فرجك حقه، وتستعين بالله على ذلك»(4). فالملاحظ هنا أن حق النفس يشمل كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو تصرف، وحتى التفكير الذي يسبق الاقدام على عمل ما، هو حق من حقوق النفس، فتجنب الغرور والزهو من حقوقها «لأن الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً

ص: 444

1- ابن أبي الحديد 20 / 292

2- حسن السيد علي القبانجي - شرح رسالة الحقوق 72 / 1

3- حكم - 71

4- ابن شعبة الحراني - تحف العقول ص 185

مدح الإنسان نفسه»(1)، وحفظ اللسان في جميع المواطن حق من حقوقها لأنه «ما شيء أحق بطول سجن من لسان»(2) كما يقول علي عليه السلام، لأن سجن اللسان فيه صيانة للنفس من التلف، وتجنب الكوارث، وحفظ الأعراض، فرب «قول أنفذ من صول»(3). ولكل الحواس أهميتها في ضبط حقوق النفس، فإذا كان لكبح جماح اللسان قيمته الأخلاقية فإن للسمع والرؤية - كما يرى علي عليه السلام - قيمتها في التفريق بين ما هو حق وما هو باطل، من ذلك قوله «انه ليس بين الحق والباطل إلا أربعة أصابع، الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت»(4).

وكما نلاحظ فإن المقولة تحوي صورة من اروع الصور الحسية القريبة من تصور كل انسان، إذ بوضع أصابع الكف الأربع على الخد بين الأذن والعين يعرف الحق من الباطل، فالرؤية في مجال الشهادة حق، أما السماع فباطل. ففكر علي عليه السلام تجاه حق النفس ينطلق - كما نعتقد - من كون الإنسان فرد في مجتمع تؤثر علاقته مع نفسه على علاقاته بالآخرين سلباً وإيجاباً بمدى معرفته لنفسه وما عليه من حقوق نحوها.

### ج- حق الوالد وحق لولد:

إذا تمكن الإنسان من إيفاء نفسه حقها بإنزالها المنزلة التي تستحقها، استطاع أيضاً من إيفاء حق الآخرين عليه ابتداءً بمحيطه الاسري. فمن

ص: 445

1- ابن أبي الحديد 20 / 297

2- السابق 20 / 263

3- حكم - 402

4- خطب - 141



الحقوق الأخلاقية الواجبة على الإنسان تجاه أسرته، حق الولد على الوالد، ولا نعني بالحق هنا تهيئة الملبس والمسكن، فتلك حقوق مفروغ من تأديتها تجاه من نعولهم، ولكن ثمة حقوق أخلاقية الهدف من ورائها اعداد الفرد ليتحمل مسؤوليته في المجتمع، وهي الحقوق التي يرمي علي عليه السلام إلى توضيحها من خلال فكره الأخلاقي حين يقول «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن ادبه ويعلمه القرآن»<sup>(1)</sup>. فحقوق الابن على أبيه تتمثل في إعداده للحياة، وتهيئة نفسه تهيئة سوية. فتحسين الاسم يعني في مضمونه تجنيبه الانفعالات النفسية، من مضايقات الناس، الذين يجنحون إلى كل ما هو حسن وجميل، وينفرون من كل ما هو قبيح في منظره وفي تسميته، ثم ان الأدب المتضمن جميع القيم الخلقية والمعاملات الإنسانية، يكسب الإنسان القبول والاحترام في مجتمعه، اما العلم فهو السلاح الذي يستطيع به دفع غائلة الزم من بتخطي صعوبات الحياة، ويلاحظ ان علياً عليه السلام قد قصر واجب الأب على التعليم الأساسي ابتداء بالقرآن الكريم، لكون ذلك التعليم الابتدائي يأتي من الاكتساب المفروض والمقرون بالمراقبة، لأن سن المتعلم تتطلب ذلك، اما اكتساب التعليم التالي لتلك المرحلة فينبع من ذات الفرد، وإقناعه الفكري بتوجيه نفسه بنفسه. وفي المقابل أيضاً فإن للوالد على الولد حقوقاً يجب أن يستوفيه كلامة من أهمها، في فكر علي، عليه السلام الطاعة، «في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه»<sup>(2)</sup> وتأدية الطاعة بمفهومها الشامل لا تعني - كما نعتقد رد - الجميل على ما بذله الوالد تجاه ولده، لأن ما أعطاه الأب لابنه، هو في جوهره حق من حقوقه الإنسانية، وأما ما يقوم به

ص: 446

1- حكم - 407

2- حكم - 407

الابن تجاه أبيه من طاعة فهو حق من حقوق الأب الطبيعية، لأن الأب في أوامره ونواهيه، إنما يضع مصلحة الابن فوق مصلحته الذاتية، وتتمثل القيمة الحقيقية للابن في نفس الأب في قول علي عليه السلام لابنه الحسن ضمن وصيته له «... وجدتك بعصي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكان الموت لو أتاك أتاني» (1) فالحقوق التي يعينها علي عليه السلام ويوجب على الابن تأديتها، إنما يعني قبوله للنصح وتمثله للأخلاق، علاوة على ذلك البر به وبأمه واحترام التقاليد الأسرية، فمتى صار التجاوب بين الأطراف داخل المجتمع الصغير منسجماً بتأدية حقوق كل لكل، فإنه لا محالة من انعكاس ذلك التجاوب على جميع محاور المجتمع الكبير ابتداء بالأصدقاء.

#### د- حق الصديق:

الصدقة من العلاقات المقدسة التي حض الإسلام على التمسك بها وتعهدا ورعايتها (2)، وقد أولاها آل البيت أهمية كبيرة وجعلوا لها من الحقوق ما يصعب حصره ويثقل تحمله إلا على أولي العزم من المخلصين في إيمانهم، الذين يتحلون بأعلى درجات الكمال الأخلاقي، فمما يؤثر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله في حق الصديق «أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك... وأن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره... وأن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك... وأن تكون عينه ودليله ومرآته...»

ص: 447

1- رسائل - 31 فقرة 2

2- للأهمية التي أولاها الإسلام للصدقة فقد عد الرسول صلى الله عليه وآله أن من بر الابن بوالديه في حياتهما ومماتهما إكرام أصدقائهما - راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل 498/3

ان لا- تشبع ويجوع، ولا- تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى... ان يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب ان تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه... ان تبر قسمه، وتجيب دعوته وتعود مريضه، وتشهد جنازته، واذا علمت ان له حاجة تبادره إلى فضائها ولا تلجئه ان يسألها، ولكن تبادره مبادرة»(1). وقد تكون تلك الحقوق فوق طاقة الإنسان العادي، الا انها تهدف إلى ارساء دعائم مجتمع قوي متضامن لو أخذ بمعظمها، وفكر جعفر الصادق عليه السلام تجاه الصديق لم يكون سوى رافد من روافد فكر جده علي عليه السلام في تقديمه للصدقة (2) التي أجمل حقوقها في قوله «لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ اخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته»(3) فالحقوق التي ذكرها على عليه السلام تحوي جميع القيم الخلفية التي يحتاجها الفرد في بناء علاقات قوية ومتينة يشعر من ممارستها لها بإنسانية، فيعمل بتلقائية ورحابة صدر على تعميق جذورها، فتتمدد لتشمل جميع الناس، في مجتمع مثالي يرتكز على الحب والخير والصلاح، فلا أنانية، ولا استئثار يضيع الحقوق اتكالا على ما بين الأصدقاء من علاقات (4).

فالصدقة إذا ما بنيت على دعامة أخلاقية راسخة وقوية فستبقى ثابتة تحت أية ظروف. والصديق الذي يتوخاه علي عليه السلام لنفسه، ويريد من جميع الناس ان يكونوه، هو الذي بادر برسمه وعدد مزاياه في نص متكامل اراد من خلاله ان

ص: 448

1- الكليني - أصول الكافي 2/ 169

2- راجع ص 486 من هذا البحث

3- حكم - 132

4- راجع رسائل 31 - فقرة 23

يجسد صورة الصديق المثالي الذي يتوخاه (1)، فحقوق الصداقة في جوهرها حقوق أخلاقية، حاول علي عليه السلام جاهداً ترسيخها في نفوس الناس، توفراً لبناء مجتمع سليم تحكمه الأخلاق وتقيده القيم.

#### هـ- حق المجتمع:

تتكون العلاقات الاجتماعية السليمة من توازن الفرد مع نفسه ومن ثم مع محيطه الأسري فمعارفه وصدقاته، فينعكس ذلك التوازن على المجتمع، لأن الإنسان وفي خضم اختلاطه وتعامله يدرك بما لديه من خلفيات أخلاقية مكتسبة، حقوق الآخرين عليه، ومن ثم يعرف ان مركزه الاجتماعي يجب ان يتولد من دوره داخل المجتمع، فلا يرضى بالوساطة أو المحسوبية للوصول إلى المركز، لأن لكل فرد حق، وحقه هو أن يأخذ نصيبه وافيًا شريطة أن لا يكون على حساب حقوق الآخرين لأن «بلوغ أعلى المنازل بغير استحقاق أكبر أسباب الهلكة» (2). والهلكة التي يرمي علي عليه السلام إليها - كما نعتقد - هي الانهيار الأخلاقي الذي يصيب المجتمع بتفشي الرشوة والتفسخ الأخلاقي، وشيوع الفوضى والجهل بين من أنيطت بهم مسؤوليات بناء المجتمع لافتقارهم إلى الكفاءة التي تؤهلهم للقيام بمهامهم، ولاتقاء ذلك يرى علي عليه السلام أن من حق المجتمع عليك أن تدقق في الأمور وأن تضع كل شيء في موضعه المناسب بالأخذ والعطاء المتكافئين طبقاً للإمكانات المتاحة من علم وخبرة وإدراك وإطلاع، بحيث يكون الدافع الداخلي هو المحرك لكل فرد في معرفة قدراته

ص: 449

1- راجع حكم - 297

2- ابن أبي الحديد - 287 / 20 ، 321

دون الميل إلى هوى النفس وذلك هو المؤهل الاجتماعي الحقيقي، كما نفهمه من قول علي عليه السلام «انظر ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما عند غيرك فلا تأخذه إلا بحقه»<sup>(1)</sup> فقوله (عندك وعند غيرك) يعني العلاقة الاجتماعية الترابطية بين الفرد والمجتمع المتمثل في الغير، وهذه العلاقة - كما يتهيأ لنا من المقولة - لا تقتصر على النواحي المادية، بل تتعداها إلى جميع الحقوق الاجتماعية والأخلاقية.

والحقوق الاجتماعية والأخلاقية في فكر علي عليه السلام كما هي مبثوثة في النهج - متنوعة بتنوع أساليب الحياة. ومنها:

## و- حق العلم:

العلم - في فكر علي عليه السلام - من الأمور العقلية التي تحتاج إلى ممارسة ومران دائمين، ومن حقه على الفرد صيانته من التدنيس، ورفعته فوق مستوى المادة، وعدم استخدامه في مضرة الآخرين، أو حتى اتاحته للذين يجهلون قيمته ولا يعرفون مدى خطورته، فيتخذونه سلماً للوصول إلى غاياتهم الدنيئة ويمكننا إدراك ذلك من قوله «لا تحدث بالعلم السفهاء فيكذبونك، ولا الجهال فيستثقلونك، ولكن حدث به من يتلقاه من أهله بقبول معهم... فإن لعلمك عليك حقاً، كما ان في مالك عليك حقاً»<sup>(2)</sup>، فالعلم بالنسبة للعالم، كالجمال بالنسبة لأي إنسان يمتلكه، يجب ان يراعيه بصيانته ووضعه في مواضعه السليمة التي لا تجلب للناس المضرة والشر. ومن حقوق العلم الأخلاقية أيضاً، حق العالم على المتعلم، وكما يبدو في فكر علي عليه السلام، فإن ذلك الحق يجب أن ينبع من ذات

ص: 450

---

1- ابن أبي الحديد - 20 / 287 ، 321

2- السابق

المتعلم باقتناعه بأهميته في عملية التحصيل فالتحصيل العلمي الخالص لوجه العلم - يجدر بطالبه أن يراعي حق من يأخذ عنه «بألا يكثر عليه السؤال، ولا يعنته في الجواب، ولا يغتاب عنده احدا، ولا يطلب عشرته...»(1) بالإضافة إلى تعظيمه وتوقيره، طالما صان ذلك العالم علمه وراعى فيه حدود الله.

## حق الأمة وحق الوالي

لكن الحياة لا تستقر، والإنسان لا يطمئن، والأعراض لا تصان والعلم لا ينتشر إلا إذا ضمنت الحكومة حقوق الناس، وضمن الناس حقوق الحكومة، وتبدو هذه الحقوق المتبادلة من أهم الحقوق الأخلاقية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله - سبحانه - لكل على كل، فجعلها نظاماً لإلفتهم وعزاً لدينهم... فإذا ادت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل... فصلح بذلك الزمان»(2) فالعمل بالدين، وانتشار العدل وصالح المجتمع كلها عناصر خلقية، تعتمد في الدرجة الأولى على تبادل حقوق التزاميه تفرضها طبيعة الحياة على كلا الطرفين لأنهما يكملان بعضهما بعضاً ابتغاء الخير والسعادة للإنسان والإنسانية، وهذه الحقوق - كما يراها علي عليه السلام - هي:

ص: 451

1- السباق 20 / 273 ، 269

2- خطب -210 فقرة 2 وراجع أيضاً ضمن الخطبة ما سيؤول إليه المجتمع من انهيار في حالة تضييع الوالي لحق الرعية وتضييع الرعية لحق الوالي في نفس الفقرة

لن نعرض هنا الا للحقوق المتصلة اتصالاً مباشراً بالجانب الأخلاقي(1)، المتمثل - أولاً وقبل كل شيء - في وجوب تواضع الحاكم للمحكومين، وعدم الترفع عليهم وازدرائهم بالنظر إليهم من عمل بحكم مركزه السياسي، يقول علي عليه السلام بشأن الحقوق المفروضة على الوالي «أن لا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمة دنوا من عباده وعطفوا على إخوانه»(2) ويترتب على ذلك رفع الظلم عن كاهل المستضعفين برد الحقوق وإنصاف المظلوم والانتصاف من الظالم(3)، دون اعتبار لقراية أو صداقة أو محسوبية بالزام «الحق من لزمه من قريب أو بعيد»(4) بالإضافة إلى ذلك فمن حق الأمة على الوالي إرشادهم بالنصيحة الخالصة، وإزالة الجهل من نفوسهم، وزرع الفضيلة ونشرها فيما بينهم(5) باللين والعطف أو بالقوة إن اقتضت الضرورة لذلك فإذا ما تأكدت تلك الحقوق من قبل الحكومة تجاه المحكومين، وجب على المحكومين في المقابل تأدية ما عليهم من الحقوق تجاه الحكومة.

ص: 452

---

1- لأننا عرضنا للحقوق من الناحية السياسية في ص 364 وما بعدها من هذا البحث

2- رسائل - 50

3- راجع الخطبة - 136

4- رسائل - 53 الفقرة 31

5- راجع الحقوق التي فرضها علي عليه السلام لرعيته على نفسه ضمن الخطبة 34 ، الفقرة 2

## ثانياً - حق الوالي أو الحكومة على الأمة:

ويكمن ذلك الحق - كما يبدو في فكر الإمام علي عليه السلام - في ثلاثة بنود يجمعها قوله «الوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب والاجابة حين يدعون) والطاعة حين (يؤمرون)» (1) ذلك على أساس أن الحكومة قد أدت حقوقها وقامت بالتزاماتها تجاه الأمة.

فالحق بمعناه الخلقي في فكر الإمام علي عليه السلام - كما يبدو في نهج البلاغة واسع وعميق ومتعدد الميادين التي يصلح الإنسان فيها ويجول، آخذاً في طريقه بجمع القيم الإنسانية التي يحتاجها الفرد كزاد يغذي الروح لتمكن من الثبات باحكام في مواجهة مغيرات الحياة، متفاعلة مع مجتمعها تفاعلاً ايجابياً يعود بالخير العميم على كل الشرائح الاجتماعية. ولكن لن يتأتى للعدل والحق أن يسانا إلا إذا جعلنا من التقوى سباجاً لهما.

## ثالثاً - التقوى:

يفسر المعجم اللغوي التقوى بالاحذر والخوف (2)، وهو بذلك لا يعطي للمعنى بعده الأخلاقي، اما المعنى الشرعي للتقوى فهو «حفظ النفس مما يؤثم بترك المحذور» (3) وهو تعريف يتفق مع التعريف الأخلاقي الحديث لهما، والمتمثل في القول بأنها «سلطة تطالب من اعماق القلب، بتقديم حسابات، ويقوم اساسها الأول ذو الجوهر الديني في النفس الإنسانية التي لا تنفك تنفذ

ص: 453

1- خطبة 34 الفقرة 2

2- راجع لسان العرب المحيط 3/ 971، المعجم الوسيطة 2/ 1052

3- الراغب الاصفهاني المفردات في غريب القرآن ص 833



وتراقب»<sup>(1)</sup>، فالتقوى على هذا الأساس شعور داخلي تكمن فيه «قوة من غريب امرها انها تجمع بين هذه السلطات الثلاث: السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية»<sup>(2)</sup> فعن طريق هذا الشعور تميز بين الخير والشر، وبها أيضاً تنزع إلى طريق الصواب، فبالتقوى يتمكن الفرد من الحكم على صحة الطريق الذي يسلكه في معاملات وتصرفاته، فهي تعاقب عقاباً معنوياً قوامه وخز الضمير، وتثيب ثواباً معنوياً أساسه الاطمئنان وراحة الضمير. فالتقوى بمفهومها هذا، أصل الأخلاق، فلو تصورنا أن القيم الخلقية مجموعة من الفروع والأعصان المورقة والمغدقة فإن التقوى ستكون لا محالة الجذع الذي تنبثق من أصوله تلك الأغصان وتتغذى منه، فهي الشريان الحيوي الذي يمد الأخلاق بالنبض ويجعلها في كفاح دائم ومستمر ضد كل أساليب الحياة الملتوية، في كل زمان، وفي أي مكان، لأنها «عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي، وفعل ما يستطاع من الطاعات... واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن القوم»<sup>(3)</sup> فهي على ذلك ضابطة ومنظمة لحياة الإنسان في جميع نواحي الحياة الدنيوية، وإعداده لثواب الآخرة بتبصيره بالموبقات في الحياة الدنيا، وليس ادل على ذلك من قوله تعالى:

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

ص: 454

1- مارسيل بوازار - إنسانية الإسلام ص 60

2- منصور وجب - تأملات في فلسفة الأخلاق 228

3- محمد رشيد رضا - الوحي المحمدي ص 213

وَآتَى الرِّكَاءَ وَالمُؤفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي البَأْساءِ وَ الصَّراءِ وَ حِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(1) . فالتقوى، كما عدد القرآن الكريم مناحيها - إيمان صادق وتضحية بلا حدود، وقيم أخلاقية شاملة، فهي شعور مختلط يكمن فيه الدين بجميع أبعاده وقيمه. لذلك عدّها علي عليه السلام، هي الورع «مخ الإيمان... وهما من افعال القلوب»(2) لأنهما ينبعان من ذات الإنسان، وبهما يتمكن من موازنة حياته مع نفسه ومع الجماعة من حوله.

لقد ركز علي عليه السلام على التقوى كأساس لكل المعاملات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية، حتى غدت من السعة والانتشار في نصوص النهج بحيث نشعر بنبضها ونحس حيويتها في كل تعبير أخلاقي حاول علي عليه السلام بثه في رعيته، وحض ولاته على الأمصار من خلاله، فوردت التقوى بصيغة الأمر المفرد والجمع، ويوصف قيمتها ومردودها الأخلاقي فيما يقارب من ثمانية وثمانين موضعاً(3) . وهو وإن لم يصف التقوى بالهيئة التي وصفها القرآن الكريم بها،

ص: 455

1- البقرة/ 177

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 347

3- راجع الخطب: 3 الفقرة 2، 16 الفقرة الأولى في موضعين، والفقرة الثانية، 24 ، 27 الفقرة الأولى، 32 الفقرة الثالثة، 40 الفقرة الأخيرة، 41 ، 63 في موضعين، 79 ، 82 الفقرة الثانية والسادسة في موضعين والثامنة والتاسعة والعاشر، 93 ، 97 ، 109 الفقرة الأولى والثانية، 110 ، 113 الفقرة الثانية والثالثة والرابعة، 115 الفقرة الأولى، 119 ، 130 ، 132 الفقرة الثانية، 144 الفقرة الثالثة، 145 الثانية، 151 الثانية والثالثة، 158 الثالثة في موضعين، 162 الثانية 168 الرابعة، 175 الثالثة 178 السادسة، 184 الخامسة، 185 الثالثة في ثلاثة مواضع، 187 صدر الكلام في موضعين، 188 الثانية 189 الرابعة، 190 الثانية، 192 الثانية في ثلاثة مواضع والثالثة، 193 الثانية، 198، 225، 227 الأولى: 236 الأولى، 238 الثالثة، 239 الثالثة في ثلاثة مواضع 240 الثانية. ورسائل: 12 ، 25 ، 26 ، 27 ، الثانية 30 ، 31 الثالثة والسابعة، 32 ، 41 ، 45 الثانية والسابعة، 47 الأولى والثانية، 53 الثانية، 55 ، 56 . حكم: 93 ، 111 ، 201 ، 208 ، 241 ، 268 ، 350 ، 376 ، 377 ، 395 ، 418 ،

إلا أنه قد عدّها علاجاً للقلب وللروح والجسد والنفس كما في قوله «فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبر عمى أفندتكم وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشاء أبصاركم، وأمن فرع جأشكم وضيء سماء ظلمتكم»<sup>(1)</sup> فباستيعاب دقيق وشامل قد ضمن التقوى في المعاني الإنسانية التي يحتاجها الفرد والمجتمع كزاد روحي هدفه السعادة والخير ونكران الذات، بتجنب الانانية والبغضاء والحسد على اعتبار انها علاج كل داء أخلاقي فردي كان أم اجتماعي، أما تركه لوصف فروع التقوى، وتركيزه على مفعلوها فلأن - كما نعتقد - يدرك ان من يستمعون إليه، يفترض فيهم معرفة معاني القرآن الكريم، لأنهم مسلمون، لذلك ترك أمر التفصيلات داخل التقوى إلى القرآن مركزاً على آثارها الأخلاقية. فالتقوى هي «الفضيلة الأم التي تتكاثف فيها كل الوصايا»<sup>(2)</sup> الأخلاقية، كما تبدو في فكر علي عليه السلام، وهي أيضاً الأساس الذي يربط الإنسان بمختلف علاقاته الاجتماعية كما في قوله «لا يهلك على التقوى سنخ أصل ولا يظمأ عليها زرع قوم»<sup>(3)</sup> فهي منبع كل حقيقة أخلاقية، وهي المعول عليها في فكر علي عليه السلام، لبقاء شجرة القيم في ورائها وأصالتها، تظلل الإنسانية بقيتها، وتعتمد على عمقها في النفس لتثبيت كل ما

ص: 456

- 
- 1- خطب - 192 - فقرة 2، جلا كشف واطهار - عشاء، يعشو، عشوا، ساء يصره ليلاً أو نهاراً، جأشكم - خوفكم
  - 2- محمد دراز - دستور الأخلاق في القرآن ص 681
  - 3- خطب 16 فقرة 2 - والنسخ الأصل والمثبت لكل شيء

هو خير، لذلك فإن انطماس معالمها في نفوس الناس، ينجر عنه تقشي النفاق، والضلال والزلل، والتلون والفتنة والكيد والحسد، فيحل الدمار والدموع والظلم والباطل بأساليبه المختلفة (1) وذاك هو الانهيار الحقيقي الذي ليس بعده قائمة، لأن «التقى رئيس الاخلاق» (2) والموجه لها والمتحكم في زمامها.

لقد عرض الإمام علي عليه السلام في خطبه ورسائله ووصاياه وحكمه لجميع القيم الخلقية من شجاعة، وصدق وامانة ووفاء وكرم وتواضع وحلم... إلا أنه قد جمع تلك القيم في العدل والحق اللذين يرتضعان من أم الأخلاق التقوى فجمعها معها كل المعاني الإنسانية والقيم الخلقية التي تهدف في الأساس إلى تنشئة الإنسان وتربيته تربية مثالية.

ص: 457

---

1- راجع خطب 118 فقرة 2

2- حكم - 418



## الفصل الثالث: التربية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة

### التربية ومراميها الأساسية

التربية عملية معقدة تتداخل ضمنها عدة علوم انسانية ترمي «الى مساعدة الطفل والمراهق والبالغ على تكوين شخصيتهم وتنميتها»<sup>(1)</sup> من حيث العقل والسلوك والوجدان والعلاقات الاجتماعية، وهي من وجهة نظر إسلامية، موازنة الفرد نفسه بين المطالب الدنيوية والمطالب الأخروية طبقاً لقوله تعالى:

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا»<sup>(2)</sup>.

وذلك التوازن الدقيق يقتضي، بطبيعة الحال، تدريب ومران، على يد جهات عدّة، إذ لا يتأتى للفرد أن يعلم نفسه بنفسه، ولا بد له على الأقل في البداية من يأخذ بيده ويضعه على الطريق، وذلك العمل من أولويات الواجبات التي تناط بالأسرة في الإسلام، فمن واجب الآباء أن يراعوا أبناهم في كل مرحلة من

ص: 459

---

1- يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية ص 261

2- القصص / 77

مراحل نموهم، ويغذوهم بما يحتاجونه من زاد ثقافي وأخلاقي بما يتناسب كل مرحلة، فبصدد مراحل النمو وعلاقتها بالتربية يقول جعفر الصادق عليه السلام «يثغر الغلام لسبع، ويؤمر بالصلاة لتسع، ويفرق بينه في المضاجع لعشر، ويحتلم لأربعة عشرة سنة، ومنتهى طوله لاثنتين وعشرين سنة، ومنتهى عقله لثمان وعشرين سنة الا التجارب»<sup>(1)</sup> فالتربية كما نلاحظ متمشية مع نمو الفرد، بحيث لا تنفك عن مراقبته منذ طفولته الأولى حتى سن المراهقة، ومن ثم تزويده بالخبرات التي تمكنه من العيش في محيطه الذي ينشأ فيه، ذلك من ناحية السلوك الاجتماعي وعلاقته بتطور السن، الا ان السلوك لا يكون كافياً ما لم يكن مقروناً بالثقافة ومرحلية توصيلها، وهنا أيضاً يستوقفنا قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلم الكتاب سبع سنين، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين»<sup>(2)</sup> وقد يبدو العلم في المقولة مقصوراً على العلوم الدينية، الا اننا بتوسعنا في الكلام عن التربية سنجد ان جده علي بن أبي طالب عليه السلام قد كان يعني بالعلم في مقولاته المتعددة جميع المعارف الدينية والدنيوية، فقولته «تعلموا العلم، ولو لغير الله فإنه يصير لله»<sup>(3)</sup> يعني به - كما نعتقد - جميع اصناف العلوم العقلية والنقلية، والتي إذا ما استخدمت لمصلحة الإنسان فهي لله سبحانه وتعالى. فالأهداف الأساسية في التربية الإسلامية تشنه فرد متزن السلوك حسن الخلق صحيح الجسم سليم العقل مثقف، وفي مجال عمله على وجه الخصوص، وهذه المسؤولية الخطيرة كما تبدو في فكر علي عليه السلام - ليست قصرأ على الأسرة وحدها، لأنه يرى - كما نعتقد - ان تهيئة الحياة السعيدة وإزالة

ص: 460

1- الكليني - فروع الكافي 46/6 ، 47 ، ويثغر - تسقط أسنانه لتنتب مكانها أسنان أخرى

2- المصدر السابق نفسه

3- شرح ابن أبي الحديد 20 / 267

الجهل من النفوس، والمحافظة على القيم، هي من حقوق الأمة التي يجب ان تلتزم بها الحكومة، ففي تبيان الحقوق الملزم بأداتها تجاه من يحكمهم يقول «اما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا»<sup>(1)</sup> فالتوجيه والتعليم والتأديب هي ركائز التربية التي الزم بها نفسه كحقوق واجب عليه الوفاء بها نحو الأمة، وللاهتمام البالغ الذي اولاه للتربية، فقد اعتبرها انبل الصناعات، على اعتبار أن «لكل شيء صناعة، وحسن الاختيار صناعة العقل»<sup>(2)</sup> أي تنشئة الإنسان بتنمية مداركه، وتقويم أخلاقه، منذ نعومة أظفاره. ويمكن دراسة الجوانب التربوية - كما تبدو في نهج البلاغة - في عنصرين متكاملين، يهدفان إلى نتيجة واحدة غايتها الإنسان وسعادته.

### العصر الأول: وينصب على تنمية شخصية الفرد

بهدف بنائها بناء تكاملياً يتناسب وظروف العصر الذي يعيش الفرد فيه، انطلاقاً من قوله إلى الآباء «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»<sup>(3)</sup> وهو لا يعني بمقولته بأن يترك الحبل على الغارب للأبناء كما يشاؤون متكررين لأصالتهم، نابذين تقاليدهم، فالهدف الذي يرمي إليه علي عليه السلام من المقولة - كما نعتقد - هو محاولة الآباء التفاهم مع العصر الذي يعيشه الأبناء بما يتماشى والتطورات العصرية التي تحدث فيه، شريطة عدم التنكر للأصالة، فإيمانه بمزايا تطور العصر فيه تربية الأبناء، لم يحجب رؤاه

ص: 461

1- خطب - 34 - الفقرة 2

2- شرح بن أبي الحديد 20 / 334

3- شرح بن أبي الحديد 20 / 267



الفكرية عن ان «من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى اوطانه، وحفظ قديم اخوانه»(1) فالتطور - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - يجب أن يكون نابعاً من الدخول مع الارتباط بالجزور، التي تمنح الإنسان هويته المتميزة من حيث التفرد بخصائص معينة تمنحه الاستقلالية، في الوقت نفسه الذي تمده فيه بميزات مشتركة مع بقية أبناء مجتمعه، تجعل منه فرداً عاملاً. فانسجام التمايزات الفردية مع الخصائص الاجتماعية العامة تجعل الفرد متوازناً من حيث متطلباته الفردية وضروراته الاجتماعية، إلا أن نصوص نهج البلاغة لا تمدنا بنظريات مباشرة ومحددة في مجال التربية المتخصصة بتنمية الشخصية، واعدادها للحياة، ولكن بتبعنا لما ورد ضمن تلك النصوص من نصائح عملية تتصل بمسؤوليته كولي أمر لجميع عامة المسلمين، يمكن ان نستنتج كثيراً من المتطلبات التربوية التي تهدف إلى تنمية الشخصية تنمية مترنة، وأهم ما أمكننا التوصل إليه في الشأن يتمثل في أربعة محاور:

## الأول - التربية البدنية:

يعطي الإسلام أهمية كبيرة جداً، لسلامة جسم الفرد، ويعتبرها من المميزات الرئيسية فيمن يناط به أي عمل، لاعتباره سلامة الأعضاء، وصحة جسم، احد عنصري الكفاءة والقيادة، وفي قوله تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»(2) ما يوحى، بأن المؤهل لخدمة الناس يجب ان يتمتع بالكفاءة العلمية بمعناها الشامل

ص: 462

1- السابق 20 / 274

2- البقرة/ 247

بالإضافة إلى صحة الجسم وسلامة الاعضاء، لذلك فقد حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إقران التربية الدنية بالتربية العلمية كما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم «حَقُّ الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية»<sup>(1)</sup> ويعد الفقهاء المسلمون سلامة أعضاء الجسم وحواصه من الشروط الرئيسية التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح لمنصب الخلافة<sup>(2)</sup>. وإذا ما رجعنا إلى نهج البلاغة لنستفتيه بشأن التربية البدنية، فسنجد ان كل ما ورد فيه من نصوص تكاد تعالج الموضوع من نواح ثلاث هي:

أ- ناحية وقائية: يرمي الإمام علي عليه السلام من ورائها إلى تبصير الناس بكيفية المحافظة على اجسامهم من تقلبات الجو كما في قوله «توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار، أوله يحرق وآخره يورق»<sup>(3)</sup>

وقد بنى استنتاجه ذلك - كما يتهيأ لنا - من خلال تأملاته الطبيعية أثناء مباشرته العمل في زراعة الأرض، ورؤيته عن كثب أثر التقلبات الجوية في الطبيعة.

ب - ناحية نفسية: وتعالج ما أصاب المجتمع من هزات عنيفة جراء تدفق الثروات، والتي أدت بالفرد إلى التكالب على الدنيا باقتناء الضياع وجمع الأموال<sup>(4)</sup> والنظر إلى ما في أيدي غيره من الناس<sup>(5)</sup>، مما أشاع الجشع والحسد والحقد كأمراض نفسية تزعزع كيان الفرد وتحطم معنوياته من الداخل، لعدم قدرته على نيل ما يتمناه، مما يحيل حياته إلى جحيم دائم، وعذاب مستمر،

ص: 463

1- المتقي الهندي كنز العمال 6/ 443

2- راجع ص 170 - 171 من هذا البحث

3- حكم - 126

4- راجع ص 101 وما بعدها من هذا البحث

5- راجع خطب - 23 - فقرة 1

لابد من تأثيره على صحته وتصرفاته بتفشي السرقة (1) والرشوة، وارجع الإمام علي عليه السلام كل ذلك إلى الحسد الذي نبه إلى خطورته في مواضع متعددة من النهج من ذلك قوله «العجب لغفلة الحساد عن سالمة الأجساد» (2) وهو يرى في موضع آخر من النهج ان «صحة الجسد من قلة الحسد» (3).

ج - ناحية عسكرية: وتتمثل وجهة نظر علي عليه السلام تلك، من تصور عميق لحالة الانهيار التي أشرف المجتمع عليها، جراء تمرغ أفرادها في النعيم، ونبذهم الحياة الجادة وراء ظهورهم، بالتكالب على اقتناص الملذات، والجلوس حول الموائد المليئة بما لذ وطاب من المأكولات (4)، والتهرب بكل الوسائل من الدفاع عن البلاد في حالة الدعوة لذلك (5)، وفي نهج البلاغة من الأمثلة التي حاول علي عليه السلام من خلالها علاج هذه المشكلة بإثارة النخوة الإسلامية (6) وإرجاع روح الفروسية العربية إلى نفوس شغلها حب الحياة عن أداء الواجب. وأوضح نص تربوي يبين فكر علي عليه السلام العسكري، المبني على تربية الاجسام على الخشونة وتعويدها حياة القوة المقرونة بجشوبة العيش قوله لمن عاب عليه أسلوبه في المأكل والملبس «ألا وإن الشجرة البرية اصلب عودا، والروائع الخضر أرق جلودا، والنباتات البدوية أقوى وقودا، وأبطأ خمودا» (7) فالصورة تعني تعويد

ص: 464

1- راجع رسائل - 40 ، 41 ، 43

2- حكم - 223

3- حكم - 255

4- راجع رسائل - 45 - الفقرة 1

5- راجع علي سبيل المثال خطب - 29

6- راجع علي سبيل المثال - خطب 27 ، 34 ، 96 ، 109

7- رسائل - 45 - الفقرة 3

الابدان الخشونة حتى تتمكن من التأقلم مع كل وضع، وتستطيع مواجهة غائلات الزمن بكل رحابة صدر وتتصدى لإغراءات المادة بكل حزم، اما النعيم والترف فيحيل الأجسام إلى لليونة والترف، فتميل إلى الدعة والاتكالية «فتذهب خشونة البداوة، وتضعف العصبية والبسالة»<sup>(1)</sup> فتكون النهاية الحتمية التي كان علي عليه السلام يحاول تجنبها الأمة بتربية الأجيال تربية تعتمد البساطة أسلوباً، وهو وان لم يستطع التصدي للتيار الجارف، فقد ترك فكراً يمكننا عده زاداً تربوياً تنبني عليه أفكار الأجيال اللاحقة بما يتناسب وتطور الحياة.

## الثاني - تربية عقلية:

شرف الله سبحانه العقل وأعلى من شأنه، وجعله من اعظم ما خلق من الأشياء، من ذلك ما رواه الكليني من حديث قدسي عن جعفر الصادق عليه السلام عن الرسول صلى السلام قال «لما خلق الله العقل أستنطقه ثم قال له اقبل، فأقبل، ثم قال له:

ادبر فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملتك لا فيمن أحب، أما أني إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب»<sup>(2)</sup> لذلك فقد أمرنا الله سبحانه بإعمال العقل للوصول إلى الإيمان به، كما ورد في قوله تعالى:

«قُلْ سِيرُوا فِي الِ الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ»<sup>(3)</sup>، كما حثنا سبحانه

بالرجوع إلى العقل كما في قوله:

ص: 465

1- مقدمة ابن خلدون ص 176

2- الكليني - اصول الكافي 10 / 1

3- العنكبوت/ 20

«كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (1) ، ويرى الرسول صلى الله عليه وآله أن قيمة الإنسان تكمن في حسن تصرفه وصلاحي عقله، كما في قوله: «إذا بلغكم عن رجل حسن حالٍ فانظروا إلى حسن عقله فإنما يجازى بفعله» (2) لذلك اهتم آل البيت عليهم السلام بتربية العقل، على رأسهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن مآثراته التي بين فيها صفات العاقل ما رواه الكليني «إن من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال: يجب إذا سُئل وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء، فهو أحمق» (3) ، فالعاقل على ذلك الأساس هو من يتمكن من العمل بجميع المزايا الإنسانية والأخلاقية ويتمكن أيضاً من تأدية التزاماته تجاه ربه وتجاه نفسه، وتجاه مجتمعه بصدق وإخلاص، والعقل بكل ما اودعه الله فيه من طاقات وملكات لا حدود لها، فإنه يستطيع ان يمد الإنسان بالإرادة على فعل كل ما فيه مصلحته ومصلحة من حوله، شريطة ان يراعي بالتنمية وبالتوجيه السليم الذي يعود على الفرد وعلى المجتمع بالصلاح والسداد، لذلك فقد جعل علي عليه السلام للترقية العقلية مكانة في فكره التربوي، من ذلك انه اعتبر العقل وبطريقة عملية الموجه الحقيقي الصادق لكل تصرفات الإنسان المتعلقة بوجوده وبجميع شؤون حياته. فالعقل - في الإمام فكر علي عليه السلام - موجه عادل ومتزن فهو «لا يغش من أستنصحه» (4) وبالتالي فإن العقلانية هي السمة التي

ص: 466

1- الروم / 28

2- الكليني - أصول الكافي 1 / 12 - أي يجازى بأعماله بقدر عقله، فكل من كان عقله أكمل، كان ثوابه اجزل

3- السابق 1 / 19

4- حكم - 289

تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، لأن العقل يتعلم ويتعظ بالأدب «والبهائم لا تتعظ الا بالضرب»<sup>(1)</sup> فالتهذيب والتعليم بالكلام وبالممارسة يجديان فيمن يُعمل عقله ويتأمل في الأشياء ومردوداتها، فيكون تعامله معها مبني على أسس موضوعية قوامها التفكير المتأنى المتعقل، فالعقل كما يراه علي عليه اسلام، هاد ودليل <sup>(2)</sup> يمكن الاعتماد عليه في جميع مسالك الحياة، فهو يؤدي إلى الإيمان القوي الراسخ بالخالق سبحانه، فيما لو أعمل الإنسان عقله، وتأمل فيما حوله، واستبطن ذاته، وتفكر في نشأته، ونشأة الكون من حوله، وقد استخدم علي عليه اسلام في كثير من نصوص نهج البلاغة، الأساليب المشيرة للتفكير والداعية للتأمل <sup>(3)</sup>، كوسيلة من وسائل التربية المؤدية إلى الإيمان من ذلك قوله في نشأة الإنسان «أيها المخلوق السوي، والمنشأ المرعي في ظلمات الارحام، ومضاعفات الاستار، بدئت من سلاله طين، ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم... فمن هداك لاجتراء الغذاء من ثدي مك؟ وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك...»<sup>(4)</sup>، والإجابة عن الاسئلة تقتضي التفكير الموصول لا محالة إلى وجود خالق مدبر، يجدر بالإنسان شكره وطاعته والإيمان به، وهي زاوية من زوايا التربية العقلية في فكر علي عليه السلام.

ونظرة الإنسان إلى نفسه بعين العقل والتفكير، قبل الإقدام على أي عمل، والوقوف عند المجهول دون حيرة أو تردد <sup>(5)</sup>، كل ذلك يجعل من الفرد قوة

ص: 467

1- رسائل - 31 - الفقرة 24

2- راجع علي سبيل المثال: رسائل 78، حكم 38، 96، 289

3- راجع علي سبيل المثال خطبة - 220 - وما تضمنته من اسئلة تأملية

4- خطب - 164 فقرة 3

5- راجع رسائل 31 - الفقرة - 4، 7

دافعة تكبح الشهوات، وتأنى بالنفس عن المزلق، فمن مستلزمات إنسانية الإنسان ان يحذر في كل تصرف إزاء نفسه وإزاء غيره «حذر الغالب لنفسه، المانع لشهوته، الناظر بعقله»(1) لأن الاستجابة لنداء النفس شهوة، والشهوة نوع من أنواع العشق «ومن عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد حرقت الشهوات عقله»(2)، وحتى بتفادي الإنسان ما تجلبه النفس من وبال الشهوات، عليه ان يجمعها، ولن يتأتى ذلك - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام التربوي - الا بالاعتماد على هدي العقل، إذ يقول «كفأك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيك من رشدك»(3) ومعيارية العقل في فكر علي عليه السلام التربوي، ترى ان بإمكان الفرد ان يتفاعل مع مجتمعه ويعيش مع جميع فئاته عيشة يسودها الحب والاحترام إذا ما عول على فكره في تكوين علاقاته، واضعاً في اعتباره امكانية التعامل مع كل فرد بحسب مستواه العقلي، وتتمثل وجهة نظر علي عليه السلام حول تلك الفكرة في ان «التودد نصف العقل»(4).

وواقع الحياة كما يبدو في فكر علي عليه السلام - سعي انساني دؤوب من أجل العيش الكريم، في ظل علاقات متكاملة بين المخلوق وربه، وبين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، ثم ان الفرد محتاج أثناء رحلته الحياتية الشاقة - إلى جانب من الراحة الجسمية والعقلية، لدفع الملل والسأم والرتابة عن حياته، ويمكن

ص: 468

1- خطب - 162 فقرة 3

2- خطب - 108 - فقرة 3

3- حكم - 429

4- حكم - 140

للإنسان تهيئة متطلباته تلك تهيئة سليمة وعادلة بإعمال العقل، ونستطيع استخلاص ذلك من قوله «ليس للعاقل ان يكون شاخصا الا في ثلاث، مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير اثم(1)». وخالصة التربية العقلية - كما تبدو في فكر علي عليه السلام - ان على الإنسان ان يحرص على استغلال كل طاقاته الفكرية للتفاعل مع مجتمعه بالمساهمة البناءة والإفادة من تجارب الآخرين إفادة عملية، لأنه يرى ان «العقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك» (2) أي ما أفدت منه، فالعقل العالم العامل، هو الحريص على الإفادة من كل ما اكتسبه من الحياة من تجارب و«الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة» (3). فالتربية الجسمية والتربية العقلية هما العنصران الرئيسيان لبناء الشخصية - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام التربوي لأن العقل السليم في الجسم السليم، وإذا ما أتيح للعقل أن يعمل فإنه سيكون أرضاً خصبة للتربية العلمية.

### الثالث - تربية علمية:

يضع الإسلام العلم في منزلة سامقة، لما له من أهمية في حياة الأفراد والأمم، وتتجلى هذه الأهمية في أن آية نزلت من السماء، قد اسندت العملية التعليمية إلى الله سبحانه وتعالى في قوله:

ص: 469

1- حكم - 396 - المقطع الثاني

2- رسائل - 31 - فقرة 22

3- رسائل - 78



«أَفَرَأَىٰ وَرَبِّكَ الْأَكْزَمُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (1). ولأهمية العلم في حياة البشر فقد كرم الله العلماء، ورفع من مكانتهم لقوله تعالى لا:

«يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (2). الدرجات جعلت مقارنتهم بغيرهم من بقية الناس في غير مكانها لقوه تعالى:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (3) وبطبيعة الحال فإن الاستفهام في الآية يتضمن نوعاً من التهكم، مما يعني ضمناً تعذر المقارنة بين منزلة العالم وغيره من بقية الناس، لأن المسؤولية المناطة بالعلماء جداً خطيرة في جميع مجالات الحياة، لكونهم العقل المدبر الذي يخطط لجميع ميادين الحياة، بحيث يمكن عدّهم صنّاع الحضارة والقادة الحقيقيين للبشرية وبناء العقول الذين يعول على علمهم في انتشال العقول من براثن الجهل ووضع الإنسانية على الطريق الصحيح، لذلك فقد عدهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «ورثة الأنبياء» (4) والوراثة العلمية أعلى وأندر من جميع الموروثات المادية الآيلة إلى الزوال حتما مهما طال مكثها وبقي أثرها، وبسبب اهتمام الإسلام بالعملية التعليمية، فقد حاول العلماء المسلمون وضع الخطوط الرئيسية للمزايا والشروط التي يجب ان تتوفر في شخصية العالم الحق، مستلهمين ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما أثر عن الصحابة والتابعين من اقوال وافعال، واهم هذه الشروط هي:

ص: 470

1- العلق / 3، 4، 5

2- المجادلة / 11

3- الزمر / 9

4- سنن ابن ماجه 1 / 81

- 1- التأى بالنفس عن حب الظهور، وتجنب الاطراء «إذ ينبغي ان يكون تعليمه لوجه الله تعالى، لا يريد بذلك رياء ولا رسماً ولا عادة ولا زيادة ولا جاه»(1).
- 2- نبذ التكبر عامة وتجاه المتعلمين على وجه الخصوص «باجراء المتعلم منه مجرى بنيه»(2).
- 3- عدم الجري وراء المادة والتكالب على حب المال «بقطع الطمع عن المتعلمين والرفق بهم في التعليم والتواضع لهم والعطف عليهم وتقريب الفقير لفقره»(3).
- 4- الإخلاص في التعليم بأن «لا يدخر نصحه عن المتعلم، وزجره عن الأخلاق الردية بالتعريض أو التصريح، ومنعه أن يتشوف إلى رتبة فوق استحقاقه»(4).
- 5- اطلاعه الواسع في أساليب التربية والعمل بكل أسلوب في موضعه، فلا يقيم أسلوب التصريح مقام أسلوب التعريض، ولا الفعل موضع القول إذا كان القول يجدي، ويأتي بالثمرة المطلوبة(5).
- 6- مراعاة متطلبات الوضع وحاجة المجتمع، إذ ينبغي من العالم ان يكون ملماً بحاجات العصر، فيوجه المتعلمين الوجهة الصحيحة، بالأساليب المقنعة مع الوضع في عده «ما يههم الطالب في الحال اما معاشه أو معاده، ويعين له ما

ص: 471

---

1- طاش كبرى زادة مفتاح السعادة 39/1 ، 40

2- طاش كبرى زادة مفتاح السعادة 39/1 ، 40

3- السابق 41/1 ، 42

4- السابق 41/1 ، 42

5- راجع السابق 42/1

7- الإمام التام بأساليب العملية التعليمية من حيث التدرج في توصيل المعلومات بحسب السن، وبحسب المستوى الثقافي، والتقبل الفكري(2).

8- الاتزان الشخصي بعدم مخالفة القول للفعل، لأن العالم قدوة لذلك يجب ان تكون «عنايته بتزكية اعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره»(3).

9- ضبط النفس وكظم الغيظ، وتجميل خرق المتعلمين، ومحاولة توصيل المعلومات لهم بالإعادة لهم والشرح، مع مراعاة مستوياتهم الإدراكية(4).

تلك اذن هي خلاصة الشروط التي يجب ان تتوفر في المتصدر لتعليم الناس في الفكر الإسلامي. واذا ما حاولنا استفتاء فكر علي عليه السلام بشأنها، فلن نجد في نصوص نهج البلاغة ما يوضح ذلك مباشرة، لأن علياً عليه السلام قد تكلم عن التعليم بخطوط عريضة ترسم لنا فكره الذي يمكننا من خلاله استنتاج، إن سياسته التربوية ما هي إلا جزء لا يتجزأ من سياسته العامة في إدارة شؤون الدولة، بحيث لا يمكن الفصل بين أقواله وبين المجتمع الذي قبلت فيه، لتوحد شخصيته، واندماجها في ذلك المجتمع ومعايشتها مشاكله بكل أبعادها، لذلك فإن شخصية العالم في فكر علي عليه السلام - كما تبدو في نهج البلاغة يمكن إدراك ملامحها وتكوين فكرة شبه متكاملة عنها من خلال وصفة لإيجابيات عصره وسلبياته.

فمن حديثه عن صفات المتقين الذين يعول عليهم في هداية الناس وتبصرهم

ص: 472

1- السابق 43 / 1

2- راجع السابق ص 44

3- السابق 48 / 1

4- راجع السابق 51 / 1 وما بعدها

بشؤونهم الدينية والدنيوية يقول «فمن علامة أحدهم، انك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم» (1) ومن الملاحظ ان قوة الدين تجعل الفرد تقياً ورعاً يبذل علمه لكل من يطلبه دون الجري وراء شهرة، ثم ان الحزم المشوب باللين يجعل تربيته للمتعلمين متوازنة لا هي إلى الافراط تميل ولا إلى التفريط ترجح، والايمان اليقيني بقدرته تجعله في موضع حصين عن النقد والتجريح، لأنه سيعتمد على تلك القدرة المؤمنة في التوصيل، دونما تحميل نفسه فوق طاقتها، وجعلها موضع اتهام وإزدراء المتعلمين، كما ان الإيمان بمحدودية طاقة النفس يشعرها دائماً بالنقص، مما يؤدي بها إلى الحرص الدائم على الجري نحو الكمال في طلب العلم، والجري وراء الاستزادة شعور بالنقص، مما يؤدي بدوره إلى التواضع، وهنا تستوقفنا مقولة لعلي عليه السلام تتعلق بشخصيات العلماء وعلاقتها من حيث التكبر والتواضع بالانتماء الاجتماعي وهي ان «السفلة إذا تعلموا تكبروا... والعالية إذا تعلموا تواضعوا» (2) وهي لا يقصد بالسفلة والعالية - كما نعتقد - انه يضع سلماً اجتماعياً يصنف به الناس إلى درجات تفاضلية، لأن السفلة في السياق تعني (الانتهازيين)، ذوي النفوس المريضة، والايمان المتزعزع، الذين يجعلون من العلم وسيلة يركبونها للوصول إلى مآربهم الشخصية، وغاياتهم الدنيئة، وهؤلاء من وجهة نظر علي عليه السلام ليسوا بعلماء الا في مفهوم أشباه الناس (3)، وهم أولئك الذين لا يفقهون معنى العلم، ولا يدركون ابعاده وخطورته، لأنهم ينهبون بالتشدد بالعبارات الرنانة الغامضة، التي تبلغ بالفرد المدعي من الغرور غاية لا «يرى من وراء

ص: 473

1- خطب - 187 - فقرة 3

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 290

3- راجع - خطبة 17 - الفقرة الثانية

ما بلغ مذهبا لغيره، فإن اظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه»(1) فالغرور والاصرار على الخطأ كما يقول علي عليه السلام - يجعلان من «العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت»(2) والتعنت جماع من مساوي الأخلاق، المتمثلة في التكبر، والتسلط والاصرار على الخطأ والتمادي في طريقه، وعدم الشعور بالنقص للاستزادة، كل تلك المساوي تجعل المتعلم ينبذ العالم وعلمه.

والتعويل على العالم وعلمه في فكر علي عليه السلام من المهمات الأساسية في الحياة الإنسانية، إذ يستطيع العالم إذا ما أخلص لعلمه، أن يجعل منه منقذا وهادياً في مجال تخصصه، أما زلته فيعدها «كانكسار السفينة تغرق ويغرق معها خلق»(3) فالعالم واستعماله علمه استعمالاً قوياً - مع إدراك تام منه بمسؤولية العملية التعليمية - في اعتبار علي عليه السلام، من أولويات مقومات الدين والدنيا الأربعة، ويمثل ذلك قوله «قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستكف ان يتعلم، وجواد لا يبخل بمعرفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه، استكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعرفه، باع الفقير آخرته بدنياه»(4). وتضييع العالم لعلمه، يتمثل في بذله لمن لا يستحقه، وتمريغه على اعتبار السلاطين جرياً وراء الشهرة والمال، والبخل به على محتاجيه من بقية الناس، واستغلاله في تدمير الإنسانية، وتلك الصفات هي التي غلبت

ص: 474

1- السابق الفقرة نفسها

2- حكم - 328

3- شرح ابن أبي الحديد 20 / 343

4- حكم - 378

على علماء عصره وشكلت خطراً مخيفاً على المجتمع (1) فخوف علي عليه السلام على الأمة في عصره لم يكن مما اعلن عن اعدائه ووضع سيفه على عاتقه جرياً وراء المركز والمادة، فإن مثل ذلك عدو ظاهر لا تخشى غائلته ويمكن صدّه، ولكن الذي يخاف منه ولا يمكن معرفته بسهولة ورد كيده في الحال هو «كل منافق الجنان عالم للسان» (2) مما يعني ان شخصية العالم هي التي توجه العلم وترسم طريقه، ونعتقد أن لعنصر المادة دوره الكبير في تشكيل أخلاق العلماء في عصر علي عليه السلام، مما حدا به إلى عقد مقارنة بين قيمة العلم، وقيمة المال، وكأنه يريد من رواء تلك المقارنة، أن يظهر شخصية العالم من دون المادة ولينأى بعلمه عن كل منزلق لا أخلاقي، وضمن هذه المقارنة يقول «العلم خير من المال، العلم يحرسك وانت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإتقان، وصنيع المال يزول بزواله» (3) فالمال في فكر علي عليه السلام - كما يظهر - مقود، والعلم هو القائد، لأن المال عادة ما يكون بيد مالكة، يمكنه صرفه حيث يشاء وكيف يشاء، بالإضافة إلى أنه عرض زائل لا يمكن للإنسان المحافظة عليه أو صيانتها مهما بلغ حذره، أما العلم الحقيقي، فهو الذي يخلق صاحبه، ويبنيه بناء داخلياً يجعل منه انساناً يستطيع أن يخلق ويبتكر، فيضفي على الإنسانية الحياة، فكلما كان استغلاله لعلمه قوياً كلما اتسع افقه، فنشر العلم وبذله يزيده نماء بلا حدود.

ويضع الإمام علي عليه السلام سلطان العلم في مواجهة سلطان المال ويعقد مقارنة بينهما يبين من خلالها أثر كل منها في تشكيل شخصية الفرد فيقول «معرفة العلم

ص: 475

---

1- ذكر ابن أبي الحديد في شرحه 63 / 4 بعضاً ممن باعوا علمهم على معاوية من الصحابة والتابعين

2- رسائل - 27

3- حكم 145 الفقرات 2، 3، 4، 5

دين يدان به، يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدثه بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه... هلك خزان الأموال وهم احياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، اعيانهم مفقودة، وامثالهم في القلوب موجودة»(1) فاعتباره العلم دين، يقتضي من العالم ان يجمع في شخصه كل ما يعنيه الدين من معان سامية خاصة وان «فضل العلم خير من فضل العبادة»(2) كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يعني ان العالم بمكانته في المجتمع وتأثيره في حياة الناس، افضل من المتعبد القابع في زاوية، همه طلب النجاة لنفسه بالصيام والقيام، فمكانة العالم وشخصيته تكمنان في علمه، وهو الذي يحدد قيمته ومركزه الاجتماعي الذي يبقى فيه مادام مخلصاً لعلمه، وتدوم استمراريته بعد وفاته فيما ترك من فكر مصان بالأخلاق ومحاط بالرعية ممن يحملونه عنه فيستمر في الزكاء بالتنقل في الزمن بين الاجيال. فالمقارنة بين الفكر والمادة - عند علي عليه السلام - متولدة من حاجة ماسة إلى علماء يستطيعون اداء واجباتهم التعليمية بإخلاص، وذلك بعد أن قاست نفسه آلام الغربية في مجتمع لم يضع معظم علمائه القيمة الحقيقية للعلم، ولم يحاولوا صيانتها، فعلى سبيل المثال باع بعض العلماء والمحدثين فتاواهم (3)

ص: 476

1- حكم 145 الفقرات 2، 3، 4، 5

2- الماوردي - أدب الدنيا والدين ص 38

3- من ذلك ما روي، ان معاوية بن أبي سفيان قد «بذل لسمره بن جندب مئة الف درهم حتى يروي ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَ يُحِبُّ الْفُسَادَ» البقرة/ 204 ، 205 ، وان الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله»... البقرة/ 207 ، فلم يقبل، فبذل له مائتي الف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة الف فلم يقبل، فبذل له اربعمائة الف فقبل، وروي ذلك شرح ابن أبي الحديد 73/4

وسخروا علمهم إلى من يريد به بالقدر الذي يناولونه من امواله.

ومن أهم مميزات شخصية العالم في فكر علي عليه السلام - أن يكون عاملاً بعلمه، لأن العلم والعمل - من وجهة نظره - قرينان متلازمان، إذ لا جدوى من علم لا يستفاد منه، فالعلم كما يراه علي عليه السلام «يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل» (1) إذ لا جدوى ولا طائل من كون العالم حافظاً للتجارب، عارفاً بتفاصيلها، ملماً بدقائقها، وإنما العالم الحقيقي من استفاد وأفاد، وانتفع ونفع، وتمكن من تطبيق علمه، ويمكن استخلاص ذلك حسب فهمنا - من قول علي عليه السلام «وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده، ويعرف غوره ونجده» (2). ويرى علي عليه السلام ايضاً، انه لا جدوى على الإطلاق من عمل بغير علم، وتتمثل وجهة نظره تلك في ان «العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح الا بعداً عن حاجته، والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح» (3).

فالتربية العلمية في فكر علي عليه السلام تهدف إلى جعل العالم والمتعلم مثلاً متكاملًا من حيث العطاء والأخذ في جميع ميادين الحياة العملية والأخلاقية والإنسانية، على أساس أن العلم هو المحور الذي به تستقيم الحياة وتنمو ولا يمكن أن يتطور ويثمر الا إذا صانته أيد أمينة ووجهته نحو خير البشرية، لذلك فقد كان حريصاً كل الحرص على تعليم الناس، وحثهم على سؤاله في كل وقت فلم يكن «أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب» (4)، وقد كان دائماً يطلب المزيد، فحين

ص: 477

1- حكم - 372

2- خطب 154 - فقرة - 1

3- خطب 154 - فقرة، 3

4- ابن عبد البر - جامع بيان العلم وفضله 1/ 114



سأله بعض الصحابة عن السبب في غزاه علمه قال «كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكتت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني»<sup>(1)</sup>، فقد كان مثال شخصية العالم والمتعلم الذي يريد من العلماء الاحتذاء حذوه بإثراء العقل وتزويده بالعلوم والخبرات على الدوام، وبذل العلم في كل وقت لمن طلبه وسار نحوه.

#### الرابع - تربية إنسانية:

نعني بالتربية الإنسانية، كل العناصر التربوية التي تهدف لانتشال الإنسان من مهاوي الخوف والسمو بالنفس وصيانة الكرامة والتبصير بأساليب الحق، والتربية الإنسانية - في فكر علي عليه السلام - بمفهومها الذي نهدف إلى تسليط الضوء عليه، هي في الحقيقة جانب من جوانب فكره الأخلاقي المتوحد، مع نظراته المؤمنة بقيمة الإنسان كمخلوق حر، محفوظ الكرامة مصان الحقوق، سواء اكان مسلماً أم كافراً، عربياً أم أعجمياً، قرشياً أم غير قرشي، وقد ركز علي عليه السلام تركيزاً بالغاً على هذا الجانب التربوي، كل ذلك في محاولة منه لكسر حاجز الخوف، الذي فرضته قريش على بقية العرب<sup>(2)</sup> بتسلطها واستئثارها، ومن ثم امتهان العرب واحتقارهم للأجناس غير العربية الأخرى<sup>(3)</sup>، على اعتبار فضلهم في نشر الإسلام، وفي طرق ثالث تسلط المسلمين على غير المسلمين<sup>(4)</sup> من الأجناس الأخرى واعتبارهم رقيق ارض فاستحال المجتمع إلى نظام هرمي، تتسلط فيه كل فئة على الأخرى،

ص: 478

1- تفسير الفخر الرازي 221 / 31

2- بشأن حالة العناصر المكونة للمجتمع في عصر علي عليه السلام وعلاقتها ببعضها البعض راجع هذا البحث ص 371 وما بعدها

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

مما ولد التكبر والازدراء والاحتقار والاستغلال في مقابل الخضوع والاستكانة والخوف، فالعلاقات الإنسانية لم تعد مبنية على أسس من المساواة والحب، بل على الاستبداد والاستغلال التدرجي كل حسب منزلته الاجتماعية، فامتنت كرامة الإنسان، وضاعت حقوقه، وأخذت المبادئ الإسلامية في التراجع، لتحل محلها الرغبات الذاتية. عاش علي عليه السلام هذه المشاكل بكل أحاسيسه، وكان يشعر في قرارة نفسه أنه لا بد من مواجهة التيار إذا ما أريد أن تعود للإسلام نصاعته، بتبنيه الأمة إلى الخطر المحدق بها، ومحاولة الرفع من المعنويات وبث روح النخوة والحماس، وقد أكثر من مثل تلك الأساليب في خطبه الجهادية (1)، وما تقرّعه المستمر لأصحابه بسبب تقاعسهم عن صد غارات معاوية (2)، وتصلهم من القيام بواجب الجهاد، إلا صورة من صور التربية الإنسانية التي كان المجتمع في ميسس الحاجة إليها في عصره، إذ يمكننا من خلال تعمقنا في فهم مضامين هذه الخطب أن نعيش آلام علي عليه السلام النفسية بسبب ما أصاب المجتمع من تنازل وجبن وتكالية، فمن باب التقريع واللوم بقصد إثارة الحمية وبث الحماس، والتبصير بقيمة الإنسان الحقيقية يقول «أبها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم» (3).

ص: 479

1- راجع على سبيل المثال خطب 25، 27، 29، 34، 51، 55، 67....

2- هي حروب خاطفة شنّها معاوية على اطراف البلاد الخاضعة لحكم علي عليه السلام، وكان ذلك بعد القفول من صفين واختلاف الحكمين، وكان قصد معاوية من ورائها بث الرعب والفرع في أصحاب علي عليه السلام وشغلهم عن الالتفاف حوله حتى لا يعود لمحاربته مرة ثانية، وبشان هذه الغارات وما أحدثه فيها أصحاب معاوية من قتل ونهب ودمار، راجع: البلاذري - انساب - الاشراف - 437/2 وما بعدها

3- خطب - 167 - فقرة 3

فكما يرى علي عليه السلام، فإن انهزامية نفوس أصحابه لم تتولد عن قوة العدو المقابل، لأن ذلك العدو لم يكن في قوتهم، ولكنها متولدة من تراجع النفوس عن قيمتها الاصلية في معرفة الحق والتصدي للباطل فخلاصة التعبير أن علياً عليه السلام كان يريد ان يعيد إلى أصحابه الثقة في أنفسهم بينائها بناءً انسانياً يقتضي معرفة الإنسان لقيمه الذاتية دون الاعتماد على الغير في تقييمها حسب معايير اجتماعية متميزة، تتناسب والمصلحة الشخصية لذلك الغير، ومحاولة بناء شخصية الإنسان، وتربيته تربية أخلاقية تقوم على المبادئ والقيم، في العصر الذي استخلف علي عليه السلام فيه، هي من أعسر الأمور التربوية وأصعبها، لا- لكون القيم الإنسانية التي نادى علي عليه السلام بها غريبة على مجتمعه أو جديدة عليه، ولكنها في مجملها تتعارض والتطلعات المادية التي جلبتها الفتح، فركن الإنسان إلى الدعة وانطفأت في نفسه جذوة الفروسية، ولم يعد يعبأ بالجهاد الذي اعتبره الإسلام من أوجب واجبات الإنسان المسلم، فالمادة قد هدمت ما بناه الإسلام، ومنطق العقل يرى أن الهدم أيسر وأسرع من البناء، خاصة إذا كان ذلك البناء يتعارض وتطلعات الإنسان الذاتية، فإنسان عصر علي عليه السلام، يدرك تماماً أن ما يرمي إليه علي عليه السلام من إصلاح هو الصواب، ولكن ذلك الإدراك لا يعدو ان يكون ومضات سريعة، يعدو بعدها إلى الانجذاب نحو بريق المادة والركون إلى حياة الدعة والراحة، مما يحيل القيم الأخلاقية إلى عبء ثقيل، وهذا بدوره يجعل محاولة إعادة بناء تلك القيم وزرعها في النفوس عسيراً جداً، ويفهم ذلك من التوبيخ الحاد الذي طالما وجهه علي عليه السلام لأصحابه كما في قوله «قبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُعزُونَ ولا تَعزُونَ، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، قلتُم:

هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسيخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم:

هذه صبارة القر، أمهلنا حتى ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر والقر،

فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم، والله، من السيف أفر»(1) فعلى عهد الرسول صلى اله عليه وآله وإبان الفتوحات الإسلامية على عهد أبي بكر وعمر، لم تكن العوامل الطبيعية لتحول بين الفرد المسلم والجهاد، ولكن الركون إلى الدعة هو الذي أدى به إلى ذلك الاتجاه، فلم يعد يعرف معنى الكرامة التي تدفعه للذود عن حياضه وصيانته مبادئه، مما أحال كثيراً من أساليب التربية الإنسانية - عند علي عليه السلام - إلى ضربات عنيفة، حاول بها استنهاض الفرد بإثارة مشاعره، ومحاولة تحسيسه بقيمته كإنسان(2)، مع تجنبه كثيراً من السلبيات التي - قد يعدها - بعض ساسة عصره من أساسيات البناء، فعلي عليه السلام لم يرض لنفسه بأن تكون أساليبه التربوية مشادة على التناقضات والزيف، لأنه يتعامل مع الواقع بشخصية واحدة ترمي إلى اقناع الإنسان بإنسانيته من داخل نفسه، بدون تغذيتها بأية عناصر خارجية تضيء عليها نوعاً من الطلاء الخارجي الزائف. على اعتبار ان البناء الحقيقي للفكر الإنساني الحر لا يمكن ان يكون في اتجاهين مضادين، وبمعنى اوضح، فإن الاصلاح لا- يمكن أن ينبثق من نفس فاسدة، إلا- إذا كان زيفاً، من ذلك قوله لأصحابه «إني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي»(3).

وإذا ما تركنا جانباً التربية الإنسانية في خطب علي عليه السلام الجهادية، وبحثنا عنها في

ص: 481

1- خطب - 27 فقرة 2. تَرَحاً - بالتحريك - أي همماً وحزناً، والغرض - ما ينصب ليرمي بالسهم ونحوها، ويعصى الله - اشارة إلى ما ان يفعله جيش معاوية من نهب وسلب وقتل في المسلمين والمعاهدين، حمارة القيظ - بتشديد الراء - شدة الحر، يسيخ بالخاء المعجمة يخف، صبارة الشتاء - بتشديد الراء - شدة برده، والقر - البرد

2- راجع على سبيل المثال الفقرة الثالثة من الخطب السابقة، ومدى ما فيها من تقرير حاد المراد به الاستنهاض وإثارة الحمية

3- خطب - 68

مأثوراته الأخرى في نهج البلاغة فسنجد أنها في مجملها تنبني على قاعدتين:

أ- نظرة الإنسان إلى نفسه من الداخل والوقوف عند الموقف الذي يصونها ويحسسها بقيمتها في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه وذلك من عدة جوانب أهمها:

- تحسيس الإنسان بكرامته، نبذه للذل والجبن: فتربية النفس على الأنفة والإباء من الأسس التربوية التي أنبنى عليها فكر علي عليه السلام كما في قوله «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»<sup>(1)</sup> والحرية التي يعينها علي عليه السلام هي كرامة الإنسان وحفظ ماء وجهه ونأيه بها عن كل ما يهينها، بإكرام نفسه ورفعها عن الدنيا مهما كانت المغيرات، وبذلك يشعر في قرارته بالعزة والإباء فلا يقبل أي امتهان، لأنه «لا يمنع الضيم الدليل»<sup>(2)</sup> فالشعور بعزة النفس يطلق الإنسان من سجن ذاته، ويكسر جدار الخوف، ويتفاعل مع بقية أفراد مجتمعه كند، لا كخادم ذليل، فيقدم على اقتحام صعاب الحياة بثقة مؤمنة غير جامحة.

- فلا تلجئه الحاجة إلى الخضوع، ولا الثراء إلى احتقار الناس، فمن أقيح الصفات التي تتلم شخصية الإنسان «الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى»<sup>(3)</sup>.

- ولا يركب في سبيل الوصول إلى غايته طرق النفاق والتلون والزيف لأن «نفاق المرء ذلة»<sup>(4)</sup> والذل يعني المهانة وفقدان الإنسان اعظم نعمة منحها الله

ص: 482

1- رسائل - 31 - فقرة 21

2- خطب - 29

3- رسائل 31 - فقرة 24

4- ميثم البحراني - شرح المئة المختارة للجاحظ ص 112

له وهي الحرية خاصة وان «عبد الشهوة أذل من عبد الرق»<sup>(1)</sup> في فكر علي عليه السلام.

- والوفاء بالعهد من أهم مزايا التربية الإنسانية في فكر علي عليه السلام، لأنه يرى أن من واجب الإنسان حتى يصون عرضه ويحفظ مكانته في مجتمعه أن لا يعدّ بشيء لا يستطيع الإيفاء به فإن «المسؤول حر حتى يعد»<sup>(2)</sup> مما يعني أن حرّيته المعنوية وحرّيته الأخلاقية مرتبطتان كل الارتباط بفكره ولسانه فما دام قد وعد بشيء فقد صار رهناً لما وعد به، ولا يستطيع الفكك من أسرهِ إلا بعد أن يفي به.

- وحتى لا يتورط أو يقع فيما ليس في مقدوره الوفاء به، بالإضافة إلى تجنبه كل ما يمس ذاته فعليه ان يراقب نفسه، ولا يخطو بها خطوة الا بعد ان يعرف موضع قدميه بغض النظر عما يفعله الآخرون، لأن كل فرد معني بذاته تجاه تصرفاته وأخلاقه، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «حاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك»<sup>(3)</sup>.

- ثم ان مجالسة الفرد لبعض من الناس، قد يشعره بأنه دونهم في السمو فتسول له نفسه، مقاربتهم للوصول إلى نفوسهم باستصغار نفسه، محاولاً ابتداع الحكايات اللافتة للانتباه والقيام بتصرفات تحط من القدر، وتلافياً لذلك يقول علي عليه السلام «إياك ان تذكر من الكلام ما يكون مضحكا وان حكيت عن غيرك»<sup>(4)</sup> فان قيمة المرء تكمن في احترامه لنفسه.

- واحترام النفس هو محاولة النأي بها عما يجلب لها الدمار جراء الارهاب

ص: 483

1- السابق، 117

2- السابق، 152

3- خطب - 219 - فقرة 2

4- رسائل - 31 - فقرة 24

الفكري، الذي يحيل الإنسان إلى تناقضات تدمر حياته، لأن ذلك يجبره على التخلي عن فكره من أجل الحفاظ على نفسه، لذلك يرى علي عليه السلام ان من واجب الفرد، عند عزمه على ابداء وجهة نظره، أو نشره لفكر ما، مراعاة جو التقبل، وليكن على حذر من التفوه بشيء من ذلك «في مجالس الخوف فإن الخوف يذهل العقل الذي منه نستمد، ويشغله بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي تروم نصرته»<sup>(1)</sup> فالفكر الحر لا يمكن له ان يتزعزع وينتشر في بيئة يسودها الخوف.

- والإنسان في فكر علي عليه السلام طاقات من العمل المرتبط بوقت محدد لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فالتربية الإنسانية، إيمان راسخ بقيمة الوقت، ويمكن أن نستنتج ذلك من قوله «امض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه»<sup>(2)</sup>.

- فإذا شعر الإنسان بقيمة نفسه، وصانها عن كل الدنيا وحافظ على كرامته بالانقلاط من ربة الذل وكسر حواجز الجبن والخوف، وحافظ على كلمته ووفى بوعد، وادى عمله بصدق وإخلاص ونزاهة في وقته. فقد استطاع - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام - أن يحقق إنسانيته بتصالح ذاته مع ذاته.

ولكنه أيضاً محتاج إلى خصائص تربوية أخرى تحقق وجوده ضمن مجتمعه بإقامة علاقات سوية ومتوازية بالتعاقد السوي مع محيطه.

ب - نظرة الإنسان إلى نفسه ضمن مجتمعه: ونقصد من وراء هذا المحور تبين فكر علي عليه السلام لتربية الإنسان من خلال علاقاته الإنسانية ضمن الجماعة التي يعيش فيها، وما يجب عليه نحو هذه الجماعة من أخلاقيات روحية لا تمت

ص: 484

1- شرح ابن أبي الحديد 20 / 281

2- رسائل - 53 - فقرة 27

للمادة بأية صلة، فلا دخل لها في رابطة ولا الاحتياج لأننا بصدد الفكر المنصب على تربية النفس، بتعويدها التوازن السوي الممكن لها من التصالح مع محيطها بتحقيق علاقات تحفظ لكل فرد في المجتمع مكانة مهما كانت منزلته الاجتماعية من المنظورات المادية، أو العرقية أو القبلية أو حتى الدينية، ويمكن استخلاص هذا الجانب التربوي من قوله لابنه الحسن عليه السلام «يا بني إجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك»<sup>(1)</sup>، فلقد وضع علي عليه السلام بتصويره لميزان العلاقات البشرية الخطوط الرئيسية للتربية الإنسانية من وجهها الثاني المتمثل في علاقة الفرد بالجماعة. ومن خلال تتبعنا لنصوص نهج البلاغة المتعلقة بالمحور التربوي الذي نحن بصده نخلص إلى أنه ينبني على علاقات ثلاث:

الأولى - علاقات أسرية: وترمي إلى جعل الأسرة - نواة المجتمع - بيئة يشيع في جنباتها الحب، حيث يكون رب الأسرة باراً بها، معينا لأفرادها على تحمل اعباء الحياة، موسعا عليهم بقدر استطاعته، موزعاً حبه على الجميع بعدل وانصاف، نائياً بنفسه عن كل بغض وحقد وكراهية، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»<sup>(2)</sup> والخير في سياق الحديث الشريف يعني - كما يبدو لنا - جماع معاني التربية الاسرية، وقد جاء النهي في قول علي عليه السلام «لا يكن أهلك أشقى الخلق بك»<sup>(3)</sup>، ليلقي ضوءاً على ما حواه

ص: 485

1- رسائل - 31 - فقرة 13

2- المتقي الهندي - كنز العمال 16 / 371

3- رسائل - 31 - فقرة 23



الحديث الشريف من معان بعيدة الأثر في بلورة علاقات الفرد، لأن الإنسان الذي لا يتمكن من تكوين علاقات منسجمة مع أهله أقرب الناس إليه لا يمكنه على الإطلاق من إقامة علاقات متوازنة مع محيطه خارج نطاق أسرته.

الثاني - علاقات تحكمها الصداقة: حظيت الصداقة بمكانة عظيمة في فكر علي عليه السلام التربوي، حتى ان المتتبع لموضوعها في النهج وفي غيره من النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام، يكاد يشعر بأنه يضعها في مرتبة أعلى من مرتبة الأخوة الحقيقية حين يقول «الصديق نسيب الروح والأخ نسيب الجسم»<sup>(1)</sup> والعلاقات الروحية عادة ما تكون أوثق وأقوى من رابطة الدم، لما تشتمل عليه من تبادل في العواطف وتوافق في الأفكار، وانسجام في التصرفات، والصداقة بمعناها الحقيقي الذي يريده علي عليه السلام، توقُّ جسده في نص متكامل، نحت فيه بفكره الصفات الحقيقية التي كان يطلبها في الصديق<sup>(2)</sup>، إلا أن تلك الصفات قد تبدو نادرة إن لم تكن مستحيلة التحقيق، إلا أن الواقعية التي يتميز بها فكر علي عليه السلام عامة والتربوي على وجه الخصوص، قد مكنته من التعامل مع واقعه في بلورة الهيكل التربوي الذي يجب أن تتبني عليه علاقة الصداقة كمطلب اجتماعي ملح بالنسبة للإنسان لقوله «أعجز الناس من أعجز عن اكتساب الأخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»<sup>(3)</sup> فعده عدم القدرة على تكوين الصداقة عجزاً، وتضييعها بعد اكتسابها اعجز العجز، يوحي بضرورتها وأهميتها بالنسبة للإنسان السوي المتزن، القادر على التفاعل مع محيطه بأسلوب

ص: 486

1- شرح ابن أبي الحديد - 300 / 20

2- راجع حكم - 297

3- حكم - 12

يمكنه من إذابة الهواجس والشكوك، وتغليب النية الحسنة في علاقة الصداقة قولاً وفعلاً فمن المفروض على من يعرف معنى الصداقة الحق، ويحرص على استدامتها أن لا يتعجل باتخاذ القرارات التي تثلم من قيمتها الروحية، إلا بعد أن يتيقن بأن الطرف المقابل ليس في مستوى تلك العلاقة السامية، بحيث يكون حرصه على التواصل امتن واقوى واوكد من القطيعة، يقول علي عليه السلام «ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سواء، وأنت تجد لها في الخير محملاً» (1) أي كن ذا نفس سمحة وجد المبررات الخيرة لكل تصرف منه، مهما كان وقعه على نفسك، حتى تتأكد مما يقصده، ومن ثم اتخذ موقفك المتعقل المناسب تجاهه، كما أن من حق الصداقة إيجاد المخرج السليم لحديث الصديق وتأويله تأويلاً خيراً، فلا يعطي الإنسان للنميمة والوشاية أية طريق للحط من قيمة الصداقة لأن «من أطاع الواشي ضيع الصديق» (2).

لقد وضع علي عليه السلام دستوراً متكاملًا لعلاقة الصداقة ضمن الوصية التي كتبها لابنه الحسن عليه السلام ويمكن بلورته وتوضيحه في النقاط التالية:

1- يجدر بالصديق من أجل المحافظة على الصداقة والوفاء لعهداها - ان يراعي صديقه في كل الأحوال، وأن يجد له من المبررات والأعذار ما يبقى على حبل الود متصلًا مهما كانت الظروف وفي هذا القول «إحمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلّة، وعند صدوره على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على

ص: 487

1- الكليني - أصول الكافي 2/ 262

2- حكم: 238

- العذر حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك»(1) شريطة أن يكون مثل ذلك الصديق ممن يعرف قيمة الصداقة، ويصون حقوقها، ويلتزم بمبادئها، ولا يستغلها في تحقيق مآرب شخصية، وفي هذا يقول علي عليه السلام «إياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله»(2).
- 2- اجتناب صداقة من يَكُنُّ البغض والعداوة لأحد الأصدقاء المخلصين حتى لا تسوء نفسه، وتكون موضع تهمة، أو قد تسمع من ذلك الشئ من السعاية ما يوغر صدرك أو يفت من قوة صداقتك وذلك يقول «لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك»(3).
- 3- استعمال الصراحة والصدق في بذل النصيحة دون أدنى تحفظ أو مجاملة، مهما كان وقعها على نفسه، لأنه إذا كان صديقاً حقيقياً، فستكشف له بصيرته مدى حبك له وخوفك عليه ويكمن ذلك في قول الإمام علي عليه السلام «امحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة»(4).
- 4- صيانة حقوق الصديق المادية والمعنوية، وعدم التفريط في شيء منها اعتماداً على متانة العلاقة، لأنه «ليس لك بأخ من أضعت حقه»(5).
- 5- عدم البدء بقطيعة الصديق مهما كانت الظروف، مع محاولة بذل كل جهد لإبقاء العلاقة متواصلة، بتحمل الإساءة منه ومحاولة مقابلتها بالإحسان إبقاء

ص: 488

1- رسائل 31 فقرة 23

2- السابق

3- السابق

4- السابق

5- السابق

على الود، وتمكيننا لدوامها متينة وقوية، وفي حالة الاضطرار إلى قطعها، فليبق على بعض الود ما يمكن من خلاله عودتها إلى حالها يوماً ما (1).

6- والصدقة إخلاص في المغيب والمحضر، ورعايتها تتطلب من الفرد أن يحافظ عليها في مال الصديق وعرضه وعهده لأن «الصديق من صدق غيبه» (2).

فالصدقة كجانب من جوانب التربية الإنسانية في فكر الإمام علي عليه السلام - هي - كما - نلاحظ - باب مشروع على مصراعيه نحو المجتمع، فإذا ما استطاع الفرد استلها مبادئها وتشعبت روحه بمثلها فأحاط نفسه بصداقات متينة ومتنوعة استطاع ان يفتح بروحه نحو المجتمع، وأن يتفاعل مع بقية أفراده بروح مشبعة بالعزم والثقة والاطمئنان.

الثالثة - تربية إنسانية تحكمها العلاقات الاجتماعية: السلطة في فكر الإمام علي عليه السلام نموذج للتربية الإنسانية التي تجسد العلاقات الاجتماعية على أسس من التكافل ونبذ شهوة التسلط وعدم استغلال المركز الوظيفي استغلالاً سلطوياً يسيء إلى كرامة الإنسان، بإشعاره أنه في منزلة لا تتناسب وما فرضه الله له من حقوق. ففي منصرفه إلى صفين استقبله في الطريق دهاقين الأنبار (3) فترجلوا له خاشعين مسرعين، فسألهم باستغراب «ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب،

ص: 489

1- راجع السابق

2- السابق

3- الأنبار - مدينة على الفرات في غربي بغداد - راجع معجم البلدان 1/ 257

وأربح الدعة معها الأمان من النار»(1) فتعظيم غير الله مذلة تحط من قيمة الإنسان في الدنيا لاستصغار نفسه، وتورده العقاب في الآخرة، ولا تزيد في قيمة الشخص المعظم، ولا ترفع من قدره، لذلك فقد نهاهم عما لا يجدي نفعاً ولا يزيد من مكانته، في الوقت نفسه الذي يؤدي بهم إلى المذلة وازدراء النفس والخط من قيمتها.

وبذات الأسلوب يتعامل علي عليه السلام مع (حرب بن شرحبيل الشبامي(2) حين ترجل يتبعه وهو راكب، فقد قال له «ارجع فإن مَشِيَّ مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن»(3) لأن ذلك الفعل من أحد سادات العرب وأشرفهم يشعر الراكب بالزهو والخيلاء والغرور، ويشعر المترجل بين يديه بالمهانة والاستصغار، وهذا يتعارض وأساليب التربية التي ينبنى فكر علي عليه السلام عليها، وبذلك الأسلوب كان يوصي عماله في تعاملهم مع كل الناس، من ذلك قوله ضمن عهده لبعض عماله على الصدقات «أمره أن لا يجبههم، ولا يعرضهم، ولا يرغب عنهم تفضلاً بالإمارة عليهم، فإنهم الإخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق»(4).

فالمكانة مهما سمت وعظمت، فإنها لا تعطي لصاحبها الحق في امتهان كرامة

ص: 490

1- حكم - 37

2- حرب بن شرحبيل الشبامي - بكسر الشين المعجمة وفتح الباء بعدها - نسبة إلى شبام موضع باليمن - راجع معجم البلدان 3/ 318 ، لم أعثر له على ترجمة، اعتبره الأمين في أعيان الشيعة 4/ 611 من شيعة علي عليه السلام، على اعتبار ان الشباميين قد كانوا يتشيعون لعلي عليه السلام

3- حكم - 330

4- رسائل - 26 فقرة 3، وجبهه - ضرب جبهته إذلاً وازدراء، وعرضه: عامله بخشونه، ولا يرغب عنهم - لا يتجافى عليهم ويتكبر

غيره والحط من قدره، لأن الناس في الحق سواء وإن التكبر والنظر إلى الناس من عل من مركبات النقص التي يحاول بها الشخص مواراة عيوبه كما يقول علي عليه السلام انه «لما عرف أهل النقص حالهم عند أهل الكمال، استعانوا بالكبر، ليعظم صغيراً، ويرفع حقيراً، وليس بفاعل»(1).

فالإنسان السوي - من وجهة نظر علي عليه السلام - هو المقتدر على التعامل مع مجتمعه على أسس أخلاقية تصون مكانته كإنسان من خلال احترامه لنفسه بمحافظته على كرامة غيره، على أساس أن التربية الإنسانية هي محاولة انسجام دائم ومستمر بين كل الناس وفي كل الأوقات لقوله «خالطوا الناس مخالطة، إن تم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم»(2) وهو عين ما قاله فيه أصحابه المخلصون بعد أن افتقدوه إذ يصف ضرار الضابي(3) علاقة علي عليه السلام بأصحابه فيقول «كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استبأناه، ونحن مع تربيته إيانا وقربه منا، لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله»(4).

ص: 491

1- شرح ابن أبي الحديد - 327 / 20

2- حكم - 9

3- ضرار بن ضمرة الضبائي أو الضابي لم نعثر له على ترجمة، قال عنه المسعودي، في مروج الذهب 433/2 انه «كان من خواص علي عليه السلام» كما أشار عبد الزهراء الحسيني في مصادر: نهج البلاغة 50/1 الهامش انه «مولى أم هاني بنت أبي طالب»

4- الحصري القيرواني - زهر الآداب 41 / 1، وراجع النص أيضاً في مروج الذهب السابق

## العصر الثاني - الأساليب التربوية التي كما تبدو في فكر علي عليه السلام:

يحتوي نهج البلاغة على بعض النصوص التي تمكن الدارس من التعرف على كثير من الأساليب التربوية كما تبدو في فكر علي عليه السلام وذلك إذا ما أضفنا إليها بعضاً من مآثراته التي حفظتها لنا المصادر الأخرى، ويمكن تقسم تلك الأساليب على قسمين:

### القسم الأول: أساليب تربوية تختص بالمعاملة:

وقد ابتدأنا بها لأنها في اعتقادنا الأساس الأول في العملية التربوية، لأنها تختص بتشكيل شخصية المتعلم، وإعداده لتقبل العلم. وتتحدد مسؤوليتها كما نستخلصها من فكر علي عليه السلام، في الأسرة أولاً، وفي المعلم من ناحية ثانية، فبالنسبة للأسرة يرى علي عليه السلام - كما نفهم مما لدينا من نصوص - أن توصيل العلم والأخلاق للحدث في نطاق الأسرة يحتاج إلى مستوى معين من الثقافة التربوية التي تتطلب من ولي الأمر أو الأب، أن يجعل من نفسه طفلاً في مرحلة ما وصديقاً وصاحباً في مرحلة أخرى، حسب اعمار ابنائه الذين يقوم بتربيتهم، فقولته «من كان له ولد صبا»<sup>(1)</sup> أي نزل إلى مستواه، وتحدث إليه بمقدار فهمه حتى يتمكن من كسب ثقته وحببه، والتعرف على مشاكله عن كثب، ومحاولة حلها معه بالتوجيه السليم والأخلاق الحميدة. وتصايب الاب لابنه يحتم عليه ان يعيش عصره، وينظر بمنظار زمان ذلك الابن، ويفكر بعقليته، أي لا يكون جباراً مستتبداً يفرض افكاره، إذ يجب عليه ان يضع في اعتباره ان الأفكار التي

ص: 492

يتبناها ويعتقدها قد لا تتناسب مع عصر ابنائه فالأبناء كما يبدو في فكر علي عليه السلام - ليسوا صوره طبق الاصل مكررة من الآباء حتى يتقبلوا منهم كل أفكارهم، فكما ان الإنسان يتطور من حيث السن والادراك والعقل، فإن العصر أيضاً يتطور، فما كان بالأمس مقبولاً في عرف الآباء فليس بالضرورة قبله اليوم في عرف الأبناء، لذلك يرى علي عليه السلام انه من الضروري ان لا يقسر الآباء ابناءهم على عاداتهم لأنهم «مخلوقون لزمان غير زمانهم»<sup>(1)</sup>، فالإنسان بفكره وروحه ابن عصره الذي يعيش فيه لأن «الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم»<sup>(2)</sup> أي «ان نفوسهم أكثر انفعالا- واطوع لأخلاق زمانهم وعاداتهم وزيتهم وحالاتهم منها لعادات الآباء وحالاتهم»<sup>(3)</sup>. وكما يولي علي عليه السلام اهمية لدور الأسرة والاب على وجه الخصوص في العميلة التربوية، فانه يعطي للمعلمين دوراً، يكاد لا يقل عن دور الاب ويسلط الضوء في هذه الناحية على أساليب العقاب سواء كان بالضرب أم بالكلام، فقوله «لا تستعمل الفعل حيث ينجح القول»<sup>(4)</sup> يعني عدم استخدام العقاب البدني كأسلوب في التربية، الا بعد استنفاد كل أساليب النصيح والاقتناع مع المتعلم، فإذا ما انصاع المتعلم لأمر معلمه بالكلام فلا داعي بعد ذلك للوم والتقريع فما «عفا عن الذنب من قرع به»<sup>(5)</sup>. والعقاب كرادع تأديبي يرجى من ورائه الاصلاح، يجب ان لا يعمل به الا بعد ان يستنفذ المؤدب كل وسائل التفاهم، التي بينها، اعطاء المذنب فرصة للتفكير والمراجعة،

ص: 493

1- شرح ابن أبي الحديد 20 / 267

2- ميشم البحراني - شروح المئة كلمه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من جمع الجاحظ ص 94

3- السابق

4- شرح ابن أبي الحديد 20 / 278 ، 342

5- شرح ابن أبي الحديد 20 / 328 ، 311



وفي هذا المجال يقول علي عيه السلام «لا تتبع الذنب بالعقوبة واجعل بينهما وقتا للاعتذار»<sup>(1)</sup> ثم ان أساليب المعاملة في فكر علي عليه السلام درجات متفاوتة، يجب على المرابي أن يكون على دراية تامة بها، كما يجب ان يكون عارفا بنفس من يتصدر لتهديبهم واضعا في اعتباره انهم نماذج بشرية مختلفة الامزجة والطباع، فمنهم الخير الذي قد لا يستحق من العقاب الا ما هو في حدود التلميح، وفي حالات نادرة جداً، ومنهم من لا يجدي معه الا أسلوب الترغيب والترهيب، ومنهم من لا يردعه سوى العقاب الصارم، ومن خصائص الوظيفة التربوية ت كما يرى علي عليه السلام - ان يعامل «الاحرار بالكرامة المحضنة، والاوساط بالرغبة والرغبة، والسفلة بالهوان»<sup>(2)</sup> إلا أن ذلك لا يعني التماذي في الشدة إلى اقصى غاياتها، إذ من واجب العربي أن يكون متعقلا في عقابه متزنا في عتابه لأن التماذي في العقاب قد يخرج المعاقب عن التزانه فيتمادى في خطئه يا صرار وعناد، لذلك يقول علي عليه السلام للمربي «اذا عاتبته الحدث، فترك له موضعا من ذنبه، لئلا يحمله الاخراج على المكابرة»<sup>(3)</sup>. ثم ان العفو عن المذنب والتغاضي عن هفواته يجب ان يكونا نافذين، حال العمل بهما، وعلى هذا يجدر بالمرابي ان لا يعاود المعاتبة على ذنب مضى و صدر عفو فيه، لأنه «ما عفا عن الذنب من قرع به»<sup>(4)</sup> واذا اراد المعلم تبصير المتعلم بأخطائه، وتوجيه النصح له وارشاده، فمن الاجدى ان يختار الوقت المناسب والمكان المناسب، فلا يحاول اعطاء نفسه قيمة باظهار سلطته في توجيه المواعظ والكشف عن عيوب المتعلم في ملأ من الناس لأن

ص: 494

1- السابق

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 333 ، 342

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

«النصح بين المأ تفرع»(1) كما يقول علي عليه السلام، فخلاصة فكر علي عليه السلام في هذا الجانب التربوي هو المام المربي بأساليب المعاملة قبل ان يكون عالماً حتى يتمكن من التقرب من المتعلمين ليوصل إليهم علمه.

### القسم الثاني - أساليب تربوية نختص بالعملية التعليمية:

العملية التعليمية جانب هام من جوانب التربية في فكر علي عليه السلام، فهو يرى ان أجدى التعليم وأثبته وأقواه ما بدئ به في الصغر، لأن «قلب الحدث كالأرض الخالية، ما القي فيها من شيء قبلته»(2) وعليه يجب على المربين المبادرة بحرث هذه الأرض وزرعها بالمجدي من العلوم، ونعتقد ان لدى علي عليه السلام اقتناع تام بأهمية التعليم منذ الصغر، فإذا كان قد شبه قلب الطفل بالأرض البكر، فانه قد شبه الطفل أيضاً بالطينة الطبيعية التي يمكن للصانع تشكيلها ونقش ما شاء فيها، وشبهه بالغصن اللدن الذي يقبل الماء والتربة، فيمد جذوره وتورق براعمه، ويتجلى ذلك ضمن قوله «اطبع الطين مادام رطباً، واغرس العود ما دام لدناً»(3). ونستطيع أن نستخلص مما ورد في نهج البلاغة بشأن العملية التعليمية، بأنها يجب أن تكون متناسبة وحاجة الوضع القائم بالابتداء بتعليم ما هو ضروري للحياة، وما يتناسب ومقتضى الحال كما في قوله ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام «رأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق واجمعت عليه من أدبك ان يكون ذلك وأنت مقبل العمر، ومقتبل الدهر، ذو نية سليمة، ونفس صافية، وأن

ص: 495

1- ميثم البحراني - شرح المنة كلمة ص 150

2- رسائل - 31 فقرة 5

3- شرح ابن أبي الحديد 20 / 315

ابتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل، وتأويله، وشرائع الإسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجوز ذلك بك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك إليه أحب الي من اسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة»(1) فالذي يمكن استنتاجه - حسب فهمنا للنص - أن الظروف وحاجة المجتمع هما اللذان يقرران نوعية التعليم، ويجب على المربين مراعاة ذلك أثناء وضع خططهم ورسم مناهجهم، فتخصيص علي عليه السلام العلوم الدينية بتقديم الأهم على المهم ليس إلا أنه يراعي حاجة العصر، لذلك فنحن لا نتفق مع الشيخ محمد جواد مغنية في قوله بأن «الإمام يوصي بوجه عام أن يلحق الطفل أولاً أصول الإسلام الضرورية، ويمرن على السلوك الشرعي حتى إذا تقدمت به السن تعلم القرآن والشريعة»(2)؛ لأن ما عده تلقيناً للطفل من علوم، لا يمكن أن تكون في مستوى سهولة تعلم القرآن، وقد نص كثير من المفكرين المسلمين ممن اهتموا بالتربية على الابتداء بتعليم الطفل القرآن كأساس لجميع العلوم الدينية (3)، وكما يبدو من المقولة، فقد أراد علي عليه السلام ذلك بالفعل إلا أنه قد رجع عن إرادته تلك آخذاً بتعليم ابنه من العلوم التي تمكنه من التعايش بين الناس في مجتمعه. ولكن ذلك لا يعني - في فكر الإمام علي عليه السلام - إكراه المتعلم على الأخذ بنمط من التعليم يتعارض مع ميوله، فبجانب احتياجات العصر يجب أن يضع المربون في اعتبارهم استعدادات المتعلم وميوله فإن «للقلوب شهوة، وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل

ص: 496

1- رسائل -31 فقرة 6

2- في طلال نهج البلاغة 493 /3

3- راجع مقدمة ابن خلدون ص 470

شهوتهما واقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي»(1). علاوة على ذلك فإن هناك الكثير من الملاحظات التربوية الجديرة باهتمام المربين منها:

محاولة تحبيب العلم وتقريبه إلى نفوس المتعلمين بالمرآحة بين ما هو مفيد وبين ما هو طريف ومحجب إلى النفوس، لأن الجهد المتواصل، يكسد الفكر ويتعب النفس، فينتابها الملل والسأم فتأبى التقبل، فالأذهان تحتاج إلى الراحة كما تحتاج إلى ذلك الابدان وهو ما يمكن استخلاصه من قول علي عليه السلام«ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة»(2).

ويجب على المربين ان يعرفوا - كما يبدو في فكر الإمام علي عليه السلام - ان العلم لا يتمثل في الحشو الكثير، والمطولات المملة أو المختصرات المخلة، بل يجب ان تكون قواعده في أساليب واضحة، ومحددة، لا تشتت ذهن المتعلم لأنه «اذا ازدحم الجواب خفي الصواب»(3)، أي انه كلما كانت الاجابات على المسألة والقضية العلمية متعددة الجوانب متشعبة الطرق كلما خفيت الحقيقة المرجوة منها. ومما يجب على المربي ان يأخذ به كما يبدو في فكر علي عليه السلام - تعويد المتعلمين على المناظرة بإزالة عقد الخوف والوجل من نفوسهم، فلسان المرء كما يقول علي عليه السلام - بضعة منه «لا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهلُه النطق إذا اتسع»(4).

ومرجع ذلك الامتناع أو الاتساع إلى العادة التي يربى الإنسان عليها منذ بداية حياته في مراحل التعليم الأولى، حين يحتاج إلى توضيح ما يبهم عليه بطريق

ص: 497

1- 191 ، 89

2- 191 ، 89

3- حكم - 242

4- خطب - 320 الفقرة الأولى

السؤال والمناقشة، وحتى يستطيعوا ذلك، فإن عليا عليه السلام يجذب تعويدهم منذ حداثة سنهم على «المراء والجدل»<sup>(1)</sup> كي تنفك عقدة سنتهم.

ومن المهام المناطة بالمربي - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - أيضاً - تعويد المتعلم على البحث فيما هو مكلف به ومسؤول عنه، بمعرفة كل ما يحيط به من سلبيات وإيجابيات، وتحديد كل ذلك في إطاره السليم، والقيام بأدائه كاملاً بثقة وصدق وإخلاص وذلك ما يمكن استخلاصه من قوله لابنه الحسن عليه السلام «اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك»<sup>(2)</sup>، أي ما أنت مسؤول عنه ومكلف بأدائه من واجبات مقرونة بجماع الأخلاق المتمثلة في التقوى تلك اذن هي بعض الملامح التربوية التي امكن استقضاؤها من فكر علي عليه السلام كما بدت لنا وهي - كما نعتقد - لم تكن مقولات نظرية لآراء خالية من مضمونها العملي، لأن عليا عليه السلام قد باشر في تطبيقها.

ويمكن ملاحظة ذلك من السياقات التي وردت فيها تلك المقولات مع الأخذ بعين الاعتبار مناسباتها.

فنظرة علي عليه السلام إلى المجتمع - كما نتصورها - نظرة شاملة وعميقة في الوقت ذاته وملتحمة أيضاً التحاماً تاماً بسياسته العامة التي تهدف إلى السعادة والحياة الأفضل، فالإنسان الذي يمكننا نتصوره من خلال نهج البلاغة «كائن مصانة حقوقه... مطمئن إلى ان حكومته لا تجفو فتقطعه عنها وعن المجتمع بهذا الجفاء، وهو مطمئن إلى انه مساو لجميع المواطنين... وهو واثق بأن حقوقه

ص: 498

---

1- شرح ابن أبي الحديد 385 / 20

2- رسائل - 31 فقرة 7

صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها لن تذهب عنه إلى سواه»<sup>(1)</sup> إلا ان ذلك المجتمع المتكامل الذي اراد له علي عليه السلام الوجود، لم يتسن له تحقيقه ليس لأن سياسته الاجتماعية جديدة بالنسبة للمجتمع، لأن الرسول صلى الله عليه وآله قد باشر في تطبيقها وعمل على تدعيم قواعدها إلا أن إرغاصات التغيير المتمثل في تهيئة العرب إلى تقبل تحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض، يعتمد على سياسة بذل المال في غير حقوقه بسخاء كان أقوى وأشد من أن تقف المبادئ في وجهه لصدده. ولكن ذلك لا يعني فشل سياسة علي عليه السلام الاجتماعية لأن مقياس الفشل والنجاح بالنسبة للأفكار بخلودها في انتظار تطبيقها.

ص: 499



## الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة

### إشارة

- الفصل الأول: القضايا الكلامية المتعلقة بالعميقة.
- الفصل الثاني: التأمل وتداعي الأفكار والغيبيات كما تبدو في فكر علي عليه السلام.
- الفصل الثالث: نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما تبدو في نهج البلاغة.

ص: 501





إن تأمل الإمام علي عليه السلام العميق في معاني القرآن، واستلهامه الدقيق لجوانب كثيرة من تاريخ البشرية، أمدا ما ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم بروافد ثرة في مجال ما سمي فيما بعد بالقضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة، علاوة على أثرها الجلي فيما أثر عنه من وصف الطبيعية وتأملات كونية. على أن هذه الموضوعات الفكرية، لم يتناولها علي عليه السلام لمجرد التنظير، أو لطرح قضايا من أجل الجدل، فليس ثمة ما يدعو إلى ذلك وهو المشغول إلى أخصص قدميه بأعباء السياسة والحكم وتجهيز الجيوش، وإعادة بناء المجتمع، ولكن حاجة العصر الملحة للكلام في مثل هذه القضايا، وتوضيح ما أبهم على المسلمين منها، هو ما حتم عليه القول فيها بكثرة لافتناعه بأهمية العصر لها، فلقد كانت تلك القضايا وخاصة ما يتعلق بالعقيدة منها، شغله الشاغل، والهاجس الذي ظل يلح عليه حتى آخر لحظة من حياته، وأول هذه القضايا التي اولاهها علي عليه السلام جانباً كبيراً من اهتماماته، القضايا المتعلقة بالعقيدة.



الكلام في الاصطلاح الفلسفي، هو كل صياغة لغوية تنبني على أسس منطقية أو جدلية، ويختص في أغلب الأحيان بمعالجة المسائل الاعتقادية (1)، ويعزو الشيعة والمعتزلة أصول هذا العلم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فالتوحيد والعدل وغيرهما من الأصول الاعتقادية ما عرفت - كما يرى كل من الشريف المرتضى (ت 436 هـ) (2) وابن أبي الحديد (ت 655 هـ) (3) - الا عند الإمام علي عليه السلام دون غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبشأن ذلك يقول العقاد أيضاً «عنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل ان يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان» (4). لكن تلك الأقوال لا تعني ان عليا عليه السلام بتطرقه في خطبه

ص: 505

---

1- راجع - دي بور - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص 95 وما بعدها

2- راجع أمالي المرتضى 148/1 وما بعدها

3- راجع شرح النهج 346/6

4- عبقرية الإمام علي عليه السلام ص 31

إلى أمور العقيدة، يعتبر من المتكلمين بالمعنى الاصطلاحي الذي تحمله الكلمة في جوانبها المنطقية أو الفلسفية، لأن كلامه في العقيدة - كما نعتقد - ما هو الا امتداد لفكره الشامل لقضايا السياسة والاجتماع والاخلاق والتربية، لكون ذلك الفكر نابعا من الدين، ويسير في ظلاله، وقضايا العقيدة هي أصل الدين، مما يحتم على كل مسلم الإمام بها بالقدر الذي يستوعبه عقله من فهم يؤدي به إلى الإيمان الصحيح وهو ما كان علي عليه السلام يرمي إليه من النصوص التي اثرت عنه بشأن قضايا الخالق، والملائكة والرسول والإنسان، وعلي عليه السلام من خلال هذه النصوص، يحاول أن يتحدث مع العقل ليقتنعه بالتمسك بطريق الإيمان بالله، فكيف عالج تلك القضايا الأربع: الخالق - الملائكة - الرسل الإنسان.

## أولا - الخالق

### إشارة

تتفق جميع الفرق الإسلامية على أن معرفة الله سبحانه وتعالى، هي ركن الإيمان الاساسي والاول، فالفرق بين المسلم والكافر شهادة «أن لا إله إلا الله» وتتضمن تلك الشهادة معرفة حقيقية بالخالق. وعلى الرغم من أن هذه المعرفة من الأمور التي يمكن للإنسان الاهتداء إليها بفطرته من خلال تأملاته فيما حوله من ابداعات كونية، الا انها قد تززع ايمانه وتؤدي به إلى مهاوي الكفر والالحاد، فيما لو حاول قياس ما اهتدى إليه من معرفة، بنفسه ككائن مقتدر له من الصفات والمزايا والطاقات ما يشعره بالتفرد وتقديس الذات، مما يجعله يلغي من ذاكرته وجود إله قادر، وقد يؤدي به فكره إلى المقارنة بين الموجودات وموجودها إما عن جهل، وإما عن مكابرة لشعور بتضخم الذات، وفي كلتا الحالتين يطلق على الله سبحانه وتعالى أوصافاً حسية، وقد عرض علي عليه السلام إلى

ص: 506

قضية الصفات ضمن كثير من نصوص النهج يمكننا من خلالها استخلاص فكره في هذا الجانب.

### صفات الخالق في فكر علي عليه السلام:

يبدو أن علياً عليه السلام قد سلك نهجاً فكرياً واحداً فحواه نفي كل الصفات التي تخطر على بال العبد، أثناء تصوره للخالق جل شأنه لقوله أن «كمال الإخلاص (الله) نفي الصفات عنه»<sup>(1)</sup> وينبغي فكره ذلك على أن الصفات المتخيلة لا يمكن أن تكون إلا للأعراض التي تمكن الناظر إليها من مقارنتها بما حوله من مرئيات، فالتصدي لوصف ذات الخالق سبحانه يعني مقارنتها بتصورات مشابهة لها، فتبني على ذلك نتائج خطيرة تنفي فكرة التوحيد أساس العقيدة الأولى، وفي هذا المجال يقول علي عليه السلام «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عدّه»<sup>(2)</sup>، فالملاحظ أن المقولة مبنية على أسباب تؤدي إلى نتائج فكرية طبيعية بسيطة، مصوغة في قوالب بعيدة عن أية تعقيدات فلسفية، لأنها تأخذ من واقع المستمع إليها أمثلة للبرهنة عليها، مع وضع الثقافة الدينية للمتلقي في الاعتبار، وهي في نهايتها تقول بالتوحيد.

### التوحيد كما يمكن إدراكه من فكر علي عليه السلام:

#### إشارة

تتفق جميع الفرق الإسلامية على أن التوحيد، هو الركن الأول في العقيدة

ص: 507

1- خطب - 1 - فقرة 1

2- المصدر السابق نفسه

الإسلامية، بشهادة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «بني الإسلام على خمسة. على ان يوحد الله، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج»(1) ويرى الشيعة الإمامية ان قول كلمة التوحيد باخلاص وصدق تدخل الجنة، ويروون في ذلك عدة احاديث نبوية منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن تحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله عز وجل»(2). وقد وضعت بعض فرق المرجئة التوحيد في مرتبة سامقة جعلته كل الإيمان ومنتهاه «وان العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات»(3).

وفي اعتقادنا ان علياً عليه السلام هو أول من فصل القول في التوحيد بعد ان كان مجملاً في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ كان معناه مقصوداً على الشهادة بالوحدانية، وعدم الشرك بالله.

وبالتمعن فيما أثر عن علي عليه السلام من نصوص، نجد أن فكره قد امتد ليبرز لمسلمي عصره جل ما ينطوي عليه التوحيد من معان فكرية تؤدي إلى الاقتناع الخالص المتين به وفي محاولة منا لفهم ذلك، تمكنا من الاهداء إلى مقاصد ثلاثة للتوحيد في فكر علي عليه السلام:

### الاول توحيد الذات:

ينفي علي عليه السلام عن الله سبحانه العودية لقوله «الأحد بلا تأويل عدد»(4) لأن

ص: 508

1- صحيح مسلم - 45 / 1

2- الصدوق - التوحيد - ص 28

3- الشهرستاني - الملل والنحل 1 / 140

4- خطب 152 - فقرة 1

العددية تعني في مضمونها كما يرى علي عليه السلام - القلة والكثرة والتجزئة فالواحد بطبيعة الحال أول الأعداد وهو أقل من الإثنين، ويمكن تجزئته، وهو ما يستحيل تطبيقه على الله سبحانه.

ثم ان توحيد الذات يعني، أن لا شريك لله ولا مثيل له ولا يتصور شبهه كما في قوله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له» (1)، فاعتبار أوليته ونهايته مطلقة تقتضي بذاته الدوام الأبدي، لأنه سبحانه «لو سبقه العدم وانتهى إليه لكان حادثاً، ولا بد لوجود الحادث من سبب» (2) فإذا لم يكن سبب وجوده ذاتياً فلا بد من احتياجه إلى غيره، ولا بد لغيره أن يحتاج في وجوده إلى غيره... وهكذا إلى أن تنتهي إلى سبب الأسباب المتمثل في الذات التي تؤثر ولا تتأثر وهو ما يمكننا استخلاصه من قول علي عليه السلام «الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له» (3).

## الثاني - توحيد الصفات:

يطلق العقل الإنساني على الله سبحانه صفات متعددة كالعدل، والقدرة، والحلم، والعلم، والقوة... وتعداد هذه الصفات لا يعني وجود كل صفة في ذات الله منفردة، إذ لو كانت كذلك لتباينت في ضعفها وقوتها ولظهر أثر ذلك التباين على ما في الكون من مخلوقات، لذلك يرى علي عليه السلام ان هذه الصفات إنما هي في حقيقتها صفات ذهنية من ابتكار العقل الإنساني، لذلك فإن كل الصفات

ص: 509

1- خطب - 84 - فقرة 1

2- محمد جواد مغنية في ظلال النهج 419 / 1

3- خطب - 84 - فقرة 1



مهما تناهت في التعدد والمثالية فهي موحدة في ذاته سبحانه، لأن «التعدد إنما هو نوع من أنواع الكمال لا في ذات الكامل المطلق الذي هو المبدأ الأول لكل كمال»<sup>(1)</sup> ويمكن فهم ذلك من قول علي خطب - 84 - فقرة 1، بأن «كل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز»<sup>(2)</sup>. مما يعني ان كل تلك الصفات عين ذاته لا تناقض بينها ولا تعددية فيها، فقولنا: الله سبحانه، نعني به القوي العزيز الجبار المتكبر....

### الثالث توحيد الأفعال:

#### إشارة

ونقصد به تأثير الله سبحانه في الوجود، فهو سبحانه الذي خلق الإنسان والهمه خاصة التفكير، وإقدره على الاختيار، وخلق النار ومنحها خاصية الاحتراق، وخلق الشمس والقمر، ومنحها خاصية الإنارة، فالأفعال وعللها نابعة من توحيد ذاته سبحانه وتعالى فهو وحده الذي لا يفتقر إلى معونة أحد، ونخلص إلى ذلك من قول علي عليه السلام «المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها... فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث المبطن، ولا اناة المتلكن، فأقام من الأشياء أودها... وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات»<sup>(3)</sup>. مما يعني توحيد الأفعال في القدرة الإلهية من جميع جوانبها وبدقائق تفاصيلها.

وقد يبدو الفكر متناقضاً، بين قول علي عليه السلام بحرية الإنسان في اختيار أفعاله

ص: 510

1- محمد جواد مغنية - فلسفة التوحيد والولاية ص 49

2- خطب 64

3- خطب - 90 فقرة 3

فيما سبق (1) وبصنع الله سبحانه وتعالى أفعال العبد هنا مما يوحي بالإلجاء المؤدي إلى فكرة القضاء والقدر اللازمين على الفرد، وإزالة هذا اللبس، يجب ان ندرك أن توحيد الافعال بالنسبة للإنسان، لا يعني أنه سبحانه قد ألجأ الإنسان إلى انتهاج طريق محدد في افعاله، فخلق الافعال هنا يعني ان الله سبحانه قد خلق افعال العبد واقدره على اختيار الأصلح منها بالتمييز بينها، والأخذ بما شاء منها، مما يعني أن القدر ليس لازماً، وإلا بطل الثواب والعقاب وهو ما يمكن إدراكه من قول علي عليه السلام لمن سأله «أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر» (2) فأجابه علي عليه السلام بالإنعام على سؤاله «فقال الشيخ، عند الله أحسن عنائني، ما لي أجز» (3) أي أنني كنت مرغماً على ذلك وليس بمحض اختياري، فبادره علي عليه السلام بما يزيل لبيه ويطمئن نفسه، بما في معناه، أن القدر الذي يعنيه ليس بلازم للعبد، (4) لأنه لو كان كذلك لما كان أي معنى للعقاب والثواب، إذ لا جدوى من المحاسبة ما دمنا مرغمين بالسير في طريق مرسوم معين، فالله سبحانه وتعالى خلق الأفعال وخلق لها الأسباب وأودع في الإنسان مقدرة التمييز والاختيار، وبموجب ذلك الاختيار يحاسب، أي بمعنى أن أفعال العباد وأسبابها مقدره، خالقها واحد هو الله. هذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة للظواهر الطبيعية الأخرى فقد خلقها الله وأودعها خواصها المتميزة عن غيرها، إذ لا يمكن الفصل بين الجسم، وخاصيته، وتتضح تلك الفكرة من قول علي عليه السلام

ص: 511

1- راجع ص 202 من هذا البحث

2- أمالي المرتضى 1/ 150 ، السكوني - عيون المناضرات - ص - 177

3- المصدر السابق نفسه

4- راجع حكم - 76 . وقد اقتصر الرضي على الجزء الذي أوضحنا معناه، أما بقية الرواية فيمكن مراجعتها في المصدرين السابقين

«جعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها وأجراها في مناقل مجراها وقد ر سيرهما في مدرج درجهما ليميز بين الليل والنهار»(1).

ولو تأملنا في مقاصد التوحيد الثلاثة التي استنبطناها من مآثورات النهج، لوجدنا انها كلها في حقيقتها ترمي إلى هدف واحد كان علي عليه السلام يلح على تثبيتته في النفوس، وهو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات ويجمل ذلك كله في قوله «التوحيد ان لا تتوهمه»(2) أي لا تطلق عليه من الصفات المتخيلية المستوحاة من التصورات الإنسانية، وتأكيذاً لفكرة التوحيد تلك، فقد عالج قضية نفي الصفات من جميع وجوهها.

### نفي الصفات عن الخالق جل شأنه:

إن نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى يقتضي - أولاً إزالة ما تنطوي عليه العقول من أوهام وتصورات تجعل منه شكلاً معيناً، وفي هذا يقول علي عليه السلام «لا تتعقد القلوب منه على كيفية»(3) لأن الكيف أو الشكل هما «هيئة قارة في محل»(4) مما يعني امكانية تجزئتها وتحديد مكانها، وهذا لا يجوز على الله سبحانه، فهو تعالى، بعيد عن الأوهام التي لا تدرك إلا ما كان ذا وضع معين، أو مادة مشكلة، والباري، كما يقول علي عليه السلام «لا تقع الأوهام له على صفة»(5).

ص: 512

1- خطب - 90 - فقرة 4

2- حكم - 479

3- خطب - 84 - فقرة 1

4- الخوئي - منهاج البراعة - 116/6

5- خطب - 84 - فقرة 1

لأنه مجرد عن كل الصفات الزائدة التي تتصف بها الأوضاع المادية. فوجوده ليس محدثاً لكون المحدث هو ما يتولد عن العدم، والله كما يقول علي عليه السلام «كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا مزابلة»<sup>(1)</sup> فهو واجب الوجود بالذات، ووجوب وجود ذاته تقتضي أن يكون في كل مكان ومع كل شيء، فقول علي عليه السلام في دعائه «اللهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل لا يجمعهما غيرك...»<sup>(2)</sup> هو تعبير عن فكرة نقي الحيز من جسمية وجهية عن الخالق. لأن جمع علي عليه السلام بين حكمي الخلافة والاستصحاب ينزهان الله عن الجهة والجسمية، وقد بنى فكرته تلك على توع من البرهان العقلي البسيط، خلاصته عدم إمكانية الإنسان من أن يكون موجوداً في مكان ما ومصاحباً للآخرين في مكان آخر في وقت واحد<sup>(3)</sup>، وهذا يقتضي أن يدرك الإنسان أن قدرة الله فوق كل قدرة، فهو «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي لم يكن له بعد فيكون شيء بعده»<sup>(4)</sup>. فالزمانية التي نتصورها في الطرفين (قبل، بعد) ما هي إلا معان ابتكرها العقل الإنساني لوصف الزمن المتعلق بحياته، ولا يمكن أن يوصف بهما الله الذي «ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال»<sup>(5)</sup> أي أن وجود الله اعظم من أن يقرن بالدهر أو يوصف بالزمانية، مما يعني الثبات في دوامه، والاتحاد في مكانه.

ص: 513

1- خطب - 1 فقرة 1

2- خطب - 46

3- راجع السابق

4- خطب - 90 - فقرة 1

5- المصدر السابق نفسه

ونفي الجسمية والزمانية والمكانية عن الخالق يقتضي أن «لا يوصف بشيء من الاجزاء ولا بالجوارح والاعضاء ولا بعرض من الاعراض»<sup>(1)</sup> والمقولة واضحة بحيث لا تحتاج إلى تحميلها ابعادا فلسفية أو وضعها ضمن براهين منطقية، فهي في مجملها تعني ان الله منزه عن كل ما يتصف به الإنسان من أعضاء وحواس مضمرة تقتضي التفكير والتخطيط والحركة للشروع في أي عمل يريد انشاءه، إذ يقول علي عليه السلام انه سبحانه قد «خلق الخلق من غير روية، إذ كانت الرويات لا تليق الا بذوي الضمائر، وليس بذئ ضمير في نفسه»<sup>(1)</sup> فالإضمار يعني التفكير والاجالة، وذلك من طبيعة المخلوق، وعلي عليه السلام هنا يريد ان ينفي عن الله سبحانه كل صفة أودعها خلقه. فهو سبحانه لا يجري عليه الاعياء كما يجري على ذوي الاوصال والاعضاء من الحيوانات، لأنه سبحانه ليس بذئ جسم حتى يجهد العمل، وفي هذا يقول علي عليه السلام «لم يؤده خلق ما ابتداء ولا تدبير ما ذراً»<sup>(2)</sup> ثم أن إبلاغه سبحانه أوامره ونواهيه إلى مخلوقاته، لا تتكون من أصوات ولا ألفاظ لأنه سبحانه ليس بذئ لسان، فالخالق كما يقول علي عليه السلام «يخبر لا بلسان ولهوات ويقول لا بلفظ»<sup>(3)</sup> فالكلام المكون من أصوات مسموعة ذات حروف ملفوظة لا يصدق في حق الله لانتفاء الية الكلام المتكونة من لسان ولهوات عنه جلت قدرته.

فقدرته سبحانه لا تحدها حدود، وصفته بعيدة كل البعد عن تصورات

ص: 514

1- خطب - 107 - فقرة 1

2- خطب - 64

3- خطب - 234 - فقرة 1، واللهوات - جمع لهاة بفتح اللام: اللحمة المشرفة على الحلق وتساعد على النطق

عقولنا الكلية وعمله ليس له أمد ولا نهاية، إذ يقول علي عليه السلام في ذلك «قد علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء»<sup>(1)</sup> فعلمه بالأشياء عند حدوثها هو عين علمه بها قبل حدوثها، لأنه سبحانه قد خلقها وقدر لها ذلك فهو سبحانه «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده»<sup>(2)</sup> فهو كما نلاحظ قد وظف فعل الكينونة توظيفاً استمرارياً بصياغته في المضارعة وتكراره بالإيجاب والسلب حتى يتمكن من خلال تلك الصياغة من التعبير عن فكرته التي تعني أزلية الخالق وتنزيهه عن أية اعتبارات اضافية تحدثها العقول.

فالاستدلال عليه وعلى وجوده - سبحانه - لا يمكن تقديره الا- من خلال التأمل في الوجود وما يحويه من آيات عظيمة تدل عليه فنذكر بقلوبنا عظمته ونهتدي بعقولنا إلى قدرته، فقد «دلت عليه اعلام الظهور»<sup>(3)</sup>.

فعلي عليه السلام لا يحاول اخضاع الخالق - جلت قدرته - للعقل بتحويله إلى مادية جدلية، كما هو عند المتكلمين والفلاسفة، لأن هدفه الاساسي من كل ما ذكره من أفكار بشأن الخالق، هو توعية مسلمي عصره إلى حقيقة الإيمان، وذلك بعد ان أخذت الهواجس تنتاب النفوس، والشكوك تتلاعب بها، فوجد لزاماً عليه محاولة إزالة تلك الحيرة<sup>(4)</sup> بتوضيح السبيل إلى الإيمان الروحي التام

ص: 515

1- خطب - 85 - فقرة - 1

2- خطب - 90 - فقرة 1

3- خطب - 49

4- يمكن استخلاص انشغال علي عليه السلام بقضية الإيمان بالخالق من قوله من وصيته لابنه الحسن «رأيت حيث عناني من امرك... ان ابتدئك بتعليم كتاب الله... لا- اجاوزك إلى غيره ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم الذي التبس فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له أحب الي من اسلامك إلى أمر لا امن عليك به الهلكة»، رسائل 31 - فقرة 6

بالقدرة الإلهية، التي تنحسر العقول وترتد عنها خاسئة، إذا ما حاولت البحث في كنهها، وهو في كل ذلك يستقي معاني النص القرآني الذي يجمع كل تلك الأفكار في قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (1).

## ثانياً - الملائكة:

الإيمان بالملائكة من صلب العقيدة الإسلامية لقوله تعالى:

«أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ» (2) علما بأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقتهم إلا عن طريق القرآن الكريم، فمن يؤمن بما جاء به القرآن الكريم من أخبار يتحتم عليه الإيمان بالملائكة. وقد أشار علي عليه السلام إلى عجز الإنسان عن وصف الملائكة، وذلك على سبيل تحدي قدرته ضمن قوله «إن كنت صادقاً أيها المكلف لوصف ربك، فصف جبريل، وميكائيل... والملائكة المقربين» (3)، لذلك لم يؤثر عنه وصف أشكالهم وهيئاتهم، إلا في حدود ما أورده القرآن الكريم عنهم.

فعن خلقهم فقد جعل زمنه سابقاً لخلق آدم، وهو ما يتناسب وما ورد في قوله تعالى:

«فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (4) فالأمر صادر

ص: 516

1- الشورى / 11

2- البقرة / 285

3- خطب - 184 - فقرة 4

4- الحجر / 29

من الله إلى ملائكته بالسجود لآدم، وذلك يقتضي عقلا ان يكونوا قد خلقوا قبله، ثم إن عليا عليه السلام قد نفى عنهم الصفات الإنسانية في تكاثرهم «فلم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا (من ماء مهين) ولم يتشعبهم (رب المنون(1)) وكل ذلك مستنبط من آيات متعددة تنفي في مجملها صفات الإنسان عن الملائكة (2). وقد قسمهم من حيث اختصاصهم بالله سبحانه على أربعة أقسام هي:

1- المختصون بعبادة الله سبحانه وتسيبحة وذلك في قوله: «منهم سجدوا لا يركعون وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسامون، ولا يغشاهم نوم العين، ولا سهو العقول...»

2- القائمون بأمر الوحي وتبليغ الرسالات، وقد وصفهم بقوله «ومنهم أمناء وحيه، وألسنة رسله»(3) خطب - 1 - فقرة 3 وصافون: قائمون صفوفا، لا يتزايلون: لا يتفارقون(4).

3- القائمون بحفظ العباد من المخاطر والمهالك، والمراقبون لأعمالهم، وخدم الجنة وقد قال فيهم «ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه»(5).

ص: 517

1- خطب - 108 - فقرة 2 وقد تضمنت المقولة من القرآن الكريم، وحسب ترتيب الورود في السياق: السجدة/ 8، الطور 30

2- راجع: الأنعام/ 9، الإسراء/ 40، 90، الزخرف/ 19

3- خطب - 1 - فقرة

4- يرى محمد عبده في شرحه للنهج ص 28 الإحالة أن هؤلاء هم الأمناء على وحي الله لأنبيائه، وأنهم الألسنة الناطقة في أفواه رسله، والمختلفون بالأفضية إلى العباد، وبهم يقضي الله على من يشاء بما يشاء

5- المرجع السابق. ويرى محمد عبده ان هذا الفئة من الملائكة هم حفظة العباد كأنهم قوى مودعة في أبدان البشر ونفوسهم، ويحفظ الله الموصولين بها من المهالك والمعاطب، ولولاهم لكان العطب ألصق بالإنسان من السلامة، كما أنهم من خدمة الجنة، يحفظون ما عهد إليهم، ويوقومون على خدمته



4- القائمون بحمل العرش: كأنهم القوة العامة التي افاضها الله في العالم الكلي، فهي الماسكة له الحافظة لكل جزء منه»(1) وقد ورد ذكرهم في قوله:

«ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى اقدمهم، والمارقة من السماء العليا اعناقهم والخارجة من الاقطار اركانهم والمناسبة لقوائم العرش اكتافهم»(2).

والتقسيمات الأربعة السابقة لا تعدو كونها تفصيلاً لمجمل ما ورد في القرآن الكريم، صاغه علي عليه السلام بأسلوب تصويري يهدف منه إيقاظ الإيمان في النفوس، دون اللجوء إلى الماراثيات البعيدة عن روح الدين. أما قضية المفاضلة بين الملائكة وآدم، التي أثارت جدلاً واسعاً في أوساط الفقهاء والمتكلمين المسلمين»(3)، فلم نجد لها أي صدى فيما أقر عن علي عليه السلام من نصوص في النهج.

ص: 518

1- محمد عبده - شرح النهج ص 28 ط - الأندلس

2- خطب - 1 - فقرة 3، والعرش بحسب التأويل كناية «عن العز والسلطان... وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة الا بالاسم، وليس كما تذهب إليه اوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً... وقوله تعالى «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ...» البروج/15)... وما يجري مجراها - قيل هو اشارة إلى ملكه وسلطانه»، الراغب الاصبهاني - المفردات في غريب القرآن ص 493 - 494 - وعلى هذا المحمل يمكن تأويل العرش عند علي عليه السلام لأنه ينفي عن الله كل الصفات مكانية وزمانية ويمكن استخلاص ذلك مما ورد عند الكليني في اصول الكافي 129/1 وما بعدها

3- بشأن الملائكة واختلاف الاقوال فيهم وفي خلقهم يراجع تفسير الرازي 174/2 وما بعدها، وقد تطرق إلى الموضوع أيضاً محمد جواد مغنية في تفسير

الكاشف 82/1

## إشارة

عرض علي عليه السلام في كثير من خطبه إلى الرسل والرسالات وقد استحوذ النبي محمد صلى الله عليه وآله على النصيب الأوفى من فكره، وقد ركز على عدة جوانب اعتقادية يمكن حصرها في أربعة هي:

## الأولى: أهمية الرسول والمهام المناطة بهم:

يستنتج من كلام علي عليه السلام الذي تناول فيه واجبات الرسل، أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان، واسند إليه خلافة الأرض، أخذ عليه وعلى ذريته ميثاقاً بتوحيده، والايان به، بفطرته التي فطره الله عليها دون حاجة إلى هاد يرشده، وقد اودع الله ذلك الميثاق عقل الإنسان بهدأيته إلى التأمل فيما حوله من آيات وامثال وعلامات تدل على عظمة الخالق وقدرته والفكرة كما نعتقد - تتسق وما ورد في قوله تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِ آدَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ» (1). وقد استجاب الإنسان في بداية

أمره لذلك الميثاق الإلهي، الا انه سرعان ما استحكمت الشهوات بنفسه، وملكت عليه ملذات الدنيا لُبُّه، فأدار ظهره لذلك الميثاق فنسيه، بمرور الأزمان وتعاقب الأجيال، فكان لابد من تذكيره، وإقامة الحجة عليه قبل محاسبته، وإيقاع العقاب عليه، ومن أجل ذلك كما يقول علي عليه السلام «بعث (الله) فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي

ص: 519

نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة...» (1) فأهمية الرسل تكمن في تبصير الناس وتذكيرهم بواجباتهم نحو خالقهم سبحانه، فهم هداة البشرية، ينتشلون النفوس من براثن الجهل ويأخذون بالأيدي إلى الخير والصلاح والعدل، ويصّون الناس سبيل الفلاح بإثارة العقل والتأمل في خلق الله.

ولأهمية دور الرسل بالنسبة لهداية الإنسانية في أحقابها المختلفة يرى علي عليه السلام ان الله سبحانه «لم يخل... خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، قائمة» (2) فاستمرارية تواتر الرسل في فترات مختلفة لحاجة البشرية إليهم كهداة، من الدعوات الرئيسية التي انبنى عليها فكر علي عليه السلام الاعتقادي، ولأهمية مكانتهم، فقد تطرق علي عليه السلام إلى قضية تنزيههم.

### الثاني: تنزيه الأنبياء والرسل:

اسبغ علي عليه السلام على الأنبياء صفات أخلاقية هي الغاية في مثاليتهما - لكونها كما يرى، القدرة المحتدأة، فاختيارهم كهداة للبشرية من لدن الله سبحانه وتعالى، جعله يتعهدهم برعايته ويحيطهم بعنايته، منذ نشأتهم الأولى، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «استودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تتناسخهم كرائم الاصلاب، إلى مطهرات الارحام، كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف» (3) فهم على هذا الحال، منزهون عن كل الدنيا التي تسيء إلى

ص: 520

---

1- خطب - فقرة 5 - ويستأدوهم يطلبوا منهم أداء الميثاق الذي أخذه الله على آدم من قبل

2- المصدر السابق

3- خطب - 93 - فقرة 2

اصولهم، محاطون برعاية الأهمية في مختلف اطوار حياتهم التكوينية، فأصالحهم معرقة في الكرم وطيب العنصر، ينتقلون في الاجيال حتى يبعثهم الله سبحانه، وتستمر رعايته لهم في الدنيا منذ يوم ولادة كل واحد منهم فيزودهم بأداب الهية، واخلاق قدسية، تقوم الملائكة برعايتها، وتعهدا، وفي ذلك يقول علي عليه السلام بشأن رعاية الله للرسول عليه السلام «لقد قرن الله به عليه السلام من لدن ان كان فطيما، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره»<sup>(1)</sup>، وهو ما يمكن ان نطلق عليه تجوزا معنى العصمة، لأن التربية المرعية من قبل الملائكة لا بد ان تحيط صاحبها بسياج من الأخلاق التي تحول بينه وبين مواجهة الخطأ منذ نشأته الأولى وعلى ذلك السبيل يمكن الاعتقاد بقول علي عليه السلام بتنزيه الأنبياء.

### الثالث - علاقة الزهد بالنبوة:

إن الأخلاق المتناهية في سموها ومثابيتها، تردع نفوس أولئك النخبة من البشر عن الرضوخ إلى الاهواء والجري وراء اللذات، فالزهد في كل ما هو زائل من نعيم الدنيا من أبرز سمات الأنبياء الأخلاقية كما يرى علي عليه السلام، فموسى «كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزالة وتشذب لحمه»<sup>(2)</sup> كما بلغ الزهد بنبي الله داود إلى درجة انه «كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: ايكم يكفيني بيعها ويأكل

ص: 521

1- خطب - 240 - فقرة 26

2- خطب - 11 فقرة 6، 7، 8، 9، الصفاق على وزن كتاب: هو الغشاء الرقيق الذي تحت الجلد، والتشذب، التفرق

قرص الشعير من ثمنها»(1) اما عيسى عليه السلام فقد «كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن ويأكل الجشب»(2) اما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد «قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفًا، أهضم أهل الدنيا كشحًا، وأخمصهم من الدنيا بطنًا»(3) وهذا التناهي في الزهد لم يكن - كما يرى علي عليه السلام - تسليمًا لأمر واقع، لأنه اختيار فيه تثبيت لحقيقة رسالاتهم، وصدق اخلاصهم، لأنه «لو اراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم، ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان، ومغارس الجنان لفعل»(4) ولو انه سبحانه هيا لهم كل ذلك النعيم الدنيوي، ومنحهم السلطة والهيمنة على الناس، لبطل الثواب والعقاب، لأنهم سيستخدمون الرهبة والرعبة في تثبيت دعائم رسالاتهم، وهذا يتنافى وجوهر الإيمان الفطري المبني على الاقتناع الذاتي، البعيد عن أية تأثيرات خارجية. فالزهد والقناعة وقوة الإرادة، كل ذلك من دلائل النبوة، كما يرى علي عليه السلام، وفي ذلك يقول ان «الله سبحانه جعل رسله اولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الاعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الابصار والاسماع اذى»(5).

ص: 522

1- السابق، والسفائف جمع سفيفة: منسوجات الخوص

2- السابق، والجشب بكسر الشين: الغليظ الخشن

3- السابق، ويقضم يأكل على اطراف اسنانه، أي لم يملأ منها فمه، واهضم على وزن افعل من الهضم، وهو خمص البطن أي خلوها وانطباقها، والكشح، ما بين الخاصرتين إلى الضلع الخلفي، واخمصهم: اخواهم واخلاهم

4- خطب 240 - فقرة 11

5- المصدر السابق

## الرابع - المعجزات وأهميتها بالنسبة للرسول:

زود الله سبحانه وتعالى رسله بالإضافة إلى قوة إيمانهم ومتانة اخلاقهم وقدرتهم الخارقة على تحمل المشاق بالقدرة على الاتيان بأعمال خارقة للعادة، متعذر على الإنسان العادي القيام بمثلها، مهما كانت قوته العقلية، والغاية منها إدهاش النفوس وإثارة العقول وتأكيذا لنبوة أولئك الرسل، وهي وإن ظهرت على أيدي أولئك فإنها خارجة عن حكم طباعهم الإنسانية لأنها مستوحاة من قدرة الله، مما ينأى بها عن معاني السحر وغيرها من امور الشعوذة، فالفرق بين المعجزة على حقيقتها، والسحر بما يغلفه من كذب وزيف ينحصر في وجهين، كما يرى الماوردي(1).

الأول: ان الشعبذة كذب وزيف وتضليل يمكن للعقلاء كشفه وإظهار زيفه ولا يمكن ان ينطلي الا «على الغر والجهول، فتخالف المعجزة التي تذهل لها العقول» .

الثاني: ان الشعبذة والسحر يمكن اكتسابهما بالتعلم والممارسة والمران و«المعجزة مبتكرة لا يتعاطها غير صاحبها ولا يعارضها أحد بمثلها».

وإذا ما عدنا لفكر علي عليه السلام لنستقتيه في المعجزة، كدليل من دلائل النبوة، فسنجد انه قد عرض لها بجميع تفاصيلها السابقة، لا على أساس البحث فيفحواها، ولكن على أساس روايتها كشاهد لا كفقيه أو متكلم. فبالإضافة إلى معجزة القرآن التي زود الله بها رسوله عليه السلام في مواجهته لتحدي الكفار، فقد ظهرت على يديه معاجز طبيعية واخرى على شكل تنبؤات مستقبلية شاهد

ص: 523

علي عليه السلام قسما منها، ورواها بدقائق تفصيلاتها في مجال حديثه عن علاقته برسول الله صلى الله عليه واله وسلم وتصديقه برسالته، كمعجزة الشجرة واستجابتها لأمر الرسول صلى الله عليه واله وسلم بالانقلاع والانشطار والتحريك(1) وذلك بناء على طلب الرهط من قريش، تدعيما للقول بنبوته، وكان قبل قوله صلى الله عليه واله وسلم لهم متنبئا بمآلهم، وبما سيقومون به تجاه رسالته من اعمال عدائية «أتؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم، قال: فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تقينون إلى خير، وأن فيكم من يطرح في القليب ومن يحزب الأحزاب»(2).

فالرسل والرسالات من القضايا التي استحوذت على جانب هام من فكر علي عليه السلام الاعتقادي، الا انه لم يفلسف تلك القضايا في قوالب كلامية لمجرد الجدل، فهو قد أدمج كل ما يتعلق بالأنبياء والرسل من افكار ضمن خطبه ووصاياه، للتذكير بجلائل اعمالهم والحض على الاخذ بمنهاجهم والافتداء بسيرهم. وقد يكون فعله ذلك دافعا لاستنباط بعض الجوانب الفلسفية والاخرى الكلامية المتعلقة بالرسل والرسالات.

## رابعا - الإنسان

### إشارة

استوعبت قضايا خلق الإنسان ونشأته، ووصف انفعالاته ومصيره، على جزء كبير من فكر علي عليه السلام، وقد عالجهما من منظور اسلامي بحت، وذلك تمشيا

ص: 524

1- راجع خطب - 240 فقرة 27

2- المصدر السابق نفسه، ويطرح في القليب - أي يقتل في بدر (2هـ-)، ويعني بالقليب - بئر بدر، ويحزب الاحزاب - أي يحرض اعداء الإسلام ويمدهم بالقوة والمال سعيا في اخماده ويعني بذلكغزوة الاحزاب (5هـ-)

مع منهجه الارشادي كقائد ومرشد، ويمكن استنتاج هذا الجانب من فكره بتبعنا النقاط التالية:

## أ- خلق الإنسان

أ- خلق الإنسان (1):

لا يكاد فكر علي عليه السلام يخرج عن المنهج الذي رسمه القرآن الكريم لخلق الإنسان، الا في بعض التفاصيل التي يمكن اعتبارها تفسيرات وتوضيحات لجوانب أجملها القرآن الكريم، منها انه جعل خلق الأرض اسبق من خلق الإنسان كما في قوله «ثم جمع من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنهها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلبة حتى لزبت، فجعل منها صورة ذات احناء ووصول واعضاء وفصول، اجمدها حتى استمسكت واصلدها حتى صلصلت لوقت معدود، وامد معلوم. ثم نفخ فيها من روحه، فتمثلت انسانا ذا اذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وادوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل» (2) فعلي عليه السلام قد اقتبس كل افكاره من الذكر الحكيم كما استعار أيضاً بعض الفاظه، كما في قوله «سنهها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلبة حتى لزبت» (3) فكثير من الفاظه مستعار من قوله تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (4) وقوله تعالى:

ص: 525

1- حول قضية ابتداء خلق البشر في رأي فلاسفة المسلمين القدامى وغيرهم من أصحاب الديانات الاخرى يمكن مراجعة شرح ابن أبي الحديد 30/1 وما

بعدها

2- خطب - 1 - فقرة - 4

3- خطب - 1 فقرة - 4

4- الحجر / 26



«إِنَّا خَلَقْنَا هُم مِّنْ طِينٍ لَّزِبٍ» (1) ويمكن الاستنتاج من تقديم علي عليه السلام لخلق الأرض على خلق الإنسان عدة معان، منها ما هو مبني على اختلاط انواع التربة التي خلق الله منها الإنسان وقد بينا جانباً من ذلك فيما سبق (2). ومنها ما هو مستخلص من قوله بالوان التربة التي عجنت منها طينة الإنسان (3)، وهو السبب في تباين الوان الجنس البشري. ومنها ما هو مبني على فكرة خلق الله سبحانه وتعالى البيئة الملائمة لكل مخلوق من مخلوقاته، فالبيئة الصالحة لعيش الإنسان، هي الأرض التي عجن من طينها.

## ب - أصل العصبية:

إن قصة سجود الملائكة لآدم، بناء على أمر الله، وتمرد إبليس على ذلك الأمر، قد ذكرها القرآن الكريم بتفاصيلها، وقد عزا إبليس عدم امتثاله لأمر السجود، إلى أنه مخلوق من نار فهو افضل من آدم المخلوق من طين، مع ان الله سبحانه لم يقل بالتمييز في حكمه بين خلقه كما يقول علي عليه السلام، فإن «حكمه في أهل السماء، وأهل الأرض لواحد» (4) لذلك اعتبر قول إبليس بالمفاضلة هو مصدر العصبية وأصل الحمية التي يمقتها الرب، فإبليس في فكر علي عليه السلام هو «امام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية» (5) -

ص: 526

1- الصفات / 11

2- راجع ص 422 من هذا البحث

3- راجع المعنى في: خطب 1 - فقرة 4

4- خطب - 240 - فقرة 5، 2

5- المصدر السابق

وتعصبه ذلك جعله يمقت آدم، ويحقد عليه منزلته عند الله، فأغواه وزين له المعصية فالعناصر الرئيسية للقصة موجودة في القرآن الكريم، إلا أن علياً عليه السلام قد وظّفها توظيفاً فكرياً فحواه ان العصبية للجنس خارجة عن طبيعة الإنسان الخيرة وقد اكتسبها من جريه واره اهوائه المتمثلة في إبليس.

### ج - إهباط آدم إلى الأرض:

إن ما يمكن استنتاجه من فكر علي عليه السلام، هو أن أمر الله آدم بالنزول إلى الأرض، لم يكن جزاء الزلة التي اقترفها بمعصيته لله سبحانه، لأنه سبحانه قد تاب عليه قبل امره بالنزول، وهذا ما يمكن فهمه من قوله: «ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمة، ووعد المرد إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية وتنازل الذرية»<sup>(1)</sup>، وهو التفسير المنطقي السليم لما وورد بشأن ذلك في القرآن الكريم - كما نعتقد - لا كما قال ابن أبي الحديد «أن ذلك أحد قولي المفسرين»<sup>(2)</sup> لأنه قد عد الأمر الأول بالإهباط في قوله تعالى:

«وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ كُمْ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ»<sup>(3)</sup> انه قد حدث قبل التوبة، ولكن الآية الكريمة في سياقها التام، بضمها إلى ما قبلها توحى بأن لا تناقض بينهما وبين غيرها من الآيات التي قالت بحدوث التوبة قبل الأمر بالإهباط بدليل قوله تعالى:

«فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* قُلْنَا

ص: 527

1- خطب - 1- فقرة 4

2- شرح ابن أبي الحديد 102/1

3- البقرة / 36

اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا(1) وهو على تأويل الفخر الرازي «إن آدم وحواء، لما أتيا الزلّة، أمرا بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط. فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية، ليعلمنا أن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلّة... بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة، لأن الأمر كان تحقيقاً للوعد المتقدم عليه في قوله: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»(2). وعلى هذا فاهباط آدم إلى الأرض -

كما يبدو في فكر علي عليه السلام - هو متسق مع فكرته القائلة بخلق الإنسان من مختلف تربة الأرض، لتلائم عيشه في كل بيئاتها المتخلفة، هذا بالإضافة إلى ان نظرة علي عليه السلام المؤمنة لا- تتسق والقول: بأن الاهباط إلى الأرض هو لمجرد المعقاب، لأن العقاب لا يستحقه الا المذنب ذاته، ولا دخل لذريته ممن لم يرتكب اثما لتشملهم نتيجة الذنب، لأن ذلك يتنافى وعدل الباري الذي مثله قول علي عليه السلام «ارتفع عن ظلم عباده»(3)

#### د- مميزات الإنسان:

يتميز الإنسان في فكر علي عليه السلام بظاهرتين متقابلتين هما القوة والضعف.

فهو من ناحية أولى، يعتبره من أقوى مخلوقات الله على وجه الأرض، إذا ما قورنت امكانياته العقلية والجسدية بكل ما في الوجود من خلق، بما في ذلك قوى الطبيعة، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «أشد الأشياء الإنسان، لأن أشدها - فيما يرى - الجبل والحديد ينحت الجبل، والنار تأكل الحديد، والماء يطفئ النار،

ص: 528

1- البقرة، 37، 38

2- تفسير الفخر الرازي 28/3 والآية ضمن المقولة: البقرة/30

3- خطب - 33 - فقرة - 1

والسحاب يحمل الماء، والرياح تفرق السحاب، والإنسان يتقي الرياح»(1) أي بإمكانه السيطرة على كل شيء في الطبيعة، وتسخيره لحاجته، وذلك بقوة عقله، ولولا ذلك ما استطاع ان يحافظ على بقائه عبر العصور المختلفة، ولكان مصيره الانقراض، فالقوة بمعناها العام كما نستخلصها من مقولة علي عليه السلام هي حاجة غريزية وضرورية، لإثبات الوجود والمحافظة على بقاء النوع، والتدرج في مراقبي الكمال.

وفي مقابل هذه القوة، فإن الإنسان من الضعف بحيث لا يمكنه دفع غائلة الموت عن نفسه، ليس ادل على ذلك من أن أتفه الأشياء واحقرها تؤثر فيه، وقد تقضي عليه، وفي هذا يقول علي عليه السلام «مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقرة وتقتله الشارقة وتتنه العرقة»(2).

وهذا التقابل بين القوة والضعف، ليس خارجا عن طبيعة الإنسان لأنه - كما يرى علي عليه السلام - قد خُلق وجوانحه تتطوي على أنواع مختلفة من التضاد العجيب، لأن النفس الإنسانية لا تستقر على حال ولا يرضيها نمط معين من العيش، ويعبر علي عليه السلام عن فكره ذاك بقوله «لقد عُلّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي اعجب ما فيه، وذلك القلب، وله مواد من الحكمة واضداد من خلافها فإن سمح له الرجاء أذله الطمع، وان هاج به الطمع أهلكه الحرص، وان ملكه اليأس قتله الأسي وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وان اسعده الرضى نسي التحفظ...»(3) وهكذا، فالنفس الإنسانية في شغل دائم، وجهد مستمر

ص: 529

1- شرح ابن أبي الحديد 20 / 280

2- حكم - 427

3- حكم - 107

بين أمل ورجاء وحزن وفرح، مع محاولة حثيثة لمعرفة المصير، والجري وراءه في ذهول أو محاولة التهرب منه بالتغافل عنه ولكن لا بد من موافاته، لأنه القدر الحتمي كما نستخلص ذلك من فكر علي عليه السلام.

#### هـ- المصير:

يقول علي عليه السلام ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام «اعلم يا بني أن أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة، وأنه لا غنى بك فيه عن حسن الارتداد، وقد بالغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك»<sup>(1)</sup> فالدنيا - كما تبدو في المقولة - معبر مفروض على الإنسان اجتيازه، وتحمل مشاقه، ولكي يعبره الإنسان دون عناء، ولا مشقة فمن الواجب عليه ان لا يحتمل نفسه فوق طاقتها، وان يتزود من ذلك الطريق بما يقيم اوده، ويصلح عيشه، تاركا لغيره ان يعيش، فالنهاية حتمية والفرار منها موافاته وفي ذلك يقول علي عليه السلام «كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره والاجل مساق النفس، والهرب منه موافاته»<sup>(2)</sup>.

ومعرفة حقيقة الموت بعيدة المنال عن فكر الإنسان العاجز عن معرفة حقيقة ذاته، فلا مجال اطلاقا للبحث فيها، لأن ذلك لن يوصل إلى أية غاية، ويجسد فكرته تلك في قوله عن نفسه «كم اطردت الأيام أبحاثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله، الا اخفاءه! هيهات علم مخزون»<sup>(3)</sup> فالأمر الذي حاول علي عليه السلام

ص: 530

1- رسائل - 31 - فقرة 15

2- خطب - 149 فقرة 1

3- خطب - 149 فقرة 2، 1

معرفة هو سر الموت، ولكن فكره بما اشتمل عليه من طاقات علمية عميقة لا حدود لها، قد وقف دون الإحاطة إزاء هذا السر الإلهي، لذا فإن أقل ما يمكن أن يستفیده المرء من تجربة الموت في حياته هو النظر في الموت ذاته من خلال غيره، وفي ذلك أكبر العظات وأعظمها لو تأمل فيها الإنسان، وتعبيراً عن تلك الفكرة يقول علي عليه السلام وهو في النزح الأخير قبيل وفاته «إنما كنت جارا جاوركُم بدني أيام، وستعقبون مني جُتَّ خلاء، ساكنة بعد حراك وصامته بعد نطق، ليعظكم هدوئي، وخفوت إطراقي، وسكوت أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من النطق البليغ والقول المسموع»<sup>(1)</sup>. فإمعان الفكر والتأمل الواعي هو سبيل الإنسان للوصول إلى الإيمان، وهو ما يمكننا تلمسه في الفصل التالي.

ص: 531

---

1- المصدر السابق نفسه



إشارة

إن قضية الإيمان بالله وتوحيده من أهم المحاور التي دارت حولها الأفكار في النهج، حتى أننا نكاد نلمحها في كل نص من نصوصه، فمن النادر جداً، أن نجد نصاً تخلو مقدمته من تمجيد لله، والحض على شكره ببيان نعمه وأفضاله، إلا أن هناك نصوصاً قائمة بذاتها قد اختصت بمعالجة قضية الإيمان، أودعها علي عليه السلام كثيراً من طاقاته الفكرية التي يرمي من ورائها إلى إبقاء جذوة الإيمان متفقدة، بعد أن كادت تخمد في النفوس جراء انفتاح الإسلام على أفكار الأمم الأخرى، والانشغال بالمادة، والركون إلى البذخ، والابتعاد، في كثير من الأحيان، عن روح النص القرآني، بمحاولة البحث في ذات الله بالجدل، إلى غير ذلك من عوامل استحدثتها ظروف النقلة المفاجئة، وأدت بإيمان الفرد إلى التقهقر. فانبتق لدى علي عليه السلام اقتناع بمعالجة القضية من جذورها بشتى وسائل الاقتناع، من ذلك طرح قضية الإيمان من خلال الحديث المباشر عن الخالق، ونفي الصفات عنه وخلق الملائكة والكون، وأهمية الرسل، وقد عرضنا لذلك



فيما سبق، ومن وسائل المعالجة أيضاً التي أخذ بها، أسلوب إثارة الحواس والفكر نحو التأمل، بإجمال فكرة التوحيد في مقولات عامة، ثم محاولة تقريبها إلى الأذهان بتوظيفها في أمثلة تأملية تقربها من ذهن المسلم، فكانت الأوصاف الطبيعية إحدى تلك الوسائل

## أ- الأوصاف الطبيعية والغاية منها في فكر علي عليه السلام

### إشارة

إن عنوانة الشريف الرضي لبعض خطب النهج بعناوين موضوعات الوصف التي عرض إليها علي عليه السلام لا يعني على الإطلاق، أن عليا عليه السلام قد أورد ذلك الوصف كغاية في حد ذاته، بمعنى آخر أن موضوعات الوصف تلك لا تشكل نصوصاً قائمة بذاتها من حيث بنائها الفني، فهي مدرجة ضمن نصوص دينية الغاية منها التوعية وترسيخ العقيدة، فاقطاع تلك الأوصاف من سياقها، يفقدها وظائفها التأملية، لأنها - كما نعتقد - أمثلة عملية تطبيقية الغاية منها تقريب ما أجملته مطالع الخطب التي وردت فيها، من أقوال في التوحيد، إلى أذهان المستمعين، ليتسنى الاقتناع بها، والتأثر بما ورد فيها، باستشارة العقل، فموضوع وصف الطبيعة وبعض الكائنات، من العناصر الهامة لتقريب قضية الإيمان، وهو في النهج من جنس المثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة (1).

ص: 534

1- مما جاء في القرآن الكريم من وصف للجنة قوله تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُؤْمِنُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ» محمد / 15 ، كما ان اوصاف الجنة في الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة يمكن ادركها من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عز وجل: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» صحيح مسلم 4/ 2174

فمن خلال ملاحظتنا للبناء المحكم الذي تميزت به نصوص النهج - رغم الحذف الذي أجراه الرضي على كثير منها نرى أن نسيجه الأسلوبى من الترابط بحيث لا يمكن فصل هذا الجانب التأملى من فكر علي عليه السلام، عن البناء العام لفكره، فما انساب في تلك النصوص من اوصاف جمالية، مرتبطة في سياقها العام بالفكر الاجتماعى المتبلور في احد جوانبه بمعالجته لظاهرة تغلب الطابع المادى على الطابع الروحى، الذي على اساسه قاس علي عليه السلام إيمان أفراد المجتمع حين قسمهم من حيث العبادة إلى ثلاثة أقسام ضمنها قوله «أن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»<sup>(1)</sup> فالتقسيم في المقولة يعكس من أحد جوانبه الحالة الاجتماعية وعلاقتها بالتطلعات المادية، وهذا ما يمكن تطبيقه - من وجهة نظرنا - على ما ورد من أوصاف جمالية ضمن نصوصها التي وردت في سياقاتها، الغاية من روائها التأمل في أقرب الأشياء، وأحقر الأشياء، وأعجب الأشياء، ليصل العقل في النهاية إلى إدراك الخالق العظيم من خلالها. فالثلاث فئات التي ذكرها علي عليه السلام في مقولته تعبد الله ولكن بتفاوت. تحكمه ظروف المستمع النفسية التي ترجع في الأساس إلى الطبيعة التي جبل عليها كل فرد، ولا بد من التحدث إليه ضمن الفئة التي ينتمى إليها بالأسلوب الذي يناسبه وإلا فلا جدوى من التحدث إليه، فقد عالج علي عليه السلام قضية الإيمان من أجدى زواياها بأسلوب التوصيل الذي يصلح لإقناع كل فئة على حدة، ويمكن إدراك أساليبه تلك من تبعا لما عرض إليه من أوصاف جمالية في سياقاتها:

ص: 535

جلبت النفس الإنسانية على حب الذات والجري وراء كل ما فيه متعة ولذة وجمال فهي عادة ما تبسط وتستجيب إذا ما أحست بما يدفعها نحو راحتها ويشير فيها كوامن الحوافز نحو هدفها، وكلما نجحت في الحصول على ما تشتهي سعى بها ذلك إلى طلب المزيد، ومن ورائها الدافع المنطوي على المغريات يحثها فالترغيب في الشيء البعيد المنال هو حافظ طبيعي للإنسان يجري وراءه، ويثابر في الحصول عليه، لذلك ورد مثل ذلك الأسلوب الترغيبى ضمن آيات كثيرة في القرآن الكريم بتصوير الجنة، وما يحف بها من حدائق غناء تجرى خلالها أنهار من خمر وعسل ولبن (1)، إلى غير ذلك من مغريات مادية تجعل الفرد يستجيب لنداء ربه عن طريق الترغيب، وقد ورد مثل ذلك أيضاً ضمن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وقد انعكس هذا الأسلوب الترغيبى على ما أثار عن علي عليه السلام من خطب، فمن أبرز النصوص التي تجلى فيها عنصر الترغيب، الخطبة التي ضمنها وصف الطيور عامة، والطاووس منها على وجه الخصوص لما في خلقه من ابداعات تجتذب النفوس وتحير العقول، وفي اعتقادنا، ان اختيار علي عليه السلام الطاووس كمثل دون غيره من الطيور ذوات الألوان الزاهية، هو غاية في التوفيق، خاصة أنه ركز على الناحية الجمالية فيه، بوصف ألوانه وصفاً رائعاً ودقيقاً من أجل تهيئة النفوس، وإعداد العقول لموضوع الإيمان الذي من أجله أورد علي عليه السلام ذلك الوصف، الذي استفرغ فيه كل ما أمكنه من طاقات لغوية، مستلهما معاني القرآن الكريم مستنجدا بأساليبه ليستجيب ذلك المثل لما يرمي إليه من أهداف دينية. مع ملاحظة أن الخطبة التي نحن بصدددها ليست بكاملة،

لأنها لم تبدأ بالتحميد والصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حيث ابتدأت بالوصف مباشرة إذ جاء في مطلعها «ابتدعهم خلقاً جديداً من حيوان وموات، وساكن وذئ حركات، واقام من شواهد البيئات على لطيف صنعته وعظيم قدرته»(1) فمطلع النص ناقص من حيث استيحائه للفكرة القائم عليها، والتي تبدو ومعالمها من خلال السياق الترغيبى المتمثل في أسلوب الاستدراج المرحلي، من وصف عام للطيور مع تركيز على اشكالها، وعجيب ألوانها بأسلوب يدعو إلى التأمل كما في قوله «ونعقت في اسماعنا دلالة على وحدانيته وما ذراً من مختلف صور الأطيوار التي اسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها، ورواسي أعلامها، من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة... كونها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة... ونسقتها على اختلافها في الأصابع بلطيف قدرته، ودقيق صنعته، فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه...»(2) ثم يمضي في أسلوب الاستدراج بعد الوصف العام إلى تخصيص الوصف في الطاووس مركزاً على عجيب شكله، وجمال ألوانه مفتتحاً ذلك الوصف بقوله «ومن أعجبها خلقاً الطاووس، الذي أقامه في أحسن تعديل، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرح قصبه، وذنب أطال مسحبه، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه وسما مطلا به على رأسه»(3) ويمضي في وصف حركاته، وإبداع الخالق في

ص: 537

#### 1- خطب - 166 - الفقرة 1

- 2- السابق وذراً: خلق، وأخاديد - جمع أخدود: الشق في الأرض، والخروق: الأرض الواسعة تخترق فيها الرياح، والفجاج - جمع فج: الطريق الواسع، والاعلام: جمع علم وهو الجبل، ونسقتها: رتبها، والأصابع، مفرده صبغ وهو اللون وما يصبغ به
- 3- السابق، نضد: نظم ورتب، وأشرح قصبه، أي داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر، إذا درج إلى أنثاه: إذا مشى إليها نشر ذلك الذنب بعد أن كان مطوياً يسحبه لطوله

تنسيق ألوانه، مستلهما البيئـة في تشبيهاته، حتى إذا احس بانشداد مستمعه إليه بعد ان أخذه في رحلة تأملية عاد به إلى الواقع المرجو من كل ذلك الوصف في قوله «فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاه للعيون، فأدركته محدود ومؤلفا ملونا، وأعجز الألسن عن تلخيص صفته، وقعد بها عن تأدية نعته»(1).

ثم يستطرد في تسبيحه مستعرضا في عجالة خاطفة خلق أصناف أنواع أخرى من الحيوان، حتى إذا أحس من مستمعه الاقتناع الممزوج بالتأمل، دخل به إلى غرضه الرئيسي، وهو الإيمان عن طريق الترغيب بعد ان هيا نفسه إلى ما يريد بثه فيها متابعا نهجه الاستدراسي التأملي وذلك بالانتقال إلى وصف الجنة في قوله «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها، لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارفها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائن اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها...»(2) كل ذلك أعده الله سبحانه كما يقول علي عليه السلام: «لم تزل الكرامة تتماذى بهم حتى حلوا دار القرار، وآمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المؤنقة، لزهقت

ص: 538

1- المصدر السابق نفسه. بهر العقول: قهرها وردھا، جلاله بتشديد اللام وفتحها: كشفه

2- السابق - فقرة 5- وعزفت: نبذت وكهرت، اصطفاقي الأشجار: حفيفها، والكثبان - جمع كتيب: التل، عساليجها - جمع تكسير مفردة عسلج بضم فسكون فضم، أو عسلوج: وهو الغصن اللدن الناعم، أفنانها - جمع تكسير مفردة فنن: الغصن، وغلف - بضمين جمع غلاف - هو الوعاء النباتي الذي يحفظ طلع النخلة فيها، والإكمام - جمع كم بكسر الكاف - وهو غطاء النوار، والمؤنقة: المعجبة

نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى محاوره أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»(1)، فالرحلة التأميلية التي أخذ علي عليه السلام بلب مستمعه إليها جذابة ومغرية، والوصف كان محوراً والنفوس الطامعة في نعيم الله كانت الجائلة في ربوعها، ونيعم الفردوس هو جزء تلك النفس على إيمانها لله.

## ثانياً - أسلوب الترهيب (عبادة العبيد):

استنار علي عليه السلام بهدي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة في توظيفه وصف بعض مخلوقات الله كأمثلة ضمن أساليب الترهيب التي حاول من خلالها دحض مزاعم من انكر وجود الخالق، وكفر بنعمه العميمة، وقد تجلى ذلك بوضوح في خطبته التي ضمنها وصف النملة والجرادة ومخلوقات أخرى، وقد وظف ذلك الوصف - لغرضه الترهيبى توظيفاً محكماً، يتعذر معه فصله عن سياقه، وتشريحه كجزء منفرد، بتركيز الضوء على ما فيه من دقة متناهية لأن هذا الوصف لم يكن مقصوداً لذاته، ثم ان تميزه بالجمال والشمولية، يمنح السياق الذي ادرج فيه بعداً تأملياً، القصد منه هز النفوس بجعلها تجنح إلى التفكير في المصير من خلال امعان النظر فيما اودعه الخالق في هذا الكون من ابداع يحار منه العقل وتدهل له النفس، فساق في جادة الإيمان متحاشية العذاب، ومقرة بالربوبية.

فبعد تحميد الله، وتزيه ذاته عن كل الصفات العقلية المتخيلة، وبعد الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله، وذكر بعض فضائله، يدخل علي عليه السلام في موضوع الوصف، بعد ان يقدم له بمقدمة مقتضبة، يمكن اعتبارها الحمة الرابطة بين فكرة التوحيد التي

ص: 539

وردت في الصدر، وبين الوصف التالي لها إذ يكمن ما اجمله سابقا ويريد عرضه لاحقاً بضرب الامثلة التي تثبت صحة فكره وتعضده من الناحية الإقناعية فيقول «ولو فكروا في عظيم القدرة، وجميم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة، الا ينظرون إلى صغير ما خلق»<sup>(1)</sup>، ثم يباشر بالدخول في وصف جسم النملة واستشعاراتها، وحركتها في جريها وراء تحصيل رزقها في أوقات تدرك بقدرة من الله أوانها، فتعمل جاهدة في جمع قوتها وادخاره لفصول يتعذر فيها العمل<sup>(2)</sup>، ثم ينتقل إلى مقارنة سريعة بين النملة في صغر حجمها وبين النخلة في كبر حجمها وهيئتها وشكلها، دون الدخول في تفاصيل جزئية، لأنه يرمي من وراء ذلك اطلاق العقل لتأمل التفاصيل وكشفها بمفرده، وفي ذلك يقول «ولو ضربت في مذاهب فكريك لتبلغ غاياته، ما دلتك الدلالة الاعلى أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف، والثقل، والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه الا سواء»<sup>(3)</sup>.

إلا أن الاضطراب سرعان ما يسود فقرات الوصف، حين يتقدم وصف الكون على وصف الجراد، مع ملاحظة أن الترتيب المنطقي للأفكار يحتم الانتقال من العام إلى الخاص، كما عهدنا ذلك في الخطبة التي حوت وصف الطاووس، أو من الصغير إلى الكبير بالتدرج، ونعتقد أن هذا التقديم والتأخير في ترتيب الأفكار ضمن كثير من نصوص النهج لم يكن من فعل علي عليه السلام لأنه لا يتناسب

ص: 540

---

1- خطب - 233 فقرة 3 ومدخولة معيبة

2- راجع السابق - نفس الفقرة

3- راجع السابق

والتسلسل الفكري الذي عهدناه فيما وصلنا عنه من خطب ورسائل ووصايا متكاملة البناء (1)، مع ترجيحنا ان ذلك من فعل جامع النهج، الذي أشار في مقدمته إلى مثل ذلك الأسلوب في تنسيق المادة (2) لتتفق ومنهجه الانتقائي.

فالجرادة هي المثل الثاني الذي عرض علي عليه السلام إلى وصفه للتدليل على قدرة الله وعظمته، وقد ضمنه فيما نعتقد نوعاً من عقاب الله المبطن في وصفه لما تحدثه الجرادة في الزرع من دمار، ووقوف الإنسانية إزاء ذلك المخلوق الصغير مكتوفة الأيدي، وهو مجرد اعتبار وتأمل، في نوعية العذاب الذي يمكن لله صبه على من يجحد نعمه، مهيباً لذلك أتفه الأسباب واحقرها، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «يرهبها الزراع في زرعهم، لا- يستطيعون ذبها ولو أجلبوا بجمعهم، ترد الحرث في نزواتها وتقضي منه شهواتها، وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة» (3).

ويلي وصف الجرادة والحديث عنها، حديثه عن السماء والكون وذلك في عجلة تأملية غابته منها بث الرهبة والخوف في نفوس مستمعيه من غضب الله وعذابه ونقمة بانياً حديثه على قاعدة متينة من الإيمان العقلي الممزوج بما يناسب المخاطب من تهديد ووعيد، لإنكاره وجود الخالق، مع أن الشواهد الكونية من حوله لو تأملها بعين عقله، واستلهم مكوناتها ببصيرته دون أية مكابرة لتوصل إلى فكرة الخالق الواحد، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «فالويل لمن أنكر المقدر، وجحد المدير، زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف

ص: 541

1- راجع على سبيل المثال - خطب 3، 240 ورسائل - 31، 53

2- راجع ص 38، 123 وما بعدها من هذا البحث، فقد عرضنا لذلك بالتفصيل

3- خطب - 233 - فقرة 5، وذبحها: دفعها، ونزواتها - وثباها ونزا على الشيء وثب عليه



صورهم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما ادعوا. وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان»(1) وبهذا يصل علي عليه السلام بالوصف إلى غايته المطلوبة، بزرع الخشية في النفوس لتجنبيها مغبة الانزلاق في مهاوي الكفر بكفرانها الخالق وجود نعمه.

### ثالثاً - أسلوب الإقناع الذاتي (عبادة الأحرار):

من ناحية الثالثة، وفي سياق التوعية إلى وجود الخالق سبحانه، ونفي الصفات عنه وتوحيده، اتبع علي عليه السلام أسلوب الوصف كعامل إيقاظ للفكر بتأمل الكون، ولكنه لم يقرن ذلك الوصف بأي عامل ترغيبي أو ترهيب، لأنه في هذا الجانب يتحدث إلى عقول تواقفة إلى المعرفة من أجل المعرفة لذاتها، فالتأمل في مثل حالات أولئك يحتاج إلى المثير العقلي الذي يدهش، وهو في الوقت نفسه قريب من تناول الفكر، وقد وجد علي عليه السلام في توظيف وصف الخفاش لمثل تلك الشريحة الإنسانية بغيته، لأن خلقه يدعو إلى التأمل ويثير الاستغراب، فتصرفاته تختلف في شكلها وطبيعتها عن بقية مخلوقات الله الأخرى الموجودة في الكون وتحت نظر المخاطبين.

فبعد الحمد له والقول بعجز العقول عن وصفه، وادراك كنهه ينتقل علي عليه السلام إلى فقرة ثانية يسترسل فيها بالحديث عن عظمته جل شأنه يبدوها بقوله «هو الله الحق المبین، احق وايبين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها، ولم تقع عليه الا وهام بتقدير فيكون ممثلاً»(2) ويمضي في أساليب التنزيه تلك (3).

ص: 542

1- المصدر السابق نفسه، ولم يلجأوا: لم يستندوا، وادعوا: حفظوا

2- المصدر السابق نفسه، ولم يلجأوا: لم يستندوا، وادعوا: حفظوا

3- خطب - 155 - فقرة 2

حتى يبلغ الغاية في شد الأفكار إليه بالتأمل في فحوى المعاني القدسية المطلقة، إلى أن يصل إلى قضية الخلق، ذلك المشكل الذي استعصى على العقل البشري إدراكه ومعرفة سره، مدمجا إياه في البناء الفكري لموضوع التوحيد، مبنيا ضمن ذلك القدرة الربانية في خلق الأشياء بلا نماذج تماثلها، دون استعانة بفكر يتأملها ولا معاونة من شريك يقاسم الخالق في فطرتها «فتم خلقه بأمره، وأذعن لطاعته، وأجاب ولم يدافع، وانقاد ولم ينازع»<sup>(1)</sup>.

وحتا للعقول نحو التأمل، ينزل علي عليه السلام بمستمعه من المطلق إلى الواقع متخذاً من عجائب خلق الخفاش مثالا على القدرة الربانية، وتتمثل جوانب الاستشارة والاستغراب في خلق هذه الحيوانات كما يرى علي عليه السلام:

1- أنها لا تتمكن من الطيران والسعي وراء رزقها الا في المساء عند غروب الشمس، بعكس مخلوقات الله الاخرى خاتما بهذه الفكرة بقوله «فسبحان م جعل الليل لها نهارا ومعاشا والنهار سكونا وقرارا»<sup>(2)</sup>

2- وأن هذه الخفافيش يمكنها الطيران مثلها في ذلك مثل بقية خلق الله من الطيور ولكن أجنحتها كما يصفها علي عليه السلام «من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الأذان»<sup>(3)</sup> فهي ليست برقيقة ولا غليظة ومتراطة فيما بينها بعروق رقيقة، وهي ليست مكونة من ريش، فهي لا تحتاج في طيرانها إلى قوادم وخواف.

3- ومن العجيب في خلقتها أيضاً كما يقول علي عليه السلام إنها «تطير وولدها

ص: 543

---

1- خطب - 155 - الفقرات، 3

2- المصدر السابق فقرة 2

3- المصدر السابق

لاصق بها، لا-جئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانها، ويحمله للنهوض على جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه»(1).

وبعد رحلة التأمل تلك من خلال وصف عجيب خلق الخفاش، يعود علي عليه السلام بمستמעه إلى موضوع الإيمان الذي هو بصدد محاورة العقول في فحواه، وكأنه يريد ان يقول لمستמעه من خلال ما عرض له من وصف، انك متى أنعمت النظر فيما حولك، وتأملت بقلب واع الكون وما فيه من كائنات، لا بد ان تصل إلى الإيمان الفطري بعظمة الخالق وتوحيده.

فالإيمان هو القضية الكبرى التي عالجهها علي عليه السلام بمختلف الاساليب الفكرية، فكان الوصف والتأمل أحد تلك الأساليب.

فقضية الإيمان كجانب فكري رئيسي يجب أن ينظر إليها في النهج في اطارها المتكامل، والوصف جزء متمم لها، أو بعبارة أوضح، موظف توظيفاً محكماً لإضاءة الجوانب الفكرية في النص. هذا بالإضافة إلى جانب ثان يتمثل فيتداعي الأفكار في تفسير الآيات القرآنية الذي يمكن عده رافد فكرياً آخر من روافد معالجة قضية الإيمان في فكر علي عليه السلام.

### ب - تداعي الأفكار في تفسير آيات القرآن الكريم

المتعلقة بمعاني الحياة والموت والإيمان

تكاد معظم كتب الرجال التي ترجمت لعلي عليه السلام تجمع على القول بغزارة

ص: 544

علمية في مجال الفقه والفرائض والقضاء والتفسير (1)، فما يروى عن ابن عباس في ذلك قوله «قسم علم الناس خمسة أجزاء فكان لعلي عليه السلام منها أربعة أجزاء ولسائر الناس جزء وشاركهم علي عليه السلام في الجزء فكان أعلمهم» (2) وفي مجال علوم القرآن يقول علي عليه السلام عن نفسه «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت» (3)، كما يرى الشيعة أنه أول من صنف في التفسير (4)، وقد حفظ لنا نهج البلاغة ثلاثة نصوص في التفسير هي:

1- ما قاله بعد تلاوته: «الْهَآكُمُ التَّكَآثُرُ\* حَتَّى رُزْتُمْ الْمَقَابِرَ» (5).

2- ما قاله عند تلاوته: «يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» (6).

3- ما قاله عند تلاوته: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» (7).

ويمكن عد استرسال علي عليه السلام في التعليق على تلك الآيات، نموذجاً من نماذج تفسيره للآيات المتعلقة بالجانب التأملية المنطوية على معاني الإيمان والحياة والموت، والمبني في أساسه على الأساليب البيانية التي تعتمد إلى تفتيق المعاني،

ص: 545

1- راجع سبط بن الجوزي - تذكرة الخواص ص 51 - الكنجي - كفاية الطالب ص 179 المحب الطبري - ذخائر العقبى ص 77

2- ابن عساكر - ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ دمشق 45/3 - بتحقيق محمد باقر المحمودي

3- أبو نعيم الحافظ - حلية الأولياء 68/1 وجاء مثله عند ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة 43/3

4- راجع: حسن الصدر - تأسس الشيعة لفنون الإسلام ص 316 وما بعدها

5- خطب - 218 والآية من سورة التكاثر / 1، 2

6- خطب - 219 - والآية من سورة النور / 36، 37

7- خطب - 220 - والآية من سورة الانفطار / 6

وتجسيدها في صور تطلق للفكر العنان لينساح في سباحات دينية تتناسب وما يكمن في الآيات المفسرة من تعبيرات عميقة. وعليه عليه السلام لى حين يتناول هذا الجانب القرآني بالتحليل لا يقف عند حدود المعاني القاموسية بل يضرب بفكره في اعماق الكلمة، متأملاً طاقاتها شاحدا اياها كي تستجيب للمعاني التي يريد من خلالها تجسيد كل ما يهز الاعماق ويثير الاحساس ويطلق للعقل عنان التفكير فيما وراء المحسوس ويكفي ان تأخذ الآية الأولى كنموذج لذلك النوع من التفسير التأملية.

فكلمة المقابر وعلاقتها بالبشر في قوله تعالى:

«اللَّهُ أَكْبَرُ التَّكَاثُرِ\* حَتَّى رُزِّتُمْ الْمَقَابِرَ» (1) لم تقصر على المعنى الظاهر للموت، بل سلكت احياءاتها تأملاً عميقاً في معنى الحياة، واستبطاناً في فحوى الموت، لتجسد ما تزخر به الآية الكريمة من طاقات معنوية تسلك طريقها إلى النفوس، وتوقظ الاحساس بسيطرة أساليب الانشاء على النص التفسيري، حين ورد التعجب في صدره ليلقي بالمستمع في بحر متلاطم من الاستغراب الذي يشد الانتباه، ويجذب الاسماع ويطلق للعقول عنان التأمل كما في قوله بعد عرض الآية على الاسماع مباشرة «يا له مرمماً ما أبعد وزوراً ما أغفله، وخطوا ما أقطعته، لقد استحلوا منهم أي مذكر، وتناوشوهم من مكان بعيد» (2)، فقد بنى علي عليه السلام السياق الفكري لمطلع التفسير على مقولة فحواها عدم جدوى فخر الأحياء بأسلافهم من الموتى، والتخلي عما استطعموه من أفعال وآثار خلفوها وراءهم، والأجدى لأولئك الأحياء التأمل في حالهم ومآل مصيرهم، بالانتخا

ص: 546

1- التكاثر / 1، 2

2- خطب - 218 - فقرة 1-

من حال أولئك الموتى في مقرهم الأبدي عظام وعبر، وتمكنهم من تلافى ما فرط منهم من اعمال لا يرضاها الله قبل مباغثة الموت لهم.

فالتقريع على تقريظ الفرد فيما وهبه الله من نعم مقابل الإيمان، والتباهي بعصية الأنساب والأصول هو المعنى العام للآية، إلا أن علياً عليه السلام لا يكتفي بذلك المعنى حين يقرر بأسلوب تأملي مناسب، أن لا جدوى من التفاخر بالأنساب من خلال أولئك الموتى، ولا طائل من التباهي بما خلفوه من آثار تركوها بعد فراقهم، لأن الأجدى من وجهة نظره «لأن يكونوا عبداً من أن يكونوا مفتخراً»<sup>(1)</sup>.

ومن خلال عبارات تأملية تتداعى أفكار علي عليه السلام لتأخر بالباب مستمعيه في رحلة استبطانه عبر المقابر ليستنطقها حال أولئك المفتخر بهم من الموتى وعلاقتهم الحقيقية بأولئك الذين يفتخرون بهم، فتجيب قائلة «ذهبوا في الأرض ضلالاً، وذهبتم في أعقابهم جهالاً، تطأون في هامهم، وتستثبتون من أجسامهم، وترتعون فيما لفظوا، وتسكنون فيما خربوا، وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح»<sup>(2)</sup> فالتصاعد الأسلوبى يصل بالتأمل إلى ذروته حين ينتقل علي عليه السلام بفكره، من استنطاق الجماد إلى تصوير رحلة الموت الرهيبة في بطن الأرض، حيث تعبت الدود في أجساد لتوها قد أودعت التراب، وأخرى محا معالمها التراب، وهتكها البلى، بتقادم العهد عليها، بحيث يعجز

ص: 547

1- راجع السابق

2- خطب - 218 - فقرة - 1. والضلال - بضم الضاد وتشديد اللام وفتحها - جمع ضال - أي ضائع وتائه غير مهتد. وتطأون هامهم: تدرسون وتمشون عن رؤوسهم، والهام جمع هامة أعلى الرأس، وتستثبتون من أجسادهم أي تبنون وتشؤون من تراب أجسادهم، وترتعون فيما لفظوا: أي تأكلوه وتلدزون بما طرحوه وخلفوه

شرح معاني الموت في رحلته التأملية الطويلة كما صورها فكر علي عليه السلام.

على أن علياً عليه السلام لا يترك مستمعه وحيداً في خضم تأملاته العميقة تلك دون أن يشركه في تصوره للموتى في قبورهم في قوله «فلو مثلتهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت اسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فحُسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلائقها... لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون، لهم في كل فضاة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي، فكم أكلت الأرض من عزيز جسد، وأنيق لون...»<sup>(1)</sup> فالحال قد تبدل، والسعي الدؤوب وراء مقتنيات الدنيا قد توقف، والجمال قد تشوه، وقد ران الهدوء الأبدي على كل شيء من حولهم، فلم تعد العواطف توظفهم ولا تغير الأجواء يمللمهم من سباتهم العميق، فلا جديد يغير من حالاتهم في مقامهم الأدبي حتى يوم يبعثون.

على أن استرسال علي عليه السلام في تصور حال الموتى في قبورهم من خلال تداعي معاني الآية الكريمة، هو امتداد لدورة الحياة المستمرة كما تصورها فكره، فالبداية والنهاية متعاقبتان في دورة مستمرة لا تتوقف، ويمكن للمتأمل أن ينظر إليهما في تعاقبهما من أية زاوية يشاء، لذلك لم يتقيد في عرضه للحياة والموت، بالترتيب العقلي المتصور، حين بدا تفسيره بأسلوب التفرغ عن طريق اثاره مستمعه من خلال أساليب التعجب التأملية المتعاقبة تلا ذلك باستنطاق الأرض عن حالها

ص: 548

---

1- السابق - فقرة - 4 - وارتسخت، مبالغة في الرسخ أي نضوب مستودع قوة السمع، وذهاب مادته بفعل عوثر الديدان والهوام فيه، واستكت الأذن: صمخت، وحسفت العين: أي انفقأت وتشوهت بفعل التراب وذلاقة اللسان: قوة نطقها

إزاء الموتى، ثم بوصف الموتى في أجدانهم، وأثناء عبورهم البرزخ (1)، خاتماً تأملاته الفكرية في معاني الآية الكريمة بوصف بداية نهاية الإنسان وما يعتبر من أوصاف وعلل ونكسات صحية تتلوها سكرات الموت ومن ثم الفراق الأبدي فيقول عليه السلام في خاتمة ذلك «فبينما هو كذلك على جناح من فراق الدنيا، وترك الأحبة، إذ عرض له عارض من غصصه، فتحيرت نوافذ فطنته، ويبست رطوبة لسانه، فكم من مهم من جوابه عرفه فعيبي عن رده ودعاء مولم بقلبه سمعه فتصام عنه! من كبير كان يعظمه أو صغير كان يرحمه» (2). فتفسير علي عليه السلام هذه الجوانب الماورائية وربطها بالواقع، لم يعد مجرد توضيح المعاني من خلال شرح مقتضب، فقد استحال إلى طاقات من المعاني الإيحائية الموجهة توجيهها فكرياً عمقياً وواعياً، الهدف منها إيقاظ حس الإنسان بالتحديث إلى نفسه لزرع الإيمان والخشية في اعماقها، والأخذ بيده إلى الصلاح والخير عن طواعية واقتناع. ولو تأملنا في تفسيره للآيتين الأخريين لوجدنا أنهما لا يتعدان في مهجهما الفكري عما

ص: 549

1- وردت كلمة البرزخ عند علي عليه السلام ضمن التفسير في قوله عن الموتى أنهم «سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض عليهم فيه» وقد فسر ابن أبي الحديد البرزخ بتفسيرين: بمعنى القبر، وما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث شرح النهج 11 / 145، أما ميثم فقد أخذ بالمعنى الثاني المتمثل فيما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث شرح ميثم 59/4 ورجح المعنى الثاني أيضاً الخوئي في منهاج البراعة 14 / 217، 218. وأخذ كل من محمد عبده في شرحه ص 416 ط الأندلس، ومحمد جواد مغنية في ظلال النهج 3 / 289 المعنى الأول المتمثل في القبور، ونحن نرجح ان معنى البرزخ هو ما أخذ به كل من ميثم والخوئي وهو المدة الزمنية التي يقطعها الميت بين وفاته حتى يوم بعثه على اعتبار قول علي عليه السلام سلكوا والسلوك معناه المشي، ولو أنه عنى القبر لقال سلكوا بطون البرازخ بصيغة الجمع ليتفق مع الفعل سلكوا

2- خطب - 218 - فقرة 4 في نهايتها، ونوافذ فطنته: افكاره الصائبة وعي: عجز



أورده فيما عرضنا له إلا بالقدر المؤدي إلى الغاية الأساسية التي يتوجه بها النص القرآني من معان إيحائية، حيث تكون الآية هي المنطلق للتعبير الفكري عن معاني الإيمان والحياة والموت والعقيدة وغير ذلك من موضوعات تأملية أخرى. هذا وقد عرضت نصوص النهج من ناحية ثالثة إلى عدة قضايا غيبية، كالحديث عن مصير الخوارج مستقبلاً (1) والفتنة التي سيحدثها الأمويون (2)، وما ستصير إليه البصرة (3)، وما سيؤول إليه الوضع الإسلامي على أيدي الترك وغيرهم (4)، إلى غير ذلك من تنبؤات، يجدر الوقوف على حقيقتها من وجهة نظر علي عليه السلام.

## ج - القضايا الغيبية في فكر علي عليه السلام

### إشارة

إن الإيمان بالغيب هو من صلب العقيدة الإسلامية وهو من المسلمات التي لا تقبل الجدل كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين حقيقة:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (5).

والمقصود بالغيب، كما نفهمه هو كل ما لا يمكن للحواس معرفته، ولا للتجارب الوصول إلى غايته، «فالإيمان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس» (6) وعلم الغيب بمعناه الماورائي من اختصاص الخالق سبحانه من دون غيره من

ص: 550

1- راجع خطب - 36، 57، 58، 59

2- راجع خطب - 92 فقرة 2

3- راجع خطب - 13 وفي تنبئه بما سيحصل بالكوفة مستقبلاً راجع خطب 47

4- راجع خطب - 128

5- البقرة/ 3

6- تفسير المنار 1/ 127

المخلوقات مهما تسامت مكانتها وذلك بناء على قوله تعالى:

«قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» (1) وعلى ذلك فإن جميع الرسل والأنبياء لا يعلمون الغيب، وفي قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» (2) ما يؤكد عدم احاطة الأنبياء بعلم الغيب، لأن فحوى الآية يؤكد عدم اطلاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على خبايا المنافقين في المدينة من حوله رغم أنهم أقرب الناس إليه، كما ورد في القرآن ما مفاده ان قريشا قد طلبت من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يعلمها - إذا كان رسولا حقا - بأوقات الرخص والغلاء، والخصب والإجذاب، فكان رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على طلبهم من خلال قوله تعالى:

«قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسَدْتُكَ كَثْرَتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّؤْمُ» (3) . إلا- ان ذلك لا ينفي ان يلطع الله سبحانه أنبياءه على بعض الجزئيات الغيبية، كبراهين تعضد صدق رسالاتهم كما في قوله تعالى:

«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا» (4) فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد كان يعرف بعض الجزئيات الغيبية بإيحاء من الله سبحانه مما يعني ان معرفته تلك مكتسبة،

ص: 551

1- النمل / 65

2- التوبة / 101

3- الاعراف / 188 وراجع سبب نزول الآية عند: الطبري مجمع البيان 78 / 9

4- الجن / 26، 27

وقد ذكر الماوردي جانباً من المعرفة المكتسبة تلك (1)، التي يمكن من خلالها الدخول إلى موضوع الغيبيات في فكر علي عليه السلام.

لقد حاول بعض الدارسين لشخصية علي عليه السلام، تحليل بعض جوانبها النفسية لتعليل القضايا الغيبية التي صدرت عنه (2)، كما حاول فريق آخر منهم الغاء ذلك الجانب الغيبي فيما أثار عن علي عليه السلام من نصوص لاعتقادهم بأنه مدسوس عليه (3)، إلا أننا نرجح صحة ذلك الجانب من الأقوال المنسوبة إليه، أو على الأقل الجزء الأكبر منها، ويؤيد ترجيحنا ذلك قرائن منها:

### أولاً - تأليه علي عليه السلام:

إذ تكاد كثير من كتب السير التي ترجمت لعلي عليه السلام تذكر أنه قد احرق قوماً الهوه (4)، وقد بقيت عقيدة تأليهه في فرق بعد مماته ذكرها الشهرستاني (5)، وتقديس الفرد بجعله في مرتبة الإله لا يتولد عند الناس من فراغ، ولولا مشاهداتهم لصدق بعض نبواته، وظهور بعض الخوارق في أفعاله وأقواله لما

ص: 552

- 1- راجع أعلام النبوة ص 106 وما بعدها
- 2- راجع بشأن ذلك ما قاله في علي عليه السلام عبد الفتاح عبد المقصود - الإمام علي 94/1 عليه السلام وراجع ما قاله بشأن تحليل علم علي عليه السلام بالمغيبات - الخوئي - منهاج البراعة 3/140، ومغنية في ظلال - النهج 1/109، ويؤيد ذلك ويعضده ما قاله ابن خلدون في كرامات أهل البيت عليهما السلام في مقدمتهص 416
- 3- راجع بشأن ذلك - العقاد - عبقرية الإمام علي عليه السلام ص 140، وأحمد الحوفي - بلاغة الإمام علي عليه السلام ص 98
- 4- راجع ابن عساكر - ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق 3/179 بتحقيق المحمودي
- 5- راجع - الممل والنحل 1/175 وما بعدها

غلوا فيه، ولا نظن ان قوله «سيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالا النمط الاوسط فالزموه»(1) الا وليد استنتاجاته مما يدور حول شخصه من حب بلغ التقديس وبغض بلغ حد الكراهية والحققد.

### ثانياً: تكرار دفع تهمة الكذب عن نفسه:

إن تكرار دفع تهمة الكذب (2) عن نفسه في مواضع عدة من النهج لم ترد عرضاً ودونما أسباب، فلولا إحساسه بذلك الاتهام الموجه إلى شخصه، لما حاول تنفيذ كل مقولة تمس بمصداقية أقواله، التي لم تصل عقول كثير منهم إلى مرتبة إدراك أبعادها في ظل فهمهم لظواهر القضايا، دون التعمق فيها بأفكارهم للاطلاع على ما يكتنف خلفياتها من أخطار مستقبلية تتهددهم، ويمكن ادراك ذلك من قوله موبخاً من كذبه من أهل العراق «لقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب، قاتلكم الله تعالى فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به أم على نبيه؟ فأنا أول من صدقه كلا والله ولكنها لهجة غبتم عنها، ولم تكونوا أهلها»(3) فاللهجة التي غاب عنها أولئك، هي بعض قضايا الغيب التي كان يحدثهم بها وهي التي أدت بجزء منهم إلى تكذيبه لعدم استيعاب عقولهم لها.

ص: 553

1- خطب - 127 فقرة 1

2- راجع على سبيل المثال - خطب -16- فقرة 1 وخطب - 37، وحكم - 155

3- خطب - 70

عرض علي عليه السلام في أحد أحاديثه لأصحابه إلى ما سيحدث بالبصرة من فتن دموية جراء الاضطهاد والظلم الذي سيقع على الفقراء والمستضعفين من سكانها، كما تحدث عن فتن سيحدثها جنس من الأتراك في فترة من فترات الإسلام، فقال له رجل كلبني من أصحابه «لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك عليه السلام، وقال للرجل يا اخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، إنما علم الغيب، علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» من ذكر أو أنثى، وقبيح وجميل، وسخي وبخيل وشقي وسعيد... فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه، فعلمنيه، ودعالي بأن يعيه صدري، وتضطم عليه جوانحي»<sup>(1)</sup> فعلم الغيب كما يبدو من قول علي عليه السلام، هو العلم بالكلية دون الاستعانة بمعلم، أي انه ذاتي ولا يجوز العلم الذاتي الا في الله سبحانه، لأن كل عالم غيره متعلم فعلي عليه السلام يقر بأن علمه مكتسب، والعلم المستفاد من الغير لا- يجوز ان يسمى غيباً «وإن كان إطلاقاً على أمر غيبي لا يتأهل للاطلاع عليه كل الناس»<sup>(2)</sup> وإقرار علي عليه السلام بصحة اكتسابه تويده نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:

«لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَنَعْبِيهَا أُذُنًا وَأَعْيَةً»<sup>(3)</sup> فقد قال جُل المفسرين، أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قا

ص: 554

1- خطب - 128 والآية من سورة لقمان / 34

2- ميثم البحراني - شرح النهج 84 / 1

3- الحاقّة / 12

علي عليه السلام: فما نسيت شيئاً بعد ذلك، وما كان لي أن أنسى»<sup>(1)</sup>، كما ورد على لسان علي عليه السلام في نهج البلاغة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له: «إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي»<sup>(2)</sup> فالذي نفهمه مما وورد بشأن الغيبيات في فكر علي، عليه السلام أن اكتساب بعض الجزئيات الغيبية عن طريق التعلم من متلقي الوحي صلى الله عليه وآله وسلم، لا يكسب المتعلم صفة عالم الغيب. فهو على هذا لم يقل بعلمه الغيب، إلا أنه حاول توظيف ما تلقاه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من علم، في قضية التوعية إلى ما سيؤول إليه مصير المجتمع فيما لو انحاز أبناؤه عن جادة الحق بظلم بعضهم بعضاً، وميلهم به عن أصحابه والمؤهلين له، ومنهم شخصه كوارث لعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته، وقد ورد شيء كثير من ذلك في حق نفسه خاصة، وآل بيته على وجه العموم<sup>(3)</sup>، ومن ذلك ما ورد بشأن المهدي المنتظر عليه السلام.

#### د - المهدي المنتظر عليه السلام كما يبدو في فكر علي عليه السلام

من ضمن قضايا التنبؤ بالمستقبلات التي عرض إليها علي عليه السلام في النهج، وصف مُصلح يظهر بعد فتن تشب في كل مكان يستغيث الناس من شروها، حيث تسفك الدماء، وينبذ القرآن، ويعمل بالرأي، ويتبدد المسلمون هلعاً وخوفاً في أفاصي البلاد، من ذلك قوله «يعطف الهوى على الهدى، إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، حتى

ص: 555

1- تفسير الرازي 107 / 30 وجاء مثله عند: القرطبي - الجامع لأحكام القرآن 18 / 264 وعند ابن كثير - تفسير القرآن العظيم 6 / 255

2- خطب - 240، فقرة 27

3- يمكن ملاحظة ذلك في - خطب - 2 فقرة 2، 86 فقرة، 3، 4، و- 1

تقوم الحرب بكم على ساق، باديا نواجذها، مملوءة اخلافها، حلوا رضاعها، علقما عاقبتها، إلا وفي غد - وسيأتي غد بما لا تعرفون يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوى أعمالها، وتخرج له الأرض أقاليد كبدها، وتلقي إليه سلما مقاليدها، فيرىكم كيف عدل السيرة ويحي ميت الكتاب والسنة» (1). فكل من تناول فحوى المقولة من شراح النهج متفق على أن عليا عليه السلام يقصد منها، وصف أمام منتظر، أو قائم ينادي العمل بالقرآن، وأحياء السنة (2) إلا أن وجهة نظر الشيعة حول ظهور ذلك القائم تختلف عنها عند المعتزلة الذين يرون كما يقول ابن أبي الحديد «أن في ذلك إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان» (3)، بينما يرى الشيعة الإمامية أنه قد عنى بذلك الإمام المنتظر فحسب، وهو عندهم الثاني عشر الغائب، والموجود بين ظهرائي الناس (4)، والذي لابد من أن يعلن عن نفسه يوما ما ليملأ الدنيا عدلا، بعد ان ملئت ظلما وجورا، فالمهدية

ص: 556

1- خطب - 137 - فقرة 1، 2، ويعطف الهوى على الهدى يقهر الهوى وهو العمل بالرأي ويثنيه ويجعله منقادا إلى العمل بهدي القرآن والسنة وكذلك قوله: يعطف الرأي على القرآن - أي يقهره بتغليب حكم القرآن عليه، والساق الشدة، والنواجد أفضى الأضراس وهو كناية عن بلوغ الحرب شدتها، ومملوءة اخلافها، والاخلاف جمع خلف: حلما ضرع الناقة، وهو كناية عن اشتداد الفتن، وعلقم عاقبتها: أي مرة نهايتها والعاقبة هي النهاية، وقوله «يأخذ الوالي... أعمالها» أي أن الإمام المنتظر عليه السلام يأخذ العمال والأمراء على سوء أعمالهم ويعاقبهم بها، والأقاليد جمع فلذ، وهو كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم

2- راجع - الراوندي - منهاج البراعة 62/2، شرح ابن أبي الحديد 40/9، شرح ميثم البحراني 168/3 - محمد عبده - شرح النهج هامش 249 ط الأندلس

3- شرح النهج 40/9

4- للاطلاع على عقيدة الإمامية في المهدي المنتظر عليه السلام، راجع - رسائل الشريف المرتضى 293/2 حتى 297

كعقيدة، موجودة في فكر علي عليه السلام كما نعتقد، خاصة انه يرى ان الائمة المصلحين موجودون في كل عصر، بهدف تبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم، حتى لا تكون للناس حدة على الله، من ذلك قوله، «اللهم بلى، لا تخلوا الأرض من قائم بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً»(1)، ومهما يكن أولئك الذين يعينهم علي عليه السلام، سواء أكانوا الأئمة عند الشيعة، أم أنهم «الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم، أنهم في الأرض سائحون، فمنهم من يعرف ومنهم من لا يعرف»(2) كما يرى المعتزلة حسب تفسير ابن أبي الحديد، فإن الفكرة تتضمن تصريح بوجود الإمامة في كل زمان حتى قيام الساعة، فإذا ما أخذنا مآثورات علي عليه السلام في المهديّة، كلها في سياق واحد، ونظرنا إليها من خلال بنائها الفكري سنجد أن هذه النصوص تتبلور في عناصر أهمها:

1- إن الله سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من قائم مطلق بأمر الدين في أي زمان، وأي مكان، إذ لابد من وجود ذلك المصلح الظاهر المعلن عن نفسه في حالة شهوره بالأمان (3)، أو الداعي إلى شريعة السماء في السر في حالة سيطرة الجبابة والطغاة على مقاليد الأمور وهيمنهم على مصائر الناس بالقوة والقهر والظلم.

2- إنه إذا عرف الإنسان إمام وقته، فلا بد له من محاولة الرجوع إليه لأخذ أمور دينه عنه، والاستجابة لتلبية نداءه في حالة الحاجة لمواجهة أعداء الدين والظالمين من الأمراء والسلاطين، ويمكن الوصول إلى فكرته تلك من قوله

ص: 557

1- حكم - 145 - فقرة 6

2- شرح النهج 18 / 351

3- راجع حكم - 145 - فقرة 6



«والهجرة قائمة على حدها الأول، ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسر الأمة، ومعلنها. ولا يقع اسم الهجرة على أحد، إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر (1) مع ملاحظة أن عليا عليه السلام قد أشار إلى ضرورة الهجرة، وهو لا يعني بها الهجرة من مكة إلى المدينة، لأن تلك الهجرة قد بطلت بعد الفتح، بناء على قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لا هجرة بعد فتح مكة» (2) ولكنه يعني بالهجرة إلى إمام الوقت كأساس تجمعي كان هو في حاجة إليه، للوقوف في وجه الخارجين عن سلطته، على اعتبار نفسه وآل بيته عليهما السلام هم الذين أوكل الله إليهم حماية الدين بعد الرسول (3).

انه برغم الاضطهاد والظلم للذين وقعا على آل البيت عليهما السلام، فإن الله سبحانه سيعيدهم إلى المكانة التي بوأهم إياها بفضل إيمانهم وصبرهم، ويفهم ذلك من قوله «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها، عطف الضروس على ولدها» (4) وتلا عقب ذلك:

«وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» (5). فالمهدي المنتظر عليه السلام المبشّر به، كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام من آل البيت عليهما السلام، وهو ما تضمنه قوله «يا قوم هذا تضمنه منا ابان ورود كل موعود،

ص: 558

1- خطب - 237 - فقرة 2 والامة - بكسر الهمزة - الحالة

2- سنن النسائي 146/7

3- راجع الخطبة 86 - فقرة - 3، 4

4- حكم - 207 - الشمس - بكسر الشين، امتناع ظهر الدابة عن الركوب، والضروس - بفتح فضم - الناقة السيئة الخلق التي تعصى حالها

5- القصص / 5

ودنو طلعة ما لا- تعرفون، ألا- وأن منا أدركها منا يرى فيها بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين، ليحلل فيها ربقا، ويعتق فيها رقا، ويصدع شعبا، ويشعب صدعا في سترة عن الناس، لا يبصر القائف اثره، ولو تابع نظره»(1).

4- إنه لن يكون ظهوره إلا بعد فتن ناتجة عن ظلم العباد واستحرار القتل فيهم، ويكون ظهوره ناهية ذلك الظلم (2) واستتاب الأمن والرجوع إلى الدين على أصوله الأولى التي جاءت بها رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيعم الرخاء جراء ذلك كل أرجاء المعمورة.

فعميدة المهدي المنتظر عليه السلام - كما نتصورها من خلال فكر علي عليه السلام - لا تكاد تبعد في مفهومها عما بشر به القرآن الكريم من مستقبل سعيد للإنسانية في ظل الإيمان. كما في قوله تعالى:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَّ تَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسَّ تَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»(3)، واما جاء بشأنها في السنة النبوية المطهرة، كما في قوله وَعَدَ اللَّهُ «أبشركم بالمهدي يبعث على اختلاف من الناس وزلازل فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً،

ص: 559

1- خطب - 150 - فقرة 1- ابان - بكسر فتشديد - وقت، ودنو - قرب، ومنا يعني بالضمير فيه من آل البيت وهو المهدي المنتظر عليه السلام، ليحلل ربقا يفك الناس من أسر الاستغلال والربق - بكسر الراء وسكون الباء، هو جبل فيه عدة عرق يوضع في رقاب العبيد، ويصدع شعبا ويشعب صدعا، يفرق جمع الضلال ويجمع متفرق الحق، القائف الخبير بمعرفة الإثارة، والقيافة - علم تتبع إثارة المشاة من إنسان وحيوان في الصحراء وهو من أشهر علوم العرب

2- راجع خطب - 138 - فقرة 2

3- النور / 55

وظلما، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض...»(1) إلا أن عليا عليه السلام لم يذكر ضمن نصوص النهج التي جاءت في المهدي، لا صفاته ولا شكله (2) كما هو موجود فيما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حديث (3).

تلك هي إذن أهم القضايا الغيبية والأخرى الماورائية التي استخلصناها من فكر علي عليه السلام، وهي على ما تبدو لم تكن لمجرد الجنوح إلى استعراض فلسفة ما أو لأخذ الفكر الإنساني نحو اتجاه جدلي معين من أجل مناصرة فرقة معينة، لأنها - كما نتصورها - دعوة صادقة إلى التمسك بالدين والرجوع إلى طريق الإيمان، في كل الأحوال، وتحت كل الظروف، لأن العاقبة كما يراها علي عليه السلام - لا بد أن تكون في صالح المتقين المؤمنين الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة تختلف في مفهومها عما ينظر إليها غيرهم من الناس.

ص: 560

- 
- 1- الهيثمي - مجمع الزوائد 316/7، رواه الترمذي وغيره باختصار كثير، ورواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار كثير ورجالهما ثقات
  - 2- ان عدم ورود نصوص تتحدث عن صفات المهدي في نهج البلاغة لا يعني ان عليا عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، فنهج البلاغة لم يجمع كل ما أثر عن علي عليه السلام من اقوال، ففي اصول الكافي 1/339 وما بعدها - احد مصادر الحديث عند الشيعة الإمامية احاديث وخطب لعلي عليه السلام، يذكر فيها صفات المهدي وكيفية ظهوره
  - 3- راجع المقدسي - عقد الدر في اخبار المنتظر ص 16 ، 24

إذا ما أردنا سير غور فكر علي عليه السلام في محاولة للاطلاع على تصوره للحياة يجدر الوقوف عند ثلاث نقاط هي:

1 - مفهوم الدنيا في فكر علي عليه السلام.

2 - فكر علي عليه السلام بين التصوف والزهد.

3 - الأسلوب الحكمي كما يبدو في فكر علي عليه السلام.

مع ملاحظة أن النقاط الثلاث من الترابط بحيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض، لأنها تشكل في مجموعها نظرة علي عليه السلام المتوحدة إلى الحياة، فمفهوم الدنيا على اتساعه وشموليته وعمقه، هو واسطة العقد بين تقييمه للحياة وبين أسلوبه الحكمي المتولد من نظرتة إلى الدنيا بمفهومها الواسع من ناحية، وتجاربه الحياتية من ناحية ثانية، تلك التجارب التي استوعبت معاشته، بكل إحساساته، الدعوة الإسلامية منذ بداية بزوغها، حتى الوقت الذي بدأت فيه تفتتح على الحضارات الأخرى، وما أحدثه ذلك التفتح من نقالات

الفكر العربي الإسلامي بالاتجاه نحو التكالب على المادة، والتمتع بما في الحياة من ملذات إلى أقصى حد ممكن، مما جعل التركيبة الفكرية للفرد المسلم ترجح كفة الجانب المادي على الجانب الروحي، فتأثرت جراء ذلك بنية الإسلام كدين ثوري، إذ بدأت جذوة الجهاد تخدم في النفوس، بركون العربي المسلم إلى الدعة، وحب الحياة، فأخذ يتهرب من واجب الجهاد بشتى الحجج الواهية، تارة بتقلبات الطقس(1)، واخرى بالنأي بالنفس عن الفتنة، لتفادي سل السيف في وجه اخية المسلم(2)، وثالثة لتلافي النقص في العدة والعتاد(3)، إلى غير ذلك من أعذار واهية جمعها علي عليه السلام في حب الدنيا والإنبهار بزخرفها والتشبيها(4) فاستحالت الدنيا في فكر علي عليه السلام إلى رمز يمثل الشرفي معظم جوانبه، مع تمثيله للخير بالنسبة للذين يفهمون الدنيا على حقيقتها، ومن خلال ذلك المفهوم ببعديه الخير والشرير يمكننا التعرف على الدنيا في فكر علي عليه السلام.

## 1 - الدنيا في فكر علي عليه السلام

### إشارة

وردت كلمة (دنيا) مفردة ومضافة في نهج البلاغة في مئتين وثمانية وعشرين موضعاً تقريباً، هذا عدا الضمائر التي تعود عليها(5)، ومن خلال تتبعنا

ص: 562

- 1- راجع الخطبة 27 نهاية الفقرة الثانية
- 2- راجع في شأن ذلك ما قاله أبو موسى الأشعري لأهل الكوفة عند الدينوري الأخبار الطوال ص 145
- 3- راجع رد أصحابه على دعوته إلى العودة لقتال أهل الشام بعد انتهائهم من حرب الخوارج - أبو حنيفة الدينوري - الأخبار الطوال - ص - 211
- 4- راجع تعليقه للفتن التي نشبت في خلافته - الخطب الثالثة، فقرة- 3. مطلع الخطبة 34
- 5- من احصائية قسمنا بها في النهج رصدنا خلالها كلمة (دنيا) وجدنا انها قد وردت مفردة أو مضافة فيما يقارب من مئتين وثمانية وعشرين (228) موضعاً، كما تكرر أيضاً بصيغة ضمير

لانتشارها الواسع ذلك، وجدنا أنها تحمل كثيراً من المعاني التي يمكن حصرها في ثلاث مجموعات متجانسة حاول علي عليه السلام من خلالها تسليط الضوء على جميع جوانبها الإيجابية والسلبية بنظرة ملؤها الإيمان المفعم بحب الإنسانية. فالناظر يامعان في معاني المجموعات الثلاث كما وردت في النهج، يتصورها ذات وجوه مختلفة، ومعان متباينة، وأوصاف متداخلة، تغلب العتمة والتيئيس على معظمها، إلا أنها ترد في مواضع قليلة جداً، حالمة في طياتها معاني الحب والإيمان، وهي في ناحية ثالثة، ذات صور متباينة لا تستقر على حال، لأنها جوهر زائل تنقصه الديمومة، ويمكن ملاحقة تلك المعاني من خلال الحزم الثلاث التالية:

### الأولى - الدنيا المكانية:

والمقصود بها كل الكون الذي خلقه الله وفي مقدمته الأرض، التي أهبط الله إليها الإنسان لتكون مقراً لابتلائه، فالدنيا بهذا المعنى الواسع تشمل كل ما يتعلق بالحياة الطبيعية للإنسان من مسكن ومأكل وشراب ولباس، وهواء، وشمس وقمر وكواكب، وكل ما في الطبيعة مما يحتاجه الإنسان ليتأقلم وحياته التي يريدها الله له، ويمكن تتبع هذه المعاني بكل اتساع وشمولية في فكر علي عليه السلام من خلال موضوع خلق الكون، كما ورد في النهج (1)، وهو ما يمكن تسميته

ص: 563

---

1- يمكن مراجعة ذلك في: الخطبة رقم - 1، والخطبة رقم 90 - المسماة بخطبة الأشباح

بالجانب التأملية المصور لقدرة الله تعالى، ويهدف علي عليه السلام من ورائه كما تتصور - تمكين العقل إلى الوصول من تلقاء نفسه إلى فكرة التوحيد، بالنظر في ابداعاته المتوحدة التي تستعصي في استجابتها وتكوينها على أي فكر إنساني مها تناهت قدرته، وتسامت عبقريته.

ولكن هناك جانباً إيمانياً آخر عالجه علي عليه السلام عن طريق خلق الدنيا كمكان، ويتمثل في العلاقة الترابطية بين ذلك المكان الديوي وبين الإنسان الذي من أجله خلقت تلك الدنيا، إذ ليس يكفي أن يعرف الإنسان قصة الدنيا، بل يجب ان يعرف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى، كما يقول علي عليه السلام «هو الذي أسكن الدنيا خلقه»<sup>(1)</sup> مما يعني أن أولئك الخلق هم من ضمن ذلك الكون الموحد، المكمل لبعضه بعضاً، والمخلوق بقدرته سبحانه، إذ لا مجال للشك على الاطلاق، بأن الخلق، وكل ما يتعلق بهم من اشياء حياتية هي من تدبير الله وإحكامه ويتضح ذلك من قول علي عليه السلام «خلق الخلق... ووضعهم من الدنيا مواضعهم»<sup>(2)</sup> أي هياً لهم المواضع المناسبة التي تمكنهم من التأقلم مع محيطهم بقدرته التي طالت كل شيء في الوجود، من جامد ومتحرك وموات وذوي روح، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «انقادت له الدنيا والآخرة بأزمتها»<sup>(3)</sup>، وعلي عليه السلام حين يركز على ذلك الجانب يريد أن يصل بنا إلى نقطة ذات أهمية كبرى تكاد تكون مرتكزه الفكري بالنسبة لاعتبار المعنى المكاني للدنيا. فإذا كان المكان في الفكر الإنساني المحدود، يعني الاستقرار المقرون بالديمومة والراحة والاطمئنان فإنه

ص: 564

- 
- 1- خطب - 185 - فقرة 1
  - 2- خطب - 187 - فقرة 1
  - 3- خطب - 133 - فقرة 1

يعطي الدنيا بعدا مكانيا لا- يقرنه بأية استمرارية بتعبيره عن ذلك بقوله «ان الدنيا لم تخلق لكم دار مقام»(1) لأنها من وجهة نظره «دار فناء وعناء»(2) ويستحيل استمراريتها على نمط معين فمكانيتها لا تعني الثبات والديمومة، فهي من هذه الناحية «دار دول»(3)، لذلك يجب على من يعيش على أديمها أن يضع في اعتباره، أن الركون إلى مغرباتها والجري وراء ملذاتها والتكالب على مقتنياتها في ظل فكرة الخلود التي تراوده، ما هي إلا حلم بعيد المنال، لأنها كما يقول علي عليه السلام«دار لا يسلم منها الا فيها»(4) وبإمكان الإنسان إدراك ذلك بمجرد تفكيره في خلق الكون من حوله، فقد يستبعد عقله المحدود فكرة فناء هذا الكون المحكم الذي يستعصي انحلاله أو تفكيكه، أو حتى تغيير توازنه، لكنه لو أمعن النظر، ومد ببصيرته إلى ما وراء المجردات لتوصل من خلال ذلك - كما يقول علي عليه السلام - إلى أن «ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها»(5) لأن الله سبحانه قد حدد لكل خلق خلقه وقتا لايمكنه تعديده، إذ لا أزلية ولا دوام إلا له سبحانه وتعالى، فكما يقول علي عليه السلام، فإن الفناء في نهاية الأمر يعم كل شيء «وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا ولا شيء معه»(6). والفكرة ببعدها المكاني المتضمن قضية الخلق زانيا ليست من ابتداع علي عليه السلام، لأنها مطابقة لمعاني القرآن الكريم المتمثلة في قوله تعالى:

ص: 565

1- خطب - 132 - فقرة 2

2- رسائل - 72

3- خطب - 62 - المطلع.

4- المصدر السابق نفسه

5- خطب - 234 - فقرة 3

6- السابق - فقرة - 4



«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ \* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»<sup>(1)</sup> أما الغاية التي من أجلها كان تركيز علي عليه السلام على فكرة الدنيا المكانية وزوالها فهي:

إنه ما دام مآل الدنيا إلى الزوال، وما دام الإنسان غير مستقر عليها فعليه أن يقوم بواجبه تجاهها، في حدود ما فرضه الله عليه، ولا يتمادى في التكالب عليها، والركون إلى مغرياتهما لتمثل زوالها أمامه من خلال قصور شيدت ثم هجرت فأصابها البلى، ومقتنيات استمات أصحابها في جمعها فبددها وراثتهم من بعدهم، وجبارة تسلطت فكان مصيرهم الفناء<sup>(2)</sup>، مبلغ مستقر الإنسان في هذه الدنيا، أن يأخذ ويعطي بما يتناسب ومكانته الإنسانية، متمثلاً دوره عليها في حدود ما رسمه الله له، ومن خلال هذا المعنى، تدخل الآخرة في مقابل الدنيا باعتبارها دار خلود متصلة في جوهرها بعمل الدنيا، والمسافة الفاصلة بينهما مسافة زمانية يقطعها الإنسان بعمره المقدر، فيتعاقب المكان بالزمان ليشكلا مصير الإنسان الأبدي بعد دنياه الفانية.

## الثانية - الدنيا الزمانية:

الزمن عنصر أساسي في فكر علي عليه السلام لأنه كما يرى مرتبط ارتباطاً محكماً بحياة الإنسان من جميع جوانبها، فالصلاة وهي ركن تعبدي في الإسلام، إلا أنها تعني عند علي عليه السلام مقياساً يمكن من خلاله معرفة مدى التزام الفرد بالوقت المحدد لكل عمل يناط به، فإذا كان الفرد ملتزماً بصلواته في أوقاتها المحددة، من دون تقديم ولا تأخير، فهو بلا شك يقدر قيمة الوقت فيباشر أعماله في

ص: 566

1- الرحمن / 26، 27

2- راجع على سبيل المثال - خطبة - 82 - الفقرة 7- ورسالة - 3 فقرة 2

إبانها، ويمكن استخلاص ذلك من قوله ضمن وصيته لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر «صل الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تعجل وقتها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، واعلم ان كل شيء من عملك تبع لصلواتك»<sup>(1)</sup> فالزمن على هذا الأساس مقياس لصدق الفرد مع ربه ومع نفسه ومع غيره من الناس، ولأهمية الزمن العظيمة في فكر علي عليه اسلام اعتبر الإنسان ذاته وقتا في قوله «انما الناس في نفس معدود وأمل معدود، واجل محدود فلا بد لأجل ان يتناهى، وللنفس ان يحصى ولأمل أن ينقضي»<sup>(2)</sup>. فكل شيء في الوجود مقرون بزمن له بداية ونهاية، حتى الوجود ذاته، فإنه يمثل في أحد جوانبه زمنا كما يرى علي عليه اسلام، ويمكننا استنتاج ذلك من تتبعنا إلى التقابل بين الدنيا والآخرة فيما اثر عنه من نصوص في النهج، فعدم استمرارية الدنيا، والتقلب في أحوالها، يعني - كما يظهر لنا - استحواذ الزمانية على شمولية الدنيا المكانية، على أساس اعتبارها دار مجاز، في مقابل الثبات المكاني الكامن في الآخرة كما في قوله «أيها الناس، انما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لسفركم»<sup>(3)</sup>، فالمجاز بأبعاده المعنوية يعني الحركة ضمن المكان، والحركة تعني الزمن، فالدنيا تعني الزمن الذي يقطعه الإنسان من دون العودة إليه، ولما كان ذلك الزمن لا يمكن أن يعود بالنسبة للإنسان، فيجب عليه أن يستغله استغلالا حسنا في إبانته كما يرى علي عليه اسلام، وفي ذلك يقول «أن السعداء بالدنيا غدا، هم الهاربون منها اليوم»<sup>(4)</sup> فالسعادة الابدية مرتبطة بالمستقبل المتمثل في الغد المتعلق بنتائج ماضي الدنيا

ص: 567

- 
- 1- رسائل - 27 فقرة 4
  - 2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 281
  - 3- خطب - 197 - المطلع
  - 4- خطب - 220 - فقرة اخرها

آنية بالهروب منها في وقتها الآني، فالزمن الدنيوي ببعديه الآني والمستقبلي في تداخل وتمازج ولكن النتائج بينهما في تقابل أبدي أيضا، لأنهما يمثلان الدنيا والآخرة فهما «عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها، أبغض الآخرة وعادها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب»<sup>(1)</sup> والتفاوت والاختلاف فيما بينهما بالنسبة للإنسان يكمن أساسا في حركة العمل الإنساني عبر الدنيا الزمانية التي تتحول الحياة عبرها إلى سباق مع الزمن الكامن فيها، فالحرص على الامساك بالزمن وإيقاف دوران عجلته من الأمور المستحيلة، لأنه لو حدث فإنه يعني تغيير نظام الكون بإيقاف عجلة الدنيا المستمرة في دورانها، إلا أن سعي الإنسان نحو ذلك الهدف لا يتوقف، لأنه يمثل حقيقة الإنسان في حاجة المستمر في طلب المزيد من ذلك الوقت الدنيوي، الذي عادة ما يكون في مقابلة دائمة مع ذلك السعي كما يصوره قول علي عليه السلام «من طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرج عنها، ومن طلب الآخرة، طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها»<sup>(2)</sup>. لذلك فمن الاجدى للإنسان في دنياه هذه، ان يدرك تماما، أن الزمن الدنيوي بما ينطوي عليه من إغراءات، هو في جوهره خسارة مؤقتة في مقابل.

ربح ابدي. وفي هذا المعنى يقول «اعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا»<sup>(3)</sup> على اعتبار أن الدنيا كزمان هي في الواقع عمر الإنسان منذ يوم ولادته حتى يوم وفاته، إذ انه بموته كما يقول علي عليه السلام «تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة»<sup>(4)</sup> فالدنيا الزمانية على هذا المعنى

ص: 568

1- حكم - 102

2- حكم - 440

3- خطب - 113 - فقرة 4

4- خطب - 56 . فقرة - 3

### الثالثة - الدنيا وصف:

لم تكن الدنيا مجرد زمان أو مكان في فكر علي عليه السلام، لأنه من ناحية ثالثة أضفى عليها اوصافا حسية ومعنوية، فهي تارة ذات طعم لذيذ يستسيغه المتذوق، ولون بهيج يروق للناظر، فيسلم لها قياده دون ان يعلم ان ذلك الطعم السائغ واللون الرائق، ما هو في حقيقته الا مظهرها الخارجي الزائف، الذي سرعان ما تتبدى عيوبه وتتكشف مساوئه ففي معرض تحذير الناس منها يقول «اني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالأمال، وتزينت بالغرور»(1). وهي تارة ثانية متشكلة في اوصاف شتى، طبيعية مرئية، ومسموعة وذات حركة. وهي في اوصافها تلك، ينقصها الثبات، وتفتقر إلى الحقيقة والصدق، والموضوعية. صفاتها مختلطة وممتزجة بحيث يتعذر تصنيفها، فهي طبيعية كونية من ناحية، وانسانية آخذة بزي محارب همه الاعتداء والسلب والنهب تارة ثانية، أو متشكلة في زي امرأة ذات طبيعة مغرية، وهي من ناحية ثالثة حيوان شرس لا يمكن ترويضه.

والخلاصة انها جملة من السيئات التي تحاول غواية الإنسان وصدده عن كل ما فيه مصلحته وسعادته فهي كما يراها علي عليه السلام «برقها خالب، ومنطقها كاذب، واموالها محروية، واعلاقتها مسلوقة... وهي المتصدية العنون، والجامحة الحرون، والمائقة الخزون والجحود الكنود، والعنود الصدود، والحيود الميود، حالها إلى انتقال، ووطأتها زلزال، وعزها ذل، وجدها هزل، وعلوها سفل، دار حرب

ص: 569

وتلازم النظرة الغاضبة المقرونة بالحدز والحيطه جل مأثورات علي عليه السلام في الدنيا، لأنها كما يراها «مثل الحية، لين مسها، قاتل سمها»(2)، لذلك كان يتمنى لو استطاع التمكن منها، لخلص الإنسانية من أذاها، ولفك الناس من ريقه ذلها، ولجنبهم الوقوع في حبانها، وتتجلى أمينته تلك في قوله «والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً، لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمانى، وأمم القتهم في المهاوي، وملوك اسملتهم إلى التلف»(3).

فكما يبدو في النهج فإن عليا عليه السلام قد قبر داخل نفسه كل شهوة دنيوية، مهما تناهت في الاغراء، فلقد تصورها في شكل فتاة في ريعان الشباب، تلاحقه عارضة نفسها عليه، محاولة إيقاعه في حبانها بشتى الوسائل المغرية، ولكنه حسم أمره معها حين خاطبها قائلاً «يا دنيا، يا دنيا، اليك عني، أبي تعرضت؟ أم إلي تشوقت، لا- حان حينك، هيهات، غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها»(4) فهو في طلاقه للدنيا، ومحاولته اقامة حدود الله عليها،

ص: 570

---

1- خطب - 239 - فقرة - 3، وخالب - خادع، ومحروبة - منهوبة، واعلاقتها - مقتنياتهما، والمتصدية - المرأة التي تتعرض للرجال لإغرائهم، والعنون - بفتح فضم - صيغة مبالغة من الفعل عنّ أي اعتراض، والعنون الدائمة الاعتراض، والجامحة الدابة الصعبة التي يستعصي ركوبها، والحرون - الدابة التي إذا طلبت منها السير وقفت معاندة، والمائقة - الكاذبة - والخؤون - المبالغة في خيانتها، والجحود - المنكرة للنعمة، والكنود الكافرة بالنعمة، والعنود - الدائمة العناد، والميود - مبالغة من ماد، الدائمة الاضطراب التي لا تستقر على حال

2- رسائل - 68

3- رسائل - 45 - فقرة 4

4- حكم - 75

من المثالية بحيث يريد أن يقيم كل أود في الحياة من حوله مع وضعه في الاعتبار أن الإنسان العادي لا يمكنه الزهد في الدنيا والنأي بنفسه عن لذاتها لأنه يرى ان «الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب امه»<sup>(1)</sup> فلو استطاع الإنسان نبذ الدنيا التي خلق من أديمها، لأمكنه الاستغناء عن حبه لأمه التي أنجبته ورضع لبنها وذلك مستحيل، وقد تبدو الفكرة متناقضة، خاصة حين نرى عليا عليه السلام يمنح الدنيا أوصافا ناصعة بهية، تتناقض تماما مع ما أطلقه عليها من أوصاف تزهيدية لا تقيم لها وزنا ولا تجعل له أية قيمة، فمن أوصافه المشرفة للدنيا قوله «الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد احباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله»<sup>(2)</sup>، لكن بتأملنا في النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام في الدنيا مجتمعة، نعتقد أنه لا تناقض في أفكارها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار، أن الدنيا التي يمدحها علي عليه السلام ويذمها هي دنيا الإنسان، أي زمن بقائه من يوم ولادته حتى يوم وفاته، وان المطلوب منه في دنياه الزمانية تلك ان يفهمها على حقيقتها، بفهم دوره فيها، والفهم هنا يعني، تحكيم العقل، وكبح جماح الشهوة، دون مغالبة أو تسلط، أو جشع، أو حشد، ويمكن ملاحظة ذلك في فكر علي عليه السلام، بالعودة إلى النص السابق، والتأمل في الايجابيات التي اسبغها على الدنيا بقوله عنها انها (دار صدق، عافية، دار غنى، دار موعظة) لمن اعمل فكره بصدق في كل تلك الصفات وفهمها فهما حقيقيا، بنظرة محايدة بعيدة عن كل اغراء يحيلها حية سامية أو حيوان جموح، فتطبيق الدنيا بالنسبة إليه شخصا عزوف عنها وعن ملذاتها، أما بالنسبة

ص: 571

1- حكم - 311

2- حكم - 129

إلى غيره من عامة الناس فيعني فهمها على حقيقتها والأخذ منها بما يضيف على النفس السعادة والطمأنينة، بجانب راحة الضمير وعمل حساب النفس بالتوازن بين المادة والروح طبقاً لقوله تعالى:

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» (1). وهو ما يمكن استخلاصه من فهمنا للدنيا كما وردت في فكر علي عليه السلام، الذي يرى ان الذين فهموا الدنيا فهماً عميقاً هم أولئك الذين «ذهبوا بعاجل الدنيا، وأجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحفظوا من الدنيا بما حظي به المترفون... ثم انقلبوا منها بالزاد المبلغ والمنتجر الرابع» (2). تلك هي الدنيا في فكر علي عليه السلام ليس في نظرتة إليها ثمة تشاؤم ولا هروب، شريطة أن ننظر إليها من خلال ما قاله فيها مجتمعاً دون تجزئة تحيل البنية الفكرية إلى عناصر متفككة لا تمثل الحقيقة إلا من إحدى جوانبها، مما ينأى بها، عن التكامل والوضوح، ومن خلال ذلك الفهم الواضح للدنيا كما بدت في فكر علي عليه السلام يمكننا التعرض إلى ما ورد عنده من أفكار زهدية كانت أم صوفية.

## 2 - فكر علي عليه السلام بين التصوف والزهد:

يبدو أن فكر علي عليه السلام من الثراء والشمولية والعمق بحيث حاولت كل فرقة من الفرق الإسلامية أن تنسب إليه أسلوبها الفكري بالنهل من ثرواته

ص: 572

1- القصص / 77

2- رسائل - 27 - الفقرة 2

بما يتناسب ومنهجها، وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ذلك بالتفصيل (1)، وبصدد علم التصوف يقول فيه «اعلم ان الكلام في العرفان، لم يأخذه أهل الملة الإسلامية الا من هذا الرجل (يعني علياً عليه السلام) ولعمري لقد بلغ منه أقصى الغايات، وأبعد النهايات» (2) وابن أبي الحديد حين يتبنى تلك الفكرة، لم تتولد عنده من فراغ، لأننا لو رجعنا إلى ما أثر عن الصوفية من أقوال، فسنجد أنهم يعتبرون علياً عليه السلام، قطبهم الذي أخذوا عنه علمهم إذ يرى ابن الفارض (3) (ت 632) أن علياً عليه السلام قد تصدى لإيضاح مشكل تأويل القرآن بعلمه الذي تلقاه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوصية منه كما في قوله (طويل)

وأوضح بالتأويل ما كام مشكلا علي، بعلم ناله بالوصية (4)

وعلم التأويل الذي يعنيه ابن الفارض، هو ما يوافق في اصطلاح الصوفية (علم الحقيقة) الذي يختص به العارفون منهم، على أساس تقسيم الناس بحسب معرفتهم الله سبحانه، على ثلاثة اقسام (5) كما ورد عند ابن عطاء الاسكندري الشاذلي، (6)، (ت 709) وهو مستوحى، على ما نعتقد، من تقسيم علي عليه السلام للناس من ناحية المعرفة إلى ثلاثة اقسام «عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع» (7) ولمنزلة علي عليه السلام العملية في الفكر الصوفي، فقد عدّوه «النبأ

ص: 573

1- راجع شرح النهج 17/1 وما بعدها

2- شرح النهج 72/11

3- راجع ترجمته - عند عباس القمي - الكنى والألقاب 363/1

4- ديوانه ص 105 - صادر

5- راجع ذلك التقسيم عند: أبي بكر محمد الكلاباذي - التعرف لمذاهب أهل التصوف ص 64

6- راجع ترجمته عند: عباس القمي - الكنى والألقاب 345/1

7- حكم - 145 - فقرة 2



العظيم، وفلك نوح، اي: الجمع والتفصيل، باعتبار الحقيقة والشريعة، لكونه جامعا لهما»(1).

لذا فقد تركت مآثورات علي عليه السلام بصماتها واضحة فيما رواه المتصوفة من اقوال في الزهد والتكشف ونبذ الدنيا، منها على سبيل المثال، ما رواه الشريف المرتضى من أن جل مآثورات الحسن البصري (ت 110) «في المواعظ وذم الدنيا... مأخوذ لفظا ومعنى أو معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»(2)، وقد أورد من كلام الاثنيين نماذج تؤكد ذلك، ومنه أيضاً ما روي عن مالك بن دينار (3) (ت 130 هـ) قوله لرغيف خبز اشتهاه «اشتھيك منذ أربعين سنة فغلبتک، حتى كان اليوم وترید أن تغلبني، إليك عني»(4) وهو مستوحى من كلام علي عليه السلام «لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما»(5).

وممن أخذ بقسط وافر من معاني علي عليه السلام، المتصوفة الزاهدة، رابعة العدوية (6) (ت 180 هـ) من ذلك ما روي عنها «من أحب شيئا أكثر من ذكره»(7) وهو متأثر بقول علي عليه السلام «من عشق شيئا عشى بصره وامرض قلبه»(8)، ومنه قولها

ص: 574

1- تفسير ابن عربي 755 / 2

2- أمالي المرتضى 153 / 1

3- راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء 362 / 5

4- أبو نعيم الحافظ - حلية الأولياء 362 / 2

5- رسائل - 45 فقرة 5

6- راجع ترجمتها في سير أعلام النبلاء 241 / 8

7- السابق

8- خطب - 108 فقرة 3

أيضاً «ان السلامة من الدنيا ترك ما فيها»<sup>(1)</sup> وهو مأخوذ من قول علي عليه السلام «الا وان الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها»<sup>(2)</sup> .

ولذي النون المصري <sup>(3)</sup> (ت 240) الكثير من الاقوال المتأثرة في معانيها بما يروى عن علي عليه السلام أيضاً: من ذلك ما قاله في سبب نصب العباد وضمناهم في هذه الدنيا «ذكر المقام، وقلة الزاد وبعد السفر»<sup>(4)</sup> ويكاد يكون تأثيره بمعاني علي عليه السلام بينا، في ذكره لصفات المؤمنين، وإن كان بين أسلوبَي التناول بون شاسع تكاد معاني ذي النون تتضاءل إزاء معاني علي عليه السلام <sup>(5)</sup> .

إضافة إلى ذلك فلقد حاول معظم المتصوفة التزبي بمثل ما كان علي عليه السلام يلبس «حتى انهم لما استندوا الباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتحليتهم ووقفوه على علي رضي الله عنه»<sup>(6)</sup> ، وكأنهم استلهموا ذلك من تصرفه الكامن في قوله «والله لقد رقت مدرعتي حتى استحيت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تبذها عنك؟ فقلت: اغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى»<sup>(7)</sup> .

ومحاولة لتوكيد نسبة التصوف لعلي عليه السلام، فلقد تناول بعض شراح نهج البلاغة

ص: 575

1- ابن الجوزي - صفة الصفوة - 29 / 4

2- خطب - 62

3- راجع ترجمته في سير اعلام النبلاء 11 / 532

4- أبو نعيم السابق 9 / 346 . وقارن القول بما ورد بنفس المعنى عند علي عليه السلام حكم - 75

5- يمكن المقارنة بين القولين بمراجعة مقولة ذي النون في حلية الأولياء 9 / 346 ، بما ورد من صفات ضمن الخطبة 287

6- مقدمة ابن خلدون ص 630

7- خطب - 161 - فقرة 2

نصوصاً منه، بتحليل معانيها تحليلاً صوفياً، متأولين بعض تعبيرات علي عليه السلام عليانها مصطلحات صوفية قد ابتكرها للغرض ذلك.

يتناول ابن أبي الحديد النص السادس والثمانين من باب الخطب بالتحليل والشرح، سالكا في ذلك أسلوب المتصوفة في تأويل المعاني معلقاً على النص بقوله «وأعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى (1) وتبلغ تأويلات المتصوفة ذروتها في شرح النص عند ميثم البحراني، حيث تكرر تعبيرات الصوفية ومصطلحاتهم مثل (شروق المعارف الإلهية على مرآة سره، استكثر من ذكره حتى صار الذكر ملكة له، وتجلى المذكور في أطوار ذكره، الكمالات النفسية التي تقاض على العارف، الوصول إلى مراحل عزة الله، وتوجيه سره إلى مطالعة أنواره واستشراقها، قد وقف عليها العارفون ودخلوا منها إلى حضرة جلال الله...» (2) إلى غير ذلك من مصطلحات صوفية (كالعارف والسالك، والاشراق) (3) بحيث استحال النص إلى معرض للفكر الصوفي.

ص: 576

1- شرح ابن أبي الحديد 6/ 365 وللاطلاع على الشرح كاملاً من ص 367 حتى 372

2- شرح ميثم البحراني 2/ 291 ، 292

3- العارف - من المعرفة التي يقسمها الصوفية على قسمين: أ- معرفة استدلالية، وهي معرفة الخالق سبحانه بالاستدلال بالآيات على خالقها، وهي درجة الراسخين في العلم. ب - معرفة شهودية ومبناها الاستدلال بالله سبحانه على الآيات التي خلقها، وهي درجة الصديقين أصحاب المشاهدة، وهم العارفون عند الصوفية. راجع: التهانوي كشاف اصطلاحات الفنون 2/ 995 - 996 . والسالك: في المفهوم الصوفي هو الذي يظهر نفسه من جميع الدنايا الدنيوية بسلوك الطريق الاقوم، وهو الانتقال من منزل عبادة بالمعنى وانتقال بالصورة من عمل مشروع

لكن لو تأملنا النص بنظرة محايدة، خالية من كل أفكار مسبقة، بعيدة عن أية تأويلات لمعاني مفرداته وعباراته، سنجد أنه لا يغدو كونه وصفا مثاليا لعباد الله المتقين، الذين كان يتمناههم علي عليه السلام فيمن حوله من رجال. بعد ان عايش نماذج منهم في واقع الحياة ممثلين في صحابة الرسول صلى الله عليه و آله وسلم، ممن عمّر الإيمان قلوبهم، فاستحال الإسلام في نفوسهم إلى علم مقرون بعمل، وتركوا الحياة ولم يرزأوا من حطام الدنيا شيئا، فإيمانهم لم يكن سلبيا استبطانيا مقصورا على التأمل والرحلات الروحية، فالواحد منهم كما يصفه علي عليه السلام «مصباح ظلمات كشاف عشوات مفتاح مبهمات دفاع معضلات، دليل فلوات»<sup>(1)</sup> أي أنه بجانب إيمانه العميق وتورعه عن المحظورات، فإنه متفاعل مع مجتمعه تفاعلا تاما بحيث لا يترك مجالاً لمشاركة في اصلاح أو بناء إلا أمه، ويتجلى ذلك بمعنى من خلال صيغ المبالغة «كشاف، مفتاح، دفاع» اي انه في تواصل تام ومستمر مع الناس في كل طريق يؤدي إلى الخير والسعادة، وتفاعله ذلك، جعله كما يقول علي عليه السلام يلزم نفسه «العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحق ويعمل به، ولا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها»<sup>(2)</sup> وكل تلك الصفات تنفي عنه السلبية التي تقع الإنسان داخل ذاته، ففكرة النص كما نتصورها، بعيدة عن الفكر الصوفي المحبوس داخل التأمل الروحي والمقصود على الزهد السلبي، وليس أدل على ذلك بأن الفكرة الثانية من النص المتممة له تعتمد إلى

ص: 577

---

1- خطب - 86 - فقرة 1

2- خطب - 86 - فقرة - 1

وصف حال الجهال بحقيقة الإيمان في شخص من «تسمى عالماً»<sup>(1)</sup> فمضمون النص هو كشف لحقيقة العالم وفهمه للحياة من منظور اسلامي، وقد تناولهعلي عليه السلام بالعلاج من زاويتي الايجابية والسلبية، في محاولة منه لتبصير أصحابه بالعالم العارف بقيمة الحياة المتزن في معاملاته وفي أسلوب عيشه بما يرضي ربه ويعود بالنفع على مجتمعه.

واستكمالاً لما قيل عن فكر علي عليه السلام التصوفي، نخرج على قوله «قد اجبى عقله، وأمات نفسه حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعت الابواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة في دار القرار والأمن والراحة، بما استعمل قلبه، وأرضى ربه»<sup>(2)</sup>. فلقد أوردنا النص كاملاً، كما ذكره الشريف الرضي وهو على ما يبدو مجتزأ من خطبة أو موعظة، أو رسالة، لأن سياقه يشعرنا انه مفصول عن كلام سابق عليه، كان بودنا لو عثرنا عليه، لنكون صورة كاملة عن فكرة النص، نستطيع على ضوئها معرفة مراد علي عليه السلام من وصفه ذلك، ومن هو المعنى بتلك الصفات، وعلى كل فالنص بشلكه الذي بين أيدينا، قابل للتأويل بحسب وجهة نظر قارئه والمتأمل في عباراته، فابن أبي الحديد قد وجه معانيه توجيهها صوفياً خالصاً، حين الحق به فصلاً في مجاهدة النفس<sup>(3)</sup> وثنان في الرياضة النفسية<sup>(4)</sup> وثالث في تأثير الجوع في صفاء النفس<sup>(5)</sup>، ورابع في

ص: 578

1- السابق - فقرة 2

2- خطب - 216

3- راجع شرح النهج 11 / 127

4- المصدر السابق نفسه 11 / 134

5- المصدر السابق نفسه 11 / 137

المكاشفات الناشئة عن الرياضة النفسية (1)، وكلها تتعلق بفلسفة التصوف، وفي ظل تلك الفصول الأربعة قام بشرح النص، فاستحال من وجهة نظره إلى الصفات (العارف) في المفهوم الصوفي، في سلوكه الطريق للوصول إلى ذات الله، بأعمال العقل ومجاهدة النفس بالجوع والعطش وحرمانها ملاذ الحياة، والتدافع في رحلة النفس من باب إلى باب، بعد اشراق نور الإيمان في قرارة النفس بعد ترويضها، فاستجابت وثبتت بطمأنينة وراحة على اعتبار الذات القدسية، فالبراق اللامع ضمن النص كما يراه ابن أبي الحديد «هو حقيقة مذهب الحكماء وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة» (2) والتدافع من خلال الأبواب هو «من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه» (3) وهو ما يطلق عليه الصوفية عبارة (الرحلة الروحية) (4).

وبنفس الأسلوب يتناول ميثم البحراني شرح النص بالتمهيد له بالقول «هذا فصل من أجل كلام له في وصف السالك المحقق إلى الله، وفي كيفية سلوكه، وأفضل أموره» (5).

ونحن لا نتفق مع الشارحين فيما ذهبوا إليه من تأويل، ذلك أن قول علي عليه السلام بإحياء العقل، من وجهة نظرنا، هو أعماله في التدبر، وتغليب حكمه في التصرفات الإنسانية على وساوس النفس بكتبها وهو ما كنى عنه بالقول

ص: 579

1- المصدر السابق نفسه

2- شرح ابن أبي الحديد 11 / 137

3- المصدر السابق نفسه 11 / 141

4- الرحلة - راجع سالك ص 576 إحالة (3) من هذا البحث، هامش - ب - فانتقال السالك من مقام إلى مقام، هو ما يسمى بالرحلة عند المتصوفة

5- شرح ميثم 4 / 53

(وأما نفسه) أي زجرها وصددها، أما قوله (حتى دق جليله ولطف غليظه) فليس يعني به مجاهدة النفس «بالجوع والعطش والسهو والصبر على مشاق السفر والسياحة»<sup>(1)</sup> بل المقصود به صفاء فكره، وتواضع نفسه، فاستطاع ان يشق طريقه في الحياة باستنارة عقله، بمأمن عن كل ما يسيء إليه ويزيل قدمه، فكانت راحته بإرضاء ضميره في تعامله مع الناس، وسلامة نفسه بسلوكه الطريق التي ترضي ربه، فالنص في أساسه مبني على فكرة علي عليه السلام في تعامل الفرد مع المجتمع من حوله، بحيث يمكننا اعتبار فكرة النص، تتمثل في توجيه تربوي للفرد ضمن الجماعة، من خلال اعمال العقل في التصرفات الفردية وتلافي السقوط في مهاوي الشهوة، والنأي بالنفس عن الانانية وحب السيطرة في التعامل مع الحياة، وهو ما نتفق فيه مع ما ورد عند محمد جواد مغنية: بأن غرض علي عليه السلام من النص «ان يكون كل مسلم صورة مثلى للإسلام على طراز»<sup>(2)</sup> ذلك المسلم الذي وصفه.

ثم ان قول علي عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»<sup>(3)</sup> لا يحمل في مضمونه أي بعد صوفي حتى لو حاولنا تعسف تأويله، لأن الحرف (لو) يحول دون ذلك التأويل على أساس أن معرفة ما وراء المحسوسات هو من المستحيلات فعلي عليه السلام يقصد من المقولة، ان إيمانه بالله سبحانه وتعالى قد بلغ من القوة والمتانة والأحكام، مما لا يحتاج معه إلى مزيد من البراهين الماورائية التي تقوي من دعائم ذلك الإيمان.

ص: 580

1- شرح ابن أبي الحديد 11 / 137

2- في ظلال نهج البلاغة 3 / 284

3- شرح ميثم المنة المختارة ص 52

أما قول علي عليه السلام بترقيع مدرعته (1)، فهو تعبير عن زهد في زخارف الدنيا مختص بشخصه أي انه سلوك ذاتي قصره علي g على نفسه من منطلق مسؤوليته كإمام قدوة لجميع الناس، والذين اغلبهم من الفقراء والمعدمين، والفكرة نابعة من اقتناعه المتمثل في قوله «ان الله تعالى، فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبغ لفقير فقره» (2)، فتصرف علي عليه السلام كما يبدو من المقولة هو تعبير فكري لما يجب ان يعمل به أولو الأمر تجاه رعاياهم بحسب مقتضيات العصر، وبحسب الظروف التي يعيشها الناس ويمكن استخلاص ما يؤيد مقولتنا من خلال مناقشة جرت بين رجل وبين جعفر الصادق عليه السلام حفيد علي عليه السلام، فحواها قول الرجل للصادق عليه السلام «اصلحك الله، ذكرت أن علي بن أبي طالب عليه السلام، كان يلبس الخشن، ويلبس القميص بأربعة دراهم، وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد؟... فقال له: إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله» (3).

وبعد أن تفينا التصوف عن فكر علي عليه السلام يمكننا الدخول في فكره الزهدي من خلال فهمنا لفلسفة الزهد عند آل البيت عليهما السلام في ضوء مقولة الصادق عليه السلام تلك.

استوعب الوعظ بالزهد وذم الدنيا مساحة واسعة في نهج البلاغة (4)، وقد بلغت تلك النصوص - مع كثرتها - الذروة في توظيف المعاني، حتى ليكاد المتأمل

ص: 581

1- راجع المقولة في ص 575 من هذا البحث

2- خطب - 203 ويتبغ - يهيج

3- الكليني - الكافي 6/ 444

4- راجع علي سبيل المثال لا الحصر: خطب - 63، 80، 81، 82، 102، 110، 161



فيها يحس داخل قرارة نفسه أنها صادرة عن «من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، وقد قبع في كسر بيت، أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه»<sup>(1)</sup> ولدقة في المباني التي بلغتها كثير من تلك النصوص فيتناول علي عليه السلام لمعاني الزهد، ووصف الدنيا، ومال الإنسان، فقد علق ابن أبي الحديد على واحد منها بقوله «من أراد أن يعظ ويخوف ويقرع صفاة القلب، ويعرف الناس قدر الدنيا، وتصرفها بأهلها، فليأت بمثل هذه الموعظة، في مثل هذا الكلام الفصيح وإلا فليمسك... وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأته قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفا وعظة، وأثرت في قلبي وجيبي، وفي أعصابي رعدة»<sup>(2)</sup> مما يعني أن كثرة النصوص من حيث الكم، لم تخل بمضامينها من حيث الكيف، وهذا بطبيعة الحال، ما جعل الزهاد والمتصوفة ينهلون منها ما يتفق وأفكارهم، جاعلين من علي عليه السلام قدوتهم من خلال ما أثر عنه من أقوال، دون قرننها بتصرفاته وأفعاله، إذ من المفروض على المقتدي أن يأخذ بأفكار المقتدي به متكاملة من حيث القول المقرون بالعمل، لذلك لا بد لنا من الوقوف على بعض الجوانب الخاصة من سيرة علي عليه السلام، والتي تمثل مفهومه للتفاعل مع محيطه من خلال نظرتة للجانب المادي كطرف مقابل للجانب الروحي الذي يمثل الزهد أهم أركانه.

لقد استطاع علي عليه السلام بكده وعمل يده - أن يمتلك ضياعا، خارج المدينة وفي

ص: 582

---

1- الشريف الرضي - مقدمة نهج البلاغة - ص 20 - ط - الأندلسي

2- شرح ابن أبي الحديد 11 / 152 ، 153

ينبع (1) وكانت هذه الضياع تدر عليه - حسب ما يرويه هو بنفسه - أربعين ألف درهم في العام (2)، ولكنه لم يكن يأخذ منها إلا مبلغ الكفاف، حتى أنه لما تولى الخلافة، وانتقل إلى الكوفة، كان لا يأخذ من أموال المسلمين شيئاً، فقد كان ينفق على نفسه وعلى عياله مما تدره عليه ضياعه في المدينة، وذلك بالقدر الذي يكاد يقيم اوده ومن معه من أهله، موقفاً بقيّة أمواله على فقراء المدينة ومساكينها (3)، وهذا التصرف من قبل علي عليه السلام. نابع من إيمانه بقيمة المال من وجهة نظر إسلامية، متمشية مع قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لقيس بن عاصم بشأن المال الذي يجوز للمسلم امتلاكه «نعم المال أربعون والكثير ستون، وويل لأصحاب لمئين، إلا من أعطى الكريمة، ومنح العزيزة، ونحر السمينية، فأكل وأطعم القانع والمعتز» (4)، فالرسول a لم يحرم الثراء حين قصر التملك على ستين ناقة، ولكنه توعد بعذاب الله أولئك الذين لا يستغلون ثروتهم في صالح المجتمع، ومساعدة المحتاجين طبقاً لقوله تعالى:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (5) وهو ما يمكن استخلاصه من فكر علي عليه السلام حين حاد احد أصحابه بالبصرة في مرض ألم به فوجد اتساع داره، فقال له «ما كنت تصنع

ص: 583

---

1- راجع ص 161 من هذا البحث وأيضاً مقولته عما تدره عليه ضياعه من أموال ص

2- راجع: أحمد بن حنبل - كتاب الزهد ص 51

3- راجع رسائل - 24

4- أمالي المرتضى - 107/1 ويمكن مراجعة الخبر بتوسع هناك أيضاً، والمعتز: الفقر المتعرض للمعروف دون أن يسأل

5- التوبة / 34

بسعة هذه الدار في الدنيا؟ وأنت إليها في الآخرة كنت أوحج؟ بلى إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت بلغت بها الآخرة»(1)، فالدار باتساعها المبالغ - فيه تمثل - من وجهة نظر علي عليه السلام - بذخا مبالغ فيه، إذا استغلت في الصالح العام، الا ان ذلك لا يعني أن علياً عليه السلام يرى أن من واجب كل إنسان، ان يعيش عيشة الكفاف، ويضيق على نفسه وعلى أهله بسكنى الدور الضيقة، وهو القائل «الدار الضيقة العمى الاصغر»(2) فالمقولة تفند القول بعدم توسع الإنسان على نفسه. ثم إن عليا عليه السلام من ناحية ثانية، ينهى عن الرهينة والانتقطاع إلى العبادة، والزهد في ملذات الحياة، فحين سمع بأن أحد أصحابه قد لبس العباءة وتخلى عن ملذات الدنيا، قال له «يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدتك أتري الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك»(3). لما نزع الزهدي في فكر علي عليه السلام مبني على فهم حقيقي للحياة على أساس حاول علي عليه السلام الاخذ بيد ابناء مجتمعه للرجوع بهم إلى جادة الإيمان فهو نتيجة لتطور الظروف الاجتماعية أثر تدفق الثروات على العرب المسلمين من ناحية، واختلال التوازن في بنية المجتمع في صالح فئة معينة من ناحية اخرى، وهو ما عبر عنه علي عليه السلام بقوله «اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل ترى الا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا»(4) أي أن المجتمع قد بلغ ذروة التناقض الخطير بانتشار الفقر والجوع بين عامة الناس في مقابل استئثار فئة قليلة من الأغنياء،

ص: 584

1- خطب - 203

2- شرح ابن أبي الحديد 20 / 341

3- خطب - 203

4- خطب - 129

بالمال وانفاقه على ملذاتها وتدعيم مصالحها الذاتية غير مكترثة بمعاناة الفقراء وحرمانهم.

ففكرة الزهد المنتشرة في النهج، تعني الاعتدال في الانفاق كيلا تختل احدى كفتي الميزان لصالح فئة اجتماعية على حساب الفئات الاخرى، وبتعبير اخر ان الاستمتاع المفرط في مقتنيات الحياة من قبل شريحة من شرائح المجتمع، لأبد وان يكون على حساب شرائح أخرى محرومة من امس ما تحتاجه، وهو ما عبر عنه علي عليه السلام في قوله «ما جاع فقير، الا بما متع به غني»<sup>(1)</sup> أي ان التخممة لا يمكن ان تكون الا على حساب الجوع فالدنيا التي يزهد علي عليه السلام الناس فيها «هي دنيا المتخمين من أكل الحرام والمنغمسين في الرذائل والآثام»<sup>(2)</sup> والجديرة بأن تنبذ لضلالة الجانب الروحي فيها أو انعدامه منها.

فالزهد - كما يصوره فكر علي عليه السلام - ليس هروياً بترك الدنيا والتفرغ للعبادة خوفاً من الحساب، ولا هو تصوف غايته صفاء النفس بانفصالها عن عالم المادة للوصول إلى رحاب الله من خلال شطحات لا تناسب والمسؤولية التي اناطها الله بالإنسان في تعمير الأرض، وقد مر بنا مقولته التي فحواها استطاعة المؤمن الاستمتاع بما في الدنيا بأحسن ما يستمتع به غيره، وفوزه بالآخرة دون ذلك الغير، فاستطاع الفوز بالدنيا والآخرة، لأنه قد عرف كيف يتعامل مع الدنيا <sup>(3)</sup> وذلك التعامل هو احد جانبي الزهد الذي يرمي علي عليه السلام إليه ضمن قوله «الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عن المحارم»<sup>(4)</sup> أي

ص: 585

1- حكم - 336

2- محمد جواد مغنية في ظلال نهج البلاغة 2/ 147

3- ذكرت المقولة ص 572 من هذا البحث

4- خطب - 80

عدم التهالك على الدنيا واجتناب كل ما يسيء إلى الإنسانية سواء على الصعيد الفردي في شخص الزاهد، أم على الصعيد الاجتماعي في تعالي الأفراد مع بعضهم البعض، انطلاقاً من المفهوم الإسلامي المتمثل في ربط الإنسان بواقعه «ليؤثر فيه ويحوّله إلى واقع يتأجج فيه الخير والعمل الصالح»<sup>(1)</sup>

أما الجانب الثاني من التفكير الزهدي في حد ذاته ضرب من الجهاد الداخلي في محاولة لموازنة النفس بين المادة والروح وذلك كما يتبين لنا من تعريف علي عليه السلام له بقوله «الزهد كلمة بين كلمتين في القرآن الكريم، قال سبحانه «لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»<sup>(2)</sup>. فالزهد بحسب ما يبدو في المقولة، تعامل مع واقع الحياة، يوازن النفس من الداخل بحيث لا تجنح إلى اليأس إذا ما خسرت أو منيت بالفشل، فتصاب بالإحباط والسقوط، ثم أنها لا تتماهى في السرور والفرح لمجرد حصولها على نجاح جزئي، فتصاب بالغرور، فتتسى في خضم سرورها متابعة الطريق مكنتية بما وصلت إليه، فالنجاح والإخفاق أمران محتملان وكلاهما يعادل الآخر في احتمال وقوعه، لذا يجب على الإنسان في هذه الحالة ان يكون واقعياً في تعامله مع الحياة دون إفراط ولا تفريط فإن استطاع ذلك، فقد تمكن من الأخذ بطرفي الزهد.

ويمكن استخلاص مفهوم آخر للجانب الجهادي لمعنى الزهد في فكر علي عليه السلام، وهو الداعي إلى بذل الروح في سبيل نصرة الدين، والذود عن المبادئ السامية، والدفاع عن حياض الوطن، على اعتبار أن الحياة نفق يعبره الإنسان

ص: 586

1- بسام مرتضى - فلسفات اسلامية ص 37

2- حكم - 448 - والآية من سورة الحديد/ 23

بأعماله للوصول إلى الحياة الحقيقية والابدائية، والجهاد بالنفس من أقوم السبل وأعظمها للوصول إلى تلك الحياة الخالدة من وجهة نظر الإسلام، على اعتبار أن الجهاد عملية تجارية مردودها الريح الخالد العائد على العبد من قبل خالقه كما في قوله تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (1).

وعلى ذلك فقد تدافع المسلمون الأوائل في طريق الجهاد، بإيمان ليس له حدود وحماس منقطع النظير يبذل النفوس في سبيل الاستشهاد، لكون أكثرهم من الفقراء والمستضعفين الذين سحقتهم الحياة، وذاقوا مرارة العيش، فتأقوا إلى حياة أفضل، فاستفاد الدين أيما فائدة من حماسهم ذلك، إذ انتشر في فترة وجيزة في بقعة من المعمورة شملت أملاك أعظم امبراطوريتين شرقيتين.

ولكن سرعان ما خبا ذلك الحماس، وضعفت روح المقاومة حين ذاق أولئك المحاربون حلاوة الحياة، فبخلوا بنفوسهم، فوجد علي عليه السلام نفسه بين رجال متخاذلين يتهربون من الجهاد بثتى الوسائل والحجج (2)، لذلك كان التهديد في الدنيا ومقتنياتنا وتكراره في خطبه ورسائله ووصاياها، محاولة لإعادة جذوة الحماس إلى النفوس، وحثها على الجهاد بالترغيب في الآخرة ونعيمها، تذكيرا بما ورد في القرآن الكريم بشأن ذلك وأسوة بالمسلمين الأوائل الذين وصفهم في معرض المقارنة بمن حوله من الرجال بقوله «لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما أرى أحد يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا، وقد باتوا سجدا وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر

ص: 587

1- التوبة / 111

2- راجع خطب 27، فقرة 2 وقد عرضنا لها في ص 480 من هذا البحث

معادهم...» (1) فالوصف هنا - بما يحويه من معان زهدية عميقة، في مقابلته بحال أصحابه في تقاعسهم عن الجهاد بخلا بأنفسهم وركونهم للحياة بما يكتنفها من ذل وهوان في حقيقته دعوة من خلال التقرير للزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة للتخلي بزهد رجال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الذين باعوا أرواحهم لله في سبيل الحصول على الحياة الأبدية، بعكس رجاله الذين رضوا «بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذل من العز خلفاً» (2).

فالزهد في فكر علي عليه السلام هو محاول لربط الإنسان بواقعه بعري متينة من الإيمان الواعي القائم على دعائم روحية ومادية متعادلة و متمازجة في آن واحد.

أما أسلوبه الزهدي الصارم في مأكله وملبسه، فلم يكن يعني به أية صورة من صور التصوف، ولم تصدر منه أية دعوة لأصحابه باحتذاء أسلوبه المتقشف في الحياة، اللهم إلا لولائه على الأقاليم، بهدف تذكيرهم، حتى لا ينسوا، في خضم تدفق المال، عامة الناس من الفقراء والمحتاجين على أساس أنه لا يحس بألم الفقير الا الفقير فالدعوة الزاهدة في النهج مبنية على علم مقرون بعمل، غايته سعادة الفرد في ظل مجتمع يضع المادة في مكائنها التي ترقى بإنسانيته أثناء تصرفه فيها مهما كان حجمها، فيكون مستعداً للبدل والعطاء تحت أية ظروف، سواء أكان ذلك بالروح أم بالمال على أساس إيمانه بفناء كليهما - وهذا الإيمان المتفاعل مع قيم الحياة الواقعية ينأى بمفهوم الزهد الذي يدعو علي عليه السلام إليه عن معنى التصوف الذي يحيل الحياة إلى نوع من التعبد الروحي الخالص، مما يتنافى وجوهر الإسلام على عدم الفصل اطلاقاً بين المادي والروحي، لأنهما «درجتان

ص: 588

1- خطب - 96 - فقرة - 4

2- خطب - 34 - فقرة 1

من درجات الموجود»(1) وذلك الفهم الواعي لطبيعة الحياة هو الذي جعل للحكمة قيمتها الفكرية في النهج.

### 3- الأسلوب الحكمي كما يبدو في فكر علي عليه السلام

#### إشارة

بلغت الحكم المنسوبة إلى علي عليه السلام ذروتها من حيث الكم والانتشار، حتى لا- نكاد نجد كتابا من كتب التراث العربي، سواء أكان موضوعه «الأدب(2)، أو السياسة(3)، أو الأخلاق(4)، أو الفلسفة(5)،... يخلو من قول مأثور منسوب إلى علي عليه السلام، إضافة إلى تلك الكتب(6) التي تنافست فيما بينها لجمع أكبر قدر

ص: 589

1- محمد باقر الصدر فلسفتنا ص 336

2- راجع الحصري القيرواني - زهر الآداب 1/ 43، المارودي - تسهيل النظر وتعجيل الظفر - ص 40، 90، نصير الدين الطوسي أخلاق محتشمي ص 36 بالإضافة إلى معظم أبواب الكتاب، مسكويه - الحكمة الخالدة ص 110 وما بعدها

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

5- المصدر السابق نفسه

6- من القدماء الذين اهتموا بجمع حكم الإمام علي عليه السلام: الجاحظ (ت 255 هـ-) في كتابه (المئة الكلمة المختارة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) وقد قام يشرح مختارات الجاحظ كثير من الأدباء نذكر منهم: ميشم البحراني (ت 679 هـ-) في كتابه: شرح المائة كلمة - طبع في إيران - وقد عني بنشره مير جلال الدين الحسيني سنة 1390 هـ - 1970 م) مع شرحين آخرين للمئة كلمة، إحداهما لمؤلف مجهول الوفاة اسمه كما ذكر في نهاية الشرح عبد الوهاب ولد خوجة أمير إدره، وهو ابراهيم بن يسير باشان أما الكتاب الثالث ضمن المجموعة فهو: مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بشرح (الوطواط) محمد بن محمد رشيد الدين (ت 573)



ممکن من تلك المأثورات الحكمية. على أن ذلك الكم من الحكم والتي يرجح نسبة معظمه إلى علي عليه السلام، لم يكن في أكثره سوى خطب، ووصايا (1) جزاها أولئك المؤلفون في جمل وعبارات اختاروا منها بغيتهم، وما يتناسب ومناهجهم التأليفية، مما يوصلنا إلى نتيجة مفادها ان معظم تلك الأقوال الحكمية المنشورة في طيات الكتب، أو المجموعة في شكل جمل وعبارات متفرقة، هي في الأصل عبارات مفصولة عن سياقاتها العملية، بحيث يمكن النظر في مضامينها من بعدين:

فمن خلال السياق الذي وردت العبارة فيه، يمكن إدراك مدى فاعليتها لحظة قولها، وتأثيرها في الوقت المرتبط بمناسبتها.

أما في حالة قراءتها كوحدة منفصلة عن سياقها ومناسبتها فيمنحها بعدا انسانيا اخر، يتضمن معنى حياتيا تأمليا يحاول المتطلع فيه، فهم واقعه في ضوء

ص: 590

---

1- راجع على سبيل المثال - القاضي القضاعي (ت 454) - دستور معالم الحكم ط دار الكتاب العربي - بيروت 1981 - ما ورد من حكم في الباب الرابع من ص 59 حتى ص 66 وقارن ذلك بما ورد من حكم ضمن الرسالة (31) في النهج، فسجد ان مؤلف الكتاب قد قام بتوزيع الوصية في كتابه بحسب المنهج الذي رسمه لنفسه

ذلك التعبير المنسجم مع ما يصطرع بداخله.

فقول علي عليه السلام «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذُلوا»<sup>(1)</sup> قد ورد عند علي عليه السلام ضمن خطبة بغرض توبيخ أصحابه لتواكلهم وتخاذلهم عن دفع الغارات عن أطراف بلادهم، مما جعلهم غرضاً لطمع الأعداء في كل وقت، فاستحالت حياتهم إلى رعب وذل وخوف، فالعبارة من حيث سياقها العملي ضمن النص وصف لتحصيل حاصل يراد به إثارة النخوة وبث الحماس. أما العبارة في سياقها التأملي مقطوعة عن مناسبتها، فتفتق في ذهن المتأمل فيها ابعاداً معنوية يمكن الاستفادة منها كأسلوب عسكري يحاول من خلاله القادة المسؤولون تجنب أوطانهم الدمار والذل بنقل الحرب إلى أرض الأعداء بأية وسيلة ممكنة.

فصدق التجربة ولد في أرجائها الحرارة والحماس في مناسبتها من ناحية، وإتاح لها الخلود كعبارة منفردة من ناحية أخرى لصلاحيه مضمونها في كل زمان.

كما ان قوله «سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً»<sup>(2)</sup> هو تعبير عن تبرمه ممن كان يسأله لمجرد المكابرة والتصيد لا بقصد التعلم، فكانت المقولة تعبيراً عن ضيق علي عليه السلام بأسلوب السائل المبني على الإثارة، وقد بقيت العبارة حاملة تلك الإثارة الكامنة في كلمة (تعنتاً) بحيث يمكن قولها إلى كل لجوج، يرمي من وراء أسئلته الإثارة وتصيد الأخطاء.

فالحكمة على هذا الأساس عملية من كلا جانبيها: الواقعي، المتمثل في مناسبتها والتأملي، المتمثل في ممارستها بالأخذ بفحواها في المناسبة المشابهة لها في أثناء التعامل مع الحياة، وانسيابها المنسجم ضمن مناسبتها ينأى بها عن الصياغة

ص: 591

1- خطب - 27 - فقرة - 2

2- حكم - 328

المرتجلة المنتقاة الخالية من أي مضمون عملي، لأنها تعبير صادق عن خلاصة تجربة ناضجة وعميقة، قد تبدو في كثير من الأحيان، أقدم من قائلها لما تحويه من أبعاد زمانية ضاربة في اعماق تاريخ الإنسانية، مما يعني أن تجربة قائلها الحياتية أكبر من سنة المعاش، وعلي عليه السلام في تصويره لحجم تجربته وعمقها، على وعي تام، وفي ذلك يقول «إني وإن لم أكن عمّرتُ عمراً من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره»<sup>(1)</sup> فنظرة علي عليه السلام إلى الحياة - كما يبدو من المقولة - لم تكن محددة ببعدها الآني، وتجربة لم تكن محصورة في النطاق الضيق لحياته كإنسان، فهي مزيج من الممارسة المعاشة ممن خلال التعامل مع الواقع، والتأمل العميق في تجارب الأقدمين، ومن خلال تلك التجربة تولدت أساليبه الحكيمية النابضة بالحياة، فالكثرة من حيث الكم، لا تعني عنده رصف الكلمات، وتدييح العبارات لمجرد الوعظ السلبي، والداعي إلى الوضوح والاستكانة والتسليم بالأمر الواقع، شأنها شأن أية عبارة تصدر عن فيلسوف أو حكيم، لأنها في جلها لا تعتمد على الأحلام والتخيل في تصورهما للحياة، لانطلاقها من واقع الحياة في حركتها ضمن جميع الاتجاهات الزمانية والمكانية وهي ليست فتوية موجهة لطبقة معينة، لا فردية يقصد بها شخص ما لذاته، لأنها بالنسبة لقائلها ذات ابعاد فكرية منسجمة مع نظرتة المتوحدة للحياة، ويمكن تتبع ابعادها، وتأثيراتها النفسية في نقاط ثلاث:

ص: 592

والمقصود بها العبارات الحكيمية التي تتضمن جوانب من فكر علي عليه السلام السياسي أثناء مزاولته الحكم في مختلف ميادين، فمن ذلك ما هو متعلق بالشؤون الإدارية، المتمثلة في توجيه ولاته، باتباع السياسة الحكيمية والصائبية في أثناء ممارستهم الحكم في ولاياتهم على الصعيد الداخلي تجاه مواطنيهم والخارجي تجاه الأعداء، كالتحرز في إبرام المعاهدات معهم، كما في قوله «اعتصموا بالذمم في أوتادها»<sup>(1)</sup> أي لا تتعاهدوا إلا مع من تشقون في وفائه والتزامه وصدقه.

والمشاوره وتقليب الأمور قبل الأقدم عليها من أهم العناصر التي يجب أن تأخذ بها القيادة الحكيمية كوسيلة من وسائل الاشراف في الحكم، ولبذل الجهد في تلافي الأخطاء بأنجع الأساليب، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»<sup>(2)</sup> أي أن من يضع نصب عينيه آراء متعددة من أجل حل معضل ما، فلا بد من وصوله إلى بغيته من خلال مشاوراته.

والرضوخ إلى الحق مهما كانت مرارته، من أهم الدعائم التي تنبني عليها الحكومة الصالحية إذ يرى علي عليه السلام «أن الحق ثقيل مريء والباطل خفيفوبيء»<sup>(3)</sup> مما يعني عنده، عدم المكابرة إذا ما عرف الإنسان جانب الحق لقوله «من أبدى صفحته للحق هلك»<sup>(4)</sup> أي من حاول انكار الحق والتصدي له بعد

ص: 593

---

1- حكم - 159 - راجع مناسبة هذه الحكمة عند ابن أبي الحديد 372 / 18. ط إحياء التراث

2- حكم - 177

3- حكم - 382 - ومريء - هنيء حميد العاقبة، وبيء - من الوباء أي المرض، أي وخيم العاقبة

4- خطب - 16 - فقرة 2، وحكم - 158 - من أبدى صفحته للحق أي من كاشف الحق مصارحاً له بالعداوة.....

تأكدته منه كان مصيره السقوط مهما أبدى من مقاومة. مع ملاحظة أن تخصيصنا الحكمة لميدان معين هو السياسة، لا يحصرها في ذلك المجال بالذات لأنها كمقولة عملية صالحة للتعامل بها في جميع ميادين الحياة بما يتطابق ومناسبتها على المستويين الفردي والاجتماعي.

وقد يبدو على الحكمة في بعض جوانبها نوع من لمقاومة السلبية التي تجعل الفرد خانعا مستسلما، ولكن هذه الفكرة سرعان ما تتبدد، إذا ما وجدناها في الجانب الآخر تدعو إلى القوة المتعلقة، المتمثلة في الحزم، فالتعامل بأسلوب أخلاقي متحضر، لا يمنع الإنسان من الدفاع عن نفسه ومواجهة الشر بمثله إذا لم يجد وسيلة أخرى لدرء الخطر عن نفسه، وهو عين ما يمكن استنتاجه من قول علي عليه السلام «ردوا الحجر من حيث جاء، فإن الشر لا يدفعه إلا الشر»<sup>(1)</sup>، وعلي عليه السلام هنا لا يدعو إلى ما يسمى في العصر الحديث بالعنف، لأن قوله ذلك نابع من فكر إسلامي واضح يمثله قوله تعالى:

«فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»<sup>(2)</sup> ذلك هو جانب من جوانب السياسة في مآثورات علي عليه السلام الحكيمية.

ويتمثل الجانب الثاني في أسلوب تعامل الحاكم مع المحكوم من وجهة نظر علي عليه السلام وهي مبنية في جوهرها على ما انتهينا إليه عند استعراضنا لفكر علي عليه السلام السياسي<sup>(3)</sup> ذلك بحيث يمكننا القول ان الحكمة في هذا الجانب، لا تعدو كونها خلاصة لذلك الفكر المقرون بالممارسة الميدانية للحكم، والمتمثلة

ص: 594

1- حكم - 322

2- البقرة / 194

3- راجع ص 138 وما بعدها من هذا البحث

في احترام الإنسان وصيانة حقوقه، ونأي الحاكم بنفسه عن كل ما يترتب عليه من هدم في بنية المجتمع، فالخلاصة التي توصل إليها علي عليه السلام من خلال ممارسته للحكم، انه إذا ما اريد لأية دولة البقاء قوية من حيث اقتصادها وامنها، يجب أولاً وقبل كل شيء احترام حقوق الناس وقد أودع علي عليه السلام فكرته تلك في قوله «إن العسف يعود بالجلء، والحييف يدعو إلى السيف»<sup>(1)</sup> فالحكمة ذات المضمون السياسي، في النهج منسجمة تماماً مع فكر علي عليه السلام السياسي، سواء أكانت مقولته متعلقة بشخصه ذاتياً أم كانت مطلقة تعني الحكم بمعناه الواسع في جميع ميادين الاقتصاد أو الإدارية أو العسكرية.

## الثانية - الحكمة الاجتماعية:

وهي التي ترمي إلى توضيح الأسس التي ينبغي أن تنبني عليها العلاقات بين الناس، بمعرفة كل فرد حقوقه وواجباته كي ينتظم المجتمع، ويسود التعاون والمحبة والوئام مختلف فئاته، والمستخلص من فكر علي عليه السلام في هذا الجانب، ان توفير الطمأنينة للمواطنين من أهم العوامل المهمة لخلق ذلك المجتمع، ولا يمكن الوصول إلى ذلك الا بإزالة الغربة من النفوس، لأنها من أهم عوائق البناء، وليس ثمة غربة للمواطن في وطنه كما يرى علي عليه السلام مثل الفقر وفي ذلك يقول «الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»<sup>(2)</sup>، فتوفير العيش الكريم للمواطن من أهم دعائم المواطنة، ويرى علي عليه السلام ان للإنسان دوره أيضاً في اسعاد نفسه واسعاد الناس من حوله إذا ما توفر له العيش الكريم، وذلك إذا

ص: 595

1- حكم - 485

2- حكم - 54

استطاع الاتفاق بتعقل وحكمة، فبصدد ذلك يقول «كن سمحاً ولا تكن مبذراً وكن مقدراً ولا تكن مقتراً»(1).

ولأهمية المال البالغة في بناء العلاقات الاجتماعية يرى علي عليه السلام وجوب سياسته بالعلم، حتى لا يستحيل إلى وبال على المجتمع، وفي هذا يقول «من أتجر بغير فقه فقد ارتطم بالربا»(2)، أي استحال إلى مستغل همه الربح والجمع على حساب الناس، مع الملاحظ ان الطابع الاجتماعي العام، هو الذي يحكم الأسلوب الحكمي المعالج للناحية المادية على أن هناك طابعا فرديا يحاول علي عليه السلام من خلاله إبراز فكرة إدماج الفرد في المجتمع من حيث التعامل بأسلوب فعال يجنبه العزلة، ويحتم عليه التعاون. فمفهوم الصداقة في فكر علي عليه السلام الحكمي، يعني التعاون التام وفي كل الظروف، ومن حكمته في الصداقة قوله «لا تكون الصديق صديقا حتى يحفظ اخاه في ثلاث: في نكته، وغيبته، ووفاته»(3).

ويرى علي عليه السلام أيضاً أنه لا يمكن تفاعل الفرد في المجتمع، تفاعلا ايجابيا، الا بالإقدام على العمل بثقة في النفس، وإصرار، وعزيمة، لأن الفشل والنجاح مقرونان بعمل دؤوب يحرك الإنسان استخلاصا من قوله «فزت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان»(4).

والدين كأسلوب الحياة متكامل الجوانب، استأثر بمكانة سامقة في فكر علي عليه السلام إذ يرى ان على الفرد إذا ما اراد ان يعيش في انسجام تام مع بقية افراد

ص: 596

1- حكم - 33

2- حكم - 46

3- حكم - 132

4- حكم - 21

مجتمعه، ان يعرف الإسلام على حقيقته من خلال فهمه لأصل الإيمان المنبثق من حكمته القائلة «الإيمان ان تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله حديث غيرك»<sup>(1)</sup> وهو بهذا يضع مفهومًا للإيمان يختلف في أسلوبه عما يتصور أنه مجرد طقوس خالية من كل مضمون اجتماعي أخلاقي؛ لأنه يرى فيه معرفة يقينية مقترنة بعمل مثمر وجاد يمثل قوله «كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم ليس من قيامه إلا السهر والعناء حبذا نوم الاكياس وإفطارهم»<sup>(2)</sup> والأكياس هم العقلاء العالمون العاملون، فالفاعلية الإيمانية في فكر علي عليه السلام تكمن في العمل بالعلم. ولو تتبعنا الحكمة الاجتماعية باتجاهاتها المتعددة المتنوعة في النهج فسنجد لها في مجملها تصورا لواقع اجتماعي، الهدف منه التعاون المنسجم بين كل الطبقات الإنسانية، من خلال جعل المادة وسيلة بناء والعمل غاية للتطور.

### الثالثة - الحكمة الأخلاقية:

قد يتبادر إلى الذهن هنا أن المقصود بالحكمة الأخلاقية هو الوعظ المصوغ في قوالب تعبيرية بديعة، ولكن بتبعنا لمختارات الرضي الحكيمية في النهج نجد ان مثل تلك الحكم الأخلاقية المبنية على النصح المباشر تشكل نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالحكمة الأخلاقية في سياقها العملي، المبني على ما يمكن اعتباره دراسة للنفس الإنسانية في أثناء احتكاكها بالحياة، فمحاولة انصهار الإنسان

ص: 597

1- حكم - 467

2- حكم - 143



في المجتمع، تحتم عليه اتباع أسلوب معين من أهم مزاياه التحكم في الأعصاب وضبط النفس، وإذا لم يتمكن من ذلك، فسيكون مآله الانتهاء والفشل لأنه سيدمر حياته من الداخل وقد أوجز علي عليه السلام ذلك في قوله «الحدة وضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحکم»(1)، لذا فالأجدر بالفرد أن لا يفعل، ولا يكابر، ولا يتعصب لرأيه، أو لعلمه، دونما استناده إلى حجة مقنعة وهو ما عبر عنه علي بقوله «اللجاجة تسل الرأي»(2) أي ان الخصومة تعصبا لغير الحق تشتت الفكر وتأنى به عن الصواب.

والنجاح في الحياة بالنسبة لأي فرد، مرتبط بالعمل الدؤوب المقرون بالصبر وقوة الاحتمال، وسعة الصدر، ولكن قد لا ينال الإنسان بعزيمته الصادقة وإيمانه المتين كل ما يطمح إليه من أهداف، إلا- أنه لابد أن يحقق جزءا من طموحاته تلك، وهي حقيقة يجب على كل فرد عامل أن يتدبرها، بنظرته إلى الحياة بواقعية، وعلي عليه السلام قد عرف تلك الحقيقة من واقع احتكاكه بالحياة، فجاءت حكمه مطابقة في مضمونها حقيقة ارتبطت بالإنسان مذ عرف الحياة، وذاق طعم النجاح والفشل، وستبقى ملازمة إياه ما بقي الوجود وهي المعاني التي صاغها في قوله «من طلب شيئا ناله أو بعضه»(3) والطلب هنا لا يعني الاستجداء، بل يعني المثابرة والإصرار والجد.

وإيمان علي عليه السلام بالإنسان وكرامته، تجعل من حكمته، ومضات مضيئة في ظلام الامتهان والاستغلال والزيف، لذا فهي تهون على الفرد الفشل المادي

ص: 598

1- حكم - 254

2- حكم - 183

3- حكم - 393

الذي يجره إلى إهدار كرامته، وسفح ماء وجهه عند من لا يقيم للإنسانية أي وزن، انطلاقاً من مقولته «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها»<sup>(1)</sup> ان الثراء في تجربته علي عليه السلام الحياتية والثقافية والدينية أسبغ على أقواله الحكمية خصائص منها:

أ- الحكمة لم تعد قولاً فلسفياً مصوغاً في قوالب لغوية جاهزة، لأنها قبل أن تثبث إلى الوجود كمقولة، هي تصرف حكيم، عاشه علي عليه السلام بكل إحساساته، ومن بلورة في مقولة نابعة من تأمل عميق في أثر الحدث المناسب لها.

ب - إن انبثاق الحكمة من تجربة عايشها علي عليه السلام، جعل لها بعدين دالين:

الأول منهما أي حاول علي عليه السلام من خلاله بث الحيوية في الكلمة إبان مناسبتها بغرض إثارة نفس المتلقي، لجعله يفعل معه بالموقف الذي يعيشه، فيضمن استجابته، لما تتضمنه المقولة من حفز واستنهاض.

أما الثاني فيكمن في خلود النبض والحيوية ضمن المقولة، فتستحيل إلى حكمة ذات تأثير دائم ومستمر، خاصة بالنسبة للمواقف المشابهة لمناسبتها في كل زمان ومكان.

ج - إنها تتميز بالعموية والبعد عن التكلف، مما يجعل قابلية التأثر بها والتجاوب معها يسيراً وسهلاً.

فحكمة علي عليه السلام مجموعة من القيم الإنسانية، للوصول بالإنسان إلى مراقبي الحق والعدل والتقوى في ظل مجتمع آمن، فهي في أبعادها السياسية والاجتماعية والأخلاقية تمثل الانسجام التام لفكره، بحيث لا يمكن فصلها عنه، لأنها خلاصة ذلك الفكر المثالي الشامل الممثل لنظرتة لمعظم نواحي الحياة

ص: 599

قولا وعملا والمنطلق من مقولته «الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر»<sup>(1)</sup> وهو ما يجعلنا في نهاية المطاف، وبعد جولتنا في كثير من نواحي ذلك الفكر، نتساءل عن الأساليب التي صاغه علي عليه السلام فيها، ومدى ملائمة تلك الصياغة لحمل مضامينه والتعبير عن مشاعر صاحبه، وهو ما سنعرض إليه في دراستنا للأساليب التعبيرية في نهج البلاغة.

ص: 600

## الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة

### إشارة

الفصل الأول: الأنواع الأدبية وخصائصها التعبيرية

الفصل الثاني: أبرز الخصائص الأسلوبية في النهج

الفصل الثالث: أبرز الخصائص الفنية في النهج

ص: 601



### إشارة

نعني بالأنواع الأدبية في مجال دراستنا لنهج البلاغة، كل ما ورد بين دفتيه من نصوص ثرية سواء كانت خطباً أو عهوداً، أو رسائل، أو وصايا أو حكماً. فإن لكل نوع من هذه الأنواع خصائصه المتميزة التي تقتضي منا تناولها بالدراسة استكمالاً لدراستنا فكر علي عليه السلام، لأن الكلمة بوتقة الفكر، والأسلوب روح المفكر والأديب.

### أ - الخطابة

تعد الخطابة في نهج البلاغة من أهم المصادر التي يعول عليها في دراسة فكر علي عليه السلام كما لاحظنا ضمن الأبواب السابقة، فهي الوعاء الذي صان جانبا كبيرا من ذلك الفكر الذي صبه علي عليه السلام في قوالب تعبيرية يمكن عدّها غاية في الروعة والابداع لاعتقاده القوي بأن «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت

ص: 603

في القلب»(1). لذلك فقد شحذ طاقات الكلمة بإبداعها أفكار مغلقة بروحه وإحساساته، لتصل إلى مستمعه بصدق وأمانة من خلال خطبه المتناسقة في عناصرها المتنوعة في موضوعاتها، المتدفقة في عطائها.

## أ- العناصر التي تتكون منها الخطبة عند علي عليه السلام:

### إشارة

بنى ميشم البحراني شرحه لمعظم خطب نهج البلاغة على منهج منطقي (2)، قوامه المقدمات والاقيسة والنتائج على اعتبار ان الخطابة «جزء من صناعة المنطق»(3). وبعيدا عن تلك التعقيدات، فإن الخطبة كفن مسموع تتكون من عناصر أربعة هي:

### - الأول: المقدمة:

وعادة ما يودع الخطيب فيها الملامح العامة للقضية التي يريد طرحها على مسامع الجماهير، ويعمد إلى إحطتها بنوع من التشويق والترقب لجذب الانتباه وشد النفوس. والمقدمة في أغلب الأحيان تكون قصيرة، مكثفة في عبارات موحية، ومشحونة بانفعالات الخطيب وحماسة لقضيته، فكلما كان تأثيرها بالغا استطاع الخطيب استقطاب انتباه المستمعين إليه، لأن العبارة إذا ما انطلقت على سجيته، محددة لمقصد الخطيب منها ومنسجمة مع تفكيره مصوغة بانفعالاته النفسية، فإن ذلك يمنح الثراء لإحياؤها ويرسخ من تأثيرها في النفوس. ولو تأملنا في مقدمة الخطيب التي وردت في النهج لوجدنا انها متفقة مع موضوعاتها

ص: 604

1- شرح بن أبي الحديد 20 / 287 . وقد نسبها الجاحظ في البيان والتبيين 1 / 83 إلى عامر بن قيس

2- يمكن ملاحظة ذلك في يشرح ميشم لأية خطبة، خاصة الخطب الطويلة المتكاملة

3- ابن رشيد - تلخيص الخطابة ص 18

تما الاتفاق، وعلاوة على ذلك فإنه برغم تقادم العهد على تلك الخطب كنصوص مسموعة، إلا ان النبض والحيوية ما يزالان يعملان تأثيرهما في نفس القارئ، بحيث ينتابه شعور الانفعال الذي كان الخطيب يعيشه في أثناء الأداء في محاولة منه للسيطرة على النفوس، وجذبهم نحوه ليتأتى له ابلاغ افكاره والاقناع بقضيته بشده الانتباه إليه منذ الوهلة الأولى من خلال مقدمات مقتضبة وموحية ومناسبة في آثارها لموضوع الخطبة الخاصة بها.

فمن مقدمات خطب علي عليه السلام «اما بعد فإن المر ينزل من السماء إلى الأرض، كقطرات المطر، إلى كل نفس بما قسم الله لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه، غفيرة في أهل أو مال، فلا تكونن له فتنة» (1)، فالربط في المقدمة بين كلمة (امر)، وبين صورة المطر في نزوله، كصورة محسوسة في تباينها بين الكثرة والتوسط والقلّة من حيث نزوله على بقاع من الأرض دون أخرى، يوحي لا محالة ان موضوع الخطبة هو التفاوت في توزيع الله سبحانه وتعالى لأرزاق العباد، وعلاقة ذلك بتهذيب النفوس بالعمل، والرضى بما قسمه الله لكل فرد، والتعاون والتآزر بين افراد المجتمع والنأي بالنفوس عن الحقد والضغينة والحسد. فالمقدمة بسلاستها وانسياب عباراتها، هي مدخل هادئ لتهيئة نفس مطمئنة راضية تقبل التعايش مع غيرها في حب وتعاون وسلام، وهو ما كانت الخطبة ترمي إليه في موضوعها الأساسي.

إلا أن الهدوء يتلاشى ويحل مكانه الغضب المفعم بالأسى في مقدمة خطبة أخرى، حيث يقول «ما هي إلا الكوفة، أقبضها وأبسطها، إن لم تكوني إلا أنت،

ص: 605



تهب أعاصيرك فقبحك الله»<sup>(1)</sup>، فالكلمات تكاد تنفجر بالغضب في الدعاء على أهل الكوفة بالقبح، والملاحظ ان عليا عليه السلام قد استخدم المجاز للتعبير عن تبرمه وسخطه في قوله «ما هي الا الكوفة» ويعني بذلك رجالها، ولتشخيص المعاني وبث الحياة فيها، لجأ إلى الالتفات <sup>(2)</sup> بتحويله دفة الخطاب من الكلام عن الغائب، وتوجيه الحديث إلى المخاطب المتمثل في الكوفة بقوله «ان لم تكوني...»، والأسلوب بما ينطوي عليه من مجاز وتجسيد يوحي بعجز القائد عن التصرف بما تحت يده من سلطان واسع، الا في حدود لا تكاد تتعدى مساحتها قبضة اليد مقارنة باتساع ذلك السلطان، ويعود سبب ذلك إلى عدم تجاوب أصحابه معه وعدم اطاعتهم لأوامره.

وفي مقدمة لخطبة ثالثة يقول «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخُطْب الفادح والحدث الجليل...»<sup>(3)</sup>، فالافتتاحية هادئة يسري الحزن في عباراتها، وتتضمن التسليم بقضاء الله وقدره في كل الاحوال، وتوحي بأن ثمة حادثة خطيرة قد وقعت، وان الخطيب يمهد لها بنفس مؤمنة مطمئنة، لتصل إلى مستمعه بهدوء بعيداً عن أي انفعال، لما تتضمنه من حصص على الصبر وتمسك بعرى الإيمان تحت أي ظرف.

فللمقدمة من الدقة في تحديد الهدف، وجذب الانتباه، وشد الأسماع ما

ص: 606

1- خطب - 25 - فقرة (1)

2- الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الأخبار وعن الأخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك... ابن المعتز - البديع ص 58

3- خطب - 35 - فقرة (1). والخطب الفادح: الأمر العظيم المهبط، والحدث - بفتح الحاء والبدال - الحادث، ويقصد بكل ذلك ما وقع من أمر الحكيمين، والشاهد من مقدمة خطب قالها علي عليه السلام بعد استخباره بنتيجة التحكيم

يجعلها توحى - للمتأمل فيها - بالمواقف والمناسبات التي من أجلها صيغت وذلك لصدق عباراتها، وما تنطوي عليه من إحياءات تجسد إيمان قائلها.

ولكن المقدمة قد لا تكون ضرورية بالنسبة لعلية عليه السلام، خاصة في خطبه التي يعلم مستمعه بفحوى أفكارها. أو إذا كانت ضرورة المناسبة تقتضي الدخول في الموضوع مباشرة.

### - الثاني: الموضوع:

وهو العنصر الأساسي للخطبة لأن بداخله يعرض الخطيب العناصر الفكرية للقضية التي يريد طرحها على مستمعه، ويستخدم لذلك وسائل اقناعية متنوعة تتناسب ومستوى المستمع الثقافي، مع صبغ تلك الأفكار بانفعالاته وإحساساته، باثا في الكلمات قبسات من روحه، فكلما كان الخطيب صادقاً فيما يقوله مؤمناً به، فإن ذلك الصدق والإيمان ينعكسان على مستمعه، فيتحقق التجاوب والانسجام بين الطرفين ويؤدي ذلك بالمستمع إلى الاستجابة باقتناع وطواعية. ولا يتأتى للخطيب ذلك إلا إذا تمكن من إيصال أفكاره إلى مستمعه بالتدرج المستساغ، مع ربط بين الأفكار من حيث الأسباب والنتائج وتقادي أية فجوات تحدث تشتتاً، كالاستطراد، أو الاسهاب في شرح فكره على حساب أفكار أخرى، أو حتى الفتور في أساليب التوصيل والتعبير لسبب طارئ.

فمن تأملنا في موضوع تلك الخطب، نجد انها لا تطرح الموضوع بكل ثقله الفكري جملة واحدة على المستمعين، وإنما تأخذ بأساليب التدرج المترابط مما يعني ان علياً عليه السلام في خطبته - رغم ارتجاله لها - لا يجعل من نفسه اسيراً لعاطفته، بل من القوة ورباطة الجأش واليقظة بحيث يجعل من عقله حكماً في موازنة تلك

العاطفة، مما يؤدي بالموضوع إلى الانسجام التام بين الفكر والعاطفة. فلو انعمنا النظر في خطبته المسماة «القاصعة»<sup>(1)</sup> التي فحواها نبذ العصبية وما تنطوي عليه من اخلاق ذميمة واطار مدمرة، وربط سياقها الموضوعي بمناسبتها، فسند تلاحما قويا بين عناصرها، بحيث يستعصي علينا دراستها مجزأة. فالخطبة على الرغم من طولها مترابطة العناصر، متسلسلة الأفكار، بناها علي عليه السلام على ستة عشر عنصرا متفاوتة الحجم، وذلك بعد مقدمة موجزة وموحية بفحوى الموضوع جاء في مطلعها «الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله»<sup>(2)</sup>، وقد جاء هذا التكثيف في عبارات المقدمة متفقا في معالجته لمشكلة العصبية وخطورتها ضمن العناصر التالية:

1 - اعتبار إبليس رأس العصيان وأصل العصبية.

2 - ابتلاء الله خلقه وامتحانه لمدى قدرتهم على مقاومة النزوات وعلاقة ذلك بالعصبية.

3- النتيجة المترتبة على تعزز المخلوقين وتكبرهم.

ص: 608

---

1- خطب - 420 - . ويقول ابن أبي الحديد بشأن تسميتها ب- (القاصعة): من قولهم: قصعت الناقة بجرتها، وهو ان تردها في جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملاً فها، فلما كانت الزواجر والمواظ في هذه الخطبة مرددة من اولها إلى اخرها شبيها بالناقة التي تقصع الجرة ويجوز ان تسمى بالقاصعة، لأنها كالفانلة لإبليس واتباعه من أهل العصبية، من قولهم: قصعت القملة، إذ هشمته وقتلتها، ويجوز ان تسمى القاصعة، لأن المستمع لها، المعتبر بها يذهب كبره، ونخوته فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي أذهبه وسكنه. شرح النهج 13 / 128 وتكاد المعاني الثلاثة تكون صائبة إلا أن أقربها لروح الخطبة المعنى الثاني

2- خطب - 240 - الفقرة الأولى

- 4 - التحذير من مغبة الوقوع في حبال الشيطان لأنه أصل العصبية وأن عصبية وليدة حقه على الإنسان.
  - 5 - التحذير من التكبر والغطرسة والافساد في الأرض.
  - 6 - حض الناس على عدم الاستجابة للداعين إلى العصبية من زعماء سوء.
  - 7 - الاعتبار بما أصاب الماضين من ويلات ومحن جراء التعصب والتكبر.
  - 8 - تواضع الأنبياء والرسل وأثر ذلك في نفوس الزعماء والملوك الذين يستمدون سلطانهم من قهر الناس واستعبادهم.
  - 9 - قسمة الكعبة المشرفة وأهميتها لا يكمن في موضعها ولا شكل هندستها، ولكن قدسيتها تكمن في أنها موضع أمن وطمأنينة وتجمع للإنسانية.
  - 10 - التحذير من ظلم العباد والتكبر عليهم واستلابهم حقوقهم.
  - 11 - القيمة الكامنة في الفرائض، من كسر لشهوات النفس وكبح لجماحها.
  - 12 - تقدير المال كعنصر من عناصر العصبية، ومآله الحقيقي.
  - 13 - مصائر الأمم الماضية حين أحلت العصبية في تعاملها محل الإيمان.
  - 14 - التفكير في النعمة التي أنعمها الله على العرب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بانتشاله إياهم من مهاوي العصبية، وما صاروا إليه من نعم جراء ذلك.
  - 15 - لوم وتوبيخ المنغمسين في العصبية من عرب الكوفة واعتمادهم عليه كمصدر قوة.
  - 16 - دوره في اطفاء نائرة العصبية، وعلاقته بذلك منذ بزوغ نور الإسلام.
- على أن ذلك الطول لم يفقد موضوع الخطبة تماسكها ولا حيويتها المتدفقة حماسا.

فاندماج علي عليه السلام التام في الموضوع احوال الخطبة - رغم تقادم عهدها - إلى نص متجدد في معانيه ومبناه. فالتوحد بين عاصرها والتسلسل المترابط بين افكارها، والتدرج إلى النتائج في سلاسة، يكاد ينجر على معظم ما ورد في نهج البلاغة من خطب، والسبب هو معاشة علي عليه السلام لموضوعاتها معاشة تامة بالاحتكاك المباشر بالأحداث المسببة لقولها، مما جعل نتائج تلك الخطب وخواتمها ماثلة في فكره من خلال التأمل العميق الواعي في الاحداث، وهو ما يمكن استخلاصهمن خواتم خطب النهج.

### - الثالث: الخاتمة:

تتميز خواتم خطب علي عليه السلام بالتنوع في أساليبها، فمنها ما كان يلخص آراءه فيه، كما يرد عادة في خطبه ذات الموضوعات التأملية: من ذلك خطبته التي ختمها بقوله «فتبارك الله الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها، ويعفر له خدا ووجهها، ويلقي إليه بالطاعة سلما وضعفا، ويعطي له القيادة رهبة وخوفا، فالطير مسخرة لأمره، أحصى عدد الريش منها والنفوس، فهذا غراب، وهذا عقاب، وهذا حمام وهذا نعام...»<sup>(1)</sup>. فالمتتبع لموضوع الخطبة التي وردت فيها تلك الخاتمة، يجد أن عليا عليه السلام قد كان يرمي من ورائها الإبقاء على جذوة التأمل ماثلة في النفوس، لأنه قد اجمل معاني الخطبة بتركيز دقيق بعد ان عرض إلى التفاصيل في صلب الموضوع.

وقد تكون الخطبة وعظية زجرية يرمي علي عليه السلام منها بث الرهبة من عذاب الله في نفس مستمعه، وقدرة علي عليه السلام في هذا الصدد تفوق كل تصور، لإيمانه

ص: 610

العميق الصادق، وامتلاكه ناصية أساليب اللغة، والتصرف فيها، ومقدرته على صبغها بإحساساته وعاطفته، ففي خطبة متكاملة موضوعها تفسير قوله تعالى:

«أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ \* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (1)، قد جسد تدرج خطوات سريان الموت في الإنسان خطوة خطوة، ملاحقا إياه في تأملاته وتصرفاته وتطلعاته في أثناء المرض حتى لحظات الاحتضار الأخير، وكأنه عاش التجربة بكل أهوالها وما يكتنفها من مجهول، فأعاد تصويرها بأسلوب تقشعر منه الأبدان، وبعد أن وصل بمستמעه إلى الذروة، لم يتركه دون أن يبقي الصورة مجسدة في أعماقه من خلال خاتمة خاطفة مليئة بالومضات السريعة في قوله «وأن للموت لمرات هي أفضح من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على عقول أهل الدنيا» (2).

وقد تكون خاتمة الخطبة نتيجة تصويرية منتزعة من واقع تأملات المستمع خاصة إذا كان موضوع الخطبة يتعلق بمحاولة كشف علاقة الفرد بمجمعه واثر البيئة في تلك العلاقة ومثال ذلك قوله في خاتمة خطبة موضوعها مفهوم الطاعة من خلال علاقة الفرد بالمجتمع «واعلم ان لكل عمل نباتا، وأن كل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة، فما طاب سقيه طاب غرسه، وحلت ثمرته، وما خبث سقيه، خبث غرسه، ومرت ثمرته» (3) فالنتائج التي أجملتها الخاتمة، قد تكون ماثلة أمام عين ناظرها ولكنه لا يعيرها اهتمامه إلا إذا استثير عقله نحوها، وهذا ما فعله علي عليه السلام في خاتمة خطبته.

ص: 611

1- التكاثر/ 1، 2، وراجع معالجة علي عليه السلام لتفسيرها في الخطبة - 218

2- السابق - الخاتمة

3- خطب - 154 - الخاتمة

وقد تكون الخاتمة مباشرة تعمد إلى الحض على الاستجابة من خلال الأمر الا انها رغم مباشرتها فإن عليا عليه السلام يجنبا التقريرية بصياغتها في قالب تأملي بتسخير العبارات الايحائية ويكثر ذلك في خواتم خطب الزهد التي تعمد موضوعاتها إلى التهوين من قيمة المادة كعرض زائل: ففي خاتمة لخطبة زهدية يقول علي عليه السلام «ألا فاذكروا هادم الذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا بالله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من اعداد نعمه وإحسانه»<sup>(1)</sup>، فكان باستطاعة علي عليه السلام أن يقول مختصرا «ألا فاذكروا الموت...»، الا ان احساس علي عليه السلام بأثر الكلمة في مستمعه اقتضى منه التماسغيته في الأسلوب الكنائي، كي يبقى أثر الوعظ في نفوس المستمعين أطول مدة ممكنة بعد الانتهاء من الخطبة. فأهم ما تتميز به خاتمات خطب علي عليه السلام من خصائص هي:

1 - تكثيف عناصر موضوع الخطبة واجمالها في عبارات مصوغة صياغة دقيقة وخاطفة بقصد اسعاف مستمعه على الإمام بفحواها، واستيعاب افكارها والتجاوب معها بإبقائها عالقة في ذهنه مدة طويلة.

2 - التنوع في انماطها واساليبها بما يتناسب وموضوعات الخطب مما ينأى بها عن جمود القوالب التعبيرية الجاهزة، فهي أبدا متجددة مهما تكرر موضوع الخطبة، لأن التناول في كل مرة يختلف باختلاف الموقف والمناسبة لاعتماد علي عليه السلام على الارتجال في جل خطبه على اعتبار انها وليدة ساعتها وبنيت مناسبتها في إبانها، فتارة تكون بسبب حادث خطير ألم بأطراف الدولة، وتارة أخرى بسبب استجابته لبعض من أصحابه للتعرف على قضية ما، كوصف الخالق،

ص: 612

أو صفات المتقين، أو بسبب استفحال عيوب خطيرة في المجتمع يجب معالجتها في حينها دون تأخير. هذا إلى غير ذلك من مناسبات أخرى كالأعياد وخطب الجمع، والاستسقاء، وتفسير الآيات والوعظ، وبطبيعة الحال فإن التنوع في موضوعات الخطب وأساليبها أتاح التنوع أيضاً في أساليب خاتماتها فهي تارة عبارة عن تلخيص مركز لأفكار الخطبة، وتارة أخرى نتائج مستخلصة من أفكار الخطب، وتارة ثالثة على شكل تحذير بأساليب موحية ومقنعة في آن واحد، فهي على الدوام ذات وقع في النفس لنأي علي عليه السلام بها عن الجفاف العقلي بإضفاء قيس من مشاعره ونفحات من روحه المؤمنة على تعبيراتها، مما يجعل انسيابها في النفس مستساغاً مهما بلغت حدتها وقسوتها.

3 - الابتعاد بها عن أساليب الجدل مع مستمعه، سواء أكان جدلاً مباشراً أم جدلاً مع النفس غير مباشر، باكساء آرائه ثوبا من الجاذبية المثيرة لعقل مستمعه، وتوجيه الخاتمة توجيهاً دقيقاً نحو تلك الآراء، دون الزج بفكر المستمع في متهات تؤدي به إلى توجيه فكره نحو أمور جانبية تبعده عن لب الموضوع.

فمن خلال تأملنا في خطب علي عليه السلام التي وردت في النهج كاملة من حيث البناء الفني نجد انها مهما طالت، مترابطة العناصر، متسلسلة الأفكار، متينة اللغة، واضحة المعاني هذا بالإضافة إلى سريان العاطفة فيها بتؤدة واتزان وتعقل، يجنب الأفكار الجفاف، وينأى بها عن الأسراف بالوقوع تحت طائلة الخيال المجنح والأحلام الكاذبة، فقبول النفس لأفكار الخطب عن طواعية، لا يعني وقوعها تحت تأثير الكلمة لأن بريق الكلمة في خطب علي عليه السلام يأتي في مرتبة أخيرة، بعد الحقيقة التي يعتقدونها ويريد من مستمعه مشاركتها ذلك الاعتقاد،



فهو لا يعمد إلى العبارة الانفعالية الآنية التي تبهر الاسماع ولكن سرعان ما تقعد بريقها بعد الخروج من تأثيرها، ولكن فكره يحيل المعاني في سياقاتها التعبيرية إلى طاقات متدفقة من معاني الوفاء والحب والحق والخير والأيمان كما يعتقدونها هو في قرارة نفسه ويمثلها في أسلوب حياته، فتنشق من اعماقه متوهجة في سياقها التعبيري المتوائم ومناسبتها فتستجيب لها النفس المؤمنة عن طواعية. وهذا التآلق في امتلاك زمام اللغة للتعبير عن افكاره هو ما اتاح له التنوع والاجادة في كل المواقف والمناسبات التي اقتضت منه ان يخطب فيها، مما يحتم علينا القاء نظرة فاحصة على أنواع الخطب التي جال فيها بفكره ولهج بها لسانه.

## ب - أنواع الخطب التي وردت في نهج البلاغة:

إن التنوع في موضوعات نهج البلاغة يمثل حياة علي عليه السلام في مختلف أدوارها، ونعتقد أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن تلك الموضوعات بتنوعها، يمكن اعتبارها مذكرات شخصية صاغها صاحبها مستلهما وقائعها من تمرسه بالمسؤولية كقائد له وزنه الكبير واهميته العظمى في نشر الدين ومن ثم في توجيه سياسة عصره من وجهة نظر دينية، وقد تمحورت تلك المذكرات والوثائق - إذا جاز لنا تسميتها بذلك في خطب ورسائل ووصايا وحكم، اقتضتها مناسباتها، والحاجة إليها كمرتكزات فكرية توضح وجهة نظر القيادة في تعاملها مع الأمة.

ولما كانت الخطب من أهم الوسائل الاعلامية التي تربط الحكومة بالأمة وتقرب بينهما، فإن موضوعاتها قد تنوعت في النهج بتنوع الحاجة والظرف والمناسبة، مع تميز كل نوع من أنواع تلك الخطب بخصائص نابعة من طبيعة موضوعاتها، ومن أنواع تلك الخطب.

إشارة

وهي التي كان علي عليه السلام يلقيها في مسامع اصحابه، لحضهم على الجهاد، للقضاء على الفتن التي ظهرت في أرجاء الدولة، أو لبث الحماس في النفوس، قبل بدء المعركة وفي أثنائها، أو لغرض التويخ واللوم بسبب التقاعس عن الجهاد، أو بسبب فشل وانهزام في أثناء المعركة، والسبب في كثرة الخطب الجهادية عند علي عليه السلام يعود إلى عوامل أربعة هي:

1 - الانقسام الخطير الذي حدث في الصف الإسلامي الذي نجم عنه تردد الكثير من المسلمين في محاربة بعضهم البعض إثر ثورة الأمصار التي نتج عنها مقتل عثمان ومحاولة علي عليه السلام اقناع الجميع بالوقوف إلى جانبه، لإعادة توحيد الصف الإسلامي على أسس قوامها العدل والمساواة بين المسلمين كافة، مما حدا بعلي عليه السلام إلى توجيه خطبه الجهادية في اتجاهين:

أحدهما: اقناع المترددين من المسلمين بالوقوف إلى جانبه.

والثاني: حض من هم تحت أمرته والمطيعين له على المبادرة بالتجمع حوله للقضاء على فتنة الذين يحاولون نكث بيعته، ابتغاء عرض الدنيا.

2 - نشوب الفتن التي اشعل معاوية اوارها في ارجاء الدولة الإسلامية وما خلّفته تلك الفتن من انتفاض في كثير من ولايات علي عليه السلام، وعلاوة على ذلك ظهور الخوارج، مما استوجب استخدام الخطب الجهادية لحث الناس على المبادرة للقضاء على تلك الفتن وإعادة الأمن والنظام في اطراف الدولة.

3 - محاولات علي عليه السلام المتكررة في حث أصحابه على الجهاد، وبث النخوة

والحماس في النفوس بعد ان هدها الوهن، ودب فيها الخور والضعف، واقعدتها التقاعس، والركون إلى حياة الدعة، والقبول بالذل في سبيل ذلك.

4 - حاجة علي عليه السلام إلى الكلمة الملتهبة بالحماس للرفع من المعنويات وازالة الخوف والرهبه من النفوس قبل بدء المعركة وفي أثنائها، أتاح له إلقاء جملة من الخطب سجل لنا نهج البلاغة جانبا منها، وبطبيعة الحال فإن هذه العوامل قد ميزت الخطب الجهادية بخصائص فكرية معينة هي:

#### - الخصائص الفكرية لخطب علي عليه السلام الجهادية:

إن هيمنة الدين على الجانب السياسي في فكر علي عليه السلام تحتم عليه اتخاذ مواقف دينية بحتة إزاء جميع الاحداث السياسية، فالمصدران الأساسيان لسياسته هما القرآن والسنة، ولو تأملنا في فحوى خطبه الجهادية كجانب من جوانب فكره السياسي لرأينا ان الدين هو المستحوذ على الأفكار فيها، على اعتبار انه القائد والإمام المنفذ لأحكام الدين، ورجل السياسة في آن واحد، فقله في مطلع خطبة جهادية «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه...» (1) هو تعبير عن فكر ديني نابع من إيمان متين وعقيدة صادقة بوجوب الجهاد كمطلب ديني مفروض على كل مؤمن قادر، لكونه الدرع الحمي لحياض الإسلام، واعتباره احد الابواب المشرعة إلى الجنة عند استشهاد المجاهد، طبقا لقو تعالى:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ» (2). أما في حالة النصر فتكون النتيجة المغنم والعيش في ظل حياة

ص: 616

1- خطب 27 - فقرة الأولى

2- آل عمران / 169

كريمة خالية من كل قهر واستبعاد لما في الجهاد من قمع للمفسدين من أئمة الباطل والمتجبرين.

ومن خلال موقفه الديني من الجهاد فإنه يرى أن الحرب تحت أمرته هي من لب الجهاد انطلاقاً من مكانته الدينية المتصلة اتصالاً روحياً مباشراً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله ضمن خطبة جهادية «واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن رسول الله»<sup>(1)</sup>. وهو ما يعني أن في مكانته تلك ما يضمن لمقاتلين في صفه الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة كما جاء في قوله «فاتقوا الله عباد الله وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم فعلي ضامن لفلجكم أجلاً، إن لم تمنحوه عاجلاً»<sup>(2)</sup>، فالنبرة الدينية الخالية من أية إغراءات مادية هي الركيزة التي يتكئ عليها فكر علي عليه السلام في خطبه الجهادية ولكن ذلك لا يعني اقتصارها على الجوانب التشريعية وخلوها من الجوانب العاطفية الوجدانية التي تضفي على أساليبها الحيوية، لأن الخصيصة التشريعية التي تنبني عليها خطبة الجهاد عادة ما تكون ممتزجة بوجدان علي عليه السلام، تغترف معانيها من فكره الصافي ممتزجة بعاطفته الجياشة فتستحيل تعبيراتها إلى غذاء فكري ممزوج بنفحات روحية، إلا أن عنصر الوجدان في خطب علي عليه السلام الجهادية يسير في اتجاهين متقابلين تفرضهما طبيعة الاداء:

الاتجاه الأول: ويتمثل في انطلاق علي عليه السلام من ذاته إلى الموضوع العام: ويمكن ملاحظة ذلك في خطب الجهاد التي عادة ما يلقيها في الناس لحثهم على الجهاد أو لتقريعهم بسبب التواكل، وهو يرمي في الناحيتين إلى تهيئة النفوس للبدل

ص: 617

1- خطب - 56

2- خطب - 24

والاستشهاد، دونما تردد، وهو في هذا الاتجاه يعمد إلى تناول عناصر الجهاد الدينية كحقائق ثابتة يعرفها المستمع، لكنها لا تثير في نفسه الحماس المطلوب المؤدي إلى الاستجابة لتعود اذنه على سماعها، فيسبغ عليها من ذاته ما يعيد إليها قيمتها التأثيرية، فقولته على سبيل المثال «والله مستأديكم شكره، ومورثكم امره، وممهلكم في مضمار محدود لتتنازعا سبقه، فشدوا عقد المآزر واطووا فضول الخواصر، ولا تجتمع عزيمة ووليمة، ما نقض النوم لعزائم اليوم، وامحى الظلم لتذاكير الهمم»، يحوي حقائق دينية فحواها وجوب شكر العبد ربه، ليكثر من نعمه وأفضله عليه، ويبوئه المكانة السامقة التي يتوق إليها في دنياه المؤقتة، التي شبهها بحلبة السباق، التي يتبارى فيها الخيرون في التسابق نحو الغاية المتمثلة في حياة الخلود، والفائز في هذا المضمار من يجاهد في سبيل الله، ويضحى بنفسه من أجل إحياء كلمة الله، وتوالي الأمثلة كرابط بين العمل وبين الجهاد من أجل حياة أفضل، في مقابل التردد والخوف والركون إلى الدعة تعبر

ص: 618

عن نفحات روحية صادرة من اعماق علي عليه السلام لتضفي على معاني الجهاد النبض الحي المتسامي، وتعيد نصابها في النفوس بعد ان كادت تضمحل أو تتلاشى، مع ملاحظة ان مثل هذا الاتجاه الصادر من الذات إلى الموضوع لا يمكن تتبعه إلا في خطب الجهاد المبينة اساليبها على الحض، أو عند التقاعس عن الاستجابة حيث تغدو الحقائق الدينية والقيم الأخلاقية هي المحاور التي يسبح عليها من ذاته ما يعيد إليها تمثلها في النفوس، فتفاعل علي عليه السلام مع الكلمة واندماجه التام في موضوع الخطبة، هو من الصعوبة والعسر بما لا يمكن وصفه أو التعبير عنه لكونه إحساس نابض يجري في الكلمة كالتيار الكهربائي الذي نحسه. فالحقيقة بكل أبعادها متجسدة في قول علي عليه السلام «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نقتل ابناءنا وأبناءنا واخواننا واعمامنا، فما يزيدنا ذلك الا ايماننا وتسليما ومضيا على اللقم، وصبرا على مضمض الألم، وجدنا في جهاد العدو، فلما رأى الله صدقنا، أنزل بعدونا الكبت، وانزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقيا جرائه، متبوتا اوطانه، ولعمري، لو كنا نأتي بما اتيتهم، ما قام للدين عمود ولا خضر للإيمان عود، وأيم الله لتحتلبنها دما، ولتتبعنها ندما»<sup>(1)</sup>. فالخطبة كوثيقة تاريخية، مبنية على حقائق لا يتطرق إليه الشك، ويكاد يعرفها معظم من كان يستمع إلى علي عليه السلام آنذاك، ولكن الجديد والمؤثر لا يكمن في الحقائق ذاتها، انما يكمن في أسلوب صياغتها في تعابير تجسد الماضي الحافل بالبطولات والفداء المقرونة بصدق العزيمة والإيمان المتين، والحاضر بما يكتنفه من ألم وتخاذل وخور يندى له الجبين خجلا ومستقبل ينطوي على توقعات رهيبة مقرونة بالمذلة والهوان،

ص: 619

---

1- خطب - 55 - اللقم فتح اللام والقاف: جادة الطريق، ومضمض الألم شدته ویرحأؤه. والكبت: الذل والهوان والخذلان. والجران بكسر الجيم: مقدم عنق البعير، والقاء الجران كناية عن التمكن

وقد يخوننا التعبير إذا حاولنا تمثل المعاني من دون أن نعيش انفعالات علي عليه السلام المتصارعة بداخله في أثناء خطبته في قوم كلت اسماعهم وماتت قلوبهم، وفتن حماسهم ودب الفشل في نفوسهم. فالمقصود بالذات هنا نفحات من الإيمان والأمل والحزن والسرور والخوف والإقدام، تنطلق من النفس بحرارة وصدق لتضفي على حقائق موضوع الجهاد من الحيوية ما يبعتها عن الرتابة، ويقربها إلى النفس سعيا وراء الاستجابة الطوعية ترغيبا أو ترهيبا.

الاتجاه الثاني: الانطلاق من الموضوع العام إلى الذات: أي الموضوع بتفاعلاته هو المحرك للذات، وبمعنى أدق أن عليا عليه السلام في هذا الاتجاه، لا يعمد إلى حقائق موضوعية يحاول إضاءة جوانبها بوجدانه، بقدر ما يعمد إلى مشاهد يستمد منها موضوع خطبته، فتنعكس هذه المشاهد على ذاته، فتحيل نفسه إلى ترجيحات متقابلة ومتتابعة بين فشل ونجاح وأمل ويأس، على اعتبار ان الموضوع العام في مثل هذه الخطب هو المعركة بكل ابعادها القتالية والخطبة هي تصوير حقيقي وحي لانفعالات علي عليه السلام، لأنه يعيش المعركة بكل إحساساته، فالتأمل العقلي بالالتكاء على القواعد والقوانين والوعظ، يتلاشى تقريبا وتحل محله الذات التي يتوجه إليها موضوع الخطبة، لتكون هي محور الكلمة والأداة الفاعلة في تغذية المعاني ويمكن رصد هذا الجانب بكل ما ينطوي عليه من انفعالاته في خطب علي عليه السلام القصيرة التي يلقيها في مسامع جنده في أثناء المعركة، عند شعوره بأنهزام جيشه.

فحين استولى جيش الشام على شريعة الماء في بدايات حرب صفين وشاهد علي عليه السلام ما لحق بجيشه من هزيمة، قد تؤدي به إلى التشتت والنكوص، بادر جنده بالقول «قد استطعموكم القتال فافروا على مذلة وتأخير محلة، أو روّوا السيوف

من الدماء، ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»<sup>(1)</sup> فالموضوع المتمثل في الهزيمة استحال في وجدان علي عليه السلام إلى تفاعلات مؤلمة ذات طعم مر، مما جعل العبارات تنوء بحمل توجهاته النفسية، استحالت الحقيقة فيها إلى تفاعلات متقابلة تتعلق بذات الجندي ومصيره في ميدان القتال فحواها: أن يكون أو لا يكون، مما يحتم عليه المواصلة حتى النهاية بغض النظر عن القيمة الدينية أو المادية للجهد، لذلك فإن الاستجابة للكلمة في مثل هذه المواقف سريعة لا تحتاج إلى تفكير أو تأمل، إذ سرعان ما نظم جنده ضفوفهم واستعادوا رباطة جأشهم بتمثلهم مصيرهم لو حاقت بهم الهزيمة، فاستعادوا بذلك مواقعهم على شريعة الماء بعد معركة حامية الوطيس الحقوا فيها بجيش العدو هزيمة منكرة.

وقد تكرر الموقف بصورة أكثر خطورة حين تراخت ميمنة جيش علي عليه السلام في إحدى المعارك الحاسمة بصفين، وكادت المعركة تحسم لصالح معاوية، وذلك بسبب تخاذل أحد قادته لتواطئه مع معاوية<sup>(2)</sup>، ولكن سرعان ما كشف التواطؤ، فاستعادت الميمنة مواقعها، مما أعاد للجيش توازنه. فكان الموضوع هو محور الذات والمعبر عنها بها كما في قوله «وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفافة الطغام، واعراب أهل الشام، وانتم لهاميم العرب، ويأفخ الشرف، والأنف المقدم، والسنام الأعظم، وقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقعهم كما ازالوكم، حسنا بالنضال، وشجرا بالرماح، وتركب اولاهم

ص: 621

1- خطب - 51

2- راجع ص 271 وما بعدها من هذا البحث



أخراهم، كالأبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد عن مواردها»(1).

فمشاهد انكسار الميمنة أثناء المعركة منطلقة كالسهام المتتابعة إلى اعماق اعماق علي عليه السلام، مرتجعة ثانية وبنفس القوة على شكل ايماضات محملة بألم الانهزام، ومن ثم توجهها إلى النفس بحرارة وحماس أثر تقادي الهزيمة ورجوعها على شكل اشعاعات سعيدة مكلفة بالنصر، ممثلة بالفخر والحماس. فالذات في مثل هذه المواقف تستحيل إلى بوتقة تتشكل فيها عناصر الموضوع المنطلق إليها مباشرة من خلال التعايش معه والاحساس بعناصره، مما يجعل جانب الاستجابة، هو المالك لزمان الموقف، لعدم اتاحة الفرصة للتأمل، فالتأثر بالكلمة انفعالي فوري، اما في حالة الجانب الأول المتمثل في انطلاق الذات إلى الموضوع، فإن جانب التأمل الفكري في توازن مع الجانب العاطفي، ان لم يكن مسيطرا، بحيث ينتاب الاستجابة نوع من التروي قد ينزع بالإنسان إلى الاحجام والتردد لأن تمازج العقل بالعاطفة في فحوى التراكيب مهما كان قويا ومقنعا، فلن تبلغ الاستجابة فيه مبلغ التعابير الكامنة في موضوع اتخذ من العاطفة مركزا في أثناء تفاعل النفس مع الواقع العملي للقتال على ارض المعركة، حيث يكون المصير مائلا للمحارب من جانبيه القتالي والخطابي، المتمثل في احساسات علي عليه السلام التي عادة ما تعكس الواقع من زاويتيهِ المتمثلتين في الحياة مع الذل، والموت مع الكرامة.

ص: 622

---

1- خطب - 106 - والطغام - بفتح الطاء -: أوغاد الناس. واللهميم: جمع لهميم، وهو السابق الجواد من الخيل والناس. ويأفوخ: جمع يأفوخ، وهو من الراس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره. ووحاوح: جمع وحوحة، صوت معه بحح يصدر عن المتألم، والمراد به احتدام الغيظ في النفس. والحس: - بفتح - القتل. والنضال: المباراة في الرمي. والشجر: ففتح الشين وسكون الجيم الطعن. والهيم - بكسر الهاء - العطش. وتذاد: تدفع وتمنع

وهي التي يعتمد علي عليه السلام في مضامينها إلى إطلاق عنان الفكر في تأمل ابداعات الكون للوصول به في النهاية إلى الإيمان بعظمة المبدع وقدرته المطلقة، وتستمد الخطبة عناصرها من تركيز علي عليه السلام الدقيق فيما يحيط بالإنسان من مشاهد ومخلوقات، بتسليط الضوء عليها، وتوضيح جوانب الإبداع التي قد لا يراها الإنسان العادي، ولا يحس بها إلا إذا استشير انتباهه نحوها، لاعتياده على رؤية المشاهد دون تأملها، وبهذه الاستشارة التي يعتمد علي عليه السلام إليها من خلال الكلمة، تختلف نظرة مستمعه إلى الأشياء، فتتضح لعقله جوانب الحقيقة، فيقف عليها مندهشاً متأملاً، وهو الغرض الاساسي الذي يرمي إليه علي عليه السلام من تلك الخطبة في مناسباتها.

ومن أهم خصائص هذا النوع من الخطب أنها تعتمد إلى اقناع العقل بانتزاع أمثلتها من الواقع المحسوس، كوصف الجراد، أو النملة، أو الخفاش، أو الطاووس، أو خلق الإنسان أو خلق السماء والأرض والكواكب إلى غير ذلك من مشاهد عينية أو إدراكية معرفية.

صياغة الحقائق المعرفية المراد تأملها في تعبيرات ملائمة وما يهدف إليه من استشارة عقلية وهو في هذا السبيل «لا يستخدم لفظاً إلا في هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل، ولا عبارة إلا وهي تفتح أمامك آفاقاً وراءها آفاق من النظر الجليل»<sup>(1)</sup>، من ذلك أنه قد يخطر ببال من انتاب إيمانه بخالق الوجود بعض الشك، أو نوعاً من الفتور بتصوره ان لا قوة يمكن لها فناء هذا الكون المحكم،

ص: 623

مقارنا ذلك بقدرته وتضاؤل قوته أمام كثير من ظواهر الوجود، ولاستقراء علي عليه السلام ما في تلك النفوس من ضعف إيمان يجيب عن تساؤلاتها ويزيل حيرتها ضمن خطبة تأملية بقوله «وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها، وكيف ولو اجتمع جميع حيواناتها من طيرها وبهائمها واختراعها، وما كان من مراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها وتناهت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشائها»<sup>(1)</sup>، فللا لفاظ من الدقة والاستقصاء ما يمكن من خلالها استقراء ما في النفوس والاجابة على تساؤلاتها الحائرة بمنطق تأملي يعيد إليها توازنها من خلال مقارنة بين النشأة والفناء بملاحظة الإنسان بذاته، إذ بإمكانه أن يبنى ثم انه بإمكانه أيضاً إزالة ما بنى، إلا أن إمكاناته لا ترقى إلى إبداع الروح واختراعها مهما تناهت في صغر الحجم، فالمقارنة بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق، لا مجال لها عقلا بالتأمل في الخلق.

ومن خصائص خطبه التأملية الداعية في مضامينها إلى التوحيد استخدام الاساليب المبنية على المسببات والنتائج، وهو ما ينحو إليه عند تعرضه لنفي الصفات عن الخالق سبحانه وتعالى<sup>(2)</sup>.

ص: 624

---

1- خطب - 234 - الفقرة 3. ومراحها: بضم الميم اسم مفعول من أراح الإبل أي ردها إلى المأوى. والسائم: الراعي من الإبل. والأسناخ: الأصول والأنواع الاكياس: جمع كَيْس بتشديد الياء العاقل الحاذق. وخاسئة: ذليلة وحسيرة:

2- يمكن ملاحظة ذلك في الخطبة رقم 1 و 234، جميع الخطب المعالجة لموضوع التوحيد ونفي الصفات التي وردت في نهج البلاغة

ومن أهم ما يميز خطب علي عليه السلام التأملية أيضا، الهدوء والانسحاب فعلي عليه السلام في مثل تلك الخطب شاعر أكثر منه خطيبا، يسبح بفكره في ملكوت الله، متغنيا بفضائله وجميم نعمه لاهجا بشكره في عبارات مجللة بالإيمان العميق والحب الصادق، فالخطبة التأملية من حيث بنائها النفسي تختلف اختلافا جذريا عنها في خطب علي عليه السلام الجهادية، التي يغلب عليها الطابع الثوري المشحون بالحزن واللوعة والألم، لأن حماسه العظيم للجهاد لا يتناسب واستجابة أصحابه. اما هنا في خطبه التأملية، فهو يتغنى جذلا بعبارات هادئة وبنفس مطمئنة، تتخير من الألفاظ ما يعبر عن انسجامها التام في الموضوع بحيث تبقى الخطبة في مستوى نفسه الجدلة منذ بدايتها حتى خاتمتها، التي أكثر ما تكون على شلك دعاء وتبتل صادر من اعماقه كما في قوله في خاتمة خطبة تأملية محورها التوحيد «اللهم وهذا مقام من افردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم ير مستحقا لهذه المحامد والممادح غيرك، وبني فاقة إليك لا يجبر مسكنتها الا- فضلك، ولا- ينعش من خلتها الا منك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك، واغننا عن مد الأيدي إلى سواك، إنك على كل شيء قدير»(1)

### 3 - الخطب الوعظية:

يكاد الوعظ والإرشاد والحض على التمسك بالأخلاق الحميدة ينتشر في جل ما أثر عن علي عليه السلام من خطب، إلا ان هناك جانبا هاما من خطبه خصه علي عليه السلام بالوعظ كموضوع مستقل فرضته طبيعة الحياة الاجتماعية جراء أخذ كثير من أبناء مجتمعه ما يرونه من الدين ملائما ومصالحهم الدنيوية الذاتية،

ص: 625

وهو ما عبر عنه بقوله لعمار بن ياسر حين وجدته يناقش الأشعث بن قيس في بعض شؤونه الخاصة «دعه يا عمار فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا»<sup>(1)</sup>، والأشعث بن قيس هذا يمثل شريحة كبيرة من المجتمع الذي كان علي عليه السلام يحكمه، مما حتم عليه وعظ أولئك وتبصيرهم بالمعاني الحقيقية للدنيا من وجهة نظر الدين، بالإضافة إلى ان كثيرا من المناسبات الدينية، كالأعياد وشهر رمضان والجمع تقتضي الوعظ ايضا، كما أن تصدي علي عليه السلام إلى تفسير بعض آيات القرآن الكريم المتضمنة التحذير من التمادي في اللهو والتكالب على اقتناء الأموال والتمرغ في الملذات الدنيوية، تقتضي بدورها الوعظ، مما أح لعلي عليه السلام الإكثار من القول في هذا الجانب.

ومن أهم ما تتميز به خطب علي عليه السلام الوعظية، امتزاج العامل الديني بالعامل النفسي، مع تجنب الوعظ المباشر المبني على الأمر والنهي، ومقدرة فائقة على اعداد نفس المستمع وتهيئتها للانجذاب نحو الموضوع الوعظي بكل حواسها، من ذلك قوله في مقدمة خطبة وعظية «فإنه والله الجد لا اللعاب، والحق لا-الكذب. وما هو إلا-الموت أسمع داعية، وأعجل حاديه فلا يغرنك سواد الناس من نفسك، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذر الإقلال»<sup>(2)</sup> فمدخل الخطبة، بما تضمنه من توكيد وقسم، يشد الانتباه إلى ما يكتنف معاني الجد التي يرمي إليها أسلوب الوعظ، الذي يجعل المستمع يتبعه في لهفة وانشداد فتأتي النصائح ضمن الخطبة على شكل دفعات تنساب إلى النفس في تلقائية وعفوية، فتقبلها طواعية، فالزجر عن المعاصي، لا يحمل في طياته معنى الزجر

ص: 626

1- حكم - 413

2- خطب - 132 - فقرة 2

القسري الذي تاباه النفس مكابرة ولكنه يأتي على شكل أساليب تخشع لها وتقع تحت تأثير سلطانها بسبب تجاوب نفس المستمع مع معانيها. ولعلي عليه السلام في هذا المجال مقدرة أسلوبية فائقة في بث خطب الوعظ معاني الترغيب والترهيب دون اللجوء إلى المباشرة والتقريرية.

ففي مجال وعظه الترغيبي تجتذب كلماته مستمعه إلى افاق رحبة من السعادة في حياة دنيوية نظيفة ناصعة، وخلود أبدي في ظل الامن والطمأنينة والسرور في حياته الثانية بعد الموت، كما في قوله مصورا حياة المؤمنين الخالدة بعد الحساب «فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرعوا لمحاسبة أنفسهم عن كل صغيرة وكبيرة امروا بها فقصروا عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فشجوا نشيجا وتجاوبوا نحيبا، يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى، ومصايح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، واعدت لهم مقاعد الكرامات...» (1)، فالعبارات الوعظية قد تلفعت بنسائم التشويق وتألقت في سبحات روحية يكتنفها الخوف والخشوع.

وإذا كان سبيل علي عليه السلام إلى التشويق من خلال الوعظ وان قل قد بلغ غايته في اجتلاب المعاني التي تشمل النفوس، وتتيه الارواح المؤمنة في نفاحاتها توقا إلى حياة الخلود والنعيم الأبدي، فإن قدرة علي عليه السلام على اجتلاب معاني الترهيب قد بلغت الذروة، فأيمانته العميق وحسه المرفف وعقليته الوقادة، وعلمه التام بدقائق اللغة قد مكنه من شخذ طاقات الكلمة لتستجيب لمعاني الوعظ الترهيبى

ص: 627

الذي تشعر له نفس المستمع ويشد وجيب قلبه منه هلعاً بالإضافة إلى الطاقات التعبيرية التي يبثها في الكلمة في أثناء الأداء ويمكن تمثل ذلك كله من قوله واعظاً محذراً «أيها اليقن الكبير، الذي لهزه القتير، كيف انت إذا التحمت اطواق النار بعظام الأعناق، ونسبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فالله الله معشر العباد، واتم سالمون في الصحة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق...»<sup>(1)</sup> ويبلغ الوعظ الترهيبى أقصى غاياته، حين يتوقف علي عليه السلام عند وصف الموت، حيث تستطيع كلمته ان تدخل الرعب في قلب أي انسان مهما بلغ من رباطة الجأش وقوة الجنان، ومهما اظهر من تماسك ويكفي ان نقول في هذا المجال ان إحدى خطبه الوعظية التي خصها في وصف المتقين قد تسببت في موت احد أصحابه عند سماعها <sup>(2)</sup>، كما تحدثنا مصادرها.

#### 4 - الجدل الخطابي:

ضم نهج البلاغة، ضمن المختارات من خطب علي عليه السلام مجموعة من المحاورات الخطابية، وهي في كثير من مقوماتها الخارجية تشبه إلى حد ما المنافرات الجاهلية التي تعتمد على التفاخر بالأنساب والنش في المثالب، وتكون ذلاقة اللسان وقوة البيان من أهم عناصرها، الا ان المحاورات الخطابية التي في النهج تتعد تماماً في بنائها الفكري عن مضامين المنافرات الجاهلية، وتتفق معها، في متانة اللغة والصياغة القوية والبيان المحكم، أما الاختلاف الموضوعي فيتمثل في

ص: 628

---

1- خطب - 185 - فقرة 5. واليقن: بفتح الياء والقاف - الشيخ الكبير السن. ولهزه: خالطه. والقتير: الشيب. والجوامع: - جمع جامعة الأغلال لأنها تجمع الأيدي إلى الاعناق

2- راجع الخطبة 183 ومناسبتها وما الت إليه نهايتها كما ذكرها الرضي

أ- إن المحاورات الواردة في النهج لا تتخذ من العصبية القبلية عنصرا من عناصر بنائها الفكري، بينما تنحو المنافرات الجاهلية نحو العصبية القبلية كمصدر من مصادر الغلبة والانتصار.

ب - تعمد المنافرات الجاهلية إلى البحث عن مثالب الخصم بالبحث في تاريخه للدخول منها إليه في محاولة إجمامه والحط من قيمته الاجتماعية، بينما يعمد الجدل الخطابي في النهج إلى منطلق العقل مبتعدا عن الأساليب التي تنال من قيمة الفارد أو تحط من قيمتهم.

ج - - تسيطر الحجة الدينية المشبعة بالإيمان على الجدل الخطابي المأثور عن علي عليه السلام بينما تكون الذات المتمثلة في الشخص أو القبيلة هي مصدر المنافرة الجاهلية أو التي تنحو منحىً جاهليا.

د- الحجة المقنعة هي الحكم في الجدل الخطابي المأثور عن علي عليه السلام، إذ يكون اللفظ بكل طاقاته موظفا لتبيان جوانب الحجة، إما بتأييد النصوص الدينية أو بتصوير الواقع تصويرا صائبا وصادقا ليعول عليه في إقامة الدليل الإحام الخصم، أما في المنافرات الجاهلية فقد تكون ذلاقة اللسان عنصرا من عناصر الانتصار والغلبة.

مع ملاحظة أن المنافرة تعمد إلى المقابلة بين طرفين يحاول كل طرف منهما الانتصار على الآخر، بينما الجدل الخطابي في النهج هو في حقيقته محاولة من علي عليه السلام لتوضيح موقف معين في مناسبة ما، أو إمطة اللثام عن شبهة وقع فيها بعض أصحابه وجادلوه فيها، ونكاد نسمع صوت علي عليه السلام منفردا في تفنيده دعاوى مجادلين كما في قوله لبعض الخوارج ردا على بعض مزاعمهم «فإن أبيتهم إلا أن



تزعّموا أنّي أخطأت و ضللت، فلمّ تضللون عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بضلالي وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي... وتخلطون من اذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه وورثه أهله وقتل القاتل وورثميراثه أهله... «(1)، فصوت علي عليه السلام هو البارز خلال المقولة السابقة، وقد اجتزأها الرضي - كما نظن - من جدل حام دار بين علي عليه السلام وبين الخوارج، لأننا نستطيع من خلالها معرفة آراء أولئك الموجهة إليهم، فقد سأله عن تصرفه في قضايا فقهية كثيرة لم يذكرها الرضي، منها المعاملة التي اتخذها تجاه أصحاب الجمل حين اباح قتلهم، ولم يبيح سبيهم واسترقاقهم (2). والملاحظ ان عليا عليه السلام يعتمد في مثل هذا الجدل إلى النص الديني في الرد على خصومه، ويعمد في ردوده إلى أساليب تكاد تكون تقريرية مباشرة ولكنها ذات حيوية نابعة من قدرته الفائقة على الاستماع والرد بصدر رحب، وفكر متقد، وبديهة لمحة، هذا بالإضافة إلى ثقافة واسعة، خاصة في الجانب الديني المرتكز الأساسي الذي يعتمد عليه ذلك الحوار، ولكنه قد يعتمد أحيانا في حوارهِ على أساليب الاستيحاء المبني على التصوير، من ذلك ما دار بينه وبين الرجل البصري الذي جاءه ليستطلع رأيه بشأن بيعته، وموقف طلحة والزبير فيها وبذلك في أثناء توجيهه إليهما (3).

## 5 - الخطب الدينية:

وهي التي يعتمد علي صلى الله عليه وآله وسلم فيها إلى تعليم الناس العبادات من صوم وصلاة

ص: 630

1- خطب - 127 - فقرة 1

2- أورد السكوني في عيون المناظرات ص 172 وما بعدها جانبا من ذلك الجدل

3- أوردناها في ص 169 من هذا البحث وهي الخطبة - 171

وزكاة وحج، وغير ذلك من الشعائر الواجبة على كل مسلم وهو في مثل هذه الخطب يكتفي بعرض القضايا بأسلوب بسيط، وبألفاظ مناسبة ومحددة تكاد تكون قريبة من فهم الجميع، مع محاولته الجمع بين مزايا الشعائر التي يتحدث عنها من ناحيتي الدين والدين (1).

تلك هي اذن انواع الخطب التي أثرت عن علي عليه السلام، وأبرز الخصائص الموضوعية والفكرية لكل نوع منها، وهي خصائص اقتضتها طبيعة كل نوع من أنواع تلك الخطب، إلا أن هناك خصائص عامة تكاد تكون مشتركة بين جميع أنواع الخطب منها:

## 1 - الوحدة العضوية:

وتمثل التزام علي عليه السلام بموضوع محصور في نقاط معينة ومترابطة فكريا، مهما كان طول الخطبة، فخطبه خالية من الاستطراد والحشو، متسلسلة الأفكار مترابطة العناصر، بحيث لا يمكن فصل الفقرات، أو التقديم والتأخير في مواضعها، لذلك كثيرا ما يصاب الدارس في النهج بالحيرة إزاء نظرتة في الفقرات التي اجتزاها الرضي من خطب، إضافة إلى ما أجراه في مواضع فقرات بعض الخطب الأخرى من تقديم أو تأخير، وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه (2).

## 2 - التنوع في أساليب الخطاب:

فمن مزايا أسلوب علي عليه السلام الخطابي التنوع في أشكال الخطاب بانسجام

ص: 631

---

1- راجع الخطبة رقم 193

2- راجع ص 123 وما بعدها من هذا البحث

تام، لا يشعر المستمع بأية نقلة تقطع الفكرة أو تحد من التأمل، من ذلك قوله ضمن خطبة وعظية «فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم... وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وان غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة... فتزودوا في الدنيا من الدنيا... فاتقى عبد ربه، نصح نفسه وقدم توبته... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة»(1). فقد توجه في مطلع الخطبة بالحديث إلى جمع المستمعين، ثم تحول بانسياب وسهولة إلى وصف قصر الحياة على وجه الأرض، ثم تحول بالحديث إلى المفرد الغائب، وعاد في خاتمة الخطبة إلى المستمعين ليشارك نفسه معهم في الاستغفار.

ومن الأساليب التي يعمد علي عليه السلام إليها أيضاً صيغ القول كمصدر من مسار الاتصال النفسي كما في قوله ضمن خطبة يصف فيها الموقف غير المستقر لأولئك الذين حالوا بينه وبين حقة في الخلافة «فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وان اسكت، يقولوا: جزع من الموت هيهات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس الموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم، لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوي البعيدة»(2)، فهو ضمن الفقرة السابقة يحاول استقراء نفوس أولئك الذين منعه حقه، بتبيان تناقض

ص: 632

---

1- خطب - 63 - . وبادروا أجالكم بأعمالكم، أي استكملوا أعمالكم قبل حلول أجالكم. والمبادرة: المسابقة، والغاية في الخطبة هي الاجل. والغائب: هو

الموت. ويحدوه: يسوقه

2- خطب - 5 - . هيهات بعد اللتيا والتي: مثل يقال في الشدائد والمصاعب صغيرها وكبيرها ويعني به علي عليه السلام: ان الذي يرميه بالجوع والخوف بعد

ركوبه الأخطار والشدائد وقاسى المخاطر صغيرها وكبيرها، قد بعد عن جادة الحق. ويمكن مراجعة المثل وقصته عند: الميداني: مجمع الامثال 159/1

المثل رقم 440

نفوسهم، ثم يعيد تمثل ذلك الاستقراء بأسلوب حوارى، يحاول من خلاله اشراك المستمع في الموقف الخطابى، ومن ثم بنقل الخطاب بطريق غير مباشر إلى الحديث عن نفسه مكتفياً بذكر اسمه في قوله «والله لابن أبي طالب...» ثم ينتقل إلى الحديث عن علمه متوجهاً بذلك إلى مستمعه إلا أن للحديث هنا وجهاً آخر غير مباشر - هو كما نعتقد - يتضمن الرد على أولئك الذين يرون في مطالبته طمعاً وفي سكوته جنباً، ويمكن ملاحظة مثل هذا الأسلوب القولى أو ما يقرب منه ضمن خطبته في الخوارج بعد أن تكشفت لهم خدعة التحكيم (1). ومن أساليب شد الأذهان وجلب انتباه المستمعين، التي يستخدمها علي عليه السلام في خطابته وصف ما ينتاب النفس من وجل وخوف وصراع في أثناء المواقف المصيرية الحساسة، من ذلك قوله في مجال الوعظ مستقرتاً نفس الإنسان في النزاع الأخير «وأنهين أهله، ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله، وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره، ويذكر أموالاً جمعها، أغمض في مطالبها...»

فهو يعرض يده ندامة على ما أصحح له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه (2)، فالخطبة لا تقتصر على مجرد الوصف لحالة الموت فعباراتها تنقلنا إلى اعماق نفس المحتضر لنعيش معه تفكيره وأمنيته وانفعالاته تجاه من ينظرون إليه، مستعرضاً في شريط طويل، حياته وكيف تصرف فيها، وعلي عليه السلام بأسلوب هذا يجذب إليه المستمع بكل احساساته، مهما كانت قدرة ذلك المستمع على الانفلات من تأثير الكلمة.

ص: 633

1- راجع الخطب - 121

2- خطب - 108 - فقرة 3. وأغمض: أي تعامى ولم يفرق بين حلال وحرام. وأصحح له: ظهر له وتكشف

ومن العناصر البينة التي تتميز بها خطب علي عليه السلام، أن قارئها يستطيع من خلال تأمله في المعاني استقراء نفسية علي عليه السلام، وسبره لمدى سعادتها وتبرمها، لأن عليا عليه السلام يحشد في تعبيراتها كل احساساته الصادقة العميقة تجاه الموضوع الذي هو بصدد التحدث فيه، خاصة وان معظم خطبه لا يعدها اعدادا مسبقا من أجل المناسبة، وإنما الظرف والمناسبة هما اللذان يفرضان عليه ارتجال الخطبة في حينها، لحاجة ملحة تفرضها الاحداث المتتالية غير المتوقعة، هذا إذا ما استثنينا بعضا من خطبه الدينية والأخرى الوعظية، التي وان لم يعدها كتابة، فقد يكون استعداد لها نفسياً.

## 2 - العهود

وهي من الأدب المقروء لأنها شروط تكتب لمن تناط به مهمة رسمية ويجب عليه التقييد بفحوى العهد في نطاق ما كلف به «لأن الشرط عهد في الحقيقة»<sup>(1)</sup>، ومن خلال ما أورده الرضوي من نصوص سياسية في النهج، يبدو ان عليا عليه السلام قد كان يزود كل من ينيط به عملا عهدا<sup>(2)</sup> يحدد فيه مسؤولياته، ويرسم له الطريق الذي يجب أن يأخذ به في تعامله مع أولئك الذين يتعلق ذلك العمل بشؤونهم، ومن أشهر العهود التي أثرت عن علي عليه السلام وأكملها: عهدان يتعلقان بإدارة حكم الولايات.

الأول: زود به محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر<sup>(3)</sup>.

ص: 634

1- تاج العروس 459/8

2- راجع رسائل: 26، 27، 53

3- راجع السابق

والثاني: كتبه لمالك الأشر حين ولاه مصر ايضاً، بعد أن اضطرت أوضاعها على محمد بن أبي بكر بفعل دسائس معاوية (1).

وإذا كان عهده لمحمد بن أبي بكر قد اقتصر على الخطوط الرئيسية في النواحي الإدارية والسياسية والاجتماعية، دون الدخول في التفاصيل، فإن عهده للأشتر قد بلغ من الشمولية ما جعله يستقصي فيه كل النواحي المتعلقة بشؤون الحكم من سياسة وإدارة واقتصاد ونواحي عسكرية وأخرى اجتماعية، وقد بلغ هذا العهد من الطول ما أثار حوله الشك (2)، مما جعل استاذنا المرحوم محمد خلف الله يتصدى لدفع ذلك الشك بذكر بعض القرائن في هامش دراسته للعهد (3).

وعهد علي عليه السلام للأشتر بما يحويه من تفصيل للقضايا، ودقة في التعبير عنها، يجعله يفوق بأسلوبه وسحر بيانه، وإحاطته بكل ما يحتاجه الحاكم من تعليمات وتوجيهات، كل ما أثر في هذا الجانب من عهود ورسائل تصور بلاغة الكتابة العربية في عصرها الذهبي ونعتقد أن القول «بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد» (4) فيه تجن على الأدب العربي، وهو مبني على توافق السجعتين وليس على وصف واقع ابتداء الكتابة الفنية حقيقة، فما أثر عن علي عليه السلام من رسائل وعهود يفند القول بأن «أول من أطال الرسائل عبد الحميد

ص: 635

1- راجع رسائل: 26، 27، 53

2- راجع: في العروبة وآدابها ص 28. الهامش

3- السابق

4- الثعالبي - يتيمة الدهر 114/3

الكاتب وهو فارسي الأصل» (1)، وكان النثر الفني العربي بأصوله وقواعده هو من ابتكار الأعاجم وليس للعقلية العربية أي دور فيه، مع ان عبد الحميد نفسه يعترف بأخذه هذا الفن عن علي عليه السلام (2) مما يرجح ما نعتقده بأن ما يسمى بالعصر الذهبي للكتابة العربية قد بدأ في فترة مبكرة من نشأة الدولة الإسلامية (3) وبلغ ذروته في عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وان اصوله عربية خالصة، وان تأثر فيما بعد بالزخرفة الاجنبية، بسبب تفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الأجنبية الاخرى.

فبالمقارنة بين رسالة عبد الحميد في نصيحة ولي العهد (4)، وبين ما جاء عند علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن، وعهده للأشتر، سنجد ان رسالة عبد الحميد تلك قد اقتبست معظم ما تضمنته من افكار، مما جاء ضمن وصية علي عليه السلام وعهده، علاوة على ذلك تأثر عبد الحميد بالبين بأسلوب علي عليه السلام وتعبيره في كثير من مواضع رسالته، مع ملاحظة البون الشاسع بين صفاء الأسلوب وسلاسة التعبير وانتظام الأفكار عند علي عليه السلام لأنه يمتح من اللغة على سجيته، وبين ما ورد في رسالة عبد الحميد من تعقيد في اجتلاب المعاني بسبب كد الفكر لتوليد المعنى المناسب. فرغم براعة عبد الحميد الفنية، فإنها تتضاءل إزاء بلاغة علي عليه السلام. وعلى كل فقد بلغ تأثر عبد الحميد بعلي عليه السلام ذروته حتى في العبارات القصيرة، وان حاول اخفاء ذلك إذ يؤثر عن عبد الحميد قوله لمن وجده يكتب

ص: 636

1- احسان النص - الخطابة العربية في عصرها الذهبي ص 14

2- راجع ص 353 من هذا البحث. فقد ذكرنا مقولة عبد الحميد في شأن تأثره بعلي عليه السلام هناك

3- راجع على سبيل المثال كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء - الجاحظ: البيان والتبيين 49/2

4- أوردها محمد كرد علي ضمن مختاراته - رسائل البلغاء ص 173 وما بعدها

بخط رديء «أطل جلفة قلمك، وأسمنها، وحرّف قطتك وإيمنها»<sup>(1)</sup>، وهو مأخوذ بتحريف من قول علي عليه السلام لكاتبه عبد الله بن أبي رافع «ألق دواتك، وأطل جلفة قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف فإن ذلك أجدر بصباحة الخط»<sup>(2)</sup>. تلك إذن نبذة قصيرة حاولنا فيها إلقاء الضوء على أثر بلاغة علي عليه السلام وأدبه في بلاغة وأدب رائد النثر الفني في عصره الذهبي اقتضتها مناسبة الدراسة فيما أثر.

أما بالنسبة لشمولية العهد كوثيقة يعول الولاة عليها في حكم ولاياتهم فإننا لا نتفق مع ابن خلدون في اعتباره كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله من أحسن الكتب التي عنت بما يحتاجه الوالي «في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسية والشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه ملك ولا سوقه»<sup>(3)</sup> لأن ذلك يعني ضمنا ان العرب لم يعرفوا علم السياسة وإدارة الحكم، الا بعد ان اختلطوا بالأعاجم الذين يرجع الفضل إليهم في تبصير العرب بتلك العلوم. لكون طاهر بن الحسين<sup>(4)</sup> - كاتب العهد من أصول فارسية. وهو ما يتفق ومقولة ابن خلدون «ان العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»<sup>(5)</sup>. فمن المعتقد ان ابن خلدون لم يطلع على عهد

ص: 637

- 1- الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص 82 . وقطتك - بفتح القاف أو كسرهما: صحيفتك
- 2- حكم - 323 . وألق دواتك: أصلح مدادها، أي اجبرها، ولاق الحبر بالورق، يلق أي التصق به. والجلفة:- بكسر الجيم فتح القلم التي يستمد بها المداد. وفرج بين السطور: باعد بينها. وقرمط بين الحروف: قارب بينها
- 3- مقدمة ابن خلدون ص 378، وقد ذكر رسالة طاهر بن الحسين بتمامها مباشرة بعدما نقلناه عنه من شاهد
- 4- راجع ترجمة طاهر بن الحسين عند ابن خلكان - وفيات الأعيان 517/2
- 5- مقدمة ابن خلدون ص 189



علي عليه السلام للأشتر. فبمقارنة سريعة بين ما حواه كلا العهدين من عناصر يتضح للدارس أثر أحدهما في الآخر من حيث تسلسل العناصر وشموليتها الفكرية، وبنائها الفني، فقد تضمن كلاهما العناصر التالية:

### عهد علي بن أبي طالب عليه السلام

\* 1- بدأ علي عليه السلام لأشتر بتبيان المهمات التي عهد إليه وحصرها في: جباية الخراج، جهاد الأعداء، واستصلاح أهل مصر، عمارة الأرض، مع التزام التقوى والعمل بكتاب الله في كل ذلك.

\* 2- تلا ذلك بالحديث عن أهم مميزات الوالي من حيث السلوك، والعلاقات بالناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، مع تبيانه للطريقة المثلى في التعامل معهم.

### عهد طاهر بن الحسين

\* 1- بدأ طاهر بن الحسين عهده لابنه بتعداد الصفات والفضائل الواجب توفرها في الوالي من مداومة على الصلاة،

والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والافتداء بالسلف الصالح، والتفقه في الدين، والتمسك بكتاب الله والمداومة على مجالسة الفقهاء ومشاورتهم، والاختصاص بأهل التجربة من العقلاء والحكماء وكل ما تضمنه هذا العنصر من أفكار تكاد تكون ملحقة بعناصرها المناسبة لها في عهد علي عليه السلام.

\* 2- الطريقة المثلى في تعامل الوالي مع خاصته ممن يتولون الأعمال له، ذلك بالالتصاق بهم، وبث الثقة في نفوسهم، وعدم اتهامهم على الظنة، ما لم يكن لديه الأدلة الكافية والقوية التي تتيح له إيقاع العقاب بهم وهذا العنصر بكامل أفكاره يكاد يكون جزءاً مما أورده علي عليه السلام في عهده بشأن اختيار القضاة والكتاب والجباة وغيرهم ممن له علاقة مباشرة بشؤون الدولة من الموظفين الإداريين.

\* 3 - بيان الفئات التي يتكون منها المجتمع وهم: الجند، والموظفون من كتاب العامة والخاصة، والقضاة، والمكلفون بجباية الخراج والفلاحون من أهل جزيرة وخراج من ذميين ومسلمين، والتجار، والصناع، والطبقة السفلى من فقراء ومحتاجين ومساكين، وقد فصل القول في أهمية كل فئة ودورها في بناء المجتمع وأثرها في الفئات الأخرى والمسؤولية الملقاة على عاتق الوالي تجاه كل فئة من حيث الحقوق والواجبات، والطريقة المثلى في التعامل مع كل فئة بما يصلحها.

\* 3 - السلوك بالرعية مسلك الدين في أداء حقوقهم، وإقامة الحدود، والتمسك بالعهود والمواثيق، والتغاضي عما ستر من عيوب الناس، وقبول التوبة، وتجنب الخداع والكذب في التعامل مع الرعية، والإيقاع بالسعاة والنمامين واجتناب كل ما يسيء إلى الدولة من جور وظلم واضطهاد مع الاعتذار إلى الرعية إذا وقع مثل ذلك من الوالي عن غير قصد. وعدم التغاضي عن أي ذنب يلحق الأذى بعامة الناس، أو ينقص من هيبة الدين والدولة. وقمع المفسدين والإحسان إلى المساكين والمحتاجين، وعدم رد السائلين. وهذا العنصر أيضاً مكون من أفكار ملتقطة من عناصر عهد علي عليه السلام مع إعادة صياغتها بأسلوب مختلف.

\* 4 - تلا ذلك بتفصيل الحديث في العوامل الادارية والسياسية الهامة التي تساعد الوالي على النجاح في مهمته ومنها: المبادرة بإصدار حاجات الناس في وقتها المحدد من دون تأخير، عدم الإطالة في الاحتجاج عن الناس، افساح المجال لسماع شكاوي العامة والضعفاء في جو يسوده الأمن والاطمئنان، العمل بكل حزم على تقادي انحراف البطانة بالاستئثار لما للناس من حقوق، مكاشفة الرعية والاعتذار إليهم إذا ظنوا به حيفاً أو جوراً، ان لا يدفع صلحاً دعاه إليه عدوه فيه

\* 4 - الطريقة المثلى التي يجب على الوالي اتباعها لإصلاح أموال ولايته سواء أكان ذلك في تحصيلها وجبايتها، أو في سبل انفاقها، وظاهر في أسلوب هذا يقتضي ما تضمنته وصية علي عليه السلام لعماله على الخراج «رسائل رقم 51» بالإضافة إلى ما ورد بشأن ذلك في عهد علي عليه السلام عند تعرضه الى الفلاحين وأهميتهم بالنسبة للأمة.

صلاح الامة، أن يأخذ كل احتياطاته بدراسة جوانب أي صلح قبل إبرامه مع العدو حتى لا يقع في شرك الخديعة والمكر، ان يلتزم التزاماً تاماً بما ربط به نفسه من عهود وان اكتشف فيما بعد ان في تلك العهود جوراً على نفسه، وأن ينبذ الإطراء، ويتحاشى المن على رعيته بما يبيده لهم من إحسان وأباد بيضاء، وأن لا يستعجل الأمور قبل أوانها، وأن لا يلجأ إلى العقاب إلا بعد أن ينفذ كل ما لديه من أساليب الرفق واللين المشروعة، وان يضع في اعتباره دائماً ان قوة الله وقدرته فوق كل قوة وقدره، حتى ترتدع نفسه وتتواضع بتفادي التكبر والتجبر. وقد تضمن العهد كثيراً من الوصايا الجوهرية الأخلاقية والأخرى الإنسانية بما لا يتسع لذكرها ويمكن الاطلاع عليها ضمن تلك الوثيقة القيمة.

5 - نصائح وتوجيهات متفرقة، تتصل بعلاقة الوالي بموظفيه وعماله وما يحتاجونه من متابعة ومراقبة، والكيفية التي يجب ان يكونوا عليها في أثناء تعاملهم مع الرعية، بالإنصات إلى شكاواهم والتعرف على مشاكلهم، إلى غير ذلك من نصائح وإرشادات تكاد تكون مقتبسة بمعانيها من عهد علي عليه السلام أيضاً.

ص: 640

فمن خلال مقارنة بين فحوى العهدين يظهر بنتيجة مفادها اشتراكهما في معظم الخصائص الإدارية والسياسية ان لم تكن كلها «حتى ليغلب الظن أن - طاهراً - حذا في رسالته حذو الإمام في رسالته»<sup>(1)</sup>، مع ملاحظة الفارق الكبير بين العهدين من حيث ترتيب العناصر وتناسق الأفكار فيهما، ومن حيث بلاغة الأسلوب أيضاً، إذ لم يستطع طاهر بن الحسين أن يبلغ بأفكاره وأسلوبه ما بلغه علي عليه السلام، الذي شرب روح الإسلام من مصادره الأساسية دون وساطة ومن ثم استلهم روح التاريخ وتجارب الأمم بفكره المتوقد والوهاج، ثم أنه في صياغته للأساليب نهل من معين لغة الجاهلية الصافي ومازجه ببلاغة القرآن، فاستطاع أن يصوغ من ذلك المزيج اللغوي المتجانس في ذروة تعبيراته، والفكر الإنساني الفذ المتمثل في الإسلام في أوج فتوته وعطائه، وثيقة لو أتيحت لها الدراسات المنصفة والبعيدة عن كل تعصب لتبوأ القمة في النثر العربي كشاهد من شواهد الريادة الاصلية لأدب العربية منذ بواكيرها الأولى، هذا بالإضافة إلى اعتبار مضمونها الفكري كوثيقة اصيلة وكاملة لحقوق الإنسان تتحدى بفحواها كل ما كتب في شان ذلك على امتداد عصور الإنسانية، واهم ما يميز هذا العهد هو:

1 - التزامه نهج الإسلام وتعاليمه في الحكم والإدارة بنظرته الإنسانية الواسعة التي لا تقصر الحقوق على فئة معينة ومميزة لأن المواطنين كما ينص العهد متساوون في الحق سواء المسلم وغير المسلم. فهو بتعاليمه يمثل ما أثر عن علي عليه السلام من فكر ضمنه خطبه وأقواله وطبقه في واقع افعاله.

2 - الترتيب المنقن والتناسق التام بين العناصر التي تكون العهد الذي يبين من خلاله حرص علي عليه السلام التام على «أن يفتح عين ولاته على الصغير والكبير من

ص: 641

شؤون الحكم وصلات الحاكم بالناس»(1).

3 - اختيار الألفاظ والأساليب اختياراً دقيقاً ومحكماً كي تتناسب والعناصر الفكرية التي صيغت من أجلها، مع بعد عن التكليف وسهولة في مخارج الحروف، واتسام بالانسجام والمصالحة مع روح وعقل من كُتب العهد اليه من الولاة.

4 - استمرارية في بقاء الأسلوب على قوة بنائه ومتانة تماسكه وترابط أفكاره وانسجامها من بداية العهد حتى نهايته دون ان يتخلله فتور في تعبيراته، أو انحلال في افكاره رغم طوله الذي بلغ «أكثر من ألفين ومائتين كلمة»(2).

5 - الاحاطة الشاملة التامة بأبعاد كل فكرة وردت فيه بإشباعها دراسة وتمحيصاً وتبيان إيجابياتها وما يعتورها من سلبيات يمكن للوالي أن يتلافها كي لا يقع في الخطأ الذي ينتج عنه الإرباك، ويمكن تطبيق هذه المميزات على الجوانب الفكرية التي عرض إليها علي عليه السلام في عهده لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر أيضاً.

### 3 - الرسائل:

#### إشارة

وهي القسم الثاني من الأدب المكتوب المأثور عن علي عليه السلام، وعددها في النهج ستون رسالة مختلفة، من جملة تسعة وسبعين نصاً ذكرها الرضي في الباب الذي افردته للرسائل والعهود والوصايا. وتنقسم هذه الرسائل من حيث مضامينها على قسمين:

ص: 642

1- في العروبة وآدابها ص 35

2- في العروبة وآدابها ص 29

وهي الرسائل التي كتبها علي عليه السلام لتقرأ على عامة الناس في الولايات، ويكلف الوالي أو من يقوم مقامه بأدائها، وتشبه في مضامينها ومقوماتها واساليبها الخطبة، الا انها في كثير من الأحيان تمتاز بالإيجاز والتركيز وتتناول في العادة موضوعات هامة وتتطلب انجازا سريعا، كالأخبار عن تولية عامل جديد تتطلبه الظروف الحرجة التي تعيشها الولاية (1)، أو كالأخبار عن نتائج معركة ما اضطرت الحكومة المركزية إلى خوضها (2) أو التعرض لشرح قضية ما اختلفت اراء الناس حولها في مختلف ولايات الدولة (3). وتتميز هذه الرسائل بإيرادها الحقائق في صيغ اخبارية واضحة وصریحة وصادقة ومباشرة، مثال ذلك كتابه إلى أهل الكوفة الذي ستحثهم فيه على القدوم إليه، عند مسيره إلى البصرة للقضاء على فتنة أصحاب الجمل «من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسنام العرب، اما بعد فإنني اخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه، ان الناس طعنوا عليه، فكنت رجلا من المهاجرين، أكثر استعتابه، وقل عتابه، وكان طلحة والزبير اهون سيرهما فيه الوجيف، وارفق حذائهما العنيف، وكان من عائشة فيه فلتة غضب، فأتيح له قوم فقتلوه، وباعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيرين، واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش المرجل، وقامت الفتنة

ص: 643

---

1- راجع رسائل - 38 ، 57 ، 58

2- السابق

3- السابق

على القطب، فأسرعوا إلى اميركم وبادروا جهاد عدوكم ان شاء الله تعالى»<sup>(1)</sup>، فلقد لخص علي عليه السلام احداث الفتنة التي ادت إلى قتل عثمان، وبين ضمنها دور الخارجين عليه من أصحاب الجمل في اشعال نارها وذلك بلمحات تصويرية مقتضبة، مارا بسرعة على وصف بيعة الناس له باختصار شديد، تلاه تصويره لما حدث في المدينة من فتنة، ثم طلب منهم الاسراع بالالتحاق به للقضاء على الفتنة القائمة في وجه الخلافة. فالرسالة من الوضوح والاختصار بحيث لا يمكن الاستغناء عن أي عبارة فيها، لاعتمادها على التركيز والتعبير التصويرية الموحية وخلوها من الفضول والزيادات.

## - الثاني: الرسائل الخاصة:

وهي التي يكتبها إلى اشخاص معينين وتنقسم بدورها إلى اقسام ثلاثة:

1 - رسائل إدارية: وهي نوع من الرسائل التي عادة ما يكتبها علي عليه السلام لولاته في الشؤون المتعلقة بهم وأعمالهم، كتنبههم إلى قسوته التي يأخذ بها سكان ولايته<sup>(2)</sup>، أو حرضه آخر على القيام بأعمال معينة أو مشاريع محددة يجدها مهمة

ص: 644

1- رسائل - 1. وشبههم بالجبهة من حيث الكرم وبالسنام من حيث الرفقة. وعيانه: رؤيته. واستعبابه: استرضاءه. وعتابه: لومه. والوجيف: نوع من سير الابل يمتاز بالسرعة. والحداء: الغناء للابل من أجل سوقها والعبارة في مجملها كناية عن إسراعهما في إثارة الفتنة على عثمان. ودار الهجرة: المدينة. وقلع المكان بأهله: لم يصلح لاستيطانهم. وجاشت: غلت. والمرجل: بكسر فسكون: القدر

2- راجع رسائل: 19، 18، 67، 61، 40، 43، 63

وضرورية بالنسبة إلى الولاية (1)، أو التبكيك واللوم لمن يفرط منهم في أمر هام مقابل قيامه بعمل يقل في أهميته وخطورته من العمل الذي فرط فيه (2)، أو الأيعاز لبعضهم ممن يشك في اختلاساتهم برفع حسابات ولايتهم (3)، أو نصح من يخبر عن تبذيره بعدم التمادي في الملذات واعطاء الهبات من الأموال العامة المكلف بصيانتها والحفاظ عليها (4) أو العزل بسبب سوء التدبير في بعض الاحيان (5) إلى غير ذلك من موضوعات وقضايا إدارية تتصل اتصالا مباشرا بعمل الوالي أو من ينوب عنه.

ويمتاز أسلوب ذلك النوع من الرسائل بالاختصار والصرامة والتحديد لدقيق والمباشر للموضوع، مثال ذلك كتابه إلى عمر بن سلمة المخزومي (6) عامله على البحرين الذي جاء فيه «اما بعد فاني قد وليت نعمان بن عجلان الزرقي على البحرين، ونزعت يدك بلا دم ولا تثريب عليك، فلقد احسنت الولاية، واديت الامانة، فأقبل غير ظنين ولا ملوم ولا متهم، ولا مأثوم، فلقد أردت أن أسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببت أن تشهد معي فإنك ممن استظهر به على جهاد العدو، واقامة عمود الدين، ان شاء الله» (7)، فالرسالة ادارية

ص: 645

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

4- راجع السابق

5- راجع - السابق

6- راجع ترجمته عند ابن الأثير أسد الغابة 4/ 183

7- رسائل - 42 - والنعمان بن عجلان الزرقي بضم الزاي وفتح الراء من الانصار، كان شاعرا فصيحاً وسيداً في قومه. راجع ترجمته في أسد الغابة السابق /5



بحة، حتى المدح الذي تضمنته هو بمثابة اخلاء ذمة وإزالة لأي لبس يدخل في روع الوالي المعزول، ودقة تعبيرها لا يدع مجالاً للشك في أن العزل لم يكن إلا من أجل الغرض الذي ذكره علي عليه السلام، وتلك هي ميزة جميع الكتب الإدارية المأثورة عن علي عليه السلام في النهج.

2 - رسائل عسكرية: وهي الرسائل التي يكتبها علي عليه السلام إلى قادة جيوشه، وتتضمن اوامر بالسلوك بالجنود في طريق ما، أو اتحاد بعض الجيوش تحت إمرة قائد يقع اختياره من قبله إلى غير ذلك من أمور عسكرية تقتضيها خطط الحرب وأسلوب علي عليه السلام في هذا النوع من الرسائل هو ذات أسلوبه في رسائله الإدارية، من اختصار ومباشرة وتحديد للمعاني، مثال ذلك ما كتبه إلى اميرين من امراء جيوشه بعد أن أرسلهما كمقدمة لما عزم على التوجه إلى صفين «قد أمرت عليكما وعلى من في حيزكما، مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعا ومجنا، فانه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطه ولا بطؤه عما الاسراع إليه احزم ولا اسرعه إلى ما البطء عنه أمثل»<sup>(1)</sup>، فالصفات المقتضية التي اسبغها على قائده المؤتمر هي من الاستحقاق ما تجعله جديراً بأن يطاع، وعبارات الرسالة رغم قلتها فإنها توحى بجل المعاني التي يجب ان تتوفر في قادة الجيوش.

3 - رسائل سياسية: وهي التي كتبها علي عليه السلام لأولئك الذين ناوؤه وحاولوا نكث بيعته من امثال طلحة والزبير أو امتنعوا عنها من امثال معاوية ومن شايعه من الأمويين واهالي الشام. وهذه الرسائل في مجملها صنفان:

ص: 646

- الأول: الكتب المرسلة من علي عليه السلام لأولئك الخارجين عن طاعته، ويعمد فيها إلى شرح موقفه إزاء دعاواهم مباشرة، متكئاً في تنفيذ مزاعمهم على الحجة والمنطق واستمالتهم بأسلوب العقل والموعظة الحسنة، ولكن من دون تهاون أو تنازل، فالحلول الوسط لا تعرف إلى رسائله سبيلاً، ويمكن أخذ كتابه الذي بعثه إلى طلحة والزبير (1) مثلاً، فقد حاول ضمن الكتاب صدهما عما عزموا عليه من نكث بيعته وقد بناه على العناصر التالية:

1 - البيعة له بالخلافة وكيف تمت.

2 - مبايعة الأئمة له بين الإعلان والإضمار والطاعة والاكراه.

3 - مقتل عثمان بينه وبين الإئمة بشهادة من حضره من أهل المدينة.

وقد اجملت الرسالة تلك العناصر بإحكام ودقة لا تمكن من ارسلت إليه من أية فرصة للإفلات من حججها وقوة منطقتها، مع اقتضاب في العبارة وتركيز في اختيار المعاني المناسبة.

ويمكن تمثل تلك الخصائص المعنوية أيضاً في كتابه الذي بعثه إلى جرير بن عبد الله البجلي (2) حين استبطأ مكوته بالشام لما أرسله لأخذ بيعة معاوية ونصه «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الحزم، ثم خيره بين حرب مجلية أو سلم مخزية، فإن اختار الحرب، فانبذ إليه، وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام» (3) فأسلوب الرسالة من الحزم والجدية بحيث لا

ص: 647

1- راجع رسائل - 54 -

2- جرير بن عبد الله البجلي - من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. راجع ترجمته عند الذهبي سير أعلام النبلاء /2

3- رسائل - 8 -

يترك مجالاً للتردد بين الاختيارين لا ثالث لهما وعبارات الرسالة لا تعطي مجالاً للتأويل، ولا توحى بالمراوغة والمساومة، فهي قاطعة ومحددة.

- الثاني: وهي الكتب التي عادة ما تكون ردوداً على رسائل وردت إلى علي عليه السلام من مناوئيه، وكل ما ورد في هذا الباب من ردود كانت على رسائل لمعاوية، كان مراده منها المساومة والخداع للوصول إلى مآربه في البقاء في ولاية الشام، وقد اتبع من أجل ذلك أساليب متنوعة منها حجته بأن البيعة لعلي عليه السلام لم تلزمه لأنه وأهل الشام لم يبايعوا أصلاً (1) ومنها مطالبته بالثأر من قتلة عثمان الذين انضوا تحت إمرة علي عليه السلام (2)، ومنها اتهام علي عليه السلام بمحاولة نكث بيعة الشيخين (3)، ومنها - وهو الحقيقة - طلب إقراره على ولاية الشام دون أي التزام ببيعة علي عليه السلام على تلك الرسائل، وما يميز تلك الجوابات:

أ - الرد على فحوى الرسالة نقطة تلو الأخرى، مبتدئاً رده بأجمال مضمون كل نقطة وردت في الرسالة الاصل، ضمن الرد عليها، من ذلك قوله ضمن رده على إحدى رسائل معاوية «أما بعد فإننا كنا وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس أنا آمننا وكفرتهم، واليوم أنا استقمنا وفتنتهم...»

وذكرت اني قتلت طلحة والزبير وشردت بعائشة، ونزلت المصريين، وذلك أمر غبت عنه، فلا عليك، ولا العذر فيه اليك» (4). إذ يتضح من رد علي عليه السلام ان رسالة معاوية تركز على تذكير علي عليه السلام، بألفة المسلمين ونصحه اياه بالبقاء على

ص: 648

---

1- يمكن استنتاج ذلك من الرسائل: 6، 19 الفقرة الأخيرة، 28 الفقرة الرابعة، 17 مطلع النص

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

4- رسائل - 64 - فقرة 2

تلك الالفة، ومن ثم اتهامه اياه بفك اواصر الوحدة الإسلامية بقتله طلحة والزبير، وتشريده بزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبتكره المدينة عاصمة الإسلام ونزوله بالبصرة ثم الكوفة، فعناصر رد علي عليه السلام، مبنية كما نلاحظ على عناصر رسالة معاوية دون زيادة أو نقصان، وعادة ما يبدأ علي عليه السلام رده على كل عنصر بتوجيه الحديث إلى معاوية ب- (اما) الشرطية التفصيلية.

ب - مقابلة التهديدات والإنذارات بالسخرية اللاذعة المستقاة مضامينها من وقائع التاريخ، من ذلك قوله لمعاوية ضمن رده السابق أيضاً «وذكرت أنك زائري في المهاجرين والأنصار، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك، فإن كان فيه عجل فاسترفه، فإني إن أزرك فذلك جدير أن يكون الله انما بعثني إليك للنعمة منك، فإن تزني فكما قال أخو بني أسد: (بسيط)

مستقبلين رياح الصيف تربهم \* بحاصب بين اغوار وجلمود (L) فالسخرية تكمن في قول علي عليه السلام «قد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك» ويعني يزيد بن أبي سفيان الذي اسر يوم الفتح وما يريد علي عليه السلام من ذلك ان «اكثر من

ص: 649

1- رسائل - 64 - فقرة 3. واخو بني أسد هو بشر بن أبي خازم، عمرو بن عوف الاسدي شاعر جاهلي فحل، وقد عزا علي عليه السلام البيت إليه الا ان ابن أبي الحديد في شرحه 17 / 19 يقول: «كنت سامع قديما ان هذا البيت من شعر بشر بن أبي خازم الاسدي، والآن قد تصفحت شعره فلم اجده ولا وقعت بعد على قائله» ويمكن الرجوع إلى ترجمة الشاعر في: أعلام الزركلي 54/2 . وريح حصب: تحمل الحصباء وهي صغار الحصى. والاغوار: ما سفلى من الأرض. والجلمود: الصخر الصماء. وقد تمثل علي عليه السلام بالبيت ليبين لمعاوية مدى المشقة التي ستواجهه في حالة مبادرته بالحرب، مما يعني انه في كلتا الحالتين سيكون ضحية غروره

كان معك - يا معاوية ... هم من ابناء الطلقاء ومن اسلم بعد الفتح»(1)، مما يعني انك نفسك لست في عداد المهاجرين فكيف يتسنى لك قيادتهم، واستمرارا في الرد على تهديد معاوية بأسلوب تنطوي عباراته على نوع من الازدراء، مقاله من تهوين من اندفاعه، فاللقاء بين الاثنين لا محالة واقع، سواء اكان هو الباديء أم معاوية وفي كلتا الحالتين سيرى معاوية ايهما اصبر جلدا. ومن الردود المتضمنة السخرية أيضاً الاستفهام الانكاري في قوله «ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية، وولادة أمر الامة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق»، وقوله في رد ثالث «اما بعد فقد اتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتأيينه اياه بمن ايده من اصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت كناقل التمر إلى هجر (2)، أو داعي مسدده النضال»(3).

ج- - الحذر الشديد والحيلة المتناهية في استخدام العبارات: فقد كان معاوية يرمي من الرسائل الكثيرة إلى علي عليه السلام، تصيد الفلتات التعبيرية التي تمكنه من إثارة الرأي العام ضد علي عليه السلام. وقد كان علي عليه السلام واعيا لأساليبه تلك. فمن

ص: 650

1- شرح ابن أبي الحديد 17 / 256

2- رسائل - 10 ، 28 . وهجر: مدينة البحرين كثيرة النخل، وهي الاحساء حاليا احدى مدن المنطقة الشرقية من المملكة السعودية، وقوله «كناقل التمر إلى هجر» صورته من المثل القديم «كمتبضع التمر إلى هجر»، مجمع الامثال للميداني 39 / 3 ، يضرب مثلا للرجل يعلم من هو اعلم منه

3- راجع السابق، وقوله «داعي مسدده إلى النضال» اي معلم معلمه الرمي، وهو اشارة إلى قول القائل: (وافر) أعلمه الرماية كل يوم ولما اشتد ساعده رماني شرح ابن أبي الحديد 15 / 188

أساليب الاستدراج التي أراد بها معاوية ايقاع علي عليه السلام، محاولة استثارته تجاه خلافة الشيخين، لما كان يعلمه من قوله باستثثارهما بحقه، ففي رد لعلي عليه السلام على احدى رسائل يقول «وزعمت ان افضل الناس في الإسلام، فلان وفلان، فذكرت امرا ان تم اعتر لك كله، وان نقص لم يلحقك ثلمه وما انت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس، وما للطلاق وابناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم»<sup>(1)</sup>. فلقد كان معاوية - كما نطن - يرمي من اثارته لقضية الفاضل والمفضول إلى جر علي عليه السلام للقول بأفضليته على الشيخين ولكن علي عليه السلام قد فوت عليه الفرصة حين وجه الرد إلى السخرية منه والتشهير به وبمنزلته إزاء القضية التي جعل من نفسه حكما فيها، وهو ابعد ما يكون تأهيلا، لأن بني عبد شمس عشيرة معاوية لم يكونوا من المهاجرين ولم يسلموا الا بعد ان وجدوا ان لا مفر من ذلك.

وفي موضع آخر من الرد نفسه يقول علي عليه السلام «وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك، فيكون العذر لك: (طويل) وتلك شكاة ظاهر عنك عارها وقلت اني كنت أقاد كما يقاد الجميل المخشوش حتى اباع، ولعمر الله لقد أردت أن تدم فمدحت وان تقضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة ان يكون مظلوما، ما لم يكن شاكا في دينه، ولا مرتابا بيقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكنني اطلقت لك منها بقدر ما سنع من ذكرها»<sup>(2)</sup>.

ص: 651

---

1- رسائل - 28 - الفقرة 1، 4، 5، وفلان وفلان، أبو بكر وعمر

2- راجع السابق. والجميل المخشوش: الذي يجعل في انفه الخشاش لينقاد، والخشاش: خشب يدخل في عزم انف البعير. والتصميم عجز بيت لابي ذؤيب الهذلي: وعيها الواشون أني احبها - محمد عبده - هامش نهج البلاغة - ص 470 - ط. دار الاندلس. والجميل المخشوش: الذي يجعل في انفه الخشاش لينقاد. والخشاش خشب يدخل في عظم انف البعير

فمعاوية على ما يبدو من رد علي عليه السلام على رسالته، قد كان يلح الحاحا شديدا في استدراج علي عليه السلام إلى النيل من حكم الشيخين، ولكن يقظة علي عليه السلام قد فوتت عليه الفرصة حتى ان إحياءه بحقه ضمن الرد جعل من معاوية شاهد اثبات على مشروعية ذلك الحق مما تعذر معه على معاوية استخدامه كدليل على موقف علي عليه السلام المعارض من حكم أبي بكر التي أوماً إلى إكراه علي عليه السلام على قبولها كما يبدو من رد علي عليه السلام.

#### 4 - الوصايا

الوصية جنس من الأدب العربي القديم، افرزته الحاجة التي حتمت على العربي من خلال مكانته في اسرته وبين قومه ان يفضي لهم بخلاصة تجاربه الحياتية متى ازمع الرحيل عنهم في سفر طويل أو عند احساسه بدنوا الاجل. والوصية بشكل عام عبارة عن نصائح وتوجيهات، مقترنة بأخبار وحكم، هي في جوهرها خلاصة تجارب الموصي ومحورها الذي تركز عليه نظرتة إلى شؤون الدنيا وكيفية التعامل مع احداثها، إذ يمكن من خلال التأمل في عناصرها استقراء نفسية الموصي ومعرفة أفكاره، لأنها عبارة عن حالة من التجلي الذي يعتري الإنسان في أثناء الفراق بكل أشكاله فهي على هذا الأساس تعبير ذاتي، وإن حاول الموصي صبغه بطابع إنساني بمحاولته إيداعه التجارب الإنسانية التي عاشها ضمن نسيج الوصية، ولكن بصبغها بنفحة من روحه، وبالتعبير عنها من وجهة نظره، وهي

ص: 652

في العادة - وكما يبدو لنا مما بين أيدينا من وصايا فورية يلقيها الموصي ارتجالاً في مناسبتها، من دون أداء مسبق، فالمناسبة والموقف هما اللذان ينظمان العناصر والأفكار بحسب اقتضاء المناسبة وانسجامه معها، وتلك المميزات بطابعها الذاتي العام تمثل شكلاً من أشكال الوصايا التي اُثرت عن علي عليه السلام في النهج كما في قوله لأصحابه عند احساسه بدنو الاجل «أيها الناس، كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره، والاجل مساق النفس، والهرب منه موافاته، كم اطردت الأيام ابحثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله الا اخفاه. هيهات! علم مخزون. اما وصيتي: فالله لا تشركوا به شيئاً ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم فلا تضيعوا سنته، اقيموا هذين العمودين، واوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم ما لم تشردوا، حمل كل امرئ منكم مجهوده، وخفف عن الجهلة، رب رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. انا بالأمس صاحبكم، وانا اليوم عبدة لكم، وغدا مفارقكم، غفر الله لي ولكم...» (1) فعبارات الوصية بتمامها تترجم احساسات روح عامرة بالإيمان في حالة احتضار، ولكن ذلك الموقف الرهيب لم يمنعها من الإفضاء بما في داخلها من شوق للوصول إلى معرفة الحقيقة التي بقيت بعيدة المنال، ولكنها أكيدة وتأكيداً هي معاشتها في لحظاتها الاخيرة التي غطت على الم الاحتضار، مع بروز الإسلام والخوف عليه والنصح على التمسك به كعامل فكري ما فتأت نفس علي عليه السلام تكافح من اجله حتى النزاع الاخير، فالذاتية بالحديث عن النفس هي وصف لحالة التجلي التي يشعر بها علي عليه السلام، محاولاً اطلاق مستمعه على جوهرها من خلال احساسه بها بكل توجهاتها الفكرية التي يعتقدونها، مع محاولة منه في توجيه من يحيطون به إلى الأخذ بها، بناء على ما يتضمنه ذلك الفكر من خير ومحبة ورحمة كخلاصة لتجربة عايشها،

ص: 653

---

1- خطب - 149 - . ومساق النفس: تسوقها إليه اطوار الحياة حتى توافيه. وخلاكم ذم ما لم تشردوا: أي برتتم من الذم ما لم تميلوا عن الحق وتنفروا منه



وكافح من اجلها ومات في سبيلها، مع ملاحظة ان ومضات الفكر تلك عبارة من انقذاح لتفاعلات داخلية وليدة مناسبتها، مما جعلها تساب في الأسلوب على شكل همسات حزينة مثقلة بالألم، ومشبعة بالإيمان، ومتسمة باحساسات الفراق الابدي الممثل في إبانة للزمن بأبعاده الثلاثة في سبر كنهها واستلهاام فحواها، مما يتعذر معه الاعداد المسبق حتى ولو فكراً.

ومن تلك الوصايا الذاتية ما يعمد علي عليه السلام إلى كتابته، قادحا فيه زناد فكره، مضمنا إياه خلاصة تجربته، كوصيته الطويلة الشاملة التي كتبها إلى ابنها الحسن عليه السلام (1)، وهو قافل من صفين إلى الكوفة، وقد استوعبت هذه الوصية جل تجارب علي عليه السلام الحياتية، فمدة الرحلة التي كتبت فيها الوصية قد أتاحت لعلي عليه السلام التأمل والتركيز، مما فتح له مجال الحديث في معظم ما يحتاجه ابنه من نصائح دنيوية ودينية من عبادات ومعاملات وعلاقات، وفكر وثقافة فهي ليست كسابقها ذات خطوط عامة مجملة ومركزة، محددة الوقت، والعنصر العاطفي وان بدا قويا فيها، إلا أنه لا يبلغ من التكثيف والحرارة في مثل سابقها ايضا، التي قد خالط تعبيراتها الانفعال للشعور بدنو الاجل وقرب الرحيل، فالتركيز والعقلانية عنصران من أهم العناصر التي تميزت بها الوصية المكتوبة التي لم يعد يتخللها مجال للحزن، مع اتساع ربح في مساحة التأمل، تولد عنه كمية كبيرة من الحكم العملية المستخلصة من تجارب الموصي المرتبطة بجل شؤون الحياة والمنسجمة مع واقعها.

اما أهم ما وحد بين الوصيتين الذاتيتين المرتجلة والمكتوبة فهو المجرى النفسي في كليهما، والمتمثل في حرارة الإيمان، وصدق العاطفة والحب العظيم

ص: 654

وهناك أيضاً وجه ثان يختص بالوصية المكتوبة تحتّمه طبيعة الإسلام الذي يلزم كل مؤمن به ان يترك وصية بما يعمل بتركته بعد وفاته امثالاً لقوله تعالى:

«كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ»<sup>(1)</sup> ، فالوصية المعنية في الآية الكريمة هي نص، اما ان يكون مكتوباً، أو شفويًا بحضور شاهدين عدلين، وفي كلتا الحالتين الكتابية والشفاهية تكون الوصية ملزمة بالتنفيذ شريطة ان توافق ما نص عليه القرآن الكريم، وفصله الشرع الإسلامي في خصوص الموارث. والعبارات في مثل هذا النوع من الوصايا تكون محددة تحديداً علمياً دقيقاً لا يقبل التأويل. ومن امثلة تلك الوصايا في النهج، الوصية التي كتبها علي عليه السلام بعد رجوعه من صفين ضمنها ما يعمل في امواله بعد وفاته<sup>(2)</sup> ، فعباراتها محددة في موضوع الاموال، ومستحقات الورثة، دون تجاوز منه إلى غير ذلك.

وإذا ما تركنا الوصايا الذاتية المتعلقة بشخص علي عليه السلام وشؤونه، فإن هناك أيضاً نوعاً من الوصايا الإدارية<sup>(3)</sup> والأخرى العسكرية<sup>(4)</sup> ، منها ما يعتمد علي عليه السلام إلى كتابته ومنها ما يرتجله في مناسبه على شكل نصائح وإرشادات يتوجه بها علي عليه السلام إلى قادة جيوشه وولائه على الأمصار في أثناء توديعهم للالتحاق بأعمالهم ومزاولة مهامهم، وأما كتابته إليهم في أثناء مزاولتهم لتلك المهام إذا ما

ص: 655

1- البقرة/ 180

2- راجع رسائل - 24-

3- راجع على سبيل المثال: رسائل 11 ، 12 ، 25 ، 76

4- راجع السابق

اقتضت الضرورة ذلك، وهذا النوع من الوصايا عادة ما يكون مبنياً على عناصر محددة تتجه مضامينها إلى اتجاهين متكاملين:

اولهما: يتعلق بشخص المتوجه إليه بالوصية كمسؤول يفترض فيه شروط معينة تؤهله للمهمة المناطة به.

وثانيهما: ويتعلق بأسلوب تعامله مع من انيطت به مهمة رعايته من جند ومواطنين.

ومثل هذا الجنس من الوصايا يتسم بالدقة والتحديد في عباراته بما ينادى بها عن التأويل، إذ يمكن للدارس ان يستخلص منا جوانب كثيرة من أساليب علي عليه السلام الادارية والسياسية والعسكرية والاجتماعية وما تنطوي عليه من قيم أخلاقية ومضامين انسانية، وفي كلتا حالتها الارتجال أو الكتابة فإنها تتميز بالإعداد الفكري المسبق (1).

## 5 - الحكمة

لقد عرضنا لفحوى حكم علي عليه السلام في موضع سابق من هذا البحث وتحدثنا هناك عن قيمتها ضمن النص الذي ترد فيه، وعن اشعاعاتها الفكرية إذا ما اجتزئت مشكلة معنى مستقلاً (2) مما يعني أن كثيراً من حكم علي عليه السلام قد وردت ضمن نصوص أما مسموعة كالخطب والوصايا التي يلقيها ارتجالاً، أو مكتوبة ضمن رسائله وعهوده ووصاياه التي يكتبها إلى عامة الناس لتقرأ عليهم أو

ص: 656

---

1- يمكن ملاحظة ذلك في وصيته بما يعمل في أمواله. رسائل 24، ووصيته على الصدقات. رسائل 25

2- راجع ص 589 وما بعدها من هذا البحث

لأشخاص معينين تكون المادة المكتوبة إليهم حصيلة فكرية يريد علي عليه السلام ابلاغها لهم لقربهم من نفسه أو لطلبهم ذلك منه كزاد فكري ينتفعون به.

وحكم علي عليه السلام سواء ما ورد الينا منها مكتوبا ضمن نصوص أو مرتجلا ضمن خطب هي خلاصة تفكيره المجسد لعمق تجربته والمعبر عن مدى خبرته الطويلة بالحياة والناس، لذلك فإنه لمن العسير جدا محاولة التفريق بين ما ورد مكتوبا وما ورد مسموعا من حيث البناء الفكري، والسياق المعنوي، لانطلاق كلا الحكمتين من معين واحد بأسلوب يكاد يكون واحدا من حيث التعابير والالفاظ، فالبعد الخطابي ضمن الخطبة، أو الكتابي ضمن الرسالة يكمن في طريقة الابلاغ في كلا الاتجاهين، مما يصبغه بالحماسة والتدفق في الخطابة، والتأمل والتفكير في أسلوب الكتابة، ولكن ذلك لا يغير من القيمة الفكرية لمضمون الحكمة، رغم اعتقادنا بأن ثمة فرقا دقيقا بين الحكمتين المسموعة والمكتوبة - لا يمكن ملاحظته الا بعد طول تأمل، وفي جانب معين، مع وضع المناسبة في الاعتبار كي يكون بالإمكان الإحساس بالفارق، على أساس ان حكمة علي عليه السلام عملية، إذ هي في صياغتها تريد من قارئها أو مستمعها النزوع من مرحلة القراءة أو السماع إلى مرحلة الفعل والتطبيق، مما يصبغها بالأمر الممزوج بالثورية ضمن سياقها الخطابي المسموع، فقوله «من أبدى صفحته للحق هلك»<sup>(1)</sup> ضمن خطبة له، بعد ان بايعه الناس في المدينة، وشعر ببوادر النكث، يجعل من الحق، كقيمة انسانية، موضع مجابهة وهلاك لمن يحاول تجاهله وانكاره، رغم وضوح سبيله، وطبيعة المناسبة هي التي اوحت بمعاني المواجهة للحق ضمن الحكمة المبلورة لفكر علي عليه السلام تجاه

ص: 657

الاحداث الدامية التي عاشتها المدينة جراء ما حدث بين عثمان من جهة وثار الأمصار من جهة أخرى، مما يعطي للحكمة مع استمراريتها كمقولة خالدة، بعدين اثنين: يتمثل الأول في الصراع على الحق بين عثمان والثار من ناحية، ويتمثل الثاني في تحميل الحكمة انذارا مبطنا لأولئك الذين يريدون نكث البيعة التي تمت له وبمباركتهم، تحت شعار الحق. مما صيغ المقولة بالثورية في كل اتجاهاتها بصوغها بلاغيا في كناية تعني شرائح انسانية، اضرب علي عليه السلام عن ذكرها لحساسية الموقف الذي تطلب منه ذلك، اما في قوله «من تعدى الحق ضاق عليه مذهبه»<sup>(1)</sup> والوارد ضمن وصيته المكتوبة لابنه الحسن عليه السلام، فيمثل وجهة نظر تأملية هادئة قوامها الالتزام بالحق وعدم التعدي عليه، فكلا الحكمتين تدعوان إلى التمسك بالحق كقيمة انسانية، ويكمن الاختلاف في كلتا المقولتين في طريقة التعامل لفهم الحق، فالصياغة التعبيرية في كلتا لحكمتين واحدة من حيث المبنى ولكنها مختلفة من حيث التعامل معه كقيمة ثابتة مهما تباينت الآراء واختلفت المواقف.

ان مضمون حكمة علي عليه السلام من العمق والانتساع بحيث يمكن معه عدّها دستور حياة متكامل الجوانب، معينه التجربة الصادقة، والفكر الحر، وزاده جل الفكر الإنساني الذي عاشه علي عليه السلام في حياته أما ممارسة أو تأملا واطلاعا، وقوامه الدين والاخلاق بكل ما يحويانه من معان وقيم، وبوتقته الإيجاز الواضح بلغة متينة واسلوب سهل، تنساب الحقيقة فيه صادقة وحارة.

فالمفردة اللغوية - في ادب علي عليه السلام - وان اختلفت توجهاتها، باختلاف استخداماتها ضمن السياقات الأدبية المختلفة المضامين، إلا أنها في كل الحالات

ص: 658

تبقى قوية موحية، تنم في رصفها عن ذوق أدبي رفيع وخبرة عميقة بدقائق اللغة، وتلك الميزات جعلت لأدب علي عليه السلام بجانب التزامه، خصائص أسلوبية يتميز بها وهي ما نطمح إلى دراسة أبرزها في الفصل التالي.

ص: 659



### إشارة

تشكل نصوص نهج البلاغة - في مجملها من حيث المضمون الفكري كلا متكاملًا ومتجانسًا إذ لا يبدو عليها من هذه الناحية ثمة تناقض أو تعارض، فهي تستقي من معين الإسلام الصافي كل توجهاتها الفكرية، وكل عناصرها الإنسانية. وكما لاحظنا في الفصل السابق، فقد صبغت موضوعاتها المتعددة الجوانب بأساليب أدبية مختلفة، تميزت بخصائص تناسبها من حيث الأداء والاستخدام اللغوي، إلا أن التراكيب التي صبغت بها تلك النصوص ظلت في جانب كبير منها، متسمة بطابع خاص، تجلت فيه شخصية مبدعها بأسلوبه الخاص المميز. وقد تمكنا من استخراج ما يمكن اعتباره على الأقل من وجهة نظرنا - من أبرز المميزات الأسلوبية التي تميزت بها نصوص نهج البلاغة بشكل عام، ونعرض لدراستها في التالي:

### أ - الجملة وخصائصها التركيبية

### إشارة

والجملة كوحدة أساسية في صياغة أفكار علي عليه السلام، تمتاز في أغلب الأحيان بالتركيز والاندماج، بحيث يتعذر النظر في فحواها على اعتبار تمام معناها



منفصلة عن سياقها الفكري، لأنها جزء من نسيجه المقوم لمضمونه، فهي بما تتضمنه من فكرة جزئية، بمثابة الخيط الدقيق الصادر من حزمة ضوئية محكمة الربط متكاملة البناء، مما يصعب معه فصلها ودراستها منفردة، إلا من ناحية نحوية، فعلى سبيل المثال، فإن خطبته المسماة بخطبة (الأشباح) وموضوعها: شكر الله ونفي الصفات عنه، تتكون من ستة عناصر أساسية ويحتوي كل عنصر من تلك العناصر على عناصر أخرى متكونة من جمل عدة، فلو قسمنا العنصر الأول من تلك الخطبة، والمتضمن وصف الله سبحانه، لوجدنا أنه يتكون من العناصر الجزئية الأربعة التالية:

1 - شكر الله سبحانه وذكر جميم عطائه.

2 - معنى وحدانيته.

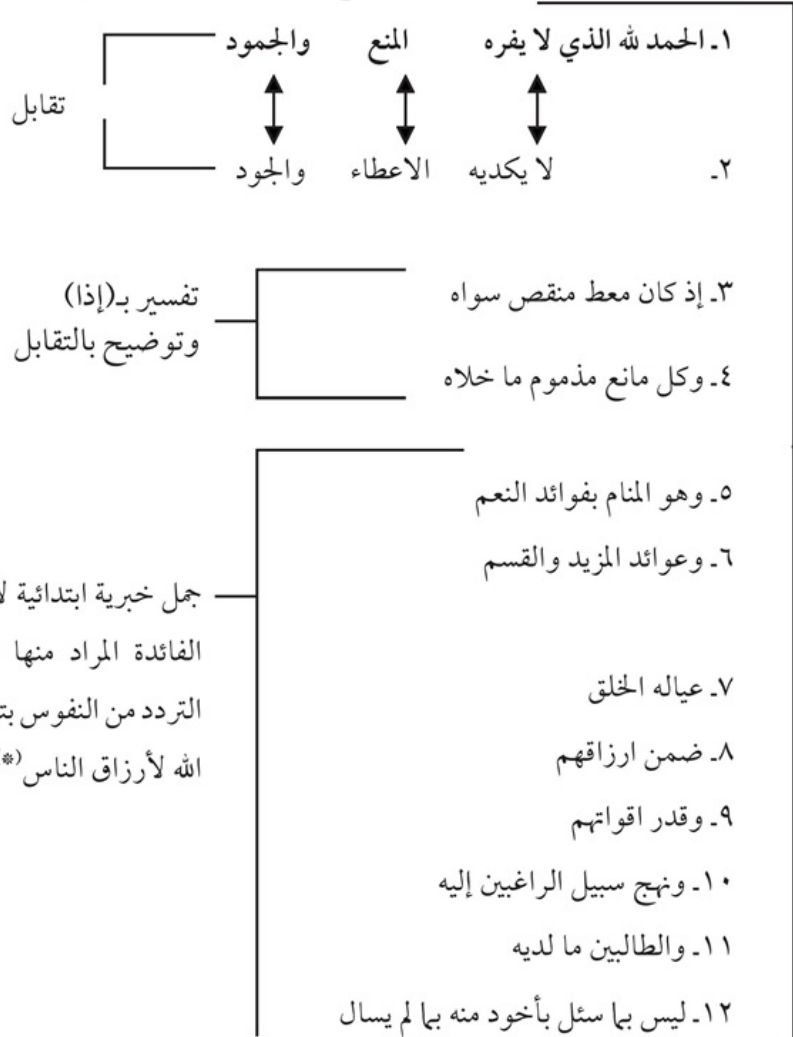
3 - نفي الصفات الزمانية والمكانية والجسدية عنه سبحانه.

4 - عدم احاطة العقل الإنساني بتصور قدرته التي لا نهاية لها في الملك والعطاء والمنح.

وان كل عنصر جزئي من العناصر السابقة يتكون أيضاً من وحدات صغرى هي الجمل التي وان كانت واحدة منها تؤدي معنى مفيداً، فهي بتمامها منفردة، لا تشكل تصوراً ذهنياً لمعنى العنصر المنسله منه، إلا إذا أدمجت فيه مع بقية الوحدات الصغرى في السياق. لا على أساس ارتباطها بغيرها بحروف العطف أو غير ذلك من ادوات ربط، ولكن لتواشج الجملة مع غيرها بالتتابع الفكري المتدرج لتوضيح المعنى الجزئي الذي مثلناه بالحزمة الضوئية ذات الخيوط المتجانسة والمرتبطة بالحزم الأخرى ارتباطاً عضوياً غايتها تسليط الضوء على جانب معين من جوانب النص، فالعنصر الجزئي الأول من النص السابق الذي

ص: 662

يتضمن فكرة شكر الله سبحانه لما أسبغ على عباده من نعم، مكون من اثنتي عشرة جملة، أو وحدة معنوية يمكن توضيح الترابط فيما بينها في التالي:



لعنصر  
الجزئي

(\*) خطب ٩٠، الفقرة ١. ولا يفقره (بكسر الفاء، وضم الراء): لا يزيده ما عنده

الخليل. والجمود: البخل الشديد. ولا يكديه: لا يفقره.  
ان الجمل في العنصر السابق قد تكاثفت لإبراز المعنى الجزئي بالتركيز على

التقابل والتفسير والتوضيح و الاخبار، مع اعتبار اختلاف أساليب التوصيل باختلاف طبيعة الموضوع، فالموضوع هنا في هذه الفكرة الجزئية، قد تميز بتتابع الجمل الخبرية، من دون اللجوء إلى التوكيد الا في النادر، ومن الضرب الابتدائي، لأن عليا عليه السلام يتحدث هنا عن بديهيات يؤمن بها ايماننا يقينا، كما ان من المفترض في المستمع إليه ان يكون مؤمنا بها، لذلك لم يكن في حاجة إلى استخدام أساليب التوكيد بقدر حاجته إلى استثارة انتباه مستمعه بأضرب من الأخبار الابتدائية المتمثلة في غلبة الجملة الاسمية لأنها اوفق لتثبيت الحقائق واصدار الأحكام لأنها غير مقيدة بزمن كالجمل الفعلية، ولكنه قد يعمد، وبنفس النسق الذي يبناه أو ما يقارب منه إلى التوكيد، والى التنقل بين الانشاء والخبر إذا ما تطلبت طبيعة الموضوع لمثل ذلك.

وقد يعمد علي عليه السلام من خلال العناصر الجزئية إلى ابراز المعنى أو ايضاح الفكرة التي يريد ابلاغها، بطريقتي الاجمال والتفصيل، فيكتنف الفكرة في جملة واحدة، ومن ثم يعود إلى تفصيلها واستقصاء دقائقها في جمل، من ذلك ما ورد ضمن وصيته لابنه الحسن:

(اجمال) <<< (تفصيل)

«يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ

فَأَحِبِّ لِعَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَأَكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا

وَلَا تُظْلِمَنَّ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ

ص: 664

«أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَنْبِجَ مِنْ نَفْسِكَ مَا نَسَّ تَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَأَرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»(1)

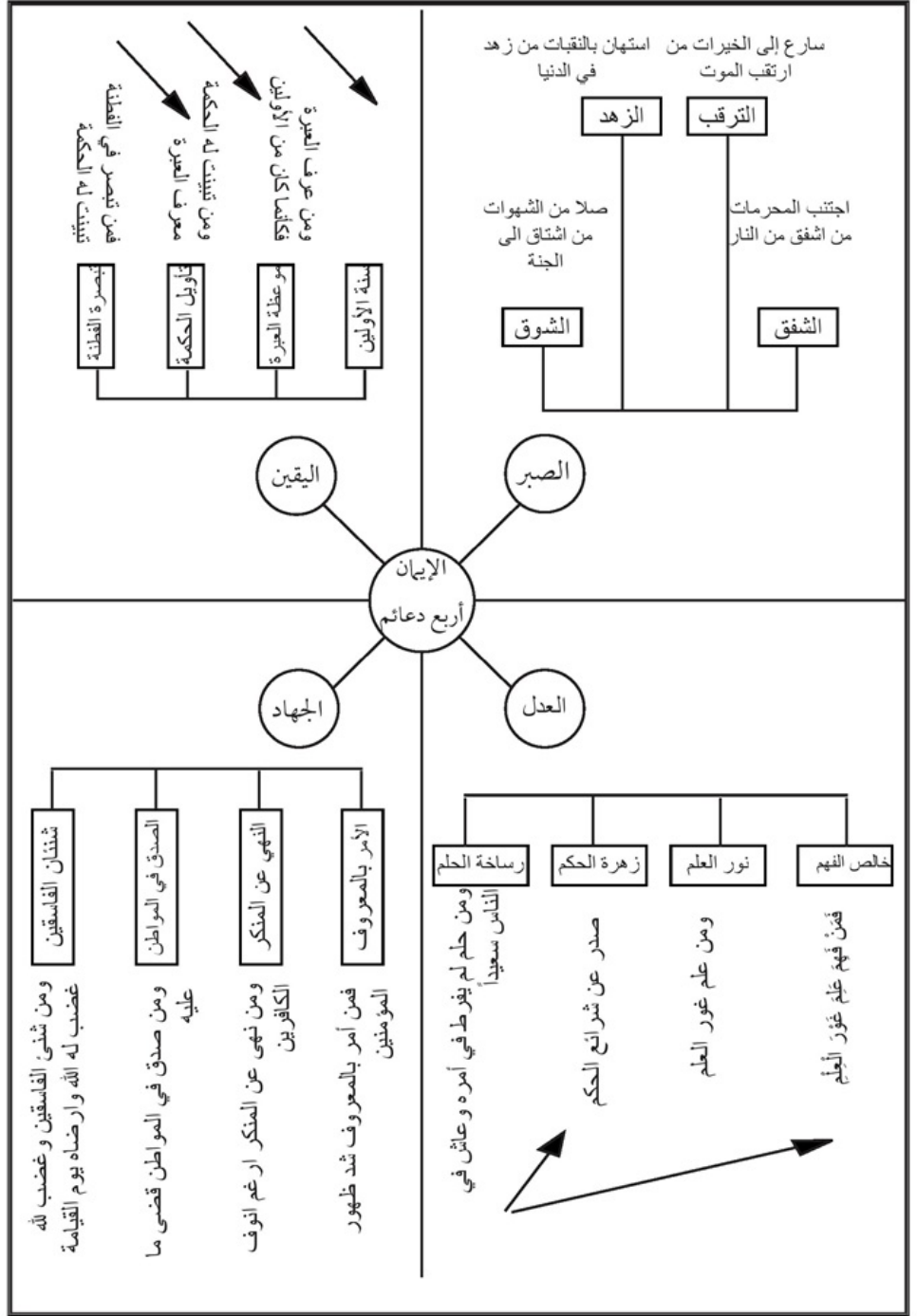
فقد طوى قوله «اجعل من نفسك ميزانا» في مطلع الفكرة، كل المعاني الأخلاقية التي وردت ضمن الفكرة، في جمل قصيرة ذات تعبيرين متقابلين، مثلهما في ذلك مثل كفتي الميزان في تعادلها.

وعنصر الاجمال والتفصيل ذاك من العناصر الأساسية التي يعول عليها أي مفكر أو معلم في ابلاغ وجهة نظره، وتوصيل افكاره، بنفيتها إلى اجزاء يسهل الإلمام بها وفهم مضامينها، فهو تجزئة غير محددة مما يعني ان أسلوب التقسيم بما ينطوي عليه من محدودية، هو في حقيقته رافد من روافد الإجمال والتفصيل.

### 1- خصائص التقسيم في النهج:

التقسيم هو تفصيل ما تنطوي عليه العبارة المجملة إلى اجزاء معدودة ومحددة في رقم يرد في صدر العبارة المجملة، ويراد به في الغالب التعليم، ولما كان الفكر في نهج البلاغة يعتمد في الأساس إلى التعليم والتبليغ، فقد تألق التقسيم في نصوصه، من ذلك ما ورد في وصف الإيمان، كما يتضح من التالي:

ص: 665



فالنص كما نلاحظ، قد بني على أربعة عناصر رئيسية وتضمن كل عنصر أربع وحدات جزئية، تركبت كل وحدة من أسلوب شرط تضمن سببا ونتيجة قائمة بذاتها، أو مرتبطة بالشرط التالي لها في سياق النص، مما اسبغ على الهيكل العام للنص ترابطا فكريا ومنطقيا فالتقسيم الرباعي من الدقة والاحكام بحيث صار مستقصيا لكل المعاني الجزئية التي اراد علي عليه السلام ابلاغها من خلاله.

وأسلوب التقسيم عند علي عليه السلام، لا يعتمد على تعداد المفردات للبلوغ بذلك غاية جمالية لأن الغاية البلاغية الجمالية، وان تجلت في روعة وبهاء، من خلال الاساليب، فإنها تأتي في مرتبة ثانية على اعتبار ان ما يرمي إليه علي عليه السلام، ابدأ، هو توصيل المعاني تامة بكل شحناتها التعبيرية، فإذا كان علي عليه السلام قد استطاع بعقليته الرياضية (1) - البلوغ بالتقسيم ضمن الجمل، الغاية في تقصي الافكار، وجمع شتاتها، فإنه أيضاً قد تمكن من البلوغ به الدقة من حيث اداء المعنى أيضاً كما في قوله «يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنين: صم ذوو اسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو ابصار، لا احرار صدق عند اللقاء ولا اخوان ثقة عند البلاء» (2). فقد كان بإمكانه ان يقول: منيت منكم بخمس، بدلا من قوله (بثلاث واثنين)، الا انه عدل عن ذلك، ليس لأمر بلاغي جمالي، ولكن - كما يتهيأ لنا من خلال فهمنا للنص - لغرض التوبيخ والتبكي، والتفريق

ص: 667

1- قد تحدثت كثير من المصادر عن عقلية علي عليه السلام الرياضية وسرعة بديهته في الاجابة على مسائل حسابية تتعلق بالتقسيم العادل وبالإرث. راجع على سبيل المثال: الكليني - فروع الكافي 427/7، سبط بن الجوزي تذكرة خواص الأمة ص 115 ضمن الخطبة المعروفة بالمنبرية، كما ذكر محمد تقي التستري في كتابه: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي اطاب ص 175، كثيرا من القضايا الرياضية التي أجاب علي عليه السلام عليها مشفعا ذلك بذكر المصادر والأسانيد

2- خطب - 96 - فقرة 3

بين المعاني الخَلقية والمعاني الخُلقية من خلال التقسيم، فالثلاث الأول تضمنت معان خلقية، والاثنتان تضمنتا صفتين خلقيتين، فالنظرة المتأملّة في المعاني ساعة انبثاقها قد اتاح لها خصوصية التقسيم بما يناسبها.

ومن أبرز خصائص أسلوب التقسيم في النهج، انه يمثل جانبا من الانسجام الفكري الذي تتسم به نصوصه بشكل عام، فبإمكان الدراس من خلال تتبعه لعناصر التقسيم ضمن نصوصها، ان يلم بجوانب عديدة من ذلك الفكر العلوي. فأسلوب التقسيم الساخر، في قوله ضمن كتاب له لشريح القاضي «... هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد ازعج للرحيل اشترى منه دارا...»

وتجمع هذه الدار حدود اربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي»(1). هو تعبير عن الجانب الزهدي في فكره، كما ان أسلوب التقسيم في الشاهدين اللذين سبقا شاهدنا هذا هو في الأول منهما تعبير عن مفهوم الإيمان وفي الثاني تعبير عن مفهوم حسن الطاعة والوفاء والصدق، بذكر المقابل. فالغاية الجمالية من التقسيم في أسلوب علي عليه السلام تنبثق عفوية في النصوص، لأن المعاني والافكار ضمن الجمل هي غاية علي عليه السلام السياسية.

## 2 - خصائص الاعتراض في النهج:

ننق جمل كتب النحو والبلاغة على تعريف الاعتراض بأنه «كلام في كلام لم يتمم معناه، ثم يعود إليه فيتممه»(2). وهناك ثمة فروق بين نظرة النحوي وبين

ص: 668

1- رسائل - 3- فقرة 3

2- ابن المعتز - البديع ص 59. ويمكن مراجعة تعريف الاعتراض ووضعه وقيّمته الجمالية عند كل من: ضياء الدين بن الأثير المثل السائر 40/3 . السلجماسي المنزح البديع ص 449 . نجم الدين بن الأثير جوهر الكنز ص 108

نظرة البلاغي إلى الاعتراض يمكن مراجعتها في مظانها (1)، على ان الذي يلفت النظر في وضع الاعتراض، اعتباره فرع من فروع علم البديع عند جل البلاغيين القدامى، واقتصار دراسة وضعه في الشعر باعتبار قيمته الجمالية (2)، الا اننا نعتقد ان القيمة الايحائية للاعتراض هي التي تمنحه القيمة الجمالية، لأن الغاية الجمالية في النصوص النثرية الملتزمة تأتي في مرتبة تالية لفحواها الفكري، مما يحدو بنا إلى عدّ الاعتراض، وان قلت نسبته، والتقسيم قبله، من خصائص كلام علي عليه السلام، لأن الجمل الاعتراضية ضمن سياقات نصوص النهج هي بمثابة الاشعاعات الكاشفة والمؤكدة لجوانب عديدة من فكر علي عليه السلام، فالاعتراض في قوله ضمن جواب علي رسالة من اخيه عقيل: «ولا تحسبن ابن ابيك/ ولو اسلمه الناس/ «متضرعا متخشعا» (3) قد أورده علي عليه السلام ضمن السياق ليحمله معاني الاصرار والثبات على المبدأ في كل الاحوال وتحت أية ظروف مما يتناسب تماما ونهجه الفكري، لذلك فإن الاعتراض ضمن كثير من النصوص لا يقتصر على مفردة أو جملة، إذ قد يستوعب من النص مساحة تقدر بجمل عدة، يحاول علي عليه السلام من خلال آدماجها في نسيج النص إلى ربط اجزاء الفكرة التي يتضمنها ذلك النص بغاية توضيح كل جوانبها، من غير اخلال ببنيتها الفنية، من ذلك ما ورد من اعتراض بين القسم وجوابه في قوله: «فو الله لو حننتم حنين الوله العجال/.../ «لكان قليلا فيما

ص: 669

1- راجع السابق

2- السابق

3- رسائل - 36 - فقرة 3



أرجو لكم من ثوابه»(1)، فقد ادرج بينهما سبع جمل متعاطفة، بغاية تأكيد القسم وتوضيح جوانب الفكرة الكامنة فيه، التي لا يمكن ادراكها الا من خلاله، وان كانت العبارة تامة من حيث البناء النحوي.

ومن ذلك أيضاً في مجال الربط بين الشرط وجوابه في قوله «هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته /.../ ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب»(2)، فقد ادرج بينهما عبارة مركبة من اربع جمل ضمنها ما في وسعه من معاني عجز الإنسان عن معرفة كنه الخالق ومدى قدرته، مما جعل تلك الجمل ملتحمة من حيث اداء المعنى التحاماً تاماً ومتجانساً بالنص على أساس توكيد معانيه وايضاح ما غمض منها، بمحاولة تبصير المستمع بمحدودية قدرته إزاء قدرة خالقه، هذا علاوة على الانسياب السهل والبسيط لتلك الجمل في نسيج النص، دون الشعور بأنها معترضة، الا بعد تأمل في السياق، لأن اندماجها في البناء الفكري يزيل عنها أية احساسات نفسية توحى بالانتقال الفجائي في أثناء القراءة أو السماع. فخاصية اندماج الجمل المتعاطفة في سياق الاعتراض من المميزات البارزة التي عول علي خطب - 83 عليه لتوضيح فكره واجلاء الغموض عنه، ويرجع ذلك لإحساسه الدقيق بقيمة الاعتراض في توجيه المعاني الوجهة التأثيرية المناسبة، الأمر الذي جعل له ثراء المعنوي في سياقاته المختلفة عنده. فقد يرد الاعتراض في سياق النص متضمناً معنى الشرط المقرون فحواه

ص: 670

- 
- 1- خطب - 52 - فقرة 2. الوله: جمع واله، كل انثى فقدت ولدها. والعجال: من الابل التي فقدت ولدها
  - 2- خطب - 9 - فقرة 2. ارتمت الاوهام: انطلقت في خيالاتها. ومنقطع الشيء: منتهاه. وردعها: ردها. والمهاوي: المهالك. والسدف: بضم السين وفتح الدال المهملة، جمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم

بالتهديد إذا لم ينقذ، كما في قوله لأهل الشورى، بعد ان زويت عنه الخلافة بمبايعة عثمان «والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين/ ما لم يكن فيها جور الا «علي خاصة/ التماسا لأجر ذلك وفضله»(1) فقد ورد الاعتراض (ما لم يكن...) ليربط قبول علي عليه السلام وتسليمه بشرط بقاء حقوق كافة المسلمين مصانة وفي مأمن من الجور والظلم، ولو كان ذلك على حساب هضم حقه الخاص كفرد، وسيبقى كافا يده ولسانه، ما بقيت تلك الحقوق مصانة.

كما قد يرد الاعتراض في سياقات نصوص النهج المختلفة متضمنا معنى الاستثناء والقصر، من ذلك «أيها الناس، اياكم وتعلم النجوم/ الا ما يهتدى به في بر أو بحر/ فإنها تدعو إلى الكهانة»(2)، فالاعتراض في (الا ما يهتدى به...) قد ورد في السياق مستثنى من علوم النجوم الغيبية المعتمدة على الكذب والشعبذة، لكونه علما له اصوله وقواعده الفكرية.

ويأتي الاعتراض ضمن نصوص النهج أيضاً تلافياً للبس قد يصيب الجملة التي يرد فيها وهو ما يطلق عليه بعض البلاغيين مصطلح الاحتراز والاحتباس(3)، من ذلك ما ورد في قول علي عليه السلام ضمن تقنيده لزعم عمرو بن العاص بأنه ذو دعاية «لقد قال باطلا، ونطق آثما، أما/ وشر القول الكذب/ انه ليقول فيكذب، ويعد فيختلف...»(4)، فقد جاء الاعتراض (شر القول الكذب) ليكشف عن القيمة الحقيقية للكذب كعنصر من عناصر الرذيلة التي

ص: 671

1- خطب - 73

2- خطب - 78 - فقرة 2

3- راجع - جواهر الكنز السابق ص 128

4- خطب - 83

تمجها النفس الشريفة لأنها تتلم الخلق، وتتقصص من مكانة الفرد، احترازا من عدّه دهاء وسياسة وحيلة يفتخر بها.

كما يورد علي عليه السلام أسلوب الاعتراض ضمن السياق محملا اياه معنى التعليل، من ذلك قوله في رسالة لعامله على البصرة عثمان بن حنيف «... ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيير الاطعمة/ ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشعب/ او ابيت مبطانا وحولي بطون غرثي»(1)، فبالإضافة إلى الدقة في إدماج أسلوب الاعتراض ضمن السياق التعميري، وتعذر ملاحظته إلا بتأمل دقيق، فإنه قد ورد في نسيج النص ليبين السبب الذي يحول بين علي عليه السلام وبين تخيره للأطعمة، وتمرغه في الملدات، مع قدرته على ذلك، وذاك بالطبع هو أسلوب تفكيره قولا وعملا.

وفي سياق تداعي الافكار، قد يعتمد علي عليه السلام إلى الاستدراك بالجملة الاعتراضية، مفصلا اياه على الاستدراك ب- (لكن) لما في ذلك من قيمة تأثيرية في مجرى الأسلوب، فضمن تناوله لموضوع التجار، واهميتهم بالنسبة للمجتمع، في عهده الذي كتبه للأشتر، وبعد ان اوصاه خيرا بهم، يقول له متابعا الكلام فيهم «واعلم/ مع ذلك/ ان في الكثير منهم، ضيقا فاحشا، وشحا قبيحا، واحتكاراً للمنافع»(2)، فقد استدرك بشه الجملة (مع ذلك) ما قبلها من كلام، حتى لا يأخذ الاشتر معاني مدح التجار على عواهنها فيترك لهم الحبل على غاربه.

فانبثاق الجملة الاعتراضية ضمن نسيج النهج ترد طواعية لحاجة ملحة يفرضها البناء الفكري، مما يسمها بالشراء من حيث علاقتها بالمعاني والاندماج

ص: 672

1- رسائل - 45 فقرة 2. والمبطن: المتختم، المملوء البطن. والغرثي: الجائعة الخالية من الطعام

2- رسائل - 53 - فقرة 24

التام في نسيج النصوص من حيث البناء الاسلوبي، المعتمد على خصوصيات التكامل، والترابط والتفاعل، فيما بين التعبيرات وتسلسلها الفكري في توصيل المعاني، مما يحدو بنا إلى النظر في كيفية استخدام علي عليه السلام لعمليتي الفصل والوصل الاسلوبيين.

### 3 - خصائص الفصل والوصل في أساليب نهج البلاغة:

يعد البلاغيون الفصل والوصل، أصل البلاغة (1) ويعرفونه بأنه «العلم بما ينبغي ان يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الاخرى (2)، أي انه سلوك المفكر والاديب للطريق الامثل في التعبير عن الأفكار ونشرها، مما يجعل لكل متفرد، سمات اسلوبية، فكما ان لكل انسان أسلوبه المميز في العيش والتعامل، فإن لكل متكلم طريقته الخاصة في التعبير عن آرائه ونمطاً معيناً يلتزمه في نظام تكوين الجملة وترابط اطرافها. وبناء عليه فإن لاندماج الجملة في سياق نصوص نهج البلاغة خصائصها التي تميزها، وتطبعها من حيث الفصل والوصل بطابع يدل في مجمله، على توحيد هندسة تنسيقها، لصدورها من مجرى نفسي واحد، ملتزم بنظام معين، يكاد يهيمن بإحكام متميز على جل جمل النهج وتعبيراته في بنية نصوصه، مهما بلغ طولها، لإحساس مبدعها في أثناء عملية الإبداع بمواضع تأثير العطف والقيمة النفسية والبلاغية للعدول عنه بالاستئناف، إذ يسعى علي عليه السلام

ص: 673

---

1- راجع: أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين ص 438 . عبد القاهر الجرجاني دلائل الاعجاز ص 170 ، العلوي - الطراز 2/ 32 وقد اجتزأنا التعريف من

كتاب عبد القاهر الجرجاني. الصفحة نفسها

2- راجع السابق

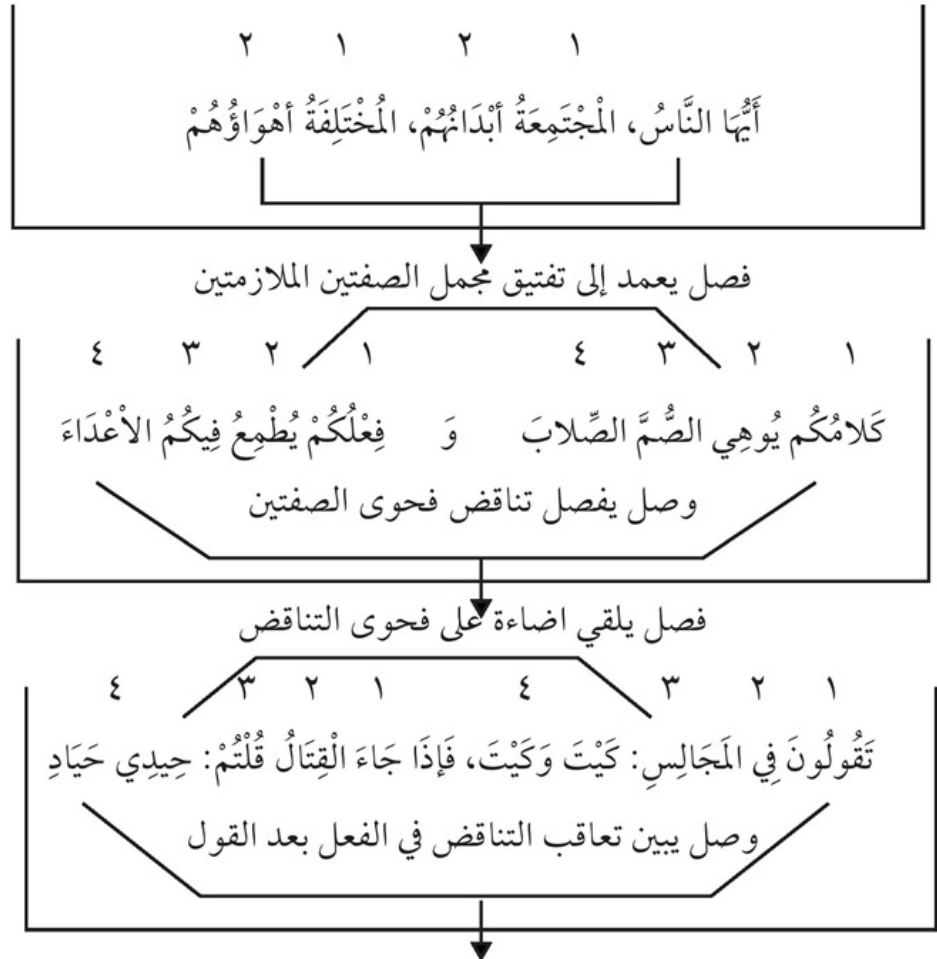
في بنائه للجمل إلى التناسق النسبي فيما بينها في أثناء أدائه للفكرة الجزئية التي عادة ما تكون - وفي كثير من الأحيان متميزة بالفصل، أي بالاستئناف، من دون الاعتماد على حرف عطف بينما تتواصل جمل تلك الفكرة الجزئية فيما بينها بحروف العطف مبلورة إياها، مثال ذلك قوله «شَجَلَ من الجنة والنار أمامه ساع سريع نجا، وطالب حثيث رجا، ومقصر في النار هوى اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب، وآثار النبوة، ومنها منقذ السنة، وإليها مصير العاقبة»<sup>(1)</sup>، فمن الملاحظ ان الفقرة قد تكونت من فرتين:

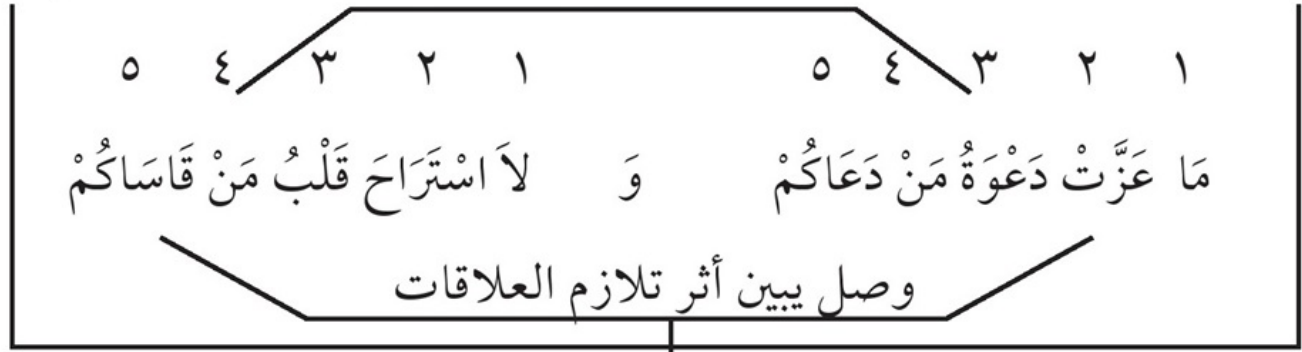
- الأولى: فحواها تصنيف الناس بحسب عملهم الذي يوصلهم إلى الجنة، وقد ساقها علي عليه السلام ضمن نسيج الخطبة دونما عطف أو حتى استئناف، ثم انه في بداية تفكيكها لتصنيف الناس من خلال جملها، جعل تلك الاصناف تنساب داخل الفكرة من دون أن يشعروا بالتقسيم لاعتماده على الاستيحاء المعنوي الكامن في فحوى الجملة الأم التي جاءت لتُجمل الأصناف من خلال مصيرهم بين جنة ونار، ثم تجزأت إلى الأصناف التي تحتم عليه ربط بعضها البعض بواف العطف، لاشتراك الثلاثة بالاشتغال، بغض النظر عن المصير، فالفصل قد استوعب مطلع الفكرة ثم صدر تجزئتها، كما ان الوصل قد ربط جملها المتساوية نسبيا المبينة لاختلاف المصير.

- الثانية: فحواها طريق النجاة، وهي فكرة متممة لما تضمنته سابقتها من تصنيف للناس، لأنها تبيان للطريق الذي يجب ان يعرفه أولئك الاصناف الثلاثة ليؤدي بسالكة إلى النجاة، وهي المتمثلة في قوله «اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة» ومن الملاحظ ان عليا عليه السلام لم يربطها بسابقتها بحرف

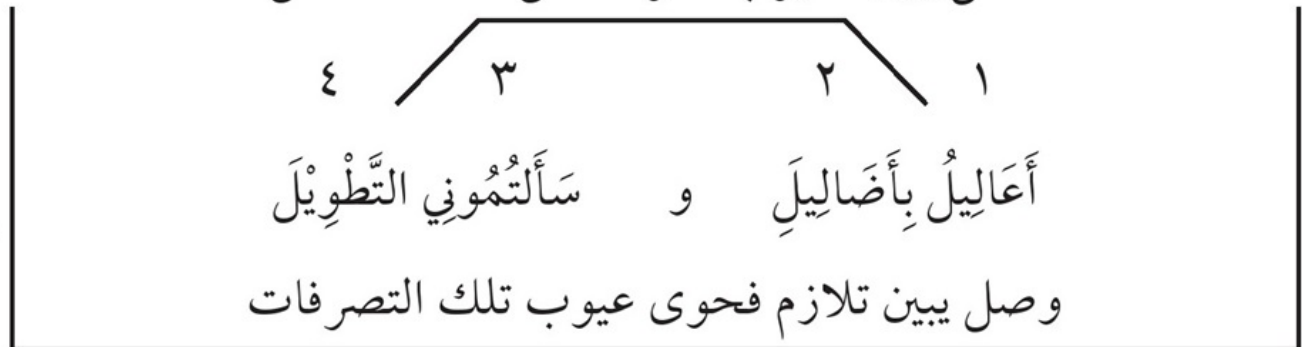
ص: 674

عطف، لأن استشعاره بدقة خصائص اللغة قد اتاح للفكرة الارتباط من خلال المجرى النفسي من دون اللجوء إلى استخدام الرابط اللغوي فالتصنيف الثلاثي في الفكرة الثانية مرتبط ومندمج - من حيث الغرض - مع تقسيم الفكرة الأولى مما جعلهما تتواشجان من دون الحاجة إلى رابط لغوي، إلا أن التصنيف داخل الفكرة الثانية قد ورد مفصلاً باستخدام الوصل، لأن الجمل الجزئية قد سلك بها علي عليه السلام طابع التفريق من حيث البناء الأسلوبي في مطلع الفكرة فيما بين طريقي الضلال، وطريق الهدى المتوسط بينهما المرتبط بالمعاني الكامنة في حروف الجر (عليها، منها، إليها) مما حتم الوصل. فلو اردنا تحليل تراكييب معظم نصوص نهج البلاغة بقصد تتبع الفصل والوصل فيها لرأينا أنها تتخذ الشكل التالي:





فصل بين العيوب المتولدة عن ذلك التناقض



(\*)

(\*) خطب ٢٩ - فقرة

فإذا ما أخذنا تنسيق الجمل ضمن النص السابق كمثال لما عليه تنسيقها في معظم النصوص الواردة في نهج البلاغة، فسنجد ان تلك النصوص تعتمد في هيكلتها الداخلية على دعائم ثلاث اساسية هي:

1- إن الأفكار الجزئية داخل تلك النصوص تترابط فيما بينها على الفصل في معظم الحالات، فلا يلجأ علي عليه السلام إلى الوصل باستخدام العطف في انتقاله من فكرة جزئية إلى فكرة جزئية أخرى الا في القليل النادر، إذ يعتمد في الربط بين الأفكار على العوامل النفسية كعنصر فعال في جذب الاسماع وتوجيه العقول، بقصد التأثير فيها. وتوصيل أكبر قدر من شحنات الإقناع إليها.

2 - التناسب في عدد الجمل ضمن الأفكار الجزئية المتفصلة في أغلب الأحيان، فكما نلاحظ في المخطط السابق أن كل فصل أسلوبى قد احتوى على جملتين متواصلتين، وقد تزيد الجمل في العناصر الفكرية المتفصلة، مع تساويها

في العدد ضمن تتابع تلك العناصر في معظم الاحيان.

3 - تناسب عدد كلمات الجمل المتواصلة فعطف الجمل على بعضها البعض ضمن الفكرة يمنحها خاصية التناسب في عدد المفردات.

وتكاد الخصائص الثلاث تلك تنجر على معظم ما ورد في النهج من خطب ونصوص أخرى تدرج في عداد الخطب، كالوصايا والأدعية وجانب كبير من رسائل الوعظ، الا ان هناك نصوصا قد تختلف في تناسق افكارها من حيث تناسب عدد الجمل، مع ابقاء خاصية تناسب عدد المفردات في الجمل المتعاطفة، بقدر يمكننا عدّها معلما أسلوبيا بارزا يدل على التوحد الاسلوبي في بنية نصوص نهج البلاغة بشكل عام، ويمكن ملاحظة تلك الخاصية، في كثير من فقرات العهود والرسائل التي تعتمد عادة إلى أسلوب تحليل الأفكار تحليلا فكريا يتطلب في كثير من المواضع فقرات طويلة، بجانب عبارات قصيرة، بسبب احتلال العاطفة مركزا ثانويا في مثل تلك النصوص، بينما يحتل العنصر النفسي مركزا رئيسيا في حفز الكلمة على التأثير في الخطب والوصايا، مما يتطلب التركيز في فحوى الجمل على التتابع السريع المؤثر، لتنتقل بشحناتها التأثيرية المتناسقة المتناغمة من اعماق الخطب مباشرة إلى أعماق قلب المستمع بمعان مؤثرة في كلتا حالتي الرضا والسخط والسرور والحزن. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال معرفة أكيدة بأساليب اللغة والتحكم في توجيهها الوجهة المناسبة وذلك ما نطمح إلى دراسته في التالي:

#### 4 - الإحكام في نوع الأساليب:

إن النظر في فحوى الجملة التأثيري ضمن سياق نهج البلاغة، ينطلق أساسا من تشكلها كأداة تعبير عما يصطرع بداخل علي عليه السلام من آمال وآلام، في أثناء

ص: 677



عدّها عن الفكرة الكامنة فيها بكل ملابساتها، أي انها في ذات الوقت الذي تكون فيه بوتقة لتشكيل الفكرة واخراجها إلى حيز الواقع في كلمات، فإنها أيضاً تتضمن تعبيرات دقيقة عما يكتنف تلك الفكرة من جوانب تعبيرية نفسية تتعلق بالأداء في مختلف اشكاله. فالجملة بانسيابها في النص لا تعني ابلاغ معنى، أو شرح موقف فقط، بل تحاول من خلال سياقها النفسي الذي عادة ما يكون ممتزجا بالسياق الاسلوبي، ان تعضد الابلاغ ببثها في عناصره فحات من الحرارة والصدق، متغلغلة في جزئيات التعابير بتؤدة وهدوء تارة، وبتدفق وحماس تارة ثانية، وبانفعال وتبرم وغضب تارة ثالثة، وفي كل المواقف تبقى العبارات صامدة وقوية وامينة في ادائها للمعاني، وتبليغها الافكار، بالتنقل بها حسب ترددات النفس بين أمر واستفهام، ونداء وتعجب، وإنكار واخبار، يمكن للسامع أو القارئ ان يدرك مراميها ويتفاعل معها. فقول علي عليه السلام «انما كنت جارا جاوركُم بدني اياما، وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة بعد حراك، وصامته بعد نطق، ليعظكم هدوئي، وخفوت إطراقي، وسكون أطرافي، فإنه اعظ للمعتبرين من النطق البليغ والقول المسموع، وداعي لكم وداع امرئ مرصد للتلاقي، غدا ترون ايامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي»<sup>(1)</sup>، يسري فيه الهدوء المفعم بالأسى، فالفكرة ضمن جمل النص لم ترد لمجرد اخبار عن معاناة، ولكنها أيضاً تشيع في نفس السامع والقارئ تلك المعاناة بتركيب الجمل في سياقات تتفق وترددات القائل في أثناء اندماجه في الموقف، فتداخل الزم من بين ماض في (انما كنت جارا جاوركُم بدني اياما) ومستقبل في (وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة) هو في حقيقته اخبار

ص: 678

---

1- خطب - 149 - فقرة 2. وخلا: خالية من الروح. والخفوت: السكون. والأطراف: الأيدي والرأس والأرجل. ومرصد: منتظر

عن لزوم الفائدة، بوصف الموت بكل ابعاده الزمنية والتركيز على ما يحويه من مضمون عملي مشاهد، قد يتعظ به المتأمل فيه وقد وردت جملة الأمر في (ليعظكم هدوئي...) بمثابة النقلة النفسية والتمكناً الفكري الذي يرمي المحتضر إليه، ليتسنى له من خلال ذلك الوصول بمستمعه، لما كان عليه وجوده من قيمة لن يعرف أهميتها معاشره ومخالفه، الا بعد فقدده ولات حين ندم.

أما الهدوء المناسب في «اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فاسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وابتلى بحمد من اعطاني، وافتنن بدم من منعني وانت من وراء ذلك كله، ولي الاعطاء والمنع، انك على كل شيء قدير»<sup>(1)</sup> هو تبتل فيه شموخ وكبرياء، وعزة نفس تأبى الخضوع وتصارع الخنوع الا للخالق سبحانه، وقد ورد أسلوب الأمر في نسيج الدعاء معبراً عن خضوع نفس مؤمنة بخالقها، ترى السعادة في فضل عطائه، والنأي بالنفس من التذلل لغيره، مما احال هدوء النص إلى ترنيمات اضفى عليها تمازج الانشاء بالخبر نفحات مطمئنة، سعيدة في احضان الرضا وفي كنف الإيمان الصادق الذي نحسه من خلال العبارات.

أما التعبير في «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل...»

أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة امري، ونخلت لكم مخزون رأي، لو كان يطاع لقصير أمر»<sup>(2)</sup>، بالإضافة إلى ما ينطوي عليه من لوم، فإنه مغلف

ص: 679

---

1- خطب - 222- . وصن وجهي: احفظه من التعرض للسؤال. واليسار: الغنى ولا تبذل جاهي: لا تسقط منزلتي من القلوب. الاقتار: الفقر  
2- خطب - 35- . الخطب الفادح: الأمر الشديد الثقيل. والحدث:- بفتح الحاء والبدال المهملتين. الحادث: ويقصد به هنا ما اصدره الحكمان من حكم في دوبة الجندل

بهدهوء مجلل بألم المؤمن الصابر في حالة الاخفاق فالعبارة وإن انطوت على شعور بالخيبة، الا ان بروز الجملة الدعائية في مطلعها، قد منحها بعدا إيحائيا ينطوي على معنى الصبر، واللوم بسبب العصيان في آن واحد الذي جسده جملة التمثيل (لو كان يطاع لقصير امر)، وقد أضفى عليها موقعها الإعتراضي بين جملتين خبريتين تلك المعاني المشبعة بالعتاب والتأسف لامتناع الكامن في لو المتصدرة جملة الاعتراض تلك.

أما قول علي عليه السلام في رده على أولئك الذين ناقشوه بشأن رفضه التحكيم في بداية الأمر، والتمسك به بعد توقيع المعاهدة والمتمثل في «هذا جزء من ترك العقدة، أما والله لو اني حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرا، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتمكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكنت الوثقى، ولكن بمن والى من، أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة؟، وهو يعلم أن ضلعها معها، اللهم قد ملت أطباء هذا الدوي، وكلت النزعة بأشطان الركي، اين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فاحكموه؟»<sup>(1)</sup>. فتتراوح جملة في تعبيراتها، بين السخط

ص: 680

---

1- خطب - 120 - . العقدة: ما حصل التعاقد عليه من محاربة الخارجين عند البيعة حتى يكون الظفر أو الهزيمة. والضلع: - بفتح الضاد المعجمة وتسكين اللام الميل والقول مأخوذ من المثل العربي «لا تنقش الشوكة بمثلها، فإن ضلعها معها» أي لا تستعن في حاجتك بمن هو للمطلوب منه الحاجة انصح منه لك. الميداني مجمع الامثال 182/3 . ونقش الشوكة: أخرجها من العضو الداخلة فيه. والدوي: المؤلم الشديد، والأصل الداء الدوي وقد أقام الوصف مقام الموصوف. وكلت: ضعفت. والنزعة: جمع نازع وهم الذين يغتفون من الآبار. والأشطان: جمع شطن وهو الجبل. والركي: مفردة ركية: البئر تحفر، وفسر محمد عبده العبارة «اي ضعفت قوة النازعين لمياه المعونة من آبار هذه الهمم الغائضة الغائرة» شرح النهج ص 229 ، ط، الاندلس

والغضب والاسى، فالأسف والندم على عدم النزوع إلى موقف حازم مستبد، قد ورد ضمن الاساليب الخبرية ضمن جمل الصدر، كما وردت الاساليب الانشائية في السياق مجسدة معاني الاسى والتعجب والإنكار الكامنة في أسلوب الاستفهام الذي حاول علي عليه السلام من خلاله تجسيد التناقض الفكري الذي يعيشه رجاله في مواقفهم من سياسته الدينية، ومن ثم التحول بمجرى الأسلوب إلى الاستغاثة والتبرم من واقع أولئك الذين يطرحهم المناقشة، ومحاوله الانفلات من ذلك الواقع ببث الأسلوب شوقه من خلال الاستفهام الذي يحمل معاني المقارنة بين ما يتوق إليه من رجاله، وبين ما يعتصر قلبه من الم سببه تماديهم في العناد والاصرار على الخطأ عن جهل. فسياق الجمل وان بدا عليه مظهر المناقشة بالأخذ والرد، الا انه ينطوي على معاناة لا متناهية، وصرخات مكبوتة ومشحونة بالغضب.

والتواشج بين الفكر وبث الحياة في التعبيرات، قد يصل إلى الذروة عند علي عليه السلام، بمزجه الاساليب الخبرية بالانشائية مزجا متلاحما، تكاد ومضات الفكر تتلاشى فيه تحت وقع الانفعال، الا ان تمكن علي عليه السلام من الاخذ بزمام الكلمة، بسلس من قيادها، فتبقى نابضة بالفكرة مع ما يكتنفها من انفعال حاد، كما في قوله موبخا أصحابه «ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم، القوم رجال أمثالكم، أقولا بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعا في غير حق» (1). فأساليب الاستفهام الثلاثة الأولى المتتالية في السياق، تعني استحالة تقويمهم واستعصاء هدايتهم، ثم قوله (القوم رجال امثالكم) تويخ وتنبه اكتسى صيغة الاستخبار بقصد الاستنهاض والتهوين من قيمة العدو، تلاه عوده إلى استفهامات ثلاث

ص: 681

انطوت على معاني الإنكار والتوبيخ، كل ذلك في سبيل بث الحمية في النفوس وارجاع الثقة إليها، فالفكرة وان غلب على تعبيراتها الانفعالات النفسية فإنها أيضاً تنطوي على تأملات داخلية في حنايا النفس تحث على معرفة الذات وتقييم المقام. فالفكرة يتسلل في عباراتها على شكل ومضات نفسية تحفز المستمع على التجاوب المتزن.

وحين اقترح عليه بعض أصحابه العمل بالمفاضلة في توزيع المال من أجل كسب الرجال للبلوغ بهم إلى النصر، رد عليهم قائلاً «أأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمَّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف» (1). فلقد كان في إمكان علي عليه السلام ان يعبر عن وجهة نظره الراضية بأسلوب مباشر، ولكنه ترك ذلك حين بث الاستفهام معاني التعجب والإنكار إزاء ذلك الاقتراح المنطوي على اجحاف بحقوق الفقراء والضعفاء من الناس، تلا ذلك بقسم مؤكد، بقصد توضيح موقفه الفكري الثابت الذي لا يحيد عنه ابداً تحت أية ظروف، ومهما كان حجم المغريات التي سيجنيها لو تزحزح عنه قليلاً، ثم ان أسلوبه الخبر والانشاء اللذان تليا القسم في السياق، قد ابانا نظرته الإنسانية إلى المال، بحيث يمكننا ملاحظة أساليب التعبير في الفكرة بتقلها من استفهام إلى قسم، ثم إلى أسلوب خبري فاستفهام فخبر مؤكد، كل ذلك بغاية تجسيد الأفكار وصيغ تعبيراتها بالقيم الروحية حتى تتقبلها الذات في صيغة مبدأ أخلاقي ثابت ومقنع ومؤثر.

وفي نقده المجتمع وكشف عيوبه يقول علي عليه السلام «اضرب بطرفك حيث شئت

ص: 682

---

1- خطب - 126 . ولا اطور به: أي لا أمر به ولا اقاربه. وما سمر سمير: مدى الدهر

من الناس، فهل تبصر الا فقيرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا، أو متمردا كأن بأدنه عن سماع المواعظ وقرا؟ اين خياركم وصلحواؤكم؟ واين المتورعون في مكاسبهم والتمتزهون في مذاهبهم؟ اليس قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة المنغصة؟ وهل خلفتم الا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان استصغارا لقدرهم»(1). فالملاحظ ان أساليب الانشاء، وبخاصة الاستفهام منها قد أخذت بتلايب الفكرة بأكملها إذ بدأت بأسلوب الأمر (اضرب) بغاية التنبيه والكشف، ومن ثم ورد الاستفهام بقصد فضح العيوب الاجتماعية، ولفت النفوس إلى خطر استفحالها، تلاه استفهام ثان ب- (أين) بقصد الاستبعاد، واستفهام ثالث ب- (ليس)، الغرض منه الحنين والتأسي واستفهام رابع يحمل معاني التحقير والذم، إذ يمكن للمتأمل ان يكشف ضمن الفكرة النقدية تلك معاني التأمل والنصح والحنين والتبرم، مما احال النقد ضمن النص إلى خلجات انسانية متنوعة الانفعالات متوحدة في صدورها من نبع فكري واحد غايته الإنسان وسعادته.

فبالنظر في فحوى نصوص نهج البلاغة، لن نعدم في كل نص منها نبضات روحية ممتزجة بالفكر، مضافية عليه الحيوية والتدفق، لأن كل تلك النصوص تحمل فكرة واحدة ثابتة محورها الإنسان وعلاقته بربه، وتفاعله في مجتمعه، وما ينطوي عليه ذلك التفاعل من حقوق وواجبات في ظل مجتمع آمن، فالفكرة بتنقلها في أساليب اللغة المختلفة ضمن نسيج النصوص، هي تعبير عن حال الإنسان في كل مراحلها الحياتية، وعن علاقاته بمن حوله من حيث الأخذ والعطاء، فالذاتية التي صبغت كثيراً

ص: 683

من نصوص النهج، بتعبيرها عن آلام قائلها وقلقه وتبرمه وغضبه، ورضاه وسروره، ليست الا تعبيرات موضوعية، غايتها الإنسان وهذه التعبيرات إذا ما نظرنا إلى فحواها الفكري مقرونا بالعوامل النفسية ضمن مناسباتها سنجد انها في مجملها تشكل عنصرا من عناصر توحيد بنية النهج، كنص صادر عن أسلوب فكري واحد في مجرى نفسي واحد.

## ب - الأحوال والجمل الحالية وخصائصها في نصوص النهج

تكاد كتب البلاغة العربية تقتصر إلى تعريف بلاغي للحال، كما ان التعريف النحوي لا يفي بالعرض في مجال دراستنا، لكونه توظيفا للوضع التركيبي، ولكن بالإمكان استعارة التعريف الصوفي القائل بأن الحال «تركيب طبيعي معين فعال، هو باطن في مقابل القول»<sup>(1)</sup>. إذ يمكننا تعريفه ادبيا على انه تصوير لانفعالات داخلية، يمكن للأديب الفذ تجسيدها بالكلمة، ولما كانت جل نصوص نهج البلاغة تعالج جوانب انسانية مختلفة لقد منحت الأحوال والجمل الحالية سياقاتها ابعادا تأثيرية عميقة، مما اتاح لها ان تتبوأ مكانة بارزة في تلك النصوص، وفي باب الخطب والمواعظ خاصة، فقد تمكنا من احصاء ما يقارب من مئة واحد عشر حالا وجملة حالية في ستة وثلاثين نصا من باب الخطب<sup>(2)</sup>، وقد حوى احد هذه النصوص وهو طويل نسبيا ما يقارب من

ص: 684

### 1- المعجم الصوفي - 334

2- راجع - 1- فقرة: 2، 5، 6، 7، 8. وخطب - 2- فقرة 1 وخطب 3 فقرة 1، 2، 3، وخطب 13، وخطب 18، وخطب 21، وخطب 22 فقرة 3، وخطب 23 فقرة 3، وخطب 25 فقرة 1، وخطب 26 فقرة 1، وخطب 33 فقرة 2، 3، وخطب 34 فقرة 1، وخطب 36، وخطب 37، وخطب 39، وخطب 40، وخطب 41، وخطب 42، وخطب 43، فقرة 1، وخطب 45، وخطب 47، وخطب 48 فقرة 1، وخطب 50، وخطب 51، وخطب 52 فقرة 1، 4، وخطب 55، وخطب 63، وخطب 65، وخطب 69، وخطب 74، وخطب 77، وخطب 82 فقرة 1، 4، 5، 7، 8، 10، 12، وخطب 83، وخطب 85 فقرة 2، وخطب 86 فقرة 1، 3، 5، وخطب 88

اربعة واربعين حالا وجملة حالية (1) ، ونعتقد ان النزوع لأساليب الحال بمثل هذه الكثرة يتناسب وموضوعات الخطب التي تعبر بجانب مضامينها الفكرية - عن حالات نفسية مختلفة من خوف وسرور وتردد وحزن ونكوص وتكبر وتواضع وهلع. ففي قول علي عليه السلام «عباد الله، الان فاعلموا، واللسن مطلقة، والابدان صحيحة، والاعضاء لدنة، والمنقلب فسيح، والمجال عريض» (2) خمس جمل حالية، معطوفة على بعضها البعض بالواو، مما يعني المشاركة فيما بينها في معنى الامكان وانتهاز الفرصة للعمل، وقد عمد الوعظ فيها على الإيحاءات النفسية الكامنة في تلك الآنية، التي قد لا يتمكن الإنسان من انتهازها حالة فواتها، فطلاقة اللسان، وصحة الأبدان، ولدانة الأعضاء، وسنوح الفرصة كلها حالات مرتبطة بحياة الإنسان الدنيوية المقتترنة بزمن معين ومحدد، مما يقتضي العمل الكامن في علاقة الإنسان بربه من ناحية، وعلاقته بالآخرين من حوله من ناحية اخرى. والعلاقات تلك قبل ان يمارسها الإنسان ممارسة عملية هي في حقيقتها مستكنة في ذاته، تابعة منها، وذلك ما تتمخض به الجمل الحالية من معان في تتابعها.

ص: 685

---

1- راجع الخطبة 82 ويمكنك استخراج أكثر مما استخرجنا منها من جمل حالية

2- خطب - 190 - فقرة 2



وقد يعد النحويون أن الأحوال مؤكدة في قول علي عليه السلام «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا، وأجر في الاغلال مصعدا، احب الي من ان القي الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويوم القيامة ظالما لبعض العباد»<sup>(1)</sup>، لأنها تنطوي على معاني الالتزام، ولكن تأثيرها في سياق العبارة لا ينبع من توكيدها بقدر ما تنطوي عليه من شحنات نفسية متدفقة من اعماقه لتجسد صراعه مع الذات في سبيل المبدأ، فانسياب الاحوال والجمل الحالية في نهج البلاغة كمظهر عام من مظاهر اساليبه يعني ضمنا انتشار العناصر النفسية في جانب كبير من تلك النصوص الموجهة فكريا للوعظ والإرشاد والاستنهاض ومقاومة الظلم، والحض على الخضوع لله وحده من دون غيره من المخلوقات، لذلك كثرت الاحوال في الخطب، وقلت في باب الرسائل والعهود بسبب غلبة الجانب العقلي على معظم أساليبها.

## ج- أسلوب الشرط وخصائصه في النهج

### إشارة

من مميزات نهج البلاغة الاسلوبية أيضاً شيوع الأساليب الشرطية في نصوصه بكثرة فقد ورد أسلوب الشرط في مئة وستة وأربعين نصاً من مجموع مئتين وأربعة وأربعين في باب الخطب، كما ورد في تسعة وأربعين نصاً من جملة تسعة وسبعين نصاً في باب الرسائل والعهود، وفي باب الحكم والكلمات القصار ورد الشرط في مئة واثنين وعشرين نصاً من جملة اربعمئة وتسعة وثمانين نصاً، وبلغ اجمالي الاساليب الشرطية في نسيج نصوص النهج تسعمائة وثلاثة وثلاثين جملة تقريباً، موزعة بحسب ادواتها كما هو مبين في الجدول التالي:

ص: 686

---

1- خطب - 221 . وحسك السعدان: شوك السعدان، والسعدان: نبت ترعاه الابل له شوك. والمسهد - السهران

الحكم	الرسائل	الخطب	النصوص
			الشرط
٧٥	٨٦	١٣٨	ان
١٢٥	٢٨	١١٤	منْ
٩٩	٣٧	٧٣	إذا
١٤	١٣	٥١	لَوْ
٧	٣	١٦	مَا
-	٤	٥	لَوْلَا
١	٧	٨	الأمر
-	١	٧	إضمار
-	-	٣	لما
٢	-	١	كُلَّمَا
-	-	٢	حيثما
-	٤	-	لا
-	١	٣	لن
٢	١	١	متى
-	١	-	مهما

وهذا الكم الكبير من أساليب الشرط التي وردت ضمن نسيج النهج لعب دورا أساسيا في أحكام نسيجه البلاغي، وفي قوة تعبيراته وعمقها الإبلاغي، فالشرط ضمن سياق المقولة «خالطوا الناس مخالطة، ان متم معها بكوا عليكم، وان عشتم حنوا اليكم»<sup>(1)</sup> لم يعد لمجرد الربط بين سببين ونتيجتين، بل ورد في السياق مفتقا فيه كل المعاني الإنسانية المفعمة بالحب في كل المراحل الحياتية الكامنة في الحنين إلى كل خير، وما بعد الموت الكامنة في الذكرى الطيبة التي تتأسى الإنسانية لفقدائها وتأسف، فالغاية الإبلاغية من خلال الذكرى والحنين،

ص: 687

قد تجسدت في الصياغة البلاغية المبنية على المقابلة بين قيمة الإنسان الخير في حياته وبعد مماته، مما يعني خلود معاني الحب في كل الأحوال.

والمعرفة الحقيقية لقيمة الخير والحب، لا يمكن إدراكها بجلاء، إلا من خلال التمعن في مناقضها أو مقابلها، وهو ما يرمي علي عليه السلام إليه في أسلوب الشرط المضمن قوله «لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تستمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه»<sup>(1)</sup> فالتقابل بين جزئي أساليب الشرط في العبارة هو توضيح بالتأمل في حقيقة المعرفة التي يريد علي عليه السلام تبصير أصحابه بها، وقد ورد الشرط في السياق موضحا إياها في عبارات تأملية مبنية على الفكر التعليمي الآخذ بنظرية التقابلي كشف الحقائق وتوصيل المعلومات، إذ أن وصف خصائص اللون الأبيض، لا يمكن أن يدركها المتعلم إدراكا حسيًا، إلا بمقابلتها بخصائص اللون الأسود المقابل لها، فالشرط من الأساليب الأساسية التي اعتمدت عليها نصوص النهج في توصيل الأفكار، وقد تميز في سياقاتها المختلفة بخصائص أربع، إثنان تتعلقان بالمعنى، وإثنان تتعلقان بالشكل:

## 1 - التقابل:

كثيرا ما يورد علي عليه السلام أسلوب الشرط مبنيا على التقابل الذي يرمي من ورائه إلى التعليم وكشف الحقيقة التي هو بصدده التحدث فيها، ويرد التقابل في جملة الشرط ضمن نصوص النهج على نمطين:

الأول: التقابل في أسلوب شرطي واحد، بين الشرط وجوابه، كما جاء في

ص: 688

وصف الدنيا «ان جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر جانب فأوى»(1)، فقد ورد التقابل في العبارة بين (اعذوذب واحلولى) في الشرط، وبين (أمر جانب فأوى) في الجواب. وعادة ما ترد مثل هذه المقابلات في أسلوب الشرط الواحد في النهج، لغرض توضيح الوجهين الحقيقيين للشيء الواحد، فالدنيا التي عرض لها النص، لها وجه جميل قد يسعد الإنسان به ولكن لا يد ان يعرف أيضاً ان للدنيا وجهاً آخر قبيحاً، ينطوي على الشقاء والبؤس والعذاب وبمعرفة الإنسان للوجهين يدرك حقيقتها التي تمكنه من التأقلم مع كلا وجهيهما.

الثاني: التقابل بين جملتين شرطيتين متعاطفتين في سياق واحد، من ذلك ما جاء ضمن رسالة علي عليه السلام إلى أهل الكوفة يستحثهم على القدوم إليه عند مسيره إلى البصرة «واني اذكر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر الي، فإن كنت محسنا اعانني، وان كنت مسيئاً استعتبني»(2) فقد قابل بين جملتي الشرط بغرض الموازنة العقلية بين مسلكين من دون اللجوء إلى تحكيم العاطفة والجري وراء الهوى، مما يعني تضمن كل شرط قائم بذاته حكماً مقابلاً وهي خصيصة تكاد تكون شائعة في جل جمل الشرط المتعاقبة الواردة في نصوص النهج.

## 2 - توظيف أساليب الشرط في النصوص

للتعبير عن خلجات النفس الإنسانية المختلفة من أسى وغيظ، كما في قوله ضمن تفريره لأهل الكوفة «ماهي الا الكوفة، اقبضها وابسطها ان لم تكوني الا

ص: 689

1- خطب - 110 فقرة 1. وأوى: صار كثير الوباء

2- رسائل - 57 - . واستعتبني: طلب مني العتبي أي الرضا أي أن أرضيه بالخروج عن طاعتي

أنت - تهب أعاصيرك، فقبحك الله»<sup>(1)</sup>، فأسلوب الشرط (إن لم تكوني...) قد عبر عن حالة انفعالية غاضبة مشحونة بالأسى.

وهدوء مشوب بالحزن ضمن التنبؤات المستقبلية، كما في قوله ضمن اشادته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام «فإذا انتم النتم له رقابكم، واشترتم إليه بأصابعكم، جاءه الموت فذهب به»<sup>(2)</sup>، مما يعني ان الاستجابة للقائد، واتحاد الكلمة تحت امرته ستأتي متأخرة وبعد فوات الاوان، وهو ما يحز في النفس ويجلب الحزن، وقد تضمن أسلوب الشرط (فإذا انتم...) ذينك البعدين المعنوي والنفسي.

وقد يورد علي عليه السلام أسلوب الشرط في السياق للشرح والتوضيح، كما في قوله المتعلق بالعمال ومراقبتهم ضمن عهده للأشتر «ان احد منهم بسط يده إلى خيانة - اجتمعت به عليه عندك اخبار عيونك - اكتفيت بذلك شاهدا»<sup>(3)</sup>، فأسلوب الشرط (ان احد...) ورد في السياق متضمنا الأسباب التي على اساسها يوقع الوالي بعماله الاداريين العقاب، وقد وردت الجملة الاعتراضية (اجتمعت...) ملتحمة تمام بالسياق الشرطي، خدمة للمعنى وتوضيح كل جوانبه.

تلك إذا الميزتان المعنويتان لأسلوب الشرط في النهج، اما الميزتان الغالبتان على شكل اساليبه الشرطية فهما:

1 - التساوي في عدد مفردات الاساليب الشرطية المتعاقبة: فالكثير من أساليب الشرط الواردة في سياقات نصوص النهج متوالية، تتخذ طابع تساوي الكم التعبيري، من ذلك ما جاء في رسالة علي عليه السلام لعامله على البصرة، عثمان بن

ص: 690

1- خطب - 25

2- خطب - 99

3- رسائل - 53 فقرة 21

حنيف «لو تظاهرت العرب على قتالي، لما وليت عنها، ولو امكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها»(1)، فلقد وردت الفاظ الجملتين الشرطيتين متساوية من حيث العدد باحتساب الضمير العائد على العرب في (رقابها) في الجملة الشرطية الثانية. ومن ذلك أيضاً قوله في ذم الدنيا «من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لجك غرق، ومن أزرر عن حباتك وفق»(2).

2- تقديم الجواب على شرطه: وهي من الظواهر التي تتكرر كثيراً في الاساليب الشرطية الواردة ضمن سياقات نصوص النهج، بغرض إبراز الأهمية الفكرية، هذا بالإضافة إلى القيمة التأثيرية التي يروجها علي عليه السلام من وراء نزوعه لذلك، كما في قوله مقدماً الفرع على الاصل، أو المهم على الأهم «لا قرية بالنوافل، إذا أضرت بالفرائض»(3) فقد قام جواب الشرط المتضمن النوافل أو الزوائد على الشرط المتضمن الفرائض والمقرون ب (إذا) بغرض التهوين من قيمة مباشرة الإنسان الأعمال الفرعية على حساب أعماله الحياتية الأساسية. وكما في قوله ضمن التعبير عن ضيقه من مواقف أصحابه تجاه امرته «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت»(4)، فقد قدم جوابي الشرط (لا يطيع ولا يجيب) على شرطيهما لبيان من خلالهما أن السبب في إخفاق سياسته وتآلب الخارجين عليه، يرجع إلى عيب في المحيطين به من رجال عُرس في نفوسهم العصيان والتمرد. كما وأن الفعل (منيت) قد بث في السياق معاني التبرم والضيق، مما زاوج بين إبراز الفكرة وما يكتنفها من

ص: 691

1- رسائل - 45 - فقرة 3، 4

2- المصدر السابق نفسه

3- حكم - 49

4- خطب - 39

وقد يستغني علي عليه السلام - في القليل من اساليبه الشرطية عن ذكره الجواب، اعتمادا على فطنة السامع في استخلاصه كما في قوله لكميل بن زياد «ان هاهنا لعلما، لو اصبحت له حملة»<sup>(1)</sup>، فقد استغنى عن ذكر جواب (لو) اعتمادا على السياق.

فأساليب الشرط بما تتضمنه من ثرائين بلاغي وإبلاغي، يمكن عدّهما من الخصائص الأسلوبية الدالة على التوحد في بنية نهج البلاغة كنص فكري متكامل في صدوره من مجرى أسلوب واحد.

#### د - التضمين في النهج وخصائصه

التضمين هو استنجد بمقولات معروفة لدى السامعين، مقبولة عندهم لبلاغتها وجمالها، أو لشيوعها فيهم، فهو بالتالي وسيلة للإقناع والتأثير، لذلك عول علي عليه السلام عليه في كثير من مأثوراته، ولكن بقدر الحاجة إليه كعنصر ذي أهمية في تفتيق المعاني ومنحها ابعادها التأثيرية أو التوضيحية. وقد أتاحت ثقافته الواسعة لتضميناته التنوع فأخذ الشعر بنصيبه الوافر منها، وتبوأ القرآن الكريم مكانة الصدارة، كما حظي المثل العربي بنصيبه ايضا.

وقد تميز التضمين، بكل انواعه، في مواضعه التي ورد فيها بميزتين:

الأولى: الانسجام التام مع نسيج النص، بحيث لا يشعر السامع أو القارئ بأي اقحام أو أي تكلف في انسيابه ضمن السياق العام، سواء كان ذلك التضمين شعرا، كما في قوله لأصحابه ضمن سياق التمني «لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم (وافر):

ص: 692

هنالك لو دعوت أذاك \* منهم فوارس مثل أرمية الحميم»(1)

فالييت ملتحم تماما بسياقه التعبيري، منسجم مع معاني التمني، متمم لها.

أو كان مثلاً عربياً مشهوراً، كما في قوله متهمكاً من معاوية «أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله وتأييده إياه بمن من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر»(2). فالمثل العربي «كناقل التمر إلى هجر». باندماحه التام في السياق جاء بمثابة تفتيق واضاءة لمعاني الاستغراب والتهمك من معاوية لأخباره إياه - وهو ربيب الرسول - بمآثره صلى الله عليه وآله في نشر الدين ومكانهم منه.

ويبلغ التضمين بأي الذكر الحكيم ذروته في الأحكام والسلاسة وأداء المعنى، كما في قوله بشأن موقفه من الخارجين عليه من الأمويين وأشياعهم من أهل الشام «فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى، أحملهم من الحق على محضه، وأن تكن الأخرى «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَبًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»(3)، فقد أحكم علي عليه السلام تلاحم الآية الكريمة في السياق فأنت

ص: 693

1- خطب 25 - فقرة 2. وبنو فراس بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حي مشهور بالشجاعة. راجع تاريخهم عند ابن أبي الحديد في شرحه للنهج 1/ 341 وما بعدها، والبيت لأبي جندب الهذلي، ورد ضمن ترجمته في الاغاني 21 / 247 وما بعدها. وارمية: جمع رمي وهو السحاب، والحميم في البيت، وقت الصيف، وانما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه اشد اسراعاً وارتحالاً

2- رسائل - 28 فقرة 1

3- خطب - 163 - فقرة 2. والآية من سورة فاطر / 8



مندمجة فيه، ومكملة لفحوى أسلوب الشرط وما يرمي له من معاني التسليم بقضاء الله وقدره دون اسف أو ندم في حالة الاخفاق، شريطة التفاني في العمل والثبات على المبدأ حتى النهاية مهما كانت العاقبة.

الثانية: الثراء والتنوع في معاني التضمين: إذ لم يقتصر التضمين في نصوص نهج البلاغة على نواحي الاستشهاد وتعزيد المقولات الصادرة عن علي عليه السلام لتوكيد صحتها، أو اجلاء الغموض عنها، بل ورد في سياقات ذات الأغراض المختلفة حاملاً في طياته معاني متنوعة، تدل على مقدرة فائقة على تطويع العبارات المضمّنة، للاستجابة لما يراد منها من معان وإيحاءات بادماجها بدقة متناهية في نسيج الفكرة، ممّا يتيح لها التعبير عن كل الأبعاد المعنوية والتأثيرية ضمنها، فتستحيل إلى تعبير ذي بعدين:

الأول: البعد الحقيقي لعبارة التضمين والكامن في معناها الذي وضعت له أصلاً.

الثانية: بعدها الجديد المتولد في دمجها في سياق جديد يتناسب وما تحمله من معان وتأثيرات.

ويمكن ملاحظة ذلك البعدين لمعنى التضمين في قول علي عليه السلام للخوارج بعد إعلان النتيجة التي تمخض عنها التحكيم «قد أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأبي (و كان يطاع لقصير أمر) فأبئتم علي اباة المخالفين الجفأة...» (1). فقد ورد المثل العربي (لو كان يطاع لقصير امر) ضمن

ص: 694

---

1- خطب - 35 - فقرة 2. واصل المثل «لا يطاع لقصير امر» الميداني - مجمع الامثال 198/3. وراجع قصة المثل عند الميداني أيضاً في: 1/ 413 وما بعدها. فيما جاء حول المثل «خطب يسير في خطب كبير»

نسيج النص حاملاً لمعناه الأصلي كمثال قديم مخصوص بحادثة معروفة تقال لمن لا يمثل لنصح الناصح المجرب فيخفق، وبالإضافة إلى ذلك المعنى الأصلي فقد حمل في طياته - ضمن السياق الذي أورده فيه علي عليه السلام - معاني العتاب واللوم المقرونة بالحزن والأسى، وقد أضيفت تلك المعاني إلى المعنى الأصلي لصالحته لذلك، ومقدرة علي عليه السلام الفائقة على استغلال تلك الصلاحية يادماج المثل في الموضوع المناسب له. فتفاعل علي عليه السلام مع أساليب اللغة، وإحساسه في توجيه تعبيراتها جعل التضمين في النصوص المأثورة عنه يستجيب لكل غرض بلاغي يرمي إلى التعبير به عن فكره، فمن اغراض التضمين التي اثرت عنه:

### - أغراض التضمين في مأثورات علي عليه السلام:

التمثيل والتصوير: كما في قوله ضمن توبيخ أصحابه على تقاعسهم عن القيام بواجب الجهاد «...فجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأدبر ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ»<sup>(1)</sup>، فقد وردت الآية الكريمة ضمن السياق لتضفي على التشبيه فيه ابعادا مأساوية مؤلمة محزنة.

تبيان الحال: كما في قوله ضمن تصوره لصفات الملائكة «لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به، بل عباد

ص: 695

---

1- خطب - 39 - فقرة 1. والجرجرة: صوت يصدره البعير من حنجرتة تعبيراً عن الألم أو احتجاجاً عند عسفه. والجمل الأسر: المصاب بداء السريرة، وهو وجع يأخذ البعير في مؤخوة كركرتة من دبره، أو قرح يكاد ينقب جوفه، والنضو المهزول من الأبل، والأدبر المصاب بالدبرة، قروح أو جروح في ظهر الجمل وسنامه. والآية من سورة الأنفال / 6.696

مكرمون «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (1) ، ضمن السياق وصف لحال الملائكة تجاه الخالق سبحانه.

التذكير والتخويف ضمن الوعظ: كما ورد عنده ضمن حديثه عن الدنيا «اتعظوا فيها بالدين العمى، «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً»، حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وانزلوا إلى الاجداث، فلا يدعون ضيفانا» (2) .

التحديد ورفع اللبس: من ذلك حديثه عن نفسه وآل بيته عليهم السلام «بنا يستعطى الهدى، ويستجلى العمى، ان (الائمة من قريش) غرسوا في هذا البطن من بني هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاية من غيرهم» (3) فقد أورد حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «الائمة من قريش» ضمن السياق ليوضح من خلاله أن المعنيين بقريش في الحديث هو وآل بيته من دون غيرهم من عامة قريش.

التحضيض والتحبيب: كما في قوله ضمن وصيته لما ضربه ابن ملجم «إِنْ أَعَفَ فَالْعَفْوُ لِي قَرِيبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا أَلْكُمْ»، (4) . فقد أورد الآية الكريمة ضمن السياق تحبيبا للعفو وحضا عليه.

الدعاء والتبتل: إذ تكثر الأدعية المتضمنة طلب رضا الخالق وعفوه والاعتماد على مننه وكرمه دون المخلوقين، وعادة ما يوظف علي عليه السلام كل

ص: 696

- 
- 1- خطب 90 - فقرة 5. ولا ينتحلون: أي لا يدعون باطلا، والآية من سورة الأنبياء/ 21
  - 2- خطب 110 - الفقرة الا-خيرة، والآية من سورة فصلت/ 15 . ولا- يدعون ركبانا: أي لا- يقال لهم ركبنا، جمع راكب، لأنهم أخذوا إلى قبورهم غير مختارين، والراكب عادة ما يكون مختارا. والأجداث: جمع جدث: القبور
  - 3- خطب - 144 - فقرة 2. راجع مصدر الحديث الشريف في ص 177 من هذا البحث
  - 4- رسائل - 23 - فقرة 2. وقربة: تقربا إلى الله، والآية من سورة النور / 22

طاقاته اللغوية المشحونة بالحب الصادق والايان المتين ضمن تلك الأدعية، مستجدا بتضمينها بآيات قرآنية كما في قوله ضمن دعاء له كان يقوله كلما هم بلقاء العدو «رَبُّنَا وَسِعَ رُبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» (1)، فلقد الآية الكريمة ضمن نسيج الدعاء لتتشر في جنباته مسحة من الإيمان فحواها الاستجداد بالخالق في النزوع إلى الحق، وطلب معونته في سلوك جادته.

الإصرار على المبدأ والثبات عليه في كل الأحوال: من ذلك ما كتبه لأخيه عقيل بن أبي طالب ضمن رده على رسالة يخبره فيها بتمالي قريش على افسال حكومته ويسأله عن موقفه منهم «ولا تحسبن ابن أبيك ولو أسلمه الناس - متضرعا متخشعا لا مقرا للضيم واهنا، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطيء الظهر للراكب المتعقد، ولكنه كما قال أخو بني سليم: (طويل)

فإن تسأليني كيف أنت فإنني \* صبور عى ريب الزمان صليب

يعز علي أن ترى بي كآبة \* فيشمت عاد أو يساء حبيب» (2)

فقد ورد البيتان في السياق لتعضيد معاني الإصرار والثبات على المواقف في كل الأحوال.

البرهنة ضمن الجدل: من ذلك ما ذكره علي عليه السلام من آيات كريمة ضمن رده

ص: 697

1- رسائل - 15 - والآية من سورة الاعراف / 89

2- رسائل - 36 - فقرة 2. والبيتان منسوبان للعباس بن مرداس - شرح بن أبي الحديد 16 / 153 وراجع ترجمة العباس بن مرداس عند: ابن سعد الطبقات الكبرى 4 / 271، والشعر والشعراء لابن قتيبة 2 / 632، ترجمة رقم 177، والسلس - بفتح السين وكسر اللام - السهل. والوطيء: اللين. والمتعقد: الذي يتخذ ظهر الدابة مقعدا يستعمله في كل حاجة. والصليب: الشديد

على كتاب ورد إليه من معاوية مدعياً فيه عدم احقية علي عليه السلام بالخلافة وانه يحاول ابتزاز المسلمين أمرهم «وكتاب الله يجمع لنا ما شد عنا وهو قوله سبحانه وتعالى:

«وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» وقوله تعالى:

«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالحق والطاعة»<sup>(1)</sup>، فالآيتان الكريمتان قد وردتا في السياق للبرهنة على بطلان ما تضمنته رسالة معاوية من مزاعم في حقه.

السخرية والتندر: منه ما جاء ضمن رده على كتاب معاوية الذي قال فيه بتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان على علي عليه السلام «وما انت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس وما لللقاء وابناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم، هيهات، (لقد حن قدح ليس منها)»،<sup>(2)</sup>، فالتضمنين بالمثل العربي «لقد حن...» قد ورد ضمن تذكير معاوية بمنزلته في الإسلام كتعبير عن السخرية منه، لطرحة قضية هو غير مؤهل للخوض فيها، لأنه غريب عنها جاهل بحقيقتها.

بث الحماس وإشاعة الطمأنينة في نفوس المحاربين: كما ورد في قوله ضمن خطبة له في صيفين «فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وأتمم الأعلون

ص: 698

---

1- رسائل 28 - فقرة 3. والآيتان على التوالي - الانفال/ 75، آل عمران / 68

2- السابق فقرة 1. والمثل (حن قدح ليس منها) يضرب للرجل... يتمدح بما لا يوجد فيه - الميداني - مجمع الامثال 1/ 341، وحن: سمع له صوت، والقدح بكسر القاف المعجمة وسكون الدال المهملة: - السهم، وإذا كان السهم مختلف عن بقية السهام، كان له عند الرمي صوت يخالف أصواتها

والله معكم ولن يتركم أعمالكم» (1)، فالتحام الآية الكريمة بالسياق قد منحه ابعادا عميقة من معاني الحماس الصادق المتفجر بقيم الإيمان لما تزخر به من معاني العز والاحقية والمؤازرة.

كما يرد التضمين عند علي عليه السلام محملا بمعاني التهديد والوعيد (2)، أو الندم جراء التفريط في الأمور المهمة (3)، أو لبيان أهمية الشيء وقيمه (4) ، إلى غير ذلك من معان ثرة تجلوها المناسبة، فتجعلها ابدا بينة ناصعة، لكونها موظفة توظيفا محكما في تعبيرات صادقة نابعة من تجربة واحدة بكل تفرعاتها الحياتية.

وقد أبرز ذلك الانسجام بين الفكر وبين الاساليب التعبيرية التي استوعبته خصائص فنية مميزة نعرض لأبرزها في الفصل التالي.

ص: 699

---

1- خطب 65 - والآية من سورة محمد / 35 . ولن يتركم - بفتح الياء وكسر التاء وفتح الراء: لن ينقصكم شيئا من جزائها

2- راجع خطب 70 ، وخطب 90 ، فقرة 2 ، وخطب 86 فقرة 3، 4

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه



عرض شراح نهج البلاغة إلى كثير من الخصائص الفنية والبلاغية التي تميز بها أسلوبه؛ فابن أبي الحديد قد وقف - في شرحه المطول - عند الكثير من الظواهر الفنية البيانية والبديعية، مبدياً رأيه فيهما، مستعيناً في ذلك بذوقه الفني، بالإضافة إلى استعانته بآراء من سبقه من البلاغيين، إلا أنه لم يتناول إلا الجزئيات دون التعميق في تأثيرها داخل النصوص.

فمن حيث الخصائص البيانية وقف عند الكثير من الاستعارات (1) والتشبيهات والكنيات، مبيناً من خلال كل ذلك قدرة علي عليه السلام الفائقة على صياغتها، إلا أنه لم يتطرق إلى أثرها في السياقات التي وردت فيها، لأنه لم يعالج

ص: 701

---

1- راجع شرح النهج 378/6 حول بلاغة علي عليه السلام. و 11 / 153 أثر كلام علي عليه السلام في نفس الشارح. ولقد أورد الشارح أيضاً فصولاً بلاغية كثيرة في أثناء تعرضه لمعالجات مثيلاتها في نصوص النهج، من ذلك ما جاء في 2/ 103 وما بعدها و 170 وما بعدها و 4/ 153 وما بعدها و 5/ 15 وما بعدها و 7/ 184 وما بعدها و 196 وما بعدها و 311 وما بعدها، و 8/ 376 وما بعدها



تلك الظواهر الفنية الا منفردة وكأنها وحدات أسلوبية قائمة بذاتها لا تمت إلى السياقات التي وردت فيها بأية صلة إلا من حيث تداعي الأفكار وترابط الاساليب، ذلك بالنسبة إلى الظواهر البيانية البارزة، اما بالنسبة إلى التصويرات الفنية المعتمدة على التأثيرات النفسية من خلال شحذ طاقات الكلمة فقد تحدث عن أثرها في نفسه (1) من دون ان يدخل في الخصائص التي تمكنه مناستجلاء المميزات التي جعلت تأثيرات تلك التعبيرات الفنية تبلغ المدى في هز اعماق متلقيها كما انه قد بين كثيراً من البديع المعنوي والآخر اللفظي الذي ورد في سياقات النهج (2) ولكنه لم يحاول أيضاً تبيان تأثيراتها الايحائية في معاني النصوص، وقد تبعه في ذلك أيضاً ميشم البحراني الذي أورد في شرحه كثيراً من الظواهر البيانية والبديعية من دون ان يستجلي تأثيراتها النفسية وخصائصها الابداعية في نسيج ما وردت فيه من نصوص. ثم إن كلا الشارحين لم يحاولا توضيح الخصائص المميزة للتناول الفني في النهج كنص متوحد الأسلوب من حيث صدره من مجرى نفسي واحد، لانصباب نظريتهما أثناء شرح النصوص على انها وحدات مجزأة، كل نص قائم بذاته، ولا يمت بصلة إلى النصوص الاخرى، الا من حيث الانتساب إلى علي عليه السلام، دون محاولة البحث في الصلات الفنية الداخلية التي ترابط بين تلك النصوص من حيث البنية الدالة على انتمائها إلى قائل واحد. وهذا ما سنحاول دراسته في أثناء تعرضنا لأبرز المميزات الفنية في النهج متعرضين إلى ذلك في محورين أساسيين هما:

- الأول - أهم المميزات الخاصة بالصورة في النهج

ص: 702

1- راجع السابق

2- السابق

على اننا في دراستنا هذه لا نحاول الفصل بين الصورة والموسيقى كظاهرتين متباعدتين، لكونهما في نظرنا تشكلاان معا الخصائص الفنية التي حاول علي عليه السلام على اساسها صياغة فكره واجلاء رؤاه والتعبير عما يعتقد به، مما يعني ان الفكر وصياغته الاسلوبية بشقيها المعنوي والفني، متلاحمان ومتراپطان بحيث لا يمكن النظر في ناحية من نواحي النص أو خصيصة منفصلة، لكون النص بأفكاره ومعانيه وخصائصه الفنية نابعا من معين واحد، فدراستنا للخصائص الفنية في النهج، قد تبدو عسيرة وصعبة إذا ما حاولنا النظر فيها كخصائص قائمة بذاتها، ثم انها من ناحية ثانية واسعة جدا إذا ما حاولنا تتبعها في بنية نهج البلاغة بأكمله، لذلك فسنتقصر الدراسة على ابراز أهم الملامح الفنية، من دون التعرض إلى الجزئيات التي عاجها الاقدمون من الشراح، ناظرين في ذلك إلى مجموع الخصائص الفنية بما يمتزج بها من انفعالات، على أساس أنها صور وموسيقى وإيقاع يكمن بداخلها التشبيه والاستعارة والمجاز، وجل المحسنات البديعية.

### 1-أهم المميزات الخاصة بالصورة في النهج

ترد الصورة الفنية في نصوص نهج البلاغة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمضامينها الفكرية، ذائبة في نسيجها، مضافة عليها الحيوية نائية بالأساليب فيها عن الجفاف والجمود الذي عادة ما ينتاب المعاني المجردة، وهذا لا يعني ان عليا عليه السلام يعمد إلى استجلاب الصورة بتكلف، ولكنها ترد في سياقات النصوص مناسبة طبيعة لتفرض وجودها من خلال الموقف، مضافة على المعاني الفكرية ابعادا

يتحدث عن أسلوبه في العيش ضمن رسالة كتبها لواليه على البصرة، يؤنبه فيها على تصرف غير لائق بدر منه فيقول «وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن فقال الأقران ومنازلة الشجعان، الا وان الشجرة البرية أصلب عودا والروائع الخضرة ارق جلودا، والنباتات البرية اقوى وقودا، وأبطأ خمودا» (1) فقد عمد إلى الأسلوب الكنائي، مبينا من خلاله قناعته بالقليل، في مقابل تهالك واليه على ما دعي له من لذيذ الطعام، مشبها نفسه في صبره وجلده واحتماله بالشجرة البرية التي تستطيع مقاومة العوامل الطبيعية تحت أية ظروف ومشبها واليه في عدم قدرته على التماسك والاتزان إزاء مغريات الحياة من لذيذ الطعام بالشجرة الحضرية غير المذكورة في السياق، مع ملاحظة انبجاس الصورة بكل تعقيداتها ضمن السياق في عفوية تامة، أخذة بما يناسبها من ايقاعات تعبيرية ضمن المقارنة بالتقابل بين الصلابة والرقّة مع تناغم سلس في الفواصل المتقابلة (أصلب عودا، وأرق جلودا، أقوى وقودا، أبطأ خمودا). فتمازج الفكرة بالصورة في نسيج النص، اكسبها عمقا بما اسبغته الصورة من الوان مناسبة من ناحية، وخاصة الثراء الايحائي من ناحية اخرى، علاوة على ذلك انسيابها في نسيج النص بالفصل (2) على اعتبار تتابع الكلام في مجراه النفسي بانتقاله من الحديث عن نفسه إلى المقارنة بين الشجرتين من دون اللجوء إلى العاطف بالإضافة إلى الالتفات (3) بانتقاله من حديث إلى

ص: 704

1- رسائل 45 فقرة 3

2- عرضنا لخصائص الفصل والوصل في أساليب النهج في ص 674 من هذا البحث

3- عرضنا للالتفات في ص 606 من هذا البحث

آخر بقصد توكيد الفكرة المطروحة ودعمها، وهو ما يدعم مقولتنا بانثاق الصورة ضمن السياق مرتبطة بالفكرة عن طواعية، ولحاجة ملحة تقتضيها المناسبة لإضاءة الفكر وكشف جوانبه والنأي به عن الجفاف.

ومن أجل الوقوف على أهم خصائص الصورة في نصوص النهج لاستجلاء ابعادها ووظائفها يقتضي منا ذلك دراستها في النقاط التالية:

### 1- انبعاث الصورة في النهج وتأثيرها:

تسعى الصورة ضمن نصوص النهج إلى التجسيد بغرض التأثير، والنزوع إلى مواقف التزامية معينة اشرفنا إليها في أبوابها وبمعنى أوضح، فإن الصورة لا ترد ضمن تلك النصوص إلا من أجل خدمة الأفكار وتدعيمها على اعتبار ان ايحاءاتها جزء لا يمكن بتره من تلك الافكار، فجل نصوص النهج تعالج قضايا فكرية وأخلاقية فحواها الحق، والخير، والجهد، والعدل والتقوى إلى غير ذلك من قيم انسانية، وتلك القيم لا ترد ضمن نصوصها في عبارات تقريرية خالية من النبض والحيوية، لأن عليا عليه السلام - من أجل تدعيمها - يبعث فيها نفحات من روحه، وفيضا من ضميره ملتقطا من الواقع من حوله ما يتيح لما في تلك القيم من افكار التجسيد ياسقاط حماسه اليقيني عليها.

فالصورة في نصوص النهج تنبثق متزامنة مع انثاق الفكرة مرتبطة بها، بحيث لا يمكن للمتأمل فيها كعنصر فني الا بالنظر إليها في سياقها الفكري، فاجتزأؤها من النص قد يبقي على نوع من الجمال فيها، ولكنه يجردها من قيمتها التأثيرية.

فالصورة في قول علي عليه السلام «اللهم قد ملت اطباء هذا الودي، وكلت النزعة

بأسطوان الركي « (1)، قد لا تعني شيئاً إذا ما نظرنا فيها بعيدة عن سياقها الفكري، كما قد يبدو على عناصرها الجزئية نوع من التنافر والتناقض، لما في (الاطباء، والدوي) من عدم تجانس مع معاني (الأشطان، والنزعة، والركي)، فقيمتها التأثيرية ليست في النظر إليها مفصولة عن السياق ولا في النظر في فحوى معانيها مجزأة، لأن قيمتها كاملة في ما يعنيه اثرها في سياق المناسبة، واندماج القائل مع احداث تلك المناسبة، وما يكتنفها من انفعالات نفسية، شريطة التحامها بالنص كعنصر اصيل فيه، تؤثر وتتأثر بما حولها من معان تتعاون على تجسيدها بما يستكن بداخلها من انفعالات غاضبة ومكبوتة، مفجرة في حنايا النص معاني الالم والخيبة والاحفاق.

فبعودة إلى الصورة السابقة في سياق فكرتها في النص «أما والله لو أني حين أمرتكم به - أي بالتحكيم - حملتكم على المكروه... فإن استقمتم هديتكم، وأن اعوججتم قومتمكم، وإن أبيتم تداركتكم لكنت الوثقى، ولكن بمن والى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم ان ضلعها معها، اللهم قد... الصورة» (2) نجد أن تداعي الأفكار في السياق بما تتمخض عنه من ندم غاضب جاء في تلافيف التمني التالي للقسم في قوله (أما والله لو...) قد ولد في العبارة ثلاثة استنفات:

تمثل الأول في أسلوب الاستفهام التالي للاستدراك في (ولكن بمن والى من)

ص: 706

1- خطب 120-. والدوي: أصل التعبير هو (الداء الدوي) أي الشديد المؤلم بوصف الداء بما هو من لفظه. وكلت: ضعفت وتعبت. والنزعة: بفتح النون والزاي والعين جمع نازع، بكسر الزاي، الذي ينزع الماء من البئر. والاشطان: جمع شطن وهو الحبل. والركي: جمع ركية، البئر أي ضعفت قوى نازعي المياه من الآبار

2- الخطبة السابقة

وتمثل الثاني في الجملة الخبرية المقرونة بالتشبيه المقتبس من المثل العربي «لا تنقش الشوكه بمثلها فإن ضلعها معها» (D)، على أساس أنه لو استعان ببعضهم في تقويمه بعضهم الآخر، لكان مثله في ذلك مثل الذي يحاول اخراج شوكه انغرست في جلده بشوكه من جنسها، فتتكسر بجانبها فيتضاعف بذلك الالم ويتفاقم الخطب.

ثم يتصاعد الأسلوب فيبلغ مداه في الاستئناف الثالث الكامن في الفصل والمتضمن معنى الالتفات والمصدر بالاستغاثة (اللهم... مما يعني في طياته ان الوضع قد بلغ مرحلة بحيث لا سبيل إلى اصلاحه، فالكناية في (الدوي) بوصف الداء بما هو من لفظه على اعتبار أصحابه هم الداء وهو الطبيب الذي مل معالجتهم بعد أن أزم من ذلك المرض واستعصى معه أي علاج. والكناية الثانية في (كلت النزعة بأشطان الركي) أي ان التعب قد وصل بنازعي الماء مرحلة لا يمكنهم معها الاستمرار، فالصورتان متباعدتان من حيث العناصر الخارجية، متوفقتان في المنحى المعنوي الكامن في العجز عن الوصول إلى الغاية في كليهما بسبب تعذر الاستجابة في كلتا حالتها الطبيب باستعصاء الداء عليه، والنازح بمزاولة النوع لاستمرارية إلى ما لا نهاية. فتباعد عناصرهما لم يحل دون الوصول بالتعبير من خلالهما إلى الذروة الانفعالية التي أرادها علي عليه السلام من خطبته على اعتبار إنهما جزء من السياق التعبيري ولا يمكن النظر فيهما كوحداث ايحائية مجزأة.

تقوّه أحد مخاطبي علي عليه السلام بكلام عظيم كان المتحدث قاصرا عن إدراك أبعاده ومعرفة ما ينطوي عليه من معان، فبادره علي عليه السلام بالقول «لقد طرت

ص: 707

شكيرا، وهدرت سقبا» (1)، فلقد سلك للتعبير عن موقفه من ذلك القائل أسلوبا كناييا تضمن ما فحواه ان القائل اصغر من ان يتفوه بمثل ذلك الكلام الخطير، فالكناية لم ترد ضمن السياق لمجرد غاية جمالية، لأنها قد تضمنت من الايحاءات معاني الاستصغار مكتملة، وذلك بالنظر فيها ضمن السياق التعبيري بكل انفعالاته النفسية، فقد تعني الكناية الازدراء بالقائل لكونه يرى في نفسه انه شيء كبير، فيهرف بما لا يعرف، أو قد تعني أسلوبا تربويا يهدف إلى النصح بعدم القاء الكلام على عواهنه من دون تدبر معانيه وابعادها، فالمناسبة مضافا إليها انفعالات علي عليه السلام في أثناء اطلاقها، هو ما يمنح الصورة أبعادها البيانية.

وقد تكون الصورة السابقة متناسبة في بعض أجزائها مع الصورة المتضمنة رد علي عليه السلام «على سؤال لبعض أصحابه وقد سأله: كيف منعكم قومكم عن هذا المقام وانتم احق به؟ فقال له: يا أبا بني أسد، إنك لقلق الوضين، ترسل في غير سدد» (2)، لأن كلتا الصورتين وردتا في سياقين ضمن رده علي متكلمين، مع اختلاف في المناسبة، وفحوة القول من حيث فهم المتكلمين، على الأقل، لتضمنها معنى إطلاق الكلام في غير محله أو مناسبه، فالصورة الثانية كناية أيضاً متضمنة معنى عدم الثبات، بتمثلها ذلك السائل فوق راحلة لم يحكم أربطة رحلها من تحته، ويحاول أن يسدد في رمية وهي سائرة به، ولكن اضطراب الرحل من تحته يحول بينه وبين التصويب المحكم نحو الهدف لعدم قدرته على

ص: 708

- 
- 1- حكم - 40 - . والشكير: أول ما ينبت من الريش الطائر قبل أن يقوى. والسقب: الصغير من الأبل لا يهدر الا بعد ان يستفحل
  - 2- خطب - 163 - فقرة 1. والوضين: بطن يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج. وقلق الوضين: مضطربة. والإرسال: الإطلاق. والسدد: بفتح السين والبدال: الاستقامة

الثبات فوق ظهر الراحلة، على أساس أن سؤاله ذلك لم يكن في محله لأن مناسبة طرحه غير ملائمة لوضع علي عليه السلام الذي هو في حال مجابهة لمعاوية الذي يعدّه في أدنى سلم الأحقية في الخلافة بالنسبة لمن سبقه من قریش، إذ كان الأخرى بالسائل ان ينظر في هذا الوضع لا يتجاوزه، فمضمون الكناية بما ينطوي عليه من اختزال يعني: ان الوضع الانبي الذي نعيشه احق بأن ينظر فيه ليعالج، لذلك ورد بيت إمريء القيس في السياق ليزيد من تألق الصورة الواردة في مطلع النص ويفتق ما انطوت عليه من إحياءات: (طويل)

ودع عنك نهياً صريح في حجراته \* وهات حديثاً ما حديث الرواحل (1)

أي إن الأجدى بك أيها السائل أن تنظر معنا في الوضع المزري الذي نعيشه وتترك اجترار احداث الماضي. فصورة اضطراب الراكب على ظهر الراحلة بما يكتنفها من حركة، وعدم ثبات، لم تكن لتؤدي هذه المعاني والأفكار لو اننا نظرنا في قيمتها الجمالية بعيدة عن سياقها التعبيري.

وتبلغ الصورة ذروتها في تكثيف معاني الأخبار بالمقولات الصائبة عبر اللومفي قول علي عليه السلام

«أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق، العالم المجرب تورث الحسرة وتقب الندامة وقد كنت أمرتك في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأبي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم علي إباء المخالفين الجفافة، المنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه وضم الزند بقده، وكنت وإياكم كما قال اخو هوازن

ص: 709

---

1- ديوان امريء القيس ص 94 وللبيت قصة طريفة تكاد تناسب فحوى السؤال الذي سأله الرجل لعلي عليه السلام في مناسبه



أمرتكم أمري بمنعرج اللوى \* فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد (L) فقد تألقت الصورتان (نخلت لكم مخزون رأيي) و (ضن الزند بقدحه) ضمن السياق بما يعني التعبير عن أعمال الفكر وتقليب المواقف والتأمل في الحوادث بعمق وتمحيصها ومن ثم ابداء الآراء الصائبة حولها بكل نزاهة وصدق وإخلاص، في مقابل العناد والمكابرة المجلبة للهم المعطلة لجميع الملكات الفكرية. ومناسبة الشعور بمرارة الفشل هي التي ولدت صور الاحباط في سياق النص، ليس بسبب نتائج التحكيم، ولكن لأنها عمدت إلى تجسيد الواقع بكل ما ينطوي عليه من آلام نفسية، طوت في استمراريتها الماضي المأسوف عليه، والواقع المحزن، فالصورتان بانضمامها لبعض تجسدان مشاعر الالم الذي ترزح نفس علي عليه السلام تحته، ليس بسبب النتيجة، بل بسبب من خلقوا تلك النتيجة من اصحابه، وفرضوها عليه وعلى أنفسهم لقصور في نظرتهن. ولا يمكن للصورتين ان توحيا بتلك المعاني بما يكتنفها من معاناة ما لم تقترنا بفكرة النص في مناسبتها وملابساتها التاريخية التي تعاونت كل الأساليب من خبرية مؤكدة (اما بعد فإن معصية)، وإنشائية تطوي على معنى التمني الكامن في التضمين بالمثل العربي (لو كان يطاع...) ومن ثم الانتقال إلى الأسلوب الخبري

ص: 710

1- خطب - 35 - فقرة 2. والبيت لدريد بن الصمة ورد ضمن قصيدة رثاء في اخية عبد الله وكان سبب قتله انه لم يستمع لنصح أخيه دريد، والبيت في الأغاني 8/4 وفي ديوان دريد ص 47، ويكاد البيت في مناسبه ان ينطبق على مخالفة أصحاب علي عليه السلام لنصحه في قضية التحكيم، فكانت النتيجة خسارتهم وندمهم، وبشأن المثل (لو كان يطاع...) راجع ص 695 وما بعدها من هذا البحث

لتعزيب ما في الخطبة من لوم بالاستشهاد ببيت الشعر المتضمن شحنات الأسي الراحة تحت وطأة الحزن.

وخيال علي عليه السلام من الخصوبة ما يتيح له من الصور الموائمة لجل مواقفه القولية وفي كل الحالات التي تتطلب استحضار المشهد أو تجسيد المناسبة، من ذلك تشبيه التمثيل (1) المتضمن وصفه لحالة أصحابه بعد أن أجبروه على وقف القتال في صفين، في حين لم يبق بينهم وبين النصر سوى قاب قوسين أو أدنى، وفيه يقول «اما بعد يا أهل العراق، فإنما انتم كالمرأة الحامل، حملت فلما اتمت املصت، ومات قيمها، وطال تأيمها، وورثها ابعدها» (2)، فالصورة من الوضوح وقوة الدلالة ماهي في غنى عن تفكيك عناصرها إذا ما وضعت في سياق الخطبة التي وردت فيها، واصفة الملامح العامة لحالتهم وما سيؤول إليه مصيرهم جراء ايقافهم القتال بعد ان كادت المعركة تحسم لصالحهم مثلهم في ذلك المرأة الحامل ومصيرهم سيكون كمصيرها في الخسران والندم والضياع والذل.

فالصورة في نسيج النهج سلسلة طيعة غايتها إجلاء غموض الأفكار وتجسيد الأحداث في مناسباتها، لذلك لا يمكن إدراك تأثيرها إلا من خلال تأملها مندمجة في سياقاتها مرتبطة بالأساليب المتكاثفة معها لإبراز الأفكار التي عادة ما يحاول علي عليه السلام توصيلها لسامعه أو لقارئه بكل ما أوتي من براعة إقناعية، وقدرة بيانية، بتضام اللغة مع الخيال مع العوامل النفسية المتولدة من المناسبة في

ص: 711

1- تشبيه التمثيل - وهو ما كان وجه الشبه فيه صورة منترعة من متعدد أمرين أو أوامر، هذا هو مذهب جمهور البلاغيين في تعريفه، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصورة، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته أو تركيبته حسية أو معنوية، وكلما كان عناصر الصورة أو المركب أكثر كان التشبيه أبعد وأبلغ.

عبد العزيز عتيق - علم البيان ص 85

2- خطب - 70 - المطلع. واملصت: اسقطت والقت ولدها ميتا. وتأيمها: خلوها من الزوج

كل متكامل من حيث القوة والرصانة والخيال المتعقل الذي ينأى بالأفكار عن جفاف التجريد.

## 2- خصائص الصورة في نهج البلاغة:

من ابرز ما تتميز به الصورة في نهج البلاغة الربط المحكم بين التجسيد والحركة، أي أن الصورة متطورة من الداخل، إذ يشعر قارئها أو سامعها في قرارة نفسه بالمنظر المناسب في نسيج النص مقترنا بكل ما يحيط به من علاقات تختص به، بحيث يمكن للمتأمل فيه من خلال التعبيرات المشككة لمعالمة ان يضع له تصورا كاملا- في مخيلته على شكل لوحة متكاملة نابضة بالحياة، فمهما كان نوع العبارة التي يوظفها علي عليه السلام في تدبيح صوره، فإن احساساته المرهفة، وعواطفه الجياشة تصفى عليها من الصدق والحرارة والايامن ما يمنحها استمرارية التأثير والتجسيد أطول مدة ممكنة، فالصورة في قوله لأصحابه «كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة، والثياب المتداعية، كلما خيبت من جانب تهتكت من اخر»<sup>(1)</sup>، قد جمع شتاتها من عناصر مختلفة، لاءم فيما بينها، لما تمتاز به من خصائص تكاد تكون مطابقة للوقع الذي يشعر به في قرارته بجامع الصفات المظهرية التي تبهر وتغر إزاء الجوهر الزائف، في كل من رجاله الذين يحاول الاعتماد عليهم وبين ما تضمنه التعبير التصويري من الصفات المظهرية والخصائص الجوهرية، فجزئيات الصورة أثناء المشاهدة العادية قد لا تثير الانتباه، وإن عرف الناظر فيها ما في الأبل من عيب، وما في الخرق البالية من عدم فائدة، إلا أن نظرة

ص: 712

---

1- خطب - 68- والبكار: على وزرن كتاب: جمع بكر، الفتى من الأبل. والعمدة: بفتح العين وكسر الميم التي تأثر سنامها من الداخل من أثر الركوب ويبدو سليمة في مظهرها

علي عليه السلام المتأمل في عمق خصائصها في أثناء انقراح فكره، قد بث فيها الحيوية والتجسيد، جراء ادخالها في مقارنة تتناسب وخصائصها، وتلك من مميزات العبقرية التي «تجد الصورة المعمول فيها كلما كانت اجزاؤها اشد اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك اتم والاتلاف ابين، كان شأنها اعجب والحدق فيها اوجب» (1). فقد لاءم علي عليه السلام في الصورة بين الخرق المتداعية والجمال المعيبة رغم اختلاف عناصر الصورتين.

فالصورة في النهج متألمة دائما من حيث البناء الفني والثراء الإيحائي في جميع الاغراض مهما كان نوع عناصرها المكونة، ففي موضوع الزهد المستوعب للكثير من النصوص فيه، يصور علي عليه السلام الدنيا - من وجهة نظره - بصورة في منتهى البشاعة والتقرز في قوله «والله لديناكم هذه اهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم» (2) فقد لاءمت الصورة بين كرش الخنزير وهو اكره الحيوانات وانجسها من وجهة نظر الإسلام، وبين ماسكه المصاب بداء الجذام، مما احال تلك الملائمة إلى منظر يقشعر له البدن، وتتقرز منه النفس وقد استطاعت تلك الصورة البشعة ان توصل إلى السامع أو القارئ القيمة الحقيقية للدنيا كما يراها علي عليه السلام، بالمازجة بين عنصريين غاية في الغرابة والبعد هما (عراق الخنزير ويد المجذوم).

وفي تصويره لتقاعس أصحابه ضمن لومهم وعتابهم يقول «ما يدرك بكم ثار ولا يبلغ بكم مرام، دعوتكم إلى نصره أخوانكم، فجررتهم جرجرة

ص: 713

1- الجرجاني أسرار البلاغة ص 136

2- حكم 235 - والعراق: بكسر العين، العرق الخبيث وهو من الحشا من فوق السر معترضا البطن. والمجذوم: المصاب بوباء الجذام، هو من أخطر الأوبئة المعدية ومن مظاهره تساقط أطراف الجسم

الجمال الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأديب، ثم خرج الي منكم جنيد متدانب ضعيف» (1)، فالصورة لم تقتصر على إبراز النواحي المادية المنظورة، فقد قرنها علي عليه السلام بالصوت المقرون بالحركة، كتعبير عن معاني التخاذل والخنوع والخوف والذل، كل ذلك بالمامازجة بين الأشياء المادية والمشاعر المعنوية بإضافة الجرجرة إلى الجمال الأسر تصويرا للغط تلك النفوس الخاوية المريضة وضوضائها وملاحقة لتجسيد ذلك التخاذل بألوان قاتمة ورد التصغير في السياق موصوفا بالضعف لإبراز معاني التحقير والازدراء التي تتراحم بها نفسه، مما اكسب الصورة كل الأبعاد الإيحائية التي كانت نفس علي عليه السلام ترزح تحت وطأتها في أثناء تفاعله مع الموقف وبلورته في افكار. فالتركيب داخل الصورة من الدقة ما يجعله يستقصي كل ما تحتاجه من جزينات لتوظيفها في اطار الفكرة، فهي بمثابة اللوحة البالغة التكثيف في نقلها لتصورات علي عليه السلام النفسية في أثناء ابتعاث الكفرة من أعماقه، فهي تتميز بإبداع يجعلها مهما تناهت في جمع شتات الجزئيات المحسوسة وتمكين الخيال من تجميعها في إطار واحد، إلا أنها خاضعة لسلطان العقل مستكنة في الفكرة المحورية للنص.

يقول علي عليه السلام «أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وخرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح، هذا ماء أجن ولقمة يغص بها آكلها، ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها،

ص: 714

---

1- خطب - 39 - والجرجرة: صوت يصدره البعير من حنجرتة تعبيرا عن الألم أو احتجاجا عند عسفه. والجمال الأسر: المصاب بداء السريرة وهو وجع يأخذ البعير في مؤخرة كركرته من دبره، أو قرح يكاد ينقب جوفه. والنضو: المهزول من الأبل. والأديب: المصاب بالدبرة قروح أو جروح في ظهر الجمال وسنامه، يستعصي معها استخدامه للركوب

كالزراع بغير أرضه»<sup>(1)</sup> فلقد تألفت ضمن الفقرة صور متكونة من جزئيات متناثرة من عناصر شتى، بتجميعها مع بعضها بعضا تتناسق الفكرة وتتضح معالمها، فلقد استعار الامواج وكنى بها في حركته المضطربة بالفتن وما تحدته من اضطرابات خطيرة في المجتمع، واستعار سفن النجاة كتعبير عن طريق الخلاص من تلك الفتن، بالصبر عليها، والمهادنة لها حتى تخف حدتها أو تزول وكنى بطريق المنافرة، عن المهاترات الكلامية المشحونة بالتحديث فيما لا طائل من ورائه، ثم أورد في السياق الأمر بوضع تيجان المفاخرة كناية عن الابتعاد عن الزهو الكاذب المستكن في طياته البغض والكراهية والاحتقار كمعاول هدم تفت من عضد المجتمع، واستعار الجناح ليكني به عن الأنصار الذين يعول عليهم ويعتمد على مساندهم في تخليص الحق بعد فهمه وفهم ابعاده فهما بينا، وذلك في مقابل الاستسلام والركون إلى الدعة، فيما لو لم يوجد مثل أولئك الأنصار المخلصين، ثم شبه الأمر المتنافس عليه بالماء الآجن الذي لا يستساغ شربه، واللقمة الجشبة التي قد تؤدي بمزدردها إلى الهلاك، وهو يقصد بذلك الخلافة كمطلب دنيوي مشوب بالكدر والالام، لما تنطوي عليه من مسؤوليات جد خطيرة، لا يمكن ادراك ابعادها، لا كما يراها من يحاولون اثاره الفتنة والمتكالبون عليها كمفخرة وسيادة وشرف ورفعة، ثم يعول على المثل التصويري في قوله «ومجنتي الثمرة لغير وقتها كالزراع بغير أرضه»، مكنيا بذلك عن عدم ملائمة المناسبة للمطالبة بما يراه حقا له في الخلافة لكون ظروف الإسلام في ذلك الوقت لا تسمح بذلك، فهو محتاج إلى التأزر في تثبيت دعائمه وشد قواه، أكثر من حاجته إلى التناحر من أجل ما قد يعتبره منافسوه غايات

ص: 715

---

1- خطب -5- . والماء الآجن: المتغير الطعم واللون لا يستساغ شربة والإشارة إلى الخلافة

دنيوية ومطامع فردية والتشبيه في صورة قاطف الثمرة قبل نضوجها بالزراع في غير ارضه يجمعهما عدم الافادة في الموضوعين، والفكرة من تتابع الصور وانصهارها في بوتقتها الموحدة تعني في نهاية الأمر رده الصريح القاطع على اقوال أولئك الذين يحاولون تحريضه على الثورة من أجل الخلافة بعد وفاة الرسول صلى اللع عليه وآله، واستقرار الأمر لابي بكر دونه، فتركيب العناصر غير المتجانسة من بحر وسفن وتيجان وطير وثمر، بالتوحيد فيما بينهما ينم عن التوحد النفسي في المجانسة بين الأشياء من خلال النظر إليها في الطبيعة الكونية كبوتقة تنصهر فيها المتناقضات التي يحاول الفكر التوحيد فيها بينها بإعادة صياغتها متكاملة منسجمة، مما يعني أن تلك الجزئيات التصويرية هي في حقيقة وضعها ضمن سياق النص، ما هي إلا عناصر فكرية صغرى إذا ما ضمت لبعضها البعض فإنها تشكل الكل، أو الفكرة الأساسية التي تكاد تستحوذ على لب علي عليه اسلام ونفسه أثناء العملية الإبداعية.

لذلك فليس من الضروري أن تكون الصورة ضمن الفكرة معتمدة في بنيتها التكوينية على عناصر الطبيعة المرئية المحسوسة، إذ قد يعمد علي عليه اسلام إلى ما يمكن تسميته بالصور الوصفية، كعقل خلاق يسعى إلى التأمل في الكون جريا وراء الحقيقة، وذلك بتصوير المواقف الماورائية عن طريق شحذ طاقات اللغة لتتمكن من تجسيد المواقف، اعتمادا على تداعي الافكار، وما يسمى حديثا بالحوار الداخلي، وتوظيف العناصر النفسية باستعراض شريط الذاكرة، ويتكرر مثل ذلك التصوير كثيرا، في عرضه لصفات المؤمنين (1)، أو في وصفه

ص: 716

لحال الدنيا وعلاقتها بالإنسان (1) ، ويبلغ ذروته في وصفه لحالة الموت وتدرج سريانه في الجسم كما في قوله «وانه لبين أهله، ينظر ببصره، ويسمع بأذنه على صحة من عقله، ويقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره، ويذكر أموالا جمعها أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، واشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهناً لغيره والعبء على ظهره، والمرء قد علقت رهونه بها، فهو يعرض يده ندامة على ما أصح له عند الموت من امره، ويذهب فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغطه بها ويحسده عليها، قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالي في جسده حتى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه: يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجوع كلامهم، ثم ازداد الموت التياط به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد اوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه، لا يسعدوا بكيا، ولا يجيب داعياً» (2) ، فالتصوير البياني لم يعد محتاجاً إلى الارتكاز على الاستعارات المعتمدة على استجلاب صور المشابهة من أجل تجسيد الواقع، فقد استطاعت الكلمة بما تزخر به معان وطاقات ان تستقطب كل معاني الفكرة بالتنقل في جميع أجزائها، من صراع داخلي ينتاب المحتضر يتمثل في استعراض شريط حياته وما يكمن في ذاكرته من صور، وما يتخلل ذلك الاستعراض من انفعالات الخوف والالام والحزن والرغبة، مع تمثله للأقارب والأهل والأصدقاء من حوله ونظراتهم المختلفة

ص: 717

1- راجع خطب: 81 ، 218 ، 223

2- خطب - 108 ، فقرة 3



إليه، وامتزاج ذلك بوصف دقيق ووثيد لحالات الموت منذ بدايتها، وملاحظتها لحظة بلحظة، ومزجها بكل الانفعالات الشعورية الدقيقة من خلال نفسية المحتضر، وانعكاساتها المتولدة على الموقف من حوله، بالتنقل في الزمن، بين ماضٍ وحاضر ومستقبل تكاد تكون إبعاده ماثلة ومتقاربة، مما يدخل في النفس رهبة وقشعريرة تبقى ماثلة للفكر، منغوسة في الأعماق فالعبارة الوصفية بما يكتنفها من إحياءات تشخيصية، أطلقت الكلمة من عنانها القاموسي في فضاءات خصبة من المعاني التصويرية الكامنة فيها.

فالخاصية المميزة للصورة في أسلوب علي عليه السلام بشكل عام، عمقها التأثري الكامن في حيويتها المعبرة عن صدق تفاعله مع الكلمة، وعمق اندماجه في الفكرة ومثانة إيمانه بما يعتلج بداخله، والإلحاح الداخلي القوي من أجل توصيل تلك الطاقات الإيمانية بحرارة وحماس بعيدين عن أي تصنع وافتعال، ما يمنح الصورة ميزة التجسيد وديمومة التأثير. سواء كانت تلك الصورة تعتمد على انحراف المعاني بتوجيهها ناحية الوصف المستلهم من جزئيات الواقع، أو من خلال تفجير ما في الكلمة من طاقات معنوية وتوجيهها تصويريا، وفي كل الحالات يبقى قاموس الصورة ذا طابع مميز من حيث العناصر التي يتكون منها.

### 3- عناصر مكونات الصورة في نهج البلاغة:

لكل أديب أو فنان عناصره الخاصة المميزة لإبراز تفرده في مجال فنه، إذ بإمكان المتأمل في لوحة أصلية أن ينسبها إلى المدرسة التي تنتمي إليها، ومن ثم إلى الفنان الذي رسمها، وذلك من خلال معايشته لوحاته والتأمل في طريقة مزج ألوانه، وضربات ريشته. وهكذا الموسيقي الفذ، يمكن للأذن الموسيقية

بحسبها الفني أن تميز جملة ومقاطعته وتردها إلى شخصه من بين معزوفات غيره.

وللأديب الفذ أيضاً قاموسه الفني الذي يمتح منه لتدريج لوحاته وحياسة صورته وتأملاته. وفي كل الاحوال بالنسبة للرسام أو الموسيقي أو الأديب، أو المفكر، فإنه لا يستطيع ان ينفلت من بيئته أو ينسلخ من جلده في أثناء العملية الإبداعية التي تمتلك عليه لبه وتنقله بكل احساساته إلى عالم تصطرع فيه الأفكار ضمناً بوتقة التي يعيش فيها. وإذا ما حاولنا تطبيق مقولتنا هذه على ما ورد في نهج البلاغة من صور بلاغية، مهما اختلفت في تركيبها ومزج ألوانها، فإن عناصرها الأساسية لا تكاد تخرج عن البيئة العربية التي عاش فيها علي عليه السلام. فمهما تناهت الصورة في تجسيدها لأفكار علي عليه السلام، فإن البيئة العربية هي الام التي تحتضنها، لأن المفردة اللغوية التي استخدمت في ابرزها هي في الغالب مأخوذة من تلك البيئة، سواء أكانت تعبر عن الطبيعة من حيوان، كالإبل والذئب والضباع وغيرها من طيور وأفاع، أم طبيعة صامتة كالجبال، والصخور، والرمال، والسيول، والشجر والمراعي والدمن، أم أدوات، كالرحى، والاداة والحبال والركي، أم عتاد، كالسيوف والسهام، أم عادات، كالرهان والسباق وما ينتج عنهما من فوز أم خسارة، أم ظواهر طبيعية، كالرعد والبرق، والعواصف والأمواج، أم أوبئة وأمراض، كالجرب، والجذام والسريرة، وغيرها. إلا أن توظيف تلك العناصر في تكوين الصور بفكر صافٍ بعيد عن جفاوة البداوة، وبما ادخلته أساليب القرآن الكريم من أثر فيها، وما أضفى عليها الإيمان القوي الملتزم من حيوية نأى بها عن الصعوبة والصلافة والحوشية، كما أن تكرار تلك العناصر بنائها الفني في نصوص متعددة لم ينل من قيمتها البلاغية ولم يحد من تأثيرها أو يطفى جذوتها.

فصورة الرحي وقطبها في قوله «وهو يعلم محلي منها محل القطب من

الرحى»<sup>(1)</sup> هي تعبير عن الأهمية العظمى في سياق الفخر، أما صورة الرحى في قوله «إنما قطب الرحى، تدور علي وأنا بمكاني، فإن فارقته استحار مدارها»<sup>(2)</sup> فإنما يعني هنا بالرحى الدولة، ومكانته فيها باعتباره القطب الذي تركز عليه في دورائها كقوائم بشؤون الدولة الأساسية الهامة التي تتطلب منه التواجد في العاصمة لمراقبة كل صغيرة وكبيرة والمباشرة في انجاز كل ما تحتاجه الدولة من مهام سياسية واقتصادية واجتماعية وقضائية وعسكرية، وليس من مهامه الخروج في كتائب صغيرة لرد الغارات الخاطفة التي يشنها معاوية على اطراف بلاده، وإنما ذلك من مهمات من يوكل إليهم من قادته الذين يعتمد عليهم.

أما قطب الرحى في قوله لعمر بن الخطاب «كن قطبا واستدر الرحى بالعرب»<sup>(3)</sup> فإنما يعني بالرحى، كما يبدو في السياق الخطابي الذي وردت فيه، هي الحرب واشتداد لظاها والصورة قد وردت ضمن رد علي عليه السلام على استشارة من عمر بشأن ازماعه على مواجهة الفرس بنفسه، فإضافة القطب إلى الرحى يعني في مضمونه بقاء القائد أو الخلفية في مركزه الذي يحفظه كرمز للدولة، لأنه إذا ما قتل فإن ذلك سينعكس على معنويات جنوده ويقوي من عزيمة الأعداء في الاستبسال للوصول إليه وقتله لا لشخصه بل لمكانته وأهميته كخليفة.

كما قد يريد من القطب في السياق من دون اضافته إلى الرحى، التعبير بدقة عما يجول بنفسه إزاء الموقف الذي هو بصدد الكلام فيه بقصد شرح ابعاده وتبيان خطورته كما في وصفه الفتنة التي سيحدثها الأمويون والتي يقول

ص: 720

1- خطب - 3- فقرة 1

2- خطب - 118

3- خطب: 146

ضمنها «راية ضلال قد قامت على قطبها»<sup>(1)</sup>، أي انبثقت من مركزها الثابت لتعم كل نواحي البلاد بالدمار والظلم.

فتكرر الصورة أو بعض عناصرها للتعبير عن فكرة ما أو ما يجري مجراها في نصوص متعددة، ترمي إلى إبراز عناصر فكرية متوحدة، يعني في حد ذاته، سير تلك النصوص في بنائها الفني على نسق خاص، نابع من مصدر واحد مثلها في ذلك مثل السمات الدقيقة المميزة لشخص من دون آخر في تعامله مع الآخرين من حيث الأسلوب والطريقة في الكلام والعمل والتصرف، ولا يمكن ادراكها وملاحظتها إلا بالمران جراء كثرة الاحتكاك والتعامل مع الأساليب المختلفة.

والتكرار في صور النهج لا يقتصر على الرحي، وعناصرها، إذ يمكن ملاحظة التكرار في صورة الأبل وتزاحمها على المياه في أثناء عطشها في التعبير عن مواقف مختلفة، وصورة الماء ومتعلقاته وأهميته في البيئة الصحراوية<sup>(2)</sup>، وصورة الحياة الدنيوية على أنها رحلة انتقال وظل زائل وأقل<sup>(3)</sup>، وتكاد جل صور النهج ان تجد لها مثيلاتها أما من حيث التركيب، وأما من حيث اشتراكها في بعض العناصر في عدة نصوص، إضافة إلى استخدام المفعول المطلق تعبيراً عن المماثلة في الكثير من صور النهج، كما ورد في تصوير حال الناس زمن الفتنة

ص: 721

- 
- 1- خطب 107، فقرة 4. وراجع أيضاً بشأن صورة الرحي وقطبها خطب 151، فقرة 2، وخطب 165
  - 2- راجع خطب 3- فقرة 2، وخطب 16 فقرة 1، وخطب 28، وخطب 34، وخطب 39، وخطب 53، وخطب 86، فقرة 4، وخطب 96 فقرة 3. وبالنسبة لأهمية الماء وحده كصورة. راجع خطب 4، وخطب 5 فقرة 1، وخطب 17 فقرة 2، وخطب 23 فقرة 1، وخطب 25 فقرة 2
  - 3- راجع خطب 45، 52، 62، 63

والتكالب على المقتنيات الدنيوية «يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة»<sup>(1)</sup>، وفي تصوير حياة الإنسان الانتقالية وسرعتها «كأنكم بالساعة تحدوكم حدو الزواجر بشوله»<sup>(2)</sup>.

وتكرار مثل تلك الصور أو بعضها من عناصرها في نصوص النهج المختلفة لم يفقدها تألقها، ولم يحد من وظائفها في إبراز المعاني وتجسيدها ضمن تلك النصوص، لكون حيويتها لا تكمن في عناصرها الظاهرة بل امتزاجها بروح علي عليه السلام وفكره، وتبوء مكانتها ضمن نصوصها في سلاسة وانسجام من ناحيتي البنية والايحاء، مما يجعل وقعها في النفوس عميقاً ومؤثراً لكونها تعتمد إلى إجلاء الفكر بإحالتها إلى «لوحات فنية لها خطوطها وأشكالها وألوانها، فإذا بك في عالم زاخر من روائع الفن تتماوج به صور وموسيقى وانغام والوان»<sup>(3)</sup>.

## 2- أهم المميزات الخاصة بالموسيقى في نهج البلاغة

لا نسعى في هذا الجانب من الدراسة إلى تتبع الاساليب البديعية التي وردت في النهج فقد كفانا مؤونة البحث عنها وتبيانها شراحه من أمثال ابن أبي الحديد،

ص: 722

- 
- 1- خطب - 151 - فقرة 2. ويتكادمون: يعرض بعضهم بعضا. والعانة: القطيع من حمر الوحش
  - 2- خطب - 158 - فقرة 2. والزواجر: الذين يزجرون الابل لسوقها ومفرده زاجر. والشول: النوق التي جف لبنها ومفرده شائلة على غير قياس. والحدو: سوقها والغناء لها. ويمكن ملاحظة مثل ذلك التعبير أيضاً في خطب 39، وخطب 42، وخطب 47، وخطب 52، وخطب 53، وخطب 107 فقرة 4، 5
  - 3- جرداق - علي عليه السلام صوت العدالة 46/1

وابن ميثم البحراني في شرحيهما المطولين، فأبرزاً كثيراً من النواحي الجمالية البديعية التي اكتسبت بها كثير من نصوصه. لذلك فإننا سنضرب عن تتبع ما جاء في النهج من بديع صفحا وسنحاول بدلا منه ابراز ما للكلمة ضمن نسيج نصوصه من إيقاع في أثناء انسيابها ضمن نظام معين تميز به أسلوب علي عليه السلام، خاصة وأن انتشار نوع من البديع بكثرة، وندرة نوع آخر منه في أسلوب بعينه لا يعني شذوذا في القاعدة العامة التي انبنى عليها ذلك الأسلوب إذا كان ثمة ما يحتم ذلك، شريطة ان يكون الاستخدام متوائما وطبيعة الأفكار، آخذا بنصيبه فيها الحد المعقول الذي ينأى به عن اعتباره غاية في حد ذاته، مع اعتبار أن خصوصية الكلمة في الأدب الملتزم تنبع أساسا من قيمتها التأثيرية، ولن يتأتى لها ذلك، إلا إذا وردت في سياقات النصوص متخذة أبعادا تخصصية، منها ملائمتها للفكر المطروح من خلالها، وتناسق حروفها من حيث النطق والسمع، وانسجامها من حيث التركيب الأسلوبي في النسق الذي ترد فيه، هذا بالإضافة إلى نفحات العاطفة التي تنبث فيها بما يتلاءم وموضعها في السياق، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الأدب الهادف يرمي إلى الإقناع والتأثير، مما يحتم عليه التحدث إلى العقل والتأثير في النفس في آن واحد، فالعقل محتاج من عبارات النص إلى ما هو مقنع منطقيا، والنفس محتاجة إلى بث قدر من العاطفة التي عادة ما تعتمد إلى بث الحيوية في الأفكار وتحسين وجهها بالناي بها عن جفاف المنطق ليتمكن المتلقي من استساغتها، والنزوع نحو ما تحويه من قيم، وبين العنصر العقلي والعامل النفسي الابداعي ينساب الأثر الإيقاعي بجميع أبعاده كمحرك للمعاني في النفس آخذا بالكلمات نحو نسق معين يسعى بها إلى الإقناع الطوعي من دون إكراه ولا معاضلة، أو تصنع وهنا يبرز دور المفكر الملتزم كمبدع، لا يرمي إلى طرح الأفكار فحسب، بل يضع في اعتباره أيضاً

توصيل تلك الأفكار، بما تطوي عليه من طاقات اقناعية وشحنات تأثيرية.

فتنسيق الأفكار وصياغتها في قوالب اقناعية بمزجها بما يلائمها من عاطفة وارسالها في جمل ذات وقع نفسي ملائم للمناسبة يعني الامتزاج التام بين الفكر الواعي والتخيل الممتد في أثناء العملية الإبداعية، إذ لا بد من فكر متوقد له القدرة على استغلال كل ما حول المناسبة من عناصر وتوظيفها في الفكرة المارد طرحها، ومن ذلك التوظيف المحكم تتولد طاقات النص الإقناعية - وفي اعتقادنا ان نصوص نهج البلاغة قد حوت في بنائها الفني مجموع العناصر الجمالية التي تحتاجها الفكرة بغاية الوصول إلى متلقيها.

فيإذا أخذنا الجانب الموسيقي، وما يحدثه من أثر في النفس فلا بد لنا من العودة إلى تنسيق الجمل في النصوص، والذي فحواه التناسب الكمي في عدد الكلمات المكونة للجمل ضمن الأفكار الجزئية (1). وهذا التناسق - بطبيعة الحال - قد ولد نوعاً من موسيقى الفواصل الصادرة نغماتها، اساساً، من الدعامات الفكرية النابعة من المناسبة، والمقترنة بأسلوب التوصيل حسب مقتضى المقولة الشائعة (لكل مقام مقال) فالمقام المولد للمعاني الفكرية، هو أيضاً المولد لكل ما يحيط بتلك المعاني من إحياءات ونغم. وهو ما يمكن تتبعه في أساليب النهج المبنية على فكرة واحدة في مناسبات مختلفة، وليكن الفخر في مناسباته مثالنا.

يقول علي عليه السلام «أما والله ان كنت لفي ساققتها، حتى تولت بحذافيرها، ما عجزت ولا جبت، وان مسيري هذا لمثلها، ولأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلتهم مفتونين، واني لصاحبهم بالأمس، كما انا صاحبهم اليوم، والله ما تنقم منا قریش الا ان الله

ص: 724

1- راجع ص 678 وما بعدها من هذا البحث

اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا»<sup>(1)</sup>. فالفكرة مجتزأة من خطبة يحاول علي عليه السلام من خلالها بلورة موقفه من طلحة والزبير ومن شايعهم من قريش إزاء الفتنة التي ازمعوا على احداثها في الدولة الإسلامية وقد تضمنت نوعا من الفخر الديني المتسم بالحزم والصرامة، تلافيا للانشقاق، ومن الملاحظ ان الفواصل قد اتخذت نسقا يتراوح بين الطول والقصر المبني على النتائج والمسببات، فتولد عن ذلك نوع من الجرس المتناسق، ذي النبر القوي، البعيد عن الرتابة، فجاءت السجعتان في (ساقتهما، بحذافيرها) متناغمة تماما مع (لمثلها)، رغم التفاوت في الكمية الصوتية بين الثلاث كلمات المتقاربة وزنا، كما ان النقلة إلى الشق الثاني من الفكرة، لم يفصمها عن سابقتها حين غير من نسق الحديث في أثناء تدفقه من صيغة الأخبار إلى صيغة التعجب المقرون بالقسم والمربوط بين جزئيه بالنغمة المسجوعة التي وردت متوائمة في جرسها مع ما قبلها من حيث تدفق الحماس المتولد من الفخر المتمثل في قوله «مالي ولقريش... كافرين... مفتونين»، وقد وردت المقابلة بين الامس واليوم في السياق لتضفي على البعد المعنوي الكامن في التاريخ، بعدا نغميا تأمليا، داخل بين الازمان ساعة وقوع الحدث بتبادل المواقف من خلال تبادل في عملية الضمائر في قوله «اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا»، على ان الاختيار مفروض، مما يعني ان الادخال لم يكن بالنسبة لقريش الابقوة ومن غير اقتناع، فأسلوب الفخر الكامن في العبارة لم يخرج

ص: 725

---

1- خطب - 33 - فقرة 3، 4. وساقفة القطيع: مؤخرته، شبه أمر الجاهلية بقطيع من الغنم فقال: اني سقتها ولم ازل اسوقها حتى تولت بأسرها ولم يبق شيء منها، لم أعجز ولم أجبن، وإن مسيري لطلحة والزبير ومن شايعها الآن لهم مثلها. فلأنقبن الباطل: شبه الباطل بشيء قد اشتمل على الحق وصار الحق كالشيء المستتر فيه، فاقسم لينقبن الباطل: أي ليحدث فيه فتقا كي يخرج ما استكن فيه من حق خفي



عن نطاق المعاني الدينية المتسمة بالحسم والحزم، مما أدى إلى اكتساب المفردة اللغوية نوعاً من الموسيقى المتجانسة مع طبيعة الموقف الحماسي تجاه التمرد، حيث بقيت العبارة محافظة على توازنها آخذة من جو المناسبة ما يلائمها من نغم، مكثفة بالنهل من البديع الإيقاعي ما يحتاجه المعنى، أي إن ذلك الوزن بتموجاته المندفعة وترددات النفس قد انسب في نسيج النص طواعية، فأضفى على المعاني روحاً من الحماس المتزن فلم يفقد الفخر بداخله نغمته الدينية.

وفي مقام ثانٍ يفتخر علي عليه السلام قائلاً: «فممت بالأمر حين فشلوا، وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتصموا، ومضيت بنور الله حيث وقفوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم فوتاً فطرت بعنائها، واستبددت برهانها، كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل فيمغمز» (1)، وقد اقتطعنا الفقرة من خطبة يصف علي عليه السلام فيها حاله منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى آخر وقت انجلت فيه نتائج واقعة النهروان (2) وقد اقتضى المقام جانباً من الفخر الديني أيضاً، وذلك بعد أن قضى على فتنة الخوارج التي شلت قواه ومنعته من القضاء على فتنة معاوية ومن شاعره من القرشيين لذلك فقد وردت العبارات الفخرية فيها متدفقة حماساً، فانعكس ذلك التدفق على طول الجمل فوردت متناسبة في فواصلها متوحدة في جرس الكلمات المتقابلة في

ص: 726

- 
- 1- خطب - 37 - . وتبعوا: اختبأوا وضده تطلعوا. والتعنتة: التردد في الكلام من عي أو حصر. واعلاهم فوتاً: أسبقهم إلى القيام بالمهمات والمبادرة إلى عمل الخيرات. وأخفضهم صوتاً: أي عمل في هدوء ودون تظاهر وزهو بما أعمل، وهو كناية عن التواضع ونقي الزهو والكبر. فطرت بعنائها واستبددت برهانها: أي سبقتهم وانفردت بالبرهان أي الجائزة
  - 2- النهروان - مكان المعركة التي قاتل فيها على الخوارج سنة 37 هـ. راجع بشأن المعركة وتاريخها تاريخ الطبري 72/5 وما بعدها. الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة

الجمل الأربع التي وازن السجع بواو الجمعة في نهاية كل واحدة منها، في مقابل ضمير المتكلم كنغم متداخل لتبيان التناقض قولاً وعملاً بينه وبينهم على قاعدة دينية لم يحد عنها قيد انملة. ولإبقاء الأسلوب مستمراً في تدفقه وحيويته النغمية، وردت الفاصلتان القصيرتان المكللتان بالجناس الناقص في (صوتا، فوتا) لتنتقل نغمة الفخر إلى نبر أعلى من حيث الجرس والفاعلية والإنطلاق وتدرجاً في الوصول بالنغم إلى ذروة الحماس، يطلق علي عليه السلام للكلمة حريتها لتتساح في فضاءات أوسع بتعليق العنان بالطيران، والرهان بالاستبداد على اعتبار ارتباط سرعة الانجاز بالكسب المؤكد وذلك عن طريق بناء الفاصلتين على الجناس الناقص في قوله (عنانها رهانها) والاختصار الفائق في تصوير السرعة المقرونة بالقوة والثبات الكامنتين في الجرس القوي المولد عن استخدام كلمات هادرة ذات حروف إذا تتابعت في نسق الكلمة الواحدة فإنها تبعث في حناياها معاني القوة والضخامة، الكامنة في تحدي (العواطف والقواصف) كجمعي تكسير يدلان على الكثرة وبنطويان على معاني التدمير والازالة، فالتموج المتصاعد في الأسلوب والمقرون بالجمل المتفاصلة نغمياً، لم يكن وليد الافتعال أو التصنع لأنه تصوير صادق لحالة ايحائية واعية، فارضة نفسها على النص جراء المناسبة، معبرة عن مدى الاندماج في الموقف، والتفاعل مع الحدث. فالفكرة هنا مبنية على الفخر الديني أيضاً، ولكن المناسبة هنا اقتضت التعبير بأسلوب فيه حزم وتبرير: والحزم في عدم التهاون على الإطلاق مع الخارجين، والتبرير الكامن في أنه الآخذ بطريق الحق السالك إياه مذ عرفه في الإسلام ولن يحمده عنه إطلاقاً، وإن ما قام به من تقتيل في تلك الشرذمة هو من الحق فلا لوم عليه فيه. أما الفخر المتضمن الفكرة السابقة على فكرتنا هذه فيختلف من حيث أنه يراد به إمارة اللثام عن زيف اتخذه القرشيون ستاراً لمحاربتة والوقوف ضده، لذلك

وفي موقف فخر ثالث يقول علي عليه السلام «وإني لَمَن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمّار الليل، ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله، وسنن رسوله، لا يستكبرون، ولا يغفلون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل» (1)، وهو فخر يتضمن تهديد مبطن لخاتمة خطبة موضوعها ما تنطوي عليه العصبية القبلية من أخطار وتهديدها لبنية المجتمع. لذلك جاء الخطاب ضمن الموضوع متسلسل الأفكار معضد بالبراهين الدينية، متخذاً من سير الرسل والأنبياء برهاناً على التواضع والتذلل، فجاء الحديث عن النفس، متوشحاً بالخضوع، مجللاً بالتذلل في ذات الله، فوردت فواصل الفخر هادئة، ذات إيقاع رخيم، تكاد الجمل من خلاله ان تسمعنا نغمات صوفية، فلم تعد الكلمات الموزونة هي محور الموسيقى، وإن تطعمت الفكرة في بعض نواحيها بوحدات موسيقية تزيل عنها الرتابة، وتشيع في انحائها الهدوء النابض بالبهجة التي انسابت في النص بسلاسة تنأى بها عن أي تصنع.

وفي مقام فخر رابع يوظف علي عليه السلام المقابلات كدعامة من دعائم المقارنة، بغرض إبراز مزايا في مواجهة مزايا أخرى، فيتولد من تتابع تلك المقابلات نوع من التمازج النغمي لاعتماد الجمل في السياق على المقارنات التي فرضتها طبيعة الفكرة، كما في قوله ضمن رده على رسالة من معاوية «لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه، لذكر ذاكر فضائل جمعة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها آذان السامعين، فدع عنك من مالت به الرمية فانا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع

ص: 728

لنا، لم يمنعنا قديم عزنا، ولا عادي طولنا على قومك ان خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولستم هناك، وأنى يكون ذلك كذلك، ومنا النبي، ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنك أسد الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب، في كثير مما لنا وعليكم « (1) ، فقد ورد السجع في تلافيف الفكرة بالقدر الذي احتاجته في تعضيد موسيقى التقابل، مما مازج بين المعاني والأصوات ممازجة كادت أن تكون ملحمة فخر، تعول على التاريخ، وتنهل من معاني القرآن شواهداها، مع توشح العبارة منذ مطلعها بخضوع وتواضع ديني مجلل بكبرياء مكبوحة الجماع، اثار بعض من كوامنها طبيعة الموقف فأتت متتابعة متقابلة في تموجات صوتية عبر فاصلات قصيرة في:

منا النبي ومنكم المكذبومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف...

وقد أرسلها علي عليه السلام متناسبة لمضمون ما ورد في الرسالة الأم من فخر حاول معاوية فيه اثاره حفيظته والانتفاص من سابقته وبلائه في الإسلام.

ص: 729

1- رسائل - 28 - فقرة 2. والرمية: الصيد يرميه الصائد. ومالت به: خالفت قصده. والقصد: أترك ذكر من مال إلى الدنيا وأمألته إليها، وانا صانع ربنا والناس صنائع لنا: أي ليس لأحد من البشر علينا فضل، بل الله سبحانه هو صاحب الفضل علينا، ونحن الواسطة بين الناس وبينه سبحانه. والطول: الفضل. والعادي: القديم. والأكفاء: جمع كُفء وهو النظير في الشرف. والمكذب: أبو سفيان بن حرب. واسد الله: حمزة بن عبد المطلب وأسد الأحلاف: عتبة بن ربيعة. وسيدا شباب أهل الجنة: الحسن والحسين عليهما السلام. وصبية النار: كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله لعتبة بن أبي معيط حين قتله صبورا يوم بدر، وقال كالمستعطف له صلى الله عليه وآله: من للصبية يا محمد قال صلى الله عليه وآله: النار. وخير نساء العالمين: فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله. وحمالة الحطب: هي أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب الذي ورد نص القرآن فيها بما ورد، وقوله «في كثير مما لنا وعليكم»: أي أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئا كثيرا، ولكنني أكتفي بما ذكرت. ابن أبي الحديد 13 / 196 ، 197

ويعدّ السجع من أبرز الظواهر الموسيقية في النهج لاحتلاله مساحة واسعة في الكثير من نصوصه، إلا أن تلك الكثرة لم تكن على حساب المعاني، لأن السجع كمحسن لفظي لم يكن مقصوداً لذاته في تلك النصوص، للإحساس بانسيابه بعفوية وطلاقة ضمن سياقاتها المختلفة متميزاً بخصائص من أبرزها:

أ- الاعتدال في مقاطع الكلام:

إذ تكاد الجمل المسجوعة في نصوص النهج أن تتخذ نسفاً فحواه التساوي في الكمية اللفظية بين الفواصل، والاعتماد على الجمل القصيرة كما في «أيها الناس، أنظروا إلى الدنيا الزاهدين فيها، الصادقين عنها، فإنها - والله عما قليل - تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولى منها فادبر، ولا يدري ما هوات فينتظر» (1)، فكمية الألفاظ بين كل سجعيتين متواليتين متساوية، فلو أرجعنا النص إلى وحدته الأولية المتمثلة في الجمل لاتخذ النسق التالي:

١      ٢      ٣  
نظر الزاهدين فيها الصادقين عنها

أيها الناس، انظروا إلى الدنيا

١      ٢      ٣  
تزيل الثاوي الساكن  
وتفجع المترف الآمن

فإنها - والله عما قليل -

١      ٢      ٣      ٤      ٥      ٦  
لا يرجع ما تولى منها فادبر ولا يدري  
ما هوات فينتظر

ص: 730

فقلما تكرر القافية والواحدة في أكثر من ثلاث جمل مسجوعة متتالية، مما يزيل عن موسيقى الجمل الملل المتولد من رتابة التكرار من ذلك ما جاء في توييح البخلاء بالمال والنفس فقد اتخذت قوافي الجمل نغماً متنوعاً، ومتساوياً من حيث الكيمة اللفظية بين كل سجتين متتاليتين، ممّا منح السياق تموجاً إيقاعياً مستساغاً.

«فَلَا أَمْوَالَ بَدَلْتُمْوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا  
وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا

قها

تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلَا  
تَكْرُمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ

عباده

فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،  
وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَصْلِ إِخْوَانِكُمْ! (\* )

عباده

(\* )خطب - ١١٦ .

### ج - ورود الجمل المسجوعة بمعان متنوعة في سياقها الفكري:

مما يعني عدم تكرار المعاني على حساب الالفاظ، فالسجع ليس مقصودا لذاته، لذلك خلت نصوص النهج من الحشو، فجاءت معانيه محددة في الجمل التي صيغت من أجلها بحيث لا يمكن على الإطلاق الاستغناء عن أية جملة في أي نص من نصوصه، ويمكن ملاحظة ذلك في جميع النصوص التي وردت كاملة في النهج، مثل ذلك الدعاء:

«اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِإِلْسَارٍ وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ فَاسْتَرْقِ طَالِبِي رِزْقِكَ «فَلَا أَمْوَالَ بَدَلْتُمْوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلَا تَكْرُمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَصْلِ إِخْوَانِكُمْ! (\* )

وَأَسْتَعِظَ شِرَارَ خَلْقِكَ وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي وَأَفْتَنَ بِدَمِّ مَنْ مَنَعَنِي»<sup>(1)</sup>

فكل جملة قائمة بذاتها في الفقرات المسجوعة الثلاث، قد أدت معنى قائما بذاته يمكن عدّه عنصرا أساسيا في سياق النص الفكري، فالسجع الوارد في الدعاء لم يكن على حساب المعاني أو تكرارا لفحوة معانيها.

د- تقبل النفس للسجع الوارد في تلك النصوص لبعده عن التصنع والغثاثة:

فالسجع في فواصل نصوص النهج لا يرد مفتعلا متكلفا، فانسيابه الطوعي في تلك النصوص بسلاسته يجعل النفس تتقبله وترتاح إلى تردداته الايقاعية، لتمييز عبارات النهج بالانسجام التام بين اللفظ ومعناه والملابسات التي تكتنفه أثناء الاداء، وهو ما يمنح السياق نغمات عفوية تنم عن تفاعل قائلها معها وصدقه في توصيلها، فتسري في نفس متلقيها طبيعة من ذلك ما جاء في مجال الحث على الجهاد:

«وَاللَّهُ مُسَدِّدُ أَيْدِيكُمْ سُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ وَمُهْلِكُكُمْ فِي مِصْرٍ مَارٍ مَحْدُودٍ لِيَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَازِرِ وَأَطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ وَمَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَرَائِمِ الْيَوْمِ

ص: 732

---

1- خطب - 222-. وصيانة الوجه: حفظه من التعرض لذل السؤال. وبذل الجاه: سقوط المنزلة من القلوب. والإقتار: الفقر

فلقد سرت نغمة الحث والحماس في سياق النص، فمنح النغمات المتجانسة فيه سرعة منتظمة يكاد المتأمل في النص أن يحسها من كلمة (مستأديكم) المتضمنة معنى الطلب الواجب الاداء ومورثكم بما تتضمنه من معاني العطاء، فالعلاقة بين المعنيين: اداء الشكر للمنعوم ووراثة الأمر علاقة ترابطية متسمة، وتنطوي الاستمرارية على سرعة فيها يكاد المتأمل في النص ان يشعر بها من خلال كلمة (ممهلكم) والمضمار والمتعلق بها ووصف ذلك المضمار بالمحدودية، مما يعني التتابع السريع الكامن في ضمير الغائب المضاف في (شكره، امره، سبقه) وما احده ذلك الضمير في الفواصل من تجانس ايقاعي، وتوكيدا لاستمرارية الحماس وتتابع تدفقه، انبثقت الجملتان الانشائيتان بما فيهما من حث كامن في الكنايتين (عقد المآزر، فضول الخواصر) كتعبير عن الاستعداد وطرح كل ما يعيق السرعة، وقد أضفت السجعتان المتتاليتان (المآزر، والخواصر) نوعا من التصميم القوي الكامن في تكرار الراء بما فيها من تصويت نغمي مستمر قوي، ثم العودة إلى النفي في الجملة الخبرية غير المؤكدة، على أساس أن مضمون الإخبار به أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مؤكدات، ضمن مقولة حكمية تعني استحالة الوصول إلى المعالي في ظل الركون إلى الدعة والجري وراء اللذات، مع تناسق نغمي بين المعنيين اللذين يوحيان بالتقابل بين (العزيمة) كحافز على التصميم و (الوليمة) كتعبير عن الدعة، وفي سياق الحث يعود أسلوب الانشاء ليفرض

ص: 733

---

1- خطب - 217 - . ومستأديكم: طلب منكم أداء شكره. وممهلكم في مضمار: أي معطيكم مهملة في مضمار الحياة المحدود. وتتنازعا: تتنافسوا. العقد: جمع عقدة وهو الربط. والمآزر: جمع مئزر، وشد عقد المآزر، كناية عن الجد. واطووا فضول الخواصر: أي ما فضل من مآزركم كي لا يعيق سرعتكم بالنفاه حول أرجلكم



نفسه من خلال التعجب كمقولة توكيدية مفروغ منها بما تعنيه من قوة كامنة في النوم، عادة ما تنفض وتهير كل عزيمة حُطط لها في النهار، وذلك بالنسبة للسائر طوال النهار وفي عزمه قطع جزء من الليل في متابعة السير، فيحول النوم بينه وبين ذلك، فيكون ظلامه كستارة استدلّت على همم النهار وعزمه، مع ورود الميم كإيقاع تكرر في المواقع الأربعة بنغمات مختلفة في جرسها فقد تجانست كلمة النوم في وزنها الإيقاعي ومعظم حروفها مع اليوم مشكلة ما يسميه البلاغيون بالجناس الناقص، وتوائم الوزن بين الظلم والهمم، فأضاف ذلك إلى أسلوبه التعجب نسقا إيقاعيا، انطوى على حث غير مباشر للوصول إلى الغاية، فتدفق المعاني وانسياب الموسيقى من خلال التنقل في أساليب اللغة نأى بالجناس وغيره من المحسنات البديعية في النهج عن الرتابة والافتعال والغثاثة.

ويمكن ارجاع انتشار المحسن البديعي اللفظي في كثير من نصوص النهج لسببين هما:

الأول: تشيع روح علي عليه السلام بصيغ القرآن الكريم وأساليبه التي تشربتها نفسه حتى كادت تستوعب عليه كل كيانه ومشاعره، فكاد ينطق بها في جل ما يصدر عنه من حديث ولما كان أسلوب القرآن الكريم ق بني على نظام «يسمح في الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفس القارئ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين (1)»، فقد احتذاه علي عليه السلام وسار على نهجه وتمثل قوالبه، من دون أي تكلف، وهذا ما جعل أسلوبه يسير في ظلال أسلوب القرآن الكريم مبنى ومعنى، فكان إيقاع الفواصل وجرس الحروف الذي تميزت به آيات القرآن مما اكتسبه النثر الذي أثر عنه، ويمكن

ص: 734

ملاحظة ذلك بجلاء في النصوص التي وردت في النهج مستلهمة مضامينها الفكرية من تأملها العميق في معاني بعض آيات الذكر الحكيم (1).

الثاني: وهو عنصر نفسي، إذ لاحظنا كثرة الأسجاع والمقابلات المتقاربة في جرسها المتكاملة في إيقاعاتها في خطب علي عليه السلام ورسائله الانفعالية التي كان يرسلها كنفثات يحاول من خلالها التخفيف من وطأة ما تعانیه نفسه من آلام مكبوتة مرجعها لأسباب أهمها:

- الشعور بالهزيمة بسبب اقصائه عن حقه في الخلافة، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله واستمرار ذلك مدة حكم الثلاثة قبله، ومناوأة قريش له بعد أن آلت إليه الخلافة، رغم اعتقاده الراسخ بأحقية فيها، فإن رنة الحزن التي سرت فيما أثر عنه من أقوال في ذلك، جعلها تتميز بجرس اصطبغ برنة حزن، كست العبارات من حيث المعاني وإيقاعاتها كتعبيرات متزاحمة بما تنوء به نفسه من شعور بالضميم، ويمكن تبين ذلك في خطبه التي تضمنت موضوعاتها مسالة الخلافة، خاصة خطبته المعروفة بالشقشقية (2)، فقد وردت الموسيقى الحزينة الساخطة، هادرة مزمجرة، مفجرة في النص ما كانت نفسه ترزح تحت وطأته من آلام، حاول كبتها مدة من الزمن غير قصيرة، فتفجرت كالبركان الباعث بحممه فجاءت موسيقى النص صاحبة وحزينة.

- حالات الحزن المتولدة عن فقد الأحبة، فإن مثل هذه المناسبات تغلف مقولات علي عليه السلام وتبث في أوصالها جرسا ينطوي على أساه وألمه، مما يتيح للفواصل، وقفات استراحة تأملية موزونة، تحيل المعاني إلى حزن هادئ ومنتد،

ص: 735

1- راجع خطب -218، 219، 220

2- راجع خطب رقم 3

بعيداً عن التشنجات العصبية التي تفقد الإيقاعات طاقاتها الإيحائية.

- من ذلك ما أثر من قوله بعد دفنه زوجته السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ومنه «السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة إلى جوارك، السريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفتك صبري، ورق عنها تجلدي، الا ان في التأسي لي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز (1)»، فقد انسب الحزن ضمن المقولة ساكنا، اضفت عليه الموسيقى الصادرة من فواصل الاسجاع المتنوعة جوا من التأسي الممزوج بالألم العميق الكامن في اعماق النفس.

- ومن ذلك أيضاً ما قاله عندما وافاه خبر وفاة مالك الأشتر «مالك وما مالك والله لو كان جبلا لكان فندا، ولو كان حجرا لكان صلدا، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر» (2). فقريحته أبت إلا أن يكون التأين المجلل بالحزن قويا في جرسه، مما جعلها تجود بموسيقى تتناسب وشجاعة المؤمن في ترجيعات حزينة لا يمكن ان يدرك مدى ألمها وعمق وقعها في النفس إلا من يعرف علاقة مالك الأشتر بعلي عليه السلام.

ومن العوامل النفسية التي فرضت تدفق أساليب البديع ضمن مآثرات علي عليه السلام تولد الأسى المكبوت وامتزاجه بالغضب في قرارة نفسه جراء ما لقيه من أصحابه من عناد وخلاف، ومن عدم امثال لنصحته، وعدم الاستجابة لأوامره، واستغاثاته في مقاومة أعدائه ومناوئيه بالإضافة إلى خيانة بعض ولاته لأماناتهم التي كلفهم بالقيام عليها وحفظها.

فمن الرسائل الغاضبة التي يمكن ملاحقة قوة الايقاع فيها، بالممازجة بين

ص: 736

1- خطب - 196-

2- حكم 152 . الفند: الجبل المفرد من الجبال. والصلد: الصلب الذي لا يتفتت. ولا يوفي عليه أي لا يصل إليه

جرس الألفاظ والتقابل في معانيها ما جاء في قوله لأحد ولاته حين بلغته خيانتة:

«أَمَّا بَعْدُ:

«أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ

ما غَرَّني مِنْكَ

فاصلتان مسجوعتان

وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ

وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ

فاصلتان مسجوعتان

فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ

لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِياداً

وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَتِكَ عَتَاداً

فاصلتان مسجوعتان

مقابلة + سجع - تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَتِكَ

مقابلة + سجع - وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ»(1)

فعبارات التوبيخ الغاضبة قد وردت متتابعة متخذة نسقا إيقاعيا تلقائيا، بتكرار كاف الخطاب سبع مرات، بتضمينها في المواضع السبعة اتهاما مباشرا مقرونا بخيبة أمل متولدة عن اختيار غير مناسب، معياره صلاح الاب، وقد زاد في تكثيف الموسيقى ضمن السياق جرس الألفاظ المتولد عن السجعات المتوالية في نسقها المختلفة في ادائها النغمي في:

تتبع هديه، تسلك سبيله

ص: 737

تعمر دنياك، بخراب آخرتك تصل عشيرتك، بقطيعة دينك ويقصد علي عليه السلام بالدين هنا علاقة العبد بربه، وقطيعة الدين انفصام لتلك العلاقة.

ويعلو النبر الايقاعي أيضاً في خطب الجهاد، ولكن برغم الصخب الذي تندفع به المعاني، يبقى الجرس واضحاً، ليس الا لأن روح علي عليه السلام تكون في غاية النشوة والحبور، وهي تسجل بالكلمة أناشيد البطولة والفداء، كما تسجل بالسيف ملاحم الشجاعة، فالنغمة الشجية الهادئة في خطب الإيمان الداعية إلى تمجيد الخالق وشكره، تقابلها نعمات القوة والحماس في أثناء المنافحة والدفاع عن ذلك الإيمان، مما يحيل الخطب الحماسية إلى نشيد ملحمي يتردد صدهاء في صدر كل مقاتل يحارب إلى جانبه، فمن خطبة له في صفين «الجنة تحت اطراف العوالي، اليوم تبلى الاخبار، والله لانا اشوق إلى لقائهم منهم إلى ديارهم اللهم فإن ردوا الحق، فافضض جماعتهم، وشتت كلمتهم وابسلهم بخطاياهم...» (1)، فقد اتخذت الجمل في السياق نسقا ايقاعيا تصاعديا، بانسياب الجملتين الخبريتين في المطلع بطريق الفصل على اعتبار الرابط النفسي هو اللاحم بينهما، ومن أجل استمرارية التصاعد الحماسي انبثقت جملة القسم مؤكدة إحساسات علي عليه السلام إزاء

ص: 738

---

1- خطب - 124 - . الجنة تحت أطراف العوالي: مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله «الجنة تحت ظلل السيوف» وبروق العوالي: لمعان الرماح وخطفها في حركتها أثناء الحرب. وقوله: تبلى الأخبار: مقتبس من قوله تعالى «وَتَبَلَّوْاْ أَخْبَارَكُمْ» محمد/ 31: أي نخبر أفعالكم

الموقف، مكثفية بالعامل النفسي كرابط لها في السياق، تلا ذلك فصل ثالث تضمن ثلاث جمل انشائية متواصلة بالعطف بالواو فيما بينها باعتبار وقوعها ضمن جواب الشرط الواقع ضمن الجملة الدعائية وقد اكتست تلك الجمل الثلاث نبرا ايقاعيا قويا ولدته الميم الساكنة. فتمازج الفصل كرابط نفسي بالوصل كرابط تعبيرية، وتنقل الأفكار عبر الأساليب الخبرية والانشائية، مع التناغم المتولد من توحد قوافي الجمل الثلاث الأخيرة قد كسا النص التدفق والاستمرارية في معاني الحماس.

لقد بلغ نهج البلاغة من الاتساق الاسلوبي والرصانة الفكرية والالتزام ما جعله يتبوا ذروة الابداع «فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجعة ابعده ما يكون من الصنعة وروحها، واقرب ما يكون من الطبع الزاخر»<sup>(1)</sup>.

ص: 739









ان النتيجة التي توصلنا إليها، من خلال البحث عن اصول نهج البلاغة، هي ترجيح نسبتها إلى الإمام علي عليه السلام، لكون تلك النصوص في مجملها نابعة من معين فكري واحد، متخذة نسقا أسلوبيا يتميز بخصائص تركيبية تنتمي - في مجملها - من حيث الترتيب المنطقي، والاداء الاسلوبي، والقاموس اللغوي، إلى مفكر واحد. هذا بالإضافة إلى القرائن التاريخية والادلة التوثيقية والشواهد الاسنادية التي تعضد نسبة تلك النصوص إلى علي عليه السلام، فانفتح لنا الباب بذلك مشرعا للدخول إلى فكر علي عليه السلام من خلالها بكل اطمئنان.

ففي مجال دارستنا للأفكار الواردة في تلك النصوص المتعددة المناحي والمناسبات وجدنا انها - في معظمها - مشيدة على دعائم ثلاث تتمثل في: الفكر السياسي، والفكر الاجتماعي، والفكر الكلامي، وهذه الدعائم الثالث تحث ابناء مجتمع علي عليه السلام على المثالية وعلى التوق إلى نصاعة الإسلام الأولى التي كان على عهد الرسول صلى لله عليه وآله وسلم. فمن هذه الناحية يمثل الإمام علي بن أبي طالب الرسول صلى لله عليه وآله وسلم في كل افعاله واقواله.

ففي ميدان السياسة، وفض ان يسكت عن احقيته في ولاية المسلمين مينا

موقفه الفكري تجاه خلفاء المسلمين الثلاثة قبله، مع ابقاء رابطة التعاون معهم في حدود ما يرضي الله، ويحفظ للإسلام قوته ووحدته، كما وقف بكل حزم، ودونما تهاون أو تراخ في وجه المناوئين لحكومته، لا تمسكا بالحكم، ولكم تصديا لكل ما يسيء إلى تعاليم الإسلام كاستغلال مفاهيمه الإنسانية استغلالا معوجا، لصالح فئة معينة على حساب الفئات المستضعفة.

ولكن تيار المادة كان اقوى من تيار القيم التي نادى بها علي عليه السلام، وكانت النتيجة استشهاده في سبيل المبدأ، ومن أجل ابقاء القيم ناصعة، وقد تمثل ذلك التصور بكل ابعاده في مفهومه للدولة، واهلية القيادة، وكيفية تصور لمؤسسات الدولة من النواحي القضائية والعسكرية والاقتصادية والادارية، وقد انبنى ذلك التصور على أسس متناهية في مثاليتها، غايتها الإنسان وسعادته في الدارين، فهي سياسة دينية تطمح إلى الاخذ بيد الإنسان نحو حياة مشرقة في ظلال شجرة القيم الأخلاقية المورفة الظلال.

وضمن استنتاجاتنا لخلاصة الفكر الاجتماعي الوارد في سياق نصوص نهج البلاغة وجدنا انه بما ينطوي عليه من مبادئ وقيم، ملتصق التصاقا مباشرا بالإنسان في جميع مراحل حياته. وفي كل علاقاته بمحيطه، بداية من الأسرة فالصدقات المحدودة، فالعلاقات الاجتماعية بمعناها العام الشامل، مما يعني ان حقوق الفرد تجاه كل تلك العلاقات مرتبطة ارتباطا وثيقا بواجباته تجاه مجتمعه بحيث تبقى فريته متميزة بطابعها الشخصي ومنسجمة في ان واحد - مع افراد المجتمع من حولها، تحت مظلة المساواة والعدل المطويين على الحب والخير، والمؤدين إلى الامن الذي ينشده كل فرد وكل جماعة. لذلك جاءت معالجة علي عليه السلام لكل عنصر سلبي في المجتمع معالجة جذرية وبناءة، مع طموح

دائب في الوصول بالفرد ضمن مجتمعه نحو ما يريد له الإمام علي عليه السلام من مثال ضمن مجتمع اساسه التوازن في معاملاته وعلاقاته بين المتطلبات الدنيوية والمتطلبات الأخروية.

لذلك ارتأى الإمام علي عليه السلام ان يكون الإنسان على دراية ومعرفة بقيمته الإنسانية ولن يتأتى له ذلك الا من خلال معرفة علاقته بخالقه المتمثلة في ادراك حقيقة الوجود من حوله وعلاقة ذلك الوجود به هو نفسه، واثر الخالق في الوجود وما يرتبط فيه من علاقات، فإذا ما تمكن الإنسان من معرفة نفسه، استطاع ان يعرف ذاته التي يمكنه من خلالها تقدير منزلته في هذا الكون، فتطمئن نفسه ويهتدي بتأمله العميق ذاك إلى فكرة التوحيد، لذلك العنصر الذي ما فتى يلح على نفس علي عليه السلام حتى اخر لحظة من حياته، على اعتباره لب العقيدة الإسلامية وركنها الاساسي.

فالتوحيد - كما هو بين في النهج - دعوة إلى الإيمان بوجود الخالق الواحد من خلال ذاتية يمكن للإنسان ان يتوصل إليها بالنظر إلى نفسه، وفي ما حوله من ابداعات، وهو ما يقتضي ان يعرف ماهية علاقة الملائكة بالخالق، بالقدر الذي يستوعبه فكر الإنسان، كل حسب مستواه كمعلم من معالم العقيدة لا جدال فيه.

ومن معالم العقيدة في فكر الإمام علي عليه السلام الإيمان بالرسول وقيمتهم الأساسية كهداة انيطت بهم مهمة انتشال العقول من مهاوي الجهالة ومتاهات الضلالة.

ولما كان الإنسان هو المعنى بالرعاية، والمحاط بالتكريم من لدن الخالق العظيم فقد افرد له الإمام علي عليه السلام مساحة واسعة من فكره، معتبرا اياه المخلوق السوي المميز، الذي من اجله خلق الله هذا الكون وجعل كل مقدراته تحت

تصرفه، فكان ان وقف متأملاً في حقيقة خلقه، واصول تربته التي انشأه الله منها، ومكانته في هذا الكون، وقدرته على التصرف فيما حوله، وغاية وجوده، وعلاقته بالدنيا الزمانية، والاخرى المكانية، والترابط بينهما في وحدة تكمن في المصير، مما يحتم على الإنسان ان يدرك ذلك كله. وادراكه ذلك سيقوده لا محالة إلى الفهم الحقيقي في كيفية التصرف بحياته المؤقتة. وعند هذه النقطة يتداخل مفهوم التصوف بمفهوم الزهد في نهج البلاغة، فيمنح النصوص المتعلقة بذلك ابعاداً فلسفية غايتها الخروج منه بأفكار تصلح لأن تكون متكآت فكرية للتصوف عند المتصوفة، وللزهد عند من يدعون إلى ذم الدنيا والاعراض عنشؤونها، ولكن بتبعنا لفحوى تلك النصوص، نجد ان فكر الإمام علي (علي السلام) لا ينحو نحو التصوف، ولا يأخذ بالجانب الزهدي كأسلوب يحرم النفس من متع الدنيا التي احلها الله.

فالزهد كما نستشفه من افكار الإمام علي عليه السلام هو الاخذ من متع الحياة بما يتلاءم والقيم التي شرعها الإسلام دونما افراط ولا تفريط ثم انه في جانب اخر يعني احاطة الأخلاق بسياج متين من القيم في حالة اخفاق الإنسان في تحقيق طموحاته المادية في الحياة، وهو في جانب ثالث يعني اقدام الإنسان على خوض الغمرات إلى الحق بكل اصرار وايمان انطلاقاً من مفهوم واجب الإنسان نحو خالقة فيدنيه القصيرة مما يمنح الجهاد بكل معانيه ابعاداً ذات قيمة مقدسة في فكر الإمام علي عليه السلام.

فتمسك الإنسان بالقيم والاصرار على بقائها ناصعة، واحتمال المشاق من أجل خلودها، لا بد ان يصل بالإنسانية - في نهاية المطاف - إلى المكانة السامقة، بالتوق نحو مستقبل تكون الحقيقة فيه جلية، حيث لا ظلم ولا اضطهاد، ولا

زيف ولا نفاق، وذلك هولب محور فكر الإمام علي عليه السلام في الجانب الكلامي المتمثل في فكرة المهدي والمهدية.

لقد قام الشريف الرضي بإيجاز خالد حين باشر بجمع ما جمعه من هذا الفكر الثر المنطوي على تصور شبه متكامل للحياة بكل ابعادها السياسية والاجتماعية والفكرية، وفي قالب أسلوية هي غاية في الابداع والروعة من حيث التناسق الاسلوبي، والجمال البلاغي والانسجام النغمي، فكان نهج البلاغة بما حواه من خطب ووصايا وعهود ورسائل ومواعظ وحكم بناءا متناغما ومعلما متكاملا من حيث الشكل الفني والمضمون الفكري.

ص: 747









اولا - نسخ نهج البلاغة التي اعتمدت ها الدارسة

\* نهج البلاغة - صورة من نسخة مخطوطة نادرة من القرن الخامس الهجري - خزانة المخطوطات - مكتبة آية الله المرعشي - قم - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

\* منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - الراوندي - سعيد بن هبة الله (ت 573 هـ) - تحقيق عبد اللطيف الكوهكمري - مكتبة آية الله المرعشي - قم - 1985 .

\* شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - عز الدين بن هبة الله بن محمد (ت 655 هـ):

- تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهم - دار احياء التراث العربي - بيروت - ط 2 - 1965.

- مراجعة وتحقيق لجنة احياء الذخائر - دار مكتبة الحياة - بيروت - 1983 .

\* شرح نهج البلاغة - ميثم البحراني - كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت 679 هـ):

- دار العالم الإسلامي - بيروت - ط 2 - 1981 .

\* منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - الخوئي - ميرزا حبيب الله:

- مؤسسة الوفاء - بيروت - ط 2 - 1983 .

- \* نهج البلاغة - شرح الشيخ محمد عبده:  
- تحقيق محمد عاشور - الشعب - القاهرة - د . ت .  
- الاندلس - بيروت - ط 7 - 1984 .  
\* الاعلمي - بيروت - د . ت .  
- البلاغة - بيروت - ط 4 - 1989 .  
\* في ظلال نهج البلاغة - مغنية - محمد جواد:  
- دار العلم للملايين - بيروت - ط 2 - 1983 .  
\* الكاشف عن الفاظ نهج البلاغة - الخراساني - السيد جواد المصطفوي:  
- دار الكتب الإسلامية - طهران - 1975 .  
\* نهج البلاغة - ضبط وفهرسة: الصالح - الشيخ صبحي:  
- دار الكتب اللبناني - بيروت - ط 3 - 1983 .  
\* مصادر نهج البلاغة - الحسيني - عبد الزهراء:  
- مؤسسة الاعلمي - بيروت - ط 2 - 1975 .  
\* المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة - كاظم محمدي ومحمد دشتي:  
- دار الاضواء - بيروت - 1986 .  
\* نهج البلاغة - تحقيق وشرح: ابراهيم - محمد ابو الفضل:  
- دار الجيل - بيروت - 1988 .  
ثانيا - المراجع  
\* الآبي أبو سعيد منصور بن الحسين (ت 421 هـ):  
- نثر الدر - الهيئة المصرية - القاهرة - د . ت .

- الأمّدي - عبد الواحد بن محمد التميمي (ت 550 هـ):
- غرر الحكم ودرر الكلم - دار الفارئ - بيروت ط 1 - 1987 .
- \* الابشيهي شهاب الدين محمد - بن أحمد (ت 850 هـ):
- المستطرف في كل فن مستظرف - الحياة - بيروت - 1986 .
- \* ابراهيم - حسن:
- تاريخ الاسلام السياسي - النهضة المصرية - القاهرة - ط 8 - 1974 .
- \* ابراهيم - محمد أبو الفضل:
- مقدمة تحقيق امالي المرتضى - دار الكتاب العربي - بيروت ط 2 - 1967 .
- \* ابن الأثير - نجم الدين أحمد بن اسماعيل الحلبي (ت 737 هـ):
- جوهر الكنز - منشأة المعارف - الاسكندرية - د . ت .
- \* ابن الاثير - أبو الحسن علي بن محمد (ت 630 هـ):
- أسد الغابة في معرفة الصحابة - كتاب الشعب - القاهرة - 1970 .
- الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت ت ط 4 - 1983 .
- \* ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد ( 606 هـ):
- جامع الأصول من احاديث الرسول - إحياء التراث العربي بيروت - ط 4 - 1984 .
- النهاية في غريب الحديث والأثر - دار الفكر العربي - بيروت ط 2 - 1979 .
- \* ابن الأثير - ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت 637 هـ):
- المثل السائر - نهضة مصر - القاهرة - د . ت .
- \* الاخفش الاصغر - علي بن سليمان بن الفضل (ت 315 هـ):
- كتاب الاختيارين - الرسالة - بيروت - ط 2 - 1984 .

\* اخوان الصفا:

- رسائل اخوان الصفا - صادر - بيروت - د . ت .

\* أرسطو طاليس:

- علم الأخلاق - دار الكتب المصرية - القاهرة - 1924 .

\* ابن اسحاق - محمد (ت 151 هـ):

- السيرة النبوية - الوقف للخدمات الخيرية - فونه - 1981 .

\* الاسكافي - أبو جعفر محمد بن عبد الله (ت 240 هـ):

- كتاب نقض العثمانية - بواسطة شرح ابن أبي الحديد.

\* اسماعيل محمود :

- سوسولوجيا الفكر الإسلامي - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط 1 - 1980 .

\* الاشعري - أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت 324 هـ):

- مقالات الإسلاميين - فرانز شتايز - فيسبادن - ط 3 - 1980 .

\* الاصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت 356 هـ):

- الاغانى - الدار التونسية للنشر - تونس - 1983 - مصورة عن نسخة دار الثقافة - بيروت .

- مقاتل الطالبين - الاعلامي - بيروت - ط 2 - 1987 .

\* ابن أعثم أحمد الكوفي (ت 314 هـ):

- الفتوح - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1986 .

\* افلاطون في الإسلام:

- نصوص من تحقيق عبد الرحمن بدوي - الأندلس - بيروت - ط 2 - 1980 .

\* امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي (ت نحو 540 م):

ص: 754

- ديوانه - دار المعارف - القاهرة - ط 4 - 1984 .

\* أمين أحمد :

- كتاب الأخلاق - الكتاب العربي - بيروت - 1969 .

- ظهر الإسلام - الكتاب العربي - بيروت - ط 5 - 1969 .

- فجر الإسلام - النهضة المصرية - القاهرة - ط 13 - 1978 .

\* الامين - حسن :

- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية - دار التعارف - بيروت - ط 3 - 1981 .

\* الامين السيد محسن :

- أعيان الشيعة - دار التعارف - بيروت - 1982 .

\* الأميني - عبد الحسين بن أحمد :

- الغدير في الكتاب والسنة - الكتاب العربي - بيروت - ط 4 - 1977 .

\* الأنطاكي داور بن عمر (ت 1008 هـ-) :

- تزيين الأسواق في أخبار العشاق - دار حمد ومحيو - بيروت - ط 1 - 1972 .

\* التستري - محمد تقي :

- قضاء أمير المؤمنين عليه السلام - الأعلمي - بيروت - ط 10 - 1983 .

\* الباقلائي - أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403 هـ-) :

- إعجاز القرآن - دار المعارف - القاهرة - ط 5 - 1981 .

\* الباقوري - أحمد حسن :

- علي إمام الأئمة - مكتبة مصر - القاهرة - 1985 .

\* البحراني - السيد هاشم :

ص: 755

- البرهان في تفسير القرآن - الوفاء - بيروت - ط 3 - 1983 .
- \* ابن بدران - عبد القادر:
- تهذيب تاريخ دمشق - دار المسيرة - بيروت - ط 2 - 1979 .
- \* البرقي - أحمد بن محمد بن محمد بن خالد (ت 274 هـ-) :
- المحاسن - دار الكتب الإسلامية - قم - ط 2 - د . ت .
- \* بروكلمان كارل:
- تاريخ الشعوب الإسلامية - العلم للملايين - بيروت - ط 10 - 1984 .
- تاريخ الأدب العربي - دار المعارف - القاهرة - ط 3 - 1974 .
- \* البغدادي - عبد القاهر بن طاهر التميمي (ت 429 هـ-) :
- اصول الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 3 - 1981 .
- \* ابن بكار - الزبير (ت 256 هـ-) :
- الأخبار الموفقيات - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - 1972 .
- \* الكبرى - عبد الله بن عبد العزيز الاندلسي (ت 487 هـ-) :
- معجم ما استعجم - عالم الكتب - بيروت - ط 3 - 1983 .
- \* البلاذري - محمد بن يحيى بن جابر (ت 239 هـ-) :
- انساب الاشراف - الاعلمي - بيروت - ط 1 - 1974 .
- فتوح البلدان - مؤسسة المعارف - بيروت - 1987 .
- \* بلاشير - رجيس :
- تاريخ الادب العربي - الدار التونسية للنشر - تونس - 1986 .
- \* البلخي - ابو القاسم عبد الله بن أحمد (ت 309 هـ-) وغيره من المعتزلة:

- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة - الدار التونسية للنشر - تونس - 1986 .

\* البنا - أحمد بن عبد الرحمن :

- الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد احياء التراث العربي - بيروت - ط 2 - د . ت.

\* بوازار - مارسيل :

انسانية الاسلام - دار الآداب - بيروت - ط 1 - 1980 .

\* البوصيري - شرف الدين محمد بن سعيد ( ت 696 هـ ):

- ديوانه - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ط 1 - 1955 .

\* بيصار - محمد عبد الرحمن :

- العقيدة والاخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع - الانجلو مصرية - القاهرة - ط 4 - 1973 .

\* البيهقي - ابراهيم بن محمد (أحمد اعلام القرن الثالث الهجري):

- المحاسن والمساويء - نهضة مصر - القاهرة - 1961 .

\* التلمساني - محمد بن أبي بكر (من علماء اواسط القرن السابع):

- الجوهرة في نسب الامام علي وآله - مكتبة النوري - دمشق - ط 1 - 1983 .

\* التنوخي ابو علي المحسن بن أبي القاسم (ت 384 هـ):

- الفرج عبد الشدة - الشريف الرضي - قم - 1945 .

\* التهانوي - محمد علي بن علي :

- كشاف مصطلحات الفنون - دار قهرمان - استانبول - 1984 .

\* التوحيدي - أبو حيان علي بن محمد بن عباس (ت 380 هـ):

- الإمتاع والمؤانسة - الحياة - بيروت - د . ت.

\* توشار - جان :

ص: 757



- تاريخ الأفكار السياسية - وزارة الثقافة - دمشق - 1984 .
- \* الثعالبي - عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت 429 هـ):
- برد الاكباد في الاعداد - الجوائب - القسطنطينية - 1884 .
- التمثيل والمحاضرة - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - 1961 \* الجاحظ - ابو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ):
- البخلاء - دار احياء العلوم - بيروت - ط 1 - 1988 .
- البيان والتبيين - الخانجي - القاهرة - ط 3 - د . ت .
- المئة المختارة بشرح ميثم - مير جلال الدين الارموي - طهران - 1970 .
- \* الجرجاني - عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471 هـ):
- أسرار البلاغة - وزارة المعارف - استانبول - 1954 .
- دلائل الاعجاز - المعرفة - بيروت - 1978 .
- \* جرداق - جورج :
- علي صوت العدالة الإنسانية - حياة - بيروت - 1970 .
- \* الجندي - علي وزميلاه:
- سجع الحمام في حكم الامام - دار القلم - بيروت.
- \* جولد تسهير - أجناس:
- العقيدة والشريعة الاسلام - الرائد العربي - بيروت - طبعة مصورة عن طبعة دار - الكتاب المصري - 1946 .
- \* الجهشياري - أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت 331 هـ):
- الوزراء والكتاب - مصطفى الحلبي - القاهرة - ط 2 - 1980 .
- \* الجوهري - ابو بكر أحمد بن عبد العزيز ( من رجال النصف الاخير من القرن

الثالث):

- السقيفة: بواسطة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
- \* الجوهرى - اسماعيل بن حماد (ت 393 هـ):
- الصحاح دار العلم للملايين - بيروت - ط 2 - 1979 .
- \* ابن الحجاج القشيري - ابو الحسن مسلم (ت 261 هـ):
- صحيح مسلم - احياء التراث العربي - بيروت - د . ت .
- \* ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت 852 هـ):
- تهذيب التهذيب - صادر - بيروت - 1968 .
- لسان الميزان - الاعلمي - بيروت - ط 2 - 1971 .
- \* الحر العاملي - محمد بن الحسن (ت 1104 هـ):
- وسائل الشيعة - احياء التراث العربي - بيروت - ط 5 - 1983 .
- \* ابن حزم الاندلسي - ابو محمد علي بن أحمد (ت 456 هـ):
- جمهرة أنساب العرب - المعارف - القاهرة - ط 5 - 1982 .
- الفصل في املل والنحل المعرفة - بيروت - 1986 .
- \* حسين طه:
- حديث الاربعاء - المعارف - القاهرة - ط 10 - 1973 .
- الشيخان - المعارف - القاهرة - ط 7 - 1981 .
- الفتنة الكبرى (عثمان) - المعارف - القاهرة - ط 10 - 1984 .
- الفتنة الكبرى (علي وبنوه) - المعارف - القاهرة - ط 11 - 1982 .
- \* الحصري القيرواني - ابو اسحاق ابراهيم بن علي (ت 453 هـ):

ص: 759

- زهر الآداب - احياء الكتب العربية - القاهرة - ط 1 - 1953 .

\* حقي - ممدوح:

- التعليق على كتب الاسلام وأصول الحكم الحياة - بيروت - د . ت.

\* الحكم سعاد:

- المعجم الصوفي - المؤسسة العامة للدراسات - بيروت - ط 1 - 1981.

\* الحكيمي - محمد رضا:

- شرح الخطبة الشقشقية - الوفاء - بيروت - ط 1 - 1982 .

\* الحلبي - علي بن برهان الدين ( ت 1044 هـ -):

- لسيرة الحلبي - دار المعرفة - بيروت - د . ت.

\* الحموي - ياقوت بن عبد الله ( ت 626 هـ -):

- معجم البلدان - صادر - بيروت - 1984 .

\* ابن حنبل - ابو عبد الله الامام أحمد ( ت 241 هـ -):

- كتاب الزهد - الفكر الجامعي - الاسكندرية - 1984 .

- المسند احياء التراث العربي - بيروت - د . ت.

\* الحوفي - أحمد محمد:

- بلاغة الامام علي - نهضة مصر - القاهرة - ط 1 - 1977 .

\* خسرو - ناثر ( ت 450 هـ -):

- سفرنامه - دار الكتاب الجديد - بيروت - ط 2 - 1970 .

\* خفاجي - محمد عبد المنعم:

- الازهر في الف عام - المطبعة المنيرية - القاهرة - ط 1 - 1945 .

ص: 760

\* ابن خلدون - عبد الرحمن (ت 808 هـ):

- المقدمة والتاريخ - دار الفكر - بيروت - ط 1 - 1981 .

\* خلف الله أحمد - محمد :

- في العروبة وآدابها - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - 1970 .

\* ابن خلكان - شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ):

- وفيات الاعيان دار الثقافة - بيروت - د . ت .

\* الخميني - روح الله .

- الحكومة الإسلامية - دار الطليعة - بيروت - ط 1 - 1979 .

\* ولد خوجه - عبد الوهاب:

- شرح المئة المختارة - مير جلال الدين الأرموي طهران - 1970 .

\* الخوانساري - محمد باقر الموسوي:

- روضات الجنات - مكتبة اسماعيليان - قم - 1970 .

\* خياط يوسف:

- معجم المصطلحات الفنية - دار لسان العرب - بيروت - د . ت .

\* دراز محمد عبد الله :

- دستور الأخلاق في القرآن - الرسالة - بيروت - ط 3 - 1980 .

\* ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن الأزري (ت 321 هـ):

- المجتبي - دار الفكر - دمشق ط 1 - 1979 .

- جمهرة اللغة - صادر - بيروت - صورة من طبعة دائرة المعارف العثمانية - 1345 هـ -- 1926 م .

\* ابن أبي الدنيا - أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي (ت 280 هـ):

ص: 761

- اليقين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1987 .

\* دوفابر - جاك دونديو:

- الدولة - عويدات - بيروت - ط 1 - 1970 .

\* ديور - ت ج :

- تاريخ الفلسفة الإسلامية - النهضة المصرية - القاهرة - ط 5 - د. ت.

\* الديلمي - محمد بن الحسين بن محمد (ت 463 هـ):

ارشاد القلوب - بواسطة: مستدرك الوسائل للنوري - مؤسسة آل البيت - بيروت - د. ت.

\* الدينوري - ابو حنيفة أحمد بن داود (ت 282 هـ):

- الأخبار الطوال - دار المسيرة - بيروت د. ت.

\* دينيت - دانييل:

- الجزية في الاسلام - الحياة - بيروت - د. ت.

\* الذهبي - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ):

- سير اعلام النبلاء - الرسالة - بيروت - ط 3 - 1985 .

\* الرازي - عبد الرحمن بن محمد بن ادريس (ت 327 هـ):

- الجرح والتعديل - احياء التراث العربي - بيروت - طبعة مصورة عن الطبعة الأولى بالدكن - 1952 .

\* الرازي - محمد بن عمر (ت 604 هـ):

- تفسير الرازي - دار الفكر - بيروت - ط 3 - 1985 .

\* الراغب الاصفهاني - حسين بن محمد (ت 502 هـ):

- محاضرات الأدباء الحياة - بيروت - د. ت.

ص: 762

- المفردات في غريب القرآن دار قهرمان - استانبول - 1986.

\* رجب - منصور :

- تأملات في فلسفة الأخلاق الانجلو مصرية - القاهرة - ط 3 - 1961 .

\* ابن رشد - محمد بن أحمد الأندلسي (ت 595 هـ):

- تلخيص الخطابة - وكالة المطبوعات - الكويت د. ت.

\* ابن رشيقي - الحسن القيرواني (ت 456 هـ):

- العمدة الجيل - بيروت - ط 4 - 1972 .

\* رضا - احمد:

- معجم متن اللغة - الحياة - بيروت - ط 1 - 1958 .

\* الرضا - الامام علي بن موسى (ت 203 هـ):

- صحيفة الامام الرضا - مؤسسة الامام المهدي - قم - 1987 .

- الفقه المنسوب للامام الرضا - آل البيت - قم - ط 1 - 1985 .

\* رضا محمد :

الامام علي بن أبي طالب عليه السلام - الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

\* رضا محمد رشيد:

- تفسير المنار - المعرفة - بيروت - ط 2 - د. ت.

- الوحي المحمدي - عز الدين - بيروت - ط 3 - 1986 .

\* الرضي الشريف محمد بن الحسين الموسوي (ت 406 هـ):

- حقائق التأويل - دار المهاجر - بيروت - د. ت.

- خصائص الائمة - مجمع البحوث الإسلامية - مشهد - 1985 .

ص: 763

رسائل الصابي والشريف الرضي - دائرة المطبوعات - الكويت - 1961 .

- المجازات النبوية - مصطفى الحلبي - القاهرة - 1971 .

\* الزبيدي - محمد مرتضى الحسن (ت 1205 هـ):

- تاج العروس - دار الجيل - بيروت - بوشر بنشره منذ 1965 . باشراف حكومة الكويت ولم يتم بعد.

\* الزبير بن بكار (ت 256 هـ):

- الأخبار الموقفات - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - 1972 .

\* الزجاج - أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم (ت 339 هـ):

- الامالي في المشكلات القرآنية والاحاديث النبوية الكتاب العربي - بيروت - ط 2 - 1983 .

\* الزركلي خير الدين :

- اعلام الزركلي - الملايين - بيروت - ط 7 - 1986 .

\* الزمخشري - جار الله محمود بن عمر (ت 583 هـ):

- ربيع الابرار - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - 1976 .

\* الزنجاني السيد ابراهيم الموسوي:

- عقائد الإمامية الاثني عشرية - الوفاء - بيروت - 1982 .

\* ابو زهرة - محمد :

- خاتم النبيين - العصرية - بيروت - 1979 .

- المجمع الإنساني في ظل الاسلام - ديوان المطبوعات الجزائرية . الجزائر - ط 2 - 1981 .

\* ابو زيد شلبي:

ص: 764

- الخلفاء الراشدون - مكتبة وهبة - القاهرة - 1967 .
- \* زيد - جرجي .
- تاريخ آداب اللغة العربية - الحياة - بيروت - 1967 .
- تاريخ التمدن الإسلامي - الحياة - بيروت - د. ت .
- العرب قبل الاسلام - الحياة - بيروت - 1979 .
- \* سبط ابن الجوزي يوسف بن فرغلي (ت 654 هـ-):
- تذكرة الخواص - أهل البيت - بيروت - 1981 .
- \* السجستاني - ابو حاتم سهل بن محمد (ت 250 هـ-):
- المعمرون والوصايا - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - 1961 .
- \* ابن سعد - محمد (ت 230 هـ-):
- الطبقات الكبرى - دار بيروت - بيروت - 1980 .
- \* السكوني - أبو علي عمر (ت 717 هـ-):
- عيون المناظرات - الجامعة التونسية - تونس - 1976 .
- \* السلجماسي - أبو محمد القاسم الانصاري (من نقاد القرن الثامن الهجري):
- المنزح البديع - مكتبة - المعارف - الرباط - ط 1 - 1980 .
- \* سلوم داود:
- شعر الكميت - مكتبة - الاندلسي - بغداد - 1969 .
- \* السنهوري - عبد الرزاق:
- مصادر الحق في الفقه الإسلامي - دار الفكر - بيروت - د. ت .
- \* السهارنفوري - خليل بن احمد:



- بذل المجهود في حل ابي داود - الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

\* السهيلي - عبد الرحمن (ت 581 هـ):

- الروض الأنف - بواسطة سيرة بن هشام - دار احياء التراث - بيروت - د. ت.

\* السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن (ت 911 هـ):

- تاريخ الخلفاء - مطبعة السعادة - القاهرة - 1952 .

- الدر المنثور - بواسطة : فضائل الخمسة في الصحاح الستة، للفيروز آبادي - الاعلامي بيروت - ط 4 - 1982 .

- شرح شواهد المغنى - الحياة - بيروت - 1966 .

- المزهر في علوم اللغة - دار الفكر - بيروت - د. ت.

\* ابن شاذان - ابو محمد الفضل (ت 260 هـ):

- الايضاح - الاعلامي - بيروت - ط 1 - 1982 .

\* ابن شعبة الحراني - ابو محمد الحسن بن علي (من اعلام القرن الرابع الهجري)

- تحف العقول عن آل الرسول - الاعلامي - ط 5 - 1974 .

\* ابن شهر آشوب - ابو عبد الله محمد بن علي (ت 588 هـ):

\* مناقب آل ابي طالب عليه السلام - المطبعة الحيدرية - النجف 1956 .

\* الشهرستاني - أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ):

- الملل والنحل - دار المعرفة - بيروت - د. ت.

\* الصالح - الشيخ صبحي:

- مقدمة نهج البلاغة - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 3 - 1983 .

\* صبحي أحمد محمود:

- الزيدية الزهراء للاعلام العربي - القاهرة - ط 2 - 1984 .

- نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية - دار المعارف - القاهرة 1969 .
- \* الصدر - حسن:
- تأسيس الشيعة لفنون الاسلام - الرائد العربي - بيروت - 1980 .
- \* الصدوق - ابن بابويه أبو جعفر بن علي بن الحسين (ت 382 هـ):
- امالي الصدوق - الاعلمي - بيروت - ط 5 - 1980 .
- التوحيد - دار المعرفة - بيروت - د. ت.
- الخصال - جماعة المدرسين بالحوزة العلمية - قم - 1982 .
- علل الشرائع - دار البلاغة - بيروت - مصورة عن طبعة النجف 1969 .
- معاني الأخبار - انتشارات اسلامي - قم - 1959 .
- من لا يحضره الفقيه - الاعلمي - بيروت - ط 1 - 1986 .
- \* الصفار رشيد:
- مقدمة تحقيق ديوان الشريف المرتضى - عيسى الحلبي - القاهرة 1958 .
- \* صفوت - أحمد زكي:
- ترجمة الامام علي - بواسطة مصادر نهج البلاغة لعبد الزهراء الحسيني .
- \* ضيف - شوقي:
- الفن ومذاهبه في النثر العربي - دار المعارف - القاهرة - ط 10 - 1983 .
- \* طاش كبرى زادة - أحمد مصطفى (ت 968 هـ):
- مفتاح السعادة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1985 .
- \* أبو طالب المكي - محمد بن علي بن عباس (ت 386 هـ):
- قوت القلوب - صادر - بيروت - د. ت.

- أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون (ت 424 هـ):
- تيسير المطالب في امالي أبي طالب - الاعلمي - بيروت - ط 1 - 1975 .
- \* ابن طاووس - علي بن موسى بن جعفر الحسنيني (ت 664 هـ):
- الملاحم والفتن - الوفاء - بيروت - ط 6 - 1983 .
- \* الطبرسي - أبو منصور أحمد بن علي (ت 620 هـ):
- الاحتجاج - الأعلمي - بيروت - ط 2 - 1983 .
- \* الطبرسي - أبو الفضل علي بن الحسن (ت القرن السابع):
- مشكاة الأنوار - الحيدرية - النجف ط 2 - 1965 .
- \* الطبرسي - أبو علي الفضل بن الحسن (ت 548 هـ):
- جوامع الجامع - الأضواء - بيروت - ط 1 - 1985 .
- مجمع البيان - الحياة - بيروت - ط 1 - 1961 .
- \* الطبري - أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب (ت 649 هـ):
- الرياض النضرة - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى - مكتبة القدسي - القاهرة - 1937 .
- \* الطبري - محمد بن جرير (ت 310 هـ):
- تاريخ الرسل والملوك - المعارف - القاهرة - ط 4 - 1979 .
- جامع البيان في تفسير القرآن - معرفة - بيروت - 1983 .
- \* الطبري الإمامي - محمد بن جرير بن رستم (ت 358 هـ):
- دلائل الإمامة - الأعلمي - بيروت - ط 2 - 1988 .
- \* الطريحي - فخر الدين بن محمد علي (ت 1058 هـ):

- مجمع البحرين - الوفاء - بيروت - ط 2 - 1983 .

\* الطهراني - آغا بزرك:

- الذريعة الى تصانيف الشيعة - الأضواء - بيروت - ط 3 - 1983 .

\* الطوسي - أبو جعفر محمد بن الحسن (ت 460 هـ-):

- أمالي الشيخ الطوسي - الوفاء - بيروت - ط 1 - 1965 .

- تهذيب الأحكام - الأضواء - بيروت - ط 3 - 1985 .

- الفهرست - الوفاء - بيروت - ط 3 - 1983 .

- مصباح المتعجل - عني بنشره وتصحيحه اسماعيل الأنصاري - صورة عن مخطوط.

\* الطوسي - نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن (ت 672 هـ-):

- اخلاق محتشمي - الدار العالمية - بيروت - ط 1 - 1981 .

\* عاقل - فاخر:

- معجم علم النفس الملايين بيروت ط 2 1977 .

\* عاقل نبيه:

- خلافة بني أمية - دار الفكر - بيروت ط 3 - 1975 .

\* عبد الباقي - محمد فؤاد:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - إحياء التراث العربي - بيروت - د. ت.

\* ابن عبد البر - يوسف عبدالله (ت 463 هـ-):

- الاستيعاب بهامش الإصابة - إحياء التراث العربي - بيروت - طبعة مصورة عن الطبعة الأولى - 1328 هـ -- 1910 م .

- بهجة المجالس - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

ص: 769

- جامع بيان العلم وفضله - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- \* عبد الجبار - ابن أحمد قاضي القضاة (ت 415 هـ):
- المغني في أبواب التوحيد سلسلة تراثنا - القاهرة - 1966 .
- \* عبدالرزاق - علي:
- الإسلام وأصول الحكم - الحياة - بيروت - د. ت.
- \* ابن عبد ربه - أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت 327 هـ):
- العقد الفريد - دار الكتاب العربي - بيروت - 1982 .
- \* عبد الكريم - فتحي:
- الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي - وهبة القاهرة - ط 2- 1984 .
- \* عبد المقصود - عبد الفتاح:
- الإمام علي بن أبي طالب - مكتبة العرفان - بيروت - د. ت.
- السقيفة والخلافة - مكتبة غريب - القاهرة - 1977 .
- \* ابو عبيد - القاسم بن سلام الهروي (ت 224 هـ):
- الأموال : دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1- 1986 .
- غريب الحديث - دار الكتاب العربي - بيروت - طبعة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية - ط 1- 1964 .
- \* عتيق - عبد العزيز:
- علم البيان - النهضة العربية - بيروت - 1970 .
- \* ابن العربي - محي الدين أبو بكر محمد بن علي (ت 638 هـ):
- تفسير ابن العربي - الأندلسي - بيروت - ط 2 - 1981 .
- محاضرات الأبرار - صادر - بيروت - د. ت.

\* العرشي - امتياز عليخان:

- استناد نهج البلاغة - مكتبة الثقليين - قم - 1978 .

\* العريض جليل منصور:

- التفجع في شعر الشريف الرضي - أطروحة دكتوراه الحلقة الثالثة بإشراف د .

محمد اليعلاوي كلية الآداب بالجامعة التونسية - 84 - 85 .

\* ابن عساكر - علي بن الحسن (ت 573 هـ):

- ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق - دار التعارف - بيروت - ط 1 - 1975 .

\* عفيفي - فوزي سالم :

- السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين - وكالة المطبوعات - الكويت - 1980 .

\* العقاد - عباس محمود:

عبقرية الإمام علي - العصرية - بيروت - د. ت.

\* ابن العماد الحنبلي - أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ):

- شذرات الذهب - المكتب التجاري - بيروت - د. ت.

\* الغزالي أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ):

- احياء علوم الدين - مصطفى الحلبي - القاهرة - 1939 .

\* ابن فارس - أبو الحسن أحمد (ت 395 هـ):

- الصحابي في فقه اللغة - بدارن للطباعة والنشر - بيروت - 1963 .

- مجمل اللغة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط 2 - 1986 .

\* ابن الفارض - أبو جفص عمر (ت 632):

- ديوانه - صادر بيروت - د. ت.

\* فضل الله - عبدالمحسن:

- نظرية الحكم والادارة في عهد الامام علي عليه السلام للأشتر - التعارف - بيروت - ط 1 - 1983.

\* الفضلي - عبد الهادي:

- الدولة الإسلامية - دار الزهراء - بيروت - ط 1 - 1979 .

\* الفكيكي - توفيق.

- الراعي والرعية - الوفاء - بيروت - ط 3 - 1983 .

\* الفيروز آبادي محمد بن يعقوب (ت 827 هـ):

- القاموس المحيط - بترتيب الزاوي - الدار العربية - ليبيا - ط 3 - 1980 .

\* الفيروز آبادي - مرتضى الحسيني:

فضائل الخمسة في صحاح الستة الاعلمي بيروت ط 4 1982 .

\* القاضي - النعمان:

- الفرق الإسلامية في الشعر العربي - المعارف - القاهرة - 1970 .

\* القالي - أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت 356 هـ):

- الامالي - دار الكتب العملية - بيروت - د. ت.

\* القبانجي - حسن السيد علي:

- شرح رسالة الحقوق - الاضواء - بيروت - ط 2 - 1980 .

\* ابن قتيبة الدينوري - عبد الله بن مسلم (ت 376 هـ):

- أدب الكاتب - صادر - بيروت - 1967 .

- الامامة والسياسة - مصطفى الحلبي - القاهرة - 1969 .

- الشعر والشعراء - دار الثقافة - بيروت - د. ت.

- عيون الأخبار - الهيئة المصرية - القاهرة - 1973 .

\* قدامة بن جعفر (ت 327 هـ):

- نقد النثر - دار الكتب العلمية - بيروت - 1982 .

\* القرشي باقر شريف:

- النظام السياسي في الاسلام - دار التعارف - بيروت - ط 1 - 1982 .

\* القرشي - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (توفي في القرن الخامس):

- جمهرة أشعار العرب - نهضة مصر - القاهرة - 1981 .

\* القرشي يحيى بن آدم (ت 203 هـ):

- كتاب الخراج - المعرفة - بيروت - د. ت.

\* القرطبي - عبد الله بن محمد بن أحمد (ت 671 هـ):

- الجامع لأحكام القرآن - الهيئة المصرية - القاهرة - ط 2 - 1967 .

\* القسطلاني - شهاب الدين - أحمد بن محمد (ت 923 هـ):

- ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري - دار الفكر - بيروت طبعة مصورة عن الطبعة البولافية السادسة 1304 هـ - 1886 م .

\* القضاعي - القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة (ت 454 هـ):

- دستور معالم الحكم - دار الكتاب العربي - بيروت - 1981 .

\* القلقشندي - أحمد بن عبد الله ( 820 هـ):

- مآثر الانافة في معالم الخلافة - عالم الكتب - بيروت - د. ت.

- نهاية الارب في معرفة انساب العرب - البيان - بغداد - 1958 .

\* القمي - عباس:

- الكنى واللقاب - انتشارات بيدار - قم - 1938 .



\* القمي - علي بن ابراهيم (ت 307 هـ):

- تفسير القمي - مكتبة الهدى - النجف الاشرف - 1958 .

\* ابن قيم الجوزية - شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت 751 هـ):

- أحكام أهل الذمة - العلم للملايين - بيروت - ط 2 - 1981 .

\* كاشف الغطاء - محمد حسين:

- المراجعات الريحانية - بواسطة مصادر نهج البلاغة - عبد الزهراء الحسيني - الأعلمي بيروت - ط 2 - 1975 .

\* كاشف الغطاء - الهادي :

- تأسيس ميثاق الأخلاق الهيئة المصرية - القاهرة - ط 2 - 1980 .

\* الكتبي - محمد بن شاکر (ت 764 هـ):

- فوات الوفيات - صادر - بيروت - 1973 .

\* ابن كثير - أبو الفداء اسماعيل القرشي (ت 774 هـ):

- تفسير القرآن العظيم - مكتبة الهلال - بيروت - ط 10 - 1986 \* كحالة - عمر رضا:

- معجم قبائل العرب - الرسالة - بيروت - ط 5 - 1985 .

\* الكراجكي - أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان (ت 449 هـ):

- كنز الفوائد - دار الاضواء - بيروت - 1985 .

\* كرد علي - محمد :

- رسائل البلغاء - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط 3 - 1946 .

\* الكفري - أبو البقاء ايوب بن موسى (ت 1094 هـ):

- الكليات - وزارة الثقافة - دمشق - ط 2 - 1982 .

ص: 774

\* الكلاباذي أبو بكر محمد (ت 380 هـ):

- التعريف بمذاهب أهل التصوف - الكتب العلمية - بيروت - 1980 .

\* الكليني - أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت 329 هـ):

- الكافي (الاصول والفروع والروضة) - دار صعب - بيروت - ط 4- 1980 .

\* الكنجي - الحافظ محمد بن يوسف (ت 658 هـ):

- كفاية الطالب في مناقب علي بن ابي طالب عليه السلام - دار احياء تراث آل البيت - طهران - ط 3- 1983 .

\* الكوفي - سليم بن قيس (ت 90 هـ):

- كتاب سليم بن قيس الاعلمي - بيروت - د. ت.

\* الكوهكمري - عبداللطيف:

- مقدمة تحقيق منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - لسعيد بن هبة الله الراوندي - مكتبة المرعشي - قم - 1985 .

\* كيلاني - محمد سيد:

- أثر التشيع في الادب العربي - الفكر العربي - القاهرة - د. ت.

\* ليلي - وليام:

- المدخل على علم الأخلاق دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - 1985 .

\* ابن ماجة - الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت 275 هـ):

- سنن ابن ماجة - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

8 ماسينيون - لويس:

- خطط الكوفة - مطبعة العرفان - صيدا - 1939 .

\* الماوردي - علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ):

ص: 775

- الأحكام السلطانية - دار الفكر - القاهرة - ط 1 - 1983 .
- أدب الدنيا والدين - دار قرا - بيروت - ط 1 - 1981 .
- اعلام النبوة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1986 .
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر - النهضة العربية - بيروت - ط 1 - 1981 .
- \* ماكيفر - روبرت م:
- تكوين الدولة - العلم للملايين - بيروت - 1966 .
- \* مبارك زكي:
- عبقرية الشريف الرضي - العصرية - بيروت - د. ت.
- النثر الفني في القرن الرابع - الجيل بيروت - 1975 .
- \* ابن المبارك - عبد الله المروزي (ت 181 هـ):
- كتاب الزهد - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- \* المبرد - محمد بن يزيد (ت 285 هـ):
- الكامل في الادب - نهضة مصر - القاهرة - د. ت.
- المقتضب - المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - 1968 .
- \* المتقي الهندي - علاء الدين بن حسام الدين (ت 975 هـ):
- كنز العمال - الرسالة - بيروت - ط 5 - 1988 .
- \* المجذوب - البشير :
- حول مفهوم النثر الفني - الدار العربية للكتاب - تونس - 1982 .
- \* المجلسي محمد باقر:
- بحار الانوار - الوفاء - بيروت - ط 2 - 1983 .

\* محبوبة - مهدي:

ملاح من عبقرية الامام دار الكتاب العربي بيروت ط 2 1979 .

\* محمود زكي نجيب:

- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - دار الشروق - القاهرة د. ت.

\* محي الدين - خالد:

- الدين والاشتراكية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - د. ت.

\* المدائني - علي بن محمد بن عبد الله (ت 245 هـ):

- صفين - بواسطة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

\* مرتضى - بسام:

- فلسفات اسلامية - الكتاب الإسلامي - بيروت - 1980 .

\* المرتضى - الشريف علي بن الحسين بن موسى (ت 436 هـ):

- أمالي المرتضى - دار الكتاب العربي بيروت - ط 2 - 1967 .

- رسائل الشريف المرتضى - مؤسسة النور - بيروت - د. ت.

\* مرسي سيد عبد الحميد:

- النفس البشرية - وهبة - القاهرة - ط 1 - 1988 .

\* ابن مزاحم المنقري - أبو الفضل نصر (ت 212 هـ):

- وقعة صفين - الخانجي - القاهرة - ط 3 - 1981 .

\* مسكويه - أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421 هـ):

- تهذيب الأخلاق الحياة - بيروت - ط 2 - د. ت.

- الحكمة الخالدة - الاندلس - بيروت - ط 3 - 1983 .

- \* المسعودي - أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346 هـ):
- اثبات الوصية - منشورات الرضي - قم - صورة من طبعة النجف - ط 2- 1983 .
  - مروج الذهب - مطبعة السعادة - القاهرة - ط 4- 1964 .
- \* المطهر الحلي - الحسن بن يوسف (ت 726 هـ):
- الالفين - الاعلمي - بيروت - ط 3- 1982 .
  - نهج الحق وكشف الصدق - الكتاب اللبناني - بيروت - 1982 .
- \* ابن المعتز - عبد الله (ت 296 هـ):
- كتبا البديع - دار المسيرة - بيروت - ط 3- 1982 .
- \* مغنية - محمد جواد:
- التفسير الكاشف - العلم للملايين - ط 1 - 1968 .
  - الشيعة والحاكمون - دار الجواد - بيروت - ط 5- 1981 .
  - الفقه على المذاهب الخمسة - دار الجواد بيروت - ط 7 - 1982 . فلسفة الأخلاق في الاسلام العلم للملايين ط 1 1977 .
- \* المفيد - محمد بن محمد بن النعمان (ت 413 هـ):
- الاختصاص - الاعلمي - بيروت - 1982 .
  - الارشاد - الاعلمي - بيروت - ط 3 - 1979 .
  - الامالي - التيار الجديد - بيروت - د. ت.
  - الجمل - مكتبة الدواري - قم د. ت.
- \* المقدسي - يوسف بن يحيى بن علي (من علماء القرن التاسع الهجري):
- عقد الدرر في أخبار المنتظر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1983 .

\* المقريزي - أبو العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ):

- خطط المقريزي - صادر - بيروت - د. ت.

\* ابن المقفع عبد الله (ت 142 هـ):

- الأدب الكبير - دار صادر - بيروت - د. ت.

\* مناصرة - عبد الله علي :

- الاستخبارات العسكرية في الاسلام - الرسالة - بيروت - ط 1 - 1987 .

\* ابن منظور - محمد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ):

- لسان العرب المحيط - اعداد وتصنيف يوسف خياط - دار لسان العرب - بيروت - د. ت.

\* ابن منقذ - أسامة بن مرشد بن علي - (ت 584 هـ):

- لباب الادب دار الكتب العلمية - بيروت - 1980 .

\* المودودي أبو الاعلى :

\* الحكومة الإسلامية - المختار الإسلامي - القاهرة ت 1980 .

\* موسى محمد يوسف :

- القرآن والفلسفة - المعارف - القاهرة - ط 4 - 1982 .

\* مؤسسة آل البيت :

- مجلة تراثنا - العدد 5 - السنة الأولى - بيروت - 1406 - 1985 .

\* الميداني - أبو الفضل أحمد بن محمد (ت 518 هـ):

- مجمع الامثال - دار الجيل - بيروت - ط 2 - 1987 .

\* النجار - محمد الطيب:

- علي بن أبي طالب عليه السلام نظرة عصرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر -

بيروت - ط 3 - 1980 .

\* ابن النديم - محمد بن أبي يعقوب الوراق (ت 370 هـ):

- الفهرست - تحقيق الرضا تجدد - 1971 .

\* النسائي - أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب (ت 303 هـ):

- سنن النسائي - احياء التراث العربي - بيروت - د. ت.

\* النص احسان :

- الخطابة العربية في عصرها الذهبي - المعارف - القاهرة - ط 2- 1969 .

- العصية القبلية - اليقظة العربية - بيروت - 1963 .

\* النعمان بن محمد القاضي (ت 363 هـ):

- دعائم الاسلام - المعارف - القاهرة - ط 3 - 1985 .

\* نعمة - عبد الله :

- مصادر نهج البلاغة - مطابع دار الهدى بيروت - 1972 .

\* أبو نعيم الحافظ - أحمد بن عبد الله الاصفهاني (ت 430 هـ):

- حلية الأولياء - دار الفكر - بيروت - د. ت.

\* هارون محمد عبد السلام .

- مقدمة تحقيق كتاب صفين لابن مزاحم - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 3 - 1981 .

\* ابن هذيل - أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ( من أعيان القرن الثامن الهجري):

- عين الادب والسياسة - دار الكتب العلمية - بيروت - 1981 .

\* ابن هشام - عبد الملك الحميري - (ت 218 هـ):

- السيرة النبوية - حياة التراث العربي - بيروت - د. ت.

ص: 780

\* أبو هلال العسكري - الحسن بن عبد الله ( كان حيا 395 هـ-):

- الاوائل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1987 .

- جمهرة الامثال - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1988 .

- كتاب الصناعتين - العصرية - بيروت - 1986 .

\* الهلالي - ابراهيم بن محمد ( ت 283 هـ-):

- الغارات - بواسطة شرح ابن أبي الحديد.

\* الهمداني - أبو بكر أحمد بن محمد (ت - أواخر القرن الثالث):

- مختصر كتاب البلدان - المثنى - بغداد - صورة عن طبعة ليدن 1884 .

\* الهمداني - عبد الرحمن بن عيسى الكاتب (ت 320 هـ-):

- الألفاظ الكتابية - دار الكتاب العربي بيروت ط 1 - 1986 .

\* الهيثمي - نور الدين علي بن أبي بكر (ت 807 هـ-):

- مجمع الزوائد - مؤسسة المعارف - بيروت - 1986 .

\* الوائلي أحمد:

علي بن أبي طالب عليه السلام - نظرة عصرية جديدة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط 2 - 1980 .

\* الواقدي - أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 207 هـ-):

- فتوح الشام - الجيل - بيروت - د. ت.

\* الوطواط - رشيد الدين محمد بن محمد البلخي (ت 573 هـ-):

- مطلوب كل من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

- جلال الدين أرموي - طهران - 1962 .

\* وكيع - القضاة محمد بن خلف بن حيان (ت 306 هـ-):

ص: 781



- اخبار القضاة - عالم الكتب - بيروت د. ت.

\* اليافعي - عبد الله بن أسعد (ت 768 هـ):

- مرآة الجنان ج- 1 - الرسالة بيروت - ط 1 - 1984 .

\* اليعقوبي - ابن واضح أحمد بن أبي يعقوب (ت 284 هـ):

- تاريخ اليعقوبي - دار صادر - بيروت - د. ت.

\* اليماني - يحيى بن حمزة العلوي (ت 745 هـ):

- الطراز - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

\* أبو يوسف - يعقوب إبراهيم (ت 182 هـ):

- كتاب الخراج - دار المعرفة - بيروت - د. ت.

ص: 782

## المحتويات

مقدمة المؤسسة ... 5

المقدمة ... 7

الباب الأول

نهج البلاغة

توثيق نهج البلاغة ... 25

القسم الثاني ... 107

منهج الشريف الرضي في تصنيفه ... 121

قيمة نهج البلاغة ... 127

الباب الثاني

فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة الفصل الأول: مفهوم الإمامة في فكر علي عليه السلام ... 135

الفصل الثاني: فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ماجريات السياسة في عصره ... 195

المرحلة الثانية سياسة الامام علي عليه السلام أثناء خلافته ... 239

الفصل الثالث: مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية في فكر الامام علي بن أبي طالب عليه السلام بين الدولة والحكومة والسياسة ... 297

مؤسسات الدولة في فكر الامام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة ... 311

ص: 783

## الباب الثالث

فكر علي عليه السلام الاجت اعني ك ا يبدوي نهج البلاغة

الفصل الأول: المجتمع وحالته في فكر علي عليه السلام ... 361

الفصل الثاني: القيم الخلقية كما تبدو في فكر علي عليه السلام ... 407

الفصل الثالث: التربية في فكر علي بن أبي طالب كمات تبدو في نهج البلاغة التربية ومراميها الأساسية ... 459

## الباب الرابع

القضايا الكلامية والتأملات الكونية ك ا تبدوي نهج البلاغة

الفصل الأول: القضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة الخالق - الملائكة

الرسل الإنسان ... 505

الفصل الثاني: التأمل وتداعي الأفكار، والغيبيات، كما تبدو في فكر علي عليه السلام ... 533

الفصل الثالث: نظرة علي عليه السلام الى الحياة كما تبدو في نهج البلاغة ... 561

## الباب الخامس

الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة

الفصل الأول: الأنواع الأدبية في النهج وخصائصها التعبيرية ... 603

الفصل الثاني: أبرز خصائص النهج الأسلوبية ... 661

الفصل الثالث: أبرز الخصائص الفنية في نهج البلاغة ... 701

الخاتمة ... 743

المحتويات ... 751

ص: 784

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟  
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟  
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميالت:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى : (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر أباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021\_88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
اصبحان  
الغمامة



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

